إدارة الأزمة و الصراع
فى
القيادة السياسية العربية

العمل السياسي تحقيق رغبة



الدكتور

عبد المعطي سويد



دار الكتب والدراسات العربية

إدارة الأزمة والصراع

في القيادة السياسية العربية

(العمل السياسي تحقيق رغبة)

إدارة الأزمة والصراع
في القيادة السياسية العربية
(العمل السياسي تحقيق رغبة)

الدكتور
عبد المعطي سويد

2021



دار الكتب والوثائق القومية	
عنوان المصنف	**إدارة الأزمة والصراع في القيادة السياسية العربية (العمل السياسي تحقيق رغبة)**
اسم المؤلف	**د. عبدا لمعطي سويد**
اسم الناشر	دار الكتب والدراسات العربية
رقم الإيداع	**2020/ 13156**
الترقيم الدولي	**978-977-826-529-3**
تاريخ الطبعة	سبتمبر 2020

تقديم عام

تبدو الأزمات والصراعات الداخلية والخارجية في أقطار الوطن العربي كما لو كانت استنساخاً لمركب واحد يتكرر في الواقع، وفي أكثر من بلد،وكأن قدراً تاريخياً سجل آثاره الأبدية في السيكولوجية العربية والإسلامية في توكيد الأزمات والصراعات، مفسحاً المجال أمام قوى العالم المؤثرة لاستثمارها في المستوى الخارجي فتنشب الصراعات بين العرب (على المستوى الداخلي)، سرعان ما تخترق ليتحول الأمر إلى صراع، واقتتال واحتكام إلى العنف والقوة وتساء إدارة الأمور، ولعل الخيط الناظم أو العمود الفقري – في معالجة القيادة السياسية – لهذه الأزمات والصراعات هو: فشل اللاعبين المتصارعين في الساحة العربية خاصة، في الاحتفاظ بالحد الأدنى للتعايش، والوفاق وضعف إدراكهم للمصلحة العليا للوطن وشعوبه العربية، وعدم القبول بالمشاركة والتعددية في: الفكر والحياة وتنتج عن هذا الفشل الكوارث لتطل وتؤثر في القيادات السياسية نفسها، وبأفراد الأمة، وتترك آثارها الجانبية حيناً من الدهر.

ولكن الأزمات الخانقة، والصراعات الاجتماعية والسياسية في كل مكان من وطننا العربي يجب ألا تدفعنا إلى الاستغراق بالتشاؤم، فالانفجارات التي تحصل بين الحين والآخر، وشهودنا للمنطقة العربية على أنها تشكل مناطق انهيارات يدفعنا كل ذلك للتأمل، ووقفة مع النفس لنجد سبل الخلاص والخروج من المأزق لبقائنا على قيد الحياة.

لقد فكرت، ورغبت، وتمنت بعض التيارات السياسية في الغرب، وعبرت عن ذلك إعلامياً: لو أن العالم العربي يختفي من الوجود[*] لتسببه حسب زعمها، للأزمات الدولية،

---

[*] كتب (غراهام فوللر) مساعد سابق لرئيس الاستخبارات الأمريكية، والبرفسور حالياً في التاريخ في جامعة فريز، في (فانكوفر) ومؤلف العديد من الكتب عن الشرق الأوسط، مقالاً تحت عنوان: (العالم بدون الإسلام) وهو عنوان يوحي بافتراضه الخيالي بمقاربة مع ما سبق أن ذكرنا أعلاه.
يقول صاحب المقال: – قد يتوق البعض في هذه الأيام لرؤية عالم بدون الإسلام، ولكن في الحقيقة، أن النزاعات، والعداوات، والمشكلات في عالمنا المعاصر لن تكون مختلفة كثيراً عما نراه بوجود الإسلام، أي ليس بالضرورة خلو العالم من المشكلات لو لم يكن الإسلام موجوداً. (المقال مسحوب من شبكة الانترنت الدولية من موقع قناة العربية الفضائية الإخبارية بتاريخ 2008/12/15م وعلى أثر الحرب على (غزة) من قبل الجيش الإسرائيلي في 2008/12/27م كتب الأستاذ (سعد محيو) في جريدة الخليج (الشارقة) – الإمارات العربية المتحدة – بتاريخ 2009/1/9م، مقالاً يدخل في سياق الفكر المذكورة،

والصراعات بين الدول الكبرى وغيرها وخلقه المشكلات في عالمنا المعاصر، مما يجعل هذه الدول تتدافع وتتنافس فيما بينها وتجعل المنطقة ساحة صراع عالمية وتتسابق للسيطرة على:

1- الموارد الأولية (العامل الاقتصادي).

2- اندفاع وتحقيق مطمح إسرائيل(**) للسيطرة الكاملة على المنطقة وتجعل نفسها مركز القرار الإقليمي أو على أقل تقدير تحقيق أمنها وسلامتها ومصالحها (السياسية والاقتصادية) وجعل هذه الدولة متفوقة، كقوة ضارب، على كافة دول المنطقة مجتمعة.

3- السيطرة من قبل الدول الكبرى على موقع الوطن العربي الإستراتيجي للإمساك بأحد المفاتيح المهمة لخريطة العالم.

4- الموقع الثقافي (الحضارات القديمة)، والموقع الديني (مهبط الأديان الثلاثة).

لقد بلغ حجم الدور الخارجي في معالجات أزماتنا، وأحياناً تأجيج صراعاتنا، مبلغاً خطيراً، ومع كل ذلك، فلا بد لنا من أن ننظر إلى الأمام بعيون متفائلة لأن شعوبنا بخبراتها التاريخية، ومخزونها الحضاري، وأنماط تفكيرها السياسي الذي تجلى في التاريخ الماضي، وقد كانت مبدعة في إطارها التاريخي، ذلك ما يدفعنا إلى استخلاص ما هو معقول فيها، نستأنس به في تجربتنا المعاصرة، مع عدم إهمالنا لما نكتسبه من المنجزات الفكرية للحضارة المعاصرة.

ومما يهدف إليه هذا الكتاب لفت انتباه الوعي العربي السياسي على مستوى القيادات والمنظمات، والهيئات والأحزاب إلى أن الأزمات السياسية المتلاحقة وحتى الصراعات، وكثرتها التي مرت بها المنطقة العربية في عصرنا الراهن وحده، وليست نتاج

=تحت عنوان: هل شطب العرب من التاريخ؟ وذلك في معرض حديثه عن تفكك النظام الإقليمي العربي، ودخول عناصر إقليمية غير عربية (إيران – تركيا) لترث هذا النظام المفكك.

كنا فصلنا هذه النقطة حول (استبعاد العنصر العربي من القيادة السياسية العربية) في نهايات تاريخ الحضارة العربية الإسلامية – في التاريخ السياسي.

(**) إن إسرائيل دولة مصطنعة، وبعبارة ثانية إنها: فكرة (الصهيونية) ثم أصبحت دولة – وبعبارة ثالثة: إنها فكرة (الصهيونية)... وعد بلفور... دولة إسرائيل.

لحظاتها الآنية المنعزلة، وإنما هي أعراض لتراكم واقع ذاتي[2] وخصوصي عربي، وخاصة بالسيكولوجية العربية – الإسلامية، وكذلك ارتباط هذه العوامل الخاصة وتداخل هذه وتلك في تكوين شخصيتنا الأزموية – الصراعية، وخاصة في جانبها الوجداني وهو متوارث ممتد في ماضينا السياسي.

إن تضافر العوامل الخاصة، والعوامل الموضوعية، وأحياناً تغلب الأولى، والتي سنشير إليها في تضاعيف هذا العمل، يعمل على تفجير الأزمات، ويعيق إدارتها وكذلك إدارة الصراع الخارجي، إنها تحكم عمل قياداتنا السياسية من حيث علمت أم لم تعلم.

إن الاختلافات، والخلافات الجزئية، والآنية، والمواقف الظرفية المرتبطة بمتطلبات الحياة الدنيا – المباشرة – أو العاجلة بحسب التعبير القرآني الكريم، وعدم إمكاننا معالجة الأزمات والصراعات من الجذور – أي اتخاذ القرارات العليا من قبل القيادات السياسية، بمشاركة الشعب، لحسم الأمور لصالح المصلحة العليا، كل ذلك يجعلنا عاجزين عن السير قدماً لتحقيق الحياة الكريمة والاحتفاظ بكرامتنا، وتحقيق قيمنا العليا التي جسدها تاريخنا الحضاري.

لم يعز مثقفونا، وباحثونا، ودارسونا، وأكاديميونا العرب وفي كل الأقطار الوطن العربي تشخيص الواقع العربي، ومشكلاته، وكذلك وضع التصورات والحلول لأزماته، ومكتباتنا العربية عامرة بالكتب والدراسات الجادة في الموضوع، إلا أن المشكلة ؟؟؟ هي في عدم وقوف قياداتنا السياسية على الإنجازات الفكرية والثقافية في التشخيص والتصور، والاقتراحات للحلول، وكذلك فقدان الحد الأدنى من التوافق بين القيادات السياسية العليا، وفقدان تصميمها على صناعة قرارات تعمل على تنفيذها لصالح شعوبها، على الصعيد الوطني، والقومي، والديني.

فالأزمات الواقعة في أقطارنا العربية، وتعرض الكثير منها إلى الصراعات الداخلية والخارجية ظواهر لا تنقصها الدلائل، ولا تحتاج إلى البراهين إنها في مستوى البداهة الكاملة، إن تعاملنا مع الأزمات باحتكامنا إلى العنف والقوة، وتفجير الصراعات العنيفة، وأحياناً الاقتتال، خير تعبير عن هذا الموروث التاريخي السياسي العربي الذي كان مغموراً بالانفجارات الصراعية منذ مقتل ثلاثة خلفاء من أصل أربعة راشدين،غيلة، وخاصة منذ

تفجر الصراع الشديد في أخريات العهد الراشدي، حيث ضرب عرض الحائط أمام النموذج النبوي الشريف والخليفي وضياع تأثيره ليعمل عمله في القيادات اللاحقة، فغابت المرجعية القرآنية الداعية إلى السلم والحوار، ولم يسر أطراف الصراع إلى (كلمة سواء) إلا بغاية العودة ثانية وثالثة إلى نقطة البداية وهي التصارع، وكأن السير نحو كلمة سواء المزعوم، كان هدنة، وتأجيلاً أو استعداداً لصراع آخر.

لم يكن التسامح مع المعارضة من قبل السلطة، ولم تكن المعارضة لاجئة إلى المداولة السلمية مع السلطة شأنها، وكان كل طرف منهما يدعي الشرعية.

والواقع لا نستطيع حصر الأزمات، والصراعات، ومسبباتها وإداراتها، ومعالجاتها العقيمة في يد السلطة السياسية وحدها، وإنما نعتبر شعوبنا العربية في غالبيتها المطلقة، بوقوفها السلبي، والمتفرج مسؤولة إلى حد ما عن الإدارة اللامعقولة للأزمات والصراعات.

تناول الباحث في القسم الأول (الفصل الأول) من الكتاب الأول فكرة التنظيم الاجتماعي الإنساني وحاجته إلى إدارة شؤون حياته، ومن ثم إلى قيادة تدير أزماته وصراعاته الطارئة والناشئة، وفي (الفصل الثاني) القيادة السياسية وإدارة الأزمات، وفي (الفصل الثالث) الإدارة بالأزمة، ثم يعرض الكاتب في القسم الثاني عناصر نظرية (أو فرضياته) في (الفصل الرابع) التي سيعمد طوال البحث عرض إثباتاتها، وباعتبار أن النظرية في العلوم الإنسانية تختلف في بنيتها عن تلك التي يصنعها علماء الطبيعة، أو العلوم البحتة عموماً، فإن زعم نظرية هنا يمكن أن يظهر لأي قارئ للكتاب بأن لديه نظرية مضادة، وأن لديه وجهة نظر مدعمة ومثبتة وتقوى على الوقوف، وبشكل أفضل مما عرضه الباحث هنا، كذلك لا يجد الباحث هنا أي مبرر لإعطاء نظريته صفة القانون الرياضي، أو الكيميائي أو الفيزيائي بقدر ما يود أن يعطي وجهة نظر تتضمن صفة الرجحان؛ لاحتوائها على أدلة تاريخية مثبتة قد تضاهي غيرها من وجهات النظر الأخرى، وهو ما يأمله الباحث في نهاية المطاف.

لقد لاحظ الباحث أول ما لاحظه في سيرة البحوث التاريخية خاصة، وفي التاريخ السياسي العربي والإسلامي، أن السلوك السياسي السائد: رسمياً وشعبياً، تغلب عليه المواجهات المتطرفة، والتعامل مع الواقع السياسي، وتعقيداته بالعيون المبالغة المتشددة،

والتي لا تخلو من انفعالية، والانتقال الغريب من النقيض إلى النقيض، أو ما يسمى في علم النفس بالتناقض الوجداني Ambivalence [3]، وبلغة أخرى اللامعقولية بعينها، ولعل هذه الظاهرة الأخيرة لا تميز العرب والمسلمين عن غيرهم فيها، بل هي ظاهرة إنسانية عامة، إذ أنها تعود إلى منطق قديم وثنائي يتحرك ضمن الحياة الوجدانية العاطفية للكائن البشري، أعني الانتقال في السلوك وأحياناً في الفكر من النقيض إلى النقيض، وهي صورة عن المركب لثنائي الذي يعبر عنه بلغتنا اليومية: إما هذا أو ذاك، أو في سياستنا: من لم يكن معي فهو ضدي، وهي ليست خصوصية عربية لحسن الحظ، هذا فيما يتعلق بأحد العوامل الخاصة التي أشرنا إليها في بحثنا الحالي في (الفصل الرابع) وهو ينعكس في السلوك السياسي وهو يدير الأزمة والصراع، ويتصف أحياناً بالنظر إلى معالجة الأزمة أو الصراع من منظور أحادي، وهذه النظرة تبعدنا عن التفكير العلمي الذي يقتضي منا النظر إلى الأزمة من مختلف الأبعاد، وننظر إليها من مختلف الوجوه، ونرى فيها أكثر من سبب، أو علة واحدة، فالشؤون الإنسانية أعقد من أن ننظر إليها نظرية أحادية الجانب، وإلا ينقلب نظرنا إلى التطرف، أما العوامل الأخرى، وهي عديدة جئنا على ذكرها في الفصل الرابع، وهذه العوامل أعني بها: الذاتية والفردية، وإيثار مطالب الحياة العاجلة عن كل ما عداها، كذلك دور اللاشعور الفردي والجمعي السياسي.

وتغيراتهما في سلوك القيادة، وسلوك الجماعة، ولا أجد مبرراً لتفصيل ذلك في هذه المقدمة.

أما الآثار الجانبية التي ذكرتها، بالإضافة إلى العوامل الخاصة، فأعني بها المواقف الموروثة تاريخياً، والتي لعبت دورها في سلوكنا السياسي: السلطة والمعارضة على حد سواء، كالمواقف العصبية والقبلية، أو المذهبية والعرقية، والتي أثرت في الماضي ولا تزال تؤثر في أسلوب معالجتنا للأزمات والصراعات.

لقد سجلنا تاريخياً، الآثار التي لا يستهان بها لهذه العوامل مجتمعة، في حدث سياسي أزموي أو يجتمع بعضها فيه، وحيث لم يعد في الماضي الإسلام هو المحرك الأول للقيادة السياسية منذ (الفتنة الكبرى) تحديداً، ولم تعد القيادات السياسية ولا التيارات السياسية قادرة على التقيد بالمرجعية الشرعية الإسلامية، ولا بالمرجعية العقلية (المدنية) حسب مقتضيات السياسة العقلية والتي سيشير إليها (ابن خلدون) بعد قرون،

لقد اقتصرت أنماط الحكم والقيادات السياسية على (دستور) الخليفة – السلطان – الملك – الأمير – الشخصي – الصادر من شخصيته كحاكم، ومن تأثير القوى الضاغطة حوله و(البطانة)، بمطالبها ومعالجاتها الضاغطة.

ولا ننسى في هذا المجال دور الشعوب الذي كان دوراً عظيماً في مواجهة الأزمات الخارجية، والذي تجلى في مواجهة الظاهرة الاستعمارية الأوربية، وإدارة الأزمة والصراع بحركات الشعوب (الفطرية)، وكذلك إدارتها للظاهرة الصهيونية – (الثورات الشعبية – والتمردات، والانتفاضات الشعبية في مواجهة العدو الخارجي).

ولكن يغلب على شعوبنا، والرعية في التاريخ العربي السياسي – الاستكانة والسلبية – التفرج في مواجهة أو إدارة الأزمة في: استبداد السلطة وسوء إدارتها للأمور من ضمنها الأزمات والصراعات.

أما (الفصل الخامس) من القسم الثاني فقد عالج الباحث أساليب إدارة الأزمة في العهدين: النبوي الشريف والراشدي – مع توقف عند إدارة الشيخين (أبو بكر وعمر) للأزمات، وفي (الفصل السادس) من (القسم الثالث) عرض المؤلف سلوك إدارة الأزمة في العهد الأموي، وفي (الفصل السابع) تابع الباحث عرضه التاريخي لإدارة الأزمة في العصر العباسي الأول، وكان الفصل السابع مخصصاً لعرض الأسلوب العباسي في العصر العباسي الثاني، حيث بدأت القيادة العربية السياسية الانسحاب من سلطة القرار وإدارة الأزمات، وبداية تغلغل العنصر غير العربي في القيادة السياسية.

لقد عرج الباحث نحو الجانب الفكري السني والشيعي لإدارة الأزمة. أما في (القسم الرابع) فقد انتقل البحث تاريخياً إلى معالجة المسألة في كتابات: أهل السنة، والشيعة، والكتابات السلطانية، والفلسفية الإسلامية، وهو عنوان (الفصل السابع، والثامن، والتاسع، والعاشر).

في (القسم الخامس) عرض الكاتب التجليات الحديثة لإدارة الأزمات لدى القيادة السياسية العربية الجديدة، وذلك في الفصل (الحادي عشر، والثاني عشر، والثالث عشر، والرابع عشر) حيث تمت مناقشة إدارة الأزمة من خلال الظاهرة الاستعمارية في العصور الحديثة، وقدم الباحث عرضه لموضوع إدارة الأزمة في بعض الحالات المعاصرة.

وبالنسبة (للكتاب الثاني) ويدور حول (إدارة الصراع) فقد قام الباحث في (الفصل الخامس عشر) عرضاً موجزاً لتاريخ التنظير للصراع في (الفصل السادس عشر) طرح الباحث سؤالاً حول كون الصراع علماً أم لا؟ أما في (الفصل السابع عشر) عن إدارة الصراع في العهد النبوي. وتناول (الفصل الثامن عشر) إدارة الصراع في العهد الراشدي، عهد الشيخين. أما في (الفصل التاسع عشر) فقد كان محوره إدارة الصراع في العصر الأموي، ثم العصر العباسي (الفصل العشرون).

ولعل الضرورة التاريخية ستضطرنا إلى التطرق إلى مراحل التاريخ السياسي العربي الإسلامي كافة، فكان القسم الثامن (الفصل الحادي والعشرون) حول إدارة الصراع في العصر الاستعماري الإمبريالي في الوطن العربي، وهنا تولي المستعمرون إدارة مستعمراتهم بشكل مباشر أو بواسطة من عمل معهم داخل المستعمرات ولكن صورة إدارة الصراع في هذا الفصل تدور حول مقاومة الشعوب العربية عبر منظماتها وحركاتها: سواء الدينية أو غير الدينية، تدير صراعها ضد (التغلغل الإمبريالي).

لقد فصلنا بعض الشيء مسألة الصراع وفي تجلياتها في المرحلة الحديثة منا أو المعاصرة لنا في (الفصل الثاني والعشرون)، فقد انصب حول دراسة بعض الحالات الصراعية المعاصرة وأسلوب إدارتها: الداخلية والخارجية، وفيها مواقف وتصورات إدارة الصراع في أشهر التيارات السياسية العربية والإسلامية.

وأخيراً عمدنا في خاتمة المطاف إلى مناقشة ثانية لفرضيات الدراسة وتحت عنوان: مناقشة نقدية لمجمل الفصول الواردة. أما (الفصل الثالث والعشرون) فكان حول إدارة الصراعات الخارجية، و(الفصل الرابع والعشرون) الإدارة الأمريكية للصراع العربي الإسرائيلي، و(الفصل الخامس والعشرون) فكان مناقشة نقدي، وخاتمة.

خلاصة تنفيذية

1- خلفية البحث:

بدأت فكرة هذا الكتاب كما أذكر مساء اليوم الخامس من يونيو عام (1967) أي بداية الهزيمة الكبرى التي عاشها الباحث في فكره، وضميره وكذلك كفرد من أفراد هذه الأمة لقد هاله هذا الحدث، ودفعه بعد أن أحس بوطأته الشديدة على عقله – وهو طالب جامعي يتلقى العلم – فقد اهتز وارتج عقله من جراء الحدث وما فتئ منذ ذلك التاريخ، وبين حين وآخر يطرح الباحث على نفسه السؤال ومفاده ما هي أسباب الهزيمة وكيف عالجت القيادات السياسية العربية ذلك الصراع: (الصراع العربي الإسرائيلي).

وقد غاب عن الباحث هذا السؤال بعد ذلك الوقت، وذهب إلى فرنسا في بداية سبعينات القرن الماضي ليستكمل دراسته العليا.

ثم عاد بعد أن حصل على شهادته وعادت الفكرة القديمة (أو فكرة السؤال) تراوده، خاصة وأنه شاهد كغيره من أفراد الأمة الواقع العربي، وما ينتج من أزمات، وما تعتريه من نكبات، وما يتعرض له من كوارث (سياسية). ومن تحديات وصراعات، وهو واقع ألح عليه بأن يطرح السؤال من جديد، أو يستنسخ بدوره السؤال، ثانية خاصة، وأن إنتاج الواقع العربي لأزماته، ومعاناته للصراعات قد استفحلا بعد ذلك التاريخ وسواء على صعيد الحروب الداخلية والنزاعات الأهلية، أو الصراعات العربية العربية، أم على صعيد الصراعات ضد أعداء خارجيين.

عندئذ قرر العودة إلى التاريخ السياسي العربي للوقوف على طبيعة معالجة القيادات السياسية في تراثنا السياسي للأزمات والصراعات، وبالتالي الاستضاءة بهذه الطرق، والنظر من ناحية ثانية إلى طرائق القيادات العربية الحديثة المعاصرة، وقد وجد ضالته في أهم ما تطرحه الحياة السياسية المعاصرة من مشكلات، وطرق معالجاتها وما تدعوه: بإدارة الأزمات والصراعات، ووجد صلة عميقة بين طرق المعالجة لدى مفكرينا السياسيين القدامى والإدارة وبين قادتنا المحدثين فعقد العزم على تصور مشروع لكتاب يعالج الموضوع، وجد من خلال قراءاته ومصادره أن محور معالجة (المحن، والنكبات، والمشكلات والصراعات) محور عظيم الشأن، ولم تخل كتب التراث العربي الإسلامي من معالجته نظرياً وسلوكياً.

لقد رأى في تراثات الأقدمين، ومنذ العهدين (النبوي والراشدي) في تاريخ الإسلام، وفي العصور التالية، أي العصر الأموي العباسي، وفي كتابات أهل السنة والشيعة والفلاسفة في الإسلام، وأدبيات الأحكام السلطانية وآدابها، وفي عصر النهضة العربية وصولاً إلى مفكرينا العرب المحدثين الأجلاء، وما يلبي رغبة الباحثين العرب في إجراء حفريات كثيرة معرفية في التاريخ السياسي، والعمل السياسي.

أراد الباحث أن ينقب عن عوامل أخرى غير العوامل الموضوعية التي يعالجها الباحثون والدارسون العرب وغيرهم، كالعامل الجغرافي والاقتصادي، والبشري، أو الديموغرافي، وهم يحللون أسباب الأزمات والصراعات أو معالجتها، فوجد أن عوامل من طبيعة خاصة، أسماها بالعوامل الخاصة، وهي عديدة، تلعب دورها في تكوين أو خلق تأثير كبير في السلوك السياسي للقيادات السياسية العربية. وهي تعالج وتتخذ أو تصنع قراراتها، وهذه العوامل تشكل في مجموعتها نظرية اصطلح على تسميتها: نظرية العوامل الخاصة: كالفردية والذاتية واللامؤسسية، وجاذبية السلطة، واللاشعور (الفردي والجمعي) وإيثار متع الحياة المباشرة، وكلها من طبيعة سيكولوجية، ورأى من الأهمية القصوى تفصيل هذه العوامل وعرض تأثيرها في الحدث (أو الأزمة) ولقد لاحظ رجحان هذه العوامل الخاصة، على العوامل الموضوعية، ولاحظ أن الحديث المستفيض عن تحليل أسباب الأزمات بالأسباب الموضوعية فيه شيء من إقحام لمكتسبات التفكير العلمي الحديث نسبياً على صناعة الأحداث، وإهمال الجوانب الأخرى التي لعبت دورها في فكر وعقل وسلوك اللاعبين السياسيين في تاريخنا السياسي، وكذلك فكر وسلوك (الرعية) أو الشعب بلغة العصر ومن ناحية ثانية وقف الباحث على عوامل أخرى إضافية اصطلح على تسميتها ب– الآثار الجانبية **Side Effects**، هذه الآثار التي يهمل الباحثون عادة شأنها، ولا ننظر إليها بجدية البحث العلمي، هي أيضاً لها دورها الفاعل في معالجتنا للأمور، وصناعة قراراتنا، وأعني بالآثار الجانبية للأزمة أو الصراع، ما تترك من آثار، تمهد لأزمات أو لصراعات لاحقة.

حاول الباحث إثراء بحثه، بحالات توضيحية ونبذ من حياة القيادات السياسية العربية، الإسلامية، السلوكية، كي يتجنب الشرح النظري المحض، والتجريدي للموضوع.

2- أهداف الكتاب:

يهدف هذا الكتاب، إلى عرض حركية (ديناميكية) سلوك القيادة السياسية العربية المتعلق بإدارة الأزمات والصراعات في التاريخ العربي - الإسلامي -كجزء لا يجزأ من السلوك العام لهذه القيادة، وبالتالي لطريقة تفكيرها، وكيف تعكس ثقافة المجتمع السياسية التي ظهرت في تراثه السياسي خاصة، ومحاولة معرفة العناصر (العوامل) السيكولوجية التي تدخل في تكوين المخيال السياسي العربي، وكذلك الوقوف على نتائجها، ومدى استمراريتها، وأخيراً تأثيرها السلبي في الحياة السياسية.

فالهدف العام لهذا العمل يتمفصل على النحو التالي:

1- عرض عام لمحركات (العوامل) السلوك السياسي للقيادة السياسية العربية.

2- استكشاف هذه المحركات من خلال انغماسها في العمل السياسي للقيادة السياسية في تعاملها مع الأزمات والصراعات من ناحية، وطرائق تعاملها مع المعارضة، فيما يتعلق بإدارة الأزمة والصراع.

3- استنباط، وهو مصطلح استعرناه من علم أصول الفقه الإسلامي، والقائم على استنباط الفرع من الأصل، أي استنباط الأحكام الشرعية الفرعية، وأدلتها التفصيلية من القاعدة العامة في أصول الشرع (النصي) ولقد وظفنا هذا المصطلح على الشكل التالي:

محاولة الاستنباط من الأصول والأفكار العامة أو المنظومة الفكرية السياسية، لدى الكتاب، والمفكرين العرب والمسلمين، كما تجلت في التراث الفكري السياسي، والتي لا تتطرق بعموميتها، ولا بخصوصيتها أو فروعها، إلى ما يدعى بإدارة الأزمات، أو معالجتها فقام الباحث واستنبط، وبشكل لا يتعارض ولا يناقض القاعدة أو الفكرة العامة للمفكر ما يخص إدارة الأزمات، وبعبارة أكثر وضوحاً لقد تحدث الكتاب، والمفكرون في التاريخ الفكري والسياسي في تراثنا عن: تدبير الشؤون العامة، أو تدبير شؤون الرعية في الإمبراطورية، أو الدولة العربية الإسلامية، ومن خلال هذا البند أو الفكرة العامة، استخرجنا جزئية أو فرعية تتعلق بإدارة شأن الأزمة أو الصراع، لدى القيادة السياسية من خلال الخطابة والأقوال.

4- إمكانية التنبؤ باستمرار تأثير هذه العناصر السيكولوجية، أو ما سماه الباحث بالعوامل الخاصة في القيادة السياسية العربية وفي عملها السياسي المعاصر، سيما وأن البنية السياسية العامة للقيادة السياسية العربية المعاصرة لم تختلف في كثير من جوانب: نشأتها وطرائق تفكيرها، ونمط حكمها، عن القيادات السياسية في تراثنا السياسي القديم.

ونتيجة عرض هذه الأهداف، تبغي الأوراق الوصول إلى نظرية، أو نموذج فكري بنائي يوضح تأثير هذه العوامل بناء على العرض النظري لها، وكذلك الجانب التطبيقي، أي عمل الباحث على عرض بعض الحالات المختارة كنماذج لهذا التأثير، وعلى عمل القيادة في معالجة الأزمة والصراع.

3- فرضيات البحث[*] التي بنى عليها الباحث العوامل الخاصة:

انطلق هذا البحث من مجموعة من الفرضيات، المتعلقة بموضوع الكتاب، وهو واسع في تقسيمه، ومحاوره إذ أنه يتضمن كتابين في كتاب كما سيرى القارئ الكريم.

ونقول <فرضيات> لإبعادها عن شبح الحقائق الثابتة، واليقينية بإطلاق، والتي لا تشبه حتى ولو تلفظ أو كتب الباحث <فرضية> أو نظريات، تلك المتعلقة بالعلوم الرياضية أو الفيزيائية فالفرضية، وإثباتاتها هنا كلها خاضعة للنقاش، والباحث وضعها بحذر شديد سيما وأنه يدرك أنه في دراسة العلوم الإنسانية والتي تدرس الظاهرة الإنسانية، حتى لو تم الاعتماد الكامل على الدراسات الكمية، والإحصاءات الرقمية، والجداول، تظل الظاهرة الإنسانية أعقد من تؤطر ضمن فرضيات معينة، أو تعميمات نظرية، مع أن الطموح العام لدى كافة العاملين في دراسة الظواهر الإنسانية الوصول إلى نظرية، القائمة على مبادئ تنطبق على كافة الظواهر المشابهة لهذه الظاهرة أو تلك، ونحن نحاول أن نقترب ، وبحذر، من تحقيق هذا الطموح، فيما يتعلق بمسارات تاريخنا السياسي وعمل القيادات السياسية العربية.

---

[*] فضل الباحث استخدام كلمة بحث Research بدلاً من كلمة دراسة Study ولو أن المصطلحين متقاربان من حيث المضمون، وكلمة البحث تعني بدقة أكثر: استكشاف عوامل جديدة، وإعطاء معلومات أيضاً جديدة حول الموضوع الذي يبحث فيه (معجم أكسفورد للغة الإنجليزية study Dictionary The ox Ford (o.u.p) 1991، والباحث يزعم أنه يعرض ما يسميه بالعوامل الخاصة آملاً أن تكون محاولته فيها شيء من الجدة.

إذن لقد تمت صياغة فرضية عامة، وفرضيات خاصة، فالأولى تتعلق بمسيرة الحضارة العربية الإسلامية، وتأثير السلوك السياسي على حركتها، فالافتراض يقول: هل كان من الممكن أن يستمر الإشعاع الحضاري العربي الإسلامي، وتحقيقه للازدهار، والتقدم لو كانت القيادات السياسية خالية من العنصر العربي؟ وهل كان هذا الإشعاع ممكن استمراره في الإضاءة لو كانت القيادات السياسية قد عملت على تحييد العوامل السيكولوجية التي ذكرنا (مثلاً تحييد التهالك على حب الحياة ومتعها، أو تحييد الرغبة والجاذبية العارمة للسلطة) والتعامل العاقل بين السلطة والمعارضة؟، أم أن توقف الإشعاع الحضاري كان نتيجة عوامل معقدة، مثلاً سوء إدارة الشأن السياسي، أو بروز قوى جديدة على الساحة العالمية، ورجحان الكفة لصالحها، وتغير موازين القوى؟

أما الفرضيات الخاصة، فيمكن صياغتها كالتالي:

1- لقد سيطرت ولا تزال تسيطر القيادات السياسية العربية في سلوكها السياسي، ومعالجتها للأزمات عدة من العوامل: السيكولوجية وهي تدير شؤون المجتمع، وأزماته، وصراعاته بغض النظر، عن الدعوات المستمرة بالالتزام وبالحاكمية الإلهية، والشرعية الإسلامية، التي كانت ترفع أصواتها بها مختلف التيارات والحركات السياسية - الإسلامية.

2- إن منشأ هذه العناصر السيكولوجية: فردى (سيكولوجي - بيولوجي - اجتماعي - ثقافي) وهذه العناصر فصلنا إياها في الفصل (الرابع) من هذا الكتاب.

أ- **يتصف السلوك السياسي للقيادة العربية:**

1- الفردية، وهو سلوك فردي، ومكتسب منم المجتمع انطلاقاً من تأثيرات البيئة الأولى التي تنشأ في أحضانها القيادة، وانتهاء بالبيئة الواسعة أي المجتمع، بتشكيلاته ومؤسساته الخاصة به.

2- الذاتية، وهي مرتبطة بالفردية، ونشؤها أيضاً فردي - اجتماعي.

3- استبداد الأهواء البشرية، وهي ميول ونزعات فردية تؤثر فيها ثقافة المجتمع سلباً أم إيجاباً، وقد بدا أن المجتمع (الرعية - الشعب) كان سلبياً إزاء مقاومته لهذه الأهواء لدى القيادة السياسية.

4- استبعاد العقل، والشرع، وهو رغبة تجلت في التخلي عن المرجعية الشرعية، والعقلية بغية تكريس الذات، واستئثارها السلطة لذاتها، وليس لتنفيذ المرجعية - الدينية أو العقلية (المدنية) - الدستور.

5- المزاج الشخصي، وهو مكون شخصي سيكولوجي بيولوجي محض تلعب في تكوينه البيئة الأولى، وبيئة المجتمع العامة في تكوينه.

6- الميول المتطرفة، منشؤها اجتماعي - ثقافي - سياسي - اقتصادي - فردي.

7- استبعاد العنصر العربي، تحقيق رغبات القيادة السياسية لهذا الاستبعاد لحسابات خاصة بها.

8- إيثار الحياة الدنيا - منشؤه فردي - اجتماعي - ثقافي.

9- اللاشعور السياسي مكونه، فردي، اجتماعي.

ب- **لاحظ الباحث ضعف الأداء والإنجاز السياسيين** بشكل عام للقيادات السياسية، وما نتج عن هذا الضعف، خلل في كثير من الأحيان في إدارة الأزمات والصراعات وخاصة على الصعيد الداخلي.

إهمال القيادات السياسية العربية التواصل مع: أهل الرأي، والمفكرين والفلاسفة، وأهل الحل والعقد وأهل الشورى في ممارساتها شؤون الحكم.

ج- **تشكل العناصر السيكولوجية** (العوامل الخاصة) بمجموعها: تركة المخيال السياسي العربي الإسلامي وهذه خاصية مجتمعية، ليست محصورة بالممارسات القيادية ولها تأثيرها في أبناء المجتمع.

د- **النتائج السلبية لهيمنة هذه العناصر هي**: في سلوك الأفراد، والقيادات في قطاعات العمل السياسي، وقطاعات العمل المختلفة والذي يتجسد ذلك في تغليب (العناصر الخاصة) في النظر، والعمل وإهمال المصالح العليا للمجتمع، ومصالح أبنائه الذين يعيشون على أرضه، حيث تعمل القيادات بمختلف أنماطها على تحقيق مصالح فئات معينة أو مصالح فئوية أو حزبية، أو طائفية، أو مجموعات ذات المصلحة، والمحيطة بالقيادات السياسية، وكذلك عدم الالتزام بمرجعية محددة يرتضيها المجتمع.

ولقد تبين للباحث من خلال عرضه أن دور العقيدة الإسلامية، والسنة النبوية في الممارسة السلوكية، بعد العهدين النبوي والراشدي، أصبح دوراً ضعيفاً، واستمر هذا الضعف إلى يومنا هذا، وكذلك تبين ضعف آخر وهو عدم التعويل على العقل السياسي المدني أي وجود قواعد دستورية مدنية تعمل بموجبها القيادة السياسية، سواء في إدارة الشؤون السياسية العامة أم في إدارة الأزمات والصراعات.

لقد طغى استمرار تأثير (العوامل الخاصة) في سلوك القيادات السياسية على المرجعيتين: الدينية الشرعية، والعقلية المدنية.

4- إطار البحث ومنهجيته:

المحور العام لهذا البحث فكرة: إدارة الأزمة والصراع وكيفيتها في القيادة السياسية العربية، وكيف تجلت في تاريخنا السياسي، وهو نمط فكر تحليلي **Analytical type** تحدده عناصر معينة ذات صلة وثيقة قابلة للتأمل، ويحدد العلاقة بين تلك العناصر، من جهة وبين ظاهرة الدراسة، وبيان طابعها السيكولوجي، بحيث يؤدي ذلك إلى فهم ظاهرة إدارة الأزمة، والصراع، وسلوكها وإمكانية التنبؤ باستمراريتها في حياتنا السياسية المعاصرة، وخطورة هذه الاستمرارية.

والنمط المذكور يقع ضمن إطار بناء الأنماط السلوكية، الذي طوره (هارولد لاسويل) **Harold Lass well** بناء على دراساته في علم النفس السياسي.

لقد تطورت هذه البحوث في العصر الحديث، بالاعتماد على دراسات في مختلف فروع علوم النفس وخاصة علم النفس التحليلي، وعلم النفس الفردي والاجتماعي، (وكذلك مختلف العلوم الإنسانية **Humanities**) ولا يخلو هذا النمط من صعوبات، من حيث صعوبة تحديد العلاقات بين العناصر السيكولوجية، والظاهرة المدروسة، والنتائج وتلجأ الدراسات المعاصرة حول النمط من البحوث إلى تبيان النتائج من خلال النسب والأرقام بطريقة كمية، والجانب الآخر منها أي سلوكيات الناخب، والمرشح في الأنظمة السياسية الديمقراطية القائمة على التمثيل. وتجدر الإشارة إلى أن النماذج الدراسية الكمية تستعمل في دراسات علوم الفيزياء، والرياضيات بينما يفضل الدراسة النوعية (الكيفية) والتحليلية، والعرض والوصف النظريين في دراسة الظواهر الاجتماعية

كظاهرة: كيفية إدارة الأزمات والصراعات، ولكن سنرى أنه رغم الفائدة الكبرى في استخدام هذه الطرائق الحديثة في الإدارة إلا أن خصوصية كيفية إدارة الأزمة، والصراع في تراثنا العربي الإسلامي تتميز بوضعها المختلف.

ومع هذا يمكن اعتبار كيفية إدارة الأزمة والصراع، وارتباطها بمجموعة من العناصر الخاصة نظرية، تحاول تفسير العلاقة الثابتة أو شبه الثابتة بين متغيرات مستقلة، ومتغيرات تابعة بهدف العرض، والتفسير، وإمكانية التنبؤ.

أما بالنسبة إلى منهجية الإثبات المتبعة في عملنا، فهي منهجية العرض التاريخي – الفكري – المعتمد على المقالات والخطابات والأقوال، وبعض الأحداث المهمة في التاريخ السياسي وكذلك المواقف والسلوكيات التي اتفق المؤرخون القدامى على إيرادها، بالإضافة إلى أفكار الأطراف ذات العلاقة، أي بتعبير آخر مجموعة الكتابات المتعلقة بمعالجة القيادة السياسية للأزمات، مع التركيز على: المفاهيم والآراء، والخطط، أو نمط التفكير الاستراتيجي في المعالجة لدى هذه القيادة أو تلك. وخاصة ممارسات القيادة السياسية، ومدى اتفاقها، والمرجعيات، والمنصوص عليها في الشريعة والعقيدة أو كتابات العلماء المسلمين، أو غيرهم في مطالبتهم بالالتزام بالمرجعية عند إدارتهم للشؤون السياسية العامة، ومن ضمنها إدارة الأزمات والصراعات.

والإثبات هنا وسيلة تساعدنا على فهم الظاهرة السلوكية السياسية وتأثير مختلف العوامل الخاصة فيها، وبعبارة ثانية محاولة فهم سلوك اللاعبين السياسيين سواء كانوا في السلطة، أو في المعارضة وكيفية تعاملهم مع الأزمة.

ومحاولتنا الإثباتية هنا ليست من قبيل الإثباتات العلمية المخبرية، ولا الهندسية أو الرياضية البحتة، ولكنها محاولة إثبات تعتمد على إظهار قدرة النظرية المطروحة على تفسير الظاهرة، مع تفكيرنا باحتمال عدم صحتها أو ورود ما يناقضها، وما يعارضها، وتقدير الباحث لما يبديه القراء من تحفظ على سير النظرية، بدءاً من افتراضاتها ومروراً بإثباتاتها ووصولاً إلى نتائجها، والباحث يجد أنه من الحق والبداهة الكاملين للقارئ إذا لم يجد ذلك مقنعاً أن يطوي صفحة هذه النظرية بحثاً عن غيرها أكثر جدارة وأصالة.

5- أهمية البحث وجدواه:

يعالج البحث قضية مهمة في عمل القيادة السياسية، والتي تهم مجتمعاتنا العربية، والتي شغلتها، ولا تزال تشغلها أعني: كيفية إدارة الشأن السياسي لدى القيادة وخاصة كيفية إدارة الأزمة الطارئة، والزاحفة، أو المتوقع حدوثها، كذلك كيفية إدارة مواجهة الصراع الداخلي، أو الخارجي، وبالتالي كيفية صناعة القرار والآليات الذهنية والسلوكية المرتبطة بهذه الكيفية.

ولقد كان التاريخ السياسي العربي والإسلامي الكلاسيكي والحديث والمعاصر مسرحاً وأرضاً خصبة لتوالي الأزمات الداخلية والخارجية.

ولقد ارتبطت مصائر الأفراد والجماعات في وطننا العربي بكيفية إدارة الأزمات والصراعات التي مارستها القيادات السياسي، هذا مع ما تواجه هذه المجتمعات فضلاً عن هذا الجانب، السياسي المحض، والهم، من قضايا أخرى تهم مواطننا كتحديات الفقر، والبطالة والفساد والجوع، والعطش أو تهديد أمننا الغذائي وضعف مستويات التعليم أو ازدياد فجوة التقدم بيننا، وبين الدول المتقدمة خاصة على صعيد التقدم الفكري والعلمي، واعتمادنا على استيراد المنجزات الحضارية ولعب دور التلقي دون الأخذ بأنماط التفكير العلمي، ومهاراته، وآلياته، وأخيراً الزحف الشامل لظاهرة العولمة، وتحدياتها الاقتصادية، والسياسية، والاجتماعية، والثقافية، وما تعرضه من إغراءات كتعميم ظاهرة الخصخصة، وإستراتيجيتها الخطيرة على المدى المتوسط والبعيد في إلغاء كيان الدولة ذاتها، التي تعتبر الضامن الوحيد لحياة الأفراد وأمنهم وسلامتهم، وربما اختفاء ظاهرة القيادة السياسية، رغم جلالة قدر قضية القيادة السياسية والتنظيم السياسي، وأهميتها وخطرها في الوقت نفسه.

إن البحث بين أيدينا يطرح فكرة (نظرية) جديدة تحاول تفسير، بعد العرض التاريخي، لظاهرة (كيفية تعامل القيادة السياسية) مع الأزمات في تراثنا السياسي، والفكر السياسي وانعكاس كل ذلك على سلوكنا السياسي كأفراد، كل ذلك يساعدنا على فهم السلوك السياسي في جانب مهم منه، أعني: إدارة الأزمة والصراع.

ورغـم أن طمـوح الباحـث تقـديم رؤيـة جديـدة تسـاعد علـى الفهـم، والتفسـير، وبالتـالي الإيحـاء إلـى وجـود طرائـق أفضـل لمعالجـة الأزمـات والصـراعات (الطرائـق العلميـة الحديثـة، فضلاً عن الاستئناس بخصوصيتنا العربية). كل ذلك بغية مواجهة التحديات بطريقة أفضل.

6- خطة الكتاب:

تتكون خطة الكتاب تقسيمه إلى كتابين، وأقسام تتضمن الفصول الفرعية وفي سبيل ذلك فقد اتبع الباحث عدة مراحل:

فأما التقسيم العام، في الكتاب فيقع في:

1- الكتاب الأول: إدارة الأزمة.

2- الكتاب الثاني: إدارة الصراع.

أولا: الكتاب الأول

في **المرحلة الأولى**، وكما بينا في الحديث عن الأهداف، فقد عمد الباحث في هذه المرحلـة علـى: عـرض وتوضيـح الأسـس النظريـة – التاريخيـة، والحديثـة والمعاصـرة لعلـم إدارة الأزمـات، وعلاقـة إدارة الأزمـة بـالقرار، وصـناعته وكـذلك القيـادة السياسـية، وإدارة الأزمـات، وأخيراً علـم، وفـن إدارة الأزمـات للانتهـاء إلـى مـا يسـمى بـالإدارة بالأزمـة. وهـو عبارة عن القسم الأول ويقع في ثلاثة فصول.

المرحلـة الثانيـة محاولة استكشاف تجليات إدارة الأزمات والصراعات في التاريخ السياسـي – العربـي – الإسـلامي بـدءاً مـن العهـدين النبـوي – والراشـدي مبينـاً أن هـذين العصرين اللذين بدأتهما القيادة النبوية الشريفة، وكونها مثلت نموذجاً للراشدين في طبيعة مواجهـة وإدارة الأزمـة الداخليـة، والخارجيـة، ومـن ثـم تكـوين هـذين العهـدين النمـوذج، والمثل الأعلى في كيفية إدارة الأزمة والصراع اعتماداً على المرجعية الإسلامية. وقد رأى الباحث أن هذه المرحلة التاريخية تمثل استثناء في التاريخ السياسي العربي الإسلامي، أما القاعدة العامة فتتجلى في **المرحلة الثالثة**.

أي أن الباحـث عمـل علـى عـرض تـاريخي لكيفيـة إدارة الأزمـات، محـاولاً مـن خـلال ذلك توسيع، وتعميق فرضياته التي أشار إليها في الفصل الرابع حول العوامل الخاصة.

فالفصل الرابع الذي عرض فيه مفهومه لنظرية العوامل، وجد تجلياتها التاريخية مع بداية العصر الأموي، ومروراً بالعصرين العباسيين (الأول) و(الثاني)، وقد غطت هذه المرحلة (الفصول 4 – إلى الفصل السابع).

أما **المرحلة الرابعة**، يتابع الباحث عمليته الاستنباطية في (استخراج) الأفكار المتعلقة بإدارة الأزمات في التراث الفكري العربي الإسلامي، أي لدى السنة والشيعة، ولدى الفلاسفة في الإسلام، وفي الكتابات السياسية السلطانية (الأحكام السلطانية) والأدبيات السلطانية من نصائح، وغيرها وقد جاءت هذه المرحلة لتتجسد في القسم الرابع (الفصول: الثامن، والتاسع والعاشر).

أما **المرحلة الخامسة**، وفيها عرضنا لفكرة جديدة، أي التاريخ السياسي العربي الحديث، والمعاصر، وهذه النقلة النوعية تتجلى في: إدارة الشعوب لأزماتها وصراعاتها وخاصة تجلياتها، في كيفية مواجهتها، وإدارتها للظاهرة الاستعمارية مع تمهيد وإرهاص فكري لهذه المقاومات الشعبية التي تجلت لدى إصلاحي عصر النهضة العربية في منتصف القرن التاسع عشر.

هذا مع عرضنا لحالات أزموية، و(حالات حديثة أو معاصرة) كالمعاهدات الاستعمارية التي قاومتها الشعوب، وبعض حالات أزموية معاصرة، وقد جاءت هذه المرحلة في القسم الخامس (الفصول الحادي عشر، والثاني عشر، والثالث عشر، والرابع عشر).

ثانياً: الكتاب الثاني

ويدور حول (إدارة الصراع)، وهو الجزء المكمل للأول وباعتبار أن الصراع مرحلة تالية (مصعدة) للأزمة؛ فالمرحلة الأولى أيضاً تتعرض لتاريخ التنظير للصراع البشري مبتدئة بمقدمة حول السؤال الذي يطرحه أي فرد منا، وهو: لماذا يتصارع الناس؟

وبالتالي عمد الباحث إلى استعراض تاريخي موجز لهذا التنظير مبتدئاً ببسط تأملات فلسفية (يونانية) لظاهرة الصراع في الوجود ومن ثم انتقل إلى العصور الوسطى الإسلامية ليكشف معالم النظرية الإسلامية في الصراع، مبيناً أن المسلمين قد عرفوا من خلال مرجعيتهم قوانين الصراع في تلك العصور.

عرج الباحث ليتحدث عن ما سمي في العصر الحديث بعلم الصراع، وعلم (إدارة الصراع)، فوجد من المناسب تقديم عرض موجز بدوره لعلم إدارة الصراع عموماً، وعلم إدارة الصراع السياسي خصوصاً، وقد جاءت هذه المرحلة في: القسم السادس: (الفصلان الخامس عشر، والسادس عشر).

أما القسم السابع، فقد تضمن عرضاً تاريخياً لسلوك إدارة الصراع الداخلي والخارجي، ويعني بإدارة الصراع الداخلي: الصراعات الداخلية التي واجهتها القيادات السياسية العربية والإسلامية متمثلة، بالصراع الأول الذي واجهه النبي محمد (ص) (العهد النبوي – ذلك العهد الذي بدأنا تاريخنا به)، كيف واجهت وأدارت القيادة النبوية – السياسة الوثنية، ومن ثم تبلور هذه الظاهرة الصراعية في عهد الشيخين، (فأما أبو بكر)، فكانت إدارته للصراع ضد المرتدين (حروب وصراعات الردة).

وفي عهد (عمر بن الخطاب) تبدأ معه الصراعات الخارجية (الفتوحات الإسلامية).

لقد غطت هذه المرحلة الفصلين: (السابع عشر، والثامن عشر)، ورأى الباحث أن حالة الشيخين في معالجة الصراع كانت مرجعيتهما أيضاً مرجعية شرعية – إسلامية والاقتداء بالنموذج النبوي في القيادة والإدارة.

وبعد ذلك حصلت انعطافة كبرى، وخطيرة في عهد (عثمان)، و(علي) وهما حالتان بدأت بهما إدارة مختلفة للصراع. وهذه هي المرحلة الثانية.

أما المرحلة الثالثة في الكتاب الثاني، فهي متابعة لعملية استكشافية، واستنباطية لكيفية إدارة الصراعات في العصر الأموي و (العباسيين الأول، والثاني)، والصراعات الداخلية: السلطة والمعارضة وتعامل أحداهما مع الأخرى، وطرق إدارتهما لصراعهما، وكذلك إدارة الصراعات الخارجية في عملية متابعة الفتوحات الإسلامية، والتي توقفت في بدايات العصر العباسي الأول كان آخرها صراع المعتصم مع الروم وفتح (عمورية).

واختتم الباحث هذا القسم بالإشارة إلى تدهور القيادة العربية والإسلامية، وبداية انهيار الحضارة العربية الإسلامية ومن ثم سقوطها (1258) في آ×ر معقل لها في (بغداد).

وفـي هـذه الخاتمـة أراد الباحـث أن يلفـن نظـر القـراء والدارسـين لحالـة الفتوحـات الإسـلامية، وكونهـا فـي رأيـه تمثـل حالـة إبداعيـة، ولا تشـبه بـأي شـكل مـن الأشـكال حـالات السيطرة والهيمنة، والاستعمار الخارجي، لقد غطت هذه المرحلة (الفصول 19–20–21).

المرحلة الرابعة، وهي القسم الثامن، وتتناول عرضاً سريعاً لكيفية إدارة الصراع، وهنا أيضاً تجلـت الإرادة الشـعبية فـي مواجهـة، ومقاومـة، وإدارة الصـراع، ضـد الظـاهرة الاسـتعمارية، المتجسـدة فـي تشـكيل مجموعـات، وحركـات مقاومـة، مـع بيـان الباحـث أ، المقاومـة ظـاهرة فطرية لدى الإنسان عندما يتعرض لعدوان أو إهدار لكرامته، أو اغتصاب لأرضه.

وعـرض الباحـث بعـض الحـالات الصـراعية الحديثـة المعاصـرة (اغتصـاب فلسـطين 1948) و (صراع السويس 1956) و(هزيمة الخامس من حزيران 1967) ثـم قـدم مناقشـة نقدية وخاتمة الفصول (22–23–24–25).

7– ما المقصود بالعوامل الخاصة؟

عندما ذكرنا الفرضيات، وفرعياتها فليس ذلك للإيحاء باستقلاليتها، بـل أنهـا تعبـر فـي باطنهـا عـن وحـدة داخليـة بينهـا، وهـذه الوحـدة هـي التعبيـر عـن النظريـة، أو البنـاء الفكـري المنسجم، الذي يساعدنا على فهم الجانب المهم في السلوك السياسي للقيادة السياسية أي: كيفية إدارة الأزمات والصراعات، وفي الوقت نفسه توصلنا إلى فهم العلاقة بين هذه العناصـر المكونـة للجانـب السـلوكي، ومـدى تحريـك هـذه العناصـر للعمـل السياسـي، فالعوامل الخاصة هي المحور الرئيسي لقسمي الكتاب.

وإن هـذه العناصـر وخاصـة فـي جانبهـا السـلبي يكتسـبها الإنسـان العربـي كصـفات، ومحركات في الوقت نفسه، لسلوكه، من المجتمع، هذا دون أن ننسى أن عناصر أخرى إيجابية يكتسبها الإنسان العربي من مجتمعه.

وسنشرح هذه العوامل كلا على حدة. مع ملاحظاتنا أنها إما تعمل إحداها منفردة كمحـرك للسـلوك فمـثلاً: الموقـف المتطـرف، أو يعمـل أكثـر مـن عنصـر فـي تحريـك السلوك، وفي العمق إنها تشكل شبكة سيكولوجية إذا اجتمع أكثرها عدداً في تحريك السلوك، فتلك الكارثة العظمى التي تبلي فيها القيادة السياسية، كاجتماع عنصرين: (حب

الدنيا، والتهالك على متعها) والاستغراق في طيبات رزقها، مع جانب التطرف في السلوك، فالقرارات التي تصدر عنه شخصية سياسية تجتمع فيها تأثيرات عنصر واحد أو أكثر، نجد أنفسنا كأفراد كمواطنين في حضرة قائد أو قيادة فاقدة للعقلانية، والرشاد، وتمثل هذه القيادة بامتلاكها هذه العناصر، وتحريكها للسلوك، خطورة على البناء الاجتماعي والوطني والقومي والديني.

1- **عنصر الذاتية**: وتعني النظرة الشخصية، وغير الموضوعية للأمور، وللعالم ككل، بحيث ينظر صاحب هذا العنصر إلى نفسه كمركز لمن، ولما، حوله، وكمصدر للحقيقة المطلقة، علماً بأن الحقيقة التي يزعم أنه قائلها هي حقيقته (هو)، إنها اللاموضوعية.

وعلى المستويات القيادية الصغيرة في حياة العمل اليومية، والحياة القيادية الكبيرة نجد أن صاحب الذاتية يقر بأنه مالك للرعية، والدولة، وهم من خصوصياته، فهو يقرر عنهما، وهو أعلم بمصلحتهما، وتتجلى الذاتية كما قلنا في الأعمال المؤسسية، ولصالح الإدارة والشركات، إذ يتصرف المدير أنه مالك الإدارة، وصاحبها ولا يريد أن يعلم ما في جمهوريته الخاصة أو المملكة الصغيرة.

ولعل من المضاعفات الناتجة عن هذا العنصر، إيمان صاحبها بأن ورثته في الحكم لهم الحق الشرعي كما كان له عند توليته الحق في السلطة والخلافة، ومن الذاتية صدر مبدأ التوريث، وهو ما تأباه المرجعية الشرعية - الإسلامية، والشرعية المدنية كالنظام السياسي الديمقراطي.

2- **الفردية**: إنها ميل الفرد لأن لا يكترث إلا بفرديته الخاصة، أي لا يهتم برغبات الجماعة حوله، وأحياناً قد يقوم بأعمال تتعارض مع مصلحتها، وهذا يتضح تماماً على مستوى القيادة السياسية في انفراد، وتفرد الحاكم، فهو يتخذ قراراته منفرداً، ولا يعير أهمية رغبات المواطنين، أو أن يتجاهلها أو على أقل تقدير يتجاهل آراء أفكار، ورغبات الأغلبية الساحقة من مواطنيه، والفردية قريبة في مضمونها من الذاتية، إذ أن الفردية تنطلق من (فردية الفرد والذاتية تدور حول ذاتية الشخص واعتبار نفسه مصدر الحقائق.

ومن مظاهر الفردية في المجتمعات العربية استئثار المسؤول أو القائد أو المدير، بعمله ويتخذ منه سلطة يمارسها حول من يحيط به. وتتجلى الفردية في مجال القيادة

وهذه ظاهرة ليست مقتصرة على الحياة السياسية العربية بل تخرج عن نطاقها أعني: عمل الحاكم الفرد، مع تجييشه لمختلف وسائل الإعلام، ومن يحيط حوله من له المصلحة بإعادة ترشيحه، وانتخابه كقائد أو كرئيس.

3- **استبعاد العقل والشرع**: أو سيطرة عنصر اللامعقول في سلوك الحاكم والإدارة:

هذه فرضية لم ينقصها أدلة الإثبات التاريخي، في تاريخنا السياسي العربي الإسلامي، ذلك أن العهدين النبوي – والراشدي لم يكن في تفكير القيادات السياسية النبوية والراشدية استبعاد شرعية الله وحاكميته، وسنة نبيه وخاصة في عهد الشيخين.

ولكن ما حصل تاريخياً، هو استبعاد الشرع من بنية الحكم، وانقلاب الأمر إلى ملك منذ بداية العصر الأموي، واستمر هذا الاستبعاد منذ ذلك التاريخ حتى يومنا هذا.

وبالنسبة لاستبعاد العقل فقد قصد الباحث هنا بالشرع المدني الذي يضع دستوره العقل السياسي، فأيضاً لم ترجع إليه القيادة السياسية، أو لم تضع القيادات السياسية في التاريخ السياسي دستور لتنظيم داخله وإذا ما وضعته فهي تتجاوزه وتسلك فوقه في القيادات السياسية الحديثة، والمعاصرة في الوطن العربي.

4- **الاستغراق في مباهج الحياة الدنيا:** ومنحها القيمة العليا على حساب القيم العليا- الروحية والإنسانية على مستوى القيادات السياسية.

الحياة الدنيا أو الحياة العاجلة **Lavie Immediate** لها مطالبها، ولها رغباتها، فالقيادة لها حق الاستمتاع – وتلبية الحاجات المعقولة، ولكن الاستغراق والتهالك المطلق في سبيل تحصيل هذه المتع والعيش في المستوى الخام للحياة، يصرف القيادة عن مسؤولياتها السياسية التي كلفها إياها المجتمع، وقد بين القرآن الكريم منذ العهد المحمدي أن أرضية هذا التهالك على متع الحياة هي أرضية (وجدانية)، أو العنصر المحرك للاستغراق بمطالبها، هو عنصر نفسي وجداني. أي أنه نقيض العقل، والحكمة.

وقد بينت فرضيات الباحث أن تحت مظلة عنصر: إيثار الحياة العاجلة، ينطوي عنصر آخر، وهو أيضاً سيكولوجي، أعني: جاذبية السلطة والصراع من أجلها، وهذا الافتراض يمكن إثباته ليس فقط من خلال العمل السياسي في الحضارة العربية

الإسـلامية، وإنمـا هـو ظـاهرة إنسـانية فصـراع التيـارات، والأحـزاب، والاتجاهـات، والإيديولوجيات السياسية كلها تتصارع، وفي باطنها: رغبة الوصول إلى السلطة.

5- **إن فرضية الذاتية والفردية**، المكتسبتان من المجتمع، ينتج عنهما كآثار جانبية لدى الشعوب، زرع فكرة في مخيالها حول (الرجل العظيم) الفرد الواحد، إذ أن الذاتية، والفردية توحيان بالأهمية للشخص القائد، والواقع أنه الصعوبة، بمكان تحديد فيما إذا كانت الشعوب العربية بفطرتها تنزع إلى تقبل فكرة الرجل العظيم، أو أن القائد الفرد وهو في سدة القيادة يزرع هذه الفكرة في مخيال الشعب، وربما يكون الافتراض الثاني أقرب إلى المعقولية لأن بعض الظروف التاريخية تتطلب صعود قيادة فردية، ورجل تظهر عظمته بمواجهته التحديات، وتحقيقه الإنجازات، فتثبت من خلالها قيادة في مخيال مواطنيه فكرة أهمية الرجل العظيم، وقد يكون افتراض آخر، قائم على فكرة (المهدي المنتظر) ذات الأصول الدينية قد ساهمت بزرع فكرة الرجل المنتظر العظيم الذي سيأتي يوماً ليملأ الأرض عدلاً بعد أن ملئت جوراً.

زبدة القول، إن العرب مهيئون بحكم الظروف التاريخية، بدرجة كبيرة، لظهور الرجل العظيم ليحل مشكلاتهم.

وإذا تكلمنا عن جزئية الرجل العظيم فذلك لأن التاريخ السياسي للقيادة، والحياة السياسية للشعوب العربية، ارتبطت بوجود القائد الفرد، القادر على إدارة الأزمات، وإيصال الشعب إلى >بر الأمان< والانتصار على الصراعات والقضاء على المناوئين له في السلطة.

والواقع التاريخي السياسي العربي الإسلامي منذ تولية الخليفة الفرد القيادة، هو تكريس لهذه الفكرة، فكرة: الفرد- البطل- الرجل العظيم، ولكن لم يفت الباحث الفرصة للتنبيه بأن الرجل العظيم ليس عظيماً بالمطلق، إنما هو عظيم لدى أتباعه فقط.

6- **عنصر استبداد الأهواء البشرية**: الطبيعة البشرية تكتنفها الأهواء، والغرائز، وهي جزء لا يتجزأ من تكوينها السيكولوجي والبيولوجي، ولها تأثيرها العظيم في فكر وسلوك الإنسان، وقد ذم المسلمون القدماء الأهواء، واعتبروها مصدر شر، وفساد وخاصة عندما تستبد وتطغى في سلوك صاحبها ولعل الطامة الكبرى هي في ظاهرة استبداد الأهواء، والغرائز، بالقيادة السياسية.

وقد أدان المسلمون المحدثون أيضاً استبداد الغرائز، وتحكمها في العقل والسلوك، فالقيادة السياسية القائمة على الفردية كما يتجلى طوال التاريخ السياسي العربي – الإسلامي، وكما أثبت المؤلفون القدماء تجليات سيطرة الأهواء، والغرائز على عقول (الخلفاء)، وبالتالي تأثير هذه السيطرة على قراراتهم، وسلوكهم الذي اتسم بالشدة والعنف، بالإضافة لإهمال شؤون الرعية، والخضوع لنزواتهم الخاصة.

إن فرضية هذا العنصر تفترض أيضاً وجود الجوانب الإيجابية للأهواء، والغرائز لأنها في أحسن حالاتها هي طاقة تبعث على النشاط والحيوية، والإبداع في العمل سواء كان سياسياً أو غيره إذا ما وجهت الوجهة السليمة، أي عملت والعقل جنباً إلى جنب.

لقد ذكر الباحث أن من الآثار الجانبية لسيطرة الأهواء، والغرائز سواء لدى القيادات السياسية أو لدى الناس والشعوب، هو ظهور ظواهر: التعصب المذهبي، والطائفي، والتعصب القبلي، والأحقاد المكبوتة في اللاشعور. وأحقاد عرقية وكل هذه من موجودات (اللاشعور) أو في الطبقات السفلى من الكائن الإنساني – ننتظر دوماً اللحظات لتفر من رقابة العمل وتظهر على السطح، إنها من تجليات السلوك اللاعقلي **Non rational**، على حد تعبير (هارولد لاسويل).

7– **المزاج الشخصي في معالجة الأمور**: هذا افتراض سيكولوجي آخر، يقوم على الزعم بأن الإنسان مزاجه الحامل للوجهين (السلبي) و(الإيجابي)، ففي حال المزاج السلبي، وفي حالة تحكمه في قرارات الشخص، أو قرارات القيادة السياسية يتم في هذه الحالة لاستبعاد العقل، والمحاكمة العقلية، فالحالة المزاجية السلبية عندما تسود سلوك الإنسان لحظة خلوته لاتخاذ القرار، فلا نتوقع أن يكون قراره صائباً، أو عقلانياً. بل هو قرار صادر لحظة مزاج، قد يسودها في الحالة السلبية: النفور أو تسودها الكراهية الشديدة أو الحب الأعمى، أو التشاؤم المطلق، أو التفاؤل الصبياني، إلخ من المشاعر التي تداهم مزاج الفرد، أو القيادة لحظة القرار، أو إدارة الأمور، أو النظر في الأزمة، أو الصراع، وأيضاً للإنسان حالة مزاجية إيجابية تساعد على حل المشكلات بشكل أفضل، واتخاذ القرارات العاقلة والحالة المزاجية الإيجابية هي التي تكون على مسافة واحدة من مختلف المشاعر والانفعالات المتطرفة، مبتعدة عنها.

وفي عالم القيادة السياسية، صاحبة المسؤوليات الكبرى، والصغرى، فالمطلوب من القيادة صاحبة القرار أن تكون غير أسيرة للحظات المزاجية السلبية.

لقد حكمت القيادات السياسية العربية طوال فترات التاريخ السياسي العربي والإسلامي بمزاجها الشخصي، فالشعب يخشى دائماً مزاجية السلطان، غضبه، وفرحه، حزنه، وأتراحه، فشله، ونجاحه، فالحاكم على ضوء هذه المشاعر، يحكم شعبه، فهو يحتاج كالصبي، ويحطم، ويكسر، ويدمر لحظة الغضب، ويرمي الأوراق في وجه من حوله من المرؤوسين، ويوبخ حجابه، وسكرتيره، ويعنف زوجته، ويخاصم أصدقاءه، وكذا في حال الحكم الفردي فهذه الحالات التي ذكرناها تعكس افتراضاً قابلاً للإثباتات التاريخية، حيث عرض الباحث حالات نموذجية في بطون صفحات هذا العمل.

8- **الميول المتطرفة**: التطرف موقف سلوكي وقاعدته سيكولوجية، ويتخذ في مرحلته الثانية طابعاً فكرياً، إنه تجاوز للاعتدال، والتوازن، والعقلانية، وقد امتلأ التاريخ السياسي العربي الإسلامي بالمواقف المتشددة المتطرفة، صحيح أن التطرف موقف إنساني وليس قصراً على السيكولوجية العربية، وقد جاء الإسلام ليضع حداً لظاهرة الغلو التي اتصفت بها الحياة القبلية العربية قبل الإسلام، وقد دعا القرآن الكريم أهل الكتاب بأن لا يغلو في دينهم، وهذه إشارة إلى التطرف، فهذا الموقف يعبر عن ظاهرة إيمانية اعتقادية، وتتنافى والتفكير العلمي، وعندما أقول ظاهرة إيمانية اعتقادية فيجب أن نضيف: متطرفة، أي الإيمان المتطرف، وقد ارتبطت هذه الظاهرة بالدين، وأيضاً بطبيعة الإنسان السيكولوجية، لقد كانت الكاتبة الفرنسية صاحبة الاسم المستعار تحت اسم (مدام دي ستايل) **Mme. DeStael** تقول أنها تجد متعة في الانتقال من تطرف إلى تطرف آخر. **Del, exremite a l , autre**

وأما بروز ظاهرة التطرف على مستوى القيادات السياسية، فلها خطورتها وهي تشوه العمل السياسي ولقد انعكست هذه الظاهرة في كيفية التعامل بين السلطة والمعارضة في التاريخ السياسي العربي الإسلامي ولقد ثبتت هذه الفرضية أيضاً بشواهد كثيرة من التاريخ السياسي العربي، كما سيذكر بعضاً منها في الكتاب.

9- **استبعاد العنصر العربي**: وهذه خاصية التاريخ السياسي العربي، بمعنى أن العرب وبدءاً من العصر العباسي الثاني كما سيكتب الباحث فيما بعد، قد تخلت عن القيادة السياسية عندما استفحل أمر وصول العناصر غير العربية، بعد اعتناقهم الإسلام في البلاد المفتوحة، وتدحرجهم شيئاً فشيئاً إلى حياة قصور الحلفاء، ومن ثم توليهم مناصب الوزراء، والولاة في الأمصار الإسلامية إلى أن أحاطوا بالخلفاء العرب، وحلوا محلهم أو على أقل تقدير أصبحوا هم أصحاب القرار العربي يعملون في الظل، وأحياناً استطاعوا الإطاحة وقتل الخلفاء، علماً أنهم ظلوا يحملون المظلة الإسلامية.

وكان من الآثار الجانبية لدخول عناصر غير عربية الحياة السياسية والاجتماعية ظهور حركات الشعوبية، وتأثيرات الموالي، في مختلف مناحي الحياة وفي مختلف أرجاء الإمبراطورية العربية الإسلامية، وانتهى الأمر بفساد هؤلاء وإلى سقوط وانهيار الحضارة العربية الإسلامية.

10- **اللاشعور السياسي (الفردي والجمعي) ودوره في الممارسة والخطاب السياسيين**: هو عبارة عن منطق داخلي، لا عقلاني غير خاضع لرقابة العقل، أو الضمير ويحتل منطقة واسعة من الجهاز السيكولوجي للفرد.

فالدوافع اللاشعورية وتكويناتها المتأثرة بالمجتمع، تظهر تأثيراتها في عمل القيادة السياسية السياسية وكان لها تجلياتها الشعورية واللاشعورية (غير الواعية) والأخيرة قد ظهرت في كيفية إدارة القيادة للأزمات والصراع وصناعة القرار.

أما بالنسبة للاشعور (الجمعي) فهو من خاصية الشعوب وتكوين مخيالها السياسي، وفقدان الرقابة والمحاسبة وانتشار الفساد، وأحياناً نرى تجليات اللاشعور الجمعي في ما يطلقه الشعب من أحكام متعلقة بالشعوب الأخرى، من مواقف وأحكام مسبقة، وهي مجموعة رواسب راكدة في أعماق اللاوعي تظهر أثناء الأزمات والصراعات وتؤججها القيادات السياسية.

وقد ألحق الباحث بهذا العنصر، عناصر لا شعورية فرعية، مثل: التناقض الوجداني، الانشداد إلى المواقف اللحظية، تنافر الأمزجة - العلاقات الشخصية، وأخيراً جاذبية السلطة.

8- العوامل الخاصة كنظرية، عموميتها، وخصوصيتها في المجتمعات:

عندما ذكرنا كلمة العوامل، وأضفنا كلمة الخاصة، فذلك لمعارضتها للعوامل الموضوعية والتي يهملها الباحثون عادة في دراساتهم وبحوثهم التي تدور حول تفسير عمل القيادات السياسية العربية وإدارتها للشؤون، ولم تكن تعني بالخاصة أنها خاصة بالتاريخ السياسي العربي الإسلامي، وهنا يمكن للقارئ بعد وقوفه على مجموعة العوامل الخاصة هذه، أن يطرح أكثر من سؤال يتعلق بمدى خصوصية هذه العوامل وتوافرها في التاريخ العربي، ومدى عموميتها بحيث تجدها لدى القيادات السياسية الأخرى غير العربية، ولدى الشعوب الأخرى.

وثمة أسئلة من نوع آخر يمكن طرحها، وهي في مدى حتمية وجود هذه العوامل ومدى اكتسابها من البيئات الاجتماعية، وبتعبير آخر هل هي مكتسبة أم وراثية. وهل هي قابلة للتعديل، وإخضاعها لرقابة العقل الفردي، والعقل الاجتماعي؟

أما من حيث توفر هذه العوامل التي ذكرنا لدى القيادات السياسية، والشعوب غير عربية، فإننا نتصور وجودها، وبدرجات متفاوتة، والتاريخ السياسي العربي لا يتفرد بها رغم ما ذكرنا في كثير من المواقع الخصوصية العربية.

وهنا نعني بخصوصية العوامل الخاصة أننا عندما وقفنا على مدى استمراريتها على مدى قرون ممتدة وتوفر الظروف الاجتماعية لهذه الاستمرارية منذ بدايات العصر الأموي، وحتى يومنا هذا، خيل لنا وكأنها قدر اجتماعي وفردي لا راد لها، أو كأنها حتمية، تأصلت في السيكولوجية الفردية للقيادات السياسية، لا تخضع للتبديل ولا للتغيير.

لا شك أن هيمنة هذه العوامل أو بعضها، أو أحدها على الشخصية القيادية، وعلى شرائح الأغلبية من أفراد المجتمع، يجعل منها خطورة عظيمة الشأن في قدرة هذه القيادات، وأفراد المجتمع على البقاء، والاستمرار في العيش في عالم تنتظر فيه كل قوة، لتفكر بالانقضاض، أو باستغلال هذه السلبيات لدى الدول، والكيانات الضعيفة، وسيما وأن عالمنا العربي ساحة صراع عالمية، نظراً لموقعه وأهميته الإستراتيجية، كما ذكرنا سابقاً.

وتاريخ هذه المنطقة خير شاهد على انقضاض القوى: المغولية والتترية، والصليبية، والأوروبية المستعمرة. والدول الكبرى في عصرنا الراهن على هذه المنطقة.

وعلى كل حال إن هذه العوامل ظاهرة عامة لدى المجتمعات. فعامل التطرف أو الفردية أو الذاتية، أو الانهماك بملذات الحياة (والانغماس في حياة المجتمعات الاستهلاكية)وغير هذه العوامل السيكولوجية لا يصعب توفرها لدى مختلف أنماط القيادات السياسية، وقد عج تاريخ الممالك الإمبراطورية القديمة بأنماط قيادية منفردة ومستبدة، وطاغية، ومنغمسة في ملذات العيش الرغيد على حساب الشعوب وليست هذه العوامل مقتصرة في وجودها على العرب وحدهم، ولكن خطورتها على المستوى العربي، أنها شكلت مع مرور الزمن جزءاً كبيراً من تكوينه الفكري وشغلته على مدى قرون في وكذلك أصبحت جزءاً من المخيال السياسي العام من قبيل: الذاتية (توريث الحكم) و (الفردية) الانفراد في السلطة والاستئثار بها (وأسلوب التعامل المتطرف في إدارة الشؤون العامة، وكيفية التعامل مع التيارات المعارضة للحكم بحيث أصبح لهذه العوامل جذور اجتماعية، وتوفرت حولها قناعات شعبية مع مضي الزمن ومع كل هذا، فيعتقد الباحث أن كافة هذه العوامل يمكن تحييدها.

والآن يمكن صياغة عمومية هذه العوامل الخاصة على الشكل التالي:

كلما ضعفت درجة الرقابة العقلية في أية مؤسسة، أو قطاع، أو منظمة أو مجتمع لدى المسؤولين أو القيادات السياسية العليا كلما زاد تأثير هذه العوامل الخاصة. وعلى العكس كلما زادت درجة الرقابة، قلت فرص ازدياد درجة استبداد هذه العناصر، أو بعضها أو إحداها على مسالك القيادة، أو المجموعة. أو الشعب.

وفي فترات استيلاء اللاعبين السياسيين على السلطة بالقوة والعنف، كما تحقق وصول القيادات السياسية (تاريخ الخلافة) بالسيف ثم بالوراثة، مقابل تراجع إرادة الشعوب في وضع حد لهذه الوسائل التي توصل اللاعبين إلى سدة السلطة تظهر هذه القيادات، وتنفرد بالسلطة ومن ثم نتوقع (أو نتنبأ) بإتاحة الشعوب لهذه القيادات السياسية عند وصولها بوسائطها المذكورة الفرصة، لأن تلعب دورها القيادي السلبي في تعاملها مع الأمور.

لقد رأينا بعض الكتاب في الفكر الأوربي المعاصر، كيف فسروا ظهور بعض القيادات السياسية المتسلطة المتفردة وبتحليل هذه الشخصيات بكامل خلفياتها الاجتماعية والثقافية، واستعداداتها الشخصية لممارسة التسلط، والإرهاب وكيف أتاحت الشعوب لها الفرصة في لحظات معينة من التاريخ، الوصول وبالتالي توفر لها ساحة كبيرة إن صح التعبير لهذه القيادات تمارس تسلطها، وفرديتها، من قبيل دراسات علماء النفس التحليلي لظاهرة الدكتاتورية ودراسات (هارولد لاسويل) للأمراض السيكولوجية السياسية، ودراسات (أدورنو) للشخصية المتسلطة، وحتى كتابنا العرب في العصر الحديث لم تخل كتاباتهم من إدانة ظواهر الفساد، والاستبداد والتفرد وفي السلطة، وبالتالي هيمنة الدوافع السيكولوجية على شخصياتنا القيادية (عبد الرحمن الكواكبي، والأفغاني)، وغير هذين في تاريخنا القديم (تاريخ الخلفاء) المتعلق بمسالكهم - (السيوطي) وكما سنرى تفاصيل كل ذلك في الصفحات التالية.

أضف إلى ذلك أن المجتمعات المتقدمة التي تسودها الأنظمة الديمقراطية وتسود فيها الرقابة المؤسسية (مع قناعتنا بسلبيات هذه النظم الديمقراطية) فإن دور الرقابة المؤسسية، والمعارضات السياسية القائمة يقوم بكبح جماح هيمنة العوامل الخاصة أو بعضها، أو أحدها على القيادات السياسية وتكشف عورتها، إن وجدت، وتخضع أصحابها للمساءلة، والعكس من ذلك ففي الدول النامية مازالت فيها الرقابات المؤسسية ضعيفة ودور الشعوب حيث (العقلانية الرشيدة) لا تكون رائدة، فهذا الدور ما زال ضعيفاً، لذلك فإن إمكانية الانفلات السلوكي للقيادات السياسية في هذه الدولة أو هذا المجتمع أو ذاك تظل قائمة.

9- إثبات الفرضيات:

لإعطاء أدلة إثبات للفرضيات التي ذكرت في الصفحات السابقة، فقد أمدنا التاريخ السياسي العربي الإسلامي، وخاصة بعد العهدين المحمدي والراشدي بفيض من الإثباتات توضح ما تريد قوله فرضيات البحث، وقد عمد الباحث إلى التدرج، والتسلسل التاريخي متبعاً مجموعة من الخطوات المتعلقة (تاريخياً) بكيفية إدارة الأزمات، في الكتاب الأول من هذا العمل وخطوات أخرى (أيضاً حسب التسلسل التاريخي) حول كيفية إدارة الصراع.

– إدارة الأزمات في السياسة الدولية الإسلامية الناشئة – القيادة النبوية السياسية.

– إدارة الأزمات السياسية في العصر الأموي، بداية وتشكل (الملك السياسي).

– إدارة الأزمات السياسية في العصرين العباسيين.

لقد بينت الإثباتات المستخرجة من التاريخ السياسي، ما عدا العهدين النبوي والراشدي اللذين اعتبرا مرحلة استثنائية في التاريخ السياسي.

إن العوامل الخاصة التي ذكرت الفرضيات السابقة، قد هيمنت كلها، أو بعضها حسب الحالات السياسية للقيادة، أو أحد عناصرها المهمة في الحياة السياسية عموماً وفي طرق إدارة الأزمات والصراعات خصوصاً، والتزاماً بالتعريفات التي أعطيت لكل عامل من عوامل الفرضيات.

وكذلك واستكمالاً لإثبات الفرضيات عرض الباحث أسلوب إدارة الأزمات المقترح لدى مفكري – السنة والشريعة، والمفكرين والفلاسفة في تاريخ الإسلام وأخيراً كتابات الأحكام والأدبيات السلطانية، مع إعطاء أهم الأفكار المستخلصة من هؤلاء حسب الأسلوب الاستنباطي كما ذكرنا حول: إدارة الأزمات.

ولمتابعة النظرة التاريخية لهذا الموضوع وصل الباحث إلى العصور الحديثة في الوطن العربي وانتقال إدارة الأزمات من القيادات السياسية إلى الشعب حيث واجه الظاهرة الاستعمارية.

وجاء الكتاب الثاني، واتبع الباحث الخطوات السابقة، ولكنها في هذا الكتاب حول: كيفية إدارة الصراع في التاريخي السياسي العربي – الإسلامي تجلت هذه الكيفية في العهدين النبوي والراشدي في إدارة الصراع النبوي ضد الوثنية، والشرك، وتجلت في العهد الراشدي ضد المرتدين في عهد (أبي بكر)، وصراعه معهم وبخاصة في إدارة الصراع ضدهم ثم في عهد (عمر بن الخطاب)، وصراعه الخارجي لمد الفتوحات الإسلامية بهدف نشر الدعوة المحمدية.

وقد اقتضى التسلسل التاريخي العربي الإسلامي العام إلى العصر الأموي والعباسي، وثم مرحلة الانحطاط، وعصر النهضة والعصر الحديث والمعاصر.

فالباحث اتبع هذا التقسيم المرحلي للتاريخ، ولكن عالجه في جانبه السياسي، وتاريخ العمل السياسي حيث عرض:

10- **تجليات إدارة الصراع في**: العصر الأموي وتجلياتها في العصرين العباسيين (الأول والثاني) ثم مرحلة الركود وخروج القرار من السيادة العربية والإمساك به من قبل قيادات سياسية غير عربية، ثم تم الانتقال إلى إدارة الصراع الخارجي من قبل الشعوب في الحروب الصليبية والظاهرة الاستعمارية في العصور الحديثة وكان الشعب في هاتين الحالتين يقوم بدوره إلى جانب قياداته الوطنية.

تجليات العوامل الخاصة في إدارة الأزمات (مرحلة النشوء)

في الفصل الخامس، عالج الباحث في مقدمته كيفية معالجة الأزمات في عصر ما قبل الإسلام، ما اصطلح على تسميته بالعصر الجاهل، وكيف أن شيخ القبيلة هو المرجع في النظر في الأزمات، ولدوره الرائد في صناعة القرار، وإدارة الأزمات التي تعرض عليه، وكذلك فض المنازعات.

أما عند ظهور الإسلام، العقيدة الجديدة. أصبح المرجع الأول والأخير هو الوحي المحمدي في معالجة الأزمات، وقد مثل النبي محمد (ص) القدوة لكونه كان المنفذ الأمثل لتعاليم الوحي القرآني في إدارة دفة الأمور من ضمنها معالجة الأزمات.

لقد جاء الإسلام بأفكار في غاية الجد والجدية عن المجتمع والقيادة، وبناء المجتمع الإسلامي على الوحدة، وتنظيم العلاقة بين الحاكم والمحكوم، فالمجتمع الصالح بحسب التعاليم الإسلامية ينتج حكاماً وأفراداً صالحين وقد وضع حداً للانقسامات والخلافات القبلية، ورغم أن الأمور سارت على ما يرام، ولكن لم تمح تماماً المواقف القبلية القديمة كالعصبية والتطرف وإيثار الحياة الدنيا ونعيمها.

وبدأ دور العقيدة تخف وطأته في إدارة الأمور، وحل المشكلات وبدأ المسمون يهرعون إلى وسائل أخرى يأباها الإسلام، ذلك حصل في بداية حادثة مقتل الخليفة (عثمان) ثم مطالبة الأمويين بالثأر، والثأر هذا، هو من الآثار القبلية المهجورة، والقابعة في الأعماق، لكنها ظلت بانتظار الفرصة لتفلت من عقالها.

كذلك بين الباحث أن (الفتنة الكبرى)، وقد دعاها الباحث بالأزمة الكبرى كان من أهم أسبابها ليس الدفاع عن العقيدة، أو الاحتفاظ بالوحدة الدينية بقدر ما تجلت في الصراع على السلطة.

ثم انتقل هذا (الانحراف) عن مسار العقيد الإسلامية، كمرجعية مطلقة في الحكم وإدارة الأمور ولينقلب في العصور الأموية والعباسية وعصورنا الحديثة تحت شكل آخر مختلف، >أخذت العوامل العامة (كالقبلية، والغنيمة) والعوامل الخاصة تحرك السلوك السياسي<: كالتعامل المتطرف والعصبية والمذهبية وأصبحت تدار الأزمات بأساليب غير معقولة طوال هذه العصور من قبل الخلفاء، ومعارضيهم على حد سواء.

11- تجليات العوامل في الكتابات, الأدبيات السياسية:

اتخذت مجمل الكتابات السياسية النظرية في التاريخ الفكري السياسي العربي طابعاً خاصاً فلقد عرض الباحث نظريات أهل السنة، والجماعة، والشيعة، تصوراتهما لإدارة الأمور في الدولة، وكانت تصوراتهما تتركز حول: القيادة السياسية المتمثلة في الفرد، أي الحاكم الفرد حيث أوكلت إليه نظرياتها إدارة الأزمات والمشكلات الطارئة على المجتمع الإسلامي.

فالسنة التزمت نظرياً بالمرجعية الشرعية كما في القرآن والسنة النبوية، ولكنها من الناحية العلمية تكيفت مع القيادة السياسية المتواجدة على الساحة السياسية، مكتفية بلفت انتباهها إلى الالتزام بالشرعية.

أما بالنسبة للفكر الشيعي، فلقد انصب اهتمامه نظرياً وعمليا على شخص الإمام وكيف وجد هذا الفكر، ووجد كامل الشرعية في منصب الإمامة التي هي ظل الله وآيته، وبالتالي أوكلت إلى الإمام، والمرشد الأعلى صناعة القرار في الأزمات، ومع عدم تخليها بشكل مطلق وخاصة في عصرنا الحاضر عن دور الشورى في صناعة الإمام للقرار.

أما كتب الأحكام والآداب والنصائح السلطانية، والملكية، فقد عالجت أساليب الحكم وعلاقة الحاكم بالمحكومين، وبكيفية إرضاء الرعية للحكم، وأخيراً تصورات أصحاب هذه الكتابات لإدارة الشؤون العامة وشؤون الأزمات.

الفلاسفة في الإسلام، بدورهم كمفكرين يهمهم الشأنين الاجتماعي والسياسي، لم تغب عن مخيلتهم، وفكرهم مشكلة القيادة والإدارة خاصة أن الفلاسفة لمرحلة ما بعد (الكندي) أي منذ بداية عصر الفارابي، حيث بدأ الفساد السياسي والاجتماعي يدبان في المجتمعات الإسلامية.

لقد وضعوا بدائلهم وحلولهم الفلسفية الخاصة للمدن الفاسدة، الماثلة أمامهم فتصوروا مدناً أخرى فاضلة يرأسها حكام عقلاء، وقد ذهب الفلاسفة تبعاً للتقاليد الفكرية، والعملية في التاريخي السياسي العربي الإسلامي وتركزها على: الحاكم الفرد، فلم يخرج هؤلاء عن هذا التصور حول أهلية الفرد الواحد للحكم شريطة أن يكون حاكماً، ورعاً، مشاركاً، وفيلسوفاً، أو عقلانياً، ويجب أن تتوفر فيه كافة الصفات المثلى التي وردت في الكتابات السنية حول (الخليفة) والشيعة في (شخص الإمام).

والنقطة الثانية لدى الفلاسفة في الإسلام، هي تصورهم مدناً فاضلة على رأسها حكام عقلاء، وهذه المدن لم ينقص تصورها الجانب الخيالي، مما جعل البشر منذ ولادة أفكار هذه المدن غير قادرين على بنائها علماً بأنها شكلت تحدياً واستفزازاً للمجتمعات البشرية على أن باتوا يمثلها في الواقع.

12- تجليات العوامل في نظام وتاريخ الخلافة:

وهنا نصل إلى بيت القصيد، أي أن تاريخ الخلافة يعكس لنا تماماً الواقع الفعلي السلوكي والواضح، والفكري في الخطب، والأقوال أسلوب التعامل وقد تتجلى في كل ذلك تأثير العوامل الخاصة التي هي محور هذا العمل وقاعدته النظرية.

فمنذ الفتنة الكبرى – الأزمة– في عهدي (عثمان وعلي) برزت الصراعات بين اللاعبين السياسيين على السلطة والرياسة على تعبير العرب من ناحية، وبروز الجوانب الأخرى من الصراعات على صعيد الأفراد أي (نبش) كافة مظاهر العصبية، القبلية والمفاخرات، والمناحرات، والنعرات، الحروب اللسانية.ويتلخص تاريخ الخلافة، رغم طوله، وامتداده على مدى قرون أربعة على أقل تقدير فيما يلي:

1- **بالنسبة إلى أزمة الخلافة**، لم تحل أو تدار هذه الأزمة سواء في حادثة مقتل الخليفة (عثمان) أو (معركة صفين) بين علي ومعاوية: بالشكل العقلاني بين اللاعبين لم يتم الرجوع إلى الشرعية الإسلامية.

كذلك لم تستشر الرعية في الأزمة، ولا في الصراع، ولا في القتال، بل لقد سل اللاعبون السيوف وتبعهم من تبعهم من الأنصار والمشايعين وقد تم استبعاد: العقل والشراع من ناحية، من ناحية ثانية تم استبعاد أبناء الرعية، وبدأت تحل الخلافات أو تدار الأزمات بحد السيف.

2- **ومنذ تلك الواقعة بدأ تاريخ الخلافة الفعلي يأخذ مجراه**، وسجل هذا التاريخ هيمنة النزعات: العصبية والتطرف القبلي، في التعامل بين أطراف النزاع والأزمة ويعيش هذه الممارسات منذ بداية العصر الأموي. كان معظم الخلفاء الأمويين يقابلون المعارضين بالشدة والعنف، وكان المعارضون يسلكون النهج ذاته.

3- **قصى العباسيون بثورتهم على السلطة الأموية**، وهو أمر ليس بالغريب، فقد حدثت ثورات كثيرة في التاريخ، ولكن في الحالة الخليفية العربية الإسلامية، ووصول العباسيين بثورتهم إلى الإطاحة بالأمويين فقد جاؤوا يحملون أهدافاً معينة في الإصلاح وتأسيس المجتمع الصالح، وإبعاد الرعية عن الظلم والفساد، ولكن لم يحقق العباسيون هذه الأهداف، وما حصل في واقع خلافتهم أن: تفرد الحلفاء في السيادة الخليفية، وهيمن على فكرهم، وسلوكهم همهم الأكبر، وهو القضاء على المعارضين من بني هاشم (العلويون) وغابت هموم الرعية ومصالحها عن اهتمامات بين العباس.

ومن ناحية ثانية أخذ الخلفاء، وحسب مبدأ (التوريث) ينشغلون في توليه كل واحد منهم من سيليه، في الخلافة، وتوريعه الوصايا بالقضاء على هذا الجناح وذلك من المعارضين وحديث تأثير العوامل الخاصة على مسارات العمل السياسي، وإدارة دفة الأمور لا يكتمل إلا بالحديث عن أمرين اثنين:

1- التعامل مع المعارضين بالأسلوب الذي كان قد اتبعه بنو أمية، أي استخدام الشدة والعنف والاستئصال، وقد بدأ هذا المشروع الاستئصالي الخليفة (أبو العباس

السفاح) وبدورهم، فإن المعارضين لم يألوا جهداً في طلبهم بالشرعية وبالتالي استخدام الأساليب الثورية في محاولة مواجهة السلطة القائمة.

لم يتم التداول على السلطة بين السلطة والمعارضة، سلماً أو بالطرق الراشدة من ناحية، وكل ما حصل هو الاستئثار بالسلطة خليفة بعد الآخر من بني العباس وحدهم.

2- استبعاد العنصر العربي، وذلك في بداية العصر العباسي (الثاني)، فكان أول مسمار في نعش السيادة العربية.

3- تم استبعاد جميع نخب الرعية: أهل الرأي والحكمة، والعقل، وأهل الحل والعقد، وأهل الشورى في الحياة السياسية طوال فترة الخلافة العباسية، والواقع كان البعض من هؤلاء يدعون للاستشارة، ولكن الرأي الأخير هو للخليفة.

4- تمت متابعة تقليد: الحكم الفردي، والحاكم بأمره، ورغم بعض التجليات النورانية الإشعاعية التي راعها بعض الخلفاء، ودفع عجلة الحضارة العربية الإسلامية بتشجيعهم مختلف أنماط التقدم العلمي، والأدبي والفكري إلا أن النشاط العقلي الحر، أو خلق نوع من التوازن بين الثقافة الدينية، وبين الثقافة العقلية وخلق أرضية حوارية بينهما (ربما باستثناء الفترة التي ظهرت فيها فرقة المعتزلة) والمناقشات حول مسألة خلق القرآن، حيث دارت بعض النقاشات في أجواء ثقافية نامية مفتوحة ولكن سرعان ما أغلقت الأبواب أمام هذه الأجواء كما سنرى فيما بعد إلا أن الصورة العامة لطوال الفترات العصرين العباسيين كانت قاتمة بدليل أن ما شهده تاريخ هذه المرحلة من بدايات الانهيار السياسي أو لا ثم الانهيار الحضاري منذ نهاية القرن الرابع الهجري.

إدارة الأزمات في العصر الحديث:

نستطيع القول أنه، ومنذ (الحملة الفرنسية)1798 حصلت نقلة نوعية في إدارة الأزمات إذا خرج الشعب إلى ساحة الأزمة وعمل، طبعاً بقيادته حينذاك، على إدارة الأزمة لأن الأمر كان ببساطة إدارة خطر خارجي.

ومن ثم بدأ هذا (الوعي) الشعبي يأخذ مجراه عندما بدأ التغلغل الأوروبي، وبروز الظاهرة الاستعمارية.

لقد عرضنا بعض الحالات التي تمت من خلالها الإدارة الشعبية للأزمات الواردة من الخارج، وبعد حصول الاستقلال لكافة الدول العربية، وبداية تأسيس هذه الدول أو الأقطار – الدول، عادت بعض العوامل الخاصة في أحداث تأثيرها في تشكيل القيادات العربية السياسية من هذه العوامل عودة إلى ظاهرة: الفردية والذاتية، في الحكم، وممارسة أسلوب التعامل بين القيادات لمرحلة ما بعد الاستقلال والمعارضات، هو ذاته كما كان يمارس في التاريخ السياسي،(تأثير العامل التاريخى)–يدخل هذا ايضا فى نطاق الاثار الجانبية– أي التعامل: المتطرف أيضاً من كلا الجانبين (ولا زال هذا الأسلوب سائداً في أقطارنا الوطن العربي بطريقة أو بأخرى)، أي أسلوب السلطة والقيادة، والمعارضة كلاهما يتفاهمان بنفس الأسلوب: الاستبعاد، والاستئصال، ومحاولة قضاء كل طرف على الآخر والتخلص منه.

5– أما بالنسبة لإدارة الصراع، فتاريخ الخلافة يسجل لنا أمرين جوهريين، أولهما إدارة الصراع الداخلي، والثاني إدارة الصراع الخارجي.

فالإدارة الأولى أي إدارة الصراع بين السلطة، والمعارضة، فلقد سجل لنا العهدان النبوي، والراشدي حالة خاصة، واستثنائية في الإدارة الناجحة للصراع، أول ذلك ما حققته القيادة النبوية في إداراتها للصراع ضد المشركين وكان النبي يدير الصراع منذ بداية أمره بالمرجعية الإلهية والوحي الذي يتلقاه أو يهديه نحو إدارة هذا الصراع بالإضافة إلى أسلوبه النبوي المنطلق من: الفطرة أو السليقة وحدسه، وخبرته.

وقد سن هذا الأسلوب، وقبل ذلك المرجعية القرآنية لمن جاء بعده من أصحابه، فعمل الخليفة (أبو بكر) في مواجهته الصراع ضد المرتدين مستهدياً بالمرجعية الشرعية بالإضافة إلى خبرته الخاصة وفطرته واستئناسه بالسنة النبوية.

وكذلك الأمر بالنسبة للشيخ (عمر بن الخطاب)، وفي عهد هذا الخليفة تبدأ إدارة الصراع مع الخارج، أي: الشروع أو بالأحرى متابعة الفتوحات التي كان النبي قد شرع في البدء فيها لنشر الدعوة الإسلامية.

وسجل الشيخان إدارتهما للصراع الداخلي والخارجي نجاحات ملحوظة.

وحدثت نقلة في عهد (عثمان) و(علي) رغم أن عثمان تابع عملية الفتوح في عهده، إلا أن إدارة الصراع عموماً، وخاصة إدارة الصراع الداخلي حدثت فيها نقلة نوعية، وذلك أن المسلمين بدؤوا يقتتلون ويديرون الصراع بعيداً عن: الهدي القرآني، والعقلانية والرشاد.

ولم تعد القيم الإسلامية تلعب سوى دور مخفف، ملطف لأجواء الصراع، ولم يكن للعقيدة الدور الحاسم فلقد تجاوز المتصارعون أسس العقيدة في حسم الخلاف واللجوء إلى كلمة سواء.

أما في العصر الأموي أيضاً فقد شهد تاريخ الخلافة عن أمرين وهما:

الإدارة اللاعقلانية للصراع بين خلفاء أمية، ومعارضيهم، هذا على صعيد الإدارة الداخلية.

أما على صعيد إدارة الصراع الخارجي (الفتوحات)، فلقد شهدت فترة الأمويين إدارة للصراع (الفتوحات) إدارة ناجحة بمقاييس إدارة الصراع، الأهداف والنتائج.

ولكن الإدارة غير الرشيدة للصراعات والنزاعات الداخلية طوال مرحلة تاريخ خلفاء بني أمية قد ألقت بظلالها الكثيفة:

أولاً: على الأمويين أنفسهم، وعلى إدارتهم للصراعات الخارجية.

ثانياً: جاء العباسيون، ولم يحدثوا نقلة نوعية في أسلوب الحكم ولا في إدارته، ولا في إدارتهم للصراعات الداخلية، بل لقد ساروا على نهج من سبقهم، أي أنهم عالجوا صراعاتهم مع المخالفين، والمعارضين، بأساليب الشدة، والعنف، والاقتتال، بدءاً بصراعاتهم ضد حلفائهم من بني هاشم.

وقد لجأ أصحاب المعارضة إلى أساليب التمرد والثورة وتأجيج الصراع ضد حلفائهم بالأمس (بني العباسي) فكانت إدارة الصراع الداخلي أيضاً تعاني من فقدان العقلانية والرشاد، فضلاً عن استبعاد: عاملي: العقل والشرع في التعامل.

كانت الرعية وسط هذه الصراعات تعيش أزماتها الخاصة، بعيدة عن صراعات السلطة ومعارضيها، وتعيش همومها الخاصة، وكانت إدارة الصراع الخارجي في العصر العباسي الأول قد سارت، أي إدارة الفتوح بطيئاً، وتمشي على استحياء، مقارنة مع

الفترات السابقة في الفتوح، اختتمت مرحلة الصراع الخارجي بموقعه (عمورية) وفتحها من قبل الخليفة (المعتصم).

بدأت إدارة الصراع في العصر العباسي الثاني تدار منذ البداية من قبل طرف جديد (غير عربي) (في إدارة الصراع الداخلي)، حيث تم منذ بداية هذا العصر العباسي الثاني استبعاد العنصر (غير عربي) وسجل بداية ابتعاد السيادة العربية عن القيادة.

ولقد سجل تاريخ الخلافة العباسية منذ بداية العصر العباسي الثاني بداية النهاية لوضعين:

أولاهما: ابتعاد العنصر العربي من القيادة السياسية شيئاً فشيئاً.

ثانيهما: بداية انطفاء شعلة الإشعاع الحضاري العربي الإسلامي.

حيث شهد التاريخ العام، سقوط الإمبراطورية العربية الإسلامية، وتوقف المد الحضاري في العلوم، والآداب، ومختلف أنماط التقدم الفكري، والروحي.

النقلة الكبرى في إدارة الصراع (العصور الحديثة):

مع الظاهرة الاستعمارية ظهر منعطف كبير في إدارة الصراع، إذ برز دور الشعوب التي شرعت منذ بداية التغلغل الاستعماري بفطرتها السليمة بالمواجهة والمقاومة، وانقادت بنفسها لتصنع إدارتها الخاصة، وبالتعاون مع القيادات الوطنية في مختلف الأقطار العربية في: رفض التغلغل والمواجهة، والمقاومة، والتحرك نحو الفعل، لأن المشكلة لم تعد أزمة، بل تعدت الأمور لتصبح صراعاً ضد محتل الأرض والوطن، والاعتداء على الوطن وأبنائه، وقبل كل ذلك أدركت الشعوب أن المحتل جاء لينهب خيرات الأوطان، ولم يكن للشعوب خيار سوى المواجهة وإدارة الصراع بنفسها، وبالإمكانات المتاحة.

لقد تجلت إدارة الصراع الشعبية في حالات عرضها الباحث في كتابه الثاني أي صراع فلسطيني وصراع السويس.

بينما توقفت الإدارة الشعبية للصراع الخارجي في هزيمة الخامس من يونيو (1967)، بغض النظر عن أن الجيوش قد قامت بواجبها، ولكن المشكلة أن إدارة الصراع في القيادة السياسية العربية كان يشوبها خلل كبير.

ويمكن القول أن الخلل في إدارة الصراع في حرب يونيو (1967) كامن في أن بعض العوامل الخاصة التي ذكرنا في فصلنا الرابع قد حملت من خلال تأثيرها السلبي على القيادات، ودفعتهم نحو الفشل في إدارة هذا الصراع. ولعل أهم هذه العوامل الخاصة تغلغلاً وتأثيراً في القيادات السياسية العربية: الفردية في الحكم، واستبعاد العقل، أي استبعاد المشروع الديمقراطي والمشاركة السياسية باعتبارهما مشروعين عقليين في إدارة الشؤون السياسية وبالتالي إدارة الأزمات والصراعات.

هذا بالإضافة لتأثير تراكمات تاريخية–الاثار الجانبية– في المخيال الشعبي العربي، مما أثر بدوره في الموقف من الصراع، أو بتعبير آخر إن التركيبة المجتمعية التي أوجدت قياداتها السياسية قد ساهمت في هذا الخلل.

13– الآثار السلبية لهيمنة العوامل الخاصة في العمل السياسي:

من استعراضنا لعمل القيادة السياسية العربية لمرحلة ما بعد العهدين النبوي، والراشدي وكيفية تعاملها مع الأزمات والصراع، وكذلك تركيبة مخيالنا السياسي، ومدى تأثير العوامل الخاصة على الجانبين وما نتج من سلبيات القيادات السياسية وخاصة في العصور الكلاسيكية حول تجاهل دور (الرعية) في القرار السياسي بالإضافة إلى تجاهل دور أهل الرأي، وأهل الحل والعقد وأهل الشورى، وتحييد المرجعيتين: الشرعية– العقلية، جعل كل ذلك تاريخياً السياسي الذي يتمحور حول النظام السياسي تاريخياً معلقاً طوال فترات التاريخ بنمط خاص من القيادات السياسية هيمنت عليها جملة من العوامل الخاصة.

ولا شك أن مقولة البعض حول قدرية هذا الواقع، هي مقولة لا يقبلها العقل الناقد، فالإنسان العربي سواء كان فرداً أم مجموعة صعد أو صعدت إلى منصب السلطة في محيط عمله الضيق، في المؤسسة، في القطاع، في الدائرة، وفي الحكم السياسي للمجتمع، هو مجموعة من الموروثات التي تلقاها من مجتمعه الصغير– الأسرة– والكبيرن خارج الأسرة حول معنى المسؤولية، والقيادة، وإدارة الأمور.

لقد تلقى فردنا العربي من مجتمعه ونظمه القائمة كالتربية والإعلام وأجهزة السلطة...الخ، قبل أن يصل إلى منصب المسؤولية (شعورياً أو لا شعورياً) مجموعة هائلة من الصفات وردود الأفعال، والأفكار، حول السلطة، ومعنى إدارة الأمور والقيادة،

واتخاذ وصناعة القرار، بشكل لا يتناسب، ونمط التفكير العقلاني، الرشيد وأصبحنا جميعاً في نهاية المطاف ندور في حلقة مفرغة، أي أن المجتمع يرمي بالمسؤولية في سوء إدارة الأمور، ومنها طبعاً إدارة الأزمات والصراعات على السلطة، والسلطة ترمي بدورها المسؤولية على المجتمع وحاصل الأمر أن هذه الحلقة المفرغة يتولد منها دفع الثمن الباهظ لدى الفريقين، فريق القيادات السياسية، والشعوب، فالسلطة تقمع النقد والمعارضة والعقل، والمجتمع يقف مكتوف اليدين أمام هذه الأنماط من سلوك القيادة السياسية، وفي النهاية تنتصر إرادة القوة التي تملكها السلطة وتثبت أركانها، ويتراجع المجتمع عن المطالبة الدؤوبة بالمشاركة، ويتم تهميش المؤسسات كي تظل السلطة المتمثلة غالباً بالحكم الفردي، في الوجود.

إن القيادات السياسية تستثمر وتستغل سلبية الشعوب وضعف مناعتها في المقاومة، وتتحمل الشعوب كما تحملت (الرعية) في العصور الكلاسيكية مسؤولية قبولها طوعاً، أو كراهية لدرجة أصبح هذا القبول مرضاً مزمناً بالواقع المرير، حيث يسوده سياسياً أفراد متفردون في السلطة واستبداديون في الفكر والسلوك.

1- **عنصر الذاتية**، وهو كما قلنا النظرة الشخصية للأمور وللعالم، والذاتية فيما يتعلق بالقيادة السياسية، تشمل ذاتية الشخص الأسرة، والأبناء، والأحفاد وسلسلة مرتبطة بذاتية الشخص، ومن خلال قراءتنا للتاريخ الخليفي لاحظنا الحفاظ الشديد على مبدأ (توريث) القيادة أو السلطة فالقيادة لم تخرج عن (ذاتية بني أمية) ولم تخرج من (بني العباس).

ومن ناحية أخرى نلاحظ استمرار الاحتفاظ بهذا المبدأ في قياداتنا السياسية المعاصرة في الوطن العربي، فالقيادة تشعر بأن السلطة أصبحت من ممتلكاتها الخاصة، أو بمعنى أوسع من ممتلكات القائد وسلالته.

وتؤثر المصالح الذاتية في القرارات في الحياة العامة، إذا أن أفراد الشعب عندما تتملكهم الذاتية في الأعمال الصغيرة والكبيرة فهم يتجاهلون حقوق بعضهم بعضاً.

ومن ناحية ثالثة أن الذاتية هي الوجه المقابل للموضوعية وهي ليست من مهارات التفكير العلمي، وهذه الظاهرة ما زالت تسيطر على مسالك الأفراد في مجتمعاتنا نتيجة ضعف مناهج التعليم التي تقوم على مبدأ التلقي السلبي للمعلومات، وضحها في

الامتحانات، ولا تعلم التلاميذ، والطلبة مهارات التفكير العلمي والتي من أهمها: النظرة الموضوعية للأمور أي المتجردة عن المصالح الخاصة والذاتية، بقدر من المعقولية، والنزاهة والتجرد.

2- **عامل الفردية**: وهو ميل الفرد لأن لا يكترث برغبات الجماعة بحيث يقوم بأعمال تهمه هو كفرد، حتى لو تعارضت مع مصلحة الجماعة، ومصلحة الوطن.

فبالنسبة للقيادات السياسية القائمة على الروح الفردية، والانفراد بالحكم، فقد تمكن الحاكمون بفرض سيطرتهم على الوسائل المادية، والأمنية، وأدوات الإعلام، ووسائل الإغراء، والقمع، من تقسيم المجتمع إلى فئتين فئة تدور في فلكهم وفئة مضطهدة، أو مهملة على أقل تقدير، ترتبط بالذاتية والفردية المتقاربتين من حيث المضامين الأنانية، وما ينتج عنها من الانقسامية كما ألمحنا منذ لحظة أي تقسيم المجتمع إلى من هو: (مع) السلطة الحاكمة والفردية ومن هو (ضدها) (وهذه الثنائية فطرة في السلوك، وهي تحتاج إلى بحث خاص في رأي الكاتب).

وإن استمرارية هذه الروح الفردية في مجتمعاتنا تتجلى أيضاً في تغليب المصالح الخاصة الفئوية أو القبلية، والطائفية أو الإقليمية المحدودة، والذاتية والفردية صفتان تشكلان شبكة من المطالب الخاصة وهما بدورهما تصدر أن من تركيب المجتمع أو الطائفة أو القبيلة حيث تشغل هذه التركيبة الاجتماعية بدفع الأفراد إلى السعي إلى المكاسب العائيلية، أو القبلية، أو المذهبية على حساب المصلحة العليا للمجتمع والدولة.

3- **اللامؤسسية**، وهي النتيجة الطبيعية لهيمنة الذاتية والفردية، فلقد لاحظنا في تاريخنا السياسي الخليفي أن الخلافة كان لها مؤسستها الخاصة هي المؤسسة الخليفية، والتي أوجدت مداخل تأدية الإجراءات اللازمة لتثبيت سدة الخلافة، وليست لخدمة الرعية، كذلك كانت المؤسسات والهيئات السياسية الفاعلة مفقودة في منظومة الخلافة، وقد استمرت هذه الوصفية حتى العصر الحديث ولكن بشكل آخر وهو أن القيادات السياسية العربية قد أوجدت المؤسسات، وأعطتها شكلاً حداثياً، وحدث ما يمكن تسميته بالتشكل الكاذب للنظام السياسي المؤسسي، إذ ظلت هذه الهياكل في خدمة القيادة مع امتلاك هذه القيادات القدرة الكاملة على شطب وإلغاء جميع هذه

المؤسسات بناء على قرار حاكم فردي، ويتم تغييرها أيضاً بقرار الحاكم الفرد، وبجرة قلم، أو صيحة غضب الحاكم.

ومن ناحية أبناء الشعب، فالملاحظ أن عقلية الرجوع إلى المؤسسة لإدارة الأزمات والصراعات ما زالت ضعيفة في مجتمعاتنا، إذ أن الأزمات والصراعات كثيراً ما يدار أمرها ضمن الروح الفئوية – أو المذهبية أو القبلية. فمدونات القوانين والدستور وإن تم وضعها من قبل القيادات السياسية فقلما يرجع إليها المواطنون لمعرفة حقوقهم وواجباتهم، على ضوئها.

وغالباً ما يتم الرجوع في الأمور الصغرى والكبرى إلى القائد بوسيلة من الوسائل ليحسم الأمر.

4- **استبعاد العقل والشرع**: استبعاد العقل يعني استبعاد المرجعية الدستورية، وفي حال الدولة السياسية الدينية – الإسلامية لا ترجع القيادات السياسية في هذا المجال في تركيب بيئتها السياسية إلى الحاكمية، والمرجعية الشرعية وقد تم استبعاد العقل والشرع في تنصيب القيادات السياسية مباشرة بعد العهدين النبوي والراشدي، إذ أصبحت المرجعية هي: الخليفة بشخصه، كحاكم أو إلى السلطان.

5- **إيثار الحياة العاجلة**: كلنا نحب الحياة وكلنا يريد تحقيق متع العيش، الرغيبد والأديان السماوية لم تدع الناس إلى إهمال مطالب الحياة العاجلة، وكان آخرها أي الأديان السماوية الدين الإسلامي قد طالب المؤمنين بأن لا ينسوا نصيبهم من الدنيا، ولكن يبدو أن فهماً مغلوطاً قد حصل منذ وقعة الفتنة الكبرى وانهماك المسلمين بالصراع من أجل أحد مطالب الدنيا الرئيسية أعني: الإمامة، وقد سلت السيوف من أجلها وفهم اللاعبون السياسيون منذ ذلك الوقت أن مطلبهم للسلطة يتعارض مع مطالب الحياة الآخرة فخضعوا، خضوعاً لجاذبية السلطة والرياسة، أي أن مطلب الحياة الدنيا الذي تجسد مطلب السلطة، لقد غفلوا عن تحقيق مبدأ التوازن، بين مطالب الحياتين واستمر هذا المطلب يغري المطالبين بالسلطة طوال فترات تاريخ الخلافة مع استثناءات ضئيلة.

لقد انغمست شرائح كبيرة من المجتمعات الإسلامية في العصرين الأموي والعباسيين بعدما أفاء الله عليها بالوفرة، وبالغنائم وطيب الرزق، والعيش، بدورها في ملذات الحياة العاجلة، ونتج عن ذلك انتشار الفساد والذي رافق الرفاهية الذي شمل القيادات الخليفية وكثيراً من أبناء الرعية.

وحديث الفساد والتخريب اللذين أصابا مجتمعاتنا العربية المعاصرة.

صورة من استمرارية موروثة من تاريخنا على صعيد القيادات، والشعوب، بحيث استقر مبدأ تغليب مطالب الحياة العاجلة نتيجة تأثير العوامل السابقة، برغبات المصالح الفردية والأنانية الخاصة، وغياب روح التضحية في سبيل القيم الروحية والإنسانية العليا.

رغم أن الضمير الإسلامي والروح العربية في صفائهما ينأيان عن المبالغة والغلو في الانغماس في متع الحياة على حساب المبادئ السامية التي تجلت في حضارتنا العربية والإسلامية.

6- **استبداد الغرائز والأهواء**: الغرائز والأهواء، دوافع بيولوجية سيكولوجية،وتتصف بالشدة والجموح أو بالاعتدال وإمكان السيطرة عليها أو لجمها أو مراقبتها من قبل الإنسان، وهي طبيعة، ويلعب الاكتساب دوراً في ردود أفعالها نحو الخارج وقد وقف الفلاسفة والمفكرون منذ القدم، وعلماء النفس في عصورنا الحديثة على مدى إيجابية أو مدى سلبية الغرائز والدوافع، إنها في جموحها، تصور الجانب الضعيف في الإنسان. (إنها تمثل الضعف الوجودي في تركيب الكائن الإنساني على حد تعبير الفلاسفة).

وطالما أننا نتحدث عن إدارة الأزمات، والصراعات فالغرائز والأهواء هي ساحة أزمات وصراعات في باطن الإنسان، ومن المهم أن يتعلم الفرد منا إدارة النفس ودوافع الجسد عندما تداهمه لحظات لا عقلانية يتمل فيها جموح هذه الأهواء أو الغرائز وتعمل على أن تدفع به نحو الهاوية هذا على صعيد حياة الأفراد.

أما على صعيد الحياة القيادية السياسية، فهذه أيضاً بدورها مكونة من عناصر بشرية، ومعرضة لسيطرة الأهواء والغرائز، وبالتالي تتعرض لأن تكون قراراتها صادرة بتأثيرها.

وإن الغرائز والدوافع تتعلق في مجالنا هنا، بما أسميناه ب-(موجودات اللاشعور) أول العقل الباطن، أنها تشكل كثيراً من مواقف المسؤولين والقيادات، الظاهرة أو المخفية كالمواقف المتعصبة، قبلياً أو طائفياً، أو إيديولوجياً، وقد بينا في عملنا هذا كيف أن مناخات العصور العربية والإسلامية التي غمرتها الأزمات والصراعات كيف تجسدت

هـذه الأزمـات والصـراعات فـي قوتهـا وعنفهـا وشـدتها، بـين الأطـراف المتصـارعة فـي الصراعات الداخلية حيث كانت القوى الدافعة، بالإضافة إلى عوامل أخرى، هي قوى: الغرائز والأهواء، أو بتعبير آخر القوى اللا عقلانية، التي أججت الصراع بين الأطراف.

ومن ناحيـة ثانيـة لقـد نقـل لنـا كثير من مؤلفينـا القـدماء والمحـدثين صـوراً معبـرة عـن مسالك الخلفاء والقيادات الخليفية ومسالك شرائح كبيرة من أبناء الرعية الذين انغمسوا في حياة: اللهو، والمجون، والترف، وملذات الحياة العاجلة، أو بتعبير آخر انجرافهم جميعاً في تيار الحياة اللا عقلانية، وغير المتوازنة، مدفوعين بقوة تأثير غرائزهم وأهوائهم واستبدادها.

7- **المـزاج الشخصـي وأثـره السـلبي في معالجـة الأمـور**: المـزاج مكـون مـن مكونات الكائن البشري،ولكل فرد، منا ولكل شعب، ولكل مجموعة أو هيئة أو قيادة أو مسؤول مزاج الخاص، والحياة المزاجية تتجلى حيناً إيجاباً، وحيناً سلباً، وعلى العموم نحن في حالاتنا المزاجية لا إيجابية كلحظة رضا، أو لحظة فرح أو لحظة سعيدة، تحقيقاً لهدف ما، نستطيع في مثل هذه الحالات إذا طرأت أزمة ما أن نواجهها لمواجهة سليمة، ونديرها إدارة جيدة، طبعاً شريطة توفر عناصر الإدارة العلمية إذ أن المزاج وحده لا يكفي في الإدارة ولكننا في الحالات المزاجية السلبية، أو إدراكنا أننا لسنا في لحظة مزاجية مناسبة ففي مثل هذه الحالة علينا أن لا نتخذ قراراتنا ولا ندير أزماتنا ونحن أسرى لمثل هذه الحالات المزاجية السلبية.

وفي واقع الحياة القيادة سواء السياسية العليا، أو القيادات المسؤولة في حياة العمل وقطاعاته المختلفة، فجميعنا معرضون، وبشكل يومي لغزو مثل هذه الحالات السلبية لمزاجنا الشخصي.

تذكر لنا أدبياتنا السياسية أن الناس كانوا يحذرون غضب السلطان، لأن غضبه يشبه غضب الصبيان، وكان الأباطرة، والملوك، والزعماء، والقادة، في القديم وبعض القادة في عصرنا الحديث خاصة أولئك الذين يحكمون شعوبهم بمحض مزاجهم الشخصي. دون الرجوع أو التقيد أو الانضباط داخل مرجعية شرعية وإلهية، أو بشرية ومن بين هؤلاء القادة كان خلفاؤنا في العصور الوسطى ومن في حكمهم، في عصرنا الحديث.

وقد ذكرت صفحات كتابنا هذا المكونات التاريخية –الاثار الجانبية–- التي شكلت المزاج العربي، خلاصتها أن العربي عموماً عصبي المزاج، وسريع الغضب، يهتاج للشيء التافه،وتنبسط أساريره لمجرد مشهد عابر، وإن تركيب مزاج ما على هذا النحو في تفكير القائد أو المسؤول يجعل قراراته غير متمتعة بالعقلانية والحكمة.

8- **الميول المتطرفة والغلو**: ظاهرة إنسانية عامة يتعرض لها الأفراد، وتتعرض لها الجماعات، وتتعرض لها الشعوب في نظرتها للأمور، والتطرف، في أبسط تعاريفه هو تجاوز الاعتدال، والتوازن إنه خلل في الفكر والسلوك وله أسبابه المعقدة.

والتطرف في تاريخنا العربي على صلة، بالعصبية والتعصب القبليين، وكلمة تطرف مستحدثة في مصطلحاتنا العربية، وكان يقابلها مصطلح عبر عنه القرآن الكريم وهو (الغلو)، وقد طالب القرآن الكريم من أهل الكتاب بشأن لا يغلو في دينهم.

والتطرف هذا هو ميل سيكولوجي وليس توجهاً عقلياً، أو اتجاهاً فكرياً ذي منظومة فكرية منطقية عقلية متسقة متوازنة وصارمة، هو موقف سلوكي يتخذ طابعه الفكري التبريري.

وعلى سمتوى القيادة السياسية، فلقد اتسمت العلاقة بين: السلطة والمعارضة قديماً، ولا تزال حديثاً بالمواقف المتطرفة، إنها مواقف استبعادية، حيث أن كل طرف من طرفي هذه المعادلة يحاول القضاء على الآخر، والموقفان هما في حقيقة الأمر يديران أزمة العلاقة بينهما بطريقة غير معقولة، وغير مستوعبة لمفهوم التعايش والمشاركة وجدلية الخصم والرديف، لا يستوعبان ما يقولوه البعض من أن (النقيضين يمكن أن يناما على وسادة واحدة).

وعندما ينهمك كل طرف في التخطيط للقضاء على الطرف الآخر، فهما في هذه الحال يبتعدان عن العمل للخدمة المشتركة للوطن المشترك.

إن تاريخنا السياسي يسجل لنا الصراع الأبدي بين السلطة ومعارضيها من ناحية، وكون الساحات السياسية العربية، كانت ولا تزال مسرحاً لصراع الفريقين فلقد ظلت الرعية قديماً والشعب حديثاً في الغالبية المطلقة في موقف المتفرج.

9- **استبعاد العنصر العربي**: لقد سجل الباحث في عمله هنا ما نقله لنا التاريخ السياسي حول هذه الظاهرة، ذلك أن ما حصل في التاريخ العربي لا إسلامي – وفي عصر الوسيط، وبسبب الأزمات والصراعات السياسية داخل البيت العربي استغلال بعض من دخل الإسلام من غير العرب وعمل على تشكيل تيارات سياسية داخل الإمبراطورية العربية الإسلامية منذ نشوئها، واندفع بتأثيرات من انتماءاته القديمة (الفارسية) مثالاً واستيقظت لديه مشاعر الولاء والانتماء لقومه، وأظهر في الوقت نفسه مطامحه السياسية، ثم بدأ يلعب دوره في السياسة والإدارة الخليفية، وقد استفحل أمر هذه الظاهرة منذ بداية (العصر العباسي الثاني)، ورافقه كذلك ظاهرة استغلال الصراعات الداخلية، لتنقض شيئاً فشيئاً على: القيادة وهو ما حصل على يد (الأتراك) و(البويهيين) و(السلجوقيين) و(المغول)...الخ.

وهذا العامل ساهم في انهيار وسقوط القرار العربي ونهاية القيادة السياسية العربية وسقوط الحضارة.

10- **اللا شعور السياسي (الفردي والجمعي)**: من الصعب أن ننكر وجود اللاشعور أو ما أسماه العرب قديماً بالعقل الباطن وقد استعار الباحث هذا المصطلح ومفهومه من أعمال الدكتور (محمد عابد الجابري)، حيث دعاه هذا الأخير أو بالأحرى شبهه >بالمنطق الداخلي< وتسمية بعض الأدبيات الحديثة بالتيار اللاواعي، وما يهمنا هنا هو، تأثيره السيكولوجي في حياة القيادة السياسية ومكونات هذا اللاشعور لدى القائد السياسي أي ما تخزن في باطن هذا القائد، أو ذاك في لا شعوره، منذ مرحلة الطفولة ومروراً بمرحلة الصبا والشباب ووصولاً إلى مركز القيادة، ومن تم انغماس هذه التأثيرات الماضية في عمله السياسي كقائد.

والواقع، لقد بين الباحث في الصفحات التالية أن دور هذا العامل يظهر جلياً في حياة القيادات السياسية المتفردة في السلطة، والتي لا تنضبط،وضمن ضوابط دستورية التي لا تسمح بأن تلعب العوامل الخاصة (اللاشعور الفردي هنا) دورها في القرار، ولكن القيادات السياسية العربية المتصفة قديماً، وحديثاً، بالتفرد والمتجاوزة للضوابط الدستورية، حيث يترك القائد بوعي أو بلا وعي التأثيرات القديمة المكبوتة في اللاشعور

والقادمة من: الأسرة، والقبيلة والطائفة، والمذهب، وتتجلى لحظة صناعة القرار واتخاذه في عمل القائد الفرد.

هذه الدوافع الداخلية تظهر في تصريحات، وخطب، وأقوال، وهنات وزلات اللسان، والجمل المقتضبة للقائد السياسي، ومن هذه النقطة فالأمر ليس مقتصراً على القيادات السياسية العربية، ولا على القيادات الفردية السلطوية إنها ظاهرة لها تجلياتها في الحياة السياسية العالمية القديمة والمعاصرة.

أما اللاشعور الجمعي: فهو من ناحية ما يكمن في لا شعور المجتمع، من نظرات واعتبارات ومعايير ومفاهيم لا تتسق والعقلانية، ينقلها المجتمع إلى القيادات أو يورثها لها، كالأساطير، والصور الخرافية لأبطال خرافيين...الخ وهو من ناحية ثانية ما تمثل أحياناً صورة الحاكم والإله، أو في الجانب الاستبدادي في السلطة السياسية وهو الموروث لدى القيادات الفردية السلطوية من اللاشعور الجمعي الذي يأخذ طابعاً أيديولوجياً، على سبيل المثال ظاهرة الاستبداد السياسي القديم (وما سمي في تراثنا بالاستبداد العادل) يأخذ مع الوقت طابعاً أيديولوجياً ينتقل إلى القيادات السياسية من خلال التصورات الاجتماعية اللاشعورية لتبرير أيديولوجي لظاهرة (المستبد العادل) السياسية.

ومن ناحية ثالثة يتجلى اللاشعور الجمعي، في مواقف الجماعات والشعوب إزاء بعضها بعضاً، في الحالات الأزموية والصراعية حيث تجيش الوسائل الإعلامية، وتسجل كثيراً من المواقف والأحكام اللا عقلانية المتوازنة من جيل إلى جيل لتتجلى لحظة الأزمات والصراعات بين هذا البلد، وذاك.

14- التعارض بين العوامل الخاصة والنظام العقلاني في الإدارة:

لا أحد ينكر وجود العوامل الخاصة وتأثيراتها في حياة الأفراد والجماعات والمجتمعات والشعوب والقيادات في قطاع العمل، والقيادات السياسية العليا، وقلنا إن لهذه العوامل جوانبها الإيجابية إذا ما قيض لها حسن القيادة والرقابة والانضباط، وعدم السماح لها بالا تتعدى حدودها وتفلت من عقالها.

ولكـن الباحـث أراد التركيـز علـى الجوانـب السـلبية لهـذه العوامـل، حيـث رأى أنهـا تجلت بكل صراحة ووضوح في تاريخنا السياسي، وبتأثيراتها البالغة، وأراد تسليط الضوء عليهـا بغيـر رغبـة منـه بالإيحـاء تجنـب معركـة التـأثيرات علـى مسـتوى حيـاة الأفـراد والمسؤولين الصغار والقيادات العليا ولذلك فقد دخل تفصيلات وجد أنه لابد منها حول (سلبيات) هذه العوامل.

لقـد وجـد الباحـث أيضـاً، ومـن خـلال عرضـها أن هنـاك تعارضـاً كبيراً بينهـذه العوامـل والجانب الآخر من تكوين الكائن الإنساني أعني ذلك الجانب الذي يتراجع في كثير من الأحيان أمام أي من قوى العوامل الخاصة. وأعني بهذا الجانب،والذي يود جميع الناس أن يكون رائدهم في الحياة، وهو: الجانب العقلي والتفكير العقلي، هذا التفكير الذي يميل في الأحوال الطبيعية إلى خلق حالة التوازن والاعتدال، والعدل، في الأمور كافة، وإدارة الشؤون العامة والخاصة ضمناً.

يصـعب عمليـاً أن تـدار الأزمـة، أو يـدار الصـراع انطلاقـاً مـن مبـدأ التطـرف مـثلاً، أو الانطـلاق مـن مبـدأ (عامـل الذاتيـة) أو (الفرديـة) أو (المـزاج الشخصـي) ولقـد بينـت صفحات هذا الكتاب في معظمها بطلان الأثر الإيجابي لأي من العوامل الخاصة في عقول القيادات السياسية.

وفي هذه النقطة يتجلى أحد الأهداف الرئيسية لهذا الكتاب أعني: تشخيص أثر العوامل الخاصة في العمل السياسي عموماً، وفي إدارة الأزمة والصراع، خصوصاً، ولدى القيادات السياسية.

لقد تورطت القيادات السياسية منذ بداية العصر الأموي في تاريخنا السياسي في التعامل مع المخالفين للخلافة والسلطة بأسلوب متطرف، واللجوء إلى القوة والعنف.

وكانـت هـذه السياسـة الداخليـة أحـد العوامـل الرئيسـية التـي أدت إلـى سـقوط الدولـة الأموية رغم وجود بعض الاستثناءات لدى بعض الخلفاء الأمويين، وانتهاجهم أسلوب الرشاد في الحكم (عمر بن عبد العزيز)، ولكن التيار العام في ذلك العصر كان يميل إلى عـدم الالتـزام بضـوابط الحكـم الإلهـي فـي القيـادة، ولا علـى الاعتمـاد علـى... العربيـة المفقودة حينذاك أي: الحلم،والحكمة، والعدل.

لقد استنسخ العباسيون عند مجيئهم الأسلوب الأموي ذاته، فتعاملوا مع المخالفين والمعارضين في الرأي والموقف بأسلوب الإدارة بالعنف، والقوة، وسلكوا أسلوب التطرف، وخضعوا لاستبداد الأهواء والغرائز، واحتفظوا بمبدأ توريث السلطة (ضمن عامل الذاتية).

العقل يميل إلى التوازن بين قوى الإنسان المختلفة و(المتصارعة) ويحسن إدارتها إذ أعطيت له الصلاحية ويميل أيضاً إلى التوازن بين قوى المجتمع المختلفة والتيارات السياسية إذا كان رائد القيادة السياسية.

وهو أي، النظام العقلاني، ينأى عن (الأحادية) في الفكر والعمل، وفرض الرأي الشخصي الواحد، والهيمنة الكاملة لعقيدة واحدة، مع نفي ما عداها. وهو يقبل بتعددية الآراء والرؤى وتلاقحها، وبالمشاركة في مقابل ذلك إن سيطرة العوامل الخاصة أو بعضها وخاصة في تأثيراتها السلبية،يوقع الفرد منا في (مطب) حصاد النتائج السلبية، وقد تكون وخيمة على حياة المجتمعات والأمم إذا كانت الأمور القيادية تدار من خلال هذه العوامل. وقد رأينا أن تاريخ الخلافة العربية الإسلامية كان عامراً بأمثلة كثيرة عن إدارة أمور الرعية والأزمات الداخلية، والصراعات مع المناوئين من خلال تأثيرات هذه العوامل الخاصة.

ولا شك أن طغيان العوامل الخاصة جميعها، أو بعضها على القيادة السياسية، له نتايج مدمرة، والواقع، إن احتمال وجود مثل هذا الطغيان للعوامل الخاصة وارد بشكل كبير في ظل الأنظمة السياسية السلطوية، كذلك فإن احتمال انتقال (بحكم الاقتداء بالقيادة) هذا الجانب الطاغي إلى أفراد المجتمع، كما تجلى في العصرين العباسيين في ظاهرة استشراء الفساد، وكافة مظاهر اللهو، والمجون، والانحرافات الأخلاقية من القيادات والقصور العباسية إلى كثير من أبناء الرعية.

15- هل النظام العقلاني هو الحل؟

إن عرضنا السابق للعوامل الخاصة وتأثيراتها السلبية – يتطلب منا بالضرورة التفكير في العلاج واقتراح بدائل أو حلول ممكنة:

1- أول ما نريد عرضه هنا، هو قناعة الباحث بأن المجتمع الديمقراطي الذي يتبنى مختلف أنماط المشاركة، والتعددية الفكرية في الآراء، والرؤى، الضامن لحقوق كافة

مواطنيه – دون تفرقة في الجنس، والدين، والطائفة والقبيلة، وأداء هؤلاء واجباتهم بقناعة، وبضمير مخلص، يمكن بأن يكون نقطة انطلاق صحيحة نحو إدارة شؤونه أو أموره العامة، وبالتالي إدارة الأزمات الداخلية، والصراعات الخارجية المحتملة.

2– وبما أن الديمقراطية في جوهرها مشروع عقلاني، فمن الممكن أن يتساوق المسار الديمقراطي مع التنمية أو بناء عقول الأفراد من قبل القيادات السياسية.

والديمقراطية هي الإطار، والقاعدة للتنظيم السياسي وهي من لوازم(*) مجتمعاتنا العربية إذا أردنا البديل الممكن، والأكثر عقلانية – لسيطرة عقلية الاستبداد والانفراد في السلطة والاستئثار بها وتوريثها، ومختلف أنماط الحكم الفردي.

3– هذا الإطار العام الممكن وضعه يمنعنا من الوقوع في حال إدارة الأزمات والصراعات فى الارتجال أو لا يلزمنا إفساح المجال أمام التنمية وبناء العقول، التي تقوم بها كافة المؤسسات التعليمية في المجتمع وأجهزة الإعلام وتقوم بها المنظمات السياسية لأفراد تنظيماتها ليتسنى للجميع تحصيل الوعي بجدوى الحياة الديمقراطية.

4– الديمقراطية السليمة التي نرغب بتمثلها ليست على الطريقة الغربية حيث أن مجتمعاتها تتمتع داخلياً بنظام ديمقراطي، وهذا صحيح، ولكن هذا الإطار الديمقراطي يفسح لها المجال بالسيطرة على الشعوب الأخرى كما فعلت الدول الاستعمارية في القرن التاسع عشر.

كما فعلت الولايات المتحدة في احتلالها العراق (أول 2003)، فعلت ذلك بريطانيا في هجومها لاستعادة جزر (الفوكلاند)، وتفعل (فرنسا) في بعض الدول الأفريقية التي لا تزال تحت سيطرتها فهذا النمط من الديمقراطية ؟؟؟؟من خلل عظيم إنه آلية سياسية بعيد عن الالتزام الأخلاقي و الإنساني فضلاً عن ابتعاده عن شرائع الله في أديانه.

(*) نقول من لوازم لأن أخرى غيرها أيضاً لازمة على القيادات وتعاون المجتمع معها النظر في حل مشكلات الفقر والبطالة، والعمل على تأمين الحياة الكريمة لكافة أبناء المجتمع، هي من اللوازم التي تدخل في إطار العمل من أجل خلق: المجتمع الديمقراطي.

لقد ألمحنا في الصفحات التالية، وطوال مراحل التاريخ إلى أن الوجه الإيجابي المتألق في إدارة الصراع الخارجي الذي أداره المسلمون كانت القيادات السياسية ضمن منظورها السياسي والعسكري وضمن تفكيرها الاستراتيجي، وأهدافها في الصراع، المراعاة الكاملة للأخلاق، أو بعبارة ثالثة عدم استغلال الشعوب وعد الاعتداء على المدنيين الآمنين، وعدم الاعتداء على من لم يحمل (السلاح) وعدم الاعتداء والاغتصاب...إلخ.

5- لا شك أن الوعي السياسي له أهميته في التنمية السياسية نحو بناء النظام الديمقراطي للمجتمع، ولكن الباحث يريد أن يذهب إلى أبعد من ذلك إذ يرى أن الوعي العام، ينتج عن (النضج العقلي) والهادف على احترام المبادئ والحقوق الإنسانية.

لقد شهد تاريخنا الحديث (في عصر النهضة العربية) بعض دعاة الديمقراطية والليبرالية أمثال / لطفي السيد (مصر) رفاعة الطهطاوي (مصر) وخير الدين التونسي (تونس) وعبد الرحمن الكواكبي (سورية) وغيرهم، وهؤلاء كلهم كانوا دعاة فكر وعقل متسامحين أدانوا الاستبداد، والحكم الفردي، وبينما نرى أيضاً مفكرين كباراً آخرين قد قبلوا مقولة المستبد العادل، رغم ما تحوي هذه من مفارقة.

6- كل هذه الأفكار التي ذكرنا سابقاً تدخل في إطار أعم وأشمل إنه (النظام العقلاني) Rational System ، منظومة شاملة لمختلف جوانب الحياة الفردية والاجتماعية التي تعتبر إطاراً معقولاً وعاملاً أساسياً في تحييد الآثار السلبية للعوامل الخاصة، وإعادة الديمقراطية ذاتها إلى المسار الصحيح لتكون ديمقراطية إنسانية ترتضيها كافة العقول.

16- العوائق الموجودة، أو الممكن وجودها أمام تحقيق النظام العقلاني:

بعد أن بينا أنه من بين العوامل الخاصة التي ذكرنا في (الفصل الرابع) من هذا العمل، كان استبعاد العقل والشرع، ذلك ما حصل تاريخياً في تاريخنا السياسي، منذ العصر الأموي وحتى يومنا هذا، وقد لا حظنا أن ذلك ترك تأثيره السلبي على مسار العمل السياسي بكامله في القيادة السياسية بحث شمل طبيعة إدارة الأزمات والصراعات خاصة والداخلية التي واجهتها وتواجهها هذه القيادات.

ولقد واجهت إدارة الأزمة عوائق أهمها:

أ- النتاج التاريخي للمجتمعات العربية – الإسلامية، وأحداثه والمواجهات المستمرة بين القيادة السياسية ومعارضاتها، وبالتالي التركة الهائلة من بقايا العصبية القبلية، والنزاعات الأهلية لمرحلة ما قبل الإسلام، دعوتها بعد العهدين النبوي والراشدي إلى الظهور.

ب – المخيال الشعبي السياسي الذي كان يرتكز دوماً على تصور وجود القائد البطل الزعيم الأوحد، الفذ، أو المهدي المنتظر، والاتكاء على هذا النمط الفريد ليواجه الأزمات والصراعات، وخلفه أبناء الرعية قديماً، والشعب حديثاً هذه الصورة المنتظرة تمثل /عائقاً أمام تحقيق النظام العقلاني، والتنمية السياسية.

ج- افتقار المجتمعات العربية، والتنظيمات السياسية إلى الثقافة السياسية، بشكل يجعلها تتجاوز المنطق، (الفئوي) أو (المذهبي)، (القبلي)، ويجعلها في الوقت نفسه تتعامل مع مفهوم جديد للعمل السياسي، وإدارة المجتمع وأزماته وتتخلص بدورها من تصور الدور العظيم لقائد الحزب، أو المنظمة، أو التجمع السياسي.

د- التفكير الجاد بإصلاح شامل لمناهج وطرق التدريس والتقويم والأطر المادية للتعليم وربط التعلم بالثقافة وترشيد أجهزة الإعلام أي جعل منطقها مطابقاً لمنطق العقل الناقد.

عدم ربط تأسيس نظامنا العقلاني في مجتمعاتنا العربية المعاصرة بالتراث الفكري والعقلي في الحضارة الغربية لأن تراثنا العربي الإسلامي منذ ظهور الإسلام قد حثنا من خلاله آثاره، على تأسيس نظام عقلاني.

فالإسلام مثلاً يوازن بين مطالب الحياة الدنيا (المباشرة العاجلة) ومطالب الحياة الآخرة والتوازن هذا هو سمة من سمات العقلانية والرشاد، ومن ناحية أخرى بحث الإسلام والمؤمنين على إعمال العقل، والتفكير في عالم الشهادة، وفي القرآن الكريم تتكرر كلمة: يعقلون، ويتفكرون في (47) آية قرآنية.

وفي تراثنا (تركة) عظيمة من الآثار الفكرية بدءاً من مقالات وأسلوب تفكير بعض الفرق الإسلامية (كالمعتزلة) في التعويل على العقل.

وأيضاً تركة الفلاسفة في الإسلام الذين اشتغلوا في الميدان الفلسفي إذ كان النشاط العقلي رائدهم في وضع تصوراتهم الفلسفية وقد انتهى تراثنا عند العلامة (ابن خلدون) في السياسة العقلية، ولا ننسى أيضاً الإصلاحيين الإسلاميين في عصر (النهضة) العربية الذين دعوا إلى الركون إلى العقل كمنهج تفكير وقالوا بعدم تعارضه مع (النقل).

وقد ناقشنا جميع هذه النظرات والرؤى في أوراقنا هذه.

17- مناقشة فرضيات محتملة حول ملائمة تأسيس نظام عقلاني:

من الفرضيات المحتملة حول إمكانية ملائمة تأسيس أو التعويل على نظام العقلاني في عملنا السياسي على صعيد القيادات والشعوب، القول أن الإسلام، هو دين، والدين من الناحية العقائدية مجموعة من الثوابت (دوغما) لا يتيح المجال لإعمال العقل أو النشاط العقلي الحرفي في الحياة السياسية، وإدارة الأمور. فكل شيء قد ثبت أمره منذ البداية والإسلام هو الحل، ولا ضرورة لتأسيس نظام عقلاني مختلف.

إن التعويل على النظام العقلاني، أو العقل كمنتج تفكير، لا يناقض الثوابت الدينية الإسلامية وإذا كان الإسلام هو الحل لأصحاب المقولة أي إسلام يرون فيه الحل؟

علينا إعادة التفكير حول مقولة تزعم تعارض الشريعة الإسلامية مع النظام العقلاني فلقد أجاب الشيخ (ابن تيمية) منذ القرن الثامن الهجري في كتاب ضخم على هذا الافتراضي إذ رأى أن لا تعارض بين: صحيح المنقول (الوحي المحمدي) وصريح المعقول أي النشاط العقلي المسلم، وعنوان كتابه كان واضحاً وهو درء تعارض العقل والنقل.

ومع الأسف لقد وظفت التيارات الإسلامية السلفية الجانب الآخر من تفكير الشيخ وهو الجانب المحافظ شديد المحافظة وهذا الاتجاه ظهر تفكيره علينا أن نضعه في إطاره التاريخي التي اتسم بالتوتر والصراع مع الغزو التتاري للأمصار العربية.

كذلك أجاب الشيخ (محمد عبده) وهو من إصلاحي عصر (النهضة العربية) في منتصف القرن التاسع عشر بدعوته إلى إعمال العقل، وقد أثنى في أعماله الفكرية على الأسلوب المعتزل في التفكير العقلي.

وقلنا سابقاً إن القرآن الكريم قد ذكر حكمه (يعقلون، ويتفكرون) أكثر من ذكره كلمة (النفس) والتي يرحب بها المسلمون التقليديون أكثر من ترحيبهم باستخدام التفكير العقلي، مع أن القرآن الكريم وصف النفس بأنها أمارة بالسوء، ولم يصف العقل بذلك.

ففي الإسلام إن الإنسان له موقعه في تدبير شؤون دنياه وحكم نفسه، وإدارة شؤونه ولم يحدد أطراً محددة للتدبير مع أنه أشار إلى وجود الصراعات بين البشر، فهم يتدافعون من أجل مصالحهم.

النظام العقلاني يواجه جشع الناس، ومطامحهم، وأنانيتهم ويواجه مختلف أنماط العوامل الخاصة، وآثارها ودفعها الطامحين إلى السلطة والقيادة وهؤلاء يندفعون مهما تكن ديانتهم نحو تحقيق مطامحهم الخاصة، ويخضعون طواعية لتأثير تلك العوامل لذلك لا نكتفي بأن نعول على ضوابطهم الذاتية، وضمائرهم الخاصة لأننا لا نعلم بالضبط ماذا يحركها، وماذا يعشعش في حواشيها، إذن لا بد للقيادات السياسية، وهي التي تقع على عاتقها مصائر المجتمعات، وأمنها وحياتها وحياة الأوطان من أن تكون هنالك ضوابط سواء كانت شرعية إلهية – أو عقلية، مدنية إنسانية، تضبط سلوكهم السياسي، وتتحكم في قراراتهم وتؤطر إداراتهم للأمور والأزمات والصراعات ضمناً.

فرضية القوى الخارجية والداخلية التي تمنع من تحقيق النظام العقلاني:

هي فرضية صحيحة، ذلك أن المجتمعات ومنها المجتمعات العربية تحتوي في داخلها على قوى متعارضة، منها التقليدية المحافظة،ومنها القوى الراغبة في التغيير والصراع بينهما قائم، وهي فرضية لا نبحث عن أدلة لإثباتها كما هو معهود، بل نريد أن نختلق أسلوباً آخر غير الإثبات، والقائم على: إدارة هذه الفرضية، إن صح التعبير. نحن في عصر جديد تغيرت معالمه، فقد انتقل نقلة نوعية من الثنائي القطبية (bipolar) إلى أحادية القطب (unipolar)، وربما تنقلب هذه الأحادية الأخيرة إلى قطبية متعددة (multipolar)، ولكن هذه النقلة قد شملت من بين ما شملته انتهاء الصراع الإيديولوجي بين إيديولوجيتين، بين نظامين متعارضين، وأصبحنا في عالم وحيد الإيديولوجية، اصطبغت بصبغة العولمة. بمختلف أبعادها الاقتصادية والسياسية، والثقافية.

إنها تحد من نوع جديد أمام المجتمعات العربية، وهو تحد ما يزال قائماً، تحتاج مجتمعاتنا إلى نقلة نوعية في مخيالنا السياسي، وتنمية واعية في ثقافتنا السياسية، وبتعبير آخر، العمل حثيثاً نحو بناء نظام عقلاني، هذا النظام هو الإطار المناسب لمواجهة التحديات، وإدارة الأزمات والصراعات المحتملة.

18- السبيل إلى الانتقال الكامل، والشامل إلى النظام العقلاني:

إن جدلية قوى المحافظة، وقوى التغيير في المجتمعات تستمر زمناً طويلاً، ولا تنقل الأمور خاصة على الصعيد الذهني ببساطة، إن التغير في أنماط التفكير، المتبوعة بتغير أنماط الفعل والسلوك، المناسبين تحتاج إلى زمن غير قصير، ومع ذلك فالتغيير نحو بناء نظام عقلاني قادم، ولكن قدومه الصحيح والمناسب يحتاج إلى اكتساب، وتعميم طرق جديدة في التفكير من قبيل اكتساب مهارات التفكير العلمي للاهتداء إلى الإدارة العلمية للأزمات وهو ما أشرنا إليه في الفصلين الأولين وكذلك وعي قوانين الصراع، والإدارة العلمية له لتحسين إدارته وهو ما أشرنا إليه في كتابنا الثاني حول إدارة الصراع.

كل هذا التغيير يحتاج إلى تغيير مجالنا السياسي، واتجاهاتنا، وممارساتنا وخاصة التفكير، المنطق السياسيين، والجدل السياسي، بين الآراء، والاتجاهات والتيارات المتعددة داخل المجتمع ليتقلب الأمر في إدارة الصراع بين السلطة والمعارضة إلى جدل عقلاني، ضمن نظام العقلاني الذي يفرض كما قلنا الأسلوب (الديمقراطي).

يجب أن نتغير من مجتمع ينتظر من القيادة كل شيء ويقف سالباً، مسلوباً، إلى جر القيادة إلى ساحته ليشاركها في صناعة القرار من خلال منظماته وأحزابه وهيئاته المبنية بدورها على أسس عقلانية بعيدة عن الاحتكارات السلطوية، وبعبارة مختصرة إن إدارة الأزمات والصراعات السياسية تتطلب منا تغيير مفاهيمنا عن القيادة والدور المؤسسي وكافة هيئات المجتمع المدني.

وإضافة إلى ذلك، إن عملنا بحاجة إلى توعية المواطنين بالاهتمام بصغائر الأمور وكبائرها واكتساب المهارات الصحيحة لإدارة أمورهم الخاصة، وإدارة (ذواتهم) كما كان يقول (ابن سينا)، وتعريفهم بحقوقهم السياسية والمدنية وواجباتهم، وأخيراً لفت انتباه الناس إلى أن الصراعات، قد لا تنجح الإدارة العلمية دوماً في حلها، فلابد من (إبداعات

فردية) واجتهادات شخصية تضاف إلى الخطط العلمية، إنها (بصمة) الإنسان المدير للأزمة والصراع، وأخيراً لابد من بيان أن الصراع في جوهره لا يخضع للمنطق، ولا للحكمة، قد لا يكفي الأسلوب العلمي لحل المشكلات في مواجهته، وهنا يتجلى دور خبرة مديري الأزمات والصراعات الناتجة عن خبراتهم الشخصية ما حمله لهم المخزون الحضاري لشعبهم عبر التاريخ، إذ يقتضي في حال الأزمات والصراعات الكبرى الوقوف على: المعرفة والمهارة والخبرة.

مقدمة

الأهداف، الفرضيات المنهجبة، الإشكاليات

تمهيد:

يبحث هذا الكتاب في تأثير العوامل غير الموضوعية (الخاصة) كمحركات للسلوك السياسي في القيادة السياسية العربية، وعلاقة ذلك بإدارة الأزمات والصراعات وذلك باستخدام بعض مفاهيم الإدارة الحديثة للأزمات والصراعات، وهو نمط بحثي يحاول الكتاب في جزئية إظهار عمومية فهم طريقة وسلوك القيادة السياسية العربية الإسلامية كما تجلت في التاريخ السياسي العربي الإسلامي في الماضي، واستمراريتها في الحاضر، إنها محاولة لفهم طبيعة العمل السياسي للقيادة السياسية ومعارضاتها في الحياة العربية.

لقد تطورت فكرة هذا الكتاب جزئياً بعد أن كانت قد انطلقت على شكل أسئلة ذاتية أثناء حرب الخامس من يونيو (1967)، وذلك التطور الجزئي المذكور حصل عندما كنت في (باريس) حيث قدمت في حينها أطروحة دكتوراه في الفلسفة الإسلامية أو (الدراسات الإسلامية)، كما يفضل المستشرقون استخدام العبارة الأخيرة، بين القوسين وكان موضوع الدكتوراه حينئذ (سبعينات القرن الماضي): جدلية التوحيد:

La Dialectique du Tawhid عرضت فيها فكرة الجدل الصراعي، وتحوله إلى مواجهة بين النبي محمد (ﷺ) ودعوته الجديدة، وموقف المشركين في مكة، وكان لكل من الطرفين أطروحته في هذا المجال: كانت دعوة النبي تقوم على (إثبات) الوحدانية الإلهية المطلقة، (ونفي) الإشراك، بينما كانت دعوة المشركين الرافضة تقوم على (إثبات) عبادة الآلهة القديمة وتقليد الآباء والأجداد، كان النبي في رسالته يدعم أطروحته بإثبات حياتين: الدنيا والآخرة، بينما كانت دعوة المشركين وتدعم أطروحتها بتعلقها وإثباتها الحياة الدنيا فقط، وقد بين القرآن الكريم، كلا الإثباتين، ودعائهما في (الآيات المكية) خاصة، ثم تطورت فكرة هذا الصراع لتأخذ جانباً فكرياً لاهوتياً، أو فلسفياً وصوفياً.

ثم مرت سنوات طويلة بعد انتهاء هذا المشروع، وقفت أخيراً على ميدان كان جديداً تماماً بالنسبة لي، وهو: إدارة الأزمات والصراعات كعلم وفن.

فعقدت صلة بين موضوعي السابق من حيث الجدل الصراعي وإدارة هذا الصراع الذي اطلعت عليه حديثاً، فعقدت العزم على صناعة كتاب تتجلى فيه تأثيرات العوامل غير الموضوعية أو الخاصة في إدارة الأزمات والصراعات في التاريخ السياسي العربي أي في تراثنا الفكري – السياسي، ووجدت التربة خصبة في تاريخنا، للخوض في هذا الموضوع، ورأيت أن من الأهمية بمكان استعراض هذا الموضوع بتفاصيله، وفرغت نفسي لقراءة المصادر الخاصة، وقد أثمرت قراءاتي وملاحظاتي التي كنت أسجلها والمعلومات التي جمعتها، بشكل تشكل عندي تصور معقول للشروع في التنفيذ، وكان ذلك، فتكون المشروع عندي في كتاب واحد يحتوي على جزأين: الجزء الأول: إدارة الأزمة، والكتاب الثاني إدارة الصراع، باعتبار أن الأزمة مرحلة أولى، أو مرحلة من مراحل الصراع، والأزمة، والصراع غالباً ما تكونان متصلين اتصالاً وثيقاً في مجريات الأمور، إذ أن الصراع يبدأ بالأزمة.

1– أهداف البحث:

الهدف العام للبحث هو عرض واسع لحركية السلوك السياسي في القيادة السياسية العربية، وخاصة فيما يتعلق بإدارة الأزمة والصراع، وتجليات ذلك في الماضي والحاضر، ومحاولة وضع نظرية حول محركات هذا السلوك، وبناء نموذج جديد لعوامل (غير موضوعية)، لم يركز عليها الباحثون كثيراً في البحوث والدراسات المتعلقة بتاريخنا السياسي، حسب ما أعرفه شخصياً، محاولة نظرية تربط بين العناصر والعوامل الخاصة، كمحركات، وإدارة الأمور السياسية وخاصة في الأزمات والصراعات، وبشكل أكثر تفصيلاً يرمي البحث إلى تحقيق ما يلي:

أ– تحديد العوامل أو العناصر (السيكولوجية) التي تشكل السلوك السياسي في القيادة السياسية وتؤثر فيها، بما في ذلك العوامل، الاجتماعية– الثقافية– الاقتصادية– السياسية.

ب– البحث عن مدى استمرارية هذه العوامل، أو جلها، وعمومية ذلك في نمطية متوارثة –الاثار الجانبية–في العمل السياسي عموماً، وفي إدارة أمور: السلطة والمعارضة (مثالاً) برغم تغير المراحل التاريخية.

ج– معرفة دور العقائد (خاصة العقيدة الإسلامية) في التأثير على العمل السياسي القيادي وإن وجد، أي تأثير العقيدة في: تولية القيادة (الخليفة– السلطان– الرئيسي– القائد).

د– معرفة نتائج توارث نمط سلوكي خاص في القيادات السياسية العربية والمتعلق بإدارة الأزمات والصراعات الداخلية والخارجية.

هـ–– إبراز حركة نقل نوعية تمت على يد الشعوب العربية، وفي إدارة الأمور والقيادات السياسية إليها خاصة في إدارة الأزمات الصراعات ومقاوماتها الشعبية وذلك في مواجهة: الظاهرة الاستعمارية.

و– إبراز الحاجة إلى تمثل النظام العقلاني في المجتمعات العربية بما يتضمن من اكتساب المهارات العلمية المتعلقة بعلم إدارة الأزمات والصراعات (العمل السياسي عموماً، في مقابل احتمال هيمنة العوامل الخاصة).

2– الفرضيات:

أ– لقد سيطرت: ولا تزال تسيطر على السلوكية السياسية للقيادة العربية نمطية من العوامل الخاصة كما نسميها، بغض النظر عن عقيدة المجتمعات العربية، ومطامح القيادات السياسية وهذه النمطية شبه عامة من حيث تأثير العوامل المذكورة لتشمل مختلف أنماط القيادة في العمل ومختلف قطاعاته.

ب– منشأ هذه العوامل: بيولوجية– سيكولوجية– اجتماعية، ثقافية، سياسية وهذه العوامل عددها كما ذكرت في الفصل الرابع: [9] عوامل بالإضافة لحديث متعلق بالموضوع، وهو ما أسميناه بالآثار الجانبية، هذه العبارة ترد أحياناً كمرادفة لكلمة تداعيات أو مضاعفات الأزمة، والصراع، أو ما يتولد من أثار من خلال تأثير أحد العوامل الخاصة.

– تلقت القيادة السياسية العربية تأثيرات العوامل الخاصة إما جملة، أو تفصيلاً وحسب تجليات السلوك، وأسلوب المعالجة لهذه الأزمة أو تلك.

– كان تأثير هذه العوامل غالباً لا شعورياً... وفي بعض الحالات تم الأخذ بهذا العامل أو ذاك بوعي أو التقليد مثلاً: معالجة الأزمة بين السلطة المعارضة بالعنف، واستخدام القوة.

- دور العقائد، وخاصة العقيدة الإسلامية، ودعوتها، إلى الشورى، والاختيار في التنصيب ومنع الاقتتال بين المؤمنين كل ذلك كان دوره ضعيفاً.

د- لقد شكلت العوامل الخاصة في مجملها نمطاً عاماً وشاملاً في تأثيرها السلبي على العمل السياسي للقيادات السياسية، وفي طريقة معالجاتها للأزمات.

هـ-- شكلت هذه العوامل بدورها حيزاً لا بأس به من المخيال الشعبي السياسي، حيث حدث ما يمكن تسميته بتناقل هذا التأثير من الخيال الشعبي إلى القيادات والعكس طوال فترات تاريخنا السياسي بحيث أن كل طرف كان مسؤولاً عن السلبيات الناتجة.

و- من النتائج السلبية لاستمرار تأثير هذه العوامل: استمرارية حركة التراجع السياسي للأنظمة السياسية العربية، ووقوفها السلبي أمام حركة إصلاح سياسي جذري، وعدم الشروع في تأسيس: فلسفة سياسية جديدة عربية لها خصوصيتها الصادرة عن الجانب السياسي الإيجابي في مخزوننا الحضاري.

3- إطار البحث ومنهجيته:

محور هذا البحث كما قلنا تأثير العوامل الخاصة (غير الموضوعية) في سلوك القيادة السياسية العربية، وخاصة في أسلوب معالجتها للأزمات والصراعات، إنها نموذج فكري (تنظيري) ونضع كلمة تنظيري بين قوسين، سنشرح ذلك بعد قليل وهذا النموذج يحدد عوامل معينة ذات صلة بسلوك القيادات السياسية الممارس، وكما تجلى في التاريخ السياسي.

إنه يحدد العلاقات بين هذه العوامل، وبين مجمل العمل السياسي، وأيضاً إدارة الأمور العامة.

وهو أيضاً محاولة لفهم ظاهرة السلوك السياسي لأطراف العمل السياسي: السلطة (القيادة) ومعارضاتها التي ظهرت طوال فترات التاريخ السياسي وتقع هذه المحاولة ضمن إطار: البناء النظري الذي يسبقه طبعاً محاولة فهم الظاهرة، وتحليلها لإعادة بنائها من جديد بناء على ظهور عوامل جديدة ظهرت أثناء البحث لم يتم التركيز عليها في الدراسات السابقة حول الموضوع، وربما جاء التركيز على بعضها في حواشي وهوامش الدراسات المتعلقة، ولكن المحور هنا عمل على هندستها بطريقة مختلفة، كذلك يزعم

الباحث أن عرضه لعلم جديد (معروف في الغرب/ وهو علم الصراع **Conflictology** جاءت فيه بعض الجدة بطرحه في مجال ثقافتنا العربية.

إن البحوث العلمية كما هو معروف ترمي إلى: عرض الظاهرة، فهمها، وتفسيرها وعرض إمكان التنبؤ بسلوكها، للتحكم بما ستؤول إليه من نتائج وحول هذه العملية تهدف النظريات التي هي من طبيعة اجتماعية.

وربما سأل القارئ ولكن كيف تكون فكرة (البناء النظري) أو بمعنى ما، النموذج الفكري لدى الباحث؟ والجواب هو أنه في البداية يكون لدى الباحث نظرة تأملية حول المحور العام لبحثه، ويستمر في تأملاته طوال فترات القراءة والإطلاع، والتعايش مع وقائع الظاهرة كما تجلت في التاريخ في الماضي ومقارنتها مع الشؤون الجارية، بحيث يكابد طول العناء، والمثابرة والجهد دؤوب الذي لا ينقطع لوضع رؤية شاملة **Global View** حول محركات الظاهرة (هنا السلوك السياسي) للقيادة، وفي المرحلة الثانية يصل الباحث لوضع فرضيات حول العلاقة بين ظاهرة التعامل السلوكي للقيادة والوقائع التي حدثت.

والمرحلة الثالثة تصور هذه العلاقة الكائنة بين تعامل القيادة الواقعة، والوسائل المستخدمة في إدارة الواقعة، والتأثير المتبادل، ويمكن تسمية هذه المرحلة الاستقرائية أي الانتهاء من الوقوف على أنماط عديدة من المسالك السياسية لمختلف القيادات للاستنتاج منها إلى رؤية واضحة (تعميمية) عن النمط السلوكي لمختلف أنواع القيادات السياسية، وهنا المقصود القيادات السياسية العربية.

بعد ذلك تأتي مرحلة الإثبات لهذه الفرضيات، والإثبات هنا ليس مخبرياً ولا ميدانياً أو رقمياً أو إحصائياً، بل هو إثبات معتمد على كثرة لا بأس بها من المصادر (المتون) التاريخية، وهذا الإثبات يعتمد على تفسير الأحداث والخطب، والأقوال، والأفكار، والأطر الفكرية التي تجلت من خلال التاريخ السياسي الوقائعي والتاريخ الفكري السياسي.

لقد تجنب الباحث عملية الإسقاط، أو تعميق لما هو لا يستحق التعميق والبسيط بطبيعته وحاول أن يكون في عرضه للموضوع حيادياً، ولم يتدخل سواء في إعطاء آراء شخصية أو تسجيل انطباعاته الخاصة أو تأويلاته الشخصية، وترك كل هذه الجوانب إلى خاتمة البحث لعرض ما يراه لأن من حق الباحث بعد العرض الموضوعي لمحوره أن يقول كلمته.

ويقترح ما يريده في الجزء الأخير (نقاش وخاتمة) البحث هو ما صنعه الباحث، لم يخل البحث في الواقع من التركيز بعض الشيء على الجوانب الفكرية والعقيدية في موضوع إدارة الأزمات والصراعات، وهذه الجوانب تجلت في الكتابات والأدبيات السلطانية وكتب النصائح، وقد وقف الباحث بعض الوقت، عند محاولات الفلاسفة، في الإسلام، وما قدموه من (تصورات) يوتوبيات خيالية لمعالجة أزمة المجتمع ككل، وليس معالجة أزمة معينة أو صراع ما، إذا نظر هؤلاء إلى أن الخلاص من المدن (الفاسدة يكمن في بناء مدن فاضلة، هذا هو مفتاح حل أزمات وصراعات المجتمع).

وكذلك عرج الباحث كثيراً على مسألة أطراف الأزمة والصراع داخل الدولة الكلاسيكية العربية الإسلامية وأبرز أن اللاعبين السياسيين، والمعارضين، وهما أطراف النزاع، تجسد جهدهم السياسي في العمل أولاً من أجل السلطة، وثانياً كان أسلوب التعامل بين هذه الأطراف أسلوباً مستنسخاً طوال فترات التاريخ أعني: التعامل المتطرف، واستخدام العنف.

التوثيق والملاحظات الفنية:

بالنسبة إلى عملية (التوثيق) أو المراجع، فكما نعلم هنالك طرق متعددة لتوثيق الاستشهاد بأفكار وآراء الآخرين، منها الطريقة التقليدية، تثبت الإشارة إلى كل مرجع في كل صفحة التي يتم الاستشهاد، مع إعطاء المعلومات الكاملة عن المرجع خاصة في المرة الأولى لذلك المرجع، وضرورة ذكر كامل التفاصيل: اسم المؤلف، عنوان الكتاب دار الطبع والنشر وذكر أي تعديل في أرقام الصفحات المنقول عنها أو رقم طبعة الكتاب، وذكر فيما إذا كانت طبعة قديمة، وحديثة ونحن اتبعنا هذه الطريقة. في حال تكرار ذكر المصدر والمرجع استعمل الباحث أيضاً الطريقة التقليدية وهي:

1- المصدر السابق الصفحة م.س.ص = آخر مصدر تمت الإشارة إليه.

2- ذكرنا بعض الأسماء بالأجنبية عند إيرادها من قبلنا.

3- إذا كان المصدر باللغة الأجنبية نذكره كاملاً في المرة الأولى ثم نذكر Ibid.p. م.س.ص.

4- في حال عدم ذكر أسماء الدارسين المؤلفين الأجانب بالأجنبية في المراجع فنحن تقيدنا تماماً بإيرادها بالحروف العربية، ولم نلجأ إلى ذكرها بالحروف الأجنبية.

5- اعتمدنا ذكر تواريخ ميلاد، وتاريخ الوفاة للغالبية المطلقة من المؤلفين الذين ذكرناهم في البحث وأحياناً ذكرنا التواريخ الهجرية، وأحياناً التواريخ الميلادية حسب ما تيسر لنا في مراجعنا المتعلقة.

6- ذكرنا للمرة الأولى في الهوامش ذكر اسم المؤلف كاملاً، ثم أخذنا نكتفي فيما بعد باسم: كنيته: مثلاً د. شوقي ضيف المرة الأولى/ثم ذكرنا فيما بعد (ضيف)، ذكرنا د. محمد عابد الجابري، وفيما بعد أخذنا نذكر كلمة (الجابري)، وهكذا وذلك للاختصار.

7- أخيراً فضلنا تخصيص الصفحات الأخيرة من عملنا لوضع الهوامش، وأسماء المراجع، وتبريرنا هذا عدم تشتيت انتباه القارئ بين: المتن- وذيل الصفحة.

4- إشكاليات البحث:

للنظر في إشكاليات الكتابة أو البحث في معالجة القيادات السياسية العربية للأزمات والصراعات في إطارها التاريخي السياسي الديني- والثقافي والواسع لابد من النظر إلى خريطة العمل السياسي، وفكرة القيادات السياسية وممارستها.

إن فكرة القيادة هي جوهر العمل السياسي في جميع المجتمعات، فلا عمل سياسي دون قيادة لولبية، تديره، ولكن العمل السياسي لا يشمل فقط عمل القيادات السياسية في المجتمع بل ويشمل كذلك المخيال السياسي العام سواء على صعيد القيادة أو على صعيد الشعوب وهذا المخيال هو جملة الأفكار والتصورات، والمطامح، القيم، والمعاير، وعقيدة المجتمع أو الإيديولوجية التي تؤثر في التفكير السياسي للناس عموماً في أي من المجتمعات، البشرية وتعكس تفضيلات هذا المجتمع أو ذاك واتجاهاته في تفسير الأزمات والصراعات المختلفة، وكذلك تقييم التقييم الشعبي لمعالجات القيادات السياسية، ويتجسد هذا المخيال عادة في تراث المجتمع من كتابات فكرية وأقوال سائدة، وحكايات سردية، وأحياناً في الأحكام المسبقة أو التقاليد السياسية القديمة هذا بالإضافة إلى الكتابات المخصصة لبحث، فكر، وأساليب معالجات الأزمات والصراعات

خصوصاً، ومختلف جوانب العمل السياسي عموماً كالفكر السياسي الذي يعالج نظم الحكم (نظام الخلافة والملك) وقضاياه الأساسية مثل: شرعية، ولا شرعية السلطة، وأساليب الحكام، والخلفاء، والطرق المشروعة وغير المشروعة في تنصيب الخليفة وإهمال دور أهل الرأي والحل والعقد ودور الشورى الفاعل، العلاقات بينها جميعاً، وكذلك مواقف الرعية (الأغلبية الصامتة) التي كانت تعاني من الفاقة والحرمان، والرافضة لأساليب الحكام.

هذه القضايا في الواقع عاجلها المفكرون، والكتاب السياسيون في تراثنا ما عدا البعض منها والذي لا يخلو من أهمية مثل:

– شرعية السلطة وعدم شرعيتها (البحث والكتابة عنها صراحة وقد كانت تمثل ما هو مسكوت عنه).

– مواقف الرعية، أي إهمال الكتابة من مواقفها المكبوتة الرافضة لممارسات الخلفاء، والقيادات السياسية، تلك الرعية التي عاشت مشكلاتها اليومية بمعاناة، وتحت سلطة القهر الخليفي والسلطاني.

– نقد أسلوب معالجة الأزمات والصراعات بين السلطة والمعارضة.

والواقع أن التاريخ السياسي العربي يعكس كثيراً من ممارسات القيادات وأنماط تفكيرها السياسي ولنا في (تاريخ الخلفاء) للمؤلف المتأخر، (جلال الدين السيوطي) خير مثال حيث جمع فيه كثرة هائلة من مختلف المصادر القديمة حول سيرة حياة وممارسات الخلفاء والأمراء، وهي تسجل ممارساتهم السياسية، ويعتبر مرجعاً في غاية الأهمية للباحث في مجالنا.

إنه يوحي بوجود علاقة ما، بين سلوك القيادة السياسية العام، والخاص في معالجة الأمور، وبين الأفكار الأخرى و(العقيدة الإسلامية) وصلتها بها أو عدم صلتها بها وقد اقتضى من الباحث التطرق إلى عرض بعض جوانب مهمة من الفكر السياسي العربي (كما تجلى في الكتابات السلطانية وآدابها والفلاسفة والفرق الإسلامي والسنة الشيعية، ولكن البحث في الأصل هو بحث في العلاقة بين سلوك القيادات السياسية وممارسة إلى معالجة الأزمات ومواجهاتها للصراع.

لقد اقتضى ذلك من الباحث أن يقوم بعملية إطلاعية عن تاريخ العرب السياسي، وثقافتهم السياسية، ونظراً للصلة التي اعتقد الباحث بوجودها بما يتعلق بنمط معالجات القيادات السياسية للمشكلات واستنساخ كثير من أنماط المعالجة، فقد تطلب الأمر الوقوف على طرق وأساليب معالجة القيادات السياسية العربية الحديثة والمعاصرة للأزمات، وإعطاء نماذج عنها، وحالات دراسة معينة.

ولقد واجهت الباحث بعض المشكلات:

أ- فيما يتعلق بمصادر التاريخ العام، فتراثنا فيه كم هائل من الموسوعات التاريخية العامة، والتي تتناول الوقائع، والأحداث، وعلى نطاق يشمل كافة أرجاء الإمبراطورية العربية الإسلامية، وتغطي هذه المصادر الوقائع، والأحداث الداخلية، والخارجية - الفتوحات.

والواقع لقد كانت هذه المصادر مصادر ثانوية، وكان من الممكن الرجوع إليها جميعاً لو اقتضى الأمر، ولكن المصادر الأساسية والمباشرة للبحث خاصة بما يتعلق بمعالجة الأزمات، والصراعات والأساليب المتبعة، وأنماط التفكير، فكانت قليلة جداً وبتعبير آخر كان الباحث بحاجة إلى التاريخ السياسي بالمعنى الخاص، وتاريخ الأفكار السياسية، وهذان كان الباحث يود لو عثر على مراجع ومتون قديمة بغض النظر عن الاجتهادات الحديثة إلا أن الأمر كان صعباً.

ب- باعتبار أن البحث كان مركزاً على: إدارة (معالجة) الأزمات والصراعات في القيادة السياسية العربية فكان لابد من الاستشهادات الطويلة والإكثار من الاقتباسات لتأكيد وجود هذا النمط أو ذاك من الممارسات السياسية هذا بالإضافة إلى عرض واستنباط الأفكار الخاصة بإدارة الأزمات والصراعات من الأفكار العامة في التراث الفكري.

ولم يكن الاختصار الشديد وافياً بالغرض، وسيقف القارئ مع اقتباسات كثيرة وعلى تدخل ضعيف من قبل الباحث، لأن الغاية هي عرض أساليب وأفكار الآخرين، وتدخل الباحث في مواضيع كثيرة فقط فيما يتعلق بتأثير هذا العامل، أو ذلك من العوامل الخاصة التي ذكرها في فصله الرابع.

ج- إن أول إشـكالية حقيقيـة تصـادفنا ونحـن نبحـث فـي القيـادة، والإدارة، هـي إشكالية (التنظير) في العلوم الإنسانية **Humanities** أو الاجتماعية **Socials** وقد قال الباحث في موضع آخر إن عبارة (نظرية) في هذه العلوم لا تتمتع بتلك الصرامة، والدقة، والمصداقية في العلوم الاجتماعية كما في العلوم الطبيعية (العلوم البحتة).

إن وضـع(نظريـة) أو بنـاء نظـري أو نمـوذج تفسـيري عـرض - اسـتنباطي مـا تتعـرض لظاهرة إنسانية - اجتماعية معينة، (وهنا نعنى إدارة الأزمة، والصراع) كما قلنا فكل ذلك لا يماثل من جهة الإثبات النظرية في العلوم البحتة، وفروعها، والقارئ الذي يبحث هنا عن الأدلة القاطعة، لإثبات وجود هذا البناء النظري فسوف يعود خائباً بعد القراءة لأنه سوف لن يعثر على النتيجة المتوخاة.

وقصارى ما يفعله الباحث هو الاستشهاد، بالنصوص، والفقرات المقتبسة من هنا وهناك من مصادر ذات ثقة معقولة، وأصحابها من ذوي الحجة، والمصداقية، في البحث أولئك المهتمين بالظاهرة.

وإذا فضل القارئ أن يستعيض بعبارة الباحث الواردة هنا ببناء نظري بالقول وجهة نظر مدعمة تاريخياً، ووثائقياً، فالباحث لا يعترض عليه، وهناك إشكالية أخرى متعلقة بمنهجية الباحث، وهنا أيضاً لم يأخذ الباحث بمنهجية محددة، وخاصة عندما لاحظ اصطراع المناهج المعروفة في معالجة الظواهر الإنسانية، وتفصيل ذلك ما يلي:

إن البحـث هنـا يـدور فـي جـوهره حـول <العوامـل الخاصـة> ذات الطبيعـة السيكولوجية والسلوكية، أي أن الموضوع يدخل في إطار علم النفس، وفي هذا المجال الأخير تتعدد المناهج في دراسة الظواهر السلوكية السيكولوجية، ومن هذه المناهج:

1- **المدرسة السلوكية Behaviorism**: التي سادت في الولايات المتحدة الأمريكية وبعض دول الانجلوساكسون، ورائد هذه المدرسة (جون واتسون) **(John Watson 1878 - 1958)** يقوم منهجها على دراسة الظواهر النفسية انطلاقاً من (ملاحظة) السلوك، والتأكيد على: المشاهدة المباشرة والدراسات الميدانية الظاهرة ولا تهتم بدراسة أو تحليل الدوافع الداخلية **Inside** ولا الدوافع اللاشعورية، ولا تقبل نتائج خارج ما تقدمه نتائج ملاحظاتها الخارجية والميدانية والمخبرية.

ووجدنا أن هذا الاتجاه لا يسعف الباحث إلا إسعافاً ضئيلاً، ومحدداً أي الاستئناس منه فقط في التركيز على دراسة ظاهرة السلوك.

وبالمقابل إن المنهج التحليلي السيكولوجي سيجموند فرويد: (1856 – 1939) وغوستا فايونغ (1875 – 1961) الذي يرتكز على دراسة اللاشعور الفردي، والجمعي أيضاً بدوره أفاد الباحث في التركيز على مسألة اللاشعور السياسي، كما ورد في فصل العوامل.

وأفادنا منهج علم النفس الإنساني (كارل روجرز 1902 – 1987) من حيث تركيزه على ظاهرة السلوك واعتباره إياها قبل كل أي اعتبار آخر: ظاهرة إنسانية، وتقول النظرية إن الناس يدركون الواقع بطرق مختلفة ويلفت انتباهنا إلى التميز بين الذات الحقيقية، والذات المثالية ويقول التضارب بينهما يخلق اضطرابات سيكولوجية، ومع استئناس الباحث ببعض الأفكار، والوسائل المستخدمة في المناهج السابقة إلا أن التركيز الأقوى، كان الاستئناس بالمناهج المعاصرة لدراسة وتخطيط علم إدارة الأزمات، والصراعات باعتبار أن محوره العام هو هذان الموضوعان.

بعد إجراء الباحث لهذه (الخلطة) من المنهجية حاول أن يضع نظرية أو بناءه النظري حول تأثير العوامل الخاصة في سلوك التعامل، ومعالجة الأزمات والصراعات ويسجل طموحه الأعلى لتبيان تأثير هذه العوامل على محمل العمل السياسي في المجتمعات العربية الإسلامية في ماضياً، وحاضراً.

وأخيراً لم يفت الباحث التذكير الدائم حول طابع الخصوصية العربية الإسلامية في طبيعة إدارة القيادات السياسية للأزمات والصراعات، هذه التي تعشعش في المجتمع والذي ورثها من مخزونه الحضاري عبر تاريخه الطويل، ينقله بوعي ولا وعي إلى أجيال القيادات السياسية.

سوف تظهر الصفحات التالية قدرة البناء النظري على فهم وتفسير طبيعة إدارة الأزمات والصراعات، التي كانت حاسمة بالنسبة للمجتمعات العربية الإسلامية (نظام الخلافة).

وما تبع هذه من أحداث ووقائع، وممارسات القيادية ومن تفسيرات، وتصورات نظرية

لدى الكتاب والخطباء السياسيين، وأصحاب الأحكام والآداب السلطانية، وفي كتابات منظري أهل السنة والجماعة، والشيعة ولدى الفلاسفة في الإسلام وقد عرض كثيراً من: النماذج والحالات الممثلة لهذه الممارسات القيادية (الخليفية) خاصة.

لقد أراد الباحث فتح ملفه الخاص حول التأثير السلبي للعوامل الخاصة، ولم ينسى ذكر العوامل الموضوعية، ولكنه يوحي للباحثين أن يعملوا دوماً على: فرز تأثير العوامل الخاصة، من العوامل الموضوعية عند دراسة الممارسة السلوكية في إدارة هذه الأزمة، أو هذا الصراع، ومحاولة: استبطان واستخراج أثر العوامل الخاصة التي تكون غالباً خافية، ورغم ذلك يمكن تبيانها من خلال كثير من المنقولات، والأقوال والأعمال الملاحظة، هذا فيما يتعلق بالقيادات السياسية، وعندما يفتح هذا الملف واسعاً، ويصل الباحثون إلى نتائجهم، من خلال تبيانهم للتأثيرات السلبية للعوامل الخاصة الحاكمة، فهم أي الباحثون يرشدون الشعوب إلى الثغرات الكامنة في فكر وسلوك هذه القيادات وقد تكون هذه إحدى النتائج العملية للأبحاث، وجدواها.

6- أهمية البحث وجدواه:

يعالج البحث كما ذكرنا أكثر من مرة قضية لا تخلو من أهمية، وهي شغلت المجتمعات العربية في الماضي، ولا تزال تشغلهم، لا بل المجتمعات الأخرى بشكل عام، أعني: كيفية إدارة الأمور العامة، وخاصة الأزمات والصراعات ولاسيما أن كافة المجتمعات البشرية، وعلى كافة الأصعدة معرضة للأزمات، والصراعات الداخلية والخارجية، ولكن الباحث اقتصر بحثه على الوقوف فقط على: كيفية معالجة الأزمات والصراعات السياسية لدى القيادات السياسية في التاريخ العربي الإسلامي، هو بحث تاريخي، ولكنه يمتد نحو الزمن الحاضر.

إن كيفية معالجة الأزمات والصراعات (مثلاً أزمة السلطة والمعارضة) شغلت كافة خلفاء الدول العربية الإسلامية، وتشغل قياداتنا المعاصرة.

ذلك أن السلطة والمعارضة، وهما يمثلان في المنطق الجدلي: الإثبات والنفي، باعتبار أن السلطة هي الإثبات والمعارضة هي النفي، وبينهما جدل تكون هذه الجدلية:
- جدلية تدار معالجتها ضمن الإطار الذي يحدده الدستور المدني (العقلي) أو ضمن

إطار الشرعية الدينية،وقد يكون جدلاً صراعياً محتدماً أو صراعاً ندياً، ودياً، وقد يكون صراعاً من أجل المصلحة العليا للوطن، وقد يكون مجرد صراع من أجل السلطة المهم في الأمر، هو الوقوف على الكيفية التي تعالج فيها السلطة (الإثبات) المعارضة، والقضية أخطر مما يتصور القارئ فيما تمتد في معالجاتها لتشمل: طبيعة العمل القيادي السياسي، والتنظيم السياسي، وكل ذلك كانت له مخاطره في الماضي ولا تزال مخاطره قائمة في عصرنا الحديث.

إن الأمر قد يتعدى فهم كيفية معالجة الأزمات والصراعات من قبل القيادة، وكيفية تعامل الأطراف المتنازعة (السلطة – المعارضة) إلى محاولة فهم: سلوكنا السياسي بشكل عام ومحاولة ترشيده، إذا اقتضى الأمر، ليكون منضبطاً ضمن: النظام العقلاني الذي يقترحه الباحث في نهاية بحثه.

7- خطة الكتاب:

تتكون خطة الكتاب العامة من خطوات توضيح نظري لعلم إدارة الأزمات، والتخطيط العلمي، واستخدام مهارات التفكير العلمي لهذا العلم، وكذلك توضيح نظري تاريخي لعلم الصراع، والخطوات العلمية لإدارته.

كذلك توضيح المقصود بالعوامل الخاصة المؤثرة في سلوك القيادات السياسية ومعالجتها للأزمات والصراعات.

الخطوة الثانية:عرض أساليب المواجهة وطرائق إدارة الأزمات والصراعات عبر مراحل التاريخ السياسي المختلفة، بدءاً من العهد النبوي، والدولة الإسلامية الناشئة، والعهد الراشدي والعصرين (الأموي والعباسي)، وصولاً إلى عرض بعض الأساليب لمعالجة (الظاهرة الاستعمارية) وانتقال الإدارة إلى الشعوب.

الخطوة الثالثة: استكشاف كيف تعاملت القيادات السياسية مع الأزمات والصراعات، وفي إطارها التاريخي. وامتداد هذا الاستكشاف ليشمل أو يغطي بعض مراحل التاريخ الحديث والمعاصر.

الخطوة الرابعة: استنباط (استخراج) وهذا المصطلح، كما قلنا في موضع آخر قام الباحث باستعارة مضمونه من علم أصول الفقه الإسلامي.

ويعني استنباط الأفكار الفرعية من الأفكار العامة للكتاب السياسيين، المتجلية في الآداب والأحكام، السلطانية، وفي نظريات السنة والشيعة، بعض الفرق الإسلامية الممثلة لها، وكذلك لدى الفلاسفة في الإسلام، ثم الانتقال إلى العصر الإسلامي أو عصر النهضة العربية في منتصف القرن التاسع عشر.

فالكتابان، وهما جزءا الكتاب ككل، ينقسمان إلى **أقسام ثمانية**:

بينا في **القسم الأول** من (الكتاب الأول) ويقع في ثلاثة فصول:

الأول: حول فكرة إدارة الأزمة وتطوير المفاهيم، والاصطلاح، وخطوات التعامل العلمي في إدارة الأزمات.

والثاني: يدور حول القيادة السياسية، وإدارة الأزمات، مع مداخل نظرية أو (نظريات) تفسير ظهور القيادة. وأنماط القيادات السياسية: الكاريزمية بشكل خاص.

الثالث: جعله الباحث حول: الإدارة بالأزمة، أو تصنيع، واختلاق وافتعال الأزمات وكون هذا الفن أصبح من فنون الإدارة المعاصرة' للقيادات السياسية لتدير بعض المجتمعات التي يهمها أمرها، بافتعال الأزمات وتوليدها.

وأما **القسم الثاني**،فيقع في (**الفصل الرابع والخامس**) حيث يشمل الرابع عرضاً للعوامل الخاصة، وتعدادها مع توضيحات علمية لمفاهيمها، ونبدأ مع (الفصل الخامس) لنعرض كيف ؟؟؟ الدولة الإسلامية الناشئة وإدارة القيادة النبوية – السياسية لهذه الدولة، وأسلوب النبي في التعامل مع الأزمات وقلنا أن هذا الفصل المتعلق بتعامل الدولة الناشئة يشكل استثناء في التاريخ السياسي.

وفي **القسم الثالث**، ويعطي (**الفصل السادس**) ويعرض الباحث فيه كيفية تعامل الخلفاء (الأمويين) مع أزمات عصرهم الخليفي، في الدولة العربية الأولى في التاريخ العربي الإسلامي، (الفصل السابع)، وهو جزءان 1–2 ويأتي الباحث ليعرض كيفية تعامل الخلفاء العباسيين مع الأزمات، (مع المعارضة). وتعامل هذه مع السلطة الخليفية.

ثـم يـأتي إلـى **القسم الرابع** (يغطـي الفصـول 8–9–10) وهـو قسـم نظـري محـض حيـث تعـرض هـذه الفصـول نظريـات السـنة والشـيعة، ونظـرات بعـض الفـرق الإسـلامية (كالمعتزلة والأشاعرة)، وفلاسفة الإسلام في المشرق، والمغرب، وأخيراً قضايا التدبير، ومعالجة الأزمات لدى مفكري الأحكام والآداب السلطانية، واستنباطات بهذا الشأن.

القسم الخامس: يغطي (الفصـول 11–12–13–14) وتغطـي هـذه الفصـول العصـر الحـديث والمعاصـر لأسـاليب معالجـة الأزمـات (التجليـات الحديثـة، والمعاصـرة) وإدارة الشعوب للأزمات مثل (الحملة الفرنسية – الظاهرة الاستعمارية – الإمبريالية والصهيونية) وكذلك إدارة أزمات: معاهدة (سايكس بيكو)، و(وعد بلفور)، و(اغتصاب فلسطين) وأزمة (السويس).. ثم بعض الحالات المعاصرة من أزمات الوطن العربي في مشرقه ومغربه.

الكتاب الثاني

يدور حول محور مكمل للأول: وهو: إدارة الصراع فكان:

القسم السادس (الفصل الخامس عشر، والسادس عشر)، يتحدث الفصلان عن: تـاريخ التنظير للصراع البشري، ويطرح سؤالاً لا يخلو من أهمية مفاده: لماذا يتصارع النـاس؟ ثـم يعـرض نظريـات الصـراع فـي التـاريخ مبتـدئاً بالتـاريخ اليونـاني، وأقـوال بعـض الفلاسفة حول الصراع ثم النظرية الإسلامية في الصراع، ومعرفة المسلمين من خلال القرآن الكريم بقوانين الصراع، وهكذا وصولاً إلى نظرات لبعض العلوم الإنسانية لظاهرة الصراع. أما الفصل السادس عشر، فكان جواباً حول سؤال: هل الصراع علم؟ ثم الإدارة العلمية للصراع، وخططها العلمية كذلك.

القسم السابع (الفصول 17–18–19–209 يعرض تاريخياً كيفية إدارة المسلمين للصـراعات، وهنـا كـان التركيـز علـى النمـوذج النبـوي – الراشـدي فـي إدارة الصـراع، ونجاحـات هـذين العهـدين فـي إدارة الصـراع، ثـم إدارة الصـراع فـي العصـور: الأمويـة والعباسـية وصـولاً إلـى نهايـة هـذه الرحلـة بسـقوط الإمبراطوريـة العربيـة الإسـلامية وآخـر معاقلهـا فـي بغـداد (1258)، مـع خاتمـة وقـف عنـدها الباحـث متـأملاً، وهـي: الحالـة الإبداعية للفتوحات الإسلامية، وهنا يختلف الباحث مع الكثيرين، وخاصة في الغرب (السياسي)، حول طبيعة هذه الفتوح.

القسم الثامن، والأخير (الفصول 21-22-23-24-25) عمل الباحث في هذا القسم بشمول فصوله على التركيز على: إدارة الصراعات الخارجية، حيث عرض مواقف، وتصورات بعض التيارات والحركات والأحزاب السياسية في الوطن العربي إزاء الصراعات الخارجية، وتصوراتها لإدارة هذه الصراعات في مقابل إدارة القيادات السياسية المتواجدة لها.

ثم عرض نماذج من هذه الصراعات أهمها: اغتصاب (فلسطين) والنكبة الأولى (1948) ثم حرب (صراع السويس)، وأخيراً انتقال ملف الصراع العربي (الإسرائيلي) إلى الإدارة الأمريكية، وبداية إدارة الصراع الأمريكي بلا بدائل أو حلول تحسم الصراع لصالح الحق العربي، مع ربط فن إدارة الصراع الأمريكية بالفلسفة السياسية الأمريكية (البراغماتية) التي تشكل القاعدة النظرية (الإيديولوجية) للفلسفة السياسية الخارجية الأمريكية ولإدارة مختلف الأمور والصراعات ضمناً.

أخيراً عرض الباحث في الخاتمة مناقشة فكرية مقدماً وجهة نظره الخاصة الداعية إلى أن أحد المخارج من المأزق، هو: الانضباط داخل إطار نظام عقلاني شامل.

7- تطبيقات نظرية وميدانية حول أسلوب معالجة القيادات السياسية للأزمات والصراعات:

إن البحث يدور حول إدارة الأزمة، والصراع مستنداً على منهجية نظرية وعلى سرد وقائعي لبعض وقائع التاريخ السياسي، وإلى عرض فكري لجانب إدارة الأزمة والصراع في التاريخ السياسي، ولقد ولقد عرضت إشارات أكثرها عامة لا تقترب كثيراً عن محور بحثنا هنا، كدراسة النظم الإسلامية (د. عبد العزيز الدوري)، وكتب مثل: د. محمد عابد الجابري (العقل السياسي العربي). و(موسوعة الحركات الإسلامية) للدكتور أحمد الموصللي (الأصولية الإسلامية العربية) للدكتور حسين سعد، و(تكوين المجال السياسي الإسلامي) د. عبد الإله بلعزيز، و(تكوين العربي السياسي) د. محمد جابر الأنصاري.

وأخيراً كتابان فيهما دراسات ميدانية واستطلاعية حول الصراعات العربية- العربية، والنزاعات الأهلية نشرهما مركز دراسات الوحدة العربية، وأخيراً كتاب لم نعثر عليه حول (المنهج العربي في إدارة الأزمات) للدكتور سيد عليوه.

إلا أن جميع ما ذكرنا لا يغطي، موضوع إدارة الأزمة والصراع بالشكل الذي عالجه الباحث هنا، رغم أننا اعتمدنا هذه المراجع في كثير من المواضيع في هذا البحث.

أخيراً: قام الباحث بنفسه بإجراء استطلاع في 2005/5/29 شمل عدداً من طلبة الجامعة السنة الثانية.. تخصصات متنوعة، مع عدم نسيان الباحث سلبيات وعيوب منهج الاستطلاع من الناحية العلمية – مثل قلة طرق الكشف عن الصدق والثبات، وتأثر صدق الاستبيان بمدى تقبل المستطلع أو المستجيب للاستبيان، وصعوبة تحديد من لم يرسل إليه الاستبيان هذا بالإضافة: للحالة المزاجية للمستجيب للاستبيان..إلخ (انظر كتاب: أساسيات البحث العلمي – في التربية والعلوم الإنسانية – د. أحمد سليمان عودة. د. فتحي حسن مفكاوي – مكتبة المنار – وجامعة اليرموك 1987 ص151) ومع ذلك فالاستطلاع الذي أجراه الباحث يعطي فكرة (ميدانية).

طرح الباحث سؤالين على المستجوبين:

السؤال الأول: هل تعتقد أن القيادة السياسية العربية تدير الأزمات الداخلية مع المعارضة بطريقة: ممتازة، جيدة جداً، جيدة، مقبولة، ضعيفة، تديرها بنفسها.

السؤال الثاني: هل تعتقد أن القيادة السياسية العربية تدير الصراعات الخارجية بطريقة: ممتازة، جيدة جداً، جيدة، مقبولة، لا تديرها بنفسها.

وكان يمكن للباحث أن يطرح السؤالين وبنفس الصيغة حول غدارة المعارضة للأزمة مع السلطة – كذلك كان يمكن استبدال كلمة إدارة ب– (معالجة) وقد اكتفى الباحث بالصيغتين الأوليتين انظر الصفحتين التاليتين، صورة عن الاستبيان والنتائج الرقمية.

ونلاحظ في الجدولين تضارباً في النسب وارتفاع النسبة في:

(1) إدارة القيادة للأزمات بنفسها حيث بلغت النسبة 46.7% ويمكن فهم أن وراء النسبة العالية لإدارة الأزمات من قبل القيادة نفسها حول الكيفية التي تدار فيها الأزمات مع المعارضة من قبل السلطة ولكن الباحث اعتقد أن لا يمكن وصف الطريقة (المتشددة غالباً) في مواجهة المعارضة من قبل السلطة والتي يعلمها ضمناً الطالي الجامعي أي أننا إذا قلنا جيدة أو ممتازة، فيعني ذلك أن الطالب يثني على السلطة في

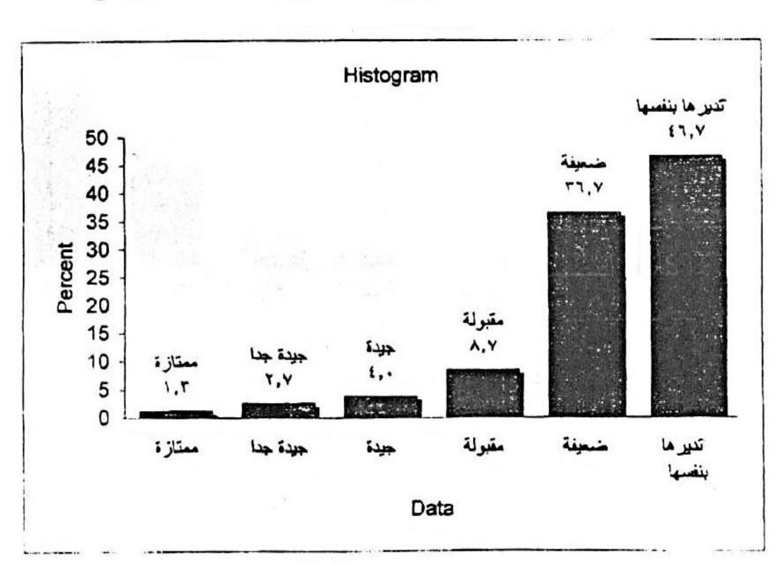
إدارتها للأزمة، والصراع وطريقة السلطة في تعاملها المتشددة، والعنيفة إزاء المعارضة: لذلك اكتفى الباحث بالسؤال المذكور والطالب عندما أجاب بأن السلطة تدار بنفسها فهو يوحي بالكيفية التي تعالج بها السلطة المعارضة ولم يذكر كونها جيدة أو غير ذلك، ويفهم الباحث المعنى الباطن من خلال النسبة العالية.

(2) أما السؤال الثاني من الاستطلاع وهو ما يلفت النظر حول إدارة الصراع مع العدو الخارجي ودرجة الوعي السياسي لدى الشريحة من طلبة الجامعة، والتي قالت في الاستطلاع أن نسبة 48.8% قالت بأن القيادة السياسية العربية لا تدير صراعاتها الخارجية بنفسها، والمعنى المضمون أيضاً هو: إن القيادات السياسية تعتمد في صراعاتها على مبدأ الاستقواء – بالخارج، وهذا المبدأ يتم الاستعانة به حتى في الصراعات العربية – العربية.

إن دلالة الأرقام واضحة وتعطي أيضاً فكرة واضحة مع التحفظ على أساليب استطلاعات الرأي على الرأي (الميدان) حول جانب مهم من جوانب العمل السياسي في الحياة العربية المعاصرة.

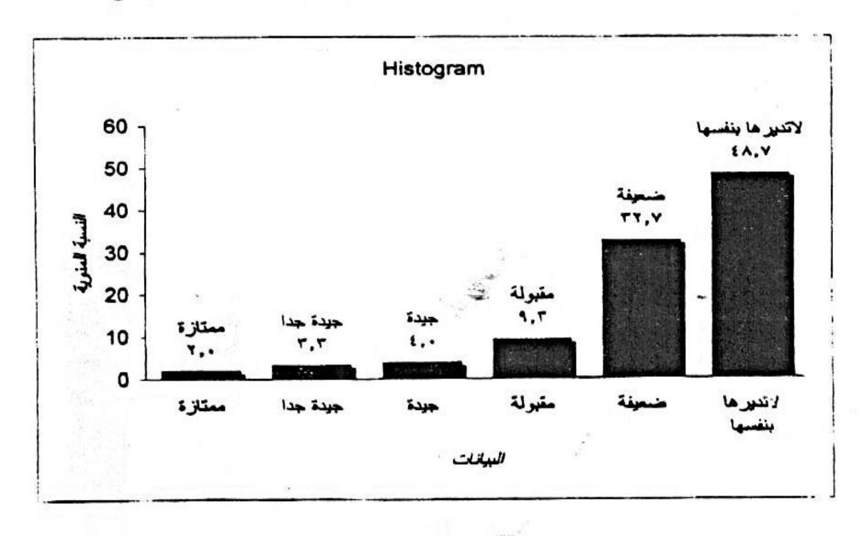
هل تعتقد أن القيادة السياسية العربية تدير الازمات الداخلية مع المعارضة

البيانات	التكرار#	النسبة المئوية%
ممتازة	2	1.3
جيدة جدا	4	2.7
جيدة	6	4.0
مقبولة	13	8.7
ضعيفة	55	36.7
تديرها بنفسها	70	46.7
العدد الاجمالي	150	100.0



هل تعتقد أن القيادة السياسية العربية تدير الصراعات مع العدو الخارجي

البيانات	التكرار#	النسبة المئوية%
ممتازة	3	2.0
جيدة جدا	5	3.3
جيدة	6	4.0
مقبولة	14	9.3
ضعيفة	49	32.7
لاتديرها بنفسها	73	48.7
العدد الاجمالى	150	100.0



الكتاب الأول

الفصل الأوّل
التأسيس النظري ـ التاريخي لادارة الأزمة
التنظيم الاجتماعي ـ الإدارة ـ إدارة الأزمة
الإطار النظري

مقدمة:

يصعب أن نتصور مجتمعا مهما صغر حجمه ، أو مجموعة إنسانية صغيرة كانت أم كبيرة عاشت أو تعيش في فوضى لا ينظم حياتها ناظم معين، أو يدير شؤونها من يوكل إليه زمام القيادة يتولى قيادتها، أو صيغة من الصيغ التنظيمية، يكون متفقاً عليها شفاهة أو كتابة ما دون هذا الأمر فالفوضى تفسح المجال أمام تصادم اصطراع الرغبات الفردية، والأهواء، والنزعات المختلفة، وتفسح المجال أيضاً هذه الفوضى إذا سادت أن يصارع الجميع ضد الجميع بحيث تصبح حياة الجماعة بكافة أفرادها مهددة في صميم وجودها، إذا لم تصبح غير محتملة العيش، والتعايش المشترك كذلك اقتضت حياة الجماعة الإنسانية منذ تواجد أفرادها معاَ عن ظهر الأرض، أن ترتضي لها، وفيما بينها، ضمناً أو صراحة أن تخضع إلى نمط ما من النظام، إدارة يقبلهما الجميع كي تستمر الحياة، وتأخذ مجراها الطبيعي.وعندما يرتضي الجميع الخضوع طواعية لنظام اجتماعي متفق عليه شفاهة، كما كان الأمر في الحضارة الإنسانية غير الكتابية، أو المكتوبة، أو الحضارات المكتوبة، عندئذ يلجأ هؤلاء إلى تولية إدارة شؤونهم إلى واحد أو أكثر يدير شؤونهم العامة ، فالإدارة بمفهومها البدائي والأولى لها صفة الإنسانية أي أنها تتعلق أساساً بالعمل الاجتماعي الإنساني، وقد اهتم المفكرون والفلاسفة ورجال الأدب في كل حضارة بدراسة النظام الاجتماعي، والإدارة، باحثين عن أصولهما، وجذورهما، في المجتمعات البشرية.

لقد كثرت الكتابات في عصرنا الراهن عن الإدارة العامة، وما تفرع عنها من تخصصات وتفرعات علمية أعني هنا: إدارة الأزمات، والصراعات، وهي في صورتها الحالية في الكتابات الحديثة من مبتدعات الفكر الحديث، ولكن هذا لا يعني عدم

وجودها بشكل ما في خبرات الشعوب، وحضاراتها وتاريخها السياسي فجميع المجتمعات البشرية عاشت في الماضي وقد خبرت الأزمات، والصراعات، ودارتها أو عالجتها بأساليبها، وخصوصياتها الخاصة، وتأتي الأدبيات والكتابات المعاصرة المبدعة لتنظير وبناء النظريات العلمية، مستخدمة مهارات التفكير العلمي، ومبتدعات العصر التكنولوجية، واستثمار المعلومات والمعرفة لوضع هياكل أو مناهج علمية لإدارة الأزمات، والصراعات، وقبوله (الخبرات السابقة)، وإضفاء كل مكتسبات العلم والتكنولوجيا لخلق منظومات متكاملة ترشد القيادات في السياسة، والمنظمات، والهيئات والأحزاب، الشركات إلى الطرق والأساليب العلمية في إدارة الأزمات والصراعات التي يواجهونها.

إن موضوعنا في هذا الكتاب هو أقرب إلى فهم محركات السلوك السياسي للقيادة والتعرف على أساليب، وطرق معالجتها للأزمات والصراعات التي واجهتها في الماضي العربي والإسلامي وحاضره، وكذلك ترمي إلى دراسة الفكر السياسي – الاجتماعي، وما يدخل فيه من مفاهيم مختلفة لدى القيادات السياسية في إداراتها للأزمة والصراع، وقد عمدنا إلى إعطاء إطار شامل يشمل عرضاً تاريخياً للأفكار المنتشرة عن إدارة الأزمة في ثنايا تراثنا العربي – الإسلامية هذه الأزمات، قد نستشف منها ما يفيدنا، وما هو معقول يفيدنا في إدارتنا للأزمات والصراعات من ناحية ومن ناحية ثانية لا نهمل الاستئناس الكامل بمكتسبات العصر العلمية في: الإدارة العلمية للأزمات والصراعات.

إن طريقتنا هنا ليست توفيقية بين اتجاهين، تراثنا والاستئناس بمكتسبات العصر الفكرية والعلمي بقد ما هي نابعة من احترامنا لخصوصيتنا العربية الإسلامية التي خبرتها شعوب هذه المنطقة وتراكمت، عبر آلاف السنين، ولا تزال تترك بصماتها في حياتنا الحديثة وفي شعورنا، ولا شعورنا: الفردي، والجمعي، وحتى في أنماط تفكيرنا للعالم بأزماته وصراعاته، وأزماتنا وصراعاتنا الخاصة بوطننا العربي.

أولاً: أهمية إدارة الشؤون الإنسانية:

ترتبط الإدارة كما قلنا بالتنظيم الاجتماعي، ذلك أنه مجرد وجود تنظيم اجتماعي ما فلا بد من ضبطه، وإدارته، والتي توكل عادة إلى قيادة واحدة أو مجموعة أو هيئة أو مؤسسة لتشرف على مسيرة هذا النظام.

فالأسرة كانت، وما تزال لها راعيها، والقليلة كانت، وما يزال لها شيخها، وإذا أوصلنا إلى تاريخنا العربي في جاهليته، فقد كانت للقبيلة شيخها، وناظمها، ومشرف على مسيرة حياتها العامة، وهو مدير أزماتها بلغة العصر – وإن إدارة مجموعة بشرية ما هي انعكاس لوجود نظام ما، تسير بحسبه هذه المجموعة فلا تقل إدارة الأمور أهمية عن النظام.

وبغض النظر عن طبيعة قيادة المجموعة، ومدير شؤونها فإن حجم المجموعة والقبيلة أو العشيرة، وظروف عيشها في محيطها الجغرافي ووضعها الاقتصادي، وطبيعة العلاقات السائدة بين أفرادها، يؤثر ذلك في طبيعة عمل إدارة الأمور، ونوعها وسلوكها. ونعتقد أن أهم مبررات وجود الإدارة وضرورة دراسة سلوكها، يتأتى من كون أي مشكلة وأزمة تطرأ على حياة المجموعة أو تواجهها تلجأ المجموعة إلى من هو قادر على إدارة الأمر ومن ناحية ثانية تحاول الإدارة ابتكار وسائل وطرق لافتة للمجموعة في مواجهة الأزمة واضعة حلولاً بدائل. وتصورات مختلفة لتكون جديرة بتحمل مسؤولية إدارة هذه الأزمة أو تلك، وهذا ما يجعل للإدارة، أو بمعنى أدق – أداة الشؤون الإنسانية، وأسلوب قيادتها، وفكرها في إدارة الأزمة لها من الأهمية القصوى.

ويمكن لنا ذكر كثير من العوامل التي تؤثر عادة في إدارة المجموعة لأزماتها منها:

(الموارد) أو (المصادر) والحاجة إليها، ووضع الخطط، والاستراتيجيات، وتحديد الزمن اللازم. إلخ.

وهذه العوالم وغيرها تؤثر في طرق تحقيق أهداف هذه الإدارة أو تلك، وهنا تكمن المسؤولية الكبرى للقيادة وخاصة في وطننا العربي، ذلك أن عوامل التخلف التي ما زالت موجودة في حياتنا، ومعاناتنا لمستوى المعيشة المتدني، أو المتواضع للغالبية المطلقة من شعوبنا العربية، والفجوة في (التقدم) العلمي بيننا وبين الدول المتقدمة، هذا بالإضافة إلى عوامل عدم الاستقرار السياسي الذي تخلخله العوالم المحلية، والمشكلات المحلية والإقليمية والمصالح الدولية في المنطقة كل ذلك ما يعيق عملية التنمية، وهذا ما يفرض علينا التركيز على (نوعية) القيادة، وإداراتها للمجتمع، وأزماته، وصراعاته، والصراعات السياسية وهي تضع القوانين والقواعد، وتعد المارد العامة، وما فيها من مصادر داخلية، وخارجية وهي التي تراقب آليات العمل البيروقراطي، والأجهزة

الرقابية في القطاعات المختلفة لديها القدرة، وكافة الصلاحيات لمواجهة الأزمة أو الإعداد لمواجهتها، أو استبصارها، والتنبؤ بها قبل وقوعها.

وفي الدول النامية، ومن ضمنها دول الوطن العربي حيث تكون فيها السلطات التشريعية والتنفيذية، وحتى القضائية والإعلامية غالباً ما تخضع في حسم قراراتها للسلطة العليا المتمثلة في قائد، أو رئيس، أو زعيم أو ملك، أو مجموعة من المسؤولين، وتكون المنظمات والتشكيلات والأحزاب السياسية أو المعارضة كل ذلك غير مشروعة، عندئذ تغدو السلطة التنفيذية، والتشريعية هما الأداة بيد القيادة العليا.

في هذا الإطار الحاكم في الدولة تفقد المناقشات والحوارات المفتوحة، والحرة حول قرارات السلطة – أساليبها في إدارة الأزمات، فاقدة الجدوى، والأهمية وإذا سمحت القيادة العليا بخلق مثل هذه الأجواء في معالجة الأزمات والصراعات الناشبة، تظل هذه القيادة المرجع الأول والأخير بعد كل هذه المناقشات التي يسمح بها ذراً للرماد في العيون، وإظهار لقناع من الديمقراطية، ويظل القرار الحاكم هو في يد القيادة المهيمنة، وليس بهذه المناقشات والمداولات دور فاعل.

إن إقرار القوانين العامة والجزئية لا تصنع عادة إلا بموافقة السلطة العليا – ولعل الطامة الكبرى في هذا المجال هي في قرارات الحري والسلم، والتي تتطلب عادة تضحيات المواطنين بأرواحهم، ودمهم، وممتلكاتهم، تكون هذه القرارات من خاصية السلطة العليا.

كذلك فإن المشاريع الصناعية، والزراعية، أو الخطط المتعلقة بالمدن والقرى والأرياف وكل ما يتعلق بالبنى التحتية للدولة لا يجري تنفيذها إلا بناء على الموافقات السامية للقيادة، وهي السلطة التشريعية والتنفيذية العليا، وأحياناً لا يتم قرارات هذه الأبنية المتعلقة بالصناعة والزراعة والعمران، عبر القنوات اللازمة، أو عبر القنوات القانونية أو الجهات الفنية المختصة صاحبة الشأن.

في هذا السياق تجد السلطة التنفيذية أو القيادة السياسية العليا نفسها حرة ، طليقة في صناعة القرارات، وهي المعنية بتحديد الأولويات، الوطنية والمجتمعية، وهي التي تحدد وترى ما يصلح، وما يجب التصرف به وتوزيعه، وبكلمة مختصرة، إنها هي القادرة

على معرفة مصلحة المواطن والمواطنين وهؤلاء ليسوا في مستوى، ولا هم قادرون على إدراك، أو وعي مصالحهم، أو مصالح وطنهم.

ثم إن القيادة السياسية العليا كثيراً، ما تستبعد من مجال المناقشة والقرار وإدارة الأزمات قادة الرأي أو أهل الرأي وقادة الفكر، وأهل الحل والعقد والخلاصة إن الجسور، مقطوعة بين القيادات السياسية والشعب.

إن مجتمعاتنا العربية عموماً ما تزال تعيش في هذه السياقات السياسية حيث تهيمن فيها قيادات سياسية تدفع بتأثيراتها المباشرة وغير المباشرة، نحو كافة القطاعات الأخرى، وتنقا أساليبها وأفكارها، ولغتها ومصطلحاتها إلى القطاعات الأخرى وحتى إلى عموم أفراد المجتمع، دون أن يكون لديها أية فكرة إيجابية عن تبادل الأفكار والآراء بينها وبين التشكيلات السياسية التي يمكن أن تكون مشكلة بالخفاء، ولا تدرك القيادات السياسية أنه في مثل هذه الأجواء من تبادل الآراء حول الأزمات الزاحفة، أو الطارئة أو الموجودة ما يثري قواعد اتخاذ القرار، ولا تدرك أيضاً أنه في مثل هذه الأجواء من التفكير المشترك بين القيادة وشعبها ما يجعل القرارات تصدر بشكلها المعقول، لا تعج بالأخطاء القانونية، ولا تكون في غير مصلحة الشعب.

إن استعراض مختلف الأساليب وطرائق إدارة الأزمات والصراعات، وخاصة السياسية التي مارستها، وتمارسها القيادات السياسية يفيدنا في التعرف على نمط السلوك والتفكير السياسي للقيادة.

ولا شك كانت القيادات السياسية ولا تزال في وطننا العربي تتأثر بالعوامل الثقافية والدينية والبيئية، والاقتصادية والاجتماعية المحيطة، وإن تحليل بنية السلوك السياسي المتعلقة بإدارة الأزمة والصراع مرتبط أيضاً بمعرفة مدى تأثير هذه العوامل المتفاعلة والتي تشكل البنية العامة لا لسلوك ولكن ما يشكل (قاع) هذا السلوك عوامل أخرى سنرى عرضها في الفصل القادم بحيث تترك هذه العوامل الأخرى أثرها الذي لا يستهان به في طرق وأساليب، ونمط تفكير القيادة السياسية وهي بصدد صناعة قراراتها.

وسنلاحظ من ناحية أخرى أن نوعاً من الاستمرارية للطرائق التقليدية في النظر وإدارة الأزمة، وفي رؤية الصراعات، ذلك أنه وحتى هذه اللحظة، لم تبدأ بعد التطورات العلمية

في علم إدارة الأزمة والصراع في الأخذ بنصيبها في طرائق قياداتنا السياسية لتحتل مكانتها في نمط وسلوك القيادات السياسية، وتتوازن مع الطرائق الاتباعية في معالجة الأزمات والصراعات.

ونأمل من خلال عملنا هذا أ، نقف، ونفهم، نحن والقارئ معاً هذه الاستمرارية الغالبة عل ذلك يفيدنا في التنبؤ بما سيكون عليه سلوك هذه القيادة، أو تلك التي تدير الأزمة ومحاولتنا إذن هي: العرض الموضوعي، والاستكشاف، والتنبؤ بما يمكن أن نقدم عليه هذه القيادة أو تلك، وليس بالضرورة القيادة السياسية، بل عرضنا هنا قد يساعد على استيعاب التنبؤ بما سيسلكه هذا المدير أو ذاك، في مختلف القطاعات لأن ما سنعرضه في الفصول القادمة من آليات الأسلوب العلمي لإدارة الأزمة والصراع لا تتعلق فقط بسلوك وطريقة وعمل القيادة السياسية، وإنما هي إطار عام للتفكر والعمل إزاء الأزمة، والصراع، وإذا استطعنا امتلاك ناصية العرض الموضوعي والاستكشاف والتنبؤ فيمكننا إفادة المتنفذين في مختلف القطاعات من حيث تزويدهم بالخبرة أو بالمعلومات تساعدهم على السير في الطريق الصحيح نحو مواجهة الأزمة، ومن ناحية ثانية، تكون قد وقفنا على فهم محركات السلوك السياسي العربي الإسلامي إزاء الأزمات وطرائقه في الإدارة.

ثانياً: تطور فكرة إدارة الأزمة:

إن الأزمة ظاهرة إنسانية، وفعل بشري، وهي إحدى العلامات البارزة في حياة المجتمعات قديماً وحديثاً. ولقد شغلت الأزمات الإنسان منذ القدم، وعبرت في نشوئها، ومعالجتها عن عقلية المجتمعات، وعن أنظمتها السياسية وطريقة تعامل هذه الأنظمة معها، وهي جزء من البنية الاجتماعية ومظهر يعبر في كثير من الأحيان عن التناقضات، والخلافات الكائنة داخل المجتمع أو بينه، وبين المجتمعات الأخرى.

إن فهم ثقافة المجتمع وبنية حياته الاقتصادية والاجتماعية والسيكولوجية يساعدنا على فهم طرائق قيادات السياسة في سلوك المواجهة، وإدارة الأزمات، ولكن لكل مجتمع خصوصية في التعامل ومعالجة أزماته، وله مخزونه الخاص وخبراته الماضية ونمط تفكيره، ورؤيته وفلسفته، بالإضافة لما اكتسبه من اتصاله بالثقافات والحضارات الأخرى كل ذلك يشكل طريقته الخاصة في الإدارة.

وبعبارة أخرى إن كل مجتمع ينشئ لنفسه عبر تاريخه، مجموعة من التصورات والتمثلات قد تكون مرجعيتها دينية أو غير دينية، ترشده إلى طرائق معينة في معالجة أزماته وإداراتها.

فالخبرة العربية الإسلامية في مجال معالجة الأزمات يمكن أن تكشف لنا الطرائق المختلفة التي تمت بحسبها، وبواسطتها مواجهة الأزمات وإدارتها، وتكشف لنا أيضاً العوامل المؤثرة في هذه الطرائق والأساليب.

أما مكونات الخصوصية العربية والإسلامية، والتي تراكمت طوال فترات التاريخ وتركت آثارها لا تزال تؤثر شعورياً أو لا شعورياً في مواجهة، ومعالجة الأزمة. وهي تعبر عن: الذاتية العربية – الإسلامية وهي:

1– محور الإعرابيات – الساميات – الكنعانيات – المصريات – مرحلة ما قبل الإسلام[4]

2– الأديان السماوية الثلاثة، وخاصة الإسلام

3– الآثار اليونانية – الرومانية – الفارسية – الهندية في العصور الوسطى الإسلامية

4– العناصر غير العربية التي تولت القيادات السياسية في العصور الوسطى العربية الإسلامية:

الأتراك البويهيون – السلاجقة – المغول – التتار – المماليك – العثمانيون – الصليبيون العصور الحديثة: الأوروبيون.

في هذا الإطار من الحديث عن الخصوصيات المجتمعة التي تواجه فيها المجتمعات كل واحد منها بطريقته الخاصة للأزمات ذلك يظهر مثلاً من خلال تبني هذه القيادة أو تلك إستراتيجية معينة في معالجة الأزمات، ففي التاريخ الحديث تحديداً في الحرب العالمية الثانية تبنت بريطانيا إستراتيجية غير مباشرة، فرضتها الظروف والإمكانات البريطانية استخدامها في الدول المستعمرة من قبل بريطانيا للمشاركة في الحرب ضد ألمانيا.

أما الإستراتيجية الأمريكية فقد كانت تقوم على السعي للعمل جنباً إلى جنب مع حلفائها الأوربيين لتلحق الهزيمة بألمانيا الهتلرية، وحليفتها إيطاليا.

أما الإستراتيجية الصينية، والتي ارتبطت باسم قائد الثورة الصينية (ماوتسي تونغ) فتوضع ضمن الاستراتيجيات غير المباشرة، دون أن يعني ذلك تشابهاً بينها وبين بريطانيا، لكن الإمكانات الصينية قد فرضت عليها هذا الأسلوب.

وبالنسبة للإستراتيجية الوقائية، فقد قامت على التعامل مع الهجوم النازي وفقاً للإستراتيجية المباشرة حيث دفعت بكامل قواتها إلى الحرب.

والفرق بين هذه الاستراتيجيات هو الفرق بين الأنظمة السياسية، وأساليبها في التعامل الصادرة عن تاريخا الخاص (5)

أما بالنسبة للإستراتيجية الإسلامية، فقد قامت على أساس المنهج الإسلامي الذي يحدد قواعد المواجهة والدفاع المنصوص عليهما في القرآن الكريم وأسلوب النبي القائد في إدارة الصراع (6)

وكذلك يستخدم البريطانيون في مواجهة الأزمات خاصة الخارجية أسلوب: الدهاء ويعمل الفرنسيون بالأسلوب المباشر لمواجهة الأزمة، ويواجه الأمريكيون الأزمات بتفجيرها لتصل إلى حد الصراع، ويستخدمون الفكرة المباشرة، لتحقيق النتائج.

ولكن رغم هذه الخصوصيات المجتمعية، والتي تلعب دورها الفاعل في مواجهة الأزمة أو الصراع إلا أن هنالك اتجاه عام في عصرنا الراهن نحو الاستفادة من الإدارة العلمية – التكنولوجية – الإلكترونية لإدارة الأزمات والصراعات، وتوظيف كافة الجوانب المعلوماتية والمعرفية والتكنولوجية العالية في غدارة الأزمات والصراعات.

ورغم ما تحققه هذه العوامل العلمية الحديثة من نجاحات إلا أن لها عيوب وسلبياتها ذلك أن العنصر الفاعل في الأزمة ومواجهتها هو: العنصر الإنساني ومكوناته العقلية والسيكولوجية والاجتماعية، وما يكمن وراء هذه المكونات من موروث وتقاليد وتراكم خبرات، قد تنحرف به أحياناً عن الالتزام المطلق بتقنيات إدارة الأزمات العلمية، وأحياناً يلجأ الإنسان، وحتى القيادات السياسية إلى الأساليب، وتعددها، ومنها الأساليب التقليدية لمواجهة الأزمة، وبمعنى آخر إن طبيعة الأزمة، وشكل الصراع، أو الحالة الأزموية، والصراعية كل ذلك يفرض أسلوب المعالجة.

ومهما يكن من أمر فإن المرحلة التاريخية التي نعيشها، وبدءاً من تسعينات القرن الماضي تشهد تطوراً ملحوظاً للأساليب العلمية لإدارة الأزمات، نظراً للفيضان المعرفي – المعلوماتي، والثورة التكنولوجية التي شهدها العالم وبالتالي التطبيقات العلمية لإدارة الأزمات نتيجة تفاعل هذه المعطيات الجديدة، ووعي القائمين على رأس المجتمعات المعاصرة أي الأنظمة السياسية بجدوى الإدارة العلمية للأزمة، وفي مختلف قطاعات العمل السياسي وغيره.ولكن بالإضافة لمكتسبات الفكر العلمي، ومهاراته الخاصة بالإدارة العلمية للأزمة والصراع تظل (البصمة) الإنسانية التي تضفي في لحظة ما على إدارة الأزمة قدرتها الإبداعية لإنجاح الإدارة الآلية – للأزمة وهذه البصمة الإنسانية هي التي ترسم معالمها: الخصوصية حاملة لمخزونها الحضاري الماضي والخبرات السابقة لتثري العملية العلمية الآلية – لإدارة الأزمة أو الصراع.

الإدارة في العربية: الإدارة والتدبير في اللغة العربية.

في عملنا الحالي سوف لن نقف طويلاً عند الفروق اللغوية بين: الإدارة أو التدبير، والمعالجة والمداورة، وإنما لأسباب إجرائية، ومتابعة سير عملنا هذا سنستعمل هذه الكلمات على أنها شبه مترادفة، ولكن قبل متابعة عملنا الإجرائي يحسن بنا أن نذكر بعض التفاصيل اللغوية في مسألة الإدارة والمعالجة، والتدبير: أول لنا في استيعاب هذه الألفاظ وتقاربها أو ترادخها، هو القرآن الكريم، فلقد جاء في سورة البقرة (الآية 282) ما يلي:

((..إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها))

وترد عبارة التدبير في القرآن الكريم أكثر من موضع:

سورة يونس /الآية/31/ (من يدبر الأمر فسيقولون الله، فقل أفلا تتقون)

سورة النازعات /الآية/5

سورة النساء /الآية 29/82

سورة المؤمنون /الآية/86

وفي المعاجم العربية الاتباعية (التراثية) فعند ابن منظور في قاموس يستخدم المداورة كمرادف للمعالجة:

وفي القاموس المحيط:

فالإدارة المداولة والتعاطي من غير تأجيل

وكذلك فكلمة التدبير لسان العرب أي:

دبر الأمر تدبره، نظر في عاقبته، واستدبره

والتدبر: التفكر

وفي نهج البلاغة المنسوب للإمام علي كرم الله وجهه

الإدارة بمعنى التدبر

وفي الكتب التراثية كذلك في كتب الأحكام والآداب السلطانية.

وفي مقدمة ابن خلدون

وفي كتاب مروج الذهب للمسعودي المتوفي (342هـ).

وفي كتاب الألباب لأسامة بن منقذ [7]

وتتميز كلمة إدارة، management عن كلمة administration حيث الأولى أصبحت علماً قائماً بذاته كحديثنا عن إدارة الأعمال أو غير ذلك، مما يدخل في عالم المال والاقتصاد والتجارة، وكذلك اتسع المفهوم هذا ليشمل مما يشمل: إدارة الأزمات وإدارة الصراع، وأصبحت إدارة الأزمات والصراع علماً، له أسسه وقواعده النظرية، وهو يدرس في كثير من جامعات العالم، بالإضافة لاندماجه مع مختلف فروع العلوم الاجتماعية.

أما كلمة administration، فكما نعلم أنها تشمل الأعمال في أجهزة الدولة وقطاعات العمل العامة، وتشمل الأعمال المكتبية وتدخل كجزء من أعمال النظام البيروقراطي وروتينيه والموجود في مختلف دول العالم.

وطبيعي أننا في عملنا نتوجه إلى المصطلح الأول لكلمة الإدارة أي management والقريبة من المترادفات العربية المذكورة سابقاً.

وكثيراً ما نستعمل عبارة (معالجة) الأزمة كرديف لعبارة (إدارة) الأزمة.

الأزمة - المصطلح، تقاربه مع مصطلحات ذات صلة:

يوحي مصطلح الأزمة بتقاربه مع مصطلحات أخرى، ولا بأس بأن نشير أولاً قبل الحديث عن معنى الأزمة إلى أنها تتقارب مع: المشكلة، الكارثة، الصراع، إدارة الأزمة، والإدارة بالأزمة، السلطة، القيادة، وأخيراً الحدث.

ورغم وجود خطوط مرنة تصل الأزمة بالمشكلة، وبالكارثة والصراع، في الفكر والواقع والممارسة إلا أن هناك فروقاً في المعنى، والدلالة الخاصة لكل منها.

فكلمة أزمة crisis بالفرنسية والإنجليزية تعني بالعربية: إزم، وإزم، ونقول أزمة حادة، كالأزمات السياسية التي تعني نقطة تحول، ونقول أزمة العام[9].

وإزم الدهر عليهم، تأزم المتناع عما يضر، ويقولون أصل كل داء، الأزم،وأوزام: الشدة، الضيق، وعلى هذا فنقول في لغتنا اليومية: أزمة سياسية، وأزمة اقتصادية، وأزمة اجتماعية...إلخ.

ويرادف هذه في العربية كلمات كثيرة في الأدبيات السياسية الاتباعية من قبيل النازلة، النكبة، المصيبة، الخطب، الفتنة، وكما قلنا منذ لحظة إن من المصطلحات المتصلة بهذا المصطلح:

1- **المشكلة** problem وأحياناً نذكرها في عملنا هذا كمرادفة أو بديل لكلمة أزمة، وهي حالة من التوتر يعيشها الفرد أو تعيشها المجموعة – أو يعيشها المجتمع، وهي تنجم عن بعض الصعوبات، أو المعوقات أمام تحقيق هدف ما، وتتضح معالم المشكلة في حالة عدم تحقق النتائج المطلوبة، وعندئذ تكون هي السبب لحدوث حالة غير مرغوب فيها، بل تصبح تمهيداً للأزمة إذا اتخذت مساراً معقداً يصعب من خلاله توقع النتائج بدقة.

2- **الحدث**: accident أمر فجائي، ينقضي إثر وقوعه،ولا يتسم بالاستمرارية، وإنما ينجم عنه أحياناً أزمة، وربما لا تمثله في الحقيقة، وإنما هي إحدى نتائجه، وقد تمتد نشوئها فترة زمنية يقتضي التعامل معها، ومعالجتها.

3- الصدمة shock وهي الشعور المفاجئ والحاد والناتج عن حادث غير متوقع بين الغضب، والذهول والخوف، وكذا فإن الصدمة هي إحدى عوارض الأزمات أو إحدى نتائجها، وهي لا تمثل إلا إطاراً خارجياً عاماً يغلف أسباب الأزمة، يتطلب التعامل معها استيعاب تأثيرها في أقل وقت ممكن حتى يمكن الوصول إلى جوهر ما نجم عنها، وهو ما يخالف التعامل مع الأزمة الذي يتركز في مواجهة جوهرها.

4- الخلاف: dispute يمثل التعارض والتضاد وعدم التطابق سواء في الشكل أو في الظروف والمضمون.

مفهوم الأزمة (الاصطلاحي الفني)، وخصائصها:

الأزمة حالة توتر ناجمة عن اختلال في مقومات النظام القائم، مع فقدان السيطرة على الموقف بما يهدد بقاء هذه المقومات والنظام القائم بينهما، ويختلف المهتمون بالأزمة، وتعريفها، وفقاً لاهتمامهم بالظواهر المحيطة بهم.

يقال في العربية: الأزمة تمثل حالة ضيق وشدة، فيقال أزمة سياسية، أو مالية ويقال أصابته أزمة في اللغة الفرنسية إن كلمة **crisis** ظهرت الكلمة في القرن الرابع عشر، وكانت تشير إلى لحظة مرضية توصف بإحداثها تغير ما، وحاسم في الحالة الصحية، وتشير إلى ما يصيب الشخص، ويدفعه إلى حالة من التشنج، والانفعال، والتوتر، تعبيراً عن وجود حادث ما، أو مشكلة، أو حالة صعبة أو خطر تداهم أو هجوم (10) **attaque**.

في الإنجليزية إن كلمة أزمة **crisis** هي لحظة حاسمة في وضع يبعد عن خطر، أو مشكلة وكذلك حالة انعطاف في مجرى الأشياء، أو لحظة تجسد خطراً ما، أو مشكلة مثال: أزمة حكومية، أزمة سياسية، أزمة في جنوب أفريقيا، أو في بريطانيا، أزمة صحية... (11)

أما من الناحية الفنية فعلماء الاجتماع ينظرون إلى الأزمة على أنها: اضطرابات في العادات والأعراف السلوكية في المجتمع بما يهدد الأنماط الثقافية، إذ يتطلب إحداث التغييرات السريعة لإعادة بناء العادات والقواعد والنظم أو السلوك الفردي أو الاجتماعي وأحياناً لتغير أسلوب الحياة **life style** يخلف أزمة في المجتمع أو في محيط العائلة التي يطرأ على بنائها تغير ما في مسالك الأبناء...

ومن ناحية ثانية يركز بعض علماء الاجتماع على ما يسمى في المجتمعات المعاصرة أزمة هوية من جراء الانفتاح الواسع لمجتمع ما أمام المجتمعات الأخرى حيث يؤثر هذا الانفتاح على هوية المجتمع.

ويرى السياسيون أن الأزمة حالة اختلال في النظام السياسي، يصعب معها توقعات سليمة للمواقف بين السلطة والجمهور، أو بين الدول وفي محيط المؤسسة تصبح في هذه غير قادرة على معالجة المواقف. مما يستدعي إعادة بنائها أو تجديد لها.

ويعتبر الإداريون الأزمة حالة عدم استقرار في المنطقة تنجم عن اختلال في صنع القرار بما يجعلها في ظل عدم التأكد، والمخاطرة، وبالتالي تكون القرارات مصدر لمواقف سلوكية تهدد بقاء المنظمة أو قدرتها على إنجاز أهدافها [12]

ويرى التربويون في التعليم ما قبل الجامعي مثلاً أن الأزمة في عدم تلبية السياسة، والأهداف التربوية لطموحات الطلبة، وهيئاتهم التعليمية من حيث: طرائق التدريس، والمناهج الموضوعة، والكتب الدراسية المقررة، ونظام التقويم، أو الإمكانات المادية المخصصة، وفي التعليم العالي تعبر الأزمة عن تراجع المادة العلمية المقدمة للطلبة من حيث عدم مواكبتها للعصر أو طريقة القبول الجامعي لطلبة الثانوية، أو إدراك الطالبة أن الدولة لم تعد قادرة على توفير فرص العمل سواء على صعيد القطاع العام أو الخاص للخريجين.

ليس من السهولة بمكان إعطاء تعريف جامع، مانع على حد تعبير أصحاب المنطق، لمفهوم، ومصطلح الأزمة لاسيما وأن الأزمة الواقعة سواء كانت سياسية، أو اقتصادية أو تربوية، أو إعلامية، ترتبط في التحليل الأول، والأخير، بعوامل معقدة ومتشابكة لأنها صناعة إنسانية، والفعل الإنساني على المستوى الفردي أو الجمعي، له عوامله الكثيرة الظاهرة والباطنة... ولذلك فإن صعوبة تحديد مفهوم شامل لهذا المصطلح يتأتى من خصوصية المنظور الذي ينظر فيه علم من العلوم إلى هذا المفهوم [13] ويتسع مفهوم الأزمة بقدر اتساع استخدامه، لينطبق في النهاية بمختلف صور العلاقات. والتفاعلات الاجتماعية بمستوياتها المتعددة، حيث تشمل الأزمة الفردية والعامة بأبعادها، ومظاهرها المكانية المختلفة، وبنيتها السياسية والاقتصادية، والعسكرية والثقافة، والعلمية [14] ومع ذلك فقد بدأت، وخاصة في وقتنا الراهن تتبلور مفاهيم عدة يمكن تصنيفها في المجموعات الفكرية التالية:

1- مفهوم يرتكز على نظرية (النظم) التي تنطلق من العلاقة بين الأزمة الدولية، والنظام الدولي، أي تدريس الأزمة في إطارها المجتمعي العام [15].

مثال ذلك: أزمة الصواريخ الكوبية في ستينات القرن الماضي حيث كان من الصعب فهم إطارها العام، أو إطار هذه الأزمة - الصراع آنذاك دون أن نفهم طبيعة الصراع الذي كان قائماً بين: الأيديولوجيتين الرأسمالية، والاشتراكية الشيوعية، والحرب الباردة التي كانت دائرة بين العسكريين.

كذلك لم يكن سهلاً فهم الأزمة النفطية التي حصلت عقب حرب اكتوبر 1973 في الغرب دون فهم إطارها العام، وهو الصراع العربي - الإسرائيلي، وكذلك صراع المصالح الدولية المرتبطة بجيو بولتيك الشرق الأوسط.

ويأتي تعريف الأزمة حسب هذه المدرسة منسجماً مع معناه اللغوي، حيث يعرف (كينيش بولنغ) الأزمة الدولية بأنها أزمة النظام الدولي، أو هي نقاط تحول في العلاقات الدولية، أو النظام الدولي، فالأزمة في هذا المجال وكما يعرفها (آلاستير بوكان) تحد مقصود واستجابة مقصودة من جانب كل من أطرافها، بحيث يتصور كل منهم أن هذه الأزمة يمكن أن تغير مجرى الأحداث لصالحه [16].

وينتقد هذا التعرف بالقول بأن مفهوم الأزمة على هذا النحو يتجاهل قضية هامة، وهي العوامل المؤدية إلى الكثير من المتغيرات خلال عملية صنع القرار المتعلق بالأزمة، وأثرها في تشكيل الأزمة نفسها، كذلك تحاول هذه المدرسة إعطاء أحكام مطلقة على نتائج [17] الأزمات الدولية من خلال التغييرات الكبيرة التي تحدثها تحمل في إطارها تغيرات في الأنظمة الدولية، وترى بأن الأزمات الدولية تحدث تغييراً في النظام الدولي أو أنها تزيد احتمال حدوث ذلك التغيير.

2- مفهوم الأزمة المرتبط بمدرسة (صنع القرار) وينطلق هذا المفهوم من وجود العلاقة المتبادلة بين: الأزمة، وعملية صنع القرار، وصانع القرار، وسلوكه، وتصرفاته، وطريقة تعامله مع الأزمة [18].

فمثلاً إذا كانت القيادة السياسية المشرفة على إدارة الأزمة فردية. استبدادية.

ومنفردة بالقرار حول الأزمة، فإنها تتخذ بنفسها ودون العودة إلى الشعب، أو تشكيلاته أو إلى الدستور، أو المرجعية، وهو قرار لا مؤسسي، فمثلاً في هذه الحال، يتعلق القرار بشخص الحاكم: نمط تفكيره، سلوكه، مزاجه، انتماءاته، أثر المجموعات الضاغطة، استرته، طائفته...الخ.

وإذا كانت صناعة القرار المتعلق بالأزمة الحاصلة تصنع ديمقراطياً. وبمشاركة المؤسسات الدستورية، فمفهوم الأزمة وإدارتها يأخذان طابعاً تشاركياً، وصولاً إلى الحلول.

ترتكز مدرسة صنع القرار في دراستها للأزمة الحاصلة تصنع ديمقراطياً. وبمشاركة المؤسسات الدستورية، فمفهوم الأزمة وإدارتها يأخذان طابعاً تشاركياً. وصولاً إلى الحلول.

ترتكز مدرسة صنع القرار في دراستها للأزمة على دراسات علمي النفس والاجتماع، وعلى نظرية اتخاذ القرار العلمية، ويعد (هيرمان كاهن) و(انطوني فيز) و(كنت مير) و(ايرا اسكوا) وهم من أبرز مفكري هذه المدرسة، وما جاء في عدة دراسات من أبرزها: الأزمة، وضبط التسلح، وبعض الأسس لدراسة الأزمات الدولية، فالأزمة حسب هذه المدرسة هي: موقف يهدد الأطراف المشتركين فيها. وهذا الموقف لا يتسم باليقين، والدقة في تقدير الوقف الصحيح، والبدائل الأزمة للمواجهة، نظراً لتضارب المعلومات، وعدم كفايتها، وهذا يؤدي إلى ازدياد مظاهر التوتر، والقلق بين الأطراف والشعور بضغوط متزايدة، ولهذا تبرز الحاجة الملحة إلى: اتخاذ القرارات السريعة للتعامل مع الأزمة [18].

وبعد أن يعطي الباحث (تشارلز هيرمان) تعريفاً للأزمة، وخصائصها من حيث كونها:

1– تنطوي على درجة عالية من التهديدات للأهداف، والقيم، والمصالح الجوهرية الأساسية للدول، أو الأطراف الأزمة.

2– موقف يدرك فيه صانع القرار أن الوقت المتاح لصنع القرار، واتخاذه قبل أن يتغير الوقوف، هو وقت قصير، وإلا فإن عملية صنع القرار واتخاذه تتعقد في مواجهة الموقف القائم، أو المستجد.

3– إنها موقف مفاجئ يحدث نتيجة تفاعل الأحداث المؤدية للأزمة [20].

لقد أضافت مدرسة صنع القرار بعض السمات الأساسية لمفهوم، وخصائص الأزمة منها مثلاً: أبرز الباحث (جيمس روبرتسون) أهمية الزمن ودوره الكبير في إدارة الأزمة فالوقت اللازم لاتخاذ القرار قد يكون قصيراً، ويتسم أو يتطلب السرعة لدى صناعة القرار، وقد يكون أو يحتاج إلى وقت أطول لدى آخرين، فعامل الوقت، وسرعته ومدته يختلف من أزمة إلى أخرى، وذلك بحسب العوالم التالية:

أ- القدرة الإدراكية لصناعة القرار، وهذه القدرة مرتبطة بالعوامل الذاتية، فالذ1كاء، وردود الفعل، ومعرفة العوامل المؤثر في اتخاذ القرار، وهنالك علاقة بين الإدراك وسرعته، وشموليته، وبين سرعة الاستجابة، وطبيعة القرار المتخذ.

ب- إن بنية الأزمة وطبيعتها، ودرجة تعقيداتها، وتعدد عناصرها، وتأثيراتها المباشرة على الوقت اللازم لفهم المشكلة، واستيعابها، وتحديد الوسائل اللازمة للتعامل معها، أي كلما كانت الأزمة أكثر تعقيداً في بنيتها، احتاجت إلى زمن أطول [21].

لعل من سلبيات هذه المدرسة (رغم أهميتها) أنها:

1- تعزل بين الأزمة، والمسار العام لتطور العلاقات بين أطرافها.

2- تنطلق من ضرورة الربط بين الأزمة الدولية، وتزايد احتمالات الصراع بين أطرافها.

إن واقع كثير من الأحداث الدولية يبدأ بالأزمة، ثم تتطور إلى مواجهة، وصدام وصراع وحرب، وغالباً ما يكون الصراع هو المرحلة التالية للأزمة، إذا لم يستدرك لحلها واتخاذ القرارات السريعة.

لقد كادت المواجهة بين الولايات المتحدة، والاتحاد السوفييتي (السابق) أثناء أزمة الصواريخ الكوبية المذكورة أ، تنقلب إلى حرب شاملة أو كونية.

لقد أدت أزمة تأميم قناة السويس المصرية في عهد الرئيس الراحل (جمال عبد الناصر) إلى عدوان عسكري (صراع مباشر) في (1956) من قبل إسرائيل، وبريطانيا، وفرنسا [22] ثم إن ضرورة الربط بين الأزمة واحتمالات الصراع، ليست قائمة دوماً، فكثير ما تستدرك الأزمة أو تستمر وقتاً طويلاً، ولا تنقلب أو تؤدي إلى الصراع ,ويتلخص مفهوم الأزمة، علمياً في النقاط التالية:

1- إنها نتيجة نهائية لتراكم مجموعة من الأسباب (التأثيرات) البيئية الداخلية والخارجية.

2- حدوث خلل مفاجئ يؤثر في المقومات الرئيسية للنظام.

3- تشكل تهديداً واضحاً لمسيرة النظام في الدولة، المؤسسة المنظمة، القطاع - المجموعة - الأسرة - والجهة التي تصدر عنها الأزمة.

4- إنها توقيت حاسم في حياة المستهدفين سواء كانوا أفراداً، أو جماعة، أو منظمة أو حزباً، أو هيئة.

5- إنها فقدان المعايير، والقيم، والأنماط القائمة القدرة على العمل كما كانت سابقاً.

6- تختلط فيها النتائج: بالأسباب بما يفقد صانع القرار القدرة على السيطرة [23].

مثال (1):

حدوث إضراب، أو تظاهرة، أو عصيان بشكل يتناقض مع السلطة القائمة المحلية مما يؤثر على مسيرة السلطة، أو استمراريتها في العمل: (سلطة الدولة - سلطة المصنع - سلطة المؤسسة).

مثال (2):

توقع أحد السوبرماركيات أو المراكز التجارية، أو التسوق توفر عدد معين من الزبائن لمسيرة البيع، وعملياته، وتتفاجأ إدارة السوبرماركت ، أو المركز بعدم توفر هذا العدد المفترض من الزبائن، وبالتالي تنشأ أزمة في مسيرة المبيعات، وتصريف البضائع.

وأخيراً نذكر خصائص الأزمة، والتي تتجلى فيما يلي من النقاط:

1- عنصر المفاجأة تشكل المفاجأة أحد العناصر الأساسية الهامة للأزمة: فمعظم الأزمات تبرز بشكل فجائي، أو تكون متوقعة مما يؤدي إلى ظهور حالة من الاهتمام، والمتابعة، والترقب.

2- بعض الأزمات تأتي زاحفة، وببطء، وتتطور تدريجياً وتستفحل كما يقال وتكاد جميع الأطراف تتوقعها، وفي هذه الحال لا تكون مفاجئة، ويؤخذ على الأطراف في هذه الحال عدم الإسراع في إيقافها، ونزع فتيلها.

3- التعقيد والتداخل والتشابك: تتسم الأزمة دائماً ببنية مركبة، ومعقدة نتيجة تداخل مجموعة من العوامل، المعطيات والتطورات التي تشكل قاعدة لبدء الأزمة، وعوامل دافعة لتطور، وكلما كانت الأزمة كبيرة،وشاملة، ازدادت مظاهر العقيد والتدخل في بنيتها وتركيبها.

4- نقص المعلومات، وهي إحدى السمات الأساسية التي تميز الأزمة، ونقص المعلومات يرتبط بعنصر المفاجأة للأزمة، كما يرتبط بنوعية المؤسسات الموجودة في الدول التي تشرف على الأزمات وتديرها.

5- الخوف، القلق: تؤدي الأزمة إلى حالة من الخوف، والقلق لدى القيادة المشرفة ولدى المجتمع الذي تحدث الأزمة فيه لا تتفاعل في إطاره [24].

مفهوم علم إدارة الأزمة:

عندما نقول علم إدارة الأزمة، فكلمة العلم تعني أن لإدارة الأزمة كعلم قوانينها وقواعدها وأسسها العلمية، ذلك أن مفهوم إدارة الأزمات يشتمل على الفكر والأساس العلمي الذي يتم به تناول الأزمة، وتحليلها، وتقييمها، اعتماداً على مجموعة المعلومات، والقدرات، والخبرات التي تتمتع بها مجموعة اتخاذ القرار لاختيار أنسب الاستراتيجيات لمواجهة الأزمة، وإداراتها بطريقة فعالة تؤدي إلى سرعة إنهائها.

لقد ظهر اصطلاح علم إدارة الأزمات من خلال علم الإدارة العام Management حيث يستخدم للتعبير عن أسلوب إنجاز المهام العاجلة والحوادث المفاجئة عن طريق قرارات غرف العمليات والطوارئ (خلايا الأزمة)، ويشتمل علم إدارة الأزمات دراسة الأزمات بوجه عام: النواحي السياسية والاقتصادية والعسكرية والاجتماعية والبيئية، وغيرها من مجالات الحياة [25] أما مصطلح إدارة الأزمة، فهو حديث العهد نسبياً [26] Crisis Management وقد أخذ يرد في سياق المصطلحات الحديثة في تخصص

ودراسة علم الإدارة في المعاهد والجامعات وقد طرأ على المصطلحات الحديثة الدلالة على وسائل التعامل الداخلي والدولي، وقد ظل هذا المصطلح مقيداً بموجب المفاهيم التقليدية التي حكمت العلاقات، اختلافها، وتباين مستوياتها حتى نهاية الحرب العالمية الثانية (1939 – 1945)، وتطورات بعد ذلك بشكل ملحوظ بسبب الارتباط الوثيق مع الشؤون المختلفة الأخرى.

إن علم إدارة الأزمات يستهدف الوصول في النهاية إلى تحديد القوانين العامة للأزمات عموماً ولكل أزمة بشكل خاص، للوصول إلى صياغة نظرية متكاملة للأزمات بمظاهرها المختلفة، ويعني كذلك تحديد أسس التعامل مع الأزمات، وأساليب السلوك والتصرف خلال الأزمات [27].

ولاحظ أن القول المذكور يوحي في نهاية الأمر إلى التركيز على المنهج السلوكي السياسي الملموس.

إذاً يقتضي مفهوم علم إدارة الأزمات التعامل مع الأزمة بالأساليب المنهجية العلمية الإدارية من خلال اتخاذ الإجراءات، والتدابير الواقية، والوقائية التي تعمل على تلافي حدوث الأزمة، والتخفيف من آثارها السلبية، ومحاولة عدم استفحالها أو وصولها إلى درجة المواجهة والصراع، وفي الوقت نفسه العمل على تحقيق أكبر تحقيق قدر ممكن من النتائج الإيجابية من خلال التنسيق، بين أعضاء فريق الأزمات، وتزويده بكل المعلومات اللازمة لإدارة الأزمة، والإشراف على سير العمل في موقعها، وتشكيل فرق المواجهة، حسب طبيعة كل أزمة ووضع نشاط فرق الأزمات، تحفيزهم لاتخاذ القرارات المناسبة، والتي يجب كما يقتضي هذا العلم أن تكون القرارات راشدة وعقلانية [28]، وكل ذلك يتطلب توفير نظام اتصال فعال، والنظر في الوقت المناسب،والمحدد، والنظر في تسارع الأحداث، وأخيراً اعتبار الأزمات فرصة للتعلم من خلال تقييم موقف الأزمة وتقييم الإجراءات التي اتخذت في التعامل مع الأزمة، ومحاولة تحسينها، ثم تصنيف الأزمات طبقاً لعدة أسس في شكل مجموعات تبعاً لمعدل تكرارها وتأثيرها وعمقها: وشموليتها وموضوعها [29].

خطوات التعامل العملي مع الأزمة:

توجد عدة خطوات تحكم أسلوب التعامل العلمي مع الأزمة أو إداراتها، وذلك بمعرفة أسباب الأزمة أولاً، ومعطياتها، واحتمالات تطورها والتي يمكن ذكرها باختصار:

- تحليل الأسباب المباشرة وتأثيرها على وجود الأزمة.

- تحليل العوامل المساعدة (الأسباب غير المباشرة) على إيجاد الأزمة وتأثيرها على حالة الأزمة واستمراريتها.

- تحليل الأخطار والآثار السلبية الناجمة عن الأزمة: كذلك أضرارها، واستمرار هذه الأضرار بدون مواجهة مصادر الأزمات السياسية:

مصادر الأزمات السياسية:

تتعدد مصادر الأزمات السياسية قد تعدد أجهزة الدولة، ومؤسساتها، فكل جهة من هذه الجهات يمكن لخلل ما في بنيتها أن تصدر عنها أزمة، أو تسبب في حصول أزمة، وتنعكس بالضرورة على بقية أجهزة الدولة، وتمتد بآثارها السلبية لتصيب حياة المجتمع، والمواطنين:

1- إن إيديولوجية المجتمع السائدة تنشأ عن مكوناتها أزمات بسبب:

- عدم الانتماء من قبيل الأزمات التي تنشأ من توترات بين الديني والقبلي كما سنرى ذلك لاحقاً في التاريخ السياسي العربي والإسلامي، وأحياناً بين الوطني والقومي والجنسي (العرقي).

-كذلك تنشأ الأزمات من جراء ضعف الهيئات والمنظمات، والنقابات وهيئات الحماية الاجتماعية.

2- النسبة للأداء الحكومي، منشأ الأزمات بسبب:

- انهيار الأداء التنفيذي في المجتمع، وانتشار الفساد في هيئات الدولة مثال الرشوة والمحسوبية، وتوظيف الأعداد الهائلة من العناصر في الأمكنة غير المناسبة.

3- الدخل الحكومي وانخفاض مستوى معيشة الأفراد، وضعف القدرات الشرائية وارتفاع الأسعار:

- ضعف الدخل الحكومي، وفرض ضرائب، وجمارك عالية.

- ضعف دخل الأفراد في القطاعات العامة تبين خلل بين ارتفاع الأسعار ودخولهم الفردية.

4- الخدمات العامة:

- ضعف الخدمات العامة وانهيارها، وخاصة تلك المتعلقة بحياة الأفراد من مباشرة مثل:

نقص في موارد الماء والكهرباء، والصرف الصحي، والمواصلات، والتعليم والعلاج والخدمات الصحية.

5- الهيئات التشريعية:

- قصور في سن القوانين لعلاج الظواهر الناشئة.

- المشكلات المؤثرة على راحة الأفراد.

6- هيئات الحماية:

- عجز المنظمات غير الحكومية عن حماية أعضائها.

- ضعف المنظمات النقابية وعدم تأدية دورها في حماية حقوق العمال العاملين.

- فرض القيود على أنشطة منظمات الحماية (30).

7- الهيئات القضائية:

- انتشار الفساد في الأجهزة القضائية، والتسيب، والإهمال والفوضى.

- انتشار الرشوة في الهيئات القضائية وعمل المحاماة.

- البيروقراطية والروتين، وتأثير تعقيداته على قضايا المواطنين (31).

ومما يجدر ملاحظته ونحن نتكلم عن الأزمات السياسية ومصادرها أن نذكر أن الأنظمة السياسية الثلاثة المشهورة في عالم السياسية هي: الديمقراطية، والديكتاتورية (الفردية)، ونظام الحزب الواحد: تنشأ من طبيعة تركيبها الأزمات، وتختلف فيما بينها في معالجة الأزمات أو إدارتها.

فمن النظام الأول: تنشأ الأزمات من:

- الممارسة الديمقراطية الخطأ والتطرف في ممارستها ولصالح الحزب الحاكم.
- عدم إقبال الأفراد على التصويت وأداء الأصوات في العمليات الانتخابية.

ومن النظام الثاني تنشأ الأزمات من:

- التسلط والقمع، والكبت للحريات العامة.
- عدم قبول شرائح كبرى من المواطنين لطبيعة الحكم الفردي القائم.
- الأسلوب المتبع في إدارة شؤون المجتمع، أو مشكلاته أو أزماته والقائم على الأسلوب الفردي السلطوي.
- والعمليات الانتخابية الزائفة والكاذبة والمزورة والمصطنعة.

ومن النظام السياسي ذي الحزب الواحد:

- عدم مشاركة القوى السياسية الأخرى والتيارات السياسية في الحكم.
- العمليات الانتخابية المحصورة في الحزب، ومن حوله من المستفيدين.
- إقحام المواطنين على الانتماء إلى الحرب الحاكم، أو تبني نظريته وإيديولوجية.

المداخل المنهجية لدراسة إدارة الأزمات: عرض، ونقد:

مقدمة: يهدف علم إدارة الأزمات المعاصر إحلال المعرفة العلمية، والمعلومات الدقيقة والمعطيات الواقعية محل التصورات الذاتية [32]، ويحث القائمون على إدارة الأزمات جميع الجهات المعنية على الإسراع بتقديم المعلومات ويحث هؤلاء أيضاً مراكز الدراسات والبحوث تقديم تصوراتهم، بحيث تعمل إدارات الأزمات من خلال كل هذه المعطيات على إدارة الأزمات التي توكل إليها.

وبعبارة أخرى، أصبح لابد في عصرنا الراهن لإدارة الأزمات من إتباع أساليب منهجية متكاملة لإدارة الظواهر الأزمة، وتحديد الوسائل الفعالة للتعامل معها، نظراً لكون أزمات عصرنا الحال أصبحت معقدة، وتتصف بالشمولية (33) وأصبحت مع صعود ظاهر العولمة، أزمات عابرة الدول، والقارات، وقد اتسع نطاقها، وأصبح لكثير من الأزمات المحلية الإقليمية أبعاد دولية سواء كانت سياسية أم اقتصادية، وأصبحت ترتبط كذلك بعوامل اجتماعية،وثقافية متشابكة (أسروية، قبلية، مذهبية، عرقية، ثقافية) وأحياناً يمكن تحديد أسبابها فإذا كانت سياسية أو اجتماعية مثلاً فهي مرتبطة بأسباب تعود إلى خلل في الإمدادات ونقص في الموارد، والإمكانات إذا كانت اقتصادية، أو خدمية فإنها تعود إلى أسباب مالية، وإذا كانت أخلاقية فإنها تعود بأسبابها إلى الفساد، وانتشاره في المجتمع.

إذاً فالتعامل مع أزمات اليوم يتطلب أتباع منهج علمي، أو بتطلب بعبارة ثانية وعياً منهجياً متعدد الرؤى المنهجية، التي تساعد في النهاية على دراسة الإطار المكاني والزماني، للأزمة، وأبعادها المحلية والإقليمية والدولية (34) ومختلف العوامل التي عملت في نشوئها وتدرس السلوك السياسي لصانع القرار، أو الذي يدير الأزمة، وكذلك تدرس أولئك الذين أوصولا بالأمور إلى درجة أن تصبح أزمة محيطهم (بيئتهم) وسلوكهم، وخلفياتهم الثقافية، وأوضاعهم الاقتصادية وانتماءاتهم السياسية...الخ.

وإذا ذكرنا عبارة تعدد الرؤى المنهجية، فقد وردت عمداً، لأن إدارة الأزمات تتطلب أولاً منهجاً علمياً، يتبع خطوات علمية محددة تقوم على تحديد موضوع الأزمة، ووضع فرضيات، وجمع المعلومات وتحليلها، للتحقق من صدقيتها ثم وضع الحلول (البدائل)، وأخيراً تقييم النتائج كما ذكرنا، سابقاً: هذه هي الخطوات العامة والتي تنطلق منها أية دراسة علمية للظاهرة، دون إهمال تفريعات أخرى، واجتهادات إضافية من قبل الباحثين، لهذه الخطوات، كذلك ذكرنا كلمة تعدد الرؤى المنهجية لكي نشير إلى أن لكل علم له خصوصياته فالتفاصيل المنهجية المتعلقة بعلم الرياضيات تختلف تلك المتعلقة بعلم النفس، وهذه تختلف عن تلك المتعلقة بعلم الاقتصاد، زد على ذلك أن لكل باحث اجتهاداته كما قلنا في إضفاء شخصيته البحثية على الظاهرة التي يدرسها، وقد يلجأ إلى الاستعانة بمنهجيات علوم أخرى، ومن هنا فعلم إدارة الأزمات كعلم حديث النشأة أصبح له منهجه الخاص، ينطلق من القواعد والخطوات العامة للمنهج العلمي، يضاف إلى ذلك خصوصية الظاهرة الأزموية المدروسة.

لقد مرت الدراسات العلمية للأزمات بمرحلتين، الأولى تمت فيها دراسة الأزمات وإدارتها من خلال العديد من العلوم الاجتماعية الموجودة في كل مرحلة تاريخية فقد ساعدت الفلسفة، والدراسات القانونية والتاريخ، والعلاقات الدولية مثلاً في دراسة ظاهرة الصراع، ومن ثم تكوين رؤية لإدارته.

وتمتد هذه المرحلة منذ بروز الأزمات في المجتمعات حتى بداية الستينيات من القرن الماضي حيث أخذ التركيز ينصب على البحث عن أفضل السبل العلمية لإدارة الأزمات مع تسليط الضوء على:

* التسلسل التاريخي (الزمني) تمر الأزمة بمراحل النشوء، والتطور والوصول إلى لحظة الانفجار.

* تحديد المضاعفات، والنتائج، الآثار الناتجة: الآثار القريبة المباشرة، وغير المباشرة والبعيدة.

*كيفية التعامل معها.

ومن الجدير ذكره أن هذه المرحلة الأول تمت فيها دراسة وإدارة الأزمة في إطار العلوم العسكرية والاستراتيجية [35].

والواقع كان التركيز في هذه المرحلة على دراسة، وإدارة الصراع، حيث لم يكن الاهتمام منصباً على مرحلة ما قبل الصراع أي مرحلة الأزمة.

ولكن الباحثين الاستراتيجيين تابعوا في بعد الحرب العالمية الأولى دراسة الأزمات بشكل غير مباشر عن طريق دراستهم أسباب الحروب، ومعرفة جدور (الصراع وامتداده ومضاعفاته).

ومع بداية الثلاثينات من القرن الماضي إدراك الباحثون في العلاقات الدولية والقضايا الاستراتيجية أن ثغرة كبيرة في دراسة الصراعات والحروب تظهر في عجم التركيز على السبل والوسائل التي تحول دون نشوب الأزمات، واشتعال الحروب [36].

ثم اقتراب الباحثون في هذه المرحلة من وضع الأسس النظرية لتوعية السياسيين في إدارة العلاقات الدولية، وإدارة الأزمات، ويبدو أنه حتى هذه المرحلة، كانت التوجهات

منصبة على دراسة الأزمات بشكل محدود تلك المتعلقة بالعلاقات الدولية، وظاهرة الصراعات ولم يكن التوجه منصباً وضع قواعد عامة لدراسة إدارة الأزمات، أي أنه لم يتوصل الباحثون بعد لأي نظرية عامة لإدارة الأزمات أياً كان طبيعتها.

أما المرحلة الثانية، لقد شهدت هذه المرحلة بداية الدراسة العلمية المنهجية للأزمات الدولية، وكيفية التعامل معها وإدارتها، وطرق التعامل معها، فتم استخدام المناهج البحثية، وأدوات التحليل العلمي الحديث الخاصة بعلم السياسية، وعلم العلاقات الدولية... وبعض العلوم الاجتماعية أي أن الدراسة العلمية بدأت بشكلها المحدود على يد الأستاذ (تشارلز أ.ماكيلاند) عند كتابته بحثه الشيق عن: الأزمات الدولية الحادة في المجلة العلمية الدولية السياسات العالمية (**1961**)، ثم توالت الأبحاث على يد كبار الباحثين، والمختصين في دول العالم [37].

لقد هدفت هذه الدراسات كما هو متوقع إلى التواصل لوضع الأسس العلمية – المنهجية والتركيز على دراسة الأسباب الظاهرية، والسطحية والعرضية، المباشرة وغير المباشرة وتحديد الأسباب والدوافع للوصول إلى تحديد الأسباب البنيوية الأساسية: السياسية والاقتصادية، والاجتماعية والسيكولوجية، والجغرافية والتاريخية والثقافية، التي تؤدي إلى حدوث الأزمات، وبالتالي وضع الأسس لإداراتها إنه علم يرتكز على مجموعتين من القضايا والظواهر:

1- الأفكار النظرية حول الأزمة.

2- أنماط السلوك والتصرف التي يجب اتباعها في التعامل مع كل أزمة [38].

تتعدد المداخل المنهجية لعلم إدارة الأزمات وكذلك الاجتهادات العلمية لدى مراكز البحوث والدراسات الاستراتيجية ولدى الأكاديميين في أقسام إدارة الأزمات في كثير من جامعات العالم، ويمكن القول بداية إنه من العسير الاتكاء على منهج واحد، وتبنية بطريقة مطلقة واهماً المناهج العلمية الأخرى، وأن الانطلاق ضمن منهج واحد أو رؤية منهجية أحادية يجعل أمامنا بقية الأبواب مغلقة، ولا نستطيع الانفتاح على الرؤى المنهجية الأخرى ولذلك من هذا المنطلق فنقف في هذه الصفحات على مجموعة من المناهج ونقف على إيجابياتها وسلبياتها ونستل منها ما هو مفيد لإثراء منهج علم إدارة

الأزمات، وكل ذلك اتساقاً مع روحية البحث الموضوعية، والتناسق الاتساق والمنطقين، مع الاحتفاظ بفكرة خصوصية أزمات كل مجتمع، والاستفادة من مخزونه الحضاري وخبرات السابقين، المعقولة للاستئناس بها.

1- المدخل المنهجي السلوكي: يفترض هذا المنهج الذي يعود في وضع أسسه العلمية - السيكولوجية إلى عالم النفس الأمريكي جون واتسون (1878 - 1958)... بداية وجود انتظام في السلوك العام للإنسان في الأزمات ومهمة الباحث اكتشاف هذا الانتظام [39] وبعبارة أخرى يقوم المنهج السلوكي على ملاحظة ودراسة وتحصيل السلوك المشاهد والملموس لفاعلي الأزمة، ويعمل في الخطوة التالية علىوضع التصورات للتعامل مع الأزمات أي أن السلوكية تنطلق من حقيقة الأزمات وإداراتها، التعامل معها على أنها ليست غاية بحد ذاتها بل وسيلة في المقام الأول، وأداة للتعامل معها، وتحسين إدارتها، والتحكم بها، لأن الأزمة في النهاية حسب هذه المدرسة، هي سلوك إنساني يرتكز على قاعدة راسخة من الوعي، والإدراك يعكس في سلوك يمكن ملاحظته ودراسته، وتحليله.

نقد:

يطرح هذا المنهج إشكالية نظرية، وتطبيقية، وهو السائد في الولايات المتحدة الأمريكية، وهذا الإشكالية تتخلص في صعوبة التنظير والوصول إلى نتائج مرضية رغم تبني هذا المنهج الأسلوب العلمي المخبري، والملاحظة، والمشاهدة المباشرة والمحسوسة، ذلك أن ظاهرة السلوك الذي نلاحظه، نخضعه للقياس المخبري، وتسجل الملاحظات، ونعمل على تحليله، فيعطينا أحياناً بعض النتائج الإيجابية والصحيحة، ولكن المشكلة في أن السلوك السياسي للقيادات السياسية في الماضي، وكذلك بعض نواحي من سلوك القيادات السياسي المعاصرة لنا قد يصعب علينا لأمور يدركها القارئ، الوقوف على دوافعها وعلى جزئيات وتفاصيل ومشاعر أصحابها ولا تخضع للدراسة الميدانية ولا المخبرية، ولا المشاهدة المباشرة وحيث أننا في مجال الدراسات المتعلقة بطريقة معالجة الأزمات لدى القيادات السياسية في التاريخ السياسي لزمن مضى، فإننا في هذا الحال لا نملك سوى الوثائق والكتابات المتعلقة بأساليب هذه القيادات في المعالجة وهي المصادر الأساسية والوحيدة التي ننطلق منها لفهم طرق معالجة هذه القيادات وتعاملها مع الواقع، والتي كانت تدير الأزمات.

يضاف إلى ذلك أنه قلما كتب القادة السياسيون في التراث العربي الإسلامي مذكراتهم التي تعبر عن أساليبهم في التعامل مع الأزمات السياسية أو طرق إدارتهم لها وكذلك الصراعات التي عايشوها وكانوا أصحاب قرار في نشأتها، وكذلك قلما يكتب المعاصرون مذكراتهم، في هذا الشأن أو سيرهم الذاتية السياسية وإن عثرنا على بعضها، فهي غالباً لا تنقل لنا صورة صادقة عن مجريات سلوك هذه القيادة أو تلك، ولا تتمتع بالصراحة الكاملة، والمصداقية وتحاول أن تعطي صورة لمن كتبها لمركبتها أو كتب عنها أو صورة غير موضوعية لمن كتب ضدها، الداخلية والخارجية، وتكون قادرة على تحمل المسؤولة وعلى مستوى العصر، لمواجهة المشكلات أو الأزمات، محاولة التفكير فيها من خلال الخبرة، والمخزونات الحضارية لوطننا العربي، والوقوف على إيجابياتها، وتجنب سلبياتها.

ولا يغيب عن بالنا عندما نتحدث عن ضرورة وجود القيادة التي تتمتع بالإدارة الجيدة ضرورة توافرها في أماكن ومختلف قطاعات العمل في الشركات والهيئات، والمنظمات الاقتصادية وغيرها، التي تعمل عادة لتحقيق المكاسب، وتتجنب الخسائر، وتكون قادرة على المنافسة، وذلك لا يتحقق إلا إذا توفرت القيادة القادرة على تحقيق جودة الأداء والإنجاز، والإبداعية، وبدون توفر هذه الإدارات تفقد هذه المواقع قدرتها على المنافسة وقد تتراجع، وتذبل.

والحديث عن الإدارة الجيدة لشؤون الدولة، أو شؤون المنظمات والهيئات والشركات، لا تقوم على قدرات فرد واحد أو مدير متوحد في الإدارة والقرارات بل بمشاركة جميع من حوله يساهمون بأفكارهم واقتراحاتهم ووجهات نظرهم، وتجعلهم قريبين من العمل السياسي أو العمل في قطاعات العمل الأخرى.

إن النظام السياسي كما هو معروف هو نظام رمزي، وفرع من فروع قطاعات المجتمع، وهو أهم هذه القطاعات ولا شك، وأشدها خطورة، وأقدرها على حسن الأمور، ويعكس طريقة وأسلوب المجتمع في الحياة السياسية، وعلى مختلف القطاعات الأخرى في الدولة.

وبعبارة أخرى إذا كانت الأمور تدار مع قبل قائد فرد، وواحد يتخذ صفة الحاكم الواحد ويضفي على شخصه صفة كاريزمية، فإن قطاعات الدولة وحتى مؤسساتها تدار بهذه الطريقة المتفردة، والعكس عندما يكون نظام الحكم، قائماً على المشاركة، ووجود شرعية مدنية دستورية أو مرجعية دينية شرعية، فنظام الحياة في المجتمع يكتسب هذه الصفة التشاركية، ويتخذ دوماً في قطاعاته المختلفة صفة المشاركة في مواجهة الأزمة والتعامل معها، وصناعة القرار واتخاذه، بحيث يتصف القرار على هذا النحو صفة المعقولية،والرشاد فالنظام السياسي، وبالذات قيادته السياسية التي تأخذ على عاتقها إدارة الأزمات.

2- منهج القياس التاريخي Historiometry

يتعامل هذا المنهج مع الأزمات،وإدارتها بالارتكاز على التجربة التاريخية أو يقيس عليها والتي هي المصدر الرئيسي لدراسة: إدارة الأزمات [40].

كذلك إن القراءة الواعية للتاريخ تقدم لنا معياراً رشيداً يمكن الرجوع إليه عند مواجهة أزمات الحاضر، والمستقبل [41]، ويوضح (سيردم براون) كيف أن الوقوف على أسباب الفشل في الماضي هو الخطوة الأولى نحو تحقيق النجاح في الحاضر [42] وتعتبر التجربة التاريخية إذاً المادة لصناعة إدارة الأزمات.

نقد:

إن السلبية الكامنة في هذا المنهج هي في صعوبة القياس التاريخي – الحرفي – ذلك أننا إذا سلمنا بأن التجارب التاريخية هي مادة إدارة الأزمات، فإن الحديث عن الاستفادة من التجربة التاريخية، إذا خضع لمفهوم القياس، فهو يقع في مطب التكرار، وإن التكرار للحدث التاريخي (الأزمة) بنفس المواصفات، والظروف، والدوافع، والأسباب حرفياً أمر مستحيل، كما يعلمنا منهج دراسة العلوم الإنسانية، أن الحدث التاريخي، وهنا الأزمة من سماته عدم التكرار أو أنه حدث متفرد كحدث أو أزمة أسبابه وظروفه وسياقه العام، ذلك أن الأزمات تتغير في مواصفاتها، وطبيعة تكوينها، وشدتها، وصعودها، ومضامينها بين مرحلة زمنية وأخرى، حتى من يوم إلى آخر.

إن أزمة الطاقة التي حصلت عقب حرب اكتوبر (1973) لا تشبه في حال من الأحوال أزمة النفط التي حصلت والتي بين الحين والآخر نتيجة ارتفاع أو انخفاض أو الطفرات النفطية أو قلة العرض وزيادة الطلب أو العكس.

ثم إن صراعات (1948) و(1956) و(1967) و(1973) لا يوجد شبه بينها، لا في الظروف، ولا في السياق المحلي والدولي والإقليمي، ولا في توازن القوى، ولا في طبيعة الأنظمة السياسية والقيادات السياسية التي كانت موجودة بين هذه المراحل الأربعة وحاصل القول إن للحدث التاريخي مغزى عبر عنه (محمد حسنين هيكل) بالقول: إن معارك التاريخ لا تندلع فجأة وسط الكون، ولا تطل برأسها من فجوة مجهولة أو مظلمة، إنما هي منذ القديم ظاهرة لمحها المشرعون العظام للإمبراطورية الرومانية، وما عداها في قانون، أو شبه قانون من حيث كون التاريخ عملاً لا ينقطع فعله.

ولكن عدم الانقطاع بين حلقات التاريخ، وتسلسل أحداث وأزماته، لا يلغي أن لكل حدث أو أزمة خصوصيتها المنفردة، والتي لا تشبه ما سبقها، وما سيليها.

والخلاصة إن منهج القياس التاريخي يقدم للباحثين، ومديري الأزمات، وللقادة وصناع القرار خبرات واسعة ومتعددة، ومتراكمة، يمكن الاستفادة منه، وطرق أولئك الذين عالجوها، إدارة أزمات الحاضر، دون أن تحذو حذو هؤلاء، لأن للقيادة، والمدراء، لجان إدارات الأزمات في كل مجتمع الإمكانات والمسارات للاجتهاد والإبداع، والتعامل مع الأزمات بأسلوبهم الخاص حيث يستطيع هؤلاء التميز عن تجارب الأقدمين.

2- المنهج التاريخي:

كان الفيلسوف اليوناني (أرسطو 384/322 ق.م) يقول لكي نفهم مشكلة ما، أو (أزمة) أو قضية من القضايا لابد من معرفة نشوئها، وتطورها، ومن هنا فإننا لفهم الأزمة، والقدرة على إدارتها لابد لنا من معرفة (تاريخها)، لأن الأزمة لا تنشأ كما قلنا سابقاً وليدة اللحظة، ولا المصادفة، إن لها تاريخها سواء القريب أو البعيدة ولها أسبابها، ولفاعليها دوافعهم الخاصة والعامة، التي تتفاعل كلها معاً لوصول الأزمة إلى حالها الأزموية، وكذلك للأزمة نذرها التي تنبئ بقدومها، وحاصل القول هنا إنه لابد لنا بحسب هذا المنهج من معرفة (ماضي) الأزمة قبل الوقوف على حاضرها والقيام بجمع المعلومات التاريخية

حولها، ويبين (مورتون كابلان) أهمية التاريخ في دراسة الحاضر بقوله: فالتاريخ هو المختبر الضخم الذي نبحث فيه السلوك، أو النشاط المحلي، أو الدولي كما دعا (كابلان) أيضاً إلى البحث في المراحل التاريخية السابقة سواء كان في نظام الإمبراطورية اليونانية، أو الرومانية، أو الدولة الإيطالية أو عصر النهضة، أو في تاريخ توازن القوى الذي ساده في القرنين الثامن عشر، والتاسع عشر، وكل ذلك يساعدنا على عقد مقارنات بين أنماط السلوك والتطرق في مراحل زمنية مختلفة، مما قد يساعدنا على الاستفادة منها، لخدمة المرحلة المعاصرة [43].

نقد:

لاشك أن المنهج التاريخي لدراسة وإدارة الأزمة أمر مهم، وهو يساعدنا على صناعة المقدمات التاريخية عند الشروع بدراسة الأزمة ويضيف لنا كثيراً من النقاط، ولكن هذا المنهج غير كاف لإدارة الأزمة، وخاصة في معطياتها الراهنة، والمتشابكة مع أحداث الحاضر فضلاً عن اختلاف هذه الأحداث عن تلك التي حدثت في الماضي، ولاسيما أن للحاضر معطيات جديدة، وعوامل جديدة تدخل في بنيته وحدوث الأزمة، لابد من الأخذ بعين الاعتبار لهذه المعطيات عند إدارتنا الأزمات.

3- المنهج البيئي:

العلاقة بين البيئة، والإنسان موضوع عالجه الباحثون منذ زمن طويل، وكذلك العلاقة مع المكان، تناولته أدبيات كثيرة في الحديث عن: البيئة الصحراوية والمنبسطة، والمزروعة، والجبلية والبحرية، والتربية... الخ.

ولم تخل مقدمة العلامة (ابن خلدون) من الحديث عن هذه العلاقات الواضحة والسحرية في آن معاً بين الإنسان والبيئة ولقد أدرك الباحثون العرب المحدثون بدورهم لهذه العلاقة، فقد كتب (د. جمال حمدان) كتابه: شخصية (مصر) دراسة في عبقرية المكان، والواقع يمكن تعميم هذه العلاقة لتشمل كل تجربة للعلاقات بين الإنسان – المكان – البيئة.

وقد أظهرت دراسات حديثة ومعاصرة حول موضوع العلاقة بين الإنسان والبيئة فقد عرف (هارولد) و(مارغريت سبروت) البيئة بأنها كل ما يحيط بالإنسان من عوامل اجتماعية، وطبيعية ملموسة وغير ملموسة، وقد كتب أيضاً (غاستون باشلار) عن جماليات المكان.

تؤثر عوامل البيئة البشرية وغير البشرية في النشاط الإنساني بمظهرين:

1- إنها تستطيع تؤثر في قرارات الإنسان إذا أدرك هذه العوامل [44]، وقد تؤثر في قراراته بشكل غير مباشر دون وعي منه.

2- إنها تستطيع أن تحد من القدرة على الإنجاز [45] إذا لم يستطيع الإنسان التكيف معها، أو السيطرة عليها فالبيئات الباردة تؤثر في سلوك الإنسان إذا خضع لها قسراً أو طواعية دون أن يبدع الشروط اللازمة للإحاطة بها.

كذلك تؤثر البيئات الحارة في سلوك الإنسان سلباً إذا لم يصنع فيها مناخاً معتدلاً باستخدامه تقنيات خاصة لذلك.

عندما ننقل هذه الأفكار إلى المجال السياسي، نجد أن كل مجتمع سياسي له قاعدة جغرافية تتمثل في إقليم يتفرد في خصائصه المناخية والطبوغرافية، والمساحية، الموقع، والمصادر الطبيعية مما يجعل له الأهمية الكبرى أو أهمية ضئيلة حسب موقع إمكاناتها ومصادر وقوة هذا الإقليم أو ذاك.

وسنرى لاحقاً، أن كثرة الأزمات، وتواليها في الوطن العربي تعود في جزء عظيم منها إلى موقع الوطن العربي، وأهميته الاستراتيجية.

ولقد تضمنت العلاقات الدولية على مر العصور أبعاداً جغرافية ثابتة يمكن التعبير عنها بمفردات سياسية، تأثيرها الكبير في الأزمات التي تحدث بين الدول، وأن قرارات القادة وصناع القرار أثناء الأزمات تعتمد إلى حد كبير على الإدراك الجغرافي [46] وكان (نابليون بونابرت) يقول إن السياسة هي الجغرافيا.

لقد توصل (سبروت) من خلال دراسته للعلاقة بين الإنسان والبيئة الجغرافية ما يلي:

1- إن دراسة البيئة تمثل منهجية مفيدة في تحليل السياسة الخارجية، وتقيم إمكانات دولة معينة.

2- إنها تساعد على التمييز بين علاقة العوامل البيئية بالقرارات السياسية، والنتائج العملية لهذه القرارات (47).

3- إن منهج دراسة البيئة مساعد ومفيد في دراسة السياسة الخارجية من حيث معرفة نقاط ونقاط ضعف الدول.

من خلال هذه الأسس نجد أن البيئة أثرها المباشر في صانع القرار، وفي كيفية تنفيذه لهذا القرار، وفق الموارد والإمكانات المتاحة التي يمكن أن تتحول قوة إذا أحسن استغلالها والتفاعل معها، إذاً يمكن القول أن هناك علاقة بين نشوء الأزمة أو إدارتها وسط البيئة وتأثيراتها، وقد تتحول إلى عامل ضعف إذا أسيئ استثمارها.

إن المنطقة العربية بحكم الموقع، ظلت أسيرة الإدارة الخارجية سواء من قوى الجوار أو القوى الدولية الكبرى التي لا تصرف اهتمامها، وأطماعها عنها، هذه المنطقة المتوسطة في العالم، لم تكن المعطيات الجغرافية، والموقع الجغرافي ليست دوماً في صالح العرب، وبصورة تلقائية، ولابد من إرادة إستراتيجية واعية تحقق وحدة، وترابط القوى داخل هذه القاعدة الأرضية المخترقة والمطوقة وحتى أن الموقع الإستراتيجي، المتوسط، الحيوي في قلب العالم لا تحقق إيجابية إلا بوحدة القوى داخل المنطقة العربية لاستثمارها هذا الموقع، وإلا فهو عامل سلبي وخطير في حالة الضعف، والتفرقة كما هو عليه الحال الآن (48).

إن العامل الجغرافي وخلاصة النظرية الجغرافية هي حسب هذا المنهج – البيئي – الجغرافي يخلق تأثيراته سلباً في خلق الأزمات، أو إيجاباً في التمتع بالقوة والإدارة القوية للأزمات التي يمكن أن تقع... والتي يمكن أن تكون صادرة من تأثير عوامل أخرى، ولكنه أي العامل الجغرافي يكون حاسماً في ظهورها، وفي حال الوضع الجغرافي للوطن العربي، فإن الموقع الاستراتيجي الجغرافي للوطن العربي، في حال القوة، فهو يتحكم وضعه ويسيطر على أزماته، ويديرها مع الخارج، كما سنلاحظ في عصور ازدهار الحضارة العربية والإسلامية منذ أن انتشر الإسلام في الدنيا القديمة، وبسط نفوذه وسط القارات

الثلاث حينذاك وهو أي الموقع الإستراتيجي المذكور في حال الضعف مدعاة لاقتسام النفوذ والاختراق من قبل القوى الدولية، وبسط نفوذها في داخله: الاستعمار، والاستيطان الإسرائيلي والنفوذ الدولي المعاصر.

نقد:

يؤخذ على المنهجية الجغرافية إغفالها دور الفاعل الإنساني، وعدد السكان، أو الديموغرافيا، للبلد والإقليم ذلك أن الإنسان بإمكاناته، وقدراته ومهاراته، وإبداعاته، ومستوى وعيه وخبراته ومخون تجاربه في الإطار الجغرافي الذي لا تغير فيه كل هذه العوامل تلعب دورها عندما يواجه أزمة من جراء وضعه الجغرافي، فالإنسان ليس هبة المكان، بل المكان هو الذي عليه الإنسان الحياة، يعمره، يعدله، يحفر فيها كما يشاء يبني عليه نمط الحياة والعيش بفاعلية عمله، ونشاطه وأنه يغير معالم المكان، إن الإنسان هو الذي يكتشف جماليات المكان.

4- مدخل دراسة الحالة Case Study

هذا المنهج معروف في مختلف مجالات الدراسات الاجتماعية وغيرها، ويقوم على النظر إلى الأزمة كحالة لها فرديتها وخصوصيتها، وعواملها المستقلة التي تميزها عن غيرها من الحالات وينظر المنهج إلى كلمة أزمة على أن لها سماتها الخاصة (49).

تدرس الأزمة هنا دراسة شاملة، تفصيلة، ودقيقة ومن جميع جوانبها وزواياها، وتتابع مساراتها، نشأتها لا تطورها وآثارها الجانبية في إطارها المكاني – المحلي، والإقليمي والدولي ولعل توضع مثل هذه العوامل ما بين طبيعة الوسائل التي يجب استخدامها لإدارة الأزمة (50) ووضع البرامج اللازمة لإدارتها.

الواقع تتم دراسة الأزمة وإدارتها على أنها حالة مرضية منفردة وتختلف بمديري ضآلتها، واستفحالها، والخلاصة يركز هذا المنهج على ما يلي:

1- الحجم الذي وصلت إليه الأزمة خلال تطورها، وتفاعلاتها، وهو ما يطلق عليه حجم ظاهرة الأزمة أو النتائج التي أحرزتها.

2- الإطار المكاني العام الذي برزت فيه الأزمة، والمدى الذي وصلت إليه خلال تطورها وتفاعلاتها المختلفة.

3- طبيعة العلاقات، نوعيتها التي كانت سائدة خلال نشأة الأزمة.

4- العوامل أو الأسباب المباشرة وغير المباشرة التي أدت إلى حدوثها، وتلك التي أسهمت في استقرارها واستمرارها [51].

نقد:

يتيح لنا هذا المنهج صياغة رؤية متكاملة وشاملة للأزمة المدروسة، من خلال دراسة العوامل والمكونات المختلفة، والثوابت، والمتغيرات، ولكن من الصعب تعميم نتائج دراسة هذه الحالة أو غيرها عن حالات أخرى، وبالتالي من الصعب أن نؤسس عليها قواعد عامة، في إدارة الأزمات انطلاقاً منها، أي أننا لا نستطيع التوصل من خلال دراسة إدارة حالة أزموية معينة إلى نظرية، أو قانون أو مبدأ عام يفسر، ويساعد على إدارة الأزمات عموماً حتى من ذات النوع فضلاً عن عدم إمكانية ذلك في إدارة أزمات من نوع مختلف.

5- المنهج البنيوي:

ينظر هذا المنهج إلى الأزمة من خلال تداخل بين مختلف الظروف، والشروط والعوامل، وتشكيل هذا التداخل بنية الأزمة، وكذلك يرى أن المجتمع يشكل (بنيته)، ونظام يتسمان بالحركية، لذلك يركز هذا المنهج على ما يلي:

1- البحث في بنية الظاهرة (الأزمة)، وتركيب أجزائها، مع ربطها بالحقائق المكونة لهذه الأزمة.

2- البحث في وظيفة كل جزء، أو عنصر ودوره في البنية، وتحديده وصولاً إلى تحديد عام لوظيفة للبنية (الظاهرة) المدروسة أو وظيفة الأزمة في الإخلال بالنظام القائم.

يقوم هذا المنهج على عزل الأزمة التي هي مجال الدراسة والبحث العلمي عن غيرها من الظواهر في المجتمع والعمل على اكتشاف العوامل الأساسية وتحديد الظروف أو الشروط التي أدت غليها الشروط الجزئية، الصغيرة وتحديدها، والخلاصة من التحليل البنيوي الوظيفي لدراسة الأزمة وإدارتها، يقوم على البحث في:

بنية الأزمة تركيبها، وفي وظيفة الأجزاء المكونة لها، ووظيفة كل جزء على حدة، وما تتركه من أثر على النظام الاجتماعي القائم، وإن جوهر هذا المنهج – البنيوي، هو في النهاية رؤية شاملة للظاهرة الأخرى، ودراسة النتائج التي تترتب عنها بالنسبة للمنظومة ككل [52].

نقد:

إن استخدام هذا المنتج في دراسة الأزمات، وإدارتها، والتعامل معها وتكوين صورة واضحة ومحددة، شاملة، وذلك من خلال تحديد بنيتها، وتركيبها، ومكوناتها العامة، والخاصة الجزئيات ثم إعادة تركيبها، هو بحد ذاتها مهارة من مهارات الدراسة العلمية، والمنهج العلمي، ويقدم لنا متعة في البحث العلمي، ربما النظري – أكثر من العلمي، ويتطلب في هذا الإطار مهارات عالية في البحث العلمي قد لا تتوفر للجان، ولا لمدراء إدارة الأزمات في المجتمع والدول، ولاسيما في مجالات الأزمات السياسية، التي تتطلب عادة مهارات عملية – ووسائل مباشرة، وقبل كل ذلك نظرة واقعية، مما يمكن صناعة القرار في الأزمات سواء كانوا قادة أم مدراء مؤسسات أو منظمات أو شركات في قطاعات العمل إلى الوصول إلى نتائج عملية، وقد تكون عاجلة تتخطى في مطالبها منهج البحث العلمي الرصين.

8- المنهج الإحصائي الكمي:

يعتمد هذا المنهج على توفير البيانات والإحصاءات والجداول والقيام بإجراءات واستطلاعات للرأي ورصد النتائج التي تتوصل إليها البحوث العلمية المتعلقة بالأزمة، ويعتمد هذا المنهج من خلال تسمية علم الإحصاء، بدأت أهمية هذا العلم، والاستفادة منه منذ نهاية القرن الثامن عشر على يد العديد من الباحثين أمثال: (لابلاس) و(غوس) و(عائلة برونلي) و(فريدريك جاوس)، وآخرون [53]، حيث انطلق هؤلاء من دراسة التحليل الإحصائي، لصياغة قوانين الاحتمالات، والعلاقات بين الظواهر، والأحداث المختلفة، وقد دخل هذا العلم بمنهجية رقمية في إطار العلوم الاجتماعية، والطبيعية، ومختلف الاختصاصات ولاسيما العلوم السياسية بشكل واسع [54].

ويمكن تعريف المنهج الإحصائي بأنه عملية جمع، وتحليل وتبويب وتفسير الأرقام التي نحصل عليها عن طريق البيانات، والإحصاءات بعد تحديها، وإثبات صحتها، وتنظيمها وتفريقها، وأخيراً بيان دلالة الأرقام بعد عمليات التحليل، ويستخدم الحاسوب، استخداماً واسعاً في بيان النتائج الرقمية.

نقد: يؤخذ على هذا المنهج الرقمي، إنه وبالرغم مما أسهمت التطورات العلمية والتقنية في التوسع في استخداماته، وكذلك الاستفادة من العقول الإلكترونية، وتخزين المعلومات وكذلك مساعدة ذلك في اتخاذ القرارات الصائبة، إلا أنه يصعب بناء على هذه المنهجية رغم دقتها، توقع ردود الفعل الإنساني المحتملة، والمسبقة للخصم، أو الأطراف الأزمة، وكذلك يصعب تحديد الخفايا الصغيرة التي تضمرها أطراف الصراع، والأزمة، أو استدراك بواطن أطراف الأزمة، وما هو مخزون في اللاشعور لديهم، إذ أن كل ذلك، كما نعرف بسهم في الحدث أو الأزمة، التي لا تبددها الأرقام، ولا تعبر عنها البيانات الورقية، ولا تسجلها شاشات الكمبيوتر، وقد تكون أسباباً كافية لأحداث الأزمة أو تصعيدها.

9- المنهج المتكامل:

الأزمة كظاهرة إنسانية اجتماعية، وفعل بشري كما ذكرنا سابقاً، وتحدث بفعل عوامل بشرية في الدرجة الأولى، تحمل تشابكاتها، وتعقيداتها في ذاتها وهي متغيرة في مظاهرها، وسواء كانت زاحفة أو طارئة، بسيطة، أو معقدة، وأنه يصعب إرجاعها إلى عامل واحد أو تعليلها بسبب واحد، وهي متعددة الدوافع والأسباب وهذه العوامل والأسباب متشابكة، ومتداخلة، والنتيجة أنه يصعب أن يحيط بها منهج أو أسلوب تفكير منهجي واحد، ومحدد، فلا بد من تضافر رؤى منهجية، عدة طرق للمعالجة، تكون متكاملة لتؤدي إلى نتيجة مرضية، كل ذلك بهدف الوصول إلى بناء نظرية تخص الحركة الفعلية، والمفترض للأزمة، ومسارها، إن علينا بلغة مباشرة محاصرة الأزمة من عدة زوايا منهجية.

ثم إن سلوك الأفراد لا ينفصل من سلوك الجماعة، لذلك ففي إدارة الأزمة لابد من تحديد العوامل السياسية والاقتصادية والاجتماعية، والثقافية، وأثر كل منها في سلوك مدير ولجان وخلايا إدارة الأزمات، وتصرفاتهم في إدارة الأزمات [55]، ومن ناحية أخرى إلى التكاملية في الرؤية المنهجية تساعدنا على فهم الأزمة بشكل أفضل وبالتالي الانتقال والفهم الوعي إلى الفعل والحركة، وبسط الحلول والبدائل، ثم محاولة التوقيع والتحكم، والتنبؤ بردود الفعل لفاعلي الأزمة.

رؤى متعددة لإدارة الأزمات

أولاً: المنظور التاريخي:

اعتبرت مواجهة الأزمات، والمواقف الأزموية الطارئة، والمشكلات الناجمة طريقة من طرائق تعامل الإنسان مع الأزمات، وبمعنى أوسع، نمط وعيه لمشكلات الحياة ومسيرتها، ولو لم يكن هذا الاصطلاع معروفاً على هذا النحو، إلا أن الإنسان واجه الأزمة وواجه المشكلة، واستطاع بحكم حبه البقاء وإرادته العيش، مواجهة وحل المشكلات التي اعترضت سبيله، ولقد علمته الممارسة، والخبرة، بالإضافة لما كان لديه من أحاسيس ومشاعر، وحدس وفكر وطريقة في النظر، والتعامل مع الواقع ولقد اضطرت الجماعات الإنسانية منذ بداية تكوينها، وعيشها المشترك أفراداً وجماعات إيجاد مختلف أساليب التعامل مع الأزمة ومواجهة الصراع، ولكن ظهر من تطورات الحياة الإنسانية عبر مراحل التاريخ، وامتلاك القوة من قبل البعض دون البعض الآخر من الاستئثار بهذه القوة، واستعلاء منطق القوة، واستبعاد منطق الرشاد، والعقلانية، مما اضطر الجماعات التي لم يتح لها امتلاك القوة إلى ابتكار أساليب خاصة بها تدير الأزمات، والصراعات، وأخذت تتوضح هذه (الإدارات)مع تقدم الإنسان عموماً وتطور أنظمته، وتقدم حضارته.

لقد اهتمت الحضارات القديمة بمظاهر التعامل مع الأزمات ومعالجتها وتعد:

1– معاهدة (قادش) الموقعة عام (278ق.م) بين المصريين والحيثيين أقدم معاهدة مكتوبة بين أطراف متصارعة.

2– أما الحضارة (الصينية) فقد اهتمت بمظاهرة إدارة الأزمات نتيجة اتساع رقعتها، وتطورها، وتقدمها، ونجد في تعاليم الفيلسوف الصيني (غواينج شينغ) ما يدل على ذلك من خلال تأكيده على عدم تبرير الصراعات والحروب ولكنه أيضاً حدوثها في بعض الأحيان أمر لابد منه هذا بالإضافة لأول كتاب وضعه (لاوتسو) وهو كتابه الشهير (فن الحرب)، أي فن إدارة الصراعات بلغتنا الحديثة.

3– لقد تضمنت قوانين (مانو) في الهند التي ظهرت عام (1000 ق.م) العديد من الأسس التي تسير عليها إدارة الأزمات من خلال تأكيدها على اعتماد أساليب متعددة للتعامل الخارجي مع الدول الأخرى.

4- وقدمت حروب (البيلوبيونيز) بين (اليونان)، و(فارس) إطاراً مناسباً لإدارة الأزمات السياسية، وعقد التحالفات السياسية، والحديث المبكر جداً عما يسمى في عصرنا: توازن القوى وكان المؤرخ اليوناني (تيوسيديو) من أبرز من تحدث عن إدارة الأزمات، وله قوله المشهور: إن الحرية مع الجيران يجب أن تتقلص دائماً في القدرة على مواجهتهم، وقوله أيضاً خذوا وقتاً كافياً قبل أن تتخذوا قراركم، فالمسألة في غاية الأهمية، ولا تدعو الآراء المختلفة، والأزمات تحدث أضراراً في أنفسكم، وخذوا في الاعتبار الأثر العظيم للمصادقة في الصراع، قبل أن تنخرطوا فيه، وطالما هو مستمر، فإنه يصبح الانتصار فيه بشكل عام مسألة حظوظ.

5- لقد اتسعت الإمبراطورية (الرومانية) وتنوعت شعوبها، وخاضت صراعات وحروباً متعددة وصنعت الكثير من معاهدات الصلح والمعاهدات المؤقتة والهدنة المؤقتة أو الدائمة، ولقد برزت براعة (الرومان) في المرحلة الأخيرة من الإمبراطورية استخدام ما يسمى ب-(الحيلة)، كتبديل الثياب، وكذلك استخدموا الدهاء، حيث إرجاء هذا الأسلوب الأخير سقوط الإمبراطورية عقوداً عدة [56].

6- العصور الإسلامية لقد امتدت رقعة الأراضي الإسلامية في العصور الوسطى، منذ القرن السابع الميلادي، حيث كانت هذه الإمبراطورية، ومنذ العهد النبوي الراشدي (والذي سنتحدث عنه تفصيلاً فيما بعد) متطورة في أساليب إدارة الأزمات، والصراعات والتنظير لهما، ولقد سجلت الأدبيات الكتابات السلطانية والأحكام السلطانية، وصولاً إلى مقدمة العلامة (ابن خلدون) طرائق الخلفاء، والوزراء، والأمراء، في إدارة الأزمات والصراعات وسنرى ذلك في فصول لاحقة من هذا الكتاب.

7- أما في العصور الأوروبية، فلم يسجل لنا التاريخ إبداعات كثيرة في مجال إدارة الأزمات والصراعات (ما عدا فترات الحروب الصليبية) [58] ثم النشاط الفكري الأوروبي في الإبداع بأدبيات إدارة النزاعات والأزمات مع بداية عصر النهضة الأوروبية، مع المنظر الإيطالي المحنك نيكولومكيا فيللي (1469 - 1507م) [59] مع كتابة (الأمير) حيث وضع فيه المرتكزات المباشرة لإدارة الأمير لشؤون إمارته، والأزمات التي يمكن أن يصادفها داخلاً، أو مع الخارج، وقد دعا الأمير إلى أن يكون ماكراً كالثعلب، وقوياً

كالأسد في الملمات والشدائد (الأزمات)، (سنرى في الصفحات القادمة أن مفكراً عربياً كان أسبق من (ميكيافللي) في الحديث عن إدارة الأزمات وهو ابن ظفر الصقلي).

وفي نهاية عصر النهضة عمل الفيلسوف البريطاني (توماس هوبز 1588 – 1678) في كتابه ليفياتان Leviathan على تحديد أسباب الأزمات القائمة في المجتمع ويربط بينها وبين غياب السلطة المنظمة للمجتمع (سنرى موقفه فيما بعد من الصراعات البشرية).

8– المنظور الأوروبي الحديث والتطوير العلمي لإدارة الأزمات: استطاعت أوروبا الحديثة، والمعاصرة من خلال خوضها المعارك والحروب الطاحنة، ومعايشتها الأزمات الخانقة السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وكذلك غزواتها الاستعمارية في تطوير إدارة الأزمات والصراعات.

ويؤكد (هنري كيسنجر Kissinger Henry وزير الخارجية الأمريكية السابق نجاح القارة الأوروبية في إدارته الأزمات، حيث عاشت مرحلة تاريخية طويلة في سلام، ومن خلال نجاحاتها الإدارية للأزمات، وقد امتدت هذه الفترة من (1814 – 1815) منذ مؤتمر فيينا وحتى قيام الحرب العالمية الأولى (1914 – 1918)، والحرب العالمية الثانية (1939 – 1945)، ثم ما تلا ذلك من حروب، وقد أبدى (كيسنجر) إعجابه الكبير بالتنظير وبالوسائل الجديدة التي صاغتها القارة الأوروبية لإدارة الأزمات مثل: توازن القوى، وتوازن الرعب، ونظريات الاحتواء، وقد اكتشف (كيسنجر)، حكمة رجلين في التاريخ السياسي الأوروبي الحديث وهما: (متيرنيخ) مستشار (النمسا) و(كاسلرير) وزير خارجية (بريطانيا) في التعامل مع (نابليون بونابرت) ومواجهته وقد حدد أسباب نجاحهما في العوامل التالية:

1– إدراك الدوافع الحقيقية وراء سلوك (نابليون)، وهي رغبته في إقامة إمبراطورية واسعة.

2– إدراك عدم فعالية المساومات وتقديم التنازلات.

3– توصلا بعد ذلك إلى الأسلوب الوحيد للمواجهة، وهو استخدام القوة، وحققا الانتصار دون الدخول في مغامرة خطيرة ولا العمل إذلال فرنسا، ولا إمبراطورها خشية زرع مشاعر الانتقام لدى الفرنسيين، وتدمير أوروبا [60].

وهنا يسجل (كيسنجر) انتصار الحكمة والعقلانية.

وفي المقابل تؤدي الأدوات الخاطئة في إدارة الأزمات إلى أخطاء جسيمة فالبعض لم يستفد من التجارب التاريخية في الماضي، وقد تجسد ذلك مثلاً في قرار (أودوولف هتلر) بضرورة غزو (الاتحاد السوفييتي)، خلافاً لإجماع مستشاريه، وتحذيرهم له، وتمثل شخصية الجنرال (ديغول) مثلاً جيداً، لاستخدام أسلوب المناورة، وتفصيله له عن استخدام القوة في الحرب العالمية الثانية لإنقاذ فرنسا من الهزيمة.

1- لقد بدأ الاهتمام الأكاديمي بدراسة إدارة الأزمات منذ السبعينيات [61] من القرن الماضي، وترافق ذلك مع الأزمات الدولية التي واجهت المجتمع الدولي.

ثم تطور هذا الاهتمام بنقله إلى الإطار السياسي، والدبلوماسي، من خلال مقولة ذاع أمرها حينذاك لوزير الدفاع الأمريكي الأسبق (روبرت مكنمارا) رداً على الرسالة الموجهة من (خروتشوف) إلى (روبرت كينيدي) في الرابع من سبتمبر/أيلول (1962) والتي جاء فيها: إن الاتحاد السوفييتي لن يحاول إثارة أية مصاعب للحكومة الأمريكية بخصوص انتخابات أكتوبر/تشرين الأول (1962)، عندئذ قال (ماكنمارا): لم يعد بعد الآن مجال للحديث عن: الإستراتيجية، وإنما إدارة الأزمات فقط [62].

2- لقد استفاد (هنري كيسينجر) من الدرس الأوروبي في إدارته للأزمات، استخلص من التاريخ الأوروبي درساً استخدمها في صياغة فلسفته السياسية، في إدارة أزمة: الانفراج الدولي détente . وقد آمن بأنه لا سبيل للتعامل مع الخصم إلا بمزيج منك القوة، والدبلوماسية.

ثانياً: المنظور المعرفي

أ- الجوانب المعرفية: رغم أن علم إدارة الأزمات كفرع من علم الإدارة كما ذكرنا سابقاً وهو حديث النشأة حيث بدأ التفكير به عقب الحرب العالمية الثانية، واتسع نطاق البحث فيه في سبعينيات القرن الماضي، وقد اصبح هذا العلم الحديث مندمجاً في تدريس مختلف فروع العلوم الإنسانية (الاجتماعية)، وكما أن إدارة الصراع، وهو موضوع كتابنا الثاني، قد أدمج أيضاً في تدريس فروع العلوم الاجتماعية، وأصبح جزءً من

دراسات علم: إدارة الأعمال، والعلوم السياسية، والدبلوماسية، وعلم النفس السياسي، ودخل في اهتمامات مراكز البحث والبحث والدراسات الاستراتيجية،ومراكز صنع، ودعم القرار وعلم الاقتصاد، وعلم الاجتماع، وعلم النفس الاجتماعي، وعلم النفس الإداري وعلم النفس الصناعي، والإنثربولوجيا (علم دراسة الإنسان في إطاره الحضاري) وأخيراً العلاقات العامة، وعلم التربية والتعليم، والتاريخ، والعلوم العسكرية.

ب- الواقع إن تفريع هذه العلوم، وجعل علم إدارة الأزمات جزءاً منها لا يخلو من التداخل ولاسيما أن جميع العلوم التي ذكرت تتعلق بدراسة: العامل البشري، لأن العلوم الإنسانية موضوعها الإنسان فرداً، ومجتمعاً، وأن الإنسان في النهاية هو صانع الأزمات، وفاعلها، فليس عبثاً أن تسمى هذه العلوم، بالعلوم الإنسانية **Humanities** أو الاجتماعية **Social Sciences**، لأنها ترمي إلى دراسة الظاهرة الإنسانية في تعقيداتها، وتشابكها وأفعالها المعقدة.

سنقتصر في هذه الصفحات على بعض العلوم المذكورة أعلاه، والمتصلة مباشرة بعلم إدارة الأزمات وخاصة في جانبها السياسي [63].

1- العلوم السياسية

إن الدراسات السياسية ليست حديثة النشأة بل تعود في نشأتها إلى عصر ما قبل الفلاسفة اليونانيين، (شريعة حمو رابي في وادي الرافدين) حيث نظمت إدارة شؤون المجتمع ثم بدأت تلمس آثار هذه الدراسة تنظيراً في الأدبيات السياسية التي بدأت تظهر في العصر اليوناني، فكتب (أفلاطون) (427 . 347ق.م) كتابه الجمهورية يتصور فيها الحاكم الحكيم – الفيلسوف – الذي يقوده عقله في شؤون الحكم والحياة داخل الجمهورية، فالجمهورية الفاضلة أو المدينة الفاضلة تخلو من الأزمات، والصراعات.

أعقب فيلسوفنا تلميذه أرسطو (322 . 384ق.م) كتابه (السياسية) فكان أكثر واقعية من أستاذه في النظر إلى الواقع، والوجود، وبعبارة أخرى إن الملك الحاكم عليه تقع مسؤولية إدارة الأزمات في الصراعات مع الأعداء.

وفي العصور العربية الإسلامية كنا قد ذكرنا الآداب السلطانية والأحكام السلطانية وكتابات الفلاسفة المسلمين في السياسة والقيادات السياسية.

وفي بداية عصر النهضة الأوروبية ركز (نيكولوفكيا فيللي) عن توجيه الأمير في سلوكه السياسي إزاء الأمراء الآخرين وكيفية إدارة الأزمات معهم في كتابه (الأمير).

وتتميز الدراسات السياسية المعاصرة في التركيز على دراسة السلوك السياسي Political Behavior أي دراسة سلوك القادة السياسيين، وهم يمارسون العمل السياسي ومعالجتهم للأزمات ويمكن ذكر على سبيل المثال دراسات (هارولدلاسويل) (1920 – 1978) في دراساته للسلوك السياسي، وخاصة علم أمراض السلوك السياسي [64] متأثراً بدراسات (سيجوموند فرويد) (1856 – 1939م) ونظريته في التحليل النفسي، وقد استوحينا من أفكاره حول عرضنا لسلوك إدارة الأزمات في التاريخ السياسي العربي.

لقد ركز (لاسويل) على سبيل مواجهة أزمات العصر الكبرى، وجعل هذا الموضوع في صلب الدراسات السياسية [65].

2– علم إدارة الأعمال:

لقد ولد اصطلاح إدارة الأزمات من رحم إدارة الأعمال Business Management وذلك في معرض دور الدولة في مواجهة الكوارث العامة المفاجئة، وظروف الطوارئ مثل: الزلازل، والفيضانات، والأوبئة والحروب، والصراعات [66] ثم أصبح مصطلحاً يشمل في إطاره البحث ودراسة، وإدارة الأزمات السياسية الصغيرة، والكبيرة التي تزحف وسط المجتمع، وتمس الطبقات السياسية، وكذلك أخذ يشمل في إطار العلاقات، والأزمات الدولية الخارجية الساخنة، والباردة [67]، وأمثلة ذلك البحث في دراسة أزمة الصواريخ الكوبية (1961)، والتي أصبحت نموذجاً للتعامل مع الأزمات الدولية وإدارتها، وكذلك أزمة الطاقة النفطية التي أصبحت بعد حرب رمضان (1973) بين العرب والإسرائيليين [68] ثم انتقل المصطلح المذكور ليصبح فناً يقوم على الإدارة بالأزمات، وسنرى بعد قليل تفصيلات حول هذا الموضوع، أي باختلاق وافتعال الزمات، الخانقة، وسواء داخل الدولة من قبل السلطة السياسية أو بين الدول، وإيصال دولة ما، أخرى باختلاق أزمة تصل بها إلى حافة الهاوية، أي قبيل الوصول إلى المواجهة ثم تريم هذه الأزمة بحلول ومسكنات مؤقتة [69].

3- علم الاقتصاد وإدارة الأزمات:

الاقتصاد، والسياسة صنوان، ورديفان، وأن توازن الأول يؤدي إلى توازن الثاني، ذلك أن أي خلل (أزمة) في بنية الحياة الاقتصادية في الدولة يرمي بظلاله على القيادة السياسية القائمة، وأي خلل في الحياة السياسية يقذف بإسقاطاته على الاقتصاد.

لقد كانت الماركسية في القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين، وكذلك الرأسمالية تضعان العامل الاقتصادي في أولويات ومحركات الحياة العامة في المجتمع، وإن الأزمات الناشئة، وكذلك الصراعات الداخلية داخل المجتمع، وبين الدول لها دوافعها الاقتصادية في الدرجة الأولى، دون إهمال طبعاً الدوافع الأخرى، لذلك اقتضى من القيادات السياسية العليا أن تكون دوماً على وعي لأسباب، ودوافع ونشوء الأزمات الاقتصادية وتأثيراتها الجانبية ومخاطرها، ومضاعفاتها في حياة ومسيرة المجتمع.

فعلم الاقتصاد بغض النظر عن فروعه المختلفة يحتوي على توجهات خاصة بإدارة الأزمات الاقتصادية الداخلية، والخارجية، سواء التوجيهات الأكاديمية العلمية، أو العملية في الحياة اليومية من حيث إنشاء المراكز العلمية للدراسات الاقتصادية المتعلقة بتحليل الأزمات الاقتصادية الطارئة والوقوف على خطوات لحلها، والبحث الدائم حول تجنب وقوعها.

وعندما نقول أزمة اقتصادية، فواضح أن الأزمة يتوجب إدارتها، وتعرف الأزمة الاقتصادية بأنها: حدوث خلل مفاجئ، أو طارئ في مجرى الحياة الاقتصادية يخلق مضاعفات تمس بنية الحياة الاقتصادية من قبيل الخلل بين العرض والطلب مثلاً وبين الإمدادات والخدمات، وبين الجهد المبذول، والمردود، وغير ذلك مما يهدد النشاط الاقتصادي في البلد [70] كل ذلك يجعل من القائمين في مختلف جوانب الحياة الاقتصادية، ورجال المال والأعمال، والتجارة، والصناعة، والزراعة يفكرون في خلق بيئة فنية إدارية متخصصة لإدارة الأزمات التي تخص كل في مجاله.

4- علم النفس وإدارة الأزمات:

إن أفكار علم النفس السلوكي التي طورها (جون واتسون) (1958 – 1870) والذي صنع دراساته في علم النفس لتدور حول السلوك، ومنه اشتهرت مدرسة في علم النفس

دعيت بالسلوكية Behaviorism، وترمي إلى الدراسة العلمية للسلوك الإنساني بناء على الدراسة المخبرية، وملاحظة السلوك Observation الظاهرة، دون الاهتمام أو التركيز على السلوك والمشاعر الباطنة Inside ما في التحليل النفسي لفرويد Freud (1856 – 1939) وأخيراً دراسات إريك أريكسون (1994 – 1902) Erik Erikson وه-.لاسويل (1902 – 1978) الذي ركز في دراساته الأخيرة على تأثير العوامل الشخصية في القيادة السياسية، ومعالجة المشكلات (الأزمات) السياسية من خلال تحليل سلوك القادة.

وقد اعتبر (لاسويل) أن صانع القرار في إدارة الأزمات هو إنسان يحول مشكلاته الشخصية إلى قضايا عامة، بتعبير آخر لقد عمل (لاسويل) على توجيه دراساته نحو تطبيق قواعد العلوم السياسية ودمجها في علم النفس لحل مشكلات النظام الديمقراطي، وذلك لإيجاد قوانين عامة تحكم السلوك السياسي، وكان يهتم أيضاً بسلوك الناخبين، وسلوك الأحزاب السياسية وقادتها، وسلوك الجماعات الضاغطة، وكان يستعمل المنهج الكمي القياسي الإحصائي [(71)] quantative في دراساته للسلوك السياسي.

وما يهمنا من أفكاره هو إظهار الصلة بين العلوم السياسية ودراسة السلوك السياسي وتجليات هذا السلوك في الحياة السياسية، وبعبارة أخرى فهم العقلية السياسية من خلال فهم السلوك، وبالتالي الاستعانة بعلم النفس التحليلي لفهم: دوافع السلوك السياسي وهو يعمل على إدارة الأزمات وبكلمة أخرى عقد الصلة المباشرة بين العلوم السياسية، والسيكولوجيات السياسية، والقول بأن الثانية تساعدنا على فهم وتفسير السلوك السياسي في المواقف الأزموية، وكذلك الصراعية، ولكن ما يأخذ على الاتجاه هو التركيز الشديد على منهجية القياس، والنتائج المخبرية واعتماد الإحصاءات الرقمية – الكمية، والتي تؤدي أحياناً إلى نتائج متناقضة أو على أقل تقدير غير متوازنة، هذا بالإضافة إلى الانتقادات التي وجهت إلى الأساليب الاستطلاعية Surveys، والبيانات الورقية، الاستبيانات والشرائح التي توجه إليها، وتغير أوجه المستطلعين، وعدم جديد آرائهم، وتغير الآراء بتغير الظروف، وكل ذلك يجعل من الصعوبة التوصل على عناصر ثبات، إيجاد القوانين العامة بخصوص السلوك السياسي، وفهم دوافعه.

6- علم الاجتماع وعلم إدارة الأزمات

لا تتعلـق دراسـتنا بـإدارة الأزمـات الفرديـة أو الجماعـات أو الزمـر الصـغيرة ذات المكونات الصغرى كالأسرة، أو القبيلة، بل إنها محاولة إلقاء الضوء على الأزمات في إطارها السوسيولوجي الاجتماعي السياسي،وخاصة السلوك السياسي، وهو يمارس إدارته، أو يعالج الأزمات السياسية، وعندما نذكر: الأزمات السياسية فالأمر يتعلق بالمجتمع بالمعنى الشامل، وأن علم الاجتماع يدرس الأزمة في نطاقها السوسيولوجي، وباعتبارها انعكاساً لأزمة المجتمع، وتدرس في هذه الحالة كظاهرة اجتماعية وسياسية.

ويدرس علم الاجتماع كما نعرف القيادة السياسية، وفعاليتها، ومصدر قوتها، وهي تعالج الأزمة، ومن الملاحظ التداخل بين المنظور الاجتماعي، والمنظور السياسي [72] في طرق معالجة الأزمات وإدارتها، مما دعا البعض إلى إيجاد صيغة مشتركة لهذين المنظورين والقول بعلم الاجتماع السياسي والتاريخي، وهذا العلم الجديد نسبياً يهتم بدراسة علم إدارة الأزمات من المنظور السوسيولوجي، أي كون هذه الأزمة أو تلك كأزمة هذا الحزب وذاك أو أزمة عدم المشاركة المجتمعية في إدارة الأزمات السياسية، فعلماء الاجتماع في هذا المجال يمكن لهم أن يحللوا هذه الظاهرة من زاوية علم الاجتماع، ليساعدوا على توضيح وإلقاء الضوء على بنية الأزمة، وأبعادها، وعناصرها.

ومع اختلاط الأمم والشعوب أصبح علماء الاجتماع يتهمون بالفروق الحضارية أو الثقافية في طريقة معالجات الأزمات، ودراسة السلوك وهو يعالج الأزمة، والنظر إليه من زاوية سوسيولوجية – حضارية، وما زال هؤلاء يحاولون إيجاد ما هو مشترك بين المجتمعات في سلوكها في مواجهة الأزمات، رغم الاختلافات الاجتماعية والحضارية بينها، ورغم اختلاف النظم السياسية، في طريقة النظر والمعالجة والفهم لهذه الأزمة، ويحاولون تجاوز الخصوصيات الحضارية في معالجة الأزمات.

7- المنظور الفلسفي للأزمة

إذا عقدنا مقاربة نظرية بين حقل الدراسات الفلسفية، وأزمات المجتمع المختلفة الداخلية، والخارجية، إذا عقدنا مقاربة أخرى بين مصطلح أزمة ومشكلة، فهنا ينهض الفلاسفة عموماً لتوجيه أنظارنا نحو جل اهتمامهم والقائم على النظر إلى أن الحياة

بطبيعتها مشكلة وهم يضعونها تحت عنوان (مشكلة الحياة) وأن الوجود (مشكلة) وبدونه مشكلة وإضافة لذلك فإن أحد مناهج وبرامج تدريس الفلسفة أكاديمياً قائمة على دراسة الفلسفة حسب منهج: (المشكلات) فالفلسفة ترشدنا إلى دراسة مشكلة الوجود، مشكلة الحياة، مشكلة الإنسان، مشكلة العلاقات الإنسانية... وأن هذه المشكلات كتعبير عن أزمات هي أرضية الدراسات الفلسفية، هذا فضلاً عن اهتمام الفلسفة بدراسة الأزمات الأخلاقية.

أما من ناحية المنظور الفلسفي للازمة – المشكلة – فأم العلوم لا تهتم مباشرة بوقائع وجزئيات الأزمة ولا بنوعيتها بقدر اهتمامها بآثار الأزمة على حياة المجتمع والإنسان، ووجوده، وبعبارة ثانية إن الفلسفة لا (تهدف) إلى إدارة الأزمة، حسبما مر معنا حول الإدارة العلمية، والعملية، للأزمة بل أنها تهتم بدراسة >معنى< الأزمة، وآثار ما بعد الأزمة ومضاعفاتها المباشرة وغير المباشرة على الفكر الاجتماعي، والإنساني بشموليته، إنها تتجاوز التفاصيل لتنظر إلى الأزمة نظرة شمولية >ونظرة كلية< ذلك أن الأزمة سواء كانت سياسية، أم اقتصادية، أم اجتماعية، أم ثقافية هو قبل كل شيء أزمة في الفكر، والأمة وفي الضمير، والوعي ذلك أن خلف الأزمة هناك الفكر والوعي والضمير، فالواقع بالنسبة إليهم ليس في الزمة الاقتصادية ولا في السياسية، ولا في المواصلات ولا في رغيف الخبز، بل في الإنسان نفسه، الذي يسير بحياته نحو الخطأ، والفساد، ويرى الأمور بعيون ملؤها الغبش... وهي مصابة بالرمد، فالفلسفة بكلمة أخيرة ترى أن الإنسان صانع الأزمات، وهو الجدير بالدراسة والإدارة.

يؤخذ على المنظور الفلسفي لإدارة الأزمات الاستغراق في الجانب التأملي النظري، والخيالي ورغم صحة ما تراه من أن الإنسان صانع الأزمات، ولكن من الصعب فهم الإنسان المجرد وباستقلال عن واقع، ومجتمع وظروف وسياق حضاري، وخصوصية كل مجتمع، فلابد من دراسة الجزئيات واستيعابها لفهم الكليات.

8- علاقة القرار في إدارة الأزمة، ونظرية الاتصال

تنطلق نظرية القرار من أن القائد أو الزعيم، أو الحاكم، أو الرئيس، أو المدير، هؤلاء جميعاً بحسب صلاحياتهم، متخذو القرار في إدارة الأزمات، وطبعاً بعد أن تجتمع لديهم

كافة العناصر العلمية من بيانات، ودراسات، وتقارير، ترفع إليهم بمجملها كي يأخذ أحدهم القرار ولكن متخذ القرار غالباً ما يعيش في ظروف مجتمعية معينة يشاركه في الإدارة أفراد آخرون، فنظرية الاتصال في هذا النطاق تقوم على إيجاد الظروف الملائمة لاتخاذ القرار وترى أن متخذ القرار الناجح هو الذي يتخذه بالشكل والمضمون السليمين، وذلك المدير الذي تتوفر في سلوكه عناصر سلوك عقلاني رشيد ويمتلك المهارات المتعلقة باتخاذ القرار ضمن البيئة التنظيمية المعقدة التي يتواجد فيها.

ثم إن نظرية الاتصال أو الاتصال التفاعلي **Interaction Communication**، هي عبارة عن شبكات التفاعل والاتصال، والاتصال، وعلاقتها بمدراء إدارات الأزمة، ولجانها، والتي يجب أن يتوفر فيها الاتصال بمدير وإدارة الأزمة، وإيجاد التنسيق الكامل بين قنوات الاتصال هذه ومدير ولجان إدارات الأزمات، وتجنب التضارب، والتعارض والاشتباه في الشبكة (73) وقد أظهرت الدراسات المخبرية أن أنماط شبكة الاتصال تؤثر في نوع القيادة والسلطة الممنوحة لها والقدرة التي يتمتع بها القائد.

أما نظرية النظم **Systems** والتي استعيرت أصلاً من علم الاتصالات، وعلم البيولوجيا والتي أثير موضوعها في مختلف العلوم الاجتماعية كافة، فتعتبر المنظمة نظاماً مفتوحاً يتكون من نظم فرعية تأخذ الطاقة، والمدخلات من البيئة تنتج عنها مخرجات ونواتج أخرى ضمن عمليات تحويلية خاصة بها، والقائد الناجح في المنظومة هو الذي يستطيع التعامل الداخلي مع هذا النظام، والتفاعل مع البيئة، وينسق العلاقات الأساسية، والتكميلية في المنظومة (74).

9- علم إدارة الأزمات في العلاقات الدولية

مقدمة: نشأة الدول في العصور الحديثة:

كثيراً ما يميز الباحثون في تاريخ نشوءالدول بين: السلطة **Authority** وقد أشرنا إلى مفهومها سابقاً، وبين الدولة **State** حيث يلجأ البعض في البحث عن: نشوء الدولة تاريخيا، والأسس التي قامت عليها ويفرق هؤلاء بين: الإمبراطوريات القديمة التي أفل نجمها منذ بداية القرن التاسع عشر، ونشوء الدول والكيانات الدولية المستقلة.

فالدولة كيان يقول على: الأرض، والشعب، والاستقلال القانوني، ولها مؤسساتها الراسخة والتي تأخذ مسمى حديثاً بمؤسسات المجتمع المدني، لها سلطتها، وقوانينها، وقواعدها، ودستورها وهنا يعمد الباحثون إلى بسط نظريات متعددة في تركيب السلطة، بنيتها، وهيئتها، شكلها، وطبيعة نظامها وأهم هذه النظريات:

أولا: النظريات الدينية التي ترى أن الله الخالق مصدر السلطة، ويربط هؤلاء بين سلطة الدولة، والإرادة الإلهية، ومن هنا صدرت نظريات الحق الإلهي والتفويض الإلهي للملوك والحاكم في السلطة.

ثانيا: النظريات غير التعاقدية، وتتمثل في:

النظريات التعاقدية، وتختلف عن السابقة الدينية، وحيث كونها ترع تكوين الدولة إلى رغبة تعاقدية يمليه الأفراد طواعية عن أنفسهم من أهم الفلاسفة الذين قالوا بهذه النظرية (توماس هويز 1588 –1679) و(جون لوك 1630 – 1704م) وجان جاك (روسو 1712 – 1778) في كتابه الشهير العقد الاجتماعي Le Contrat Sociol:

أ– نظرية القوة، والقائلة بأن القهر والقوة هما أساس نشأة الدولة، وهما أساس النظام السياسي فيها.

ب– نظرية التطور العائلي، وتقول بأن أصل الدولة يعود إلى الأسرة، وهذه هي صورة مصغرة عن الدولة، فرب الأسرة هو راعي الأسرة، والحاكم هو راعي الرعية.

جـ– نظرية التطور التاريخي، أو الطبيعي وهو ما يؤكده علماء الاجتماع في العصور الحديثة والتي ترى بأن هنالك عدة عوامل تعمل على نشوء الدولة، وتلقي هذه النظرية قبولاً أكثر من التي سبقتها (75).

مفهوم الدولة:

يعتبر مفهوم الدولة من المفاهيم الأساسية التي ترتكز عليها العلوم السياسية في الدراسات الأكاديمية وترى بعض الاتجاهات الحديثة في الدولة، وطبيعة وجودها، وتكوينها وسلطتها، مجالاً لتصالح أفراد المجتمع، وتفاعلهم أيضاً بينما يرى آخرون أن الدولة تحمي المجتمع من الفوضى، واصطراع الناس، وسيطرة قوانين الغابة، ويرى فريق

ثالث، أن في الدولة تتداخل القوى المختلفة القوى وتتنافس من أجل السلطة، وأنه بمجرد تكوين الدولة تتكون معها السلطة وهذه تعني وجود معارضة، وبين الطرفين صراع أبدي.

إن العلاقة بين الحاكم، والمحكومين تتحدد داخل إطار الممارسة الفعلية والسير في ظل مؤسسات الدولة القانونية الرسمية.

يقول (موريس دوفرجي) Maurice Duverger بأن للدولة خاصيتان أساسيتان:

الأولى: رابطة قوية للتضامن.

الثانية: تنظيم سياسي وقانوني متكامل [76].

مهما يكن من أمر، فإن وجود الدولة يقتضي أولاً تجاورها الطبوغرافي (المكاني) إلى جانب دول أخرى، وبالتالي يقتضي منها بحكم الجوار إقامة العلاقات الجوارية، وتناغم المصالح المشتركة فيها بينها، وأحياناً تتقاطع هذه المصالح، وتتضارب، وتناقض نتيجة وجود مستويات معيشية مختلفة وأنماط تفكير مختلفة، وأنظمة سياسية مختلفة، وأسلوب عيش مختلف، وثقافة مختلفة مما يؤدي كل ذلك أو بعضه إلى تنافر الأضداد المتجاورة، وتعارض المصالح وسعي كل طرف في تحصيل أكبر قدر من الموارد، فإذا كان فقير الموارد يسعى لتحصيلها من دول الجوار، وإذا كان غني الموارد يسعى لزيادتها أو بحاجة إلى التوسع الحيوي الجغرافي، أو التصدير الإيديولوجي، فكل هذه السياقات تفسح المجال لوجود شبكة من العلاقات الدولية المعقدة المتشابكة، وتتجسد أحياناً في الأزمات بين الدول، والصراعات بين الأمم، وهذا ما استدعى وجود داخل هياكل كل دولة من يعمل على معالجة الأزمات الحاصلة.

كذلك فإن العلاقات الدولية تتراوح بين عدة أنماط النمط الفوضوي، ونمط النظام:

أ- ففي حالة العلاقات الفطرية الأولى، وهي حال الفوضى، ما قبل وجود الدولة والتي عبر عنها (توماس هوبز) في كتابه (ليوياثان)، وبصورة أوضح (جان مع روسو) التي دعاها (بحالة حرب) [77] ولا صراع بين الدول، وأطلق عليها اسم: التكوينات الجماعية الولية.

ب- نظرية النظام، فقد حاول بعض علماء السياسة والاجتماع الحديثين طرح العلاقات الدولة من زاوية جديدة أي، النظم، ويتطلب مفهوم النظام وجود علاقات بين

العناصر التي تشكل نظاماً شاملاً للتفاعلات التي تكون الدولة عناصرها الأساسية [78] ويذكر التاريخ السياسي وجود عدة مدارس في بناء العلاقات الدولية، ومن أهمها:

1– المدرسة الأمريكية: (الواقعية):

تقول بضرورة توفر التوازن والاعتدال والواقعية، وقد عبر عن هذه المدرسة الوزير الأسبق، (هنري كيسينجر) حيث تركز هذه النظرية على قيام توازن تدريجي مؤلف من الدول الخمس الكبار (الولايات المتحدة وروسيا، الصين، اليابان، أوروبا الغربية) وهو يؤمن بالواقعية السياسية في تنظيم العلاقات الدولية وإدارتها، ويخضع أمور كافة العلاقات المذكورة للأمر الواقع، دون النظر إلى النوايا المسبقة أو الخلفيات.

2– **المدرسة الفرنسية**، وتتوزع اتجاهاتها عموماً بين مفكرين سياسيين وهم:

أ– رينوفيه وروزيل، يريان أن هدف العلاقات الدولية، وهو اتجاه يتطلب دراسة مستقلة يقوم على استخدام طرق وآليات علم السياسة لمعالجة الأزمات السياسية الدولية.

ريمون أرون، ويقول إن جوهر العلاقات الدولية هو: المنافسة، والتناقض قائم بين الدول، ويمثل المجتمع أو الدولة شخصان: الدبلوماسي والجندي، وتقوم العلاقات الدولية دوماً في ظل الصراع ويتعلق الأمر كله في النهاية بداية للتكتيك الدبلوماسية، والاستراتيجية، أو الدبلوماسية، والمعسكر[79]، هذا التوتر والمنافسة، والصراع بين مستويين من العلاقات واللقاءات والمؤتمرات والاجتماعات، مستعملة كأحد الوسائل والآليات لإيجاد أرضيات مشتركة للتفاهم والتوصل إلى صيغ من التفاهم، والتعايش والسلم بين الكيانات المختلفة، وبين القوة التي يرى أصحابها بأنها الوسيلة لحل الأزمات وهي الآلة الوحيدة التي تحسم الصراع إنها مديرة إدارة الأزمات بامتياز.

ثم أن العلاقات الدولية تتجسد عادة في السلوك السياسي لصانعي القرار، وهو المعبر عن إرادة الدول، وتتمثل العلاقات الدولية في عمليات: تفاعل، وتنافس، وتعاون، وتنافر وبعبارة أخرى إن هذه مفاتيح العلاقات الدولية التي ذكرنا، تدع الباب دوماً مفتوحاً أما نشوء الأزمات بين الدول، وبالتالي الحاجة إلى إدارتها.

إدارة الأزمات الدولية:

مفهوم الأزمة الدولية: عرف التاريخ منذ القديم نشوء أزمات بين المدن (الدول حسب الدلالة القديمة) والتي كانت تعتبر بمعنى ما مركز الحضارات القديمة، وعرف التاريخ كذلك الصراعات القديمة بين الكيانات الإمبراطورية، والتي كانت تؤدي إلى الحروب والغزو وذلك عند استفحال الأزمات بينها.

ومن زاوية أخرى كان افتعال الأزمات (كما سنرى فيما بعد) طريقة معروفة في التاريخ القديم عندما تريد دولة ما أن تغزو دولة أخرى فكانت تختلف أزمة للدخول في المواجهة متخذة ذرائع مختلفة لتبرير غزوها، فالعلاقات بين المدن القديمة أو بين الإمبراطوريات القديمة، والدول التي نشأت عقب سقوط هذه الإمبراطوريات، كانت تتسم بين حين وآخر بالتوتر والتأزم.

يرى أوران Oran Young أن الأزمة الدولية هي مجموعة أحداث تكشف عن نفسها بسرعة محدثة بذلك إخلالاً في توازن القوى القائم في ظل النظام الدولي السائد[80] ويرى شارس ماكيلاند Charles Makeland أنه ليس من الضروري أن تؤدي الأزمة إلى الحرب[81] لأن الأزمة هي مرحلة من مراحل المواجهة، والصراع، وقد تؤدي إلى الصراع وقد يتم العمل على احتوائها وحسم أمرها.

ويذكر شارلس هرمان Charles Herman إن الأزمة الدولية لها خصائصها وتظهر في:

1- أعمال متوقعة من قبل الخصم.
2- إدراك أو تصور وجود تهديد.
3- إدراك الوقت المحدد لصنع القرار والرد عليه.
4- إدراك العواقب المهلكة بعدم الرد[82].

غالباً إن الأزمات الدولية تمس الأمن الوطني، والقومي، ولذلك فهي من أخطر مراحل العلاقات الدولية، ويقتضي من أطرافها، والقيادة السياسية، وأصحاب القرارات السياسية إدراك أبعاد هذه الأزمة وتلك سواء كانت أزمة طارئة، أو متوقعة، أو زاحفة، أو مفتعلة، وأن تكون القيادات السياسية دوماً في حالة استعداد دائم (ومستنفر) لمواجهتها أو بعبارة أخرى لإدارتها.

ولـم تعـد إدارة الأزمـات الدوليـة فـي عصـرنا الـراهن تقـوم علـى: العشـوائية، والعفويـة، والارتجال أو بناء على عفو الخاطر والبديهة، إنها إدارة تتطلب امتلاك آليات ومهارات من طبيعة علمية، أي فيما يتعلق بالخطوات العلمية للإدارة العلمية للأزمات والوقوف على آليات صناعة القرار وتطور هذه الآليات من لجوء إلى التقنيات المعاصرة ومراكز الدراسات والبحوث وهذا بالإضافة إلى الخبرات السابقة، والتحلي بالحكمة والعقلانية واتخاذ القرارات في الوقت المناسب، وفي الزمن المناسب، لأن الأمر يتعلق في النهاية بثوابت الأمن الوطني، للبلد، فالقيادة السياسية والشعب لكلٍ مسؤوليته في وعي الأزمة، أو الصراع المحتمل.

3- التخطيط العلمي لإدارة الأزمة:

يقوم التخطيط العلمي على وضع الخطة لمواجهة الأزمة، وهي العملية التي تهدف إلى تحقيق أقصى كفاءة ممكنة في توجيه الإمكانات والموارد المتاحة للتعامل مع الأزمات المحتملة ومواجهتها في جميع مراحله، مع الاستعداد لمواجهة المواقف الطارئة غير المخططة التي قد تصاحب الأزمة، والتخفيف من آثارها ثم توجيهها لتحقيق المصالح الوطنية والقومية[83].

ويساهم التخطيط الجيد في منع حدوث الأزمة، وتلافي عنصر المفاجأة المصاحب لها، كذلك يفيدنا التخطيط في تجنب الفشل في المواجهة وعدم التورط في مواجهات عشوائية، فوضوية، ويتيح لنا التخطيط تنظيم ردود أفعالنا، والإدارة الفعالة بكفاءة عالية.

وتفيدنا مهارات التفكير العلمي في حل المشكلات **Problem Solving** في وضع الخطط ومواجهة الأزمات.

ولابد أن نذكر أن التخطيط العلمي يعتمد على:

* خلفية تاريخية عن الأزمة، وبيانات تاريخية عن أزمات مماثلة.

* وجود أهداف ومصالح مشتركة عند مواجهة الأزمة، وكذلك إدراك مدى شرعيتها، وتأثيرها على المصلحة العامة.

* إمكانية، وقدرات الأطراف، ومدى فاعليتها لتحقيق الهدف.

* السمات الشخصية، والاتجاهات لقادة، وقيادات الأطراف[84].

تمر إدارة الأزمات بمراحل يشير إليها الباحثون عادة في إطار الإدارة العلمية، للأزمات نذكر هنا هذه المراحل في النقاط التالية:

أ- جمع المعلومات بإنشاء مركز تلقي إشارات الإنذار المبكر، ومتابعتها.

ب- تشكيل فريق إدارة الأزمة.

ويمكن أن تنقسم مرحلة ما قبل الأزمة مباشرة إلى:

* الإنذار المبكر، ومظاهر احتمال الأزمة.

* الاستعداد للتعامل مع الأزمة حال حدوثها وتوزيع الأدوار على الفريق[85].

*** مرحلة التعامل والاستعداد والوقاية:**

- يبدأ فيها فريق إدارة الأزمة تطبيق الخطط المعدة مسبقاً لمواجهة الأزمة.

- وضع إرشادات فنية رسمية إجراءات استخدام أدوات إدارة الأزمات من حيث تحليل المخاطر وتحديد درجات شدتها.

*** مرحلة ما بعد الأزمة مباشرة:**

- احتواء وعلاج الآثار الناجمة عن وقوع الأزمة واستخلاص الدروس المستفادة، ويمكن أن تشتمل على الحصول على المعلومات اللازمة، وتحديث القدرات البشرية على احتواء الأزمة واختبار الإجراءات المتبعة من خلال التنفيذ والتدقيق لها وتقييم وتقدير القائمين على احتواء الأزمة وتقديرهم[86].

*** مرحلة استعادة النشاط:**

- تحديد المستوى الأدنى من المهام والخدمات، والمنتجات المطلوبة لمزاولتها لأعمال حتى تعود الحالة إلى ما كانت عليه قبل وقوع الأزمة.

- تحديد الأطراف المعنية بمرحلة استعادة نشاط المنظمات أو المؤسسة.

- تحديد وسائل استعادة الثقة بالنفس.

– تحديد أهم الأعمال المطلوبة لاستعادة النشاط.

*** مرحلة الاستفادة من دروس الأزمة:**

– مراجعة الأزمات السابقة، ومقارنتها بالأزمة الأخيرة.

– نضيف للإجراءات والأعمال التي تم تنفيذها طبقاً لجودتها.

– مراجعة أسلوب إدارة الأزمات من واقع الأزمة الأخيرة وتحديثه.

– إتباع أسلوب الوصف الذهني **Brainstorming** مع فريق العمل لتقييم الأزمات بفض تحديد الدروس المستفادة[87].

وتلخيصاً لكل ما ورد في مراحل إدارة الأزمات يمكن ذكر النقاط الملخصة الآتية:

* مرحلة تقدير الموقف – تحديد الأزمة، نوعها، مجالها.

* مرحلة وضع الخطط، والاستراتيجيات.

* مرحلة الإنذار.

* مرحلة تنفيذ الخطط.

* مرحلة التحليل، والتقييم.

وهذه هي الخطوات لحل المشكلات التي يدرسها الطلبة في إطار تعلم مهارات التفكير.

– يذكر الباحثون أن لإدارة الأزمات علمياً لابد من التركيز على المقومات السياسية لإدارة الأزمات وهي: نظم دعم القرار **DSS** وهي نظم المعلومات التي تعتمد على الحساب الآلي بهدف المساعدة على اتخاذ القرار:

*** اعتماد نظم المعلومات IS.**

*** التركيز على أهمية المعلومات وهي:**

– البيانات.

– قاعدة البيانات.

– المعلومات.

– النظام.

– قنوات الاتصال.

* **اعتماد مراحل دعم اتخاذ القرار:**

– مرحلة الاستكشاف.

* اكتشاف المشكلة.

* السعي إلى الفرص المتاحة.

* استخراج البدائل.

* الاختيار بين البدائل.

التنبؤ ـ المحاكاة ونظم دعم القرار:

إن جوهر نظم دعم اتخاذ القرار والإنذار المبكر، وصياغة السيناريوهات المبنية على نماذج المحاكاة، حيث تقوم نظم دعم القرار بعمل المزج بين البيانات المتاحة مع الرؤى الشخصية لمتخذ القرار، ويتم هذا كله داخل بوتقة من النماذج الرياضية للتنبؤ والمحاكاة.

ويلعب التنبؤ دوراً مهماً في إمداد متخذي القرار بالتنبؤات والمعلومات المهمة بوقت كاف قبل وقوع الأزمات الناتجة عن المخاطر، سواء كانت مخاطر ناتجة عن ظواهر طبيعية أو بفعل الإنسان[88].

ومن ناحية ثانية توجد استخدامات أخرى للنماذج الرياضية من خلال صياغة السيناريوهات اللازمة لعمل مجموعة من البدائل التي يمكن لمتخذ القرار اختيار بديل عنها وتقوم مثل هذه النماذج على منهجية الحل المرضي، بمعنى أنها لا تسعى إلى إيجاد الحل الأفضل.

وبالنسبة لنظم دعم القرار الجماعي فتقوم على وجود نظام تفاعلي مبني على الحاسب الآلي يقوم بتسهيل إيجاد الحلول للمشكلات المتشابكة، وتتميز عملية اتخاذ

القرار في هذه الحالة بأن متخذي القرار يعملون كفريق متكامل يجمعهم اجتماع أو مؤتمر ما، أو مشكلة بعينها بغية الوصول إلى قرار موحد يجمع بين الخبرات المختلفة.

ويتألف نظام دعم القرار الجماعي من مجموعة من المكونات المادية المختلفة التي من:

*** غرض اتخاذ القرار.**

*** شبكة اتصال الاتخاذ القرار.**

*** تكنولوجيا عقد المؤتمر عن بعد.**

*** اتخاذ القرار عن بعد[89].**

يعد نظام دعم القرار الجماعي امتداد لنظام دعم اتخاذ القرار التقليدي في اتجاه دعم أكثر فاعلية، فالنظام الجماعي هو نظام دعم اتخاذ القرار، وتعتمد على شبكة مكثفة للاتصالات، والمشاركة الفكرية من نماذج للاقتراع، والترتيب، والدرجات، وتهدف جميعها إلى رأي موحد.

ومن ميزاته أنه يتمتع بمصداقية واعتمادية أكثر من التي يوفرها نظام دعم القرار الفردي في إدارة الأزمات[90].

لقد أصبح علم إدارة الأزمات واسع النطاق، متشعب الفروع، والتخصصات، يعتمد اعتماداً شبه كامل على التكنولوجيا المعاصرة، وباعتبار أننا نتحدث في هذه الصفحات عن هذا العلم، وباختصار لأن توجهنا في الوصول إلى معالجة إدارة الأزمة على صعيد القيادة، وفي الاتجاه السياسي، وعبر تاريخنا السياسي العربي الإسلامي ولكن رأينا أن في هذا المجال العلمي المتطور لابد من إعطاء فكرة، نأمل أن تكون واضحة المكونات الرئيسية لهذا العلم[91] بعد ان ألمحنا إلى الدلالة، والمصطلح، والمفهوم، فنتناول في هذه الصفحة وبشكل مكثف.

أساسيات نظم إدارة الأزمات معتمدين على المصادر المتخصصة:

أ- تنطلق أساسيات نظم إدارة الأزمات من تحديد ما يلي:

1- الهيكل التنظيمي لإدارة الأزمات.

إن نظم مواجهة الأزمات وإدارتها هي نظم إدارية حديثة لها هيكلها ولها العديد من المواصفات التي تمنحها المرونة الكافية.

2- المكونات الأساسية في نظام إدارة الأزمات.

* القيادة.

* قطاع العمليات.

* قطاع الإمداد والتموين.

* قطاع التخطيط.

* قطاع الإدارة والمحاسبة[92].

3- نظام إدارة الأزمات حسب الأهداف، وتقوم على:

* تفهم كامل لسياسة الجهات التابع لها الفريق وتوجهاته.

* تحديد اهداف إدارة الأزمة تبعاً لظروفها ومعطياتها.

* اختيار أنسب الاستراتيجيات لمواجهة الأزمة.

* إجراء وتنفيذ الأعمال التكتيكية التي تحقق الأهداف الإستراتيجية الخاصة بإدارة الأزمة مع اختيار أنسب الموارد، ورصد الأداء، ومراقبته.

4- توحيد عملية القيادة، وتسلسل الأوامر.

5- قيادة إدارة الأزمة وانتقالها.

عادة تقع مسؤولية قيادة الإدارة أثناء مواجهة الأزمات على الجهة التي تقع الأزمة في نطاقها الجغرافي، ويمكن أن تنتقل القيادة وتغير موقفها.

6- مرونة الهيكل التنظيمي لإدارة الأزمة.

يجب أن يكون الهيكل التنظيمي لمواجهة الأزمة متطابقاً تماماً مع الأهداف المخططة، والتكتيكية لإدارة الأزمة.

7ـ توحيد القيادة في نظم إدارة الأزمات.

الهدف من توحيد القيادة هو تمكين جميع الجهات المشاركة، ومساعدتها في مواجهة الأزمة لتحديد أهداف وإستراتيجية عمل موحدة حتى تتمكن من السيطرة على الآثار السلبية للأزمة بطريقة منظمة.

8- نطاق الإشراف.

يعني عدد الأفراد الذين يعملون في مكافحة الأزمة، ويتبعون شخصاً واحداً فقط، وهذا العدد غالباً ما يكون من ثلاثة إلى سبعة لكل مشرف.

9- المصطلحات المتفق عليها في نظم إدارة الأزمات، والمسميات الوظيفية، والموارد، والتسهيلات للمعدات.

10- تقرير مدى التزام الأفراد بمسؤولياتهم.

11- توحيد الاتصالات وتكاملها.

12- تنظيم الموارد وإدارتها: مورد منفرد، أو جماعة، قوة أداء المهمة، فرق أداء المهام.

13- الخطة التنفيذية لمواجهة الأزمة، لابد من عمل خطة تنفيذية موحدة لإدارة ومواجهة كل أزمة على حدة، ولكل خطة يجب أن يكون لها أهدافها: كتوزيع المهام، أو إعداد الخطة المكتوبة، أو الشفوية، تتبع جهات معينة حسب المواقع الجغرافية إذا تطلب موقع حدوث الأزمة، اعتماد الخطة على عدد كبير من الأفراد[93].

ب- إدارة الأزمة والقرار:

إن معالجة الأزمات نمط علمي حديث من أنماط علم الإدارة، أو جبته ظروف العصر الحديث نظراً لتعقيداته، ونظراً لتعقيدات الأزمات التي تنشأ في المجتمعات المعاصرة.

وقد أصبح اتخاذ قرار إدارة الأزمة أيضاً بدوره معقداً، وتختلف كل دولة عن الأخرى في الإستراتيجية، كما ألمحنا سابقاً، التي تحاول تحقيق أهدافها، وحماية تصالحها، وفي إطار ما يتوفر لديها من موارد، وقوة وإمكانات بشرية، ومادية.

وكمقدمة للحديث عن اتخاذ القرارات الصائبة في إدارة الأزمات لابد من تحقيق بعض المتطلبات لإداري الأزمة أولاً وهي:

* وجود نظام متكامل من البيانات والمعلومات.

* الاعتماد على إستراتيجية التغيير المخطط.

* تشجيع روح المبادرة والإبداع.

* تفعيل المشاركة في اتخاذ القرار.

* مرونة الهياكل وأساليب العمل[94].

* تعزيز الخبرات الفردية في المجال الإداري.

* إيجاد نظم حديثة، وفعالة للمراقبة والمتابعة.

* أما خطوات الأسلوب العلمي في اتخاذ القرار فهي:

- تحديد المشكلة، صياغتها بلغة سليمة واضحة.

- تشخيص الأزمة، وهي الخطوة المتقدمة لجودة إدارتها والوصول إلى حلها.

- جميع المعلومات، والبيات المتعلقة.

- وضع بدائل (تصورات حلول) وتحليلها.

- اختبار أفضل البدائل الموضوع لحل الأزمة.

- التنفيذ.

- تقييم النتائج والمتابعة، والمراقبة[95].

جـ العوامل المؤثرة في صانع القرار:

إن صانع القرار سواء على مستوى إدارة الأزمة والصراع، أو على المستوى السياسي العام، غالباً ما تتصوره مجرداً من العوالم الموضوعية، والذاتية عند اتخاذه القرار والواقع أن الدراسات العلمية الحديثة ترمي إلى تحليل البنية العامة لصانع القرار.

وتعدد العوامل التي تؤثر بل وتقود صاحب القرار، وهو تحت ما يشبه التنويم المغناطسي، لاتخاذ وتوقيع هذا القرار أو ذاك وغالباً ما يرمي الناس بالمسؤولية الكاملة على صانع القرار كشخص، وفرد ويهملون العوامل التي أدت إلى صناعة القرار، هذه النصائح هي: المتخذ الذي اتخذ قرار بتأثير العوامل المؤثرة أو الفاعلة أو القائدة لهذا القائد، أو ذلك وتتفق في هذه الرؤية النظم الديمقراطية والدكتاتورية على حد سواء بمعنى أن النظم الديمقراطية، لا تسمح للقائد أو الرئيس إلا في حدود الصلاحيات المنصوص عليها في الدستور كي يأخذ هذا القرار أو ذاك، وله >هامش< شخصي في اتخاذه، وفي النظم الاستبدادية الفردية، إن الحاكم بأمره صحيح أنه يتخذ القرارات بمفرده، ولكن هنالك دوافع عامة من حوله . ودوافع خاصة، به يدفع كل ذلك لصناعة هذا القرار أو ذلك وحتى في إدارة الأزمة أو الصراع، ولعل ما كان من خصوصية التاريخ السياسي العربي الإسلامي – وخاصة بعد (الفتنة الكبرى) أن أصبح الخليفة صاحب القرار وتوارت المرجعية الدينية التي تدفع به إلى اتخاذ القرار وظهرت مرجعيات أخرى – سنفصلها فيما بعد في (الفصل الرابع) من هذا العمل وكون هذه (العوامل الخاصة) هي المؤثرة في صناعة الحكم، والقرار، مع الأزمات والصراعات.

ولا بأس أن نذكر هنا، للاستئناس ببعض العوامل المؤثرة في صانع القرار والتي تذكرها الكتب المتخصصة في مجال بل إدارته الأزمات وصناعة القرارات المتعلقة بها.

بصفة عامة هناك كما يذكر صاحب كتاب نظم إدارة الأزمات بعض العوامل التي تؤثر في صانع القرار عند اتخاذه وهي[96].

(انظر الشكل 1).

أ– شخصية متخذ القرار واتجاهاته وميوله، وذكائه، إضافة إلى مركزه الاجتماعي وسماته الشخصية (عاطفي – مندفع – عصبي، هادئ – مبتكر وهذه كلها صفات تؤثر في عملية اتخاذ القرار، ودرجة عقلانيته، ومدى صوابه وخطأه).

ب– عنصر الوقت: خاصة عندما يواجه صانع القرار حالة معينة تتوجب اتخاذ قرار فوري دون إمكانية الانتظار للحصول على أكثر قدر من المعلومات.

ج-- الضغوط الداخلية، والخارجية التي يتعرض لها صانع القرار، كضغوط الرؤساء، الأعلى والرأي العام، والعادات السائدة، والمنظمات غير الرسمية جميع هذه العوامل تؤثر في رشد القرار.

د- خبرة صانع القرار، ومدى إلمامه بواجبات عمله، وإيمانه بها يساعده على اتخاذ القرار المناسب.

هـ-- تأثير القرار على رشد قرارات صانع القرار مثل صعوبة التنبؤ - وصعوبة التحكم في عوامل التغير وسرعة التغيير في البيئة والمجتمع.

ن- يؤثر معاونو صانع القرار بميولهم، وثقافتهم، واتجاهاتهم على متخذ القرار.

الشكل(1)

العوامل التي تؤثر على صانع القرار

(1) المصدر الدكتور إسماعيل عبد الرحيم الحوسني

نظم إدارة الأزمات ص43 ط1 براعة للنشر والتوزيع 2008

(يظهر الشكل العوامل التي تؤثر في صانع القرار: مدير، أو مدراء، أو أعضاء إدارة الأزمات والصراعات، وهي في أغلبها تدخل في إطار العوامل الموضوعية)

ز- أثر الأشخاص الذين يمسهم القرار ورغباتهم وردود أفعالهم كلها عوالم مؤثرة على درجة الرشد في القرار.

ج- درج بعض القادة على إنتاج أساليب تقليدية لاتخاذ قراراتهم مثل: الخبرة والمحاكاة، أسلوب التجربة والخطأ - والاعتماد على البديهة والواقع قد تصيب هذه الأساليب في بعض الأحيان إلا أنها تفتقر إلى العلمية أو الموضوعية السليمة.

ك- لابد من اتباع أساليب عملية أكثر موضوعية، ووضوحاً عند مواجهة مسؤولية هذا القرار.

ولكن الاستغراق الكامل في العملية - والتكنولوجية - في صناعة القرار ينسينا كثيراً من العوامل الأخرى التي تلعب دورها أعني: خصوصية كل مجتمع، وكل دولة وكل أمة في مواجهتها الأزمات، والصراعات، وخبراتها وتجاربها، ومرجعيتها، وكل ما يصدر عن فلسفتها أو رؤيتها للعالم.

الفصل الثاني
القيادة وإدارة الأزمات

مقدمة: القيادة هي القرار

يمكن أن تميز هنا بين: صناعة القرار وبين اتخاذ القرار وصناعة القرار وهي مسألة معقدة، ذلك أن القرار يصنع من قبل من يعنيهم القرار، أي المجتمع، أو الحزب، أو المجموعات الضاغطة، أو البطانة التي تحيط بالقائد، والقائد في هذا المجال هو الذي يتخذ القرار – بعد تلقيه بشكل مباشر أو غير مباشر تأثيرات من حوله، وإذا كان القائد منفرداً، ومتفردا ومستفرداً في صناعة القرار، فهو في هذه الحال يضيف مزاجه الشخصي على ما يصل إليه من تأثيرات جانبية تدفع بمزاجه إلى اتخاذ القرار ذلك في حالة الأنظمة السياسية الفردية الاستبدادية، عندما يكون الحاكم بأمره هو السيد المطاع، أما في الأنظمة الدستورية فإن الدستور هو الذي يحدد صلاحية الرئيس وحدود صناعة اتخاذ القرار، حيث تكون سلطته محددة مع تمتعه بها من يحدده له الدستور.

وفي النظم الإسلامية حيث المرجعية هي: القرآن وسنة النبي (ﷺ) والقائد هو المنفذ للشرع، وليس بصانع أو مخترع القرار، وقد يسمح له بالاجتهاد لمصلحة الأمة فيما لم يأت به النص، ولم يمارسه النبي القائد سابقاً وفي هذه الحال يلجأ القائد إلى الشورى واستشارة فقهاء الشرع، أهل الحل والعقد.

فمتخذ القرار هو الموقع والآمر بتنفيذ القرار.

ونظراً لأهمية القيادة سواء على المستوى السياسي العام، أو مستوى قيادة فرق إدارة الأزمات فلقد وضع المتخصصون في العالم الأنجلو ساكسوني جملة من المواصفات ضمن تعريفهم للقيادة وعملها، المواصفات المغرقة في المثالية.

فالقيادة حسب مواصفات الثقافة الإنجلو ساكسونية تعني: الرؤية والتشجيع والحماس والحب، والثقة، والحيوية، والعاطفة، والاستحواذ، والتناغم، وصنع الأبطال في كل المستويات والتدريب، والتجول بفعالية، والعديد من الأشياء الأخرى.

ويجب أن تتواجد القيادة في كل مجالات العمل في الشركات والمنظمات والهيئات والمصانع والمؤسسات[96].

ويرى آخرون القادة هم من يوضعون في مواقع اتخاذ القرارات، وإصدار الأحكام نيابة عن الآخرين[97].

وفي تعريف ثالث القيادة هي عملية التأثير في أنشطة مجموعة منظمة من الناس وفي جهودها فيما يتعلق بوضع الأهداف، تحقيقها[98].

القائد هو تاجر الأمل كما ذكر الكتاب عن نابليون بونابرت[99].

وأخيراً إن القيادة الفعالة ليست هي إلقاء الخطب أو الفوز بحب وإعجاب الآخرين، إن القيادة هي النتائج وليست السمات[100].

أن التركيز الذي جاء في الفقرة الأولى من هذه السطور حول مواصفات القائد هي قريبة جداً من مواصفات القائد الحاكم – الحكيم الفيلسوف رجل الصفات الحميدة، ولا مالك لكافة الصفات المثلى والتي كان كتاب (الأحكام والآداب السلطانية) يطلبونها من الخليفة أو الأمير أو الملك وكذلك كان مطلب فلاسفة (المدن الفاضلة) وسنرى ذلك مع بعض التفاصيل في الصفحات القادمة.

* أنماط القيادة السياسية وإدارة الأزمات.

* مداخل (نظريات تفسير ظهور القيادة).

عندما قلنا سابقاً أن القيادة تعني القرار، والقرار المقصود هنا، هو القرار السياسي، لأن إدارة الأزمة موضوع هذه الصفحات هي إدارة الأزمات السياسية في القيادة السياسية والقرار هو اختبار لطريق معين يتخذه السلوك للوصول إلى هدف مرغوب به، وهو بهذا المعنى انحياز مقصود إلى نمط سلوكي محدد دون غيره، والأصل في القرار أنه وسيلة إلى تحقيق الأهداف والمنافع، تجنب الأضرار والمشكلات والابتعاد عن الأزمات، أو مواجهتها بوعي وبصيرة.

والواقع أن اتخاذ القرار هو بالدرجة الأولى عملية عقلانية رشيدة تتبلور في عمليات فرعية أربع وهي:

* البحث Search،

* الاختيار.

* تقييم القرار.ونتائجه.

ثم إن عملية اتخاذ القرار عملية مستمرة متدفقة وهي إن لم تكن واضحة، ظاهرة، إلا أنها توجد طالما كان النظام السلوكي في موقف يحتم عليه الاختيار[101].

وتلعب دوافع الإنسان، وحاجاته ورغباته غير المشبعة، دوراً هاماً في تكوين الخلفية التي ينطلق منها أو التي تؤثر في اتخاذ قراراته، وأن تلك القوى تمثل قوى دافعة في توجيه النظام السلوكي إلى اختيار نمط ما من السلوك الذي يعد بإشباع هذه الرغبات.

أما كيفية إدارة الأزمات في أنماط القيادات السياسية فإننا نجملها فيما يلي:

1- القيادة السياسية في النظام الديمقراطي تدار فيها الأزمات بناء على:

* المرجعية الدستورية والقانونية، والمؤسسات.

* المجموعات الضاغطة الاقتصادية، الإيديولوجية.

* المرجعيات العلمية (مراكز الدراسات والبحوث، ومراكز استطلاع الرأي وأجهزة الدولة المساعدة، وتقاريرها).

* تبني الآليات الخاصة، والمهارات العلمية والتكنولوجيا في صناعة واتخاذ القرار.

2- **القيادة السياسية الجماعية**، والتي تختلف عن النظام الديمقراطي، ولا تشبه النظام الفردي أو الكاريزمي، وتتم فيها إدارة الأزمة في إطار المجموعة الحاكمة، صاحبة السلطة والقرار والحسم.

3- **القيادة الدستورية ـ الملكية** – وواضح من العبارة أنها قيادة ملكية – دستورية، والمرجعية في قرار الأزمات هو الدستور ومؤسسات الدولة، ويمكن أن يستشار فيها الملك.

4- القيادة السياسية الفردية المطلقة - الكاريزمية: ويتعلق فيها قرار الأزمة بشخص الحاكم القائد، والقيادة السياسية هنا مرتبطة بالسلطة الفردية، والقيادة الكاريزمية تصنع مؤسساتها وتضع أجندتها اللازمة، ولكنها غير مضطرة إلى الرجوع إليها في إدارة القرارات المهمة أو الكبرى وفي القرارات الصغرى.

فالقائد الأوحد والزعيم المفدى هو صاحب الحكم والحكم، وهو صاحب الشأن في إدارة الأزمات، وعليه صناعة القرار واتخاذه وما على الأتباع إلا المباركة، والإشادة بقراراته الحكيمة، الرشيدة، وقراراته دائماً صائبة، وإن بدت خاطئة بحكم البداهة، فإذا أصاب فهو من طبيعة الأمور وإذا أخطأ، فهو معذور، والخطأ ليس خطأه بل في الحاشية التي تحيط به.

5- القيادة السياسية ذات الحزب الواحد وتتولى قواعد الحزب النظر في الأزمات وتشارك هذه القواعد بعيدة عن فئات الشعب الأخرى، الأزمات والصراعات الداخلية، والخارجية وتنفرد القواعد بالشورة بالمداولة، والمعالجة وترفع تقارير بهذا الشأن إلى القيادة المركزية، وغالباً ما تهيمن على القيادة المركزية شخصية كاريزمية، يخضع لها أفراد الحزب وقواعده، وعليها يقع عاتق إدارة الأزمة، وصناعة القرار بخصوصها.

مداخل (نظريات) في تفسير ظهور القادة:

مقدمة: يشيع في ميدان الدراسة والعلوم الإنسانية استعمال كلمة نظرية حيث تشمل مجموعة أفكار أو أطر عامة للدراسة، والتحليل، وهي في الواقع لا تصل إلى درجة تحقيق معنى النظرية كما في العلوم التطبيقية أو البحتة كالعلوم الرياضية والفيزيائية، والكيميائية لذلك تفضل استعمال اصطلاح: مداخل **Approach** أو وجهات نظر تشبه إلى حد ما هيكل النظرية لتفسير أولاً ظهور القادة، وثانياً تأثير هؤلاء القادة التأثير المباشر، أو غير المباشر، وتأثير قراراتهم في الأزمات والصراعات على المجتمع والدولة، أخيراً التأثير الوظيفي، وحسب المسؤولية التنفيذية التي توكل إلى القائد في النظام الديمقراطي مثلاً أو تأثيره المحدود أو التأثير المباشر كما في الأنظمة الفردية في إدارة الأزمات.

ويمكن تصنيف هذه المداخل التي تفسر ظهور القادة إلى ثلاثة وهي:

1- مدخل السمات Theory Traits[102] ويشمل نظرية الرجل العظيم، ودوره الفردي، والعظيم في إدارة الأزمة.

2- المدخل الموقفي.

3- المدخل التفاعلي.

4- مدخل السمات Charismatic Leadership.

يفسر أصحاب هذه النظرية ظهور شخص قائد، واستمراره في القيادة على أساس توافر مجموعة من الصفات الشخصية، قد لا تتوفر في غيره يجعله يقود الآخرين، وهؤلاء يقبلون أن يقودهم وتعتبر نظرية الرجل العظيم أو صاحب الكاريزما أحد أشكال هذا المدخل[103] ومن الطبيعي أن ترتضى المجموعة، حسب هذه النظرية، والتي يقودها القائد، وترتضيه قائداً، وصاحب السمات والخصال الاستثنائية أن: يدير أزماتها، وتعطيه كامل الصلاحية لإدارة الأزمة وصناعة القرار بخصوصها.

وصاحب هذه النظرية في الثقافة الأوروبية هما: توماس كارليل (1795 – 1881) (Thomas Carlyle) وحديثه عن دور البطل، وعالم الاجتماع الألماني (ماكسي فيبر) (Max Weber)، وقد مر معنا ذكره سابقاً، حيث يركز الثاني خاصة على دور القائد العظيم في القيادة السياسية التقليدية، ويعرفها بكلمة واحدة وهي: النظر إلى القيادة متمثلة في واحد ووحيد Unique الذي يتمتع بخصال فريدة، وترتطه بالمجموعة بعلاقة عاطفية (وجدانية)، وأفعاله وسلوكه السياسي غالباً ما تكون مرجعيتها بعض القوى الغيبية الخارقة، ويعطي أمثلة من هذه القيادات الكاريزمية في التاريخ الأوروبي المعاصر: (أودولف هتلر)، (وشارل ديغول)، (وتيتو)، (وسوكارتو)، (وجمال عبد الناصر) بالنسبة للعالم العربي وغيره كذلك في عالمنا العربي[104] كما هو معروف.

وفي ضوء هذا الاعتبار ينتقد هذا المدخل بكونه يهمل دور الجماعة في ظهور القائد، وتأثيرها في صناعته، وما تفرضه الجماعة من حدود على مفهوم السمات ذاتها، وتمهل كذلك التأثير الحضاري الثقافي[105].

الواقع لا يوجد اتفاق على الصفات، والخصال الاستثنائية التي يتمتع بها هذا القائد أو مدير الأزمات كما أن هذا المدخل يضع افتراضاً جدلياً، وهو أن الشخصية الإنسانية ليس مجرد مجموع أجزائها[106] بينما يمكن أن تكون أكبر وأعقد من ذلك، وقد لا تستطيع عملية تجسيد كامل الصفات التي تتصورها فيها الجماعة المرتبطة به أو تمنعه الظروف الشخصية، أو الاجتماعية، أو النفسية أو الجسدية من أن يكون كامل القدوة والمثل العليا في الممارسة.

وسنرى في بحثنا الحال أن إدارة الأزمات في القيادة السياسية العربية، كيف أن الأدبيات السياسية تسبغ على الحاكم والخليفة، والأمير الذي يجب أن يكون في مركز القيادة، أن يكون حاملاً للصفات الاستثنائية، والواجب توفرها فيه، وبالتالي تضمر هذه الكتابات من حيث لا تدري كون الخليفة، أو القيادة السياسية قيادة فردية، واحدة متمثلة في واحد بيده كافة السلطات، وبالتالي توكل إليه مواجهة، وإدارة الأزمات ويتخذ القرارات بشأنها.

وقد يدعي البعض منا أن توجد في الواقع قيادة فردية محصنة، وأن هذه القيادة التي تظهر بمفردها صانعة القرار، يربض حولها، مساعدون، ومستشارون وبطانة، ومجموعات ضاغطة قادرة على توجيه هذا القائد الكاريزمي مثل هذه المجموعات، ولكنها تشكل ما يسميه التربيون بالنسبة للقائد بالتهيئة الحافزة لصناعة قراره هذا إذا كنا متفائلين بتاثير ما لهذه المجموعات إلا أن الواقع يشير إلى أن القائد الفرد، وحسب مزاجه الشخصي يمكنه في لحظة ما، أن يطيح جانباً بكل هذه المجموعات حوله، وبجرة قلم ولحظة غضب سلطاني وتوتر انفعالي جامح، أن يغير كل هذه الطواقم في لحظة ما وبناء على إرادات الشخصية البحتة، ويمسك بزمام الأمور، ويدير أزمة الإطاحة بمن حوله، بنفسه.

3– المدخل الموقفي Situational Approach

4– يرى أصحاب هذا المدخل الموقفي أن السمات الخاصة بالشخص القائد ليست هي الوحيدة التي تعمل على إظهاره كقائد، بل إن الموقف، أو البيئة (المحيط الوسط Milieu) هي التي تلعب الدور الأهم بصعود القائد، ويلقى المدخل الموقفي هذا، الضوء على اختلاف الظروف، والأحوال الاجتماعية، والتنظيمية لكل مجموعة

بشرية، ويذهب أصحاب هذا الموقف إلى القول إن أي شخص تتوفر لديه ظروف معينة يمكنه أن يصعد إلى منصب الزعامة، وبعبارة أخرى، إن الظروف الاجتماعية، والبيئة تعملان على إظهار هذا القائد أو ذلك، وبغض النظر من خصاله، أو سماته الخاصة.

5- ويعرف الموقف بأنه: منظومة القيم، والاتجاهات التي يتعامل معها الفرد، أو تتعامل معها الجماعة أثناء القيام بعملية القيادة، والتي تتضمن العديد من الأنشطة التي يعود تخطيطها وتنفيذها، وتقيم أنشطتها إلى تلك القيم والاتجاهات(107) وقد عقد أصحاب هذا الموقف علاقة بين تفسيرهم لظهور القائط، والقيم الديمقراطية، حيث توفر الديمقراطية الأجواء بآلتها الإعلامية، وتجييش القاعدة الشعبية، وتهيئة الظروف المناسبة لصناعة القائد، فالقادة في هذا الوضع، يصنعون ولا يولدون قادة(108) ويرى نقاد هذه النظرية أنه من السهل تحويل المدخل الموقفي بشيء من الحذلقة والمهارة المنطقية إلى مدخل السمات والعكس صحيح، الواقع إن المجتمعات الديمقراطية، الرأسمالية وانطلاقاً من الحفاظ على بنية مصالحها الاقتصادية، يمكنها أن ترفع زيداً من الناس وتطيح بعمرو عندما يعمل ضد مصالحها، حتى لو لم تتوفر فيه الخصال الحكيمة التي تؤهله ليكون قائداً، والعكس صحيح(109).

أما من حيث إدارة الأزمات في حال وصول هذا القائد، وسط المواقف والظروف، وحسب النظرية المذكورة، فهي ليست مرتبطة مباشرة بشخص القائد، إن كانت له بعض النظرية المذكورة، فهي ليست مرتبطة مباشرة بشخص القائد، إن كانت له بعض الصلاحيات يمنحها له الدستور للنظر في الأزمات سواء الداخلية أو الخارجية، ولكن هذه الصلاحيات أو هامش القرار كما قلنا سابقاً ليس من صناعته، ولا من بناء أفكاره الخاصة البحتة ولكنه ينطلق مما توفره له القواعد العلمية في المجتمع من: معلومات ودراسات أو بيانات وتقارير، وخيرات واستشارات كل ذلك تجتمع في عقل الرئيس بشكل ما، وعندئذ على ضوء هذه المعلومات يعطي إشارته، والواقع إن إدارة الأزمة هنا، عملية معقدة، وتمر عبر قنوات متعددة قبل ولادة القرار، فولادة القرار بكلمة مختصرة في هذا النظام ومساره أصعب من ولادته في الأنظمة الفردية.

5- النظرية التفاعلية في وجود القائد Interactional Approach

ومن وجهة النظر التفاعلية تعتبر القيادة محصلة لعملية، أو للتفاعل الحركي بين الفرد، مع المنظومة الاجتماعية، فحسب هذه النظرية لا يكفي التركيز على سمات الشخص، ولا على الموقف أو الظروف أنها تفاعل بين الطرفين، حيث أن خصائص الجماعات البشرية، وآلياتها في تحقيق أهدافها، ومن خلال التمييز في أدوار الجماعة، ونظام التفاعل، أو شبكات التفاعل ضمن الجماعة والهيكل الثابت لعلاقات الجماعة، والتوقعات الثابتة نسبياً، والمرتبطة بالأهداف، والهيكلة، وتصبح القيادة واحداً من الأدوار المختلفة التي تفرزها الجماعة مع ما تفرضه من علاقات عاطفية، وإدراكية، وتقييمية[110].

وهنا تدخل الجماعة في لعبة إدارة الأزمات، ذلك أن القائد الفرد ليس له الدور الحاسم في الإدارة، بل تهتم الإدارة هنا بناء على تفاعل، قد يكون غير منظور بين الجماعة، والقائد، وتدخل بعض الجوانب الوجدانية الموجودة بين أفراد الجماعة في الحسبان، والواقع تدخل هذه النظرية في البناء الإداري للأزمات في مجال قطاعات العمل كمنظمات، والشركات، والتي تشكل جماعات محدودة نسبياً حيث يتم التفاعل بين المدراء، والعاملين، وبناء نمط من العلاقة الوجدانية الوردية فيما بينهم حيث يمكنهم أن يعملوا معاً على إدارة الأزمة بالمشاركة، والتعاون، ويعملون بروح الفريق Team Work لإدارة الأزمات التي تفترض المؤسسة أو الشركة، أو المنظمة أو الهيئة.

القيادة الكاريزمية ـ الحركات الكارزيمية، وإدارة كالأزمات:

لقد أشير سابقاً مدخل السمات، ودوره في ظهور النظر في أزماته ومشكلاته، وحبذا لو يشار الآن إلى بعض التفاصيل حول القيادة الكاريزمية، ودور القائد الكاريزمي في التاريخ السياسي العربي – الإسلامي القديم والحديث، واعتماد الجماهير على الإدارة الحكيمة للقائد بعد تقبلهم أصلاً لفكرة: الرجل العظيم، أو استعدادهم لتقبل الرجل القائد الواحد، وحيد دهره وفريد عصره.

من الجدير ذكره أولاً أن كلمة كاريزما Charisma ليست عربية، وتقابله بالعربية كلمة القيادة الملهمة، وعندما نقول إنها ليست عربية فذلك للإشارة إلى أن نظرية القيادة السياسية لها تراثها العالمي وأنها ليست مقتصرة في وجودها في ثقافاتنا السياسية، وإن

تجلت في هذا التاريخ العربي السياسي ببعض الخصوصية، فالكلمة بطبيعتها غامضة، ويعتبر غموضها سر سحرها، وجاذبيتها، وأن استعمالها بشكلها الغامض هذا تجعل من تجول في خاطره يتخيل الكثير حولها، فنحن نتصور أنها تعني: سحر الشخصية، أو الشخصية الملهمة، أو الساحرة، أو الجذابة، أو الأسرة، أو الفاتنة وحتى الخارقة، والمعجزة في فكرها وسلوكها، ويعامل وجودها(111).

وسحرية القائد تدفع الجماهير لتقديسه، والنظر إليه بمهابة، أو المنحة، والأغطية الكونية التي لا تتكرر ولا تستنسخ، وبغض النظر عن دقة هذه الكلمات، ومعانيها من قبل الباحثين فإن المعيار الذي يتبناه الباحث عنا هو: معيار نسبي تبناه قبله الباحثون، أي أن الباحث يرى أن الاتباع هم الذين يسبغون السمات السحرية على قائدهم، وليس بالضرورة أن يرى غيرهم هذه السمات، فهو الساحر، والملهم، والعظيم بالنسبة لاتباعه(112) أو لهذه المجموعة أو تلك، وليس بالضرورة أن يكون كذلك بالنسبة لغير هؤلاء، إذن لا تؤخذ الكلمة بالمعنى المطلق.

لقد أبرز (ماكسي فيبر) الذي ذكرنا سابقاً، خصائص القائد الكاريزمي فيما يلي:

1- إنها خاصية لفرد استثنائي، وغير عادي تجعل الآخرين يقدرونه، ويميزونه من الأفراد العاديين، ويعاملونه كفرد قد وهب قدرة عظيمة، متفردة، وخارقة أو على أقل تقدير فيه صفات استثنائية، حيث تعتبر الصفات أو القوى عند الاتباع غالباً ذات مصدر سماوي، ونموذجاً للسلوك الأمثل(113).

2- إن معيار وجود الشخصية الكاريزمية هو نظرة الاتباع أو المريدين للقائد وشعورهم بأنه يملك الكاريزما، وليس المهم تقييم الكاريزما من وجهات نظر أخلاقية أو جمالية **aesthetics** أو غيرها(114).

3- إن أساس شرعية الشخصية الكاريزمية، شعورهم الأتباع بالواجب، والخضوع الشخصي التام لها والإخلاص التام والتفاني من أجلها، والشعور القوي نحوها، والذي يصدر عادة عن(115): الحماس (الموقف الوجداني)، والأمل، وأحياناً عن اليأس في ظروف معينة أو (وجود أزمات طاحنة، أو صراعات مع أعداء خارجين) أي أن وجودها في لحظة تاريخية معينة، يأتي كمخلص، ومنقذ للمجتمع من كوارث أحدقت، أو كادت تحدق، أو في طريقها.

4– قد تؤدي ظروف معينة إلى اختفاء الكاريميزما، وذلك إذا مرت فترة طويلة من عدم النجاح لدى القائد الكاريزمي في تحقيق الأهداف، أو الفوائد المرجوة، وهو ما يتمثل تمام في معنى هبة Gift of Grace of The God التي ضلت طريقها.

5– إن العلاقة الكاريزمية بين الأتباع، والقائد علاقة عاطفية ترابطية بمشاعر شخصية جداً ولذلك فإن السلطة الكاريزمية لا يمكن إخضاعها لروتين العمل اليومي، ومساواتها بأعمال القادة الآخرين العاديين من وجهة نظر اتباع القيادة الكاريزمية[114].

6– واستكمالاً للخاصية السابقة، ولكي يتم حسم أمر الخلافة، أو من يخلف القائد الكاريزمي لابد للقائد من أن يتغير جذرياً، وتتحول لتناسب القيادة الخلف، وهذا يقتضي الانتقال من جهاز إداري كاريزمي، إلى جهاز إداري يعتمد على القواعد، والإجراءات والروتين، وهو ما يسمى ب–(روتين الكاريزما)، أو نقلها من الفرد إلى المؤسسة.

7– لا تخلو الكاريزما من المنافسة، والصراع، فقد تنافسها شخصية كاريزمية أخرى أو تنافسها القوى المهيمنة على المجتمع، مما يؤدي إلى أن كل طرف يستعمل كل ما لديه من إمكانات، ربما في ذلك اللجوء إلى التراثية والغيبيات أو القوى السحرية، وربما يؤدي ذلك إلى مواجهة فعلية بين القائدين، أو بين اتباعهما وفي النهاية لا يوجد إلا طرف واحد لديه الحق، أما الطرف الآخر فهو المخطئ، والمذنب (حيث توجد حركة إسلامية واحدة ناجية والفرق الأخرى كلها ضالة – والخليفة على رأس الخلافة على حق، والمعارضة على باطل).

8– تأتي الكاريزما أحياناً كقوة تغيير ثورية كبرى تظهر أهميتها في أوقات الجمود والمعاناة والصراع والأزمات، والشعور بالألم بجميع أشكاله، فتؤدي إلى تحويل جذري مركزي لنظام الاتجاهات، وتوجهات العمل، إزاء المشكلات المختلفة[117].

الشخصية، أو القيادة الكاريزمية في نظر الأتباع هي الإدارة، والمدير الأمثل لمعالجة الأزمات الناشئة والصراعات التي يمكن أن تحتدم مع الداخل أو مع الخارج، فالقائد الكاريزمي هو: (حلال) المشاكل بقدراته الذهنية، والفكرية، والسلوكية، الواقع لقد كان لظهور القيادات الكاريزمية في بعض مراحل التاريخ مبرراتها، فأحياناً تصعد هذه الشخصية وتتولى القيادة، وهي مؤهلة من حيث اجتهاداتها الشخصية – الفردية –

الشخصية وتتولى القيادة، وهي مؤهلة من حيث اجتهاداتها الشخصية – الفردية – المحضة مهاراتها الذهنية والسلوكية قادرة حين وصولها على تولي دفة الأمور، وإدارة شؤون المجتمع، وتمتلك من الثقة بالذات، وما لديها من المقومات ما يجعلها تتجاوز قدرات الناس العاديين، (سنرى فيما بعد في الفصول التالية أن شخصية الرئيس الراحل عبد الناصر استطاع في مرحلة تاريخية من تاريخ العرب الحديث الصعود إلى القمة، وإدارة دفة الأمور بعد ثورة (1952) في مصر وإدارته أزمة السويس (1956)، وقرار تأميم القناة وأخيراً العلاقة الوجدانية الحماسية التي نشأت بينه وبين الغالبية المطلبة من الجماهير العربية طوال فترة الستينيات من القرن الماضي)، ولكن ليست هذه قاعدة في الشؤون السياسية، فالحياة السياسية، وكذلك التاريخ السياسي سواء العالمي أو العربي – الإسلامي توفرت فيه كثرة من القادة الكريزميين التي قادت شعوب ومراحل معينة من التاريخ نحو إدارة أزماتها وقيادة صراعات على الوجه الأكمل والناجح وبقواها الذاتية، ولكنها تظل حالات استثنائية لا تستوجب أن تؤسس عليها نظرية في القيادة، والإدارة الأزموية أو الصراعية.

ثم إن المنشأ الاجتماعي للكاريزما، قد تحدث عند كل من روبرت بارك Robert Park وجورج زيميل George Simmel وعن البطل ذي الثقافتين The Marginal Man أو (الهامشي) بتعبير ثان، وهو الذي يعيش داخل ثقافتين وشعبين مختلفين وينظر إلى نفسه من وجهة نظر كل مجتمع فيجد نفسه مختلفاً، ويشعر بالصراع الاجتماعي الذي يؤدي به إلى التمرد، والثروة، أو إلى التغير[118]ولكن هذه الفكرة لم تلق قبولاً واسعاً على الرغم من صحة الكثير مما ورد في طياتها خاصة في كون الرجل ذي الثقافتين تصبح لديه الرؤية للتغيير حادة، ولكنه قد لا يصبح كاريزميا، ومهما يكن من أمر، فإن منشأة القيادة الكاريزمية كأي قيادة جزءاً من عملية تفاعل، واندماج بين القائد والاتباع، وفي تفاعل الأهداف والظروف.

وكما ذكرنا سابقاً، فإن إدارة الأزمات في حال القيادة الكاريزمية، قلما تلتفت إلى آليات إدارة الأزمات التي ذكرنا الكثير منها في الصفحات السابقة، فإن هذه الإدارة تتعلق مباشرة بإرادة، وميول، وأسلوب، ونمط فكر هذا القائد الكاريزمي، وباعتباره أنه ليس بحاجة على مرجعيات علمية الإدارة الأزمة وليس بحاجة على مرجعيات إيديولوجية،

فهو يعتمد بالدرجة الأولى على مرجعية مشاعر الأتباع، وتعلقهم بقيادته، الرشيدة وبقدراته على (حل) المشكلات، وإدارة الأزمات، وإحساس الأتباع بقدرة القائد الملهم على إيصال البلد إلى بر الأمان، وهو أخيراً القادر على اتخاذ ما يراه مناسباً.

والواقع لقد وجهت انتقادات كثيرة إلى القيادة أو الإدارة الكاريزمية للأزمات، موضوع عملنا هنا، من حيث أن الانتقادات العامة الكاريزمية يمكن لها أن تنسحب على نقد الإدارة الكاريزمية المنبثقة عنها آلياً:

لعل أول الانتقادات جاء من النظرية الماركسية **Marxism Theory** والباحثين الماركسين في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وحتى السبعينات من القرن الماضي وتحديداً سقوط الأنظمة الماركسية اللينينية – في ثمانينات القرن الماضي، فلقد انصب نقد هذه النظرية على: الدور العظيم واللا مبرر للفرد في التاريخ، وصناعة الأحداث، حيث رأت الماركسية خلافاً لما كانت البورجوازية، والرأسمالية بشكل متطرف دور الفرد الكبير ذلك أن الماركسية استبعدت دور الفرد من صناعة الأحداث، ورأت فيه دوراً ثانوياً، وقالت بأن المجتمع خاصة، بعد زوال الصراع بين الطبقات، وانتصار الطبقة الرئيسية التي ستصد رائدة لقيادة المجتمع وهي طبقة العمال والفلاحين، هي صانعة التاريخ. وأن دورها، هو الدور العظيم والرئيسي في تحريك المجتمع، والقضاء على أزماته، وصراعاته، إنها أي طبقة العمال والفلاحين هي الطبقة المنتجة مالكة الحق في القيادة، والإدارة.

وزبدة القول: رأت الماركسية أن القائد هو من صناعة المجتمع، وأن المجتمع يفرخ قادته، فإذا صعد المجتمع القائد (أ) ليكون قائداً فليس معنى ذلك أن يرتهن المجتمع لهذا القائد وحده وإهمال دور المجتمع فهذا المجتمع ينسخ قادته فإذا أطاح القائد (أ) فإن البديل (ب) أو (ج) أو (د) يحل محله ليأخذ دوره في خدمة مصالح الطبقات الكادحة، وهو يصدر عنها غالباً.

ومن الانتقادات التي وجهت إلى نظرية لاكاريزما، تقريباً نفسها التي كانت قد وجهت إلى نظرية السمات من قبل إهمال التفاعل الإنساني، وتحديدها لقائمة الخصال التي يتمتع بها القائد، ويرى الناقدون الديمقراطيون أن الكاريزما تنطبق فقط فترة من فترات

تاريخ الدول الغربية وعلى تلك الإجراء من آسيا، وإفريقيا، والعالم النامي الذي ما تزال تحكمه قيادات كاريزمية لا يمكن أن تنتعش في الدول ذات التقدم العلمي، والتكنولوجي ويحكمه النظام الديموقراطي[119] حيث تتطلب فيه كافة الأحزاب والهيئات، وتشكيلات المجتمع المدني المشاركة في الإدارة.

ولعل الخطورة تتجلى تماماً في توليه القيادة الكاريزمية أن تنقلب هذه القيادة أو القائد بمعنى أدق إلى: قائد يمتلك أدوات القمع، والقهر، ويعمل فوراً على القضاء وقمع جميع الحركات المناهضة، وإلغاء كلمة (لا) من قاموس العمل السياسي.

إن رواسب التاريخ القديم حول الإعجاب بالبطل وهي من الآثار الجانبية في اللاشعور الجمعي في كل مكان، حول الإعجاب بالبطولة، وتقل أو استعداد الشعوب العربية لتقبل فكرة الرجل العظيم، والبحث عنه في أحشاء وأعماق المجتمع، وقد تركت هذه الرواسب آثارها في خطابنا الثقافي، وفي الخمسينات من القرن الماضي. فقد كتب الراحل (توفيق الحكيم 1898 – 1987) في روايته (عودة الروح) عن إيمانه بأن التطور والنهضة والتقدم في مصر، إنما تعتمد كلها على النظام والوحدة، والقدرة على التحمل، والالتفاف حول هدف واحد يجسده زعيم واحد، لذلك فهو يجيب في نفس الرواية على سؤال ضمني يسأله القارئ وهو: ما الذي ينقص الشعب في مصر لينهض ويتقدم فكانت إجابة رواية (عود ةالروح) عن هذا السؤال هو: نعم ينقصه ذلك الرجل الذي تتمثل فيه كل عواطفه وأمانيه، ويكون رمزاً لأهداف، عند ذلك، لا تعجب لهذا الشعب المتماسك، المتجانس، المستعذب، المستعد للتضحية إذا أتي بمعجزة أخرى غير الأهرام، فالكل يمكن أن يتجسد في واحد.

لقد قرأ الرئيس عبد الناصر (1918 – 1970) هذه الرواية وأعجب بها إعجاباً شديداً ونشأت بينه وبين الحكيم العلاقة الحميمة[120].

وهذه الرواسب التي ذكرنا في البداية ما تزال تصعد إلى خطابنا السياسي وأجهزة إعلامنا العربية المختلفة، حيث يستعمل فيها مفردات وخطاب اللغة الكاريزمية، وتقوم بنشر صور القائد في مختلف أرجاء وقطاعات البلد.

فالرئيس والقائد يتواجد في كل مكان وله ما يدعي باللغة الدينية التي لا يجوز أن يحوزها البشر وهي كلمة **Omni Present** وتعني الحضور في كل مكان، والحائز على القدرات اللا محدودة **Omni Potent** وتعني الحضور في كل مكان، والحائز على القدرات اللا محدودة إن القيادة المفضلة اليوم ليست الكاريزمية وليست المكونة من مجموعة من الخصال الشخصية، بل تلك التي تركز على: السلوكيات والمهارات[121] والمواقف والمستوى الفكري وهي النمط التي يمكن تنميته، وتطويره، وعليه أن تكون قادرة على معرفة المطلوب منها، في الموقف، التي يلتزم بدستور الشعب، أو مرجعيته التي يرتضيها لنفسه، وأخيراً الواعية لتاريخ الشعب وتراثه والمستفيدة من الأساليب الفكرية العلمية في قيادة الأمور.

وما يمكن أن نسمي القيادة بقيادة التوازن، والعاملة دوما على تنمية مهارات التفكير القيادي الإبداعي أما بالنسبة للحركات الكاريزمية:

فإن حركة المقاومة الفلسطينية، منذ نشأتها، وحزب البحث العربي الاشتراكي (في سورية والعراق) وبسبب غياب الرجل العظيم، في البداية ثم ساد فيها النمط الزعامي – الفردي – واستمرت المحاولة الدؤوب للبحث عن الرجل العظيم ،الذي يجب أن يتربع على عرش الحركة أو الحزب، رأس الهرم (ياسر عرفات، حافظ الأسد، وصدام حسين... الخ)ولقد تجسد مفهوم القيادة، وممارساتها في الحركة الفلسطينية تدور حول: أبو عمار لا غير، حيث قام الإعلام بدور بارز في رسم، وصناعة صورة القائد الرمز الذي لم ينجح قط في توحيد ،الحركة وظل موضع خلاف، وليس موضع توحيد كما لم ينجح كل من صدام والقيادة الحزبية الكاريزمية في سورية في توحيد الحزب، فمات الحزب كمؤسسة منذ افتراق الحزبين، وتحول في كل من سورية، والعراق إلى جهاز يخدم مصالح وتوجهات الحاكم وتركيبة الفئوي، والفردي في آن واحد، والذي لا تكل أجهزة إعلامها عن تصويرهما بالعظيمين، وقد دفع كل من الشعبين ثمناً باهظاً يفوق كل الحسابات من التخلف، وفي كافة الميادين، ولعل العراق قد دفع أفدح الأثمان عندما تجسد في الاحتلال الأمريكي لأراضيه، لنهب ثرواته الدفينة.

وطبيعي القول بأن إدارة الأزمات، وحتى الصراعات في الحركات والأحزاب التي ظهرت فيها القادة الكاريزمية، أن هذه القيادة والتي عادة ما تكون فردية، هي صاحبة القرار في إدارة الأزمة، وصاحب الشأن، في الصراع، وتأتي فصائل الحركة لتبارك قرار الرئيس المناضل، وتأتي قواعد الحزب لتبارك قرار القائد الزعيم.

وعندما يقول أن الشعوب العربية لديها استعداد لتقبل القائد الكاريزمي، فهذا التقبل سواء كانت تعيشه بوعيها أو بلا وعيها فهي مسؤولية عن نتائجه وهي صعود القيادة الكاريزمية سوء إداراتها الأزمات، وإرساء إدارتها وكل منا مسؤول حسب موقعه، ويمكن أن يسأل ضميره عن مدى هذه المسؤولية.

الطرائق المختلفة لإدارة الأزمة:

يفصل المتخصصون بإدارة الأزمات القول في طريقتين للتعامل مع الأزمات وهما: الطريقة التقليدية، والثانية الطريقة الحديثة العلمية:

1- الطريقة التقليدية وقد قامت على تعامل الإنسان منذ القدم مع الأزمات بحسب ما كانت توحي إليه تجربته، وما يلهمه حدسه الشخصي، أو تجربة المجموعة، أو الجماعة وتجربتها وحدسها المشترك، وكانت تقوم على معرفة رد الفعل المباشر، حيث كان يتصف غالباً بالعشوائية، وقد نتج عن ذلك أحياناً إدارة ناجحة للموقف، بالحظ أو بالمصادفة، كذلك كان الإنسان يلجأ في معالجته للأزمات التي تواجه بطريقة المحاولة والخطأ **Trail and Error**، والتي لا تزال تمارس حتى يومنا هذا من قبل الكثير من الناس وتتصف الطريقة في الإدارة من الأزمة بخصوصية الموقف الذي يواجه متخذ القرار في إدارة الأزمات، والهدف هو التحكم بالإمكانات البشرية والمادية المتاحة وذلك عن طريق:

* وقف التدهور والخسائر.

* تأمين وحماية العناصر الأخرى المكونة للوضع الأزموي.

* السيطرة على حركة الأزمة والقضاء عليها.

* الاستفادة من الموقف الناتج عن ا لأزمة في الإصلاح، والتطوير.

* إمالة الأسباب، والعوامل التي أدت إلى وقوع الأزمة.

* وكان التعامل مع الأزمة يتم عن طريق استخدام أكثر من أسلوب.

* الواقع أن التعامل مع الأزمة كان أهم العوامل المؤثرة في تطوير الأزمة أو الخسائر الناجمة، والقضاء عليها.

وقد تمثل هذا الأسلوب أيضاً في نقاط هي:

* إنكار الأزمة، بمعنى العمل على التعتيم عليها.

*كبت الأزمة، وتأجيل ظهورها.

* تشكيل لجنة لبحث الأزمة، وتعمل اللجنة على:

أ- معرفة أولئك الذين عملوا على وقوعها.

ب- تجميد الموقف، وافتقاده قوة الدفع(122).

2- أما الطريقة الثانية والحديثة في التعامل مع الأزمة، فهنا يقتضي القول، بأن من الضرورة بمكان التعامل مع الأزمات باستخدام المناهج الحديثة، وتقنياتها وكذلك تقنيات العصر، والقواعد البحثية، وممارسة مختلف مهارات التفكير العلمي، وصولاً إلى الإدارة العلمية لبحثه (الإلكترونية - ونظم المعلومات) كناقد فصلنا ذلك في الصفحات السابقة وصولاً إلى استخدام آليات إدارة الأزمة لمرحلة ما بعد الحداثة.

الفصل الثالث
الإدارة بالأزمة، تصنيع الأزمات وافتعالها

الإدارة بالأزمة

من المفاهيم المرتبطة بالأزمة، ولكنها مختلف عنها: الإدارة بالأزمة، وهي إحدى سمات الحياة السياسية المعاصرة المحلية والإقليمية، والدولية، وتعني: خلق، واختلاق وافتعال أزمة سياسية، أو اقتصادية، أو غيرهما، وجعلها وسيلة لتغطية مشكلة قائمة وغير معلنة بين بلدين مجاورين لتغطية مشكلة قائمة بينهما، أو داخل البلد نفسه.

فإذا كانت سياسية ومحلية، فالسلطة تختلق أزمات بين أقطاب المعارضة، لتقف متفرجة تمارس هيمنتها، وتستمر في السلطة، وإذا كانت اقتصادية تعمد السلطة إلى اختلاق أزمات داخلية كإيقاف استيراد بعض المواد الغذائية، أو اختلاق أزمة أسعار، أو اختلاق أزمة في المواصلات... الخ.

وإذا كانت دولية وسياسية واقتصادية معاً، فخير مثال يتذكره المواطنون في وطننا العربي هو اختلاق الولايات المتحدة الأمريكية أزمة مع العراق لإحكام السيطرة عليه بغية تحقيق أهدافها في السيطرة على موارده النفطية، وتحقيق أهداف استراتيجية أخرى قريبة وبعيدة المدى، لقد بدأ اختلاق الأزمة فعلياً في حرب الخليج الثانية عندما غزا (صدام حسين) الكويت، وقرر مجلس الأمن بالضغط الأمريكي الحصار الاقتصادي على العراق حيث استمر عشرة أعوام، توفي خلالها أكثر من مليون طفل عراقي من جراء نقص الأدوية والغذاء نتيجة الحصار وهذا يعني أن من (الآثار الجانبية)لهذا الحصار الدولي هي: ما دفعه الشعب في العراق من ثمنه وقد قالت وزيرة الخارجية الأمريكية في الحزب الديمقراطي (مادلين أولبرايت) بأن (صدام) ينتقل بنا من أزمة إلى أزمة **From crise to crise** ولكن العكس هو الصحيح إن الإدارة الأمريكية هي التي كانت تنقل العراق من أزمة مفتعلة إلى أخرى.

ومن ثم عندما جاءت الإدارة الأمريكية (الجمهورية) وتابعت السياسية نفسها باختلاق الأزمات وقد تجلى ذلك تماماً باختلاق أزمة أمريكية – دولية مع العراق

بالإدعاء بامتلاك العراق لأسلحة الدمار الشامل، وتعاونه مع الحركة الإسلامية المتطرفة، وقد قامت الآلة الإعلامية الأمريكية بتجييش هائل لوسائلها الإعلامية عبر القارات لإقناع العالم بأن العراق أصبح بامتلاكه هذه الأسلحة يهدد جيرانه، إقليمياً ويهدد العالم بغزو محتمل، لأية دولة في العالم بصواريخه عابرة القارات.

لقد كان الهدف المعلن، هو القضاء على هذا النظام الذي بات يهدد الوضعين الإقليمي، والدولي وثم استخدام هذا الأسلوب الأزموي المختلق، وبوسائل التضليل الإعلامي لتحقيق الأهداف الديو – بولتيكية على المستوى العالمي والتمدد عبر آسيا الوسطى ومحاصرة الاتحاد السوفييتي والصين.

لقد احتلت أمريكا العراق في (إبريل 2003)، ولم يتم العثور على أسلحة دمار شامل، وقضى على نظام (صدام حسين)، ولا يزال الاحتلال رابضاً على صدور العراقيين حتى إعداد هذه الأوراق.

التعامل مع الأزمات المفتعلة:

الأزمة المفتعلة، كغيرها من الأزمات تحتاج إلى إجابات سريعة عن مجموعة من الأسئلة، وتقتضي تحركاً سريعاً لإيقاف زحفها، والحد من ظهورها، وتأثيراتها المباشرة أو الجانبية على أطرافها، وقد وضعت الكتب الأجنبية والعربية الصادرة حديثاً حول محور إدارة الأزمات، مجموعة من الإجابات على الأسئلة التي تطرحها الأزمة المفتعلة وبالتالي الإرشاد، والتوجيه المباشرين الحركة، والحد من تحقيق أي من أهدافها، والأسئلة التي يفترض بأن يجيب عليها مواجهة الأزمة، أو بتعبير فني: الخلية المشكلة لمواجهتها وهي:

1– ما هو نوع الأزمة: سياسية، اقتصادية، اجتماعية، ثقافية...الخ.

2– كيف ظهرت بوادرها: نشؤها، مكانها، وزمانها.

ما هو وأين موقع بؤرة الأزمة التي بدأت منه، بدايتها ومؤشراتها، ما هي المعلومات المبكرة التي أنذرت بوجودها، طبيعة المناخ الذي ظهرت فيه الأزمة والمزاج العام الذي أحاط بصانعي أو مختلقي الأزمة.

3- من هم الأطراف، صانعو الأزمة سواء كانوا معروفين، أم يعملوا في الخفاء من الذي قدم لهم المساعدة سواء عن عمد، أو عن غير قصد ومن هم الضالعون في مخطط وصناعة أو افتعال الأزمة؟ ما هو موقعهم في العمل ما هي سلطتهم التي يمكن استخدامها لعرقلة أي علاج للأزمة، أو تصعيدها؟

4- لماذا تم اختلاق الزمة في هذا الوقت بالذات؟ ما هو الهدف الحقيقي من وراء افتعال الأزمة؟

ما الذي يرغب صانع الأزمة إخفاءه، ومن وراء افتعاله هذه الأزمة؟ وما الذي يغب في الحصول عليه من مكاسب، ومغانم نتيجة ذلك؟

5- ما هو الهدف أو الأهداف الذي تسعى على تحقيق هذه الأزمة؟ وما هو الهدف، أو الأهداف الظاهرة، والمعلنة، وغير المعلنة أو المخفية؟

6- ما هو المدى الذي لا يتعين أن تتجاوزه قوى الضغط الأزموي؟ وما هي المحاذير الموضوعة بكل منها، ما الحدود المتفق عليها بينها[124].

هذه الشروط الستة الموضوعة على شكل أسئلة هي في الواقع مرحلة جمع كافة المعلومات والمصادر اللازمة للإحاطة المعرفية بالأزمة المفتعلة، وهي المرحلة هي كما نعرف هي من أهم مراحل خطوات مهارةحل المشكلات.

علاوة على ذلك يقتضي من الإدارة التي زحفت نحوها الأزمة المفتعلة التحرك السريع، ودون إبطاء أو بلادة في تفكير، أو التفكير السلحفاتي، للإجابة على هذه الأسئلة عملياً، وذلك قبل صناعة قرار المواجهة.

تعد فبركة (تصنيع الأزمات)، وتوليدها، والإدارة بها عملاً متكاملاً قائماً بذاته وهو فن قديم ومستحدث للسيطرة على الآخرين، وإخضاعهم وابتزازهم، وقد مارسته الإدارات السياسية قديماً، وتمارسه الإدارات الحديثة، وقد عرفه عتاة المجرمين ومستثمرو خبرات الآخرين لاسيما الضعفاء، كما عرفه كبار القادة ومارسوه في أحلك الظروف وأشدها قسوة.

وهذا الفن له طابعه الخاص، وهو موجود، وهو أمر واقع علينا أن نتعامل معه بالحنكة العربية المعروفة في تاريخنا السياسي والذكاء العربي الموروث.

إنه فن الغرف المغلقة، وفن (المؤامرات)، والدهاليز، وما وراء الكواليس، إنه فن اللعب بعقول الناس، وصولاً على تدمير وجودهم، أو المتاجرة بأرواحهم من أجل السلطة، والثروة والقوة ومتعة التحكم بمصائر الناس، وربما استجابة لما سنتكلم عنه في الفصول القادمة.

أي استجابة لدوافع، وشهوات مكبوتة، في اللاشعور في الطوابق السفلية، لبناء الكائن البشري، تعود إلى مراحل الطفولة، أو استجابة لثأر قديم أو انتقام، واستجابة لذكريات تاريخ قديم لدى هذه المجموعة أو تلك، أو لدى هذا الشعب أو ذاك، ويستغله صانعوا الأزمات.(العوامل الشخصية –المؤثرات الجانبية) .

فصناعة أو اختلاق الأزمات رغم كونها فناً، ومهارة، ويصنعها خبراء، ومتخصصون، أو أن الإداريين في صناعة الأزمات يستدعون كبار الخبراء والعلماء، وفي مختلف التخصصات العلمية لتوظيف خبراتهم وأبحاثهم واستشاراتهم وأتباع الخطوات العلمية المتقدمة لتحقيق الأهداف.

إنها من الفنون التوازنية التعادلية القائمة على اختلال يتم بموجبه إيجاد توازن جديد، فضلاً عن تحريك الثوابت الراسخة فيما يتصل بالقواعد المستقرة والأسس المتعارف عليها[125] وغالباً يتم كل ذلك لمصلحة من يقوم على اختلاق الأزمة وافتعالها.

ولكنها تظل في النهاية أسلوباً مصطنعاً، متفعلاً، مبيتاً تغلب عليه النوايا غير أخلاقية وغير إنسانية، غير عابئة بضحايا الأزمة المفتعلة.

القسم الثاني

الفصل الرابع
العمل السياسي: تحقيق رغبة

نظرية في فهم سلوك إدارة الأزمات
في التاريخ السياسي العربي الإسلامي

مقدمة

السلوك الإنساني تحركه الدوافع والانفعالات والغرائز والمشاعر الباطنة وقد أشار كثير من علماء النفس المحدثين، والمعاصرين الى دور الدوافع كمحركات للسلوك البشري ،وكان عالم النفس الأمريكي ثورونdايك (1874 – 1949) Thorndike Edward، قد أشار إلي ذلك في أعماله السيكولوجية والمخبرية العلمية ،سواء كانت الدوافع مباشرة ،أو غير مباشرة، شعورية أو لا شعورية كما فى نظرية سيجموند فرويد (S.Freud - 1856-1939). وأخيراً، كما أشرنا سابقاً أظهرت المدرسة السيكولوجية السلوكية (جون واتسون)(Watson john 1878-1958)من أهم أقطابها، إلى اختزال الحياة السيكولوجية في السلوك الظاهر، والخاضع للملاحظة، والقياس، وليس من تفرقة في فهم السلوك هنا بين الفرد العادي، أو القائد السياسي، أو مدير المنظمة أو أي قطاع في العمل وأخيراً أت السلوكية أن فهم العقل أمر ممكن من خلال فهم السلوك.

ثم إن التصرف السلوكي الإنساني إزاء الأزمات سواء في ردود أفعاله العفوية، أم المخططة لإدارة هذه الأزمة أو تلك تدخل أيضاً في إطار السلوك العام الخاص بمواجهة الأزمات.

ولابد أن نشير في هذه الكلمات إلى أن العناصر النفسية تتحكم في غالب الأوقات إن لم يكن في جميعها في مواجهة، إدارة الأزمات، والصراعات والقرارات بهذا الشأن.

وغالباً ما نغيب في تحليلاتنا الفكرية للقيادة السياسية وعملها، وفي القضايا العامة، عن التفاصيل الدقيقة والأمور الصغرى، أو العوالم الداخلية للأفراد، والجماعات وخاصة

أولئك الذين يصنعون أحداث التاريخ، أو أصحاب القرارات العليا، علماً بأن، هذه الجزئيات، والتفاصيل التي يعشعش فيها الشيطان تتحكم لا إرادياً، ولا شعورياً في صناعة قراراتنا وفي القرارات العليا التي تمس حياة المجتمع والأمم، وتلقي هذه القرارات(آثارها الجانبية —او التداعيات)لأجيال حاضرة وقادمة.

وبكلمة أخرى يبدو أنه من العسير ومن قبيل التعسف، الفصل بين العالم الخاص أو العالم الداخلي والعالم الخارجي لصانع القرار، أو أصحاب الوقار، القيادات السياسية، وخضوع هؤلاء في انفعالاتهم إلى تأثيراتهم بالمسائل الصغرى.

إن القيادات السياسية تحاول دوماً أن توهمنا بأن قراراتها قد اتخذت بناء على وعي وحكمة، وبصيرة نافذة ومعرفة بمصالح الشعوب، والمصالح العليان للأوطان وأنها قد عملت هذه القيادات قبل اتخاذها القرارات عن استشارة أهل الرأي والمستشارين والخبراء، ويزرعون فينا وهماً أعظم من كل ذلك، هو أن القرارات جاءت عقلانية Rational ورشيدة، علماً بأن أحكام وقرارات البشر عموماً لا تخلو من الهوى، ولا تتقيد دائماً بالشرائع الإلهية ولا بالعقلانية، أو الأخلاق الوضعية التي وضعها كبار الفلاسفة والحكماء وانطلاقاً من هذه الكلمات، فإن القيادات السياسية فردية كانت أم جماعية تتخلل قراراتها، وحكمها على الأمور، والمصالح الفردية، والأهواء الخاصة المرتبطة بمصالح الفئات المحيطة بها وكذلك لابد من محاولة، ولو ان الامر ليس سهلاً فهم المكونات أو الخلفيات الظاهرة والباطنة، وما هو موجود في الطبقات السفلى من النفس البشرية من: نوازع ودوافع لا عقلية وبدائية كامنة التي لا يمكن أن تظهر في السلوك مباشرة أو غير مباشر بالسلوك العضوي أو المقصود، بالعبارات المختصرة أو بالعبارات الجانبية المنطوقة هنا وهناك بالخطب والتصريحات.

والواقع أن هذه الأفكار ليست حديثة العهد، وقد أشار إليها الباحثون في علم النفس السياسي منذ أكثر من قرن فقد قال (Graham Wallas, 1908) أنه في العمل السياسي، وخاصة إلى أثر الطبيعة الإنسانية وعناصرها السيكولوجية في نشاطنا السياسي، وخاصة بما يصدر عنها من أفعال، وقرارات لا عقلية وكذلك دور اللاشعور وتاثيره في فعلنا العقلي، وكذلك أشار هارولد لاسويل (Harold Laswell) في

ثلاثينيات القرن الماضي إلى تأثيره العناصر السيكولوجية في تفكير أصحاب السلطة السياسية[126].

إن المقصود بالعناصر النفسية الحالات التي تتجلى في: الانفعالات، والعواطف ،والدوافع الذاتية ،وتكوينات المزاج، وبعبارة أخرى سنعمل من الآن فصاعداً على تسليط الضوء على العوامل الشخصية، وتسميتها بالعوامل الخاصة وغلبة تأثيرها على العوامل الموضوعية في الحياة السياسية العربية الإسلامية، في طرق معالجة قياداتنا السياسية في التاريخ السياسي للأزمات والصراعات.

ولا شك أن الباحثين والدارسين والأكاديميين الأجلاء كانوا قبلنا قد سلطوا الأضواء في دراساتهم في الفكر والعقل السياسيين في الحضارة العربية الإسلامية على العناصر الموضوعية[127] كعوامل: الجغرافيا، والاقتصاد والبيئة الاجتماعية أو الثقافية والإيديولوجية الوطنية والقومية، والدينية، ولكننا سنميل هنا إلى تسليط أضواء أخرى ومن زوايا مختلفة إلى أثر العوامل أو الدوافع السيكولوجية، (السلوكية) المحركة للقيادة السياسية وطرق تعاملها في التاريخ السياسي العربي أو طرق أدائها في إدارة الأزمات والصراعات وقد عكف الباحثون ولا زالوا يعكفون على دراسة أثر الدوافع، والانفعالات التي يقولون عنها إنها انفعالات بدائية **Primitive Emotions** في السلوك البشري وعلاقتها ببنية الدماغ البشري، ذلك أن رأيهم: إن كل سلوك أو (تصرف) أو قرار هو إصدار أمر من الدماغ[128] **Order** ولا يخلو من تأثير (الرغبة) **Desire** فقراراتنا وخياراتنا التي نصنعها هي في نهاية المطاف عملية متشابكة من العوامل الانفعالية العصبية وفي أحيان كثيرة تمتزج فيها الرغبات الجنسية –ولا نخفي ميلنا في هذه النقطة إلى النظرية الفرويدية أي الرغبات بالمتعوية (الجنسية الواعية أو المكبوتة (انظر شكل 2)، ويقولون إذا أردنا أن تكون قراراتنا صائبة علينا استبعاد تأثير الانفعالات المتعلقة بعالم الرغبة النفسية والجسدية عند معالجة الأمور(لاسيما في الحياة السياسية وفي عمل القيادات السياسية) ويحق للقارئ أن يسأل: ولكن هل بإمكاننا عملياً استبعاد هذه الانفعالات من حياتنا السلوكية؟

ويخلص الباحثون المعاصرون في علم النفس السياسي إلى القول بأن قراراتنا، غالباً ما تكون[129] لا عقلية وتغلب عليها مطالب الحاجات الإنسانية المباشرة **Immediate**

Needs أو كما عبر عنها القرآن الكريم بحاجات الحياة العاجلة، كما سنفصل حول هذه المسألة فيما بعد.

سننظر في الصفحات القادمة في محركات السلوك السياسي في القيادة السياسية العربية الإسلامية وكما تجلت في التاريخ السياسي العربي منذ وصول (الأمويين) إلى الخلافة وسيكون التركيز على العناصر النفسية، أي العوامل الخاصة وأثرها في إدارة الأزمات ومعالجتها – سنرى أن فهم هذه العناصر وتأثيرها يساعدنا على فهم الحياة السياسية العربية الإسلامية في أدائها المتواضع، حيناً، وفي الأداء الجدير بالتقدير حيناً آخر.

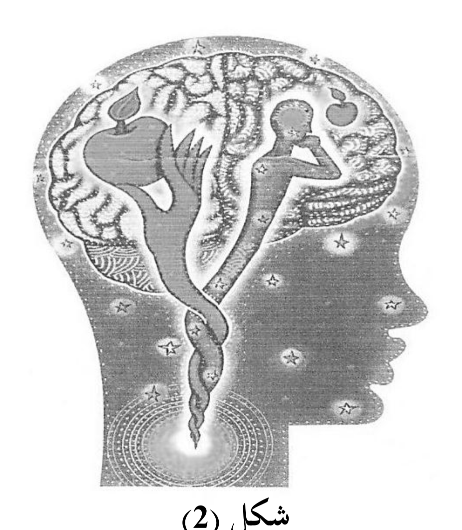
ستنطلق نظريتنا هنا من فرضية، نأمل أن تعمل الصفحات القادمة على إثباتها وهي أن القيادات السياسية العربية عموماً تؤدي عملها السياسي: إدارة الشؤون العامة، إدارة الأزمات (والصراعات وصناعة القرارات) ضمن: فضاء نفسي، عناصره سنفصلها بعد قليل.

نظرية العوامل الخاصة (الذاتية) العناصر السيكولوجية:

نقصد بالنظرية في بحثنا تقديم رؤية تعتمد تأثير العوامل الخاصة في السلوك السياسي التي تصلح لفهم مختلف أنماط السلوك السياسي ومن ضمنها المسلك المتعلق بمعالجة الأزمات والصراعات السياسية، والنظرية كما نعرف هي محاولة لتفسير العلاقات الثابتة، وغير الثابتة بين متغيرات مستقلة ومتغيرات تابعة بهدف الفهم والتفسير، وإمكانية التنبؤ السلوكي في القيادة السياسية، إنها محاولة التركيز على دور العوامل السيكولوجية في سلوك القيادة السياسية العربية، ومدى تغلبها على العوامل الأخرى (الموضوعية) والعقلانية.

والنظرية بتعبير ثان هي مبدأ عام يصاغ لتفسير مجموعة من الظواهر (السلوكية في عملنا هنا). والمتشابهة والتي تنتمي إلى أزمة واحدة.

وبتعبير ثالث لا تأخذ النظرية هنا في دلالتها (كما في العلوم الإنسانية عموماً) ذلك القول القاطع والجازم، والحتمي لتفسير الظاهرة وليس ثباتها قائماً كما في العلوم البحتة على التجربة) والجوانب المخبرية للدلالة على صدقيتها، إنها رؤية يمكن لأي قارئ، ومطلع عليها أن يدلي بما يناقضها ويضحضها، وباطلة لا تقل صدقية وصرامة.



شكل (2)

الصورة مقتبسة عن مقال البروفسور (غاردينر مورس)

بعنوان :القرارات والرغبة

المصدر مجلة هارفارد الأمريكية للأعمال – العدد يناير 2006

إنها أي النظرية المعروضة تتعلق بالجانب الآخر من السلوك السياسي، وتأثيره في الفعل، والإدارة وستشمل هذه الرؤية حديثاً عما سنسميه ب-(المؤثرات الجانبية)، ودورها كذلك في تحريك السلوك القيادي السياسي العربي.

1- **عنصر الذاتية**، وهي النظرية الشخصية وغير الموضوعية للأمور، وللعالم، بحيث ينظر المرء إلى نفسه كمركز، لمن، وما حوله وكمصدر للحقيقة المطلقة، ونرى ملامح هذه الظاهرة السيكولوجية في الكثير من جوانب حياتنا، ففي مجال التنظيم والعمل الرسمي مثلاً تبرز الذاتية في اعتبار الشخص إن وظيفته الرسمية، هي ملك شخصي له، أي لا يفرق بينها، وبين ممتلكاته الخاصة، فالمعلومات التي تخص عمله، وخصوصياته التي يجب أن لا يطلع عليها أحد غيره إلا بطريقة شخصية، أو بعلاقة شخصية، وهذا يؤثر على العلاقة الرسمية[130].

وتؤثر المصالح الذاتية في القرارات، وتحديد الأمور الرسمية، ومظاهر الشخصانية في الحياة العامة كيفية ممارسة الكثيرين لقيادة مركباتهم على الطريق، وكأنه لا يوجد أناس آخرون لهم الحق مثله في العبور.

ومن ملاحظتنا لسلوك القيادة السياسية العربية، نلاحظ أن الذاتية صفة تميزها بشكل واضح تماماً فالوظيفة هي من ضمن الممتلكات الشخصية، والتمييز بين الممتلكات الشخصية العامة والخاصة، ضعيف، وبخاصة على المستويات القيادية، الصغيرة، والكبيرة، ولعل تأثير هذه الذاتية للسلطة خطير، فلقد كانت الخلافة في عصور الخلافة العربية الإسلامية هي: الخليفة[131] نفسه ويعود مبدأ توريث الخلافة،والرئاسة، والقيادة، إلى الحفاظ على ذاتية الخليفة في ممتلكاته (أي ورثته) لأبنائه، وأحفاده، الذين هم ممتلكاته.

وعندما نقول أن الذاتية هي الوجه المقابل للموضوعية، والتي تعني بالانجليزية والفرنسية : Subjectivism(e) وهي ليست من مهارات التفكير العلمي في شيء، لأنها منحرفة تماماً في حكم الأمور نحو التقييم الشخصي الذاتي للأمور، والنظرة الذاتية لها، إنها حالة نفسية – وجدانية في جوهرها، وإنها بكلمة مختصرة وجهة نظر الشخص الخاصة به لما حوله، ولمن حوله.

الواقع أن مبدأ توريث السلطة للأبناء، والأحفاد، وكافة أفراد السلالة هي في التراث السياسي العالمي، يقوم على مبدأ الحفاظ أو الاحتفاظ بالسلطة لصاحب السلطة، ملكاً أو خليفة أو رئيساً له، ولم بعده نم سلالته الخاصة.اي النظر الى السلطة كانها ملكية خاصة يتوزعها ويتوارثها الابناءوالاحفاد .

لقد رأى الأستاذ (صدقي) إسماعيل في كتيب له نشر في ستينيات القرن الماضي أن من أوهام الشخصية العربية، والتي ركبتها منذ القديم: الذاتية، حيث تهيمن الروح الوجدانية على العقلية العربية، في تاريخنا العربي، وفي عصورنا الحديثة تتجسد هذه الروح الذاتية في الاعتبار التالي:

إما أن تكون الأوحد[132]، أو فرداً من القطيع، إما أن تكون الراعي أو فرداً من أفراد الرعية، وأما أن تكون سيداً، أو مسوداً.

2- عنصر الفردية Individualism

وكذلك ركبت الشخصية العربية منذ القديم روح الفردية، وهي ميل الفرد لأن لا يكترث (لا يهتم) برغبات الجماعة، بحيث يقوم بأعمال تتعارض مع مصلحتها، ورغباتها. وأكثر مما يتضح بهذا المعنى في عملية اتخاذ القرار على مستوى القيادة السياسية، فالقرارات العليا، وحتى الصغرى، مرتبطة بإرادة الحاكم الواحد الفرد، فهو يتخذ قراراته التي قد تتعارض مع رغبات الأكثرية من مواطنيه أو تتجاهلها، والفردية ليست مقتصرة على نمط القيادة السياسية العربية، إنها ظاهرة عامة اتصفت بها الأنظمة السياسية الفردية المطلقة الاستبدادية الدكتاتورية.

فالشخصية الفردية تعريفاً هي التي تتخذ قراراتها مستقلة تماماً عن الآخرين في الفكر والفعل، وبغض النظر عن رغبات وإرادة وتفكير من حولها[133].

ومع أن الذاتية والفردية قريبتان من حيث الدلالة من بعضهما: إلا أن فرقاً ما، مهم، كامن في المعنى بين المفردتين، فالذاتية تعتمد على نظرة الفرد إلى الحقائق، واعتبار نفسه مصدراً لها، بينما تعتمد الفردية على علاقة الفرد بالجماعة في الدرجة الأولى[134]، وعلى موقع الجماعة في عملية صناعة القرار، ودرجة مشاركتها.

ومن مظاهر الفردية في حياة المجتمعات العربية: استئثار المسؤول، وعلى مختلف المستويات بالسلطة، وتركيز كافة السلطات بيده وعدم السماح بالمشاركة من قبل الآخرين وتتجلى الفردية كذلك بالإضافة إلى الاستئثار بالسلطة، رغبة الحاكم أو من يحيط به في إعادة انتخابه وإعادة توليه وإعادة البيعة له للبقاء في السلطة، ومستأثراً بها[135].

لقد أشار الأستاذ (صدقي إسماعيل) حول هذه الصفة الفردية قائلاً من المسلمات المستقرة في بنية العقلية العربية، أننا فرديون، وأن لهذه الصفة جذوراً بعيدة في أعماق التاريخ وليس من الصعب أن نتبين هذه النظرة في موكب الأفذاذ الرائع الذي يلخص تاريخنا من عصورنا المتأخرة[136].

ولكن هذه الفردية أو الفرد المجهز بفرديته هو في الواقع شبكة معقدة من المطالب، والرغبات، والتأثيرات والمكتسبات من: الأسرة والنظام الأسروي، والطائفي، أو المذهبي

وحتى من مؤسسات العمل، والهيئات، والمنظمات حيث تسود الروح الفردية.

3- اللامؤسسية:

عندما يوضع الفرد العربي في وضع قيادي، وهو يحمل صفتي الفردية، والذاتية من مجتمعه فإن النتيجة المنطقية هي: اللامؤسسية، وتعرف هذه بأنها عدم وجود الطرق والإجراءات والترتيبات لحل المشكلات الناجمة عن التعامل في مجال من المجالات البشرية.

ويمكن اعتبار اللامؤسسية في عدم التقيد، أو عدم الاهتمام بالطرق والإجراءات القائمة لحل المشكلات الناجمة عن التعامل في التعامل في مجال من مجالات العمل[136].

وفي هذا الإطار، فإن القيادة السياسية التي لا تلتزم بوجود المؤسسات، وبدورها في العمل السياسي فهي لا تقتنع بوجود إدارات أو مؤسسات خاصة لإدارة الأزمات الناجمة عن العلاقات الإنسانية الموجودة بداهة في هذه العلاقات، والتي يمكن أن تحدث في أي وقت.

وفي مجال القيادة نرى أن هنالك قضايا، أو مشكلات لابد من إدارتها، وحلها بطرق معينة، ومحددة وبمرجعية مؤسساتية وقانونية دستورية، موكولة لذوي الشأن والمهارة في إدارة الأمور، ومن بداهة الأمور أن القيادات السياسية التقليدية لها كما الشأن في مؤسسة الخلافة، والسلطنة، والملكية... فإن المؤسسة الوحيدة صاحبة الشأن هي مؤسسة الحكم أو الخلافة ذاتها، ولا مؤسسات غيرها، ذات مرجعية معترف بها.

4- استبعاد العقل والشرع، وهيمنة عنصر اللامعقول في الحكم والإدارة:

من المفيد أن نشير تاريخنا، إلى النقطتين التاليتين في عنصر اللامعقول الذي ساد الحياة السياسية، والعقلية القيادة في التاريخ السياسي العربي الإسلامي:

أ- لقد كان العهد النبوي الشريف، والعهد الراشدي، وخاصة عهد الشيخين: أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب، أن تقيدت القيادة السياسية بالمرجعية الدينية أي بشريعة الله تعالى وسنة نبيه (محمد).

وعندما كانت تطرأ أزمة، أو فتنة، أو حدث ما، فكان النبي وصحبه يلجؤون إلى ما سنه القرآن الكريم من قواعد إدارة الأمر، أو الحدث، وكان الشرع ومن ثم السنة النبوية الشريفة، والنموذج النبوي في القيادة هي: المرجعية وكان العقل رديفاً للشرع والعقل في ذلك العهد كان مرجعه: الفطرة السليمة والحدس والاستبصار، بالإضافة إلى الشرع.

ب- في الفتنة الكبرى، والحرب الأهلية بين بني أمية، وبني هاشم، في معركتي الجمل، وصفين انتهت هذه الفتنة المأساة، ومنذ ذلك الحين انقطع اتصال القيادة السياسية في الحكم وإدارة الأمور العليا، وشؤون السلطة، بالمرجعية الإلهية، أو الحاكمية الإلهية، وخاصة بعد تولي الأمويين، إثر انتصارهم في معركة صفين، والانفلات الذي حصل في مفهوم، وممارسة السلطة، ولابد من القول أنه تم استبعاد الشرع، كسلطة إليهة، وتم استبعاد العقل المدني كسلطة دستورية مدنية يجمع عليها أفراد الرعية.

5- إيثار الحياة الدنيا[137] (متع ومباهج الحياة الأرضية وجعلها القيمة العليا) على مستوى القيادة:

كلنا نحب الحياة الدنيا، وكل إنسان يريد أن يعيش، وهاتان القاعدتان البسيطتان كانتا منذ أن وجد الإنسان على وجه الأرض، وحتى يومنا هذا وسيلتين تحققان رغبة الإنسان في العيش وحبه للحياة، والعرب، والمسلمون بحبهم للحياة وإرادتهم العيش ويطيعون الله فيما أمرهم ليأكلوا من طيبات ما رزقهم، لا يشكلون استثناء لهاتين القاعدتين.

لقد خاطب الوحي المحمدي المؤمنين لافتاً انتباههم، وموقظاً وعيهم، وينبههم بأن لا يؤثروا الحياة الدنيا، ويدعو الآخرة، وأن يؤمنوا بعقولهم، وقلوبهم بأن الآخرة خير، وأبقى: كما تقول الآية الكريمة: ((كلا بل تحبون العاجلة))

الحياة العاجلة لها مطالبها كما نعرف ولها رغباتها اللامحدودة وعلينا تلبية حاجاتها المباشرة ورغبات العيش، وتحقيق النعيم المقيم على الأرض.

لقد ذكر القرآن الكريم المؤمنين بأن تفضيل الحياة الدنيا، والانغماس المتهالك على أطايبها هو تجسيد لميول نفسه، وهو من العناصر السيكولوجية، في الوقت الذي يقول فيه القرآن إن العقل يميل بنا إلى تحقيق العدل، والتوازن، بين مطالب الدنيا والآخرة، وأن ما يحيط بهذه الميول أو ما تمثله بمعنى ما البطانة الوجدانية هي التي تغلف بمعنى ما حبنا للدنيا.

لقد عملت القيادات على تحقيق هذه الميول، وقد شكل هذا التحقيق استمرارية هذا الترجيح، والتغليب لمطلب الحياة العاجلة.

في القرآن الكريم عدد لا بأس به من الآيات التي تذكرنا بهذه الموقف الدنيوي على حساب الموقف الأخروي:

1- وقال إبراهيم لقومه: إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً مودة بينكم في الحياة الدنيا، ثم يوم القيادة يكفر بعضكم ويلعن بعضكم بعضاً، ولكم النار، وما لكم من ناصرين[138].

2- كلا بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خيرٌ وأبقى[139].

3- كلا بل تحبون العاجلة، وتذرون الآخرة[140].

4- إن هؤلاء يحبون العاجلة، ويذرون وراءهم يوماً ثقيلا[141].

نلاحظ أن الموقف المائل نحو تغليب أو تفضيل الحياة العاجلة تجسد في عبارات وجدانية، من قبيل المودة، والإيثار، والحب، وهي تعبير عن موقف يطغى فيه الجانب اللامعقول، وقد طغى على الجانب القرآني العقلاني الذي يعمل على التوازن بين: العاجلة[142] والآجلة.

لقد ذكرنا منذ لحظة أن القيادات السياسية مالت بعد العهد الراشدي، والصراع الذي حصل إبان الفتنة الكبرى على السلطة، إن مالت الحياة السياسية نحو مطالب الحياة العاجلة، وقد انجرفت شرائح كبرى من العرب[143] التي رأت في الوصول إلى السلطة وسائل تحقيق نحو العيش، والسلطة، والسلطة وشرف الرياسة، والجاه الكريم، وبالتالي تحصيل الثروة، والنفوذ، حيث سلت السيوف من أجله ذلك لتلبية الدافعية الشديدة لتحقيق رغبات حب الدنيا والمرتبطة كما هو معروف أساساً في علم النفس الإنساني في هرم الدوافع عند (إبراهام ماسلوا –A-Mslow1908–1970) في هرم الدوافع[144]، أي تحقيق الدوافع الخمسة بدءاً من الحاجات البيولوجية وانتهاء بتحقيق الذات المتمثل في السلطة.(ملء الوجود بالمعنى الفلسفي –كالقوة والحرية وكامل الرغبات ...)

ولأنه تحت مظلة عبارة إيثار الحياة الدنيا ينضوي تأثير العوامل الموضوعية (الاقتصاد، الجغرافيا، الثقافة) وكذلك (جاذبية السلطة) كميل سيكولوجي، وتشابك هذه العوالم (بالعوامل الخاصة) التي نحن بصدد تفصيل الفرضيات حولها.

لقد مثل الاقتتال، والصراع من أجل السلطة (الدنيوية)، وكما ينعكس في التاريخ الإنساني العام مع استثناءات في التاريخ السياسي العربي الإسلامي حيث كان الصراع، وخاصة الخارجي من أجل العقيدة، وتحصيل أطايب الحياة الدنيا: الغنائم، والسبايا في الحروب، لقد عملت إغراءات الحياة الدنيا، وتفضيلها على الحياة الآخرة على إهمال لإنذارات القرآن الكريم، وإيداعها إلى يوم الحساب، ذلك اليوم البعيد، البعيد، حيث يقول خائضهم (العرب قبل الإسلام) نموت ونحيا، وما يهلكنا إلا الدهر، وقد نسى هؤلاء، ومن بعدهم أصحاب الصراعات من أجل السلطة ما قالته العرب بأن: حب الدنيا يعمي ويصم.

سنرى فيما بعد تفاصيل هذا التعلق، والهيام بالسلطة، والنفوذ، وحب الدنيا وكيف تجسد كل ذلك لدى الطامحين إلى القيادة، بعد تولي الأمويين السلطة، وأخذهم بزمام السلطة وقيادة الأمور وامتداد هذا النزوع طوال تاريخ القيادة السياسية في الحضارة العربية الإسلامية.

كان النبي صلى الله عليه وسلم ينبه المؤمنين بأن لا ينغمسوا بمتاع الحياة الدنيا، وأن عليهم أن يأخذوا بنصيبهم منها، دون أن يعني ذلك التهالك على مطالبها.

6- استبداد الأهواء البشرية، والغريزة:

الطبيعة الإنسانية بما يكتنفها من أهواء وغرائز لا تختلف في تكوينها بين البشر العاديين والقادة السياسيين، لقد ذم العرب الهوى، وخاصة فقهاء المسلمين وأصحاب الشريعة الذين كانوا ولا زالوا حريصين على تجنب استبداد الأهواء، وقد كتب (ابن الجوزي) وهو من علماء الدين المتأخرين كتاباً خاصاً بعنوان (ذم الهوى) [145]، ما يعني بوضوح امتداح نقيض الأهواء، أي العقل.

وقد أدان (عبد الرحمن الكواكبي) في كتابه (طبائع الاستبداد) استبداد الغريزة، وتحكمها في العقل، والرأي[146].

الغريزة، دافع واستجابة غير مكتسبة، وهي سلوك يظهر إزاء محرض ما، يتميز بأنه استجابة طبيعية، وفطرية، ويصف باللاعقلانية[146]، الغريزة كما يصفها العرب، قوة عمياء

ولذلك فهي تضل الطريق في كثير من الأحيان، وتخطئه ثم إن الإعلاء من شأن الغريزة على حساب العقل، يعرض الإنسان، فرداً كان أو جماعة أفراد عاديين أم قيادات سياسية، إلى المخاطر، ,والخطأ في الرأي والحكم على الأمور.

ورغم ذلك فللغريزة محاسنها إنها طاقة تدفع الإنسان إلى النشاط، والعمل الدؤوب، ولكن إذا انقاد الإنسان لها وخاصة في جانبها المتعلق بشهوات النفس والبدن، ويقع الإنسان فريسة لها، فتلك الطامة الكبرى.

الغريزة قوة دافعة في هذه القوة يتجلى ضعف الإنسان إزاء مقاومتها.

ولقد كرس كبير علماء النفس ورائد التحليل السيكولوجي (سيجموند فرويد) أبحاثه السيكولوجية لإبراز الضعف الإنساني إزاء تحكم غرائزه في سلوكه وتصرفاته، وتفكيره، ووجدان الصغار والعظماء، القادرة والمسؤولين أصحاب الضعة والوقار، الرجال والنساء، هذه الشرائح البشرية تلقي سلاحها عندما تشهر الغريزة سلاحها المدمر والمقصود في الكلمات الأخيرة شهوات البدن أي:

الجنس، والطعام والشراب[147] وتأثير هذه الحاجات الغريزية في سلوك الإنسان، سواء كان فرداً من أفراد الشعب أو قائداً من قواده.

والواقع فإن تأثير الأهواء الغريزية هي ظاهرة إنسانية، فنحن نفهم كيف أن خلفاء وسلاطين، وأمراء، وملوك، ورؤساء قد وقعوا تحت تأثير وضغط هذه الغرائز العمياء، ففي تراثنا السياسي، نذكر القارئ بانغماس السلاطين، والأمراء، والقواد، وأصحاب القرارات العليا فرائس في أحضان الجواري، والإماء، ويحيون مجالس الأنس، والطرب، وفي التراث السياسي الإنساني أو الأدبيات السياسية قصص لا تعد، ولا تحصى حول: وقوع أصحاب السيادة، والمعالي والفخامة والجلالة في إسار: الحب وبالتالي سيطرة اللحظات اللاعقلانية على سلوكهم السياسي؟

فكيف نفسر أن وزيراً ما مثلاً في عصرنا الراهن، يضحي بمستقبله السياسي من أجل علاقة غرامية؟ إنها مشاعر وميول، ورغبات إنسانية نقدرها، وفي الوقت نفسه إننا نتفهم عجز بعض الأفراد أو القادة عن: إدارة أزماتهم الذاتية.

إن القيادات السياسية معرضة للسقوط، في مهاوي الغرائز، ومعرضة لأن تتخلل قراراتها الصغرى، والكبرى هذه (العوامل الخاص)، ويساعدنا علم النفس السياسي الباثولوجي على فهم الدوافع الغريزية للأحكام، والقرارات، والحلول المصنوعة ومجمل وقائع الحياة السياسية.

زد على ذلك أن (موجودات) اللاشعور لدى القيادات السياسية، والأفراد، وتحكم هذه الموجودات، وهي قابعة في الطبقات السفلى في النفوس من قبيل: مشاعر طائفية مكبوتة، أو عصبية قبلية مكبوتة، أو أحقاد عرقية مكبوتة، كل هذه المشاعر، تعود وتظهر في أوقات مناسبة، أو معينة إضافة للمواقف المسبقة لدى الأفراد فضلاً عن القيادات إزاء القوميات والثقافات والشعوب الأخرى، وكل هذه الموجودات اللاعقلية، كان (هارولدلاسويل) قد أشار إلى بعضها في تحليله للأفعال اللاعقلية **Non rational** للقيادات السياسية في علم النفس المرضي للسياسيين[148].

إننا غالباً، ما نغيب، ونغض الطرف، أو ندعي أن مثل هذه الأهواء والدوافع لا تخضع للبحث العلمي، ولا نستطيع جمع البيانات أو الوثائق أو المذكرات الصادقة التي تبين لنا مدى تأثير هذه العوامل في إدارة الشؤون السياسية، وإدارة الأزمات والصراعات، وهي تفاصيل وأمور صغيرة قد تكون من المسائل الشخصية، ولكنها موجودة في عوالم الأفراد الذين يصنعون الأحداث ويتحكمون بمصائر المجتمعات علينا تأكيد تأثيرها بطريقة ما، وبكلمة مختصرة إن من الصعب عزل هذه العوامل الخاصة، وتأثيراتها.

عن العوامل الموضوعية إلا من قبيل التعسف، وليس من العسير الكشف عن الأغطية، والأغلفة التي تخفي دور هذه العوامل.

سنرى فيما بعد أن مناخات العصور العربية والإسلامية التي غمرتها، مظاهر الحياة المترفة والتي عاشتها الطبقات السياسية قد سجلتها كتب التاريخ السياسي، ولقد عملنا في كتابنا هذا على استكشاف تأثير هذه المناخات على إدارة الشؤون السياسية في حاضرة الخلافة العربية والإسلامية.

7- المزاج الشخصي وأثره في معالجة الأمور:

مر الناس جميعاً في الماضي ويمرون في الحاضر وفي حياتهم اليومية شعوباً وقبائل، قادة، غير قادة، نساء أو رجالاً، أطفالاً وشيوخاً بحالات مزاجية، يومية ولحظية، وبمواقف تتحكم فيها أمزجتهم الشخصية، يفقدون السيطرة على ردود أفعالهم يستبعدون التأمل الهادي الرصين والمحاكمة العقلية، يثورون حيناً ويهدؤون، ييأسون تارة، ويتفاءلون، يكتئبون تارة، ويفرحون، وفي حياتنا المزاجية لحظات لا تخلو من إيجابية تخفف من استخدامنا قواعد المنطق، وأساليب محاكمتنا العقلية، والمنطقية، والأساليب البرهانية والاستدلالية[149] في البرودة والهدوء.

وعلى العموم، إننا في حالاتنا المزاجية الإيجابية نستطيع حل، ومواجهة المشكلات بشكل أفضل، ولكننا في الحالات المزاجية السلبية نحن معرضون للفشل الذريع في كل ما نـدير شأنه أو نواجهه، أو نتوقف عنده، وقد تصاب إرادتنا بالفشل، ولكن لا شيء يضمن لنا استمرارية الحالات المزاجية الإيجابية، ويجنبنا استخدام العقل، ومنطقة بالشكل المقلوب، فالحالة المزاجية، نظراً لظروف حياتنا التي نعيشها تجعل إمكانية تحصيل الحالات المزاجية الإيجابية أمراً صعب المنال.

أما في عالم القيادة السياسية، صاحبة المسؤوليات الصغرى والكبرى، فإن المزاج أيضاً له دوره في تسيير الأمور القيادية، فالقائد هو إنسان مثلي، ومثلك،وكأي إنسان آخر له مشاعره وأحاسيسه، وعواطفه، وانفعالاته، ومزاجه الخاص، والخليفة أو السلطان أو الرئيس، أو القائد، عندما يمر ببعض اللحظات الصعبة، والمتوترة في عمله القيادي وهو في منصبه القيادي وانعكاسات حالاته المزاجية على الآخرين (المجتمع – الدولة) وقراراته التي يتخذها في لحظات مزاجية خانقة، كل ذلك يترك أثره القريب والبعيد ويترك (الآثار الجانبية،او التداعيات) الخطيرة، المخربة، المدمرة على حياة مجتمعة، والوطن.

تذكر الأدبيات السلطانية ما يلي: احذروا غضب السلطان، فإن غضبه، غضب الصبي لقد كان الأباطرة، والملوك السلاطين والزعماء في القديم، والقادة، والرؤساء في عصرنا الحديث وخاصة أولئك الذين يتمتعون بالسلطة الفردية والانفراد في القرار، يحكمون شعوبهم بمحض مزاجهم الشخصي دون الرجوع أو التقيد بمرجعية إلهية أو

بشرية سوى مرجعيتهم الشخصية حيث تدخل الحالات المزاجية في تسيير شؤون حكمهم، ذلك كان في التاريخ السياسي، لشعوب العالم ومن بينها قياداتنا السياسية في: الخلافة، والملك، والرئاسة، والزعامة والإمارة، والإدارة.

لقد ذكرنا سابقاً المكونات التاريخية (المؤثرات الجانبية)التي تركت أثرها في تكوين المزاج العربي[150]، ويمكن لنا أن نذكر عناصر أخرى إضافية في هذا المجال تساعدنا على فهم تكوين المزاج العربي أو سيكولوجيته سواء كان في مقعد الرئاسة، أو بائعاً متجولاً.

إن العربي، عموماً عصبي المزاج، سريع الغضب، يهتاج للشيء التافه، لا يقف في هياجه عند حد، وهو أشد هياجاً عندما تجرح كرامته الشخصية، والويل إذا وقع في غرام، أو مسه هوى الحب العاصف، والويل كذلك إذا تعرض عرضه أو شرفه أو كبرياؤه للمس، والانتهاك، وسرعان ما يهرع للسيف ويحتكم إليه.

يستتبع تكون هذا المزاج العصبي عادة، ذكاء، وفي الحق إن العربي يظهر ذكاءه في لغته، فكثيراً ما يعتمد اللمحة الدالة، والبصر الخاطف، والنظرة السريعة المعبرة، كما يتجلى في حضور البديهة، وما هو إلا أن يفاجأ بالأمر فيفاجئوك بحسن الجواب، ورد الفعل المناسب، إن وجدان العربي يهتز لكلمة، أكثر من اهتزازه لحركة السيف، والرماح، ويرى بعض النقاد أن هذا الذكاء ليس من الذكاء الخالق المبتكر، فهو يعتمد على الاتباع، ويقلب المعنى الواحد في أشكال متعددة، لا يطور الفكرة، بل يكررها بألفاظ مختلفة، إنه يبهرك في تفننه بالقول أكثر مما يدرك في ابتكار المعنى الجديد، والأصيل[151].

وقد أشار كاتب آخر إلى مزاجية العربي بقوله: العربي بطبعه غضوب، سريع الانفعال والتأثر وبسبب طبيعته الانفعالية هذه كانت أتفه الأسباب كافية لاندلا ع المعارك ووقوع الشرور بين قبائل العرب، فتسال الدماء، وتتصل الوقائع، وتتوالى الأيام (أيام العرب في الجاهلية) وكان الحلو سجية نادرة، لا تتاح إلا إلى القلائل من الذين استطاعوا التحكم بحياتهم العصبية والتغلب على نوازع الشر، ودواعي الإثارة [152].

إن تركيب المزاج على هذا النحو يحتل مساحة في تفكير القائد السياسي العربي المسلم ويؤثر في طبيعة حكمه، وإدارة شؤون بلاده وقراراته المتعلقة، ويتجلى ذلك في السلوك السياسي للقيادة السياسية العربية.

إن قادتنا السياسيين سواء كانوا في الماضي أو الحاضر ليسوا ملائكة، ولا صفحات من القرآن الكريم، إنهم ونتيجة هذه المناخات المزاجية التي ترعرعوا في سمائها وتناقلوا ثقافاتها خضعوا، ويخضعون لحالات مزاجية، يعكر صفوها أتفه الأسباب، ويختصم هؤلاء القادة لأتفه الأسباب، ويغضبون، ويتصارعون من أجل أمور صغيرة، وتهتز مشاعرهم لكلمة عابرة، أو حقيقة مؤلمة لا يقبلونها.

وقائدنا السياسي يعانق، ويبوس اللحي، ويصافح بحرارة، ويعيد لقاءاته الحميمية مع القادة الآخرين ولكنه سرعان ما ينقلب على عقبيه، غاضباً سالا سيفه، ضارباً عرض الحائط بكل ما مضى من حميمية، واتفاقات لفظية، وحتى مكتوبة.

8- الميول المتطرفة والغلو:

التطرف موقف فكري - سلوكي، وهو الإيمان قولاً، وفعلاً، بوجهة نظر إيديولوجية وسياسية، وهو فهم معين لإيديولوجية ما، أو عقيدة ونصوصها، بشكل حرفي شديد الحرفية، مقابل الموقف العقلاني.

إنه تجاوز التوازن، والاعتدال والعقلانية قولاً، وعملاً، إنه موقف إنساني، لا يقتصر على فئة اجتماعية معينة، أو مجموعة بشرية أو شعب من الشعوب أ، قيادة سياسية خاصة، لأنه مرتبط أساساً بسيكولوجية الإنسان.

والتطرف في تاريخنا العربي على صلة بالعصبية والتعصب، القبليين، وهذان المظهران، بالإضافة إلى السلوك المتطرف أو >الغلو< الشديد يظهران بوضوح في بيت شعري جاهلي، وهو (لعمرو بن كلثوم) حيث يقول:

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

إن كلمة تطرف مستحدثة في الثقافة العربية وهي ترجمة من الإنجليزية والفرنسية Extreme Extremism ويقابلها في الثقافة الإسلامية كلمة: الغلو، وكان المسلمون في الواقع منذ ظهر الإسلام، والوحي المحمدي يمجون الغلو والتشدد في غير موضعه من الأمور، ولقد خاطب النبي (صلى الله عليه وسلم)أهل الكتاب قائلاً في القرآن الكريم.

﴿قل يا أهل الكتاب لا تغلو في دينكم غير الحق، ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً، وضلوا عن سواء السبيل﴾[153].

لقد حاول النبي محمد (ص) كبح المواقف المتطرفة، والتعصبية، أو ما يقال في أيامنا، الأصولية القبلية ولكن، وكما سنرى فيما بعد عاد الغلو والتعصب ،وظهر إبان مقتل الخليفة (عثمان بن عفان) و(الفتنة الكبرى) بين (علي، ومعاوية).

عادت ظاهرة التطرف على مستوى القيادة السياسية العربية الإسلامية، بين: السلطة والمعارضة، وقد اتسمت العلاقة بين الطرفين بالعلاقة المعقدة منذ ذلك الحين، واتصفت بعلاقة صراعية، سنرى تفصيل ذلك في الكتاب الثاني من هذا الكتاب.

والواقع لم تكن العلاقة بين السلطة والمعارضة طوال فترات التاريخ السياسي العربي الإسلامي علاقة: رديف، وخصم ولا علاقة متوازنة، أو علاقة صداقة لدودة.

لقد اتسمت إدارة الأزمة بين السلطة والمعارضة بالمواقف المتطرفة شديدة التطرف وكانت إدارة استئصالية – إن صح القول – واستبعادية كل طرف للطرف الآخر، لقد ساد القتال والصراع بين الطرفين في معظم فترات التاريخ السياسي، لا زال حتى يومنا هذا نعالج الأزمة بين الطرفين حيث يأخذ شكل: الاستبعاد المتبادل على أقل تقدير وكان ولا زال التطرف سيد الموقف، في إدارة الأزمة بين: السلطة والمعارضة.

لقد قلنا إن التطرف تعبير سيكولوجي[154] هو ميل سيكولوجي، وليس توجها عقلانياً وليس اتجاهاً فكرياً ذي منظومة فكرية – عقلية – منطقية متناسقة متوازنة، صارمة إنه سيكولوجي يأخذ طابعاً فكرياً تبريرياً، ويأباه الموقف الاعتدالي، وهو في أقصى الحدود يتوجه إلى النهايات، أي أنه يبتعد عن الوسط، ويظهر في مناخات سياسية معينة، وهو مظهر قديم من مظاهر الحياة السيكولوجية، إنه موقف إنساني، ولا شك يتجلى في لحظات انفجارية، غير ملتزمة بأية قاعدة عقلية أو منطقية، أو بأية مهارة من مهارات التفكير العلمي.

ومن المناسب ذكره هنا، أن جدلاً أكاديمياً في الولايات المتحدة، وبعض الدول الأوروبية يدور حول ما إذا كان: التطرف عقلانياًRational أو غير عقلاني

Irrational، وتقدمت أطروحات كثيرة في هذا الجدل، منها القائلة، إن التطرف سلوك غير عقلاني يتجلى خاصة في الحياة السياسية، والعمل السياسي، وتزعم أطروحات أخرى تقدمت حول إثبات: عقلانية التطرف حيث تقول: إن الناس عموماً أعقل مما نتصور، فهم لا يقدمون على سلوك إلا لقناعتهم بأنه عقلاني، ويدلل أصحاب هذه الأطروحة الأخيرة بحصول الثورات، والحركات الثورية، ويعقد هؤلاء صلة بين التطرف، والامتثالية Conformism.

وينفي آخرون أهمية التطرف، وخاصة عندما يلجأ إلى العنف والقسوة والقتل، لأن هذه الأساليب متناقضة مع الديمقراطية [155].

9- استبعاد العنصر العربي من دفة السياسة في الإمبراطورية العربية الإسلامية:

يقول المثل الشعبي: (ما حك جلدك غير ظفرك)

يوحي لنا هذا القول بأن الأرض والأوطان، والإنسان الذي يعيش على أرض هذا الوطن او ذلك، مع احترامنا للعقيدة، وخاصة الإسلام التي تتجاوز المفاهيم الضيقة للوطن، والوطنية، والأرض، لأنه من ثوابت العقيدة الدعوة العالمية أي المواطنة الإسلامية العالمية، فالإسلام لا تحده أرض بأسوارها، ولا يحده نهر، ولا جبل، إنه فوق الحدود، وهو عابر للقارات، والعالم الإسلامي ليس محدوداً فقط بحدود دولة معينة، إنما هو عالم واسع الأرجاء، ولكن بالرغم من هذا، فالعقيدة لا تمنع، ولا تحرك حراسة الإنسان لأرضه المحدودة التي وجد عليها، لأنه لا إيمان بلا إنسان يعيش على بقعة من البقع، وهذه البقعة قد تهددها أيدي غير مسلمة، كذلك توجب الحفاظ عليها، وهذا منطق الأمور، والحياة.

ما حصل في التاريخ العربي الإسلامي في عصره الوسيط – وبسبب الأزمات والصراعات السياسية داخل البيت العربي، استغلال من دخل الإسلام بإيمان صادق به، وبأهله، ومن دخله لمصلحة ما، وكذلك تهافت الشعوب مختلفة المشارب، والألوان والثقافات، والانتماءات الكثيرة المطلقة من الموالي أو العناصر غير العربية [156] في المجتمع الإسلامي.

شكلت تياراً سياسياً تطور شيئاً فشيئاً منذ بداية العصر العباسي، وأخذ يلعب دوره في السياسة والإدارة، والثقافة، كل ذلك شكل ظاهرة أطلق عليها فيما بعد في التاريخ الإسلامي: الشعوبية [157].

ولقد عمل بعض الموالي، وعناصر من الشعوبية، على استغلال الصراعات العربية، والتنافس على السلطة والصراعات القبلية العربية، مما حفز الكثير من المؤمنين بالإسلام عقيدة، ولكنهم مع ذلك لم يخفوا مطامحهم السياسية، إن قفز بعضهم إلى سدة الخلافة، ودخل قصور الخلفاء، وعمل هؤلاء بنوايا معينة على استبعاد العنصر العربي من الحياة السياسية، حيث أصبح الكثير من الخلفاء، مع بداية العصر العباسي الثاني وهم خلفاء وعرب ومسلمون لا حول لهم، ولا قوة وعملوا على الاستعانة بالعناصر غير العربية حيث حل هؤلاء محلهم.

عندما بدأ الخلفاء من الأسر غير العربية[158] الاستيلاء على الخلافة أو تأثيرهم العظيم في القرارات السياسية لم يعد الدفاع عن الأراضي العربية من الأولويات لدى القيادات السياسية الجديدة ولم تعد وحدة الإمبراطورية كذلك من ثوابتهم، بل لقد برزت لديهم طموحاتهم القديمة في السلطة، وبرزت الميول، والعواطف المضادة للعرب أو دينهم، وثقافتهم وتفضيل الثقافة الفارسية، والهندية، واليونانية، وتشجيع كل ما هو غير عربي لغة، وثقافة أما من الناحية السياسية فلم يكن لدى هؤلاء القادة الجدد بدائل لإظهار قوة الإسلام والإمبراطورية الإسلامية، ووحدة الأراضي وتثبيت دعائمها.

ومن ناحية أخرى، لا ننكر بأن، الإشعاع الحضاري الذي بثه الكثير من هؤلاء الذين اعتنقوا الإسلام من حمل الشعلة، من فلاسفة، وكتاب، وأدباء، وعلماء، طوال عصر الإسلام الذهبي، وقد رأى (عبد العزيز الدوري) أن الشعوب الأخرى التي دخلت في الإسلام لم تبدأ بالمساهمة إلا بعد أن دخلت في مجرى الثقافة العربية الإسلامية[159]، وخاصة ما جاء في القرآن الكريم من تحفيز على التفكير، والنظر، في آلاء الكون هذا فضلاً عن الآداب في الجاهلية، وعصور ما قبلها من حضارات تركت تراثها وآثارها في أراضي الوطن العربي.

وزبدة القول في هذا الصدد، أن القيادات السياسية الجديدة التي طرأت على الحياة السياسية العربية لم يعنها الحفاظ على الروح العربية.

لقد كان أخطر داء أفسد التاريخ الإسلامي هو داء الشعوبية، الذي عصف بالحياة الفكرية في عصر التدوين، والشعوبيون ، على قلة عددهم نسبياً، وجهوا جهودهم إلى تشويه آثار العرب وتاريخهم، وحتى عقيدتهم، ونسبوا إلى دول، وإمبراطورية الفرس كل ما هو حضاري مزدهر، ونسبوا كثيراً مما لا يقره التاريخ من مدنية، وآثار[160].

يقول شاعر منهم (بشّا ر بن برد)مخاطباً العرب والمسلمين:

إبليس أفضل من أبيكم آدم فتبينوا يا معشر الأشرار
النار عنصره، وآدم طينة والطين لا يسموا سمو النار[161]

النار هنا إشارة إلى عقيدة الفرس التي تقم بتقديس النار، وهي أفضل من العقيدة التي تفضل الطين.

وفي العصر العباسي أصبح منصب الوزارة، وهو مهم في النظام السياسي الخليفي، قد أسند إلى الفرس وكان نتيجة ضعف العرب في الكتابة ومقدرة الفرس عليها[162].

والواقع لقد ظهرت نزعة الموالي القومية برداء إسلامي، حيث أنكر أصحاب هذه النزعة استئثار العرب بالسلطة، وحصولهم على الامتيازات، ودعا الموالي إلى المساواة، وقد ظهر هذا التيار خاصة في كل من العراق وإيران[163]، ومن ناحية أخرى كان العباسيون منذ توليهم الخلافة على تقريب الفرس إليهم، واستبعاد العنصر العربي[164]، وبعد مقتل الخليفة (الأمين) تضعضع كيان العرب، ودخل الترك الميدان في خلافة المعتصم[165]، وأصبح التدبير السياسي، وإدارة الشؤون السياسية، وأزماتها تدار من قبل عناصر غير عربية (الوزارة – الولاية)، ثم تدنى مستوى الأداء السياسي العربي في إدارة الدولة، وممارسة السياسة وسجل التاريخ السياسي العربي بداية النهاية للقيادة السياسية العربية والإسلامية في ممارسة السلطة[166]، ووقعت الحواضر العربية ضحية البداوة الأعجمية التركية[167]، وفقدت القيادة العربية دورها السياسية في ظل الأتراك منذ أيام (المعتصم)، ثم توالى تغلغل العناصر غير العربية، التي ذكرنا منذ قليل.

10- اللاشعور السياسي (الفردي والجمعي)، دوره في الممارسة والخطاب السياسيين:

أشار علم النفس التحليلي والذي أشرنا إلى اسم رائده سابقاً في النصف الأول من القرن العشرين (س. فرويد) (1856 – 1939) إلى دور اللاشعور في حياتنا السيكولوجية، وعلى صعيد حياة الأفراد، وكان (فرويد) قد قسم النفس الإنسانية طبوغرافيا إلى ثلاثة مستويات: الشعور، واللاشعور، والأنا العليا، وقد وجه لهذا التقسيم وإلى الدور العظيم الذي منحه (فرويد) للاشعور عدة انتقادات، وأنكر كثير منهم أي المناوئين لوجود اللاشعور، أو التيار الباطن (اللاوعي) في الحياة النفسية، ومع ذلك من الصعب أن ننكر ما دعاه العرب منذ القديم ب-(العقل الباطن) الذي يعادل مصطلح اللاشعور تقريباً، ومن الصعب أن ننكر العلاقة بين مستويات النفس الإنسانية التي ذكرها (فرويد)، وتأثير هذه المستويات وخاصة دور اللاشعور (الفردي) و(الجماعي) في الحياة السياسية.

إننا كثيراً ما نلمس، ونسمع، ونقرأ في الخطابات السياسية لقادتنا السياسيين، وغيرهم في بلدان العالم مما يسمى ب-(زلات اللسان) أو (الجمل الصغيرة الخاطفة)، أو الإشارات الغير مقصودة في الظاهر، ولكنها لها معناها في الواقع، وما يسقط سهواً، وما يلفظ في المقابلات، والمشاهدات وحتى في الخطب المباشرةمن: هنات لم يرد صاحبها الإشارة إليها... الخ.

1- **أما اللاشعور السياسي المقصود هنا**، فقد كان الدكتور (محمد عابد الجابري) قد ألمح إليه في مقدمة كتابه (العقل السياسي العربي) هو ما يمكن تسميته ب-(المنطق الداخلي)، والذي رسمت ملامحه آليات قابلة للوصف، وللدراسة، والتحليل[168]، ولكن ما يهم موضوعنا هنا هو: المنطق الداخلي ل-(اللاوعي) أو (اللاشعور)، وتأثيره كعنصر سيكولوجي في حياة القيادة السياسية العربية وبناء على هذا المنطق الخاص، اللاوعي طوال فترة نشأة القائد السياسي، وما تلقاه لا شعورياً أو ما تخزن في قاع النفس، (اللاشعور)، قادماً من المجتمع (الأسرة) (الجماعة) (الأصدقاء) (الطائفة) (القبيلة) (أصحاب المجالس) وتأثير هذا كله في نشأة القيادة السياسية.

لقد أولى (فرويد) أهمية خاصة إلى اللاشعور، إذ جعل منه منطقة واسعة وجهازاً سيكولوجياً تتحرك أجزاؤه التي هي الدوافع الفردية، والرغبات المكبوتة، واعتبر مسؤولاً عن قسم كبير من سلوك الفرد البشري وهو يكشف عن نفسه من خلال: الأحلام، وفلتات اللسان، وغيرها من الأفعال غير الإرادية وفي المواقف المتطرفة وهكذا، صار السلوك البشري يصف إلى سلوك صادر عن الشعور وعن وعي وقرار وتصميم، وسلوك صادر عن اللاشعور، لا تتحكم فيه إرادة المرء بل يفلت من الرقابة الشعورية، وتلعب الدوافع كما قلنا دوراً في بنية المخيال السياسي للسلطة السياسية.

وهذه الأدوار تلعبها الدوافع اللاشعورية، مع فقدان الرقابة والمحاسبة تظهر في المجتمعات التي تفتقر في الحياة السياسية إلى ضوابط دستورية، أو قانونية تقيد سلوك القائد السياسي، وفي المجتمعات النامية والعربية منها على وجه الخصوص التي تحكمها قيادات غير مقيدة بدساتير، لأنها هي فوق الدستور والقانون، ولا تسأل عما تفعل، نلمس دور اللاشعور السياسي كعنصر نفسي في شؤون المجتمع، وإدارة أزماته، وصراعاته، وأحياناً نرى تجليات هذا اللاشعور في سلوك القيادة السياسية ذات النظم الدستورية والديمقراطية حيث يصعد وزير أو مسؤول كبير ويصرح أو يكتب مقالاً أو يعلن مشاعره العنصرية أو العدائية إزاء شعب ما، أو ديانة ما، أو طائفة معينة.

إذ يعكس في إعلانه وفي إطار مجتمع يتمتع بحرية التعرية، دوافعه المكبوتة، ورغباته الدفينة في أعماق لا شعوره.

سنرى بعد قليل آثار هذه التعبيرات اللاشعورية في الخطابة السياسية العربية الاتباعية – والحديثة على حد سواء.

لكن فعل محددات، وتجليات، قد تكون دوافع داخلية – بيولوجية – أو سيكولوجية – شعورية، أو لا شعورية، والسياسة فعل له تجلياته الواعية، والغير واعية[169] ويظهر ذلك على صعيد سلطة الحكم والممارسة السياسية، والخطاب السياسي.

إذ أن من المفاهيم الأساسية التي يمكن توظيفها هنا، هو مفهوم اللاشعور السياسي[170] فهذا المفهوم له أهميته الخاصة، انعكس في الدراسات النفسية والاجتماعية منذ العقد الأول من القرن الماضي.

ولقد لاحظ علماء النفس أن هنالك أنواعاً من السلوك تصدر عن الفرد البشري، بدون شعور منه، وهي تختلف عن ردود الفعل الآلية، وهي لا تخضع لرقابة الأنا العليا التي ألمحنا إليها سابقاً أي أشكال البنية الفوقية: الأخلاق والقيم والمعايير، والتقاليد والأعراف، والإيديولوجيات السائدة.

2- **يقدم غوستاف يونغ** (1875 - 1961) أطروحته **في علم النفس الجمعي** والخاصة بما أسماه باللاشعور (الجمعي)، وهذا اللاشعور يحتوي ليس فقط على غرائز ودوافع الفرد اللاشعورية، والمكبوتة كفرد، بل أيضاً ينطوي في تضاعفية على بقايا، ونزوعات، وعواطف جمعية تعود إلى حقب من الزمن، وتنتمي إلى ماضي البشرية - القريب،وتشكل على شكل نماذج أشبه بمثل الفيلسوف (أفلاطون) (428 - 348ق.م) لتشكل نوعاً مما نسميه باللاشعور (الجمعي) المشترك بين بني البشر، إنه مجموعة الرواسب الدفينة المخبأة في أعماق النفس البشرية يرجع إلى تجارب وخبرات النوع الإنساني الماضي السحيق.

3- ومع أن مفهوم اللاشعور الجمعي هذا يبدو، وكأنه أصل لمفهوم اللاشعور السياسي، يؤسسه ويؤطره بوصفه أعم منه، وأشمل يرى (ريجيسي دوبريه) الذي يقتبس منه الدكتور (الجابري) هذا المفهوم، ويجب التمييزهنا بينه، وبين اللاشعور السياسي، إذ أن الأول (الفردي) يأخذ طابعاً سيكولوجياً، بينما يأخذ الثاني طابعاً سياسياً إيديولوجياً[170].

4- خير مثال من تاريخنا السياسي حول اللاشعور الجمعي، هو الجانب الاستبدادي في السلطة السياسية والموروث من تاريخ الشرق القديم،(المؤثرات الجانبية) وله بعض أمثلة في التاريخ السياسي العالمي، حيث تنعكس في المخيال الجمعي، ولا شعوره صور الاستبداديين،والأباطرة الدكتاتوريين، الذين مارسوا السلطة بكامل جبروتهم وطغيانهم، وكذلك يمكننا أن نذكر مثالاً آخر من تاريخنا السياسي حول اللاشعور الجمعي، ظاهرة الشعوبية التي ازدهرت إبان العصر العباسي، حيث انعكس اللاشعور الجمعي لدى الشعوبيين في ذلك العصر بشعورهم بتفوقهم الحضاري، وازدراء العرب القادمين من الجزيرة العربية الذين لا يحملون سوى إسلامهم، وقد كتب أديب الأدباء الجاحظ (776 - 888م) في رسالة مشهورة له يناقش ويدحض آراء الشعوبية وأفكارهم.

5- ضمن عرضنا للعناصر النفسية، أو (العوامل الخاصة) ودورها في العمل القيادي السياسي العربي، وتعرفنا هذه العناصر بكونها حالات نفسية تتجلى بشكل واضح، أو تظل كامنة، أو مغمرة وغير مصرح بها مما يطرح مشكلة لدى الباحثين في السيكولوجية القيادية السياسية، ولكن ومع ذلك فقد قلنا بأنها حالات لا عقلية، وهي أيضاً حالات إنسانية نقدرها، ونتفهمها في جوهرها، وآرائها، وسنتكلم متابعين هذه النقاط بالتركيز على الجانب الآخر، والإضافي إن صح القول في صدد عرضنا لطبيعته الشخصية القيادية العربية السياسية ملقين الضوء على ما ندعوه بالآثار الجانبية لعناصر سيكولوجية أخرى.

1- تأثير التناقض الوجداني Ambivalence بين عناصر القيادات السياسية:

ونقصد بالتناقض الوجداني: التجاذب والتطارد بين مشاعرمتنافرة ، متناحرة، ومتناقضة: تنافر اللذة والألم، الحب والكراهية، الإعجاب والنفور، ويعرف التناقض الوجداني بأنه تواجد عاطفتي : الحب والكراهية إزاء موضوع وعدم القدرة على الحسم[171]، وغالباً ما يتخذ هذا الوضع صفة صراعية، وأساس انفعالي، متعلق ببنية الغريزة الإنسانية، ويعبر عنه في لغتنا العادية بالأزدواجية.

فالقيادة السياسية، وعموماً المجتمعات العربية التي تصدر عنها قيادتها السياسية، تعيش هذه الحالة الازدواجية بين وضعين يتعايشان، أو يتصارعان في آن واحد.

فالعربي، سواء كان مواطناً، أم في مركز القيادة لديه شعور باطن، ووعي ما، في كونه ينتمي إلى منطقة كان لها الإشعاعات الحضارية في الماضي التليد، ولكنه إزاء عصر متقدم في مختلف الميادين لم يساهم في تقدمه، وكذلك يعيش العربي تستهويه الحياة الدنيا ومطالبها، ويريد تلبية مطالب الحياة الآخرة.

ويظهر هذا الموقف المزدوج على مستوى القيادة، فهذه القيادات تنادي بوحدة التراب العربي، والوطن ووحدة المصير، والانتماء إلى تاريخ عربي مشترك، وتعيش آلامنا وآمالنا المشتركة، ولكن هذه القيادات تظل قابعة في إطارها الإقليمي – القطري المحدود، تؤكد التفرقة والخصوصية القطرية تعالج أزماتها منفردة، وتعرف في الوقت نفسه أن مشكلاتها الإقليمية القطرية، لها أبعادها الدولية، وأنه لابد من مواجهتها برؤية موحدة.

2- الانشداد إلى المواقف اللحظية (الآنية) في إدارة الأزمات واتخاذ القرارات:

فعلى صعيد حياة الأفراد والمجتمعات تتخذ قراراتنا من وحي اللحظة، دون أن يعمل عقلنا الناقد في النظر إلى الأزمة الواقعة، ودراسة معطياتها، وأخذ الوقت اللازم والكافي للتفكير فيها وفي أحيان كثيرة نبطئ كثيراً في المعالجة ونفقد الإحساس بعنصر الزمن ومطلب السرعة المطلوبة لمعالجة الأزمة.

والقيادة السياسية إما تبطئ ردود الفعل لدرجة أن تصل الأزمة إلى درجة الانفجار، ولم تعد قادرة على إيجاد المخرج أو أنها تتخذ القرار متسرعة قبل الأوان.

3- تنافر الامزجة بين عناصر القيادة السياسية، داخل القطر الواحد وبين القيادات على مستوى الأقطار العربية: وكذلك تنافر هذه الأمزجة بين العناصر المكلفة بإدارة الأزمات.

النظرة السوداوية للحياة والنظرة المتفائلة، مشاعر الكآبة ومشاعر الفرح المهيمن على المزاج والأمور الصغيرة التي تعكر صفو القائد، أو المدير، أو المشرف، كخروجه من البيت مضطرباً أو نشوء توترات في علاقاته، ومراوحة هذه العلاقات بين الجذب، والطرد، بين الحب والرفض، بين الإعجاب والنفور، وتلقي الأخبار والشائعات والمعلومات الواردة من هنا، وهنالك، وسماع ما تهمس، وتوشوش به الأفواه إلى الآذان، وما يحيط بالقيادة من أجواء تعكر صفو حياة القصور، وتأثيرات كل ذلك على المزاج العام للقيادة، وطريقة معالجتها للأمور، وفي مؤسساتنا، ومنظماتنا، وكبرى شركاتنا، وقطاعات العمل العام كثيراً نعرف من خلال لمحات سكرتير المدير أو الرئيس، والمسؤول الكبير عن وضعية مزاجه هذا الصباح، وكثيراً ما نتلقى نصائح (السكرتير)، في هذه الحال بالعودة في وقت آخر.

القائد قابع داخل القصر، لا يريد مقابلة أحد، ولا يريد أن ينظر في أية قضية، ولا يعالج أية مشكلة.

إنه حاجب القصر والسلطان، وسكرتير المدير والوزير، أو الرئيس ينبئوننا في كل يوم عن أمزجة رؤسائهم، ومدرائهم، وسلاطينهم، ومعلميهم.

4- العلاقات الشخصية للقيادة السياسية العربية - العربية:

للعلاقات العائلية، والقبلية، وصلة الرحم، إيجابياتها، وتأثيراتها في العمل القيادي، ومعالجة الأمور، ومدى تقريب القيادات السياسية لأبناء العائلة، والقبيلة، وسلبيات هذه التقاربات، ومدى أبعاد هذا النمط من العلاقات، كل ذلك ما زال له بعض الأثر في العمل القيادي، زد على ذلك الصداقة، وعلاقاتها بالنسبة للقيادات بين أصدقاء الأمس، ومرحلة ما قبل تسلم مقاليد السلطة وصناعة القرار، تقريب أو إبعاد هؤلاء الأصدقاء، التنكر لصداقتهم، وتأثير الجانبين الإيجابي والسلبي في سيكولوجيا القائد.

اللقاءات الحارة بين القيادات، وتأثر القيادات بهذه الجوانب الوجدانية في النظر، إدارة الأزمات، وذلك يعكس اهتمام القيادات السياسية بالجانب الوجداني في الحياة السياسية ورغم أن هذه القيادات ندرك أنه في عالم السياسة لا مكان للعواطف، والعلاقات الوجدانية بل إنه معيار: موازين القوى، ولكنها تمارس في سلوكها هذه الصفات سواء على صعيد السلوك أو الخطاب السياسي.

أما على صعيد الخطاب فالأساليب الإنشائية، واللغة الوجدانية لها دور كبير في دغدغة عواطف صاحب القرار.

إن قياداتنا السياسية تغلب لغة الوجدان، ولغة الإنشاء، على لغة الوقائع والأرقام، والأدلة والبراهين، المعتمد على نمط ما من التفكير العلمي.

5- جاذبية السلطة:

الجاذبية ميل سيكولوجي، وهو عنصر مهم في الحياة النفسية، وتعريفاً: إن الجاذبية هي بداية حب نحو موضوع ننجذب إليه.

وبالنسبة لجاذبية السلطة، فإنها تعني متعة الرياسة، والحكم والتحكم بمصائر الآخرين وإصدار القرارات.

إنها ميل مكتسب من المجتمع، وهي في الحالة العربية موروثة من المجتمعات القبلية في حب الزعامة، والرياسة، وتحصيل المكانة والهيبة والأبهة، والفخامة في المنصب ومن طباع العرب، كما قال (ابن خلدون) المنافسة على الرياسة وقوله كذلك أن هؤلاء قلما تجتمع أهواؤهم[172].

ولقد تطورت هذه الجاذبية نحو السلطة، وتجسدت لأول مرة في التاريخ السياسي العربي الإسلامي في (الفتنة الكبرى) بين (بني هاشم)، (وبني أمية)، واستمر هذا الصراع على السلطة والرياسة والخلافة طوال فترات التاريخ السياسي العربي الإسلامي، حتى قال الشهرستاني في أن أعظم خلاف بعد وفاة النبي (صلى الله عليه وسلم) وكان السبب في اختراق الأمة إذ قال: (ما سل سيف في الإسلام على قاعدة دينية مثلما سل على الإمامة أي الخلافة والسلطة)[173].

والواقع أن جاذبية السلطة ظاهرة سيكولوجية إنسانية، وليست مقتصرة على شعب من الشعوب وتتجلى في الصراع وفي جميع الأنظمة السياسية، بين السلطة والمعارضة ولها أولوية في الأنشطة السياسية، المختلفة، أولوية لدى الطبقات السياسية أي الوصول إلى السلطة أولاً كهدف أولي لتحقيق الأهداف الاستراتيجية لكل طرف سياسي حسب ما يضعه، وما يخطط له من أهداف عند الوصل له إلى سدة السلطة.

هذه العناصر الفرعية (للعوامل الخاصة) أو ما نفترض تسميته ب-(الآثار الجانبية) السيكولوجية تترك آثارها، أو تلقي بظلالها السيكولوجية على عمل القيادة السياسية، وهي في طور معالجة الأمور، وحلها للأزمات.

صحيح أنه في عالم السياسة لا مكان للوجدانيات، إنما لموازين القوى كما قلنا ولكن تدخل هذه العناصر الفرعية السيكولوجية في تكوين العمل القيادي، وتلعب دورها أي (العوامل الوجدانية) في بعض الحالات إيجابياً كمخففة لحدة الأزمة، أو حدة الصراع، وقد تلعب دورها الإيجابي في التهدئة قبيل سل السيوف.

سنرى فيما بعد أن العقيدة الإسلامية، والإيمان، أو بتعبير آخر الوازع الديني أيضاً كان له دور قد لعبه في فترات ما من فترات التاريخ السياسي العربي كمخفف لشدة الأزمة أو كنازع لفتيل الأزمة وتأجيل للانفجار.

والواقع أننا في الجوانب، وخاصة الجانب الحماسي، ولغة الحماس اللذين يلعبان دوراً في إعداد النفوس ومواجهة الحروب السيكولوجية، يتجلى هذا الدور في الحروب السيكولوجية كما نعرف حيث تلعب هذه دورها في إدارة الأزمات.

الخلاصة: تلعبالدوافع السيكولوجية دوراً مهماً في اثارة الأزمات وتشكيل الصراعات ،وتأجيجها، وكذلك في إداراتها (على حساب التوجهات العقلية) ويتطلب فهم هذه الأمور السيكولوجية، سبر أغوار النفس البشرية ومدى تفاعل أو تجاذب أو تنافر، أو تصادم، أو تصارع الفئات المختلفة، والقيادات السياسية أو الأنظمة السياسية الصادرة من هذه البيئات السيكولوجية.

وتكتسي هذه الخصوصيات السيكولوجية طابعها الخاص في الوطن العربي وهي تمتد إلى الماضي بجذورها الكامنة، وإلى أعماق اللاشعور العربي – الإسلامي، حيث تظهر بين الحين والآخر على سطح الوعي والإدراك، وتأخذ طابعاً >فكرياً<.

ونود في العمل التالي تسليط او الكشف بالوقائع التاريخية **Historical Facts** ما وراء العوامل الموضوعية، دون أن نهمل أهمية هذه الأخيرة في الإدارة السياسية وعمل القيادة، وإن رمنا التوازن لقلنا إننا سنحاول تبيان الأثر الذي لا يستهان به (للعوامل الخاصة) و(الآثار الجانبية) في صناعة إدارة الأزمات والصراعات، حيث سنرى أن هنالك رجحان واضح لأثر هذه العوامل الخاصة السلبي غالباً في مسيرة القيادة السياسية العربية الإسلامية حتى يومنا هذا.

الرجحان الذي ذكرت في السطر السابق أو سيادة العومل الخاصة في السلطة القيادية وهي مقادة بالرغبة الباطنة في الشخصية القيادية والنائية عن المراقبة أستطيع ان أراها ايضا بعبارات إضافية ربما لتوضيح رؤيتنا في سيادة الرغبة في العمل القيادي والذي تجلىّ بكل وضوح في مسيرة حياة الخلفاءوالسلاطين في التاريخ العربي– الإسلامي وأزعم ان (الرغبة) تتحقق في نمطين يخرجان عن سيادة العقل وميله في الرقابة أي ان الرغبة او العوامل الذاتية لها :

1– **الجانب الجوّاني** : الدفين –كتغليب الفردية ،والأهواء الخاصة ،و المختلفة والمتعددة في النفس البشرية المليئة بالفجور والسوءات

2- **الجانب البرّاني للشخصية القيادية** : والرامي للتحقق في الخارج كالتطّرف ، والعصبية، والعنف ، واللغة النارية، والقتل، والإبادة الفردية أو الجماعية للآّخر ، في صورته الناقدة ،المختلفة والمخالفة او المواجهة للطغيان هذا الجانب البرّاني (الرغبة) في القيادية العربية والإسلامية منذ فجرها _ تجلّى في التاريخ على سبيل المثال :مقاتل الفتنة الكبرى وموت الخليفة عثمان – ثم شخصية الحجّاج- وخطابات العنف والتهديد والوعيد خطابات الخلفاء الامويين ، يزيد، وزياد بن أبيه ، والعباسيين، وخطابات وفرق الشيعة المغالية ، والخطاب الشعري العنيف والهاجي لدى الشيعة (الشاعر دعبل الخزاعي) ومقاتل الطالبيين ، ثم الوصول إلى مفاسد السلاطين العثمانيين ، واخيرا العصور الحديثة والمعاصرة في العالمين العربي والإسلامي

فالرغبة في نهاية المطاف هي السيدة المطاعة على حساب قوانين العقل وثقافته.

الفصل الخامس
إدارة (معالجة) الأزمات في الدولة الإسلامية الناشئة
القيادة النبوية السياسية

هذا الفصل، والفصول التى تليه هى عرض تاريخى لادارة الازمات والصراعات فى التاريخ السياسى العربى الاسلامى ،والمؤلف يرى ان التاريخ عموما ،وتاريخ ادارة الازمات والصراعات يظل تراثا فكريا مرجعيا اساسيا لابد للاطلاع عليه والاستفادة منه فى العمل السياسى ،والنظر فى الازمات والصراعات ،

مقدمة: كيف كانت تعالج النزاعات (الأزمات) في العصر الجاهلي:

إن أول ما يلفت النظر في تركيبة المجتمع العربي قبل ظهور الإسلام، هو طبيعة الحياة التي كانت قائمة على بنية القبيلة، فالبدوي مرتبط ارتباطاً عضوياً بقبيلته، ويراها مسؤولة عن سلوكه، وبالتالي هو مسؤول عن حراسة قيمها.

وكانت الأزمات، والصراعات تنشأ في الحياة القبلية قبل الإسلام لعوامل أهمها: الماء، والكلأ، وهتك الأعراض، وهذه العوامل لها قدرتها على إحداث الأزمات في البيئة الصحراوية نظراً لندرتها، حيث ينضب الماء، وتنعدم الأشجار، ويحصل التنافس، والنزاع، والخصام من أجل تحصيل أسباب العيش.

ومن الناحية الاجتماعية، تعلو قيم الشرف، وصيانة العرض على بقية القيم الأخرى، كذلك كانت طبيعة الحياة القبلية قائمة أساساً على: اللادولة[174]، إذ لم يكن هنالك دولة بالمعنى الذي نعرفه الآن من حيث البنية الدستورية، والقانونية، ولا من حيث البنية الدينية الشرعية – لأن الإسلام لم يكن قد ظهر بعد، وفي ظل غياب الدولة تصبح إدارة الأمور بيد القبيلة ذات الامتداد في الزمان والمكان، والعدد والقوة المادية، ومن حيث صناعة القرار، حيث يأتي شيخ القبيلة في القمة في: صناعة القرار.

ثم إن الطبيعة الصحراوية تأبى تأسيس كيان دولة راسخة بمؤسساتها، وأجهزتها كما نعرفها الآن.

كانت القبيلة تتعصب لأفرادها تعصباً غير خاضع لنقاش، ولا مفاوضة، وكان يقول شاعرهم:

لا يسألون أخاهم حين يندبهم   فى النائبات على ما قال برهانا

والصفات القيادية التي كانت سائدة عند العرب كانت عادة متوفرة في شيخ القبيلة، من أهمها: السن والأصل، والحلم، والروية في التفكير وفي إطلاق القرارات، وكانت القبيلة تكلف الشيخ النظر في النزاعات، فهو يحسم الأمور بإرادته، وهو المرجعية في إدارة الأزمات.

وكان الشيخ يستشير من حوله ممن يراه أهلاً للاستشارة ومن ذوي الحكمة، والرأي السديد ويمكننا أن نسأل كيف كانت تعالج الأزمات عملياً في تلك البيئة الصحراوية، الواقع كانت هناك مجموعة من الطرق يُعمل بها في المجتمع القبلي لمعالجة (إدارة الأزمة) الناشئة هي:

الأولى: كانت الخلافات الأزموية تحل فردياً بحد السيف (استخدام القوة)، وهذا ما يعبر عن فقدان المؤسسة، وعدم وجود هيئات، ومنظمات ومؤسسات تنظر في الأزمات.

الثانية: يلجأ المتخاصمون إلى شيخ القبيلة، تعرض عليه الأزمة، وينظر في الأمر، ويصدر قراره.

الثالثة: على صعيد النزاعات الفردية، كانت الأزمة تعالج أحياناً بالأزمة، أي الأخذ بالثأر.

الرابعة: لقد كانت الحياة القبلية تعج بالنزاعات، والخصومات، وما تؤدي إليه من أزمات ودوراتها في حلقات مفرغة كما يقال، وخاصة كما قلنا عندما تعالج بطريقة الأخذ بالثأر ثم تطور التفكير القبلي في النظر إلى الأزمات حيث أخذت القبائل تلجأ إلى أسلوب إصلاح ذات البين، ونشر السلم[175].

الخامسة: كانت القبائل في بعض الحالات الأزموية – والفرعية تلجأ إلى القول البليغ، وتأثيره في النفوس، لتهدئة الموقف الأزموي، حيث كان القول البليغ يفعل، مالا يفعله الحسام الماضي[176] في النفس العربية.

ولقد حصل تطور آخر في المجتمع القبلي قبل الإسلام، أعني في الممارسات القيادية، حيث استطاع (قصي بن كلاب)، سيد قريش، أن يجمع شتات القرشيين، وأن يوحد كلمتهم، ويصبح هو الرئيس الديني للبيت الحرام حوالي القرن الرابع الميلادي، وكذلك تولى الوظائف الدينية الإدارية، وانعكست مظاهر هذه الرئاسة في:

* رئاسة الندوة.
* اللواء، حمل العلم في المعارك.
* الحجابة (حماية الكعبة، وخدمتها، وحمل مفاتيحها) .
* السقاية، والرفادة.

ثم انتقلت هذه الوظائف الأربع إلى: (عبد الدار بن قصي بن كلاب) بعد وفاته ثم إلى عبد مناف (عبد شمس، هاشم، المطلب، بنو أسلم بن العربي بن كلاب).

ومن ناحية ثانية، لم تعد الرئاسة بيد رئيس واحد، بل أصبحت موزعة على عدة رؤساء أو أمراء، وهذا الوضع الذي وُصف بالفريد حيث كانت تسوده درجة عالية من التفاهم، والتوازن بين قبائل، وعشائر مكة – مع ملاحظة عدم وجود سلطة مركزية في يد شخص واحد.

ولقد كان محور هذا التنظيم: دار الندوة، وهي نادي قريش، ومجمع الملأ فيها يتشاورون في مهام أمورهم، وكل ما سيتعلق من: أزمات وصراعات، وحروب ونكاح، وكانت تُثار مثل هذه الأمور في هذه الدار.

وبجانب دار الندوة في (مكة) المتخصصة في حل (إدارة) المشكلات بصورة عامة، يظهر أنه كان لكل عشيرة ناديها الذي تعقد فيه اجتماعاتها: الخاصة لحل مشكلاتها، تجتمع فيه في الغالب يومياً وتتخذ القرارات المتعلقة بشؤون القبيلة، وهو يعكس نمطاً من الشورى(177) .

وخلاصة القول في تفكير، وأسلوب المجتمع القبلي في إدارة الأمور من ضمنها النظر في الأزمات أن هذا المجتمع فرداً فيه كان أم جماعة ،شيخاً ،أو ما دونه ،كانت تتوفر لديه مهارات سلوكية في إدارة شؤونه، وعيشه وسط الصحراء، وفي كنف القبيلة، وكانت هذه المهارات السلوكية تساعده على حل أزماته، وكان من أهمها:

* السليقة – الفطرة – الإدراك السليم الذي يأتي عفواً – البصيرة، والخيال وكان تفكير البدوي في ذلك العصر خالياً من التعقيد الفكري، أو الفلسفي، أو التفكير العلمى ، الذي نعرف مهاراته وآلياته في اليوم[178].

العقيدة الجديدة: مقدمة

لا نهدف في هذه الصفحات عرض ظهور الدعوة الجديدة، والوحي المحمدي، والرسالة التي تضمنها هذا الوحي، فهي أمور نفترض أنها معروفة من قبل القراء العرب، والمسلمين، فقد عرفوها في المسجد، وفي المدرسة وفي البيت، ما يهمنا هنا التأكيد بداية أن الإسلام هو: دين،ودولة.لدى الكثير من اصحابه و فى اعتقاد التيارات الاسلامية الحيثة والمعاصرة (راجع كتاب الاسلام واصول الحكم ، اعبدالرزق ،والضجة التى اثيرت حوله فى النصف الاول من القرن الماضى ،مع انه لانص فى ذلك ،ولكن كان لهذا الاعتقاد سياقه ومبرره التاريخيين ،بمعنى ان النبى محمد(ص) وجد نفسه انه بصدد تكوين جماعة اسلامية لها كيانها الخاص وبصدد تكوين دولة ،ومن هنا ساد العتقاد فى التاريخ الاسلامى وحتى يومنا هذا (لدى التيارات الاسلامية عموما بان الاسلام :دين ودولة وان القران دستورها)وكذلك ساد الاعتقاد

في الشق الثاني من المقولة المذكورة أي: دولة ،يعني بأن الرسالة الإسلامية جاءت عقيدة دينية، ومشروعاً سياسياً منذ الانطلاقة الأولى، ومن ضمن هذا المشروع، الدعوة إلى الوحدانية في السماء، وعلى الأرض ففي السماء القول بالألوهية الواحدة المطلقة في مقابل أو (مواجهة) التعدد، والإشراك بالله، الواحد الأحد، ثم الوحدانية في الأمة، أي توحيد القبائل المتعددة وجعلها أمة واحدة، وبكلمة أوسع يمكن القول بأن الإسلام دين، ومشروع حضاري.وفى هذا السياق نشأمنذ بداية العصر الحديث الخلط الكبير بين الدين والعمل السياسى ،واصبح هذا الخلط اشكالية كبرى اعاقت التنمية السياسية العقلانية الى تقتضى العمل من اجل بناء انظمية سياسية حديثة تساير روح العصر و تمشيا مه التنوير والحداثة العقليين .

والواقع إن القرآن الكريم، وهو المرجع الأول، والأساسي والأصل في الدعوة الإسلامية الجديدة، ليس مرجعية سياسية، ولا هو كتاب في العلوم السياسية أو فلسفتها

إنه كتاب سماوي منزل على النبي محمد (ص) يشمل مما يشمله، دعوة إلى تنظيم حياة المؤمنين في دنياهم، ويدعوهم إلى العمل الدنيوي من أجل آخرتهم، وقد صرح القرآن الكريم علاوة على ذلك بأن الحاكم هو الله، والسلطة هي سلطة الله لا البشر.ولكن ليس بالضرورة بمعنى الحكم بالمضمون السياسى (سيما ان كلمة سياسة لم نصا بالمعنى الفنى).

(قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء)[179].ليس بمعنى الملكية السياسية ضرورة.

وكذلك قوله تعالى: (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون).هم (ألءك هم الفاسقون) (ألئك هم الظالمون) سورة المائدة 44و45 7 4 . ليس بمعنى الحكم السياسى كضرورة وحتمية .

والحكم هنا، مبدأ عام، يشمل السياسية الإلهية ،التي يجب أن تكون الهادية لحياة المسلمين، في الحكم والمجتمع والدولة.اى ان الحاكم فى المجتمع الاسلامى عليه ان يلتزم بالقيم الاسلامية كالعدل والرحمة والعدالة وباقى القيم الروحية والاخلاقية وهذا لايعنى ان القيادة والحكم يصدران من النص حرفا او كلمة وانا روحا وكل الحدود فى النص يمكن ان تتغير حسب مقتضيات العصر (انتم اعلم بامور دنياكم)كما قال النبى نفسه .

اما من ناحية اخرى ادرك المشركون ، وخصوم الدعوة من قبيلة قريش، و فهموا الدعوة الجديدة من خلال ما ظنوا أنها تهدد مصالحهم وبما تؤول إليه في حال انتصارها في مكة وما حولها.(فى الملك والاقتصاد)

ومهما يكن من أمر، فقد عملت العقيدة التي حمل لواءها النبي محمد (ص) ومنذ ظهورها على:

تكوين الجماعة الإسلامية الأولى، وتكوين سلوكها السياسي، والدعوة إلى وحدة الأمة، وإقامة كيان جديد (دولة).

كان الخطاب القرآني في المرحلة (المدنية) دعوة لتأسيس دولة المؤمنين، أي تكوين نواة جماعة إسلامية، وحيث تشكلت عند البداية من: المهاجرين، والأنصار، حيث قامت فيها وعليها الدولة الناشئة[180].

والواقع أن دور العقيدة في تكوين العقل والسلوك السياسيين في هذه المرحلة نلمسه أساساً عند الجماعة الإسلامية الأولى والتي كانت بالأصل والأساس جماعة روحية بمعنى أن الشيء الوحيد، والجوهري الذي كان يربط بين أفرادها هو: الإيمان بالله وبرسوله، وبما أوحي إليه، فالوحي والنبي (ص) هما مصدر: الفكر والسلوك السياسيين، وكذلك مصدر تكوين المخيال الاجتماعي والسياسي للجماعة الإسلامية الأولى.(وهذا مدرك ومفهوم فى اطاره التاريخى ،وفهم مؤثره التاريخى خطا فى العصور الحديثة).

وبلغة معاصرة لقد تم اشتباك بين العقيدة والسياسة فى بنية المجتمع الاسلامى الوليد والذى اسسه النبى وقد رسم النبى القيادة والسياسة من منطلقق عقيدى استخلصه بنفسه من الوحى (الشريعة والقانون وحدهما اللذين كانا فى حوزة النبى (ص)،ومن نشات فكرة عدم التمييز

بين سلطة دينية (سلطة النص الإلهي) وسلطة مدنية، وأن السلطة (القيادة السياسية)بحيث توجب أن تسند، وتستمد الثانية من الاولى اوتوماتيكيا ، ويجب منها أن تستمد مبادئها العامة، ولكن ما لم تستوعبه التيارات الاسلامية التقليدية مقالة النبى وابعادها والتى قالت (انتم اعلم بامور دنياكم)اى مراعاة الظروف والمستجدات وتغيرات الزمن، والدنيا والحياة.

إن إدارة المجتمع في الإسلام إدارة مدنية تقوم على أسس شرعية، والشرع هو: الإطار العام الذي يحدد منهج القيادة، وإدارة شؤون المجتمع وبكافة تفاصيل أموره.وخاصة بما يتعلق بالقيم الروحية التى ذكرنا بعضا منها سابقا .ولكن ساد الاعتقاد فيما بعد بان

السلطة والقرار في الإسلام، جزء لا يتجزأ من منهج إسلامي شرعي، وهذا المنهج هو النظام الشرعي ويتسع ليشمل مشروعاً متكاملاً يمس كافة مظاهر حياة الحضارة: علوم، معارف، فكر، ثقافة، سياسة مجتمع، وبعبارة أخرى يحفز الإسلام المسلمين لبناء حضارتهم الإسلامية بخصوصيتها العربية الإسلامية، والانتشار في المعمورة، وهو ما حصل في التاريخ بدءاً من تكوين الجماعة والدولة الناشئة وبناء وحدة الأمة على يد النبي – القائد.

أسس النظام السياسي في الإسلام: فى نظر اصحاب العمل السياسى الاسلامى.

يقوم النظام السياسي في الإسلام على تأمين المصالح الدنيوية الشرعية للمسلمين كافة، أو بلغة أخرى لأفراد الأمة الإسلامية، وعلى صيانة هذه المصالح، ولقد قام هذا النظام على:

1- الرسالة. رسالة الإسلام مع الدعوة إليها

2- القيم - والثوابت. الإسلامية

3- الرؤية المشتركة. للمسلمين

4- حتمية وجود قيادة سياسية تقود الأمة نحو تحقيق مصالح أبنائها.

وبالتالي الحفاظ على استقلاليتها الإسلامية تحفظ بغيتها وتصون دينها، فمن حيث الرسالة عملاً بقوله تعالى:

{يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط وشهداء لله، ولو على أنفسكم}(181).

{وما أرسلناك إلى كافة للناس، بشيراً ونذيراً، ولكن أكثر الناس لا يعلمون}(182).

{فاحكم بيهم، بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم، عما جاءك من الحق}(183).

أما بالنسبة إلى للثوابت، والقيم، فالعقيدة الإسلامية تضع: >الحياة الآخرة لتسموا على قيمة الحياة الدنيا، لأن: الآخرة خير، وأبقى< فيها:

{تجزي كل نفس بما تسعى}(184).

{إن هذا صراطي مستقيماً، فاتبعوه، ولا تتبعوا السبل، فتفرق بكم عن سبيله}(185).

ولله عاقبة الأمور.

إذ أن مطالب الحياة الآخرة (ملزمة) للمؤمن سواء كان فرداً أم جماعة، أم في مركز القيادة السياسية:

والرؤية المشتركة للمسلمين تقوم على إقامة الحياة المتوازنة بين مطالب الدنيا والآخرة بين المادة والروح، بين مطالب الحياة الدنيوية والحياة الدينية، وبين التفكير في اليوم كأننا نعيش أبداً والتفكير بالآخرة كأننا سنلقى يوم الحساب غداً.

وإن من مطالب الحياة الدنيا، تكوين الجماعة، والأمة، والدولة، ويجب أن تكون إدارة حاكمة منفذة لأوامر الله في عباده ترعى مصالحهم الدينية والدنيوية معاً، وتنفيذاً لقوله تعالى:

{يوم ندعو كل أناس بإمامهم}[186].

{ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير، يأمرون بالمعروف،وينهون عن المنكر، وأولئك هم المفلحون}[187].

{وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم}[188].

من الناحية النظرية، والعملية، يأخذ الإسلام في الحسبان الشريعة، والواقع، الدين والدنيا، وذلك ترسيماً للخصائص الشاملة التي يتصف بها النظام السياسي الإسلامي بوصفه نظاماً ينزع إلى:

العدل والحق في ممارسة السلطة والقيادة وفي: إدارة الأزمات والخصومات والاختلافات والصراعات، آخذاً بعين الاعتبار: اقتران الشريعة بالواقع، دون تطرف ومثالية مغرقة فى الفهم فهم والتطبيق، ودون انغماس في المقتضيات الدنيوية، وذلك وفقاً لما يأتي:

1- إن النظام السياسي في الإسلام له أساس قائم على الشريعة.(انظر كتاب العقيدة والشريع للمستشرق غولد تسيهر)

2- إن النظام السياسي يتمثل في وجود حكومة العلماء العارفين بفحوى المرجعين الأساسيين: القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة.

3- إن النظام السياسي الإسلامي لا يعرف نظام الطبقات، ولا يقر بنظام الوراثة في الحكم وتداول السلطة.

4- إن النظام السياسي لا يقيد المسلمين بنظام اجتماعي محدد وإنما يضع قواعد عامة على المسلمين الذين هم: أعلم بدنياهم تنظيم أمورهم.

5- إن جميع السلطات في النظام السياسي الإسلامي تعمل بطريقة متعاونة وير متنافر، لأن الوازع الديني يدعو إلى قيام ضمانات شرعية، وأخلاقية ضد: التعسف، والانحراف(189).

الإدارة النبوية للمجتمع الإسلامي الأول: محمد (ص) نبي، وقائد

كان العهد النبوي الشريف دينياً خالصاً، تسوده روحاً، وجسداً، العقيدة الإسلامية، يسير على هدى الرسالة آخذاً بثوابتها، وقيمها الروحية، وسنعمد في الصفحات التالية إلى استكشاف السلوك النبوي -كسلوك قيادي مالك لزمام إدارة شؤون الجماعة المسلمة التي تكونت حوله وقد مر هذا العهد بمرحلتين وسنتكلم عن بعض الأزمات التي واجهها النبي محمد (ْص)، وسنرى كيف أن سلوكه في القيادة لم يكن مستبداً ولا فردياً وإنما كان أساسه: الوحي القرآني وما كان يلهمه، ويوحي إليه الله تعالى في كل مناسبة، وكل حادثة وواقعة، وبالتالي لم تكن تنقص الرغبة في استشارة أصحابه في الأمور: المتشابهة أو التي لم يأتي بها نص صريح، إن المادة الخام التي سنعتمد عليها في هذه الآونة هي:

آ- القرآن الكريم، وتوجيهاته فيما يتعلق باختلافات المؤمنين، ونشوء أزمات فيما بينهم.

ب- السنة النبوية، من خلال السيرة النبوية برواية ابن إسحاق، وتسجيل ابن هشام.

ج- بعض الكتب التراثية الحجة.

د- بعض الاجتهادات الحديثة والمعاصرة في فهم طبيعة القيادة النبوية، وسلوكها في الإدارة بحيث لا تتعارض ولا تتنافر مع المرجعتين: القرآن، والسنة.

موجهات السلوك الأساسي المحمدي:

ثمة أربعة عناصر محركة توجه النبي في سلوكه العام وهي (استخلصها النبى من الوحى)

أولاً: الوحي القرآني الذي تلقاه في طور نشر الرسالة الجديدة، وتنفيذه لهذه التوجهات.

ثانياً: خبرة النبي الشخصية، كإنسان،وكنبي، وكونه قد تحلى بمكارم الأخلاق.

ثالثاً: قواه الفكرية المعتمدة على: الحدس، والإحساس الباطن، والفطرة السليمة ومخيال النبوة[190].

رابعاً: استئناسه بآراء واستشارات أصحابه حين تلم به، أو بهم نازلة أو بليه أو خطب، أو نكبة، وبعبارة أخرى حينما كان، أو كانوا يواجهون أزمة ما.

السلوك النبوي في معالجة الأزمات:

مرت الدعوة الإسلامية كما هو معروف بمرحلتين: الأولى مكية، فيها بدأ النبي يجهر بدعوته شيئاً، فشيئاً وكانت الآيات المكية تتصف بالحسم والإطلاق، والقصر في الجمل وتثبيت العقيدة مثل: التوحيد (الإخلاص) و(الناس) و(الكافرون) ثم المرحلة الثانية،وهي المدنية، وفيها تلقى النبي السور القرآنية التي اتصفت بالطول، في الآيات والسور، وتناولت أمور التنظيم، والإدارة لشؤون المجتمع والأمة، كأفراد، وجماعات ودولة، ثم الدعوة إلى أممية الإسلام، وعالميته، والسعي لنشر الدعوة خارج بطحاء مكة، وضواحيها، وخارج نطاق الجزيرة العربية.

1- **الأزمات المكية** (أ) السياق العام للمرحلة الديني والاقتصادي والسياسي، والاجتماعي والثقافي.

تخبرنا السيرة النبوية[191] أنه بينما كان محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هشام بن عبد مناف بن قصي، يتحنث (أو يتحنف من الحنيفية) أي يحاور، ويتعبد في غار حراء، قريباً من مكة كعادته (شهر في السنة) وكان ذلك مما تحدثت به قريش في الجاهلية إذا به ذات يوم وقد بلغ الأربعين من عمره، يسمع صوتاً هاتفاً، وكان نائماً يهتف به: اقرأ فيجيب النبي عن فوره: >ماذا أقرأ أو يجيبه: ما أنا بقارئ فيقول له الهاتف: {اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم، الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم}(سورة العلق: 1 – 5).

عندما انتهت هذه التجربة الأولى التي كانت شديدة عليه هب من نومه، وخرج من الغار إلى وسط الجبل، إذ يسمع صوتاً من السماء يقول: يا محمد: أنت رسول الله، وأنا جبريل

أخبر محمد زوجه (خديجة) بما حدثن فصدقته، وكانت أول من أمن به ثم شاع الخبر في مكة فكان من أهلها من تلقاه بنوع من التحفظ، وكان منهم من واجهه بسخرية، وازدراء، ثم قالوا عن محمد: إنه كاهن، أو ساحر، أو مجنون، فرد عليهم النبي وعلى لسان جبريل بآية القلم:

{ن، والقلم وما يسطرون،ما أنت بنعمة ربك بمجنون، وأن لك لأجر غير ممنون وإنك لعلى خلق عظيم ستبصر،ويبصرون بأيدكم المفتون، إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله، وهو أعلم بالمهتدين}[(192)].

2- **تحليل الموقف القرشي من الدعوة الجديـدة**، وتطور (الأزمة) بين النبي، وأبناء قبيلته:

لم يكن لدى قريش عند تلقيهم النبأ عوضاً عن محاولة التعرف على العقيدة الجديدة، وفهمها، واستيعابها من خلال ما سمعوا من الوحي، ومن الآيات القرآنية منه مباشرة أو ممن آمنوا به منذ البداية، سوى (المواجهة)، حيث بدأت هذه المواجهة (الأزمة) بالرفض القاطع، والواقع لم يكن هذه الموقف الرافض، ووصول الأمر إلى أزمة حقيقية بين النبي، وقبيلته مبنياً على فراغ ولم يكن موقف أهل مكة من الدعوة الجديدة بسيطاً أو عفوياً أو ساذجاً بل كان بصيراً بالعواقب والنتائج سلفاً وكان لهذا الموقف أسبابه القريبة والبعيدة.

أولاً: الموقف الفكري - الأيديولوجي الرافض للدعوة الإسلامية:

أ- دعا النبي محمد (ص) إلى عبادة إله واحد، وكانت دعوة النبي إلى الوحدانية الطلقة إلى عبادة إله واحد في سياق ديني قائم على الآلهة المتعددة واعتناق الوثنية، فجاءتها الدعوة الجديدة بمبدأ جديد، مخالف، تماماً، ومتعارض مع السياق الديني.

إن الله الواحد هو المبدأ الأسمى، وهو مقياس كل شيء.

كانت قريش وأهل مكة من حولها، يعبدون جميعاً آلهة متعددة رغم أنها كانت تقربهم إلى الله زلفى ولكنهم كانوا وثنيين، يشركون بالله، يعبدون الأصنام التي لا تضر، ولا تنفع، في هذه العبادة غاية العبث والسذاجة، فجاء النبي وطالبهم بهجرة عبادة آبائهم، وأجدادهم، وتقاليدهم التعبدية، وتقاليدهم (الفكرية) والسلوكية في الإيمان، فهذا السياق الثقافي الفكري، أيضاً جاء الني بمبادئ وبتقليد فكري – ثقافي نابع من إيمان جديد.

طلب منهم النبي التغيير، ولم يكن التغيير أمراً هيناً لقد استهجنوا أمر العقيدة، ورفضوها من حيث المبدأ، والهدف والغاية، والمرامي القريبة والبعيدة.

ب– كانت (الحياة الدنيا، أو العاجلة) هي الدعوة المناهضة التي أشهرها المشركون ضد النبي ودحضوا بها الإيمان الجديد، وقد عبر القرآن الكريم عن (عقيدتهم)، هذه بمجموعة من الآيات القرآنية ذكرنا (ذلك في الفصل الرابع من هذا الكتاب)، وتقوم هذه العقيدة كما عرفنا على أسس: وجدانية، عاطفية، بطانتها عبارات من قبيل: حب، إيثار، مودة الحياة الدنيا[193] ضد الوحدانية الهادفة في نهاية الأمر إلى الحياتين، الدنيا والآخرة.

إن الحياة الدنيا، وأمورها القريبة من شأن أهل مكة، وكانت الحياة الأرضية مثواهم الأخير ووجودهم، وفكرهم، وكانت اللحظة تسري في كيانهم جرياناً عزباً، فالآن، رحيقهم الإلهي، والتعلق بالزمن الحاضر حبهم الوحيد.

وكانت أشياؤهم أشياء العالم المحسوس ومطامحهم لا تعدو حب الواقع اليومي المعاش ولم يجدوا في ذلك أي سر مبين، لا شيء لهم سوى ما هو كائن أو حاضر، وما كان، فهو دليل على ما هو كائن، ولكن ما سيأتي في حياة أخرى أبدية هي دعوة للإيمان بأساطير الأولين[194].

كان النبي يدرك أن إيمان وثقافة، ومعرفة من حوله لا يتعدى الواقع، وعالم الشهادة وقد جاء الوحي المحمدي ليتحدث عن عالم الغيب، وعن الدنيا الآخرة، ووعودها المؤمنين الصادقين بالحياة الرغيدة والعيش الجميل، وسط الزهور والرياض، والحدائق الغناء وحيث الجنة التي تجري من تحتها الأنهار، ينعش أجواءها الحور العين، والنعيم المقيم.

ومع ذلك فقد كان أهل مكة في غيبوبة عن دعوة النبي إلى العالمين: عالم الغيب وعالم الشهادة وفضلوا أن يكونوا في حالة من العمى، والصمم، والبكم، لا يريدون فقه ما أراده النبي منهم ونشأ الموقف (الأزموي) بين الطرفين، ودعاه هذا الموقف إلى حدوث قطيعة وانفصال بين النبي، والمشركين، ذلك أن الدعوة الكافرة تقوم على الالتزام إزاء الحياة العاجلة أو الدنيا أو الحياة الأرضية بينما كانت دعوة النبي ذات بعدين: الأخذ بنصيب ما من الدنيا، والتفكير في الآخرة، فكان اللقاء بين الطرفين صعباً، والحوار أصعب، والتفاهم أشد عسراً، وانقطع التواصل،وذهب كل طرف بدعوته إلى حد بعيد: {قل يا أيها الكافرون، لا أعبد ما تعبدون، ولا أنت عابدون ما أعبد، ولا أنا عابد ما عبدتم، ولا أنتم عابدون ما أعبد، لكم دينكم ولي دين} (الكافرون: **195**).

ثانياً: السياق الاقتصادي ـ والبعد الاقتصادي:

رفض المشركون اعتناق الدين الجديد، والدعوة إلى عبادة الإله الواحد، وهجرة عبادة الأصنام، وكان هذا ظاهر الأمر أما باطنه أو دوافعه فكان يكمن في خوف هؤلاء وحذرهم من دعوة محمد (ص) لما تحتوي عليه من أبعاد خطيرة تعمل على قلب موازين القوى في مكة، ثم في الجزيرة العربية لاحقاً، وعلى قلب الأمور الحياتية رأساً على عقب لذلك شن هؤلاء هجوماً وطوراً (بالأزمة) أو اصطنعوا (الأزمة) ضد النبي، فكان منهم تجار قريش،ورجال الأعمال، ومن بينهم أولئك الذين كانوا يملكون زمام السلطة الاقتصادية، وإدارة شؤون الحج (السقاية، والرفادة، وكل ما يتعلق بالقادمين إلى البيت العتيق)، وكذلك التسوق، والتسويق في أسواق مكة.

ثالثاً: السياق السياسي:

أدرك المشركون البعد الديني السياسي بالإضافة إلى البعد المذكور أي الاقتصادي، للدعوة الجديدة وكان أحد أسباب المعارضة الرئيسية اعتقاد هؤلاء بأن النتيجة النهائية لدعوة محمد (ص) ولو كان احتمال نجاحها ضئيلاً هي: الإمساك بالإدارة السياسية، والإشراف على الشؤون الدينية[196].

وقعت واشتدت (الأزمة) بين النبي محمد (ص) والمشركين، وكان أطرافها هم:

1- النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) والذين آمنوا معه، وهم قلة في العدة والعدد.

2- المشركون، الرافضون للدعوة الجديدة، وهم أصحاب نفوذ، وسلطات متعددة.

أسلوب القيادة النبوية لإدارة الأزمة:

* المرجعية في إدارة الأزمة: الوحي القرآني الكريم.

* شخصية النبي بما تحمله من خبرة، وفطرة سليمة.

* أدرك النبي موقف الطرف الآخر من الدعوة، وهو الجانب المعرفي، وقد ألهمه الله معرفة بأيديولوجية المشركين، واعتمادهم مرجعية: حب الحياة الدنيا .

* دعا النبي المشركين إلى الحوار والتفكير في الرسالة الإلهية في الإيمان والعقيدة.

* التوسط، دخل عم النبي وسيطاً بين النبي والمشركين.

* دعوة النبي إلى كلمة سواء.

* رفض المشركون دعوة النبي،وطلبوا منه التنازل والتخلي عن دعوته.

* ترك النبي لهم مجال الحرية بأن يؤمنون، أو يظلوا على إيمانهم القديم شريطة أن يدعوه وشأنه.

وما كان من المشركين إلا أن اشتدوا في رفضهم، ونقدهم، وهجومهم على محمد والمستضعفين معه وتطورت الأزمة، لأن قريش أرادت أن ترد النبي عن دعوته، ويعود إلى سنن آبائه، ويعزف عن كلام الشعر والسحر والجن.

فقال النبي قولته الشهيرة لعمه أبو طالب >موجهاً إلى المشركين<: والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته قط.

كان موقف الرافضين داعياً للقطيعة، والانفصال العظيم، وكان موقفاً حاداً[197] و(أزمة شديدة) بين الطرفين، ولم يعد اللقاء ممكناً، وذهب المشركون يعدون العدة للمواجهة والصراع، وفي هذه المرحلة سننتقل مع النبي محمد (ﷺ) إلى المرحلة الثانية

واستعداد النبي للدفاع عن عقيدته، وعن المؤمنين معه، وانتقلت إدارة الأزمة إلى إدارة الصراع، وهو ما سنتناوله في الكتاب الثاني من عملنا هذا.

الأزمات المكية (ب): الحصار، وتفكيكه من قبل النبي بالبيعة:

حصار قريش للنبي، وصحبه:

أدرك النبي (ص) أنه صاحب مجموعة ضئيلة العدد من المؤمنين الذين حوله، والذين عاهدوه على الإيمان، وقد عرفت قريش هذا الوضع منحيث التوازن الذي كان لصالحها، فأقامت هذا الحصار، عندئذ واجه الرسول (ص) حصار قريش الاقتصادي، والمقاطعة القبلية، التي شملت ذويه وأشد المقربين له من بني هاشم، بالإضافة إلى جده (عبد المطلب)، واستمر الحصار مدة ثلاثة أعوام عقب وفاة زوجته (خديجة)، ووفاة عمه (أبو طالب).

1- فكر النبي في: هدي القرآن الكريم له، وحثه على تطبيق فكرة التعاون، وإيجاد من يعاضده، ويقف إلى جانبه في المواجهة.

2- عمل أولاً: التفاوض مع أهل الطائف فأراد هؤلاء المساومة.

3- رفض النبي المساومة على العقيدة، ورفض اقتراح بني عامر مقاسمته السلطة، وأمور الدعوة.

4- لجأ النبي إلى وسيلة: الصبر والانتظار في المواجهة، والإدارة، وقد تعلم من القرآن الكريم فضيلة الصبر، واستمر ذلك لمدة سنة تقريباً.

5- ثم أسلم خلال هذه السنة من حوله وكان عددهم لا يزيد على الاثنى عشر فرداً، وبايعوه، وسميت هذه بيعة العقبة الأولى.

6- تم وضع اللبنة من خلال هذه البيعة لعقد دستوري سيكون دعامة إقامة الدولة الإسلامية، بناء على دستور(198) وضعه النبي.

7- ثم كان الصبر أيضاً على الحصار إلى أن وصل موسم الحج في العام التالي.

8- وحيث أتم (بيعة العقبة الثاني) مع ثلاث وسبعين رجلاً وامرأتين من أهل يثرب.

9- تضمنت هذه البيعة: العمل على إقامة الشريعة، وتقديم العون، والنصرة، والحماية للرسول (ص)

10- تم استخلاص اثني عشر نقيباً يمثلون المبايعين أمام الرسول (ص)

*** الرأي والتوجيه.**

*** التنظيم.**

*** السمع والطاعة.**

*** عدم منازعة الأمر أهله.**

*** قبول الحق.**

*** عدم التفريط بواجبات الشريعة[199].**

الواقع لم تكن المقاطعة، والحصار شاملين فقد كانت هنالك ثغرات من خلالها عمل بعض أفراد القبائل على تقديم المساعدات وكانت تصل من بعض الأقارب من طعام، وشراب إلى النبي، وصحبه، وذلك انطلاقاً من مواقف قبلية وجدانية، لا دينية، فكان (عمرو بن ربيعة) من بني عامر بن لؤي وقد كان على الحياد فكان يعمل على إيصال الطعام كل ليلة[199].

انطلق النبي (ص) من هذه الأزمة، حيث كانت قريش منذ البداية في موقع القوة، عدة وعدداً، وقد تراجعت قريش بعض الشيء، وخرج النبي (ص) من المأزق، واضعاً منطلقات إقامة دولة إسلامية.

لقد أدار النبي القائد الأزمة دون إراقة دماء، ودون عنف، ودون مواجهة مباشرة وكل ما فعله أن استمر بدعوته محاولاً ضم عدد آخر ممن يرغب، ويدخل الإيمان إلى قلبه، ليعاضده، ويسانده، ويشد أزره، مدركاً النبي (ص) أن مواجهة الحصار يمكن أن تكون: بالتصميم، والإرادة والإصرار على التمسك بالعقيدة قولاً، وعملاً، وهو ما فعله، ولم يأبه لما يسمى بلغة اليوم بالحصار الاقتصادي، لأن المرحلة كانت مرحلة الإيمان بالعقيدة الجديدة، وتثبيت أركانها، وإعداد التنظيم، وكسب الأنصار، والتركيز على العنصر البشري.

لقد سلك النبي، أسلوب جديداً، ومضاداً لأسلوب قريش القائم على فكرة: حرمان العدو من أسباب العيش – وهي ترجمة الحصار الاقتصادي – للقضاء على أفكاره، وعقائد الآخرين، مع جهلهم: لقوة العقيدة، والإيمان واستحكامها في سيكولوجية النبي، والأسلوب الجديد كما لاحظنا منذ لحظات كان يقوم على التفاوض، وعدم المساومة، والتحمل والصبر، والاكتفاء بلقيمات ليقيم الفرد أوده، وتستمر حياته، ليواجه الأزمة ويقاوم، ويصبر، ويعاند في سبيل الإيمان.

والآن يمكننا أن نسأل ماذا نتج عن هذا الأسلوب في الإدارة النبوية؟ والجواب هو أن: البيعتين، حيث كانت الأولى المنطلق الفكري، والنظري والتجسيد الكامل لمعاني العقيدة، والثانية عبرت من المنطلق العملي، والممارسة، وترجمة العقيدة إلى عمل.

وكلتاهما أسهمتا في إنتاج مقومات العقيدة، وتأسيس الأصول وستترجم هذه النتائج في المرحلة التالية من إدارة الأزمات للقيادة النبوية في (يثرب)، حيث تم التسليم بأن:

1– الرسول (ص) هو نبي وقائد.

2– استجابة المبايعين له، وطاعتهم لواجبات العقيدة، وشريعة الله قولاً وعملاً.

3– تحول النبي بعد ذلك إلى المدينة، وفي إطار هاتين الأزمتين، كان النبي ينهج حسب عناصر ثلاثة:

أ– المفاوضات، ب– الحسابات، ج– الاحتياطات [200].

إدارة أزمة الهجرة إلى المدينة:

شعر النبي (ص) أن مكة ما زالت مكاناً غير آمن له ولصحبه، ولم يساعده، وضع مكة على ممارسة القيادة، ولا تأسيس الدولة، ولا ممارسة حرية نشر العقيدة ولا تطبيق نهجها في السياسة، والاقتصاد، حيث استمرت عداوة قريش، واشتدت أكثر من ذي قبل.

لقد استفاد النبي (ص) من ثمرات البيعتين اللتين ذكرنا قبل قليل وأراد استثمارهما في تشييد نظام إدارة شؤون الجماعة المسلمة حوله، ولم يكن الأمر سهلاً في مكة، إذا لم يكن ممكناً كما لم تكن تسمح له رجالات مكة[201] ممارسة هذه القيادة، وتسلم إدارة الشؤون المجتمعية، فوجد الحل، وقد تجسد في البحث عن البديل، فكانت (يثرب).

قرر النبي الهجرة إلى المدينة، وكان قد سبقه إليها عدد آخر من أصحابه، وعندما دخلها كانت فيها ثلاثة طوائف:

* المؤمنون: من مهاجرين، وأنصار.

* المشركون: من الأوس والخزرج، ومن لم يدخل الإيمان لديهم، وقد أشار القرآن الكريم إليهم بقوله أولئك الذين أسلموا ولم يدخل الإيمان إلى قلوبهم.

* اليهود وكانت قبائلهم متعددة(202).

مع الهجرة المدنية تنتهي مرحلة وتبتدئ مرحلة أخرى، حيث كانت المرحلة المكية مرحلة الدعوة والمواجهة مع الرافضين، ومع المرحلة المدنية فستكون مرحلة تأسيس الدولة، وإدارة الصراع (الحرب).

في المرحلة المدنية ستشق الدعوة المحمدية طريقها إلى بناء الدولة، وقد عملت القيادة السياسية في هذا الاتجاه بطريقتين متوازيتين: البناء الداخلي، وممارسة السياسة مع قريش وبوسائل أخرى، أي بأسلوب جديد في (إدارة الأزمات) وقد تدرجت هذه الأزمات في المرحلة المدنية وصولاً إلى المواجهة والصراع، واقتضى من النبي القائد نمطاً آخر من الإدارة أي: إدارة الصراع، وهو ما سنفصله في الفصول القادمة.

لقد كان في مقدمة المواجهات المدينة:

1- الحرب السيكولوجية.

2- ضرب المصالح.

وفي ضوء هذه المواجهة التي بدأت تسير نحو صالح الجماعة الإسلامية، بدأت قريش تجد نفسها مضطرة للاستسلام والدخول في الإسلام(203).

لقد وضعت القيادة النبوية السياسية أصولاً إضافية لممارسة الإدارة الجيدة للأزمات في هذه المرحلة، من هذه الأسس، وهي ذات سمات دينية وإنسانية:

1- الإخاء والمحبة، والاحترام بين أبناء المجتمع الإسلامي وهو في طور التكوين.

2– الإيثار والتخلص، من الشوائب والرواسب القديمة لدى البعض ممن اعتنق الدين الجديد.

3– التخلص من براثن: العصبية القبلية المنافية لتعاليم الإسلام، والشرائع الإنسانية وتنفي المذهبية والعرقية، والتطرف.

4– المساواة، والعدل بين المؤمنين.

هذه مجمل القواعد والمرجعيات الإضافية، وهي ذات أصول قرآنية، التي انطلق منها النبي (ص) في مرحلة الهجرة إلى المدنية وحيث تم التآخي بين (المهاجرين) و(الأنصار) كمرحلة أولى أو تطبيق أولى الخطوات لتجنب أزمة ما بين المهاجرين والأنصار.

وقد عبر (الأنصار) بلغة وجدانية حماسية، محببة وعاطفية أخوية مرحبة بالضيوف، منشدين: (طلع البد علينا) وبذلك اطمأن النبي، وصحبه حول ظروف العيش الجديدة له، ولأصحابه، والتي ستساعدهم جميعاً على التفرغ لمواجهة الأزمات الجديدة التي ستخلقها لهم (قريش).

زد على ذلك أن الاستقرار المعاش، أو العيش بالنسبة لعموم المسلمين قد حسم أمره من خلال نظام المؤاخاة، في البر، وحسن المعاملة، وقد حسمت أيضاً قضية التعايش بين المسلمين وغيره من المشركين، واليهود والموجودين في المدينة، من خلال صحيفة: الموادعة التي أصدرها النبي محمد (ص).

وكانت العلاقات تنظم لجميع فصائل المدينة في: في الحرب، والسلم، وما يتعلق بالأمن، والقضاء، وكانت المؤاخاة الواردة في الصحيفة تشكيلاً للنظام المركزي للحكم النبوي وتعتبر صحيفة الموادعة[204] أول وثيقة دستورية قانونية ذات مرجعية شرعية إسلامية، تنظم أعمال المجتمع في إطار الالتزام المشروع تحت مظلة الحكم الشرعي، وقد جاء في المادة(14) فيما يتعلق بإدارة الخصومات (الأزمات)، والصراعات ما يلي:

ما كان من حدث بين أهل هذه الصحيفة، واشتجار يخاف فساده، فإن مرده إلى تعالى، وإلى محمد (ص)[205] ومعنى مرده إلى الله أي الرجوع إلى كتاب الله، وسنة نبيه.

ولقد حددت الوثيقة مبادئ صريحة في العدل، والحق والمساواة كأسس معتمدة في إدارة المصالح الشرعية، ومصالح (المواطنين) والرعية في عموم المدينة.

وبعبارة أخرى أنها، قواعد لإدارة الأزمات، بالإضافة إلى القواعد العلمية، أو أسس الإدارة العلمية لإدارة الأزمات التي ذكرت في الفصل الأول من الكتاب.

ولقد توصل النبي محمد (ص) من خلال معايشته، وإدارته لأزمات المرحلة إلى قاعدتين حول الفصل في المنازعات والتظلمات، وهما:

أ- تجنب الأزمات قبل وقوعها.

ب- عند حدوثها.

أ- إدارة تجنب الأزمات:

كانت القضية الأولى التي واجهها النبي عندما تمت له المؤاخاة بين المهاجرين، والأنصار هي: كيفية تنظيم شؤون المهاجرين؟ وإدارة أمورهم اليومية في المدينة، والحفاظ على استمرارية روح الإخاء بين المهاجرين والأنصار: وهذه في الواقع قضية وليست أزمة بالمعنى الفني، ولكن نعتقد أن النبي محمد (ص) قد فكر منذ البداية الانشغال فيها تجنباً لوقوع الأزمة بينهم لاسيما، وإن هؤلاء جميعاً، هم بشر، والبشر في علاقاتهم الإنسانية وتواصلهم المشترك، وعيشهم جنياً إلى جنب تتوفر لديهم فرص الاحتكاك اليومي ونشوء بعض الاختلافات حول أشياء الحياة اليومية، وبالتالي وقوع أزمات صغرى وقد تتطور لأن تصبح أزمات يقتضي الوقوف عندها، والنظر فيها كذلك عمد النبي، ومنذ البداية كما قلنا على تدبر الأمر، ودليل ذلك أن أول خطبة له ألقاها بعد وصوله إلى المدينة كان قد خصصها كلها لهذا الموضوع، حيث قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه... أما بعد فأيها الناس، فقدموا لأنفسكم تعلمن، والله، ليصعقن أحدكم ثم ليدعن غنمه لها راع، ثم ليقولن له ربه، وليس له ترجمان، ولا حاجب يحجبه دونه، ألم يأتك رسولي فبلغك، وآتيتك مالا، وأفضلت عليك، فما قد قدمت لنفسك؟ فلينظرن يميناً وشمالاً، فلا يرى شيئاً، ثم لينظر قدامه، فلا يرى غير جهنم، فمن استطاع أن يقي وجهه من النار، ولو بشق من تمرة فليفعل، ومن لم يجد فبكلمة طيبة، فإن بها تجزي الحسنة أمثالها إلى سبعمائة ضعف... والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته[205].

هذه دعوة واضحة إلى: التضامن، والتكافل بين جمع المسلمين بين (المهاجرين) و(الأنصار) وكانت المؤخاة على: الحق، والمساواة، والأخوة في الدين، تقوم هنا مقام الأخوة في النسب وبذلك حلت (الأمة) و(الملة) محل القبيلة، والعشيرة[206].

الحق والمساواة، والأخوة، والتكافل والتضامن في الدين تلك هي الأسس التي يدير بناء عليها النبي شؤون المجتمع، وهي كلها منبثقة من القرآن الكريم، وكذلك إنها الأسس التي يدير بناء عليها الأزمات التي تقع، أو المتوقعة، وتجنبها قبل وقوعها.

تعكس هذه الخطبة، إذن تماماً التوجهات المحمدية بانسجام كامل مع الوحي الإلهي ل–: استدراك الأمور، والبصيرة النافذة، والتحرك للعمل في هذه الاتجاهات، وبعبارة أخرى كان النبي، والقائد يرى استباق الأمور، والتفكير في الحلول قبل أن تزحف، ويقع في إسارها، وكي لا تداهمه الحيرة، أو يصاب بالتردد.

ذلك فيما يتعلق بشؤون الحياة العاجلة، أو بتعبير اليوم: أمور الحياة اليومية والعيش اليومي بين أبناء المجتمع، أو أفراد الأمة.

والقضية الثانية التي تفرعت في الواقع عن الأولى، وهي: مسألة التعايش[207] بين مختلف الفئات التي أصبحت تقطن المدينة، إذ أنه وبدون نظام ما أو (إدارة) تضمن التعايش السلمي، بل التعاون، يصعب القيام بالمهمة التي من أجله تمت الهجرة إلى المدينة، وقد ذكرت (الصحيفة)، ومع المعاهدة التي كتبها النبي (ص) بين المهاجرين والأنصار، واليهود حيث أقر النبي اليهود على دينهم، وأموالهم، واشترط عليهم[208] في الصحيفة. معتبرا أن في الصحيفة الأساس أو معاهدة للتوافق بعدم حصول الأزمات، أو نشوب الاختلافات أو ظهور بوادر الصراع، ولقد نصت المعاهدة على شروط اتفاق بين: المؤمنين، والمسلمين من قريش، في يثرب، ومن لحق بهم، والطرف الثاني، وهم: اليهود، والمشركون، ومما نصت عليه هذه المعاهدة: تحريم الاقتتال (الصراع).

ولعل النقطة المهمة في هذه المعاهدة والتي شكلت الإطار الخاص بإدارة ما نسميه مرحلة: ما قبل الأزمة، وهي تحديد المرجعية.

فتقرر الصحيفة أن المرجع في الخلاف هو الوحي المحمدي، والنبي نفسه سواء كان الخلاف بين المسلمين بعضهم مع بعض، أو بين هؤلاء ولليهود، وهكذا فالخطاب المرجعي يتوجه بالقول: وإنكم مهما اختلفتم في شيء فإن مرده إلى: الله عز وجل وإلى نبيه محمد (ص)[209].

نفهم من الصحيفة المذكورة، شكلاً، ومضموناً أن النبي هو صانع المعاهدة، ومستبقاً كثير من الأمور لإدراكه الطبيعة البشرية، واستعدادها للتنازع، والخلاف، والصراع، ومع كل ذلك فقد أصرت قريش على البقاء مشركة، والاحتفاظ بموقفها، بإصرار وعناد، والدفاع عن آلهتها (وعن مصالحها) وهو موقف لم يتبدل، ولم يتغير منذ بداية الدعوة الإسلامية لأسباب كثيرة أهمها:

1- عدم اقتناع قريش بالتغير الحاصل حولها، وعدم إدراكها نشوء حالة جديدة، وعدم القدرة على تغيير الحالة الذهنية، والتنبؤ بمستقبل الدعوة الجديدة، وإمكانية اتساعها، وانتشارها، واعتناق الناس لها بالصورة التي حصلت فيما بعد على يد النبي، ومن جاء بعده من خلفائه.

2- إن رياح التغيير قد هبت ساخنة على سماء مكة منذ أن أعلن النبي محمد الدعوة وهو أمر لم يُرد أهل مكة قبوله، لأسباب أخرى ذكرنا أهمها في الأوراق السابقة.

3- المواقف القبلية، أو السلوك القبلي الذي يأبى عادة التراجع بواقع العصبية والكبرياء والأنفة وعدم توفر الليونة، والإدراك السريع لمستجدات الأمور.

4- إن السلوك القبلي مبنى أساساً على: التناحر والتآزر الآليين، خاصة وأن النبي جاء ليزيح النعرات، والعصبيات القبلية جانباً، وإحلال محلهما: الانفتاح على عالم الروح إن صح التعبير.

5- الدوافع الاقتصادية، والسياسية التي ألمحنا إليها سابقاً.

وبناء على هذه المواقف سيخرج المشركون من قريش إلى المرحلة التالية: المواجهة المباشرة، والدخول في الصراع، وفتح أبواب المعارك والحرب، مما دعا المؤمنين إلى اتخاذ موقف الدفاع عن النفس، أما اليهود (بنو قريظة، وقينقاع) فقد نقضوا المعاهدة، وأقاموا تحالفاً بينهم، وبين أبي سفيان.

ب - إدارة (التظلمات - الأزمات):

عقد النبي العزم على ممارسة: الحكم والقيادة وتحمل مسؤولية المهام الدينية، والمدنية، وبعبارة ثانية العمل مباشرة على إدارة شؤون الجماعة الإسلامية في البيئة المدنية (يثرب) الجديدة، مدركاً في الوقت نفسه أهمية استجماع كافة الإمكانات البشرية والمادية لتسيير أمور الحياة اليومية للمؤمنين بدءاً من أمور العيش اليومي والعبادات والمعاملات، وانتهاء بالاستعداد للدفاع عن النفس ضد المناوئين لدعوته (المشركون – اليهود)، وبعبارة أخرى: تهيئة النفوس للمواجهة والاستعداد لصد الهجوم، وحماية المسلمين في أعراضهم، ومالهم، وذلك عندما يأذن الله للمسلمين القتال[210].

ولحماية عقيدتهم أولاً وأخيراً، وليس هواية، ولا حباً بالصراع، والقتال، والحرب، لم تكن عند النبي غاية بل وسيلة أولاً لحماية النفس ضد عدوان خارجي، خاصة أن الله لا يحب المعتدين وثانياً للتمكن من نشر الدعوة لمن يرغب اعتناقها، لأن النبي أدرك أن الدعوة الإسلامية جاءت، ومن بين أهدافها تخليص الناس من عبادة الطاغوت، وتخليصهم من إسار عبودية الحياة الدنيا.

إن معالجة الأزمات عند النبي كان هدفها: استمرار حالة الأمن الأهلي، وإيجاد علاقات اجتماعية تقوم على أساس من الأخوة الدينية، وتطبيق العدل الإلهي[211] وكما تنقص عليه المرجعية القرآنية.

لقد أوجد النبي جهازاً لتنفيذ هذه السياسة تقوم على العناصر أو المقومات التالية:

1– وظيفة ترعى بالمساندة (المشاورة) مع أصحابه من المهاجرين والأنصار في كل الأمور التي لم ينص عليها القرآن الكريم.

2– وظائف خاصة به كنبي يواصل الدعوة ونشر رسالته، وكقائد سياسي يشرف بنفسه على أداء من حوله وممن كلفهم الأمور الحياتية.

3– في السير النبوية أمثلة كثيرة حول (فض) النبي للمنازعات والخلافات الأزموية الصغيرة على صعيد الحياة الفردية من قبل المؤمنين الذين واجهوا أزمات عارضة سوء في أسلوب التعامل اليومي، في العبادات، وعن صعيد الأمور الشخصية والحياة الاجتماعية:

وكان السلوك العام للقيادة النبوية والسلوك السياسي كمظهر من مظاهر كل ذلك كان مرجعه الوحي القرآني المنزل وفي الوقت نفسه عندما كانت تستغلق على النبي بعض الأمور التي لم يأت فيها نص يقول لأصحابه: أشيروا علي.

إن مستخلص القول في شخصية النبي محمد: كنبي، وكقائد، أنه كان ولا يزال أهم حدث اتسم بالتفرد في حدثه، وقائعه في التاريخ العربي – الإسلامي، كما رأى بعض مؤرخي الغرب وأن تفرد هذا الحدث، وأصالته أن الرسالة السماوية التي دعا إليها النبي، قد اخترقت آفاق الدنيا القديمة، وما تزال مصدر قوة، واتساع، وشمولية، لتغطي ثلث الدنيا المعاصرة مساحة وسكاناً، وهو ما يسمى بالعالم الإسلامي، ولعل الفكرة الأساسية في معرض عملنا هنا، وهي التي تمس طبيعة العمل القيادي، والسلوك السياسي وتطورها ليشمل العهدين: المحمدي، والراشدي، بحيث يمكن اعتبار هذه الفترة، أو هذين العهدين: المحمدي والراشدي، حقبة زمنية استثنائية، متميزة، تبلورت فيها أنماط السلوك العام: الديني والدنيوي (السياسي)، وحيث تركت الأثر العميق في الأجيال اللاحقة.

لقد كانت حقبة مهمة في تاريخ: السلوك السياسي، وكانت نتاج تفاعل عدة قوى مؤثرة تفاعلت فيها: أنماط الحياة القبلية مع شخصية النبي وسنته، آثاره، والأفكار الإسلامية[212] وقد امتزجت جميع العناصر السابقة الطبيعة البشرية للقوم الذين اعتنقوا الدين الجديد، وعاشوا تلك الحقبة.

ولقد تركت هذه الحقبة نوعاً من الاستمرارية في كل المجتمعات الإسلامية، وهي تعكس ما اشرأبت، وما تشرئب إليه نفوس المسلمين جميعاً جاعلة من النبي – القائد قدوة، ولكن يقتضي القول بأن العقيدة الإسلامية بالإضافة إلى العوامل الأخرى الرئيسية من قبيل: التقاليد العربية لمرحلة ما قبل الإسلام، وطبائع الناس، مثل ميلهم إلى الاختلاف والخلاف، وحب الرياسة، والصراعات، وما ذكرنا في الفصل الرابع من: إيثار الحياة العاجلة: و(العوامل الشخصية) موجودة آثارها في اللاشعور الفردي والجمعي، وهذا الخليط المعقد، والمتشابك الذي عمل على تكوين الشخصية العربية الإسلامية قد تفاعل كله في:

أ- إدارة الأزمات، وإدارة الصراعات، وحلها:

سنرى آثار هذه الحقبة المحمدية واضحة وجلية في سلوك أصحاب النبي الذين تولوا الخلافة وقيادة الأمور بعد وفاته (ص) أعني الخلافة الراشدة، وسنرى أن التواصل بين هذا النموذج النبوي القيادي سينقطع منذ الفتنة الكبرى، وأن إدارة الأمور والأزمات والصراعات ستأخذ أشكالاً، ومضامين مختلفة كامل الاختلاف.

ب - تجربة الخلفاء الراشدين في التدبير السياسي ومعالجة الأزمات:

مقدمة: توفي النبي (ص) في السنة الحادية عشرة للهجرة (622م)، ولم يترك وصية شفهية أو مكتوبة بتعيين شخص ما خلفية له، أو يؤم المسلمين في المسجد،(ليس بين ايدينا وثيقة تاريخية مكتوبة من قبل النبى او باملائه لها من المصداقية الكاملة بحيث نتاكد منها انها وصية النبى لمن سياتى مباشرة بعده لتولى الخلافة) وقد واجه المسلمون بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى أمراً صعباً [213] أو أزمة، هي ليست بالمحنة، ولا بالنازلة، ولا بالكارثة بل إنها مسألة سياسية اجتماعية تدور حول سؤال والذي اتخذ طابع أزمة، وهو: من سيخلف الرسول (ص) بعد وفاته لتسيير أمور المسلمين، ويعمل على حراسة الدين، ويسوس الناس بعده؟ وبعبارة ثانية، تساءل المسلمون، وخاصة أصحاب النبي الذين كانوا معه السؤال بصيغة أخرى: من سيتولى خلافة الرسول بعد وفاته، وأي من أصحاب ورفاق دربه من هو أحق بالخلافة؟ من هو الذي سينال لقب الخليفة، أو الإمام؟ وهل سيكون الباب مفتوحاً أمام جميع أفراد الأمة ليختاروا من يتولى الخلافة، أم سيكون مفتوحاً فقط أمام أبناء بني هاشم حصراً؟[204].

وسرعان ما اجتمع الأنصار تحت سقيفة (بني ساعدة) ثم لحق بهم كبار المهاجرين، ودارت مناقشات مطولة، ومحاجات لم تخل من سخونة بين المتناقشين، وهو مظهر من مظاهر بروز الأزمة، إذ أنها تبدأ أولاً بخلافات في وجهات النظر، وخلافات في الآراء، ولكن الأمر، ولحسن الحظ لم يتعد الاختلاف في الرأي حيث أسفر عن وجود أربعة مواقف أو تيارات.

إذن أديرت الأزمة بالنقاش، وتبادل الآراء، والحوار بين التيارات الأربعة على النحو التالي:

1- الاتجـاه الأول: ويمثله أنصار المدينة بزعامة (سعد بن عبادة) الذي دعا إلى أحقية الأنصار في خلافة النبي (ص) لما لهم من سابقة في الدين، وفضيلة في الإسلام وقد توفي الرسول (ص) وهو راض عنهم.

2- الاتجاه الثـاني، ويمثله مهاجرو مكة إلى المدينة بزعامة (أبي بكر) الذي دعا إلى أحقية المهاجرين وذلك بالنظر إلى سبقهم في صحبة النبي، وأن المهاجرين من مكة ومن قريش هم أحق بتوليهم الخلافة، والنهوض بالأمر.

3- الاتجـاه الثالـث، ويمثله بعض الأنصار بزعامة (الحباب بن المنذر) الذي دعا إلى المشاركة في الحكم، قائلاً للمجتمعين: منا أمير ومنكم أمير، كتسوية بين الأطراف من المهاجرين والأنصار وأنهم أحق من غيرهم بهذا الأمر.

4- الاتجاه الرابع، ويمثله بنو هاشم بزعامة العباس عم الرسول (ص) وعلي بن أبي طالب، ذلك من خلال صلة القرابة مع الرسول (ؐ) وأنهم أحق من غيرهم للتكفل بالحكم، وتولي شؤون المسلمين[215].

قدم كل تيار عرضه لتسوية الأزمة، وكل تيار وجد نفسه أنه الأفضل والأحق في تسلم زمام السلطة وتوليه أمور المسلمين.

لقد تجسدت خطوات إدارة هذه الأزمة كالتالي:

1- عرض المسألة - المشكلة - تحديدها: خلافة النبي في توليه أمور المسلمين بعد وفاته.

2- البدء بالحوار، والنقاش، والمحاجات الكلامية، وعرض وجهات النظر والتدليل على مشروعيتها.

3- عرض كل تيار تسوية (البدائل - الحلول) للأزمة المعالجة.

4- حصول الإجماع على مبايعة أبي بكر الصديق ليكون أول خليفة للرسول (ص) للدولة الإسلامية بعد وفاة الرسول، وقد شكل هذا الإجماع[216] الفكري قاعدة للمبايعة، والتي ستتم المبايعة فيما بعد من قبل أهل الحل والعقد، للخليفة الجديد.

ولقد تمت هذه المبايعة لأبي بكر لأسباب عدة أهمها:

*كون الصديق الرفيق الدائم والخليل المفضل رفيق النبي في دروب الحياة، والدعوة وقد جاء ذكر صداقته في القرآن الكريم في الآية: {فهو ثاني اثنين إذ هما في الغار}(217) وهذه حجة قوية تدعم توليته الخلافة.

*كان أبو بكر الصديق يؤم المسلمين في الصلاة وبطلب من النبي (ص) أحياناً(218).

* ثباته ووضوح مواقفه الداعمة للرسول في جميع الحالات والظروف.

والواقع استطاع أبو بكر (كموقف شخصي) في اجتماع السقيفة إظهار شخصيته، وحيث عمل جاهداً على السيطرة على وضع أزموي كان ينذر بالعاصفة وبأسوأ العواقب(218).

ويعلق الدكتور (الجابري) على اجتماع السقيفة قائلاً، نخلص مما تقدم (المناقشات التي دارت في (السقيفة) إلى النتيجة التالية وهي أن ما روي حول موقف (علي بن أبي طالب) من بيعة أبي بكر (أي تحفظه) يعبر عن واقع تاريخي فعلي، ذلك أن تلك الروايات إما أن تروى بأمانة حول ما جرى من اتصالات: ونقاش، وسجال، وإما أنها تجتهد في تقديم شريط للأحداث كما يمكن أن يكون قد حصل بالفعل، وفي كلتا الحالتين، يجد المرء نفسه أمام الحقيقة التالية وهي: أن المرجعية التي حكمت الكيفية التي جرت فيها الأمور (أو أديرت فيها الأزمة) عند بيعة ابي بكر خليفة النبي – إنما كانت: الكلمة الأولى والأخيرة لمنطق القبيلة(220).

لقد حاول الأنصار الانفراد بالأمر دون المهاجرين، ولكن التناقضات القبلية الداخلية مزقت من وحدتهم، وأضعفت موقفهم، فصار الأمر إلى المهاجرين عند ذلك بايعت الأغلبية من الأنصار المهاجرين أبي بكر لا بسبب مركزه في الإسلام فحسب، بل أيضاً بفعل اعتبارات قبلية حيث كانت القبائل القوية هي في صدارة المتناقشين والمتداولين للأمر، وكانت القبائل الصغيرة والضعيفة متوارية، أو أنها لم يكن بإمكانها الصعود بقوة وإظهار الموقف، غير أن القبائل القوية في مثل هذه الأمور تكون متعادلة، القوى.

إضافة لذلك فإن خبرة الصديق في مجال السياسة في إطار القبيلة قد دخل في الاعتبار[221] لا أدري لماذا يهمل الدكتور (الجابري) العوامل الدينية (القرآن الكريم) كمرجع مهم في توليه الخلافة وقد يطرح القارئ السؤال المشروع في هذه المعمعة من المداولات في السقيفة وهو: أي العوامل كان الأظهر: الدينية أم القبلية، قد لعب الدور الأكبر في القبول بخلافة الصديق.

يميل الدكتور في النتيجة إلى تفسير أزمة الخلافة، وإدارتها إلى تفضيل سبب واحد وترجيحه، وهو: العمل القبلي، يقول أن النتيجة التي تفرض نفسها هي أن الصحابة عالجوا أزمة الخلافة معالجة سياسية محضة، وكان المنطق السائد هو: منطق القبيلة، بمعنى أنه لم يكن لا العقيدة، ولا الغنيمة (العامل الاقتصادي) هما اللذان يستحقان الذكر في وجهات النظر، وهو يدعم قوله هذا بقول أبي بكر: لا تدين العرب لهذا لقريش، وقول النبي: الأئمة من قريش[222].

يصعب علينا قبول تفسير الأزمة بسبب واحد وترجيحه، ونميل إلى تفسير هذه الأزمة أو تحليلها بالأسباب الأربعة التي ذكرنا سابقاً، وربما لأكثر منها ولا ننكر أهمية التوتر: الديني – القبلي الذي سيستمر طوال فترات التاريخ الإسلامي السياسي، وظهور رواسبه وبقاياه في عصرنا الحالي، وآثاره الجانبية.

نتائج تسوية الأزمة:

أسهمت مختلف الاتجاهات، والمناقشات في السقيفة في بروز السبل التي حددت منهجية نظام الحكم في الإسلام، حيث أخذت تتجسد في عهد الراشدين، خاصة المرحلة الأولى (عهد الشيخين) وحيث تبلورت في ضوئها الكيفية التي يمكن للخلافة الإسلامية أن تقوم، وتنهض من خلال: الوسط الاجتماعي، والسياسي للأمة والجماعة الإسلامية، وهذه السبل هي:

أ– التشاور (الشورى) الداعية إلى المناقشة والاستشارة، وتداول الرأي في مسألة الحكم، ووضعها على بساط البحث، والإدلاء بمختلف وجهات النظر، والحجج، واختيار أصلحها لمصلحة الجماعة الإسلامية، ومن الطبيعي أن تظهر قوى مختلفة وأشدها تأثيراً ولعوامل عدة في ساحة النقاش ولكن هذه القوى أيضاً تخضع لمنطق

الجدل والنقاش، دون أن يظهر من يستبد بالحكم، خاصة، أو ظهور قوة رجل واحد أو مجموعة صغيرة واحدة تفرض سلطتها بالإكراه.

ب- الاختيار، والانتخاب، ويقومان على ترشيح كل القوى الموجودة على الساحة من تراه الأصلح لتولي مهمة الحكم، دون تطرف أو مغالاة.

ج- البيعة (قاعدة شعبية) وهي ترجمة لموافقة الجمهور على من سيحكمه، ويقدم له البيعة والعهد بالطاعة من خلال التوافق (المصافحة) بين الحاكم والمحكومين، إنها شكل من أشكال العقد السياسي ولكن بمرجعية شرعية[223].

وبكلمة أخيرة لقد كانت إدارة الأزمة في السقيفة موفقة[224] ولكنها تركت بعض الآثار الجانبية (او ما نتج عنها من تداعيات-اثار جانبية- ستظهر فيها بعد.

نذكر القارئ الكريم بأن تداول الحكم الراشدي، زمنياً قد تم على الشكل التالي:

1- حكم الخليفة الأول: أبو بكر الصديق (11 - 13هـ-) (632 - 634م).

2- حكم الخليفة الثاني: عمر بن الخطاب (13 - 23هـ-) (634 - 644م).

3- حكم الخليفة الثالث: عثمان بن عفان (24 - 35هـ-) (645 - 656م).

4- حكم الخليفة الرابع: علي بن أبي طالب (35 - 40هـ-) (656 - 661م).

5- الخليفة: الحسن بن علي بن أبي طالب لفترة ستة أشهر، وبضعة أيام السنة الهجرية (41هـ-) من خلافة أبيه قبل تنازله عن الحكم لمعاوية بن أبي سفيان.

الشيخان: (1) أبو بكر الصديق (رضي الله عنه)، (2) عمر بن الخطاب (رضي الله عنه):

1- توفي النبي (ص) كما قلنا، وتولى أبو بكر الخلافة، وكان يقول لأصحابه لست بالأمير، ولست بالملك ولست بالحاكم إنما أنا خليفة رسول الله ، ولكن ومنذ بداية المر في هذه الخلافة،وبدأت تظهر الآثار الجانبية لاجتماع السقيفة، أعني: ظهور النزعات المكبوتة لتؤكد عناصر الانقسام قوتها، فباتت أول ظاهرة للاصطدام بين التيارين: الديني الإسلامي - القبلي بشكل عنيف، وجارف وستتأجج هذه التوترات

لتصبح صراعاً مكشوفاً تحت مسمى: حروب الردة، ولكن قبل الحديث عن الأزمة الكبرى ومعالجة الصديق إدارة أزمتها، والصراع ضدها، علينا أن نذكر أن أول أزمة واجهها الصديق كانت واقعة وفاة النبي ذاتها، حيث أنكر بعض المسلمين حادثة الوفاة، ولم يصدقوا الواقعة، ومنهم من اعتبر أنه في حل من هذه العقيدة بعد وفاة الرسول لأنه صاحبها، حيث انتهت العقيدة مع صاحبها! ولم يدرك هؤلاء أبعد من ذلك، لذلك انبرى الصديق لإدارة هذه الأزمة شخصياً وبشكل مباشر وحاسم للأمر عندما قال: من كان يعبد محمداً، فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد الله، فإن الله حي لا يموت، وكان لسان حال الصديق يقول لهؤلاء أعيدوا النظر في موقفكم أيها المستنكفون، المتراجعون عن إيمانكم، أو ارحلوا عني، فإن الله غني عن العالمين.

وحاصل القول لقد واجه الصديق مجموعة من الأزمات منذ تولي الخلافة، وهي مرتبة على النحو التالي:

1- أزمة في الولاء السياسي.

2- ظهور النزعات المكبوتة بحدة كالانقسامات القبلية.

3- عودة العصبية القبلية.

4- رغبة البعض في إنهاء هيمنة المدينة بعد المعاهدات التي كان النبي (ص) قد عقدها قبل وفاته.

5- الذين عادوا عن إيمانهم بالرسالة المحمدية بعد وفاة النبي.

المعارضة، ومن تحفظ على خلافة أبي بكر منذ البداية[225] هذه أنماط الأزمات التي ظهرت في الفترة الضئيلة من حكم الرجل، وسنرى في الكتاب الثاني إدارة الصديق للصراع ضد المرتدين وسنقتصر هنا على نمط إدارته للأزمات، بالمعنى المحدود للأزمة.

فمن حيث الولاء، يبدو أن قبائل عربية بدخولها الإسلام تصورت أنها تقدم ولاءها السياسي للرسول، لم يكن لديها المفهوم الواضح للرسالة الإسلامية، وأبعادها الإيمانية، وكونها رسالة سماوية، بل فهمت هذه القبائل دعوة النبي الدينية بعقلية قبلية تتطلب تقديم الولاء للنبي على أنه زعيم سياسي جديد قدمت ولاءها له وقد برز ذلك بوضوح تام

بعد أن سجل النبي (ص) انتصاراته واتسع نطاق دعوته، وبدأت قوى المؤمنين تجتمع حوله، فجاءته القبائل وقدمت له الولاء، واعتبرت ذلك ولاء شخصياً بحسب التقليد القبلي، وقد انتهى مفعول هذا الولاء بوفاة النبي (ص) كذلك القبائل الموافقة على المعاهدة أن لا ضرورة للاستمرار في تطبيق هذه المعاهدة بعد وفاة الرسول (ص) لذلك بعد وفاة النبي، لم تر هذه القبائل أي مبرر للخضوع لأبي بكر، وقد قال أحد شعرائهم:

أطعنا رسول الله ما كان بيننا   فيا لعباد الله ما لأبي بكر
أيورثنا بكرا إذا مات بعده   وتلك لعمر الله قاصمة الظهر[226]

كذلك ظهر سلوك قبلي عبر عنه، بالعصبية القبلية تمثل في رغبة القبيلة عن الخضوع لسلطة خارجية، والاستمرار في دفع الزكاة، من أمثلة ذلك ما فعله (عيينه بن حصن) زعيم (غطفان) حيث قام في قومه، وقال: ما أعرف حدود غطفان منذ انقطع ما بيننا، وبين أسد، وإني لمجدد الحلف الذي كان بيننا في القديم، ومتابعة طليحة، والله لأن نتبع نبياً من الحليفين أحب إلينا من أن نتبع نبياً من قريش، وقد مات محمد، وبقي طلحة حطاً بقوة على رأسه.

زد على ذلك أن قبائل أخرى لم تخضع سياسياً ولا دينياً للرسول مثل بعض قبائل اليمامة ف-(مسيلمة الكذاب)، مثلاً طلب من الرسول وفي حياته أن يشاركه في النبوة، أو أن يقتسم السلطة معه فكتب إلى الرسول: من مسيلمة رسول الله، أما بعد فإني قد أشركت في الأمر معك، وأنه لنا نصف الأرض، ولقريش نصف الآخر، ولكن قريشاً قوم يعتدون.

فأجابه الرسول (ص): بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب: السلام على من اتبع الهدى، أما بعد فإن الأرض لله يرثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين[228].

والآن لنر كيف عالج أبو بكر هذا الواقع الجديد، والمتأزم؟

أدرك الخليفة الصديق أن المستهدف في كل هذه المواقف هو: وحده المجتمع والدولة الناشئة التي أسسها، وبناها النبي محمد (ﷺ)، وكذلك المستهدف على المدى البعيد هو الإسلام نفسه.

لذلك فكر في إدارة هذه الأزمة بكل وعي، وبصيرة، وقد وضع الأسلوب الناجع، والمفيد في حل هذه الأزمات وإدارتها، أعني: استخدام القوة، ولكن كملجأ أخير بعد أن يستنفد إمكانات الحوار والتفاهم والإقناع لهؤلاء الذين أرادوا أن يدمروا ما بناه النبي وصحبه وأرادوا الاستمرار في مواقعهم القديمة.

أولاً: دعا أبو بكر جميع من ارتدوا عن الدين إلى العودة والالتزام بما عاهدوا عليه وقال في كتابه مخاطباً جموع المرتدين: (قد بلغني رجوع من رجع منكم عن دينه، بعد أن أقر بالإسلام، وعمل به اغترار بالله وجهالة بأمره، وإجابة للشيطان، وإني بعثت إليكم فلاناً في جيش من المهاجرين، والأنصار والتابعين بإحسان، وأمرته أن لا يقاتل أحداً حتى يدعوه إلى داعيه الله، فمن استجاب له، وأقر، وكف وعمل صالحاً قبل منه، وأعانه عليه، ومن أبى أمرت أن اقاتله (229) يعكس هذا النص الأسلوب المزدوج في إدارة الأزمة، ويتمثل في:

1- الأسلوب السياسي (الدبلوماسي).

2- استخدام القوة إذا فشل الأسلوب السياسي في تحقيق الهدف.

ثانياً: وعالج الخليفة أبو بكر أزمة المعارضة التي حدثت داخل جسم الدولة الإسلامية، بالدفاع عن الدولة والمسلمين.

لقد قلنا في الصفحات السابقة أن البعض في السقيفة تأخر عن الحضور للمبايعة، ومنهم من لم يحضر قط ومنهم من تحفظ على مبايعة الخليفة، وكل ذلك يعكس توجهاً معارضاً ضمناً أو صراحة داخل بنية الدولة، وإزاء الخليفة الصالح.

فوجه أبو بكر خطاباً إلى (علي بن أبي طالب) عندما تحفظ على المبايعة قائلاً له: (يا أبا الحسن إني لو علمت أنك تنازعي على هذا الأمر، ما أردته، والله، وما طلبته، وقد بايعنني الناس، فقبلت، فإن بايعتني فذلك ظني بك، وإن لم تبايع في وقتك، فهذا ما تحب أن تنظر في أمرك، ولم أكرهك عليه، فانصرف راشداً إن شئت)، قال فانصرف علي (رضي الله عنه) إلى منزله، فلم يبايع حتى توفيت فاطمة، ثم بايع بعد خمس وسبعين ليلة من وفاتها، وقيل بعد ستة أشهر[230].

وتوجد رواية أخرى حول مبايعة (علي بن أبي طالب) لأبي بكر، وإعلان موافقته الفورية، فقد ذكر (الطبري) ما يلي: قال عمرو بن حريث لسعيد بن زيد: >أشهدت وفاة رسول الله (ص) قال نعم قال فمتى بويع أبو بكر، قال يوم مات رسول الله كره المسلمون أن يبقوا يوماً أو بعض يوم وليسوا في جماعة، قال فهل خالف عليه أحد قال إلا من ارتد أو كاد أن يرتد، لولا أن الله عز وجل أنقذهم من الأنصار، قال فهل قعد أحد من المهاجرين، قال لا، فقد بايع المهاجرون من غير أن يدعوهم

وعن (حبيب بن أبي ثابت) قال: كان (علي) إذ أتى فقيل له: قد جلس أبو بكر للبيعة، فخرج في قميص ما عليه إزار عجلة كراهية أن يبطئ عن البيعة، حتى وصل وبايعه[231].

لقد سردنا هاتين الروايتين المتضادتين مراعاة لعرض التيارات المختلفة، إزاء البيعة، والنظر فيها ملياً، وإيداع المجال للقارئ أن يتأمل، بنفسه، ويوازن، ويحكم في الأمر.

أما بالنسبة لإدارة أبي بكر لهذه الأزمة فتتجلى في:

* احترام حرية الاختيار في البيعة للمبايعين، وعدم رغبته طلب ولا فرض ولا إملاء ولا إكراه الآخرين البيعة.

* إن منهج أبي بكر في إدارة شؤون المجتمع، وأزماته منذ توليه الخلافة، هو مهارة امتلاك القدرة والحزم على مواجهة الأزمات، وسنرى تلك القدرة والحزم في مواجهة إدارة الصراع في حروب الردة وكل ذلك في ضوء المنهج الإسلامي الذي وضعه القرآن الكريم ورسمت معالمه ووضعت نموذجه الشخصي تجربة السنة النبوية، وعمل الصديق على ترسيخ قواعد الحكم الرشيد منذ توليه الخلافة عندما قال للملأ: >لقد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني وإن أسأت فقوموني [232].

عهد بالخلافة بعد أبي بكر الصديق الشيخ الثاني الخليفة الفاروق (عمر بن الخطاب) تضافرت في اختيار عمر بن الخطاب تقاليد قبلية، وإسلامية، وقد كان عمر بن الخطاب أكثر الصحافة نفوذاً أثناء خلافة أبي بكر، وقد رشح بعد استشارة الصحابة، وتأييد بعضهم له، وتمت خلافته بمبايعتهم، وهذان الأمران يتماشيان، والتقاليد السياسية

الموروثة لمرحلة ما قبل الإسلام، ومن ناحية ثانية، كان لخدمة عمر في الإسلام أهميتها علماً أنه ليس من فخذ بارز من قريش، بل اختير لمؤهلاته، وقابلياته، وهذه الناحية ربما لا تأتلف، والتقاليد القبلية[233]، ويضيف الدكتور (الجابري) بعض العناصر الموضوعية التي ساعدت على اختيار الشيخ[234]، من قبيل اختلاف الظروف، والمعطيات التي تمت من خلالها البيعة لعمر، حيث أصبحت قريش بلا منازع، سيدة الموقف في الدولة الإسلامية ثم كون جل القواد الذين قادوا المعارك ضد المرتدين، والفتوحات، هم من بني عبد مناف، زد على ذلك: عناصر شخصية عمر ذاتها، فقد كان قوى الشخصية والشكيمة يهابه الناس، وكان يميل إلى الحسم بالعنف، والشدة.

باشر عمر خلافته بالتوسع بالفتوحات عبر (فارس)، وأعالي (العراق)، وما حول (الشام) و(مصر) الإسكندرية، و(طرابلس ليبيا)، و(تونس).

ومما يجدر الإشارة غليه أن استخلاف أبي بكر لعمر لم يكن بالوصية، ولا بالتوريثة بل كان بعد مشورة تمت بين الصحابة، وهم ممثلو الرأي العام لجمهور المسلمين، وهؤلاء الصحابة عددهم 6 وهم من ذوي السابقة في الإسلام[234].مكرر

كان أول عمل قام به الشيخ أن ندب الناس إلى (فارس)، ثم ندبهم إلى (الشام) و(العراق)، وكان في الفتوح يتابع مسيرة ما كان قد قام به سابقاً أبو بكر الصديق، وكانت من الدوافع التي حركت كثيراً من المسلمين خاصة الجدد للامتداد نحو البلدان الأخرى، والفتح دافع (الفوز بإحدى الحسنيين) وهو دافع شخصي ذاتي – أي الاستشهاد، والدخول في الجنة وتحصيل الغنيمة في حال البقاء على قيد الحياة[235].

كثر، وكبر واشتد اختلاط المسلمين والعرب الذين دخلوا البلاد الجديدة، بلاد الفتح وبهذا الاتساع في الفتوحات تزايدت أعباء الدولة الإسلامية، وتوسعت الأنشطة، والأعمال الحكومية التنظيمية، وثم وضع قوانين، وقواعد وتشريعات بغرض احتواء المتغيرات واستيعاب المستجدات من الظروف، والأوضاع، فهل نتصور أوضاعاً مستجدة كهذه خالية من الأزمات.

1- أدرك الخليفة الشيخ خطر اتصال العرب في البلاد المفتوحة، على كيانهم، ووضعهم الاجتماعي وحاول أن يجمعهم في مراكز عسكرية خاصة بهم، في كل من (الكوفة) و(البصرة) و(الفسطاط) وقد أدار هذا الوضع على النحو التالي:

* وضع نظاماً يحفظ لهم وضعهم الجديد، وتذكيرهم بأنهم أمة فاتحة مجاهدة لا تشتغل بمهنة غير السياسة والحرب.

* لم تنجح تنظيماته التي وضعها كلية في تحقيق ما أراد[236] بسبب استمرارية العادات والتقاليد القبلية، حتى بعد استقرارهم في أطراف المدن المفتوحة وتشكيلهم وتجمعاتهم الخاصة بهم، وقد ظل هذا التنظيم يأخذ طابعاً قبلياً.

استمر الفاروق في إدارة الأمور بالمرجعية الإسلامية (الكتاب والسنة) بالإضافة إلى مجموعة من الإجراءات التي حكمت منهجية الخليفة في إدارة شؤون المجتمع الإسلامي الجديد، بعد اتساع الفتوح.

وهذه الإجراءات تتلخص في تطبيق المبادئ الإسلامية نفسها أي، العدالة، وكذلك إجراءات أخرى أو مهارات نابعة من شخصية الخليفة مثل: العزم، والأمانة، واستخدام القوة عند الحاجة.

وكان عمر بن الخطاب يطالب ولاته بعدم التعسف في التنظيم والإدارة[237].

2- تعامل أو عالج الفاروق خلافاته مع المعارضين لتوليته على النحو التالي:

يذكر أن (سعد بن عبادة) كان قد عارض أيضاً توليه عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) الخلافة، وكان ذلك من أسباب خروج سعد إلى الشام، يذكر (الطبري) أن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) لم أتسلم الخلافة عاتب (سعد) لموقفه من البيعة فقال (سعد) مصمماً على موقفه: (كان والله صاحبك (أبو بكر) أحب غلينا، وها أنت والله أصبحت كارهاً لجوارك)، فقال عمر: من كره جوار جاره تحول عنه، فلم يلبث (سعد) إن خرج إلى الشام مهاجراً فمات في (حوران)[237].مكرر

نلاحظ أن طبيعة إدارة هذه الأزمة بين عمر وبعض صحبه حول توليه الخلافة كان:

* بالمعاتبة – وهو موقف وجداني – عاطفي، وهو نمط من إدارة الأزمات شائع في مجتمعاتنا العربية، ذلك أن العتاب يأتي أحياناً كحل بين المحبين في إدارة أزماتهم ذات الطبيعة العاطفية الوجدانية الشخصية.

ثـم إن الـنمط العتـابي فـي إدارة الأزمـات غيـر موجـود فـي الثقافـات الغربيـة مـثلاً، إنـه نمط: سيكولوجي في إدارة الأزمات لا يخرج عن العوامل الخاصة التي ذكرنا في الفصل الرابع، ودور السيكولوجية الإيجابي أحياناً في إدارة الأزمات.

3- النمط الثالث في إدارة الأزمات في منهج عمر بن الخطاب، وهو ما يتعلق بالأمور المالية أو الغنائم الحاصلة في الفتوح، فكانت طريقته تقوم على: الحد، ومحاولة المنع، أو الزجر على أقل تقدير في إدارة الأزمات الناشئة عند اقتسام الغنائم.

طمع بعض المسلمين الفاتحين، في الحصول على غنائم أكثر، مما ينبغي حسب القواعد الإسلامية، وهؤلاء كبشر، قبل أن يكونوا مسلمين، قد استبدت بهم في لحظات مباغتة من حياتهم بعض العوامل الشخصية وبتأثير مغريات (حب الدنيا)، وزينتها وحب (المال) والغنائم، أن طالبوا الشيخ بالمزيد يحكى أن عمر بن الخطاب قد بلغه أن سعد بن أبي وقاص، اتخذ قصراً في الكوفة) وجعل عليه بابا، وقال: انقطع الصوت.

فأرسل عمر (رضي الله عنه) محمد بن سلمة، فجاءه فقال له: أنت سعد فقال نعم، فأحرق عليه بابه ففعل.

تلك تدابير زجرية تنبئ عن شعور عمر بن الخطاب بما كانت عليه رغبة البعض من تجميع الغنائم (الثروات)، وما كان قد بدأ ينتشر من أنماط حياة مترفة (استشراء نمط حياة مجتمع الرفاهية - والتعلق بمباهج الحياة الدنيا)، ولكنها تدابير ما كان يمكن أن تحل المشكلة المطروحة لأن كل ما كان يمكن أن تسفر عنه، وقد كان هذا مفعولها، هو: الحد من التهالك على المظاهر، وهو أمر قد حصل: إما خوفاً من (عمر) أو اقتداء به، وهو الذي يروى عنه كثير من مظاهر: التقشف والزهد.

والواقع أن أساس الأزمة (المشكلة) التي حصلت هو: تدفق المال على (المركز) ومن غنائم وخراج، وأمور التوزيع بالتفاضيل، وليس بالتساوي[238].

لقد ضيق هذا النمط من إدارة أزمة الغنائم وتوزيعها بروز ظاهرة المترفين، حتى قال البعض: لم يمت عمر حتى ملته قريش، ولقد عبر عن هذا الميل عن نفسه سياسياً باختيار الخليفة الثالث (عثمان بن عفان) من قبل أغلبية قريش.

والواقع لم تؤثر هذه (التدابير – ووسائل إدارة الأزمة) الغير حاسمة للأزمات التي وقعت في عهد الشيخ لأنها ظواهر أخذت تتجاوز قدرات الشيخ، ذلك أن شرائح كبيرة، من المجتمع قد بدأت تؤخذ بمتاع الحياة الدنيا، وحب الشهوات والتهالك على امتلاك الغنائم، وزينة الحياة، وهذه التدابير (العمرية) رغم محدوديتها في التأثير في الإدارة الحازمة للشيخ لم تؤثر في مناقب وإرادة وشخصية الشيخ السلوكية، وطرائق تعامله مع الأزمات التي تبنت من البداية، وانطلاقاً من مرجعية الشيخ العربية واتباع النموذج النبوي و(الصديقي).

وقد عمل الشيخ على منع الفاتحين من اقتناء الضياع، وامتلاك الثروات، وكان قد اتخذ مجموعة التدابير الوقائية ضد الأزمات وعدم استفحالها، وذلك بمنع توظيف الثروات لإنتاج المزيد منها لدى بعض الفاتحين[239].

عهد الخليفة الراشدي الثالث: عثمان ذو النورين (الأزمة الكبرى).

ذكرنا منذ قليل أن الفاتحين المسلمين عندما دخلوا بلاد الفتح استيقظت نفوسهم ومشاعرهم على معالم الحياة، ترفها ونعيمها، وأخذ الكثير منهم يعب بقدر المستطاع من أطايب الحياة.

وصرنا إزاء مجتمع واسع النطاق، يعيش على حافة: النعيم والترف (وستتوسع آفاق هذا الترف فيما بعد من العصور).

ومن ناحية أخرى، ما إن ذاع نبأ مقتل الخليفة (عمر بن الخطاب) حتى تلاحقت الفتن (الأزمات) واشتعال الثورات والتمرد، بحيث أخذت قبائل الفرس، والروم، والترك تتحرك تمرداً، وعصياناً ونقضت عهودها، وكانت هذه المحن تفوق محنة الرد في اتساع ميادينها وتباعد أطرافها.

تولى الخليفة (عثمان) في هذه الظروف المستجدة، الخلافة، ودامت خلافته إثنى عشر عاماً استطاع في المرحلة الأولى من خلافته خلق حالة من السلم الأهلي في المجتمع الإسلامي.

وفي المرحلة الثانية من خلافته بدأت مرحلة: الارتباك في إدارة الأزمات، حيث بدأت هذه الأخيرة تتوالى، وتظهر معالم الغضب والسخط من قبل البعض من الساخطين، تشكو أسلوب الخليفة في الحكم، والإدارة، متناسين أن هذه ا لإدارة كانت في غاية الجودة في المرحلة الأولى عندما استطاع تنظيم المجتمع بمختلف إدارته، واستكمال الكثير من مشاريع البناء بالدولة.

لقد كتب الخليفة إلى كافة ولاته وأمراء الجيش وعمالها الخراج، وعامة الناس يدعوهم إلى المحافظة الشديدة على النظام، والعمل بحكمة تحقيقاً لمشروعية العدل، ثم مواصلة الجهاد (الفتح) ولقد سعى الخليفة إلى جمع المسلمين على مصحف واحد، ونتيجة اتساع رقعة البلاد، والسماح لكثير من الصحابة بالخروج إلى الولايات، بعد أن كانوا قد منعوا من ذلك في عهد عمر (رضي الله عنه) ممن كانوا يمثلون الصحابة، وأهل الشورى، ضعفت مقومات الحكم في المدينة، وكثرت حالات العزل وتصاعدت شكاوى الناس إزاء تصرفات وسلوكيات الولاة، ونهضت أصوات شكلت وجهاً من وجوه المعارضة السياسية والاجتماعية التي عارضت الكثير من الاجتهادات والكثير من السياسات الإدارية في الأقاليم، والأمصار وبرزت دعوات ساخطة ونهضت لتمس هيبة الخلافة[240].

هذا الواقع السياسي الاجتماعي الجديد خلق جواً من الارتباك في الإدارة العثمانية للأزمات الواقعة.

لقد مثل هذا الواقع بعضاً من القسوة ضد الخليفة وتمثل كذلك في ثورة القبائل على قريش بالدرجة الأولى، ويعني ذلك: انتصار التيار القبلي على التيار الديني الإسلامي ووقع الخليفة ضحية هذه الظروف، وهذا الواقع، لم يكن من صنعه كما ندرك، لقد تغيرت ظروف الأمة وتبدلت أحوالها، ونشأت حالة سياسية اجتماعية – ثقافية جديدة.

بدأت الاتهامات تكال ضد (عثمان)، وصبت الروايات التي لا ندري مدى صحتها على عثمان متهمة إياه بمخالفة سنة الخليفتين: (أبو بكر) و(عمر)، في حين أنه لم ينحرف في أسس سياسته عن المرجعية الدينية، ومن الاتهامات التي وجهت إلى الخليفة وضعية النظام المالي واتهمته بالإثراء، وهو الذي أنفق جل أمواله في سبيل الإسلام، ووصفته الاتهامات بالضعف والتخاذل، وحملته جريرة التغير الاجتماعي، والتحول

الخلقي، وانتقدته في جمع المصحف، علماً بأن هذا الحفظ عمل على حفظ الوحدة الدينية والسياسية للإسلام، وصيانة كيانه ودستوره، وراحت تلومه على ترف الناس، وجمعهم الثروات متجاهلة أن الحاكم غير مسؤول عن سلوكيات، وأفراد مجتمعة، واتهمته أخيراً بترك الباب مفتوحاً لإثراء العرب من خلال ما وجدوه في البلاد المفتوحة، واغتنامهم فرص اقتناص رغد العيش[241] كذلك اتهم بأنه أكثر من العطاءات المالية لذويه، وأقاربه[242]، وقد بلغت مشكلة التضخم المالي في عهده ذروتها، بعد مرحلة السأم والملل التي اكتنفت الناس في عهد (عمر بن الخطاب) فتطورت هذه الأمور إلى سخط واسع[243].

ومع كل ذلك فقد اثبت (عثمان) كفاءته، ومقدرته على مواجهة هذا الواقع، وما أنتجه من أزمات وعمل على تسيير الأمور بحزم وعزم، وواجه المحن الجانحة بما أعاد للدولة هيبتها.

لقد كان جريئاً، مقداماً مؤمناً بما كان يفعله، قادراً على الحسم وهذه مقومات إدارته تساعد على إدارة الأزمات.

وكان (عثمان) ينهج بالرأي، والعزم، والسرعة في إدارة الأمور وتسيير النجدات، وإسناد كل حمل لمن يحسن حمله[244].

علينا قبل أن ننهي الحديث عن الخليفة عثمان الإشارة إلى نقاط ثلاث هي:

1- منهج عثمان في الحكم.

2- منهج عثمان في الإدارة الخارجية.

3- منهج الخليفة في إدارة الأزمات الداخلية.

1- **خطب عثمان عندما بويع قائلاً**: أما بعد فإني كلفت، وقد قبلت ألا وإني متبع، ولست بمبتدع، وإن لكم علي – بعد كتاب الله، وسنة نبيه، اتباع من كان قبلي فيما اجتمعتم عليه، وسننتم سنن أهل الخير فيما تسنوا عن ملأ، والكف عنكم إلا فيما استوجبتم العقوبة، إن الدنيا خضرة، وقد زينت للناس، ومال كثير منهم، فلا تركنوا إلى الدنيا، ولا تثقوا بها[245] فإنها ليست بثقة، واعلموا أنها غير تاركة إلا لمن تركها[246].

لم يكن عثمان في شخصيته وسيكولوجيته الخاصة شديد التعلق بالحياة الدنيا[247].

أما منهج عثمان، فكان جلياً غاية الجلاء ألمحنا إلى مقدماته ومناصره الشخصية العثمانية، وقبل أن يمارس مهاراته الخاصة كانت المرجعية لديه: الكتاب والسنة والاقتداء بالشيخين[248] لقد رأى (العقاد) أن عمر بن الخطاب كان أقوى من عثمان وكان يبدل ولاته، وقد شوهد مهموماً يوماً، ومكروباً على قدرته التي لا تضيق بأزمة من الأزمات: السلم والحرب واضطلاعه بأعظم وال، وهذه معضلة ثقلت عليه حتى أحس ثقلها كل من كان يعرفه فما بال أزمة تثقل كاهل الرجل، من قبيل ثورة الفرس والروم، والخزرج والترك كان ذلك أول صدمة تلقاها، ولكن أدارها بالإدارة الحازمة كما سنرى بعد قليل.

اختلفت سياسة عثمان باختلاف الأحوال، فكانت ترمي على إطلاقه العلية في الآفاق إرضاء لهم وتوسلاً بمقامهم من الدهاء في كل قطر، إلى تسديد النصيحة، وحسن القيادة واتقاء الفوضى، وهو اجتهاد منه وله، ولا ريب جانبه الصواب، وقد اختار للولايات أناساً من ذوي قرابته، عسى أن يعينوه وكان ضميره يحاسبه باستمرار، ويرى (العقاد) كذلك أن آفة عثمان: النزعة الأموية التي كشفت عنها نظراته إلى الإمامة، التي أوشكت أن تكرس النظر إلى الملك.

2- **منهج عثمان في إدارة الأزمات الخارجية**: قامت عناصر شخصية عثمان تدعم منهجه في مواجهة الأزمات التي فاجأته بعد توليه الخلافة، فقد كانت هذه العناصر من قبيل العزم، والسداد مع الحيطة، والأناة والسياسة ولم يكن متفرداً في عمله بل كان يلجأ إلى تسكين الثورات حيث يتطلب التسكين، ويطفئ النيران في الوقت المناسب، وقد نجح في إدارة غزوات (قبرص)، (ورودس) و(جزر الروم)، وتسيير النجدات في وقتها المناسب.

3- **معالجة الأزمات الداخلية (تعامله مع الفتنة):** جاء المتمردون من البصرة والكوفة، ومصر، ليخلعوا عثمان من منصب الخلافة، ويبايعوا واحداً من ثلاثة: الزبير، وعلي وطلحة وكلهم من قريش، جاء هؤلاء وهم في هيجان وثورة عارمة إلى بيت الخليفة يهددونه بالقتل إذا لم يتنازل عن الخلافة.

وفي هذه الأزمة الكبرى تجلى أسلوب عثمان في مواجهتها (إدارتها) وعمل على المعالجة بالسياسة والتفاهم، واللجوء إلى الحلول الوسط، ولأن الثوار عامة لا يحكم

مسيرتهم المنطق، ولا تقودهم الحكمة والعقلانية والرشاد، فقد وضعوا لهم هدفاً واحداً لا يساومون، ولا يهادنون بشأنه وهو: عزل الخليفة ولا شيء غير ذلك.

أ- لقد تجلى الأسلوب العثماني(نسبة الى الخليفة عثمان) في إدارة الأزمة على الوجه التالي:

1- التثبت في المكان عند المواجهة.

2- لزوم العدل، والإنصاف.

3- الاسترشاد بالسنة النبوية.

ب- لجأ عثمان في اتباع أسلوب:

1- الحوار مع الثوار، وإقناعهم بالعدول عن موقفهم المتشدد.

2- دافع عن نفسه ضد الاتهامات، واستشهد بحديث النبي (ص)

3- لزوم الصمت والحذر من كثرة الكلام.

4- الصبر والأناة، والركون إلى الحلم.

5- الحرص على ما يجمع الأطراف المتنازعة من إيجابيات.

6- استشارة العلماء والربانيين[250].

رغم معالجة عثمان لهذه الأزمة التي يمكن اعتبارها أزمة السلطة والمعارضة، وقد تجلت هذه المعارضة المسلحة، بالفتنة، ذلك أن الثوار كما قلنا عشعشت في أدمغتهم فكرة واحدة، وهي الإطاحة بالخليفة لأنها توصلت قناعتها بأن سلطة الخليفة (عثمان) لم تعد شرعية ولا صالحة.

أصر الخليفة مقابل التمرد والتطرف من قبل الثوار التمسك بموقفه، لأنه رأى أن بيعته كانت على حق، وأراد أن ينظر إلى المعارضة من الجانب السلمي، ويعتبرها شكلاً من أشكال المعارضة الداخلية، ولم يكن ذلك ضعفاً في إدارة الأزمة أو قصوراً منه، بقدر ما أراد حقن الدماء.

ومن الإنصاف القول أن عثمان قد قصر في حق نفسه، وكان تقصيره هذا أكبر من تقصيره بحق رعيته، وقد أفرط في المسألة، واغتفر مالا يغتفر من العداوة، والعدوان عليه في حضرته، وتحرج نهاية التحرج، وعلة ذلك أنه لم يكن شيمته الغدر، ولم يعمل على تبرئة نفسه من سخطهم لأنه لم ير نفسه متهماً، ولكنه كان يعاني مشكلة في إدارة الأزمة وهي: لم يدرأ نفسه من الخطر وكان معتصماً بقولته المشهورة وهي: أنه لا يخلع قميصاً ألبسه الله إياه.

ثبت أن (معاوية بن أبي سفيان) عرض على الخليفة عثمان في أعقاب المؤتمر الذي عقده عثمان لأمرائه، ومشاورتهم في الفتنة، أن يجنده بجند الشام يقدمون ويقرون بسلطانه، فأبى ذلك وعرض عليه أن ينتقل إلى الشام فيكون في منعة وقوة فأبى ذلك أيضاً، وتكرر الانتقال هذا في وقائع العام التالي (35هـ) حينما حاصر الثوار مقر الخليفة، وقد قدم له العرض المغيرة بن شعبة فأبى الخليفة ذلك، وعمل على المفاوضة بواسطة (علي) وهي مرحلة مهمة من مراحل إدارة الأزمة وبعض الصحابة، ومحاورتهم، وإرجاعهم، ولما دحض هؤلاء حجج المتمردين وقادتهم، وما عاد أمام هؤلاء إلا العودة إلى بلادهم، فرفضوا، فاقترح بعض الصحابة على عثمان أن يؤدبهم فرفض ذلك، وقد نزل عثمان في هذه المعالجة عند بعض مطالبهم، عندما رأى ذلك ممكناً، ومفيداً.

ذلك ما يدلنا على أن الدولة في (الإسلام) والخلافة فيها، والسلطة ومن خلال منهج معالجة عثمان لأزمة الفتنة، أن المجتمع الإسلامي، ودولته يقبلان وجود المعارضة، ولكن شريطة أن يكون الحوار، والتداول بين الطرفين سيد المعالجة، وبين الخليفة ومعارضيه[251].

(سنرى أن أزمة السلطة، والمعارضة بعد انقضاء الفتنة الكبرى ومجيء الخلافة فيما بعد أن الحوار والتفاهم، والتداول السلمي للخلافة، أو السلطة لم تكن جميع هذه الوسائل مطروحة وكان الاحتكام بينهما دوماً باللجوء إلى: القوة).

حاصل الأمر، لقد دعا عثمان أمراء أمصاره، وجنده إلى اجتماع في المدينة المنورة في العام (34هـ) حيث كانت الفتنة قد أطلت برأسها في أكثر من مصر وحضر حينذاك (معاوية) أمير الشام و(عمرو بن العاص) أمير مصر و(عبد الله بن سعد بن أبي سرح) أمير

المغرب و(سعيد بن العاص) أمير الكوفة و(عبد الله بن عامر) أمير البصرة، واستشارهم في طريقة مواجهة الفتنة، فأشاروا عليه بطرق خمسة، كل واحد منهم أشار إلى الخليفة بطريقته:

* عبد الله بن عامر قال بإشغالهم بالعزو، وفتح الثغور.

* سعد بن العاص دعا إلى استئصال شأفة المفسدية.

* معاوية بن أبي سفيان دعا إلى إهمالهم، وتثبيت عماله في الأقاليم.

* عبد الله بن سعد أبي سرح قال بتأليبهم بالمال والعطايا.

* أما عمر بن العاص فأشار بالنزول عن مطالبهم وبتغيير العمال، أو تعديل سيرتهم أمام هذه الآراء المتباينة، فإن الخليفة استبعد الأخذ بالقوة، واستئصال شأفة المفسدين، واعتمد الطرق الأخرى، وجمع بين المصالح كلها(252).

فعمل الخليفة على مواجهة أهل الأزمة بالحوار، والإقناع، والمحاجة، ولكن كل ذلك لم يكتب له النجاح فقد هاجم الثوار البيت، وقتلوا الخليفة.

وبمقتل الخليفة، اختلفت الأجواء وتجلت الفتنة في أوضح معانيها، وتتبع ذلك أجواء من الانقسام أصاب المسلمين جميعاً وخاصة أهل الحل والعقد، فانتهت الأزمة بمقتل الخليفة عثمان على يد المعارضة، ومنذ ذلك الحين والتاريخ، أخذت تصاغ الحياة السياسية ومعالجة أزماتها على وقع السيوف على امتداد التاريخ السياسي العربي – الإسلامي مما سنرى ذلك تفصيلاً في الصفحات القادمة.

الإمام علي بن أبي طالب ـ كرم الله وجهه

تعقد الأوضاع والظروف، والأزمات

كانت الأيام الأخيرة من حياة الخليفة (عثمان)، وحادثة مقتله، أياماً درامية ورافقت كل ذلك ظروف وأوضاع مأساوية، وقد أوجدت نوعاً من العماء السياسي والاجتماعي، والفوضى العارمة في جسد الدولة والمجتمع الإسلاميين اللذين عمل النبي والشيخان على بنائهما، وفي قلب هذه المحنة، والأزمة تم انتخاب الإمام علي بن أبي طالب ليكون

الخليفة الراشدي الرابع، وآخر الخلفاء الراشدين وقد جاء يمثل التيار الإسلامي مقابل التيار القبلي، وسجل انتصاراً للهاشميين.

ويظهر أن نفوذ الإمام، وتأييد الأنصار له والهاشميين كانا العاملين المهمين في انتخابه في تلك الظروف المضطربة والتي تولدت عن الفتنة الأزمة الكبرى أي مقتل عثمان وسط هياج المتمردين، وصخب الثوار.

لقد جاء الإمام علي في فترة شديدة الإرهاق، والارتباك حيث بدأت الأزمات تعج سياسياً خاصة دون أن ننسى الآثار الجانبية لها، وقد تم انقسام قريش، وهاجم أنصار عثمان المتمردون المدن، وأحرقوا فيها، وانتهكوا حرماتها بمقتل الخليفة.

وفي هذه الأثناء ظهر (معاوية بن أبي سفيان) أمير الشام على الساحة كرجل، مطالب بدم عثمان، وقد قوى الاتجاه القبلي من جراء ما حدث، في الوقت الذي أراد (علي) أن يسير بالخلافة على المرجعية الإسلامية اقتداء بمن سبقه، ومن هنا برزت الأزمة في كامل جدتها، والتي ستأخذ شكل صراعات دموية سنرى إدارتها في الكتاب الثاني من هذا الكتاب، وبعبارة أخرى ظهر في هذه المعمعة تياران وهما:

1- التيار القبلي.

2- التيار الديني الإسلامي.

وبعبارة أخرى الأزمة المكشوفة، والصراع المفتوح بين:

1- بني هاشم.

2- وبني أمية.

وكلاهما من قريش.

من خلال هذا الواقع السياسي - الاجتماعي الجديد وتشابك التيارين، بل واشتباكهما سنحاول (فرز) أسلوب إدارة هذه الأزمة، كمرحلة من مراحل هذا الصراع.

علي بين أبي طالب ابن عم النبي (ص) وزوج ابنته فاطمة - أسلم وهو في العاشرة من عمره، أدرك علي أن فاجعة مقتل عثمان كانت السبب الرئيسي لما حصل، وكان

يعتقد أن مقتل عثمان سببه أسلوب الخليفة في الحكم، أو إدارته لشؤون المجتمع الإسلامي الناشئ، وإدارة مشكلاته أو أزماته.

انفتحت أبواب الأزمة على مصراعيها بين فخذي قبيلة قريش، مثل (علي) بني هاشم، ومثل الآخرين (معاوية)، وظهر التوتر الشديد، والعداوة والبغضاء بين الجناحين، والمطلوب الآن: إدارة هذه الأزمة من قبل طرفي الأزمة، سنحاول عرض الأساليب التي تمت بموجبها تاريخياً، إدارة الفريقين، للأزمة، والتي زعزعت بوقائعها، ومضاعفاتها، وآثارها الجانبية حياة الأمة الإسلامية التي أسسها النبي محمد (ص) ووضع دعائمها قبيل وفاته عندما ألقى خطبته الشهيرة في حجة الوداع، وباعتبار الإسلام وأرضه أرض دين، وشريعة وستمتد الآثار الجانبية لهذه الأزمة – الصراع عبر فترات التاريخ العربي – الإسلامي، وحتى يومنا هذا: وضع الأزمة إن هو التالي: تسلم (علي) الخلافة في أجواء التأزم الحاد.

وعندما تولى الإمام الخلافة من خلال إجماع الجمهور في المدينة على توليته، ومبايعته في المسجد ثم مخاطبته علي لهم: إنما أنا علي الاستقامة، وعليكم القبول، والتسليم، وقد باشر عمله، بعد عرض أفكاره في إدارة هذه الأزمة وهي كالتالي:

* تخطي حالة الفوضى السياسية، والإدارية، والاجتماعية، ومحاولة محو الآثار الجانبية لحادثة وفاجعة مقتل عثمان.

* عمد إلى إجراء الإصلاحات العامة في الولايات، وتعيين ولاة جدد.

* حدثت اضطرابات في الكوفة وفي الشام، أسفرت عن رفض أهلها، ومراكز قواها الولاة الجدد، وعملوا على إخراجهم من البلاد.

* تمخض عن ظروف هذه الإجراءات الإدارية تخلخل في البنية المركزية للحكم، وتقويض نفوذها الجغرافي.

* واجه علي منذ البداية معاوية وجيش الشام، ثم الخوارج المنشقين عنه.

* عمل الإمام منذ البداية على أساس: العدل والإنصاف للمظلومين والسير بالرعية على منطق العدل الذي أمر به الإسلام كمرجعية.

* الواقع تميز أسلوب الإمام بقدرته على مواجهة المصاعب، وتميز أسلوبه بالانحياز منذ البداية في التعامل مع الأزمة على أساس من العدل.

قادت (علي) المثل الإسلامية العليا، وقد ناقض بطبيعة الحال في سلوكه هذه التقاليد القبلية المواجهة له، وكان من طبيعة هذا التناقض أن يواجه الطرفان بعضهما بعضاً ويسود الخلاف ثم النزاع.

* كان علي ميالاً للتفاهم مع الخصوم وكما سيظهر في معركة (الجمل) فيما بعد.

* قبل علي بالتحكيم عندما رفعت المصاحف رغم عدم ثقته الباطنة في هذه (الحيلة).

إذن من الناحية الفكرية السلوكية أحب (علي) إدارة الأزمة على أساس التفاهم بالحوار للوصول إلى حلول يتم الاتفاق عليها بين الأطراف لقد قبل (علي) التحكيم، وهو أولاً تقليد قبلي يرضي (الطرف القبلي المواجه) وبالتالي التحكيم بالقرآن الكريم التزاماً بشرع الله ثانياً ورأى (العقاد) أن الروح الإنسانية كانت قوام حكومة علي، وكما كان ينبغي أن يكون، وهو قوامها كما كانت على يديه جهد الطاقة الآدمية، وهي طاقة لها حالها، وحدودها[255].

والواقع كانت في صفوف (علي) جماعات تضغط لتجنب الصدام، تحت تأثير الوازع الديني وخاصة الآية القرآنية: إنما المؤمنون أخوة.

ولكن ما حصل في نتيجة الأمر أن دب الانقسام وانقسم الفرقاء إلى:

- فريق الخلافة، علي، ومن معه.

- فريق الدولة الدنيوية، معاوية ومن معه.

ودب الانقسام حول كل شيء في عهد الإمام ونهضت الفكرة العالمية إلى جانب العصبية القبلية فالدولة الدنيوية تشد أزرها العصبية القبلية.

والخلافة الدينية تشد أزرها روح الإخاء بين القبائل والشعوب، والوحدة الدينية وقد نهى الإمام عن قتال الخوارج الذين عارضوه، وحكموا عليه بالكفر، إلا أن يفسدوا في الأرض ويشرعوا بالعدوان[256].

لم تؤد إدارة هذه الأزمة إلى أية تسوية ولم تنجح كافة الأساليب في حصارها، ومحاولة إيجاد أرضية للتفاهم، بين الفريقين، وزبدة القول أن الفريقين لم ينجحا في إدارة هذه الأزمة بدليل ما أدت إليه هذه الأزمة إلى المرحلة الثانية، وهي المتجسدة في المعارك التي حصلت فيما بعد، وتقع مسؤولية الفشل التاريخي هذا على كلا الفريقين والفشل هذا يعود إلى تكوين الطبائع البشرية، التي تميل في لحظة ما من توتر الأزمة والصراع إلى الأخذ بشدة بالمواقف، والمغالاة والتطرف (انظر الفصل الرابع من الكتاب).

ومن ناحية ثانية إن الأزمة والصراع الذي أدت غليه عندما نضعهما في إطارهما التاريخي، هما في نهاية المطاف: صراع على الخلافة (السلطة)[257] وفي هذا الصراع تنكشف الميول السيكولوجية الإنسانية عن نفسها تعبيراً عن الاستجابة لجاذبية السلطة (وهو ما أشرنا إليه في الفصل الرابع من هذا العمل.)امكان الصراع بين مشروعين)؟

ولكن السؤال الذي يمكن أن يظل مفتوحاًهو: إذا كانت الأزمة، ومن ثم الصراع بين هذين الفريقين على السلطة، فهل الهدف كان الاستجابة لجاذبية السلطة و تحقيق هذه الرغبة، والتوصل إلى الإمساك بالسلطة، كان واحدا لدى الطرفين؟

هذا ما ستجيبنا عليه وقائع التاريخ فيما بعد من أحداث، ووقائع جرت، على ساحة التاريخ السياسي والعربي الإسلامي.

الاستثناء النبوي، والراشدي في إدارة الأزمات (نهاية مرحلة)

لقد اتسمت إدارة الأزمات في العهدين النبوي والراشدي بأنها كانت إدارة ذات أبعاد لا تتوفر في إدارة الأزمات الحديثة والمعاصرة.

فالأولى (أي المرحلة النبوية الراشدية) كانت ذات مرجعية دينية – إنسانية أخلاقية ولها مهاراتها وسلوكياتها الخاصة بشخصية النبي، وشخصية كل خليفة من الراشدين.

أما الإدارة الحديثة والمعاصرة فلها مهاراتها العلمية، والعقلانية، والتكنولوجية، وهو ما أشرنا إليه في الفصل الأول، ولكن هذه الإدارة تنطلق، حسب كل قوة دولية وكل بلد وكل دولة بناء على المصلحة العليا[258] لهذه الفئة أو الدولة أو البلد، ولا تنطلق من مرجعية: إنسانية أخلاقية عامة المتمثلة في مبادئ: العدل والمساواة والأخلاق الإنسانية.

فأبعادها مختلف من الشرعية الإلهية التي عمل بها النبي وبالخلفاء، إن إدارة الأزمات المعاصرة تفصل بين: السياسة والأخلاق.

إن نظام الحكم الراشدي الذي تضمن أساليب خاصة به في معالجة الأزمات والمشكلات ومن ثم إدارة الصراع، ورغم ما أثير في عهد: عثمان وعلي من مشكلات تركت أثرها السلبي في المجتمع الإسلامي، فقد اعتبر هذا النظام متفرداً، فهو ليس استبدادياً، ولا ملكياً، ولا وراثياً، وليس ثمة ما يمثله من أنظمة الحكم الأخرى، وقد كان نظاماً إسلامياً خالصاً[259] يلتزم بأحكام الشريعة في التعامل مع الرعية، ويعكس إرادة الأمة الإسلامية في العمل على تحقيق المصالح الدنيوية – الشرعية، وفي إطار الشورى، وتحقيق العدل، والمساواة، ورفع الظلم وهذه هي جوهر المبادئ التي عمل الراشدون في ضوئها، وعملوا على إدارة الأزمات من خلالها والواقع كان دور الخلفاء الراشدين تطبيقياً، تنفيذياً، أي تطبيق، وتنفيذ أحكام الشريعة، والسنة النبوية، ولم يكن دورهم اختراع ولا سن القوانين، والدساتير.

لقد تميزت حياة الراشدين بالبساطة الشديدة، والتواضع الجم، والتواصل مع الناس والنظر في مشكلاتهم، ومساعدتهم في إدارة أزماتهم الخاصة والعامة، كانوا يسيرون على تحقيق مبادئ العقيدة وأركانها.

لقد أعطى الشيخان مثالاً في التطبيق الشرعي في إدارة الأمور، وبكلمة مختصرة كانت هناك مراعاة للمبادئ والقيم الإسلامية، ولكن الأمر بدأ يتزعزع، ويضطرب بعد وفاة الشيخين[260].

القسم الثالث
تجليات إدارة الأزمات في تاريخ الخلافة

الفصل السادس
الأمويون

مقدمة:

حاول الإسلام كغيره من الديانات السماوية أن يكون رسالة تهدي البشرية إلى الحق، والرشاد، ويمهد كافة السبل لإسعاد البشرية، يكمل مالم تعمل به الأديان السابقة وقد عمل منذ ظهوره على حث المؤمنين على كبح جماح غرائزهم، والتخفيف من تهالكهم على الحياة الدنيا، ومتاعها الغرور، وأن يلطف جماح النوازع البشرية الشاردة عن العقلانية والاعتدال، وأن يلطف قدر المستطاع من عنف الأهواء البشرية، ودعاهم إلى التسابق إلى الصلاح، والتقوى، وإلى الابتعاد عن الشرور والآثام، وعدم الاستغراق في لجج الأطماع والشهوات والغرائز البهيمية، وأن يصعدوا الميول الحبيسة والرغبات المكبوتة، ويسموا الإسلام ببني الإنسان فيجعلهم يتشوقون إلى تحقيق المثل العليا.

ولا شك أن تطبيق ما أنزله الله على عباده، ومما ذكرنا مما سبق من مطالب، يتطلب إرادة إنسانية واعية لتحقيقه ، ويتطلب ارتفاعا عن مستوى كثير من مطالب الحياة الدنيا الجامحة نحو الطلب الدائم بالمزيد والمزيد من كل شيء.

لقد طلب الإسلام من المسلمين ألا يلقوا بأنفسهم إلى التهلكة، وألا يغرقوا في لجج الصراعات حول: المنافع المادية، والغنائم الدنيوية، والتهالك على الجاه، والمنصب والرياسة.

لقد خاطب القرآن الكريم بآيات تزهد الناس مما غرقوا فيه في الحياة الأرضية، وتصرفهم عن التشبث بعرضها الزائل ومتاعها العابر، تمنيهم بحياة أخرى دائمة النعيم، تتحقق فيها السعادة الروحية، وهي سعادة من نوع فريد، إنها سعادة أبدية وسرمدية خصصت لعبادة الصالحين كقوله تعالى: {وقال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثلما أوتي قارون، إنه لذو حظ عظيم، وقال الذين أتوا العلم، ويلكم ثواب الله خير لمن آمن، وعمل صالحاً، ولا يلقاها إلا الصابرون}[261].

ولكن الناس جميعاً، والمؤمنون منهم، يقولون: إنما نحن بشر، ونحن خطاؤون، ومعرضون في كل لحظة لمغريات الحياة الدنيا، ونحن ضعفاء أمام هيجان دوافعنا الباطنة، وغرائزنا الإنسانية، وأن مطالب الحياة الدنيا تهز كياننا، والطبيعة البشرية تميل إلى الاستجابة العفوية – المباشرة الغريزية لأهوائها، وأعمالنا لا تبرأ من الهوى، وإرادتنا ضعيفة، وعقلنا يتراجع أمام عنف شهوات الدنيا، ورغائبها، وقلبنا وجسدنا وعقلنا يعيشون وسط هذه الدنيا، ومع ذلك فأبواب الرحمة مفتوحة لنا.

السياق الداخلي لنشوء الدولة الأموية:

بعد معركتي الجمل (36هـ–)، وصفين (37هـ–) بوصفهما معركتين قامتا بين فرعين رئيسين من قريش، وهما: بنو هاشم وبنو أمية، وكان من أهم أسباب صراعهما: الخلاف على الحكم، أو بعبارة صريحة، ويتفق عليها كثير من الباحثين العرب، هو صراع على السلطة[262] وكان في واقع الأمر صراعاً كبيراً بين تيارين كبيرين: التيار الإسلامي، والتيار القبلي[263] ولكنه كان صراعاً على السلطة كما ذكرنا أكثر من مرة، وكان كلا التيارين واعياً لأهمية الموقع الإستراتيجي لشبه الجزيرة العربية، وبداية تطور الدولة التي أنشأها النبي محمد (ص) وعمق دعائمها الخلفاء الراشدون إضافة لمكانة مكة، وما حولها من أهمية اقتصادية، وتجارية.

من ناحية ثانية كانت نظرة التيار الإسلامي قائمة على توحيد الجزيرة العربية وجعلها قاعدة لبناء أمة إسلامية واحدة، بينما كان الاتجاه القبلي يقاوم هذا التوجه، ويفضل، رغم أهمية المنطقة، الإبقاء على التقاليد القبلية، من حيث أن كل قبيلة تمثل كيانها الخاص، والمستقل، وكان هذا النزاع بين التيارين قد خبا نوره في عهد النبي (ص) حيث أظهر الرسول (ص) قوة الوحي، والرسالة، ومهارته كقائد موحد استطاع تجاوز الأفكار والتوجهات الانقسامية واستمر الراشدون من بعده يسيرون على خطاه.

ولكن سرعان ما عاد الخلاف في الظهور بين الفرعين المذكورين من قريش، وظهرت الأزمة ودبت واتسعت الانقسامات بين صفوف العرب والمسلمين، وترجمت بالاقتتال.

ظهرت النزاعات المكبوتة في اللاشعور: الفردي والجمعي القبليين لتؤكد الانقسام والتجزئة والتشرذم، وأخذت العصبيات (المتطرفة) القبلية تعلو على سطح الأمور، فمن

القبائل من امتنع كما قلنا من دفع الزكاة في عهد الخليفة (أبي بكر) والزكاة كما نعلم ركن من أركان الإسلام الخمسة، ومنهم من رفض السيطرة، والخضوع لقبيلة أخرى.

وعندما وصل الإمام إلى سدة الخلافة كان الوضع الداخلي للمسلمين، منهكاً منقسماً على نفسه، وجاء في ظروف استعلاء الاتجاه القبلي وانتصاره عندما قتل (عثمان).

وطالب (معاوية) بدم المقتول، أو بلغة أخرى طالب بالثأر، وهو موقف قبلي يأباه الإسلام، ويناقض تعاليمه، وكذلك تجلت الفورات، والهيجانات والانفعالات القبلية بخروج (الخوارج) ضد الإمام (علي) لقبوله التحكيم.

وفي تلك الأثناء شكل مناصرو الإمام، وأنصاره شيعته، وأيدوا بالقوة، شرعية خلافته بناء على وصية النبي قبل وفاته بتولي (علي) الخلافة بعد وفاته وكون هذه الخلافة تأخر قدومها إذ كان من المفروض أن يكون (علي) الخليفة الأول بعد وفاة النبي عوضاً عن (أبي بكر).

كذلك افترق المسلمون، داخل التيار الإسلامي إلى شقين رئيسين كبيرين سيأخذان تسمية تعرف بـ-: الشيعة وأهل السنة والجماعة.

السياق الخارجي (الدولي) إبان وصول الأمويين:

اتسعت رقعة الدولة الإسلامية بفعل الفتوح التي كان قد شرع بها النبي (ص) ومن بعده الخلفاء الراشدين، وأفاءت الفتوح الإسلامية على المسلمين مغانم طائلة فاقت تصور الفاتحين وجاوزت مدى تخيلهم، فإذا أيديهم تمتلئ بأموال لا تحصى، وإذا بالسبي يزحم القصور والدور، وإذا بأولئك العرب الذين كانوا يعيشون في جزيرتهم الضنينة بالخيرات والحياة أدنى إلى ضنك العيش، والشظف، يلقون أنفسهم في بلاد تفيض بالخير والثروة، وتهيأ لهم أن يقتنوا الضياع، والعقارات، ويثمروا الأموال، ويملكوا العبيد والإماء، فكان من الطبيعي أن تشغل هذه الحياة المترفة المسلمين، فيميلوا إلى الاستمتاع بطيبات الحياة ولذاتها[264].

وأدت من ناحية أخرى، الفتوحات الإسلامية الى انضواء أمم كثيرة تحت لواء السيادة العربية، ودانت لسلطان بني أمية شعوب فارسية وتركية وهندية وبربرية، فكان لهذه الشعوب تاريخها وحضاراتها، وظلت بعد الفتح، في سلوكها، وتفكيرها تمارس ما حملته، وما ورثته من ماض، ولكن من ناحية أخرى حدث اختلاط الفاتحين بالشعوب الأخرى طواعية، بحكم أن الجميع ينضوي تحت لواء العقيدة الإسلامية، وحصل تبادل في التأثر، والتأثير.

العناصر النفسية (العوامل السيكولوجية الخاصة) لرجالات بني أمية:

سياق داخلي مضطرب غاية الاضطراب على المستويين السياسي والاجتماعي (القبلي) وسياق العصر الجديد – والمرحلة الجديدة يشكل عالماً منفتحاً غاية الانفتاح أمام العرب الفاتحين عالم آخر وبقع جغرافية جديدة خارج شبه الجزيرة العربية، وشعوب مختلفة في نمط الفكر والسلوك، والتاريخ الحضاري، وتجل لأرض خصبة في انتزاع الرغبات الإنسانية الدفنية وفي تفتق المواهب المرتبطة بحب الحياة، وطيبات الحياة الدنيا، والرزق الجميل الأخاذ والحور العين الذي هبط من السماء على يد الفاتحين وتغلغل في الدور والقصور لينعم به الصغير والكبير، القاصي والداني فماذا كان موقف رجالات الخلافة الأموية من ذلك كله؟ هل كان بنو أمية، على العموم مسرفين في التهالك على أطايب الحياة الدنيا؟ وهل كانوا مسرفين في المجون، والانهماك على الملذات الأرضية وهل كانوا مستخفين بالدين وأحكامه قال المرحوم الدكتور (أحمد أمين) في كتابه فجر الإسلام:

كثير من شبان بني أمية وبعض بني هاشم كانوا يعيشون حياة هي إلى الجاهلية أقرب منها إلى الإسلام – شراب، وصيد، وغزل، كزيد بن معاوية، وصحبه، فقد كتب المسعودي، أنه كان صاحب طرب وجوارح، وكلاب صيد، ومنادمة على الشراب[265].

أما (معاوية بن أبي سفيان) صاحب دولة بني أمية، فما سنقوله الآن يحمل دلالته الكبرى في هذا السياق: أورد (جلال الدين السيوطي) في كتابه (تاريخ الخلفاء) أن معاوية (رضي الله عنه) قال بصدد الأحاديث الواردة في الخليفة (عمر بن الخطاب) ما يلي: وأما أبا بكر فلم يرد الدنيا، ولم ترده، وأما عمر فأرادته الدنيا، ولم يردها، أما نحن فتمرغنا فيها ظهر البطن[266]؟

وربما يفيدنا ونحن في سياق هذا العصر القول أن الإمام (علي بن أبي طالب) في كتاب (نهج البلاغة) المنسوب إليه، وشرح الإمام الشيخ (محمد عبده)، نجد في هذا الكتاب من أصل 320 وصية في مختلف شؤون المعرفة، والفكر والحياة أن 19 وصية صريحة غاية الصراحة حول: التزهيد في الدنيا، وهو يشير صراحة أيضاً إلى استغراق (بني أمية) في التهالك على أطايب الحياة الدنيا[267]، وهذه النصائح والأفكار الوعظية الداعية إلى الزهد في الحياة الدنيا تشير من ناحية أخرى إلى المسكوت عنه، أي ابتعاد القوم، وعليه القوم وخاصة بني أمية ورجالاتها عن: مطالب الحياة الآخرة، أو بلغة أخرى الابتعاد عن الدين وأحكامه، ومرجعياته في الحياة الخاصة لبني أمية وسيكون هذا الابتعاد من المرجعية في الحكم أيضاً.

وكان من الاتهامات التي كالها خصوم (بني أمية) أي: بنو العباس والعلويون، إلى بني أمية أنهم (العباسيون والعلويون) غير راضين عن شكل الدولة الأموية الدنيوي[268].

والحق أننا لا نتوقف كثيراً عند مقالات الخصوم في بني أمية، لأننا عندما نتكلم عن إدارة الأزمات فنعتبر أن الأطراف المتنازعة هم في أسوأ موقع في إدارة أزمتهم، هذا فضلاً عن أن الإدلاء بأقوال الخصوم كحجج وبراهين هو ابتعاد عن إحدى مهارات التفكير العلمي أعني: الموضوعية.

ولكن يمكننا القول، واستشهاداً بما قاله (معاوية) عن نفسه، وقومه، والتعبير عن موقفه من الإقبال على الحياة الدنيا، وتلبية نزعاته نحوها، والتمرغ فيها ظهر البطن.

ومع كل ذلك، فلقد كان خلفاء بني أمية حرصين على إضفاء الطابع الديني الإسلامي ليحملوا الناس على طاعتهم، وبالتالي قبول جهرهم بأنهم نالوا الخلافة بسيوفهم[269] لقد كان موقف الخلفاء الأمويين على العموم من التيار الدنيوي موقفاً آخذاً به بلا تردد و(بعصبية أو تطرف) باستثناء التجربة الخليفية لعمر بن عبد العزيز (رضي الله عنه) التي تعتبر تجربة مهمة في قيادة الدولة الإسلامية، لكونها تميزت بخصائص عكست مضمون الشريعة الإسلامية وعملت على تطبيق قواعدها في الشوى، والعدل في الحكم، كما يمكن عدها نموذجاً للحكم القدوة في إدارة الأمور مباشرة، وتفاعل ذلك مع الرعية[270].

نظام الحكم الأموي، وخصائصه:

انتصر التيار الأموي بزعامة (معاوية)، وكانت الظروف، أو الأوضاع القبلية مواتية له، وكان انتصاراً للتيار القبلي، ومنذ ذلك الحين نشأت الأحزاب والفرق ودب الاختلاف بينها جميعاً، حول: مسألة الحكم، وشرعيته، وحول مسائل دينية، ولاهوتية، وجاء الأمويون ليمثلوا سيادة قريش أمام القبائل وتكون شعور عام لديهم بأنهم يمثلون السيادة العربية، ولكن لم يمنع كل ذلك من بقاء الانقسامات داخل القبيلة، وجعل الآثار الجانبية لها تفعل أفعالها في المراحل التاريخية التالية:

مثل الحكم الأموي نقطة تحول في مسيرة الدولة الإسلامية بدءاً من (41هـ– – 132هـ–) (661 – 750م)، حيث بايع المسلمون معاوية، وهم على قناعات، ومواقف مختلفة شتى، فلم يتوحدوا، ولم يتفقوا، ولكنهم أيدوا موافقتهم في واقع الأمر وتخلصا من الفتنة (الأزمة) لا حباً بالمغريات والعطايا، وبذلك عدت خلافة معاوية بداية للتحول إلى نظام جديد وهو نظام الملك، واعتبر معاوية أول الملوك في نظام الحكم الإسلامي[271]، وتتفق كثرة هائلة من المصادر الإسلامية التاريخية على اعتبار أن الخلافة الأموية انقلبت إلى نظام ملكي، واعتبار معاوية الملك <العضود> القوي الشكيمة وإمبراطور المستقبل للإمبراطورية العربية والإسلامية الناشئة.

إذا كانت مواقف القبائل العربية عند وصول معاوية للحكم منقسمة اتجاه الأمويين، وقد انعسكت هذه الاختلافات في المواقف بتشكيل الأحزاب المعارضة للحكم الأموي، ولقد حدث تحول كبير في الحياة السياسية بوصول الأمويين <تمثل هذا التحول في خاصيتين :

الأول: تتمثل في حدوث تعديل جذري في نظام الخلافة من حيث طريقة إسناد السلطة إلى الخلفاء إذ حلت طريقة توريث الحكم (وهو ما يدخل في عنصر الذاتية الذي تحدثنا عنه في الفصل الرابع) محل الشورى الاتفاقية، وأصبحت شؤون الدولة تدار في ضوء الأساليب السياسية، والأغراض الدنيوية[272] والزمنية على حساب العقيدة والأغراض الدينية[273] وهذا ما ألمحنا إليه في عامل الابتعاد عن العقل والشرع – في الفصل الرابع من هذا الكتاب).

وبهذا المعنى تكون الخلافة الأموية بالمعنى الشرعي الإسلامي، فاقدة الشرعية لأنها لم تبن أساساً على النموذج النبوي والراشدي في توليه الخلافة، زد على ذلك أن المبدأ الإسلامي يرى أن السلطة هي سلطة الله، والخليفة هو منفذ لأوامر الله ووحيه، وسنة نبيه، لذلك فالمبدأ الوراثي الذي ستسير عليه الخلافة الأموية وسيستمر إلى ما بعد سقوط الدولة الأموية في ممارسته لدى اللاحقين من الخلفاء جميعاً، وهو لا يتمشى مع التقاليد القبلية في الرياسة لقد جاء الأمويون، وأكدوا أن حكم الخلفاء الراشدين لا يمكن الإتيان بمثله[274] والاقتداء الكامل بنموذجه ولا إعادة إنتاجه.

الثانية: لقد أصبح نظام الحكم من الآن فصاعداً نظاماً خليفياً وراثياً – يعتمد على المبايعة القسرية بدلاً من الشورى، أو اختيار الرعية، أو اللجوء إلى أهل الرأي والفقهاء، أو أهل الحل والعقد.

الثالثة: تأثر أسلوب نظام الحكم، وإدارة الدولة الإسلامية بكثير من المبادئ، والأحكام المستوحاة من النظم الخارجية: الرومية، الفارسية، والتي كانت عليها تسير البلدان قبل الفتح، وكذلك أخذت بعض مظاهر الأبهة، ومظاهر الحياة القيصرية والملكية، والإمبراطورية وغير ذلك ما كان لدى الشعوب الأخرى مثالاً[275] هذا بالإضافة لحفظ الأمويين بعض الرسوم، والمظاهر الإسلامية كإقامة الصلاة، والخطب الدينية في المساجد...الخ من مظاهر التغطيات الدينية لأنظمة الحكم المدنية، والتي لا يزال يعمل بها حتى يومنا هذا في أنظمة الحكم العربية.

خصائص نظام الحكم الأموي وتعامله مع الأزمات، وإدارتها:

أولا: يمكننا أن نشير إلى النقاط التالية حول كيفية ممارسة الأمويين لنظام حكمهم:

لقد قام نظام الحكم الأموي على تحقيق الوظائف الثلاث الأساسية:

* الأغراض السياسية.

* القوة المادية.

* الأغراض الدينية.

أولاً – كانت الأولى من الأغراض تحقيقاً لمفهوم الملك والوراثة في الحكم، والثانية محققة للقوة في الحكم، والمنعة، والثالثة المظلة الواقية ضد أي تمرد شعبي ديني من قبل أفراد الرعية متخذاً أسلوب الخروج على الخليفة لأنه يعصى الله، وأيضاً لإضفاء الميزة الدينية على أسلوب الحكم، وإكسابه الدعم الديني – من قبل الفقهاء وعلماء الدين.

1– عمل أهل البيت الأموي على تغليب المصالح السياسية على المصالح الدينية – الشرعية وإلى توظيف الولاءات االقبلية على حساب الولاءات الدينية[276].

2– قامت أسس الخلافة على مبدأ: التوريث وقد دفع معاوية بحكم العصبية لقومه بهذا الأمر نحو طريقة التولية بالوراثة داخل البيت الأموي وعدم خروج الخلافة عن المبدأ.

3– اعتمدت الخلافة الأموية على توليه الحكم في الولايات والأمصار على المناصرين لسلطتهم[277].

4– لقد حافظ نظام الحكم الأموي على توحيد المجتمع، والأمة الإسلامية، وعلى تأكيد الخصوصية العربية في الممارسة على صعيد السلطة، والنظام، وقام الأمويون بتعريب الأجهزة العامة، وتخليصها من العناصر الأجنبية، وجعلها دولة عربية بكل معنى الكلمة.

لقد جعلوا للعرب الكلمة الأولى في عالم العصور الوسطى، وأصبح العالم كله في تلك الفترة التاريخية يرغب في العربية، وثقافتها وأصبح العالم كله في تلك الفترة يتكلم العربية لقد وضعوا أسس الحضارة، والثقافة العربية، والفقه الإسلامي[278] وحاولوا السير على الأسس التي سار عليها الراشدون مع تعديلات اقتضاها العُرف واقتضتها الظروف المستجدة، والتطور ومثلت فتوحاتهم الموجة الثانية الكبرى للتوسع العربي.

ثانيا- سنناقش الأداء السياسي لهذه الدولة العربية أو بمعنى أدق، السلوك السياسي لخلفاء بني أمية، والمتعلق خاصة بإدارة أزمات المجتمع الناشئة مع نشوء الدولة والتي تركت بصماتها في إدارة شؤون المعارضة للحكم وحتى يومنا هذا.

نظرياً يمكن النظر إلى سلوك معاوية من زاويتين، وذلك حسب ما تذكره لنا المصادر التاريخية بين أيدينا:

أ- تناقلت معظم المدونات التاريخية شخصية (معاوية) الخليفة من حيث كونه: داهية العرب، والمتميز بالدهاء، والحنكة السياسيين، وكذلك سجلت المصادر الحديثة حول شخصية الخليفة هذه الصفات اعتماداً على المصادر القديمة.

وتناولت مصادر أخرى سلوك الخليفة السياسي من الزاوية السلبية.

روي أن معاوية قال: ما زلت أطمع بالخلافة منذ قال لي رسول الله ﷺ: يا معاوية إذا ملكت فاحسن[279].

وأخرج (ابن أبي شيبة) في المصنف عن عروة قال: قال معاوية لا حلم إلا بالتجارب وأخرج (ابن عساكر) عن (الشعبي) قوله: دهاة العرب أربعة: معاوية، وعمرو بن العاص، والمغيرة بن شعبة، وزياد.

فأما معاوية للحلم: والأناة، وأما عمرو فللمعضلات، وأما المغيرة في المبادهة وأما زياد فللكبير والصغير[280].

وتناقلت المصادر الحديثة كما قلنا هذه الأقوال، منها بعض المصادر الاستشراقية، وجميعها تتفق حول هذه الجوانب الإيجابية في سلوك الخليفة السياسي، قال كاتب في النصف الأول من القرن الماضي ما يلي:

لم يقتصر معاوية على التجارب وحدها في سياسته النفسية، فقد كان يسهر إلى ثلث الليل يقرأ أخبار العرب، وأيامها، وأخبار العجم وملوكهم وسياستهم للرعية، وسائر ملوك الأمم الأخرى حروبها وسياستها لرعيتها، وكان يدخل فينام ثلث الليل، ثم يقوم، فيقعد، فيحضر الدفاتر فيها سير الملوك، وأخبارهم والمكايد فيقرأذلك عليه غلمان له مرتبون وكلوا بحفظها وقراءتها[281].

ذكر الأستاذ (حسن إبراهيم حسن) في (تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي) بصدد الحديث عن معاوية ما يلي:

كان (معاوية) داهية من دهاة العرب ومن أوفرهم حظاً في السياسة، وقد نقل الأستاذ حسن ما قاله (الفخري): كان معاوية عاقلاً في دنياه، لبيباً، عالماً حليماً جيد السياسة حسن التدبير لأمور الدنيا.

ب- ووصف (نيكيلسون) معاوية بأنه كان سياسياً محنكاً لا يقل في مضمار السياسة عن (ريشيليو)، وقد مكنت معرفته التامة بالطبائع البشرية، أنه كان يجذب إليه الرجل وذوي الآراء المعتدلة في جميع الأحزاب المعارضة وبهذه الصفات، استطاع أن يكبح جماح المسلمين عامة، والخوارج خاصة، وأن يسوس الأمة سياسة تدل على الحنكة، وحسن التدبير[282] كان أكثر الخلفاء الأمويين مهارة، معاوية، وقد نجح مع الخلفاء الآخرين في السياسة في ممارسة:

1- القوة، 2- التحايل، 3- التجاهل[283].

والمقصود بهذا النمط السلوكي السياسي هو: التعامل مع المعارضات السياسية.

فكيف عالج (معاوية) الأزمات الناشئة بينه وبين المعارضة وهل استطاع أن يسير دوماً في تعامله مع الأزمات بحسب الصفات المذكورة.

1- لقد وصل معاوية، كما عرفنا إلى سدة الخلافة بالسيف (بالقوة) أي بعد انتصاره في معركة صفين (37هـ-) واستخدامه أسلوب (الخدعة) وطلب التحكيم من قبل (عمرو بن العاص) وهذه أول تجربة في التاريخ السياسي العربي التي استتبعتها تجارب لاحقة، أي الاستيلاء على السلطة بالقوة، وأصبحت طريقة توليه الحكام أي طريقة (الحكم لمن غلب) وأن السلطان هو من قتل السلطان، وخلافة الاستيلاء، وغيرها من عبارات سترد في الأدبيات والأحكام السلطانية.

أصبح طابع الحكم الأموي قائماً على: القوة وباستخدام القوة عمل الخلفاء الأمويون الذين تولوا الخلافة بعد معاوية يتعاملون مع الرعية من المعارضة، ومختلف أنماط المعارضات والتمرد والثورة التي حدثت طوال فترات التاريخ الأموي باستخدام: وسيلة القوة للتعامل مع أزمة المعارضة السياسية لخلافتهم.

اقترن ظهور حركة المعارضة بحركة خطابية شديدة نستشف منها طابع الحكم الأموي القائم على القوة، ويظهر ذلك جلياً في خطبة (يزيد بن المقنع) يوم اجتمع القوم لمبايعة (يزيد بن معاوية) حيث قال: أمير المؤمنين هذا، وأشار إلى معاوية فإن مات، فهذا وأشار إلى يزيد، فمن أبى، فهذا، وأشار إلى سيفه، فقال له معاوية أنت سيد الخطباء [284].

كثرت، وتوالت النزاعات (الأزمات) السياسية بين بني أمية، والمعارضين لهم منذ تولية معاوية وكانت لهذه النزاعات أسبابها المختلفة منها: الاقتصادية، فقد ذكر (د. شوقي ضيف) أنه إذا ذهبنا نتعمق النزاع السياسي الحاد الذي نشب طوال العصر، تكونت بسببه فرق الزبيريين والشيعة والخوارج، رأيناه يعود في كثير من جوانبه إلى بواعث اقتصادية فقد كانت هذه الفرق ترى الأمويين متسلطين على أموال الدولة، ينثرونها على أنصارهم، ومن يلوذون بهم دون نظر إلى مصلحة الجماعة، وذهب الزبيريون إلى أنه لا يمكن تحقيق هذه المصلحة إلا بعودة الخلافة من (دمشق) عاصمة الأمويين الجديدة إلى الحجاز وتحرير الناس من تحكم القبائل اليمنية التي جعل لها الأمويون لها معظم السلطان، وذهبت الشيعة إلى أن هذه المصلحة لا يمكن أن تتحقق إلا على يد (علوية) تحمل الناس على الحيادة، بينما قالت (الخوارج) أنه لا يمكن أن تتحقق هذه المصلحة إلا برد الأمر للأمة لتختار أولياءها الصالحين، ومضى جميع هؤلاء يجاهدون الأمويين جهاداً عنيفاً[285].

ويضيف الدكتور (الجابري) على ذلك دور عنصر القبيلة في التعامل مع الأمور، وذلك تبعاً للقول العربي القديم: أنا وأخي على ابن عمي، وأنا وابن عمي على الغريب[286].

ثم يقول (أحمد أمين): لما ولي الأمويون الخلافة عادت العصبية إلى حالها، كما كانت في الجاهلية (عودة المكبوت في اللاشعور لدى جمهور وأفراد القبائل)، بين بني هاشم وبني أمية، في الإسلام، وما كان بينهم في الجاهلية[287]، ونستخلص القول بأن ثلاثة دوافع وراء المعارضة السياسية لخلفاء بني أمية وهي:

1- الدوافع الاقتصادية (سوء توزيع الثروة).

2- عودة الروح العصبية (دور عامل: التعصب والتطرف السلوكيين كما ذكرنا في الفصل الرابع).

3- انحرافات سلوكية (دور عوامل شخصية وأثرها في علاج الأمور) سنذكر ذلك بعد قليل.

إذا أردنا أن نرى الأمور بعيون معاصرة أي أساليب الخلفاء في معالجتهم للأزمات في عصرهم فإننا نعتبر أن أساليب التعامل هذه، أو إدارة الأزمات بين السلطة والمعارضة كانت تميل ميلاً شديداً إلى العنف، والتطرف، والعصبية، من قبل طرفي الأزمة.

لقد رأينا سابقاً أن حلول أو معالجة المعارضة، وبتعبير آخر: رأي الزبيريون أن تحقيق المصلحة تكون بعودة الخلافة إلى الحجاز، ورأت الشيعة أن الحكم يجب أن يكون لأفراد أهل البيت ورأت الخوارج بتوفير أصلح الصالحين للخلافة (لقد توارت مصلحة الرعية) في هذه الطروحات وكان كل فريق من فرق المعارضة يقف عند (رؤيته الخاصة) أو أنه قدم حله الخاص للأزمة أو للنزاع.

كانت السلطة الأموية أيضاً بدورها ملتزمة من حيث المبدأ بالقضاء على كل أشكال المعارضة، وتعتبر نفسها أنها مفوضة من الله تعالى لهذا الأمر، إذ أن سلطانها من سلطان الله، ولا أحد ينازعها في هذا الأمر.

كانت السلطة نظاماً استبدادياً وكان خلفاء بني أمية من الناحية السياسية مستبدين طغاة وخاصة إزاء المعارضة رغم أعمالهم الجليلة[288].

لقد كانت الحالة السياسية في عصر الأمويين، أبعد ما تكون عن الهدوء والاستقرار وطوال مدة حكمهم التي ناهزت القرن من الزمن، لم تهدأ حركات المعارضة لحكمهم، وكان عهدهم حافلاً بالأحداث، والفتن (الأزمات) والثورات، ولعل أهم أسباب وجود المعارضة شيوع السخط العام، والنقمة من سياسة الخلفاء، أما بواعث هذا السخط، وهذه المعارضة، ذكر معظمها المؤرخون مثل: جور الأحكام، تعطيل الحدود، والخروج من أحكام الدين (وهو ما ذكرنا من الابتعاد عن الشرع، والعقل في الحكم في فصلنا الرابع)، واحتجاز المال، والاستئثار بالنفوذ والسلطان، وإيثار المقربين والأنصار والهبات والعطايا لهم، وانتهاك الأماكن المقدسة، واغتصاب الحقوق من أصحابها[289].

قال (ابن خلدون) إن من الدوافع التي عملت على شيوع السخط على السلطان القائم: النزعة الفردية المتأصلة (لقد المحنا إلى الفردية كعنصر من العناصر في الفصل الرابع)، ومن طباع العرب المنافسة على الرياسة (جاذبية السلطة) وكلما تجتمع أهواءهم[290].

المرجعية الإيديولوجية للخلافة الأموية في تعاملها مع الأزمات:

قلنا سابقاً أن بني أمية، ورجالاتها أخذوا بالتيار الدنيوي، المقابل للتيار الديني الإسلامي الذي وضعه القرآن الكريم في العهد المحمدي، والخلفاء الراشدين وقد ذكرنا قولة معاوية المشهورة أن قومه اقبلوا على الحياة الدنيا وتناولوها ظهراً لبطن.

والواقع من حق الخليفة والناس جميعاً الإقبال على العيش والحياة الدنيا، والبحث عن رغد الحياة والتعلق بحبها، ولم ير الإسلام غضاضة في الأمر، بل بالعكس إنه يذكر المؤمنين بأن يأخذوا نصيبهم من الدنيا، ولكن المشكلة التي تجلت في الحياة السياسية الأموية هو: الأخذ بجانب واحد والنظر إلى الدنيا والعالم من زاوية: مطالب الحياة الدنيا فقط[291] وإهمال مطالب الآخرة، والتي تتطلب هذه الأخيرة: إقامة العدل وتنفيذ أحكام الله واعتبار أن السلطة هي سلطان الله على عباده، وعدم توريث الحكم وقد علم خلفاء بني أمية بالنموذج النبوي وحكم الشيخين، فكيف لمعاوية وهو المسلم، وقد تمت مبايعته ليحكم بما أنزل الله، فعمل منذ توليه الخلافة على إبراز >إيديولوجيته الدنيوية في الحكم – نظام الملك أو السلطة< طاوياً صفحة الحاكمية الإلهية، مقلداً نمط حياة سياسة الملوك، والأباطرة، من أبهة وترف وقصور.

يظهر لنا ميل رجالات بني أمية نحو تفضيل وتغليب مطالب الحياة الدنيا وتشديد الكلام بأن هؤلاء الرجال قد تمرغوا منذ بداية أمرهم في الدنيا ظهراً لبطن، مدى: الغلو والتشدد، والتطرف في السلوك العام والذي انعكس في سلوكهم السياسي وفي علاجاتهم للأزمات وتعاملهم معها:

ومن جانب آخر لقد عمل الخلفاء الأمويون منذ توليهم الخلافة على دعم إيديولوجية فكرية لا تناقض الإيديولوجية الدنيوية السابقة أعني تشجيعهم ل–:

1– القول بالإرجاء، أو اتباع أفكار فرقة اسمها (المرجئة) التي لم تحكم في أصحاب الفتنة الكبرى وأرجأت أمرهم إلى الله، تجنباً لتعقيد الأمور، وفسح المجال لخلفاء بني أمية بالسير الهادئ في حكمهم.

2– القول بالقدر والفرقة القدرية ظهرت في بدايات العصر الأموي والتي تبرر حجج الخلفاء الأمويين بكونهم قدر الأمة، من الله تعالى ولا راد لقدره تعالى والترويج لهذه الفكرة.

3– محاربة الخلفاء الأمويين، وبلا رحمة ولا هوادة الفرق (الكلامية)، و(المناقشات اللاهوتية) والقول بحرية الإرادة وتحكيم العقل.

هذا هو المناخ الإيديولوجي، القائم على: الالتزام بمقتضيات التيار الدنيوي وتشجيع الأفكار والآراء التي تبرر وجودهم في السلطة والانتشار الواسع للوعظ، والإرشاد الديني والخطب الدينية التي تذكر بنسب الأمويين للنبي، واتباعهم سنته، وحكمهم الصالح... يناقش بعض الباحثين مسألة إعادة الاعتبار لمعاوية فيقول:

لقد كان ملك معاوية فعلاً أول دولة سياسية في الإسلام، أو الأول قبل كل شيء، والضمير السني ينظر إلى ملك معاوية أولاً وقبل كل شيء بوصفه البديل الذي جاء ليضع حداً للفتنة التي كانت تتهدد وجود الأمة ككل بل وجود الإسلام كدين والتي اشتعلت في السنين الأخيرة من عهد (عثمان) لتتطور إلى حرب أهلية دموية بين علي من جهة، وطلحة والزبير من جهة أخرى، وبين معاوية وعلي ثانية ومن هذه الزاوية يبدو ملك معاوية ك–(إنقاذ) لوضعية متفسخة هددت الإسلام[292] لكن الأمر لم يتعلق بالمهددات والمعايير الإسلامية الصرفة، بل انتقلت الأمور لممارستها بدءاً من سلطة الخلافة نفسها وانتهاء بالتعامل مع الضد إلى سلوك شخصي، اتسم حيناً بالدهاء، والحلم، والقدرة على التفاوض والحنكة، وهي مهارات جيدة في إدارة الأزمات، وتارة بالتطرف، والشدة في المواجهة، أعني مواجهة المعارضات السياسية ذلك منذ توليه أول خليفة أموي وانتهاء بسقوط آخر خلفاء بني أمية باستثناء الخليفة (عمر بن عبد العزيز) والذي لم يقيض له الحكم لمدة طويلة.

إن سلوك الخلفاء الأمويين في التعامل مع أزمة المعارضة الذي مال في الأغلب نحو العنف، والاستبعاد، والتطرف[293] أوجدت طريقاً استمر في سلوكه الخلفاء اللاحقين، أعني السلوك المتطرف في النظر والتعامل مع الواقع وأزماته.

تقوم فكر القضاء على المعارضة التي انتهجها بعض خلفاء بني أمية بدءاً من تولية معاوية على فكرة التطرف أو السلوك المتطرف ورغم إيجابيات (معاوية) فإن بعض الآثار

الجانبية في سلوكه تجلت في تعامله مع الأزمات إذ أنه كان يميل أحياناً إلى القضاء على المعارضة، وهذه الفكرة المتطرفة منبثقة من سلوكه العام أو ميله الوحيد الجانب إلى التيار الدنيوي، والقطيعة مع العمل بالمرجعية الإسلامية – الشرعية.

أسلوب معالجة الأزمات لدى بعض رجالات العصر الأموي:

قلنا سابقاً أن العصر الأموي اتسم، منذ تولي الخليفة (معاوية) الخلافة بالأزمات الداخلية، والخارجية، رغم أنه كان عصراً عظيماً، حيث تجلت عظمتته في أن أقيمت فيه أول دولة عربية في التاريخ، ووطد نظاماً من أقوى النظم التي عرفتها البشرية في دنيا العصر الوسيط، وبفضل هذه الدولة، تم التوسع لتنقلب الدولة إلى إمبراطورية، دخل الإسلام واعتلى عرش التاريخ العالمي في تلك المرحلة(294) حيث أصبحت الإمبراطورية إحدى أعظم إمبراطوريات العالم القديم وكان لهذا الحدث الإمبراطوري العربي – نظاماً ولساناً وثقافة عواقب لمست أصقاع السند، وإسبانيا تحت سلطة واحدة، ونظام اقتصادي مزدهر، وحاصل القول كانت الكلمة آنذاك في العالم، للعرب وكانت السيادة لهم وكانوا ينظرون إلى العالم من موقع القوة.

لكن هذه القوة العظيمة سرعان ما بدأت تنخر عظامها الأزمات الداخلية الطاحنة، ورغم إعجابنا كأبناء العربية برجال هذه الإمبراطورية، إلا أننا عندما نتوغل في مسالكهم الوعرة سنصطدم، ولا شك بطرائق تعاملهم مع الواقع الجديد، وأزماته، وخاصة على الصعيد الداخلي ومسيرة الحياة السياسية، لقد عملت الأزمات (التمرد، والثورات، والسخط الجماعي، وغضب الرعية، ومواقف المعارضات) على إفساد خطط هؤلاء الرجال.

لقد تغلغلت العوامل الخاصة التي ذكرنا في بنية تفكيرهم وسلوكهم، ونمط حياتهم وطرائق تعاملهم مع واقع الأزمات، وزبدة القول أن رجالات هذا العصر كانت لهم إيجابيات، وكانت لهم سلبياتهم، ولقد أظهرت وقائع التاريخ، ومتونه وما سجلت لنا هذه المتون أن السلبيات قد تجاوزت إيجابياتهم أو إنجازاتهم السياسية وحي كان أداؤهم السياسي الذي تخلله نمط معالجة الأزمات الضعيف، كان أداء ضعيفاً بدوره.

سنحاول عرض بعض النماذج (حالات دراسية Case Study) حول أساليب معالجة القوم الأزمات السياسية الداخلية.

لقد لاحظ الدكتور (محمد جابر الأنصاري) تدني مستوى الأداء السياسي العربي في إدارة الدولة[295] بدءاً من الدولة الأموية، وانتهاء الدور العربي في قيادة الدولة العربية والإسلامية، وممارسة السلطة.

1- **زياد بن أبيه وإستراتيجيته في إدارة الأزمات**: (العام الأول للهجرة - وفاته 53هـ)، عندما وقعت الفتنة في ولايته (كموقفه إبان فتنة بن الحضرمي) عام (38هـ)، خرج ابن عباس إلى الكوفة ليخلف زياد بالبصرة، فأراد معاوية انتهاز الفرصة ليفسد البصرة على علي بن أبي طالب، وقد عرفت بولائها إلى الخليفة (عثمان) فوجه غليها رجلاً يُعرف (بابن الحضرمي) فلما حكمها التفت حوله بنو (تميم)، وكثير من أهل البصرة، وخشي زياد عاقبة الأمر، فرأى أن خير ما يفعله هو:

* الإيقاع بين قبائل البصرة لئلا تجتمع عليه، وقد أفلح في الإيقاع بين قبيلتي (ربيعة، وأزد) لقد برهنت هذه الحادثة على كفاءة زياد السياسية، ومهارته في التغلب على: الصعاب التي تعترض سبيله، كما أنها كشفت عن خطته السياسية التي تقوم على: التفريق بين القوم، وضرب الناس بعضهم ببعض، وهي سياسة ظل يلتزم بها طوال مدة ولايته[296].

كان (زياد) محنكاً له كفاءة سياسية فذة، وصف بأنه الرجل الصلب الرأي ،العالم بالسياسية ،الكفء لما يول له.

تابع منهجه في (فارس) على (39هـ) حيث عمل على ضرب الناس بعضهم ببعض[297].

وكان يعتمد: الحيلة أكثر من اعتماده السيف، ولم يكن يلجأ إلى سياسة البطش والعنف والشدة إلا حين لا يجد مناصاً منها، ولا يعمد إليها إذا استطاع تحقيق أهدافه عن طرق أخرى.

وقيل أن عصر الأمويين لم ينجب نظيراً لمعاوية وزياد في:

* الدهاء.

* حسن التدبير.

* الخبرة بسياسة الناس.

وأخيراً إن الركائز التي قامت عليها سياسة كل من: معاوية وزياد هي:

1- التفرقة بين الخصوم، وضرب الأطراف المناهضة له بعضها ببعض.

2- صلابة الرأي (عدم المرونة، مما يحمل الميل إلى التطرف حسب الحالات الأزموية).

3- الدهاء.

4- حسن التدبير (المعالجة).

5- الخبرة.

6- اللجوء إلى القوة عندما تقتضي الحاجة.

ورغم هذه العناصر المقومة لإستراتيجية (زياد) في إدارة الأزمات، فكان زياد ينطلق في خطبة له سميت بالبتراء، وتعني أنها لم تبدأ الخطبة بالبسملة والحمد والثناء والشكر لله فهي تقوم على:

* القضاء على الفتنة (الأزمة) هذا يعني الفضاء على أطراف الأزمة المناوئة لا محاورتهم.

* الأخذ بالولي، بالمولى.

* المقيم بالظاعن.

المطيع بالعاصي[298]

لقد اعترض عليه (أبو بلال) حول معاقبة المرء بوزر لم يرتكبه شخصياً، فعلل (زياد) لجوءه إلى هذه الخطة بقوله: إننا لا نبلغ ما تريد فيه، وفي أصحابك حتى نخوض إليكم الباطل خوضاً لقد تأثر (زياد) بسياسة (عمر بن الخطاب) القائمة على >اللين في غير ضعف، والشدة في غير عنف< ولكنه لم يأخذ بمبادئ عقيدة بن الخطاب الإسلامية الشرعية كمرجعية في إدارة الأمور، مع أنه كان خبيراً بتصريف الأمور والاحتيال على المآزق (الأزمات) ويقول ليس العاقل الذي يحتال للأمر إذا وقع فيه، ولكن العاقل الذي يحتال للأمر في أن لا يقع فيه[299].

يقول (الدكتور النص) نحن لا نبرئ زياداً من السعي وراء مصلحته الخاصة، وإنماء موارده، ورعاية مصالح ذويه، ولا نبرئه أيضاً من الميل إلى العنف، والشدة، وهو يختلف عن معاوية الذي كان أكثر ميلاً إلى التسامح والحلم[300].

والخلاصة: كان أسلوب زياد في التعامل مع الأزمات يتميز بالتهديد والوعيد والعنف، والشدة والخروج عن النص القرآني في موضوع المسؤولية الجماعية المضادة للآية القرآنية {ولا تزروا وازرة وزر أخرى}.

الحجاج بن يوسف، وجه آخر للتعامل مع الأزمات:

إدارة الأزمات بالعنف، والتعامل المتطرف معها:

قائد كبير، ومنظم للثورات وفي عام (75هـ- - 694م) وصل بمفرده إلى مسجد الكوفة، وكان مليئاً بالمشاغبين فرفع عمامته صارخاً: إني أرى رؤوساً قد أينعت، وحان قطافها، وإني لصاحبها وكأني أنظر إلى الدماء بين العمائم واللحي، يا أهل العراق، يشهد الله أني لست من أولئك المندفعين إن عبد الملك أمير المؤمنين، قد فرغ كل ما في جعبته وجرب سهامه، فلم يجد بينها سهماً أكثر مني حدة، ومرارة.

كان الحجاج متصلباً بالرأي وشرساً[301] وإن شخصيته السياسية سجلت معالمها مختلف المتون التاريخية التراثية كعلم من أعلام العصر الأموي.

انتقد الإمام (حسن البصري) (21 - 110هـ-) تولية الحجاج على العراق، إذ بدأ عهده بسفك الدماء وأخذ العراقيين بالشدة، فلم يسمع الحسن البصري إلى السخط عليه، وإطلاق لسانه بذمه، ونقد أعمالة - بيد أن سخط الحسن على الحجاج لم يدفع إلى الثورة عليه، ولكن كان أشد ما ينكره على الحجاج نفاقه، ومخالفة قوله لعمله، فكان الشيخ يقول في الحجاج: يتلو كتاب الله، على لخم وجذم ويعظ وعظ الأزارقة (فرقة مغالية من الخوارج)، ويبطش بطش الجبارين[302] ومن المحقق أنه كان يتمنى زوال حكم هذا الطاغية المتجبر.

قام تيار الثورة الجارف ضد (الحجاج)، فقام (أبي الأشعث) وانضم إلى هذا التيار خلق كثير ولكن (الحسن البصري)، نأى بنفسه عن التيار الثوري ومن ناحية أخرى نمي

إلى الحجاج مرة أن الشيخ البصري، قال عن الخلفاء بمن فيهم الحجاج، أنهم عبدة المال، فقال الحجاج للحسن: أنت تقول هذا فقال الحسن: نعم العلماء لا يكتمون ما أمرهم به الله، وقال له الحجاج: يا حسن، أمسك عليك لسانك، وإياك أن يبلغني عنك ما أكره، فافرق بين رأسك وجسدك[303] ويبدو كما يقول صاحب كتاب (الخطابة) أن الحجاج لم يكن جاداً لإدراكه دور الحسن، وانتفاعه به أمام الثورات والفتن، إذ يأخذ دور: المهدئ لمختلف أنواع التمرد والثورة والعصيان ضد الحاكم[304].

هذه الجمل الصغيرة، التي قيلت، ونقلت على لسان الحجاج تدلنا على أسلوبه في التعامل مع الثورات والأزمات والفتن، والعصيان، والتمرد، لقد كان شديد العنف، ، بل لقد ذهب إلى أبعد من ذلك في ممارسة العنف من الخلفاء الآخرين لذلك العصر.

لقد كان العنف مفتاح المواجهة لديه، وعندما نقول العنف فنحن نقترب من فهم السلوك العام والشخصي للحجاج والقائم على كلمة واحدة: التطرف بلغة العصر.

واجه الحجاج فتنة ابن الأشعث (101 – 102هـ–) حيث قال الحجاج في ابن الأشعث: ما رأيته قط إلا أردت قتله[305].

وكان الحجاج بن يوسف لا يطمئن إلا إلى من كانوا من قبيلة قيس[306].

فكانت (الثقة) وهي موقف سيكولوجي – أخلاقي وهي من العوامل الشخصية ولا تتعلق بالمهارات والكفاءات والأداء السياسي الجيد، والثقة هي معيار الحكم على صدق الموالاة والولاء، والانتماء، إنها موقف فردي وذاتي.

والواقع لا ننكر أهمية الثقة في التعامل بين الأطراف في الحياة السياسية، وفي مؤسسات العمل المختلفة الأخرى، ولكنها (أي الثقة) لا تستقيم وحدها والحياة السياسية بل لابد من توفر المقومات الأخرى للنجاح في العمل السياسي، المتضمن بدوره: مهارة إدارة الأزمات.

نبذ، ومقالات مختلفة عن خلفاء آخرين لنبي أمية (العوامل الخاصة في سلوك بعض الخلفاء):

إذا كانت الحالة السياسية في عصر بني أمية قد وصفت بعدم الاستقرار، وبشدة المعارضات للحكم، وبالثورات وبالتمرد هنا، وهناك، فكيف للمهارات السلوكية السياسية التي وصف بها عدد غير قليل من الخلفاء من قبيل: الدهاء أو الحنكة، والحيلة، والحلم، والتفاوض أن لا تجيد التعامل مع هذه الأزمات إلا من باب: القوة والعنف، والتطرف.

جعل (معاوية) ابنه (يزيد) خليفة على الناس بالإكراه[307]، وكان سبب خلع أهل المدينة ابن الزبير، إسرافه في المعاصي[308]، ولما صارت الخلافة إلى عبد الملك، توجهنا مع الحجاج حتى قتلناه، وقال (ابن عائشة) عندما أفضى الأمر إلى عبد الملك وكان المصحف في حجره فأطبقه، وقال هذا آخر العهد بك[309] وزعم بعضهم أن (عبد الملك بن مروان) قال عند توليته لا أداوي داء هذه الأمة إلا بالسيف حتى تستقيم لي قناتها[311] كان الوليد بن عبد الملك جباراً ظالماً[310].

وكان سليمان ينهي عن الغناء، وكان من الأكولين، ويروي أن حضر في المجلس، وكان فيه سبعون ومئة خروفاً وست دجاجات، وزبيب، فداهم الطعام[312].

كان (عمر بن عبد العزيز) الخليفة الصالح، وخامس الخلفاء الراشدين، يخطب بالناس وعليه قميص مرقوع، وقد برم منه بنو أمية لكونه شد عليهم، وانتزع من أيديهم كثيراً مما غصبوه، وكان قد أهمل التحرز فسقوه السم[313].

أما (يزيد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم)، وقد جاء بأربعين شيخاً فشهدوا له على أن الخلفاء لا يحاسبوا يوم القيامة ولا عذاب لهم[314].

وكان هشام بن عبد الملك حازماً صارماً عاقلاً يكره الدماء[315].

وكان (الوليد بن يزيد بن عبد الملك) الخليفة الفاسق شريباً للخمر، منتهكاً حرمات الله، أراد الحج وشرب الخمرة فوق ظهر الكعبة، فمقته الناس وخرجوا عليه[316].

أما (يزيد الناقص) فدعي الناس إلى الغدر، وحملهم عليه[317].

هذه نبذة تحكي لنا سلوكيات الخلفاء في العصر الأموي.

ربما تكون هذه السلوكيات للقيادة الخليفية في ذلك العصر، صادرة عن تكوين الطبيعة البشرية لهؤلاء الخلفاء وهم بشر مثلنا، يقعون في مطبات سلوكية، ولا ندين هذه السلوكيات، مع افتراض صحة المراجع التاريخية بين أيدينا ولكنها صورة سلبية ولا شك تعكس بعض الخلل، وعدم التوازن في المسالك القيادية، ومسالك خلفاء تربعوا على عرض إمبراطورية ناشئة امتدت في مختلف أصقاع الأرض حاملة دعوة سماوية للبشرية تريد إسعاد الإنسانية بمبادئها، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى نفترض أن الخلل في سلوك قيادات ذلك العصر، امتد ليشمل إدارة الأزمات الداخلية من حيث كونها إدارة مخلخلة غير متوازنة تمارس العنف والقوة، ولم تمارس المهارات الإدارية الأخرى التي سجلتها لنا المتون التاريخية من قبيل التفاوض، والحكم والحكمة والحنكة، وخاصة مع المعارضة السياسية لها.

أساليب المعارضة السياسية في إدارة الأزمة مع السلطة

كان تاريخ العصر الأموي سجلاً درامياً لصراع متصل بين: الأحزاب والفرق المختلفة، وكان مدار النزاع على الخلافة كما قلنا، ففي سبيل الظفر بها اصطرعت الأحزاب واتسع صراعاً واقتتالاً، وحرباً على صعيد الكلمة، والخطابة والشعر، ولم تهدأ ثائرة الثورات والتمرد طوال العصر، فكان النزاع القبلي صورة جلية من صور النزاع السياسي، حيث شهد العصر، تجدد الخصومات القبلية التي كان الإسلام قد استطاع بدعوته إخماد جذوتها[318]، كانت أبرز الأحداث (الأزمات) الداخلية زمن بني أمية هي:

1- ثورة ابن الزبير (61هـ-) حيث كان معاوية قد أوصى ابنه يزيد بأن يعالج الأمر بالعنف والشدة أي إدارة الأزمة بالقوة.

2- ثورات الشيعة، كان الحزب الشيعي يرى أنه أحق، وأجدر الأحزاب بتولي الحكم، واعتبر بني أمية أنهم مغتصبون له، وبعد مقتل (الحسين) ابن علي أصبح حزب (علي) ملتقى جميع النزاعات المناوئة للعرب[319].

3- ثورة الخوارج وكان هؤلاء كمعارضة مسلحة منذ خروجهم على الإمام (علي) في معركة الجمل قد استمروا في معارضتهم الشديدة للحكم الأموي طوال العصر.

وحبذا لو ندلي ببعض تفاصيل هذه المعارضات لنقف على أسلوبها في التعامل مع السلطة: عرفنا، أن الخوارج رفعوا أثناء معركة الجمل شعارهم أن: لا حاكمية، ولا حكم إلا الله، ولا حكم للرجال على الله، وهم يعنون بهذا رفضاً للتحكيم، وكان موقف الإمام (علي) باعتباره قد قبل التحكيم بينه وبين معاوية بواسطة (عمرو بن العاص)، وتطورت الأحداث وتفاقمت المشكلة، وأخذ الاحتكام إلى السلاح مجراه، ومنذ ذلك الحين وقف الخوارج، كمعارضة للسلطة الجديدة بزعامة (معاوية) موقف الرفض وعدم التفاوض وكان لديهم البديل الذي لم يروا أفضل منه وهو الالتزام الحرفي بكتاب الله فكان موقفهم يوصف بالشدة، وقط تطور موقفهم في اعتبار من مخالفيهم كفاراً، (فرقة الأزارقة خاصة) ويجب معاملتهم كالمرتدين ولا يقبل منهم إلا الإسلام ديناً أو يجب محاربتهم، بالسيف، فالدار دار كفر، إلا من أظهر إيمانه وهم لا يحلون أكل ذبائحهم لقد ظلت العقائد الخارجية بمنأى من التأثيرات الثقافية في بلاد الفتح، وبمنأى عن النظر العقلي[320] وناهضوا الحكم الأموي مناهضة شديدة لا هوادة فيها ولا مهادنة.

إن أقل ما يوصف به الخوارج في التعامل مع أزمتهم مع الخلافة الأموية بالسلوك المتطرف في مواجهة سلوك الخلافة الأموية الذي اتسم بدوره بالتطرف.

أما بالنسبة للشيعة، فقد كانت الفرقة الشيعية كمذهب سياسي تقوم على أحقية علي وأبنائه وآل البيت عموماً في الخلافة، ذلك كما أوصى النبي (ﷺ) بالنص، والتعيين، والإمام عند الشيعة هو صاحب الخلافة الدينية والسياسية إذ أن محور الخلاف بين الشيعة والسلطة الأموية كان السؤال: من أحق الناس بتولي الحكم وكان جواب الشيعة هو جواب واحد، وبديلهم كان بديلاً واحداً إنهم آل البيت.

لقد اتصف موقف الشيعة بالرفض المطلق للخلافة الأموية، وكان موقفهم بدوره لا يخلو من التطرف، وكان هذا التطرف يخبو أحياناً وراء التقية والركون إلى الحزن (التشاؤن) [321]، والحديث عن عذابات آل البيت، وانتظار الإمام الذي سيأتي لا محالة لينقذ الأرض من الجور، ويملأها عدلاً، وسلاماً.

الفصل السابع
العباسيون وأساليب إدارة الأزمة

مقدمة:

أسباب كثيرة اجتمعت طوال العصر الأموي السابق، وأدت شيئاً فشيئاً إلى تهالك الإمبراطورية الناشئة، وانقضاء عهد الدولة العربية الأولى في تاريخ العصور الوسطى الإسلامية وإلى سقوط معالم الخلافة، سقوطاً درامياً، ومأساوياً في كل من (الشام) أولاً ثم في بقية الأمصار الإسلامية التي عاشت في ظل هذه الخلافة.

ومن الصعوبة بمكان أن نحدد الأسباب بدقة علمية ، لاسيما ونحن في إطار حدث تاريخي – إنساني وظاهرة السقوط التي تمت بفعل الإرادات البشرية، فليس من السهولة تحديد الأسباب بالشكل الرياضي والرقمي، ولقد اجتمعت لهذا الحدث أسباب كثيرة كما قلنا، ومتشابكة، ومعقدة، ولقد جهد الباحثون، والدارسون في التاريخ السياسي للحضارة العربية الإسلامية، وحاولوا تحديد الأسباب التي أدت إلى سقوط الإمبراطورية، ربما سيكشف المؤرخون، والدارسون في مستقبل الأيام أسباباً أخرى غير ما سنذكر فيما بعد، ومهما يكن من أمر، يمكن القول أن أسباباً مباشرة وغير مباشرة عملت طيلة العصر لتنخر شيئاً، فشيئاً في جسد الدولة الأموية كي تصل إلى نهايتها المحتومة، ثم ولادة كيان دولة جديدة، ونواة إمبراطورية، ونواة حضارة مزدهرة، وعلى هامش السقوط الأموي، فر من استطاع الفرار من هجوم القادمين الجدد وإلى بناء الأندلس (أسبانيا) اليوم، لتكوين مشروع حضارة أندلسية لا تزال معالمها ماثلة حتى اليوم.

يمكن تصنيف أسباب ضعف ومن ثم سقوط الدولة الأموية إلى:

* أسباب داخلية مباشرة.

* أسباب خارجية غير مباشرة.

1- **أما الأسباب الداخلية** التي أفسدت على الدولة مسيرتها فهي من العرب أنفسهم أي:

* الصراعات، والمنافسات والتعصب القبلي، بين: القبائل الكبرى المهيمنة في ذلك العصر أعني: القيسية، واليمانية.

* المعارضـة الشـديدة والمسـلحة، والحـروب الكلاميـة بـين العباسـيين والعلـويين، والأمويين أصحاب السلطة حينذاك.

* مناواة العنصر غير العربي، الذي بدأ منذ تلك الفترة إشهار العداوة للنهج والإدارة العربيين، والطعن في: الخصوصية العربية التي بدأت تشق طريقها في إدارة أمور الدولة حينئذ[339].

* غلبـة أصـحاب التيـار الـدنيوي (حـب الـدنيا)، والانصـراف لـدى مختلـف قيـادات العصر، مع استثناءات قليلة، نحو الانغماس في شؤون الحياة الدنيوية حتى أصبحت هذه الميـول هي التعبير السـاطع عن إيديولوجية القيـادات السياسية، وانعكاسـاتها لـدى أناس ذلك العصر مما أبعد السلطة، والناس حولها عن تحقيق المثل العليا الإسلامية، وعدم تحقيق المثل الأعلى، والنموذج النبوي – الراشدي في القيادة، والإدارة، ونظام الحكم، وأزمات السلطة ومعارضاتها.

لا ننكر أن بعض خلفاء بني أمية كانوا يحملون في أعماق نفوسهم مشاعر دينية متأثرين بالتوجهات والتربية الدينية، (فعبد الملك بن مروان) نشأ نشأة دينية، وتعلم الفقه و(الوليد) اهتم بتعمير المساجد، وتزيينها و(سليمان بن عبد الملك) كان إلى حد كبير تحت تأثير الفقيه (رجاء بن حيوة) و(عمر بن عبد العزيز) اتبع المبادئ الإسلامية في حكمه، واجتهد في صناعة وتدبير الأمور طبقاً لشريعة الله، وانتهاج سياسة ترضي المتذمرين من عرب، وموال، وتهدئ الأحزاب، أفليس عجيباً أن يقتل (الوليد الثاني)، وهو يقرأ القرآن[340].

ولكن رغم هذه المحاولات الخليفية الفردية في الالتزام ببعض طرق الاستقامة، كان التيار الغالب والإيديولوجية السائدة يعيشان في قلب صراعات، ومنافسات دامية، أدت لأقدار وحتميتها إلى الوصول إلى النهاية، لأن كفة الميزان كان للسلبيات فيه الرجحان والميل الكبير على كفة الإيجابيات.

2- أما الأسباب الخارجية يمكن تلخيصها في كلمات:

كان الإسلام قد أخذ بالانتشار بين شعوب البلدان التي تم فتحها من قبل المسلمين منذ العهد النبوي الشريف، والراشدي، وكثر عدد الموالي الذين اعتنقوا الإسلام، وسرعان ما نمت، وظهرت في هذه الأجواء روح العداوة والبغضاء، والمنافسة من قبل الكثير من هؤلاء وإثارة حفيظتهم إزاء العرب المستأثرين بالثروة والسلطة والسلاح.

استغل العباسيون (بنو العباس) و(الهاشميون) هذه النزعات المضادة للخلافة الأموية وللعرب عموماً تحت ستار معاداة السلطة الأموية.

لقد كان تيار الموالي منبثقاً عن اتجاهات مختلفة منها: النزعة القومية (بمعناها التاريخي) الذي يشير إلى الشعور بالكيان القومي الخاص، والميل إلى التحرر من السيادة العربية، ورغبته في إعادة الأمجاد الإيرانية، وأمجاد حضاراتها القديمة.

إضافة لهذا، كانت الحركات الاجتماعية، والدينية السابقة لدخول الإسلام لهذه البلدان، قد أظهرت عبر مناقشات دينية، وثقافية علو كعب ثقافاتها بالمقارنة مع الثقافة الإسلامية، وأخذت تقاوم الروح الإسلامية الجديدة، ومن هذه النزعات الدينية المناوئة للإسلام (المانوية) و(الزرادشتية)، وبعض الحركات الدينية المسيحية، التي شرعت في مناقشات لاهوتية (جهم بن صفوان) مثالاً لإثارة مناقشات دينية حول مسائل القدرة، والحرية، ومثل هذه الحركات أخذت تشعر بأن الخلافة الأموية العربية الإسلامية تشكل خطراً على كياناتها[341].

استثمر العباسيون جمع هذه التيارات المضادة للسلطة القائمة وبتأييد الهاشميين، وأعلن أولئك، وهؤلاء أحقيتهم بالخلافة، وجمعوا صفوفهم، وقواهم، وأشاعوا في كافة أرجاء الإمبراطورية الناشئة، أفكارهم، وحمل الجميع الراية السوداء، متنقلين من خراسان (إيران) نحو (الكوفة) و(البصرة)، ثم إلى بقية الأمصار الإسلامية الأخرى، وبعد صراعات دموية طاحنة استولى بنو العباس على الخلافة في بغداد، و(خراسان)، وأعلنوا سيطرتهم الكاملة على الدولة وتم فرار (عبد الرحمن الداخل) في تلك الأثناء متوجهاً نحو (الأندلس) ليؤسس خلافة جديدة حيث استمرت الخلافة الأموية هناك قرابة خمسمئة

عام، وسجلت المتون التاريخية بين أيدينا تاريخ سقوط الدولة الأموية في بغداد، والأمصار الأخرى عام (132هـ).

وبهذا التاريخ نكون بصدد نهاية مرحلة، وبداية أخرى في التاريخين السياسي – العربي الإسلامي، والحضاري وازدهاره طوال قرون أربعة لاحقة، وسنقف في صفحاتنا القادمة على جانب واحد فقط من هذا التاريخ الطويل، وأعني جانب إدارة العباسيين للأمور، وللأزمات خاصة، أي التوغل في التاريخ السياسي للمرحلة.

اعتاد مؤرخو التاريخ العربي الإسلامي للعصور الوسطى تقسيم العصر العباسي إلى مرحلتين:

*** الأولى: العصر العباسي الأول.**

*** الثانية: العصر العباسي الثاني**[342]**.**

اتسمت الأولى بقوة نظام الحكم، طوال المئة سنة الأولى وتداول فيها خلفاء أقوياء، وعددهم تسعة خلفاء، وأخذ نظام الحكم في هذه المرحلة شكلاً مدنياً، وكانت فيه سلطة الخليفة قوية وذات نفوذ واسع، وهو الرئيس الوحيد للحكومة، وبيده مناط الإدارة، يتمتع بكامل السلطات إنه صاحب القرار.

العصر العباسي الأول

سياق العصر العباسي الأول ومناخه:

هدف العباسيون عند مجيئهم إلى الخلافة عدة أمور:

* أرادوا تلافي خطر الانقسام العنصري الذي ظهرت بوادره في العصر الأموي، وأرادوا أن يخلقوا جواً من التعاون، والتفاهم بين العرب، والفرس ليتم لهم الاستقرار.

* أفسحوا المجال الفكري، والاجتماعي والسياسي للفرس، كما سعوا إلى تحقيق التعاون بين الدين والسياسية[343] ليضربوا التقاليد العصبية، القبلية، متعظين في ذلك من تجربة الأمويين الفاشلة في تأجيجهم الصراعات القبلية، والتي أضعفت سلطتهم.

لقد وصل العباسيون بثورة بدأت في (خراسان) بقيادة أبي مسلم الخراساني سنة (130هـ) وقد وصل هؤلاء ترافقهم مجموعة من الأزمات كحركات معارضة لحكمهم، وكانت أولى المعارضات من حلفائهم بالأمس، وهم: العلويون، لقد نجح العباسيون في وضع حد للصراعات القبلية، ولكنهم من ناحية ثانية أحقدوا العرب بتقريبهم الفرس، ثم برزت حركات (الشعوبية)، وهذه عبارة عن حركات مثلت صراعاً اجتماعياً ثقافياً عنيفين بين: العرب والعجم، وقد انتشرت كذلك موجات الزندقة (الخروج عن الدين)، وهذه بدورها حركات احتجاج سياسية – دينية ظهرت في أحضان أصحاب الديانات الفارسية وغيرها القديمة التي كانت سائدة قبل الفتح الإسلامي ولم تمح بوصول الإسلام، إضافة إلى ذلك: الطموح الفارسي الذي واجه كميل كبير، جارف، الروح العربية، والدين الإسلامي الذين هما سر مجد العرب، وأساس سلطانهم[344].

وأخيراً، ما حصل من تكتل قوي داخل البلاط العباسي بين ممثلي الاتجاه العربي، والاتجاه الفارسي، مما زلزل التوازن بين العنصرين العربي – والفارسي، الذي عمل بعض الخلفاء العباسيين (كالمنصور) على إيجاده، وفوق كل هذا، وذاك، طبيعة الخلافة العباسية، وممارستها السلطة وإداراتها للأمور، وفي هذه النقطة يتجلى جوهر الأزمة السياسية الكبرى، ومن خلالها ستتضح لنا معالم إدارة العباسيين لأزماتهم الداخلية الطاحنة مع المعارضات لحكمهم.

بداية، نظر الخليفة العباسي إلى نفسه على أنه يمثل سلطة الله في أرضه، وأنه هو الحاكم بأمر الله، وهو المكلف بتنفيذ أحكام الله، وأوامره، وبعبارة ثانية أخذت الخلافة العباسية منذ بداية أمرها بالابتعاد رغم مزاعمها الدينية، الظاهرة مسلكاً، وتعاملاً وفكراً وفي السلوك القيادي، عن المرجعية الإلهية الشرعية.

ولقد اعتادت الرعية في ذلك العصر عد الخليفة ظل الله في الأرض، فكان (أبو جعفر المنصور 754 – 775) يطالب الرعية بالاحترام الشديد، فنال ما أراد وشب الجيل الذي كان يحيط بالخلفاء على: الطاعة، فما كان لأحد أن يعارض (كما عارض أحد المصلين عمر بن الخطاب في المسجد، وكما عارضنه إحدى النساء أيضاً)، وقد أظهر الشيخ رغبته مطالباً المؤمنين إصلاح الإعوجاج عندما يظهر، ويقومه، نحن هنا في حضرة الخلفاء العباسيين وقد اختلفت الظروف والأوضاع وخاصة في النظر إلى السلطة ونظر السلطة إلى نفسها.

مالت الخلافة العباسية منذ البداية إلى انتهاج الأسلوب الاستبدادي، وسنرى كيف عولجت الأزمات من خلال هذا الأسلوب.

قلنا أن تباعدا بين الخلافة العباسية، والنظام الشرعي، أو الحاكمية الإلهية التي أمر بها القرآن الكريم، قد حصل منذ بداية العباسيين، وبين واقع السلطة الذي غذته كما قلنا عدة عوامل لا عقلية، والتي أصبحت منذ ذلك الحين تشكل (أي العوامل)[345]، القوة الضاغطة، وربما الخفية، والقابعة في الطبقات السفلى للسلوك السياسي، في اللاشعور، لدى السلطة القائمة، بحيث أصبح الإنجاز السياسي والأداء السياسي للسلطة مقيدين بهذه العوامل أكثر من العوامل الموضوعية أي: العامل الجغرافي (اتساع رقعة الإمبراطورية، واقتصادية الغنائم والوفرة، أي القوة الاقتصادية، والعنصر البشري) هذه العوامل الموضوعية لم تكن السلطة الخليفية واعية لأهميتها، وإمكانية استثمارها لمد عمر الإمبراطورية بشكل سليم ومتوازن، وقوي ربما لأيامنا هذه، لقد شذت السلطة العباسية والخليفة في أسلوبها وتعاملها، كما سنرى، وكذلك أسلوب معارضاتها ومواجهاتها للسلطة الخليفية، وأعاقت هذه الأساليب التقدم أو التنمية السياسية، تلك التنمية، لو أنها قد بدأت مع مجيء الثورة العباسية لعملت على تنمية مختلف جوانب

الحياة، ولكن ومع ذلك وقد يبدو الأمر في غاية الغرابة أن الإشعاع الحضاري استمر بمعزل عن الاضطرابات، والمعيقات، والإدارات السيئة لأمور وأزمات الحياة السياسية، في النهاية قد ناءت بكللها وألقت بظلالها الكثيفة، وأخذت تنخر في جسد الإمبراطورية العباسية، وبالتالي لتشمل معالم وإشعاعات الحضارة العربية الإسلامية في العصر العباسي الثاني حتى جاءت الضربة القاضية سياسياً، وحضارياً في أخريات القرن الرابع الهجري، كما سنرى بعد قليل.

لمحة عن الهيكل العام لنظام الحكم العباسي الأول:

1– كان نمط الحكم مدنياً، وكانت الشريعة الإسلامية نظرياً المرجع لهياكل الحكم العباسي، ولكنها أي الشريعة بمعنى أدق (الحاكمية) لم تكن مرجع الخليفة، لا في طريقة الوصول إلى الخلافة، ولا في طريقة تثبيتها ولا في وصول من يخلف الخليفة عندما تنتهي خلافته، ولكن مناخ العصر العام كان إسلامياً مما فرض بحكم الأمور أن تظل العبادات والمعاملات لمستويات ما دون السلطة إسلامية في القلب، والقالب بينما حياة البلاط الخليفي والقصور، ظلت حياة ملأها الترف، والصخب، والمجون، ومجالس الأنس، والطرب والصراعات والمنافسات على السلطة والوزارة، وآخذة شكل الحكم الاستبدادي المطلق للخليفة، وأخذت العوامل الخاصة التي تحرك اللاعبين السياسيين، وأصحاب القرار السياسي آنذاك تلعب دورها، بحيث أصبحت المحرك الأعظم لسلوك القيادة السياسية.

لقد توالى على النهوض بأعباء الخلافة العباسية سبعة وثلاثون خليفة في العراق حاضرة الخلافة العباسية بدءاً من (أبو العباس السفحا، وانتهاء بالمستعصم بالله)، ونهاية الخلافة في بغداد، وفي (مصر) سبعة عشر خليفة بدءاً من المستنصر بالله الثاني، وانتهاء بالمتوكل على الله (الرابع)[346].

كانت الدولة العباسية منذ بدايتها تتسم بالقوة، وتداول على وجودها خلفاء أقوياء ووكان همهم الأول، والأخير، في كل أمور الدولة، وإداراتها التمسك بالخلافة (السلطة)[347].

قامت ثورة العباسيين ضد بني أمية من أجل إجراء الإصلاحات السياسية والاجتماعية، من خلفائهم من اتخذ طريق الرفق على نحو ما هو معروف عن جماعة الفقهاء، لكن أكثر هؤلاء الخلفاء قد اتخذ طريقة العنف، والتطرف، حيث جاء ليمحو آثار سلطة الأمويين على نحو ما فعل (ابن الزبير) و(الخوارج) و(الشيعة) و(ابن الأشعث)، و(يزيد بن المهلب).

وانتهى أمر هذه الثورات بالفتك بأصحابها، ومع ذلك ظلت ثورات الخوارج، والشيعة، تشتعل من حين لآخر في العراق، شماله، وجنوبه، وما وراء من الشرق والغرب، وكانوا كلما قضوا على الثورة وقتلوا منها مقتلة عظيمة، ثم هبت ثانية، وقد كلفتهم ثورات الخوارج خاصة جهوداً هائلة، وخلقت لهم مشكلات كبرى، وكبدتهم خسائر عظيمة، إذ كان هؤلاء الخوارج لا يستيئسون أبداً، وكان قد استقر في نفوسهم أن الأمويين نهبوا السلطان من الأمة، وكذا العباسيين، وينبغي أن يعود السلطان إليهم لتحقيق المساواة والعدل، الذي لا تستقيم الحياة بدونهما، وقد مضوا يجاهدون العباسيين بعد مجاهدة الأمويين سابقاً كما سنرى بعد قليل.

كانت تنظم هذه الثورات كلها فئات الموالي (غير العرب) الذين اضطهدهم بنو أمية وحرموهم من المساواة مع أقرانهم العرب في الحقوق مخالفين نظرية الإسلام، وما يدعو إليه من مساواة بين المؤمنين، وقد احتملوا في ذلك ألواناً من البؤس الذي يطاق، ولا يطاق، فكان طبيعياً أن كثرت مطالبهم بالعدالة الاجتماعية، وإن يطمحوا إلى حكام جدد يقررون فيهم مبادئ الإسلام[347].

وكانت صرخات الموالي تلعب دورها في التأليب ضد الخلافة الأموية، وكان الظلم الواقع عليهم مثار سخط، وثورة ضد السلطة الأموية، وقد رأينا أن هذه الخلافة على اختلاف أنماط الخلفاء باستثناء الخليفة الزاهد (عمر بن عبد العزيز)، كانوا متعصبين عربياً، وقد جانبهم روح الإخاء والإنسانية والاعتدال، والتعاون والتفاهم مع الذين اعتنقوا الإسلام، وأرادوا المساهمة في بناء الدولة الإسلامية ولكن ماذا حصل بعد مجيء العباسيين.

انقلبت الآية انقلاباً جذرياً، ولم تشع روح العدل، والمساواة والعقلانية في الحياة السياسية التي أراد إصلاحها بنو العباس، وتفصيل ذلك أن العباسيين في بداية أمرهم كانوا يدعون إلى قلب نظام الحكم الأموي سراً وكانوا يذكرون الناس بأنهم يطلبون إسقاط الخلافة الأموية الجائرة، لأنها احتكرت السلطة لمآربها وشهواتها، تمارس كل أشكال العنف والاستبداد بالرعية، بالإضافة لتمرغ الأمويين في ترف الحياة، وبذخها وانجرافهم الكامل في التيار الدنيوي بشكل أفسدوا فيه نظام الحكم، حياة الناس إذ لم يعد أي خلاص للأمة إلا بمحو الخلافة الأموية ومحو آثارها، قدم العباسيون أنفسهم على أنهم نصرة الحق، ونصرة الحكم الصالح، ونصرة العدل على الظلم، تذكر كتب التاريخ والأدب أن العباسيين مضوا يفتكون بأفراد البيت الأموي فتكاً ذريعاً، وانبرى الشعراء يحرضون على الفتك بهم ثأراً لمقتل العلويين الهاشميين[347] هذا هو مفتاح العصر العباسي الأول جاء ثورياً، دموياً، وصل إلى السلطة بالغلبة والسيف ومارس أسلوب العنف، والقوة والاستئصال، والاستبعاد للمعارضة السياسية التي مثلتها بقايا الأمويين فضلاً عن الخوارج، وغيرهم كما رأينا من الثائرين ضد الحكم العباسي.

كانت إدارة الأزمة مع وصول العباسيين تتبع وسيلة: القوة

لقد أقام العباسيون خلافتهم على أنهم أحق الناس بإرث الرسول (ص) ومضوا يحيطون أنفسهم بهالة كبيرة من التقديس كان لها أسوأ الأثر في خضوع الرعية، وخضوعها للظلم والقهر، وانتشار الفوضى، والفساد، ونعجب كما قال الدكتور (شوقي ضيف) أن نرى الفقهاء والأتقياء الذين كانوا يعارضون بني أمية، ويعدونهم دنيويين ظالمين، ينصاعون انصياعاً أعمى للعباسيين، ويعدونهم رؤساء شرعيين، من الناحيتين الزمنية والروحية[348].

أما الرعية المظلومة في كل الأحوال فقد ابتعدت عن الساحة السياسية وعاشت همومها بعد أن شاهدت ما شاهدته، وكانت خير شاهد للعصر العباسي الأول على معالم الاقتتال على السلطة ومن أجل السلطة وشغفهم بجاذبيتها الرهيبة، فمقعد الحكم يغري ويزين لصاحبه دوماً تحقيق كامل شهواته الدنيوية.

وسرعان ما انقلب أمر العباسيين بدورهم إلى نظام خليفي فردي استبدادي[349] كما المحنا سابقاً وأصبح السلطان بيده كل الأمور يولي الولاة والقضاة والوزراء والقواد وأصحاب الشرطة، والمحتسبين الذين يراقبون الأسواق، وبيده عزلهم حسب ما يمليه عليه (مزاجه) الشخصي والسلطاني وكان يختار الولاة غالباً من أهل بيته أو من الحاشية حوله، وخاصة من الأعاجم[350].

2- **من الناحية الإدارية**، بدأ العنصر غير العربي يدخل في بيئة الدولة، ومؤسساتها، زد على ذلك أنه مع مجيء العباسيين، وتحول الخلافة من (دمشق) إلى (بغداد) إثر تحويل السلطة للعاصمة ونعلم أن العباسيين قد حصلوا على السلطة بسواعد الجيوش الخراسانية، وكان ذلك أيضاً بداية دخول العنصر الفارسي داخل نظام الحكم.

يقول (ضيف) إذا انتقلنا إلى العصر العباسي الأول، وجدنا النظم الساسانية تدخل بحذافيرها في كل شؤون الحكم، وتأتي بالخليفة، وقد أصبح ملكاً ساسانياً، وأصبح يحكم على الطريقة الساسانية[351] حكماً مطلقاً، ثم عمد الخليفة العباسي على نقل السلطة الخليفية بالوراثة، وسنرى بعد حين تدخل عناصر غير عربية أخرى في الحياة السياسية في عهد الخليفة العباسي المعتصم، وخاصة في هذه المرة العنصر التركي.

3- **في الاجتماع، وما حملته العناصر الخاصة إلى السلوك السياسي**:

الثراء والترف، والبذخ، وحياة القصور والجواري والإماء، والعبيد والغلمان، وكل ما ذخرت به الحضارة من نعيم، وحياة مجتمع استهلاكي بلغة عصرنا، قد بدأ يغزو حياة الخلفاء في عقر قصورهم، ولم يقصر الخلفاء، ولا الوزراء، ولا الولاة وكبار القواد العسكريين ورجال الدولة من الانغماس في هذا النمط من الحياة **Lifestyle**، أما على الطرف الآخر من الحياة الاجتماعية أقصد حياة الناس وأفراد الرعية، فلقد ظلت هذه الرعية تكدح في سبيل قوت يومها، ولم يكن لديها الوقت للاستمتاع بمباهج الحياة ونعيمها (خلا القلة القليلة من الرعية)، وكان مرد ذلك طغيان الخلفاء العباسيين الذين حرموا الناس من حقوقهم، وطوعوهم بالاستعباد والاستبداد، والعنف الشديد، وحيث مضى الخلفاء، وبطائنهم يحتكرون لأنفسهم الموارد الفخمة، بحيث وجدنا أنفسنا إزاء طبقة مترفة، تنعم بالحياة إلى غير حد وطبقات قتر عليها في الرزق[352].

لقد كانت هذه الأنهار الدافقة من الأموال تصب في جحور الخلفاء، ومن يحف بهم من بيتهم، ومن الوزراء، ورجالهم، ولقد كان لهذه السيول التي كانت ما تني تسيل إلى جحور العلماء والأطباء والمترجمين، والشعراء والمغنين أثرها الواسع، وحيث أراد الخلفاء أو لم يريدوا، في نهضة العلوم والآداب والفنون لقد استأثر الخلفاء بزينة الحياة الدنيا، وأهملوا الرعية إهمالاً كبيراً تعيش وسط الفاقة والحرمان وضنك العيش، وقد كان لهذا أثره في الحياة السياسية، إذ أن البذخ، والترف، والنعيم الذي اقتنصه الخلفاء، وأحلو في قصورهم، كان أحد الأسباب في السخط، ثم التمرد، والغضب والثورات المتكررة، وتعلق الضعفاء، والمساكين بالمهدي المنتظر من أبناء الإمام علي (رضي الله عنه) الذي سيأتي في يوم لا ريب فيه ليملأ الأرض عدلاً بعد أن ملئت جوراً.

كثرت الجمعيات السرية في هذا العصر، واعتنق كثير من الناس عقيدة التشيع، ولم تطرح المشكلة أو الأزمة الطاحنة طرحاً سليماً وعلى أساس مطلب العدالة الاجتماعية، ودعوة الحكام إلى الكف عن استنزاف الثروات، بل تم طرحها بنوع ما، بشكل خاطئ، وعلى أساس دعوات دينية كدعوة (الخزمية) التي استوحت من (المزدكية) و(المانوية)، كذلك ذهبت الشيعة في إعلاء المطالب الدينية على حساب مطلب العدالة[353].

وعندما طرحت المشكلة، أو الأزمة طرحاً خاطئاً، ومنحرفاً عن المسار، وجد الخلفاء فرصتهم كي يستمروا في طريقة حكمهم الاستبدادية، وكذلك ممارسة السلوك الدنيوي.

لقد ظهرت بوادر الأزمة بين الرعية والسلطة، بين الناس، والخليفة على سطح الأمور ولكن عندما تم طرحها خاطئاً، فكانت معالجتها أيضاً خاطئة من قبل الخلفاء، كما سنرى بعد قليل، بالإضافة إلى هذا الوضع الذي عج بالفساد، والانحراف عن تلبية مصالح الناس من قبل الخلفاء، فقد اتسعت تجارة الرقيق[354]، والانصراف إلى حياة الجواري، والقيان والغلمان وكل ما يلبي النزعات الغريزية، وقد شاع المجون، والفساد الأخلاقي، والغزل المكشوف على الجواري والغلمان، وشاع في الوقت نفسه الامتهان بكرامة المرأة، والرجل، في آن واحد.

الشعوبية: ذكرنا سابقاً ظاهرة الشعوبية، وسننظر الآن كيف كان وضع الشعوبية كحركة في أخريات العهد الأموي، وكيف أصبح وضعها في العصر العباسي الأول.

كان الأمويون قد انحرفوا عن جادة الشريعة في معاملة غير العرب، حتى تألب هؤلاء عليهم وشاركهم في ذلك الخوارج، والشيعة، حتى تم استيلاء العباسيين، ومعهم الفرس على سدة الخلافة، فكان تحولاً خطيراً في كيان الخلافة حيث انعكس هذا التحول الخطير في تغلغل كبير للفرس في المجتمع العباسي ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل لقد أظهر الفرس شعورهم بالتفوق، والتميز الحضاريين إزاء العرب واصفين هؤلاء بالبداوة، وحلت روح المفاخرة بالفرس، والفارسية، وخلاصة الأمر، لقد بدأت تظهر على سطح الحياة العباسية الأزمات السياسية والاجتماعية والثقافية بجلاء تام، وعمل العباسيون كل على شاكلة تفكيره، وسلوكه ونمط سياسته التي كسبها من سلفه أو مهاراته الخاصة ومزاجه والاستشارات التي يتلقاها من هنا، وهناك، على مواجهة الأزمة، الواقع كانت مجمل هذه الجوانب تشكل قواعد لإدارة الأزمات لدى الخلفاء بغض النظر عن الاسترشاد بالمرجعية الدينية – الشرعية أو الاستئناس بالهدي أو النموذج النبوي أو الراشدي.

التعامل مع أزمة المعارضة السياسية:

معروف أنه في عالم السياسة، ما من صديق دائم، ولا عدو دائم، وغالباً ما يُصبح حلفاء البارحة أعداء اليوم، هذا ما حصل بين الخلافة العباسية منذ نشأتها، وتسلمها سلطة الخلافة، وبسط نفوذها السياسي الكامل، انقلب العباسيون ليصبحوا أعداء لحلفاء الأمس، أعني العلويين وكما عرفنا، فقد كان هؤلاء الأخيرون في حالة غضب دائم ضد الأمويين واشتركوا في غضبهم مع العباسيين.

وكما علمنا، أن جوهر الأزمة هنا، هو: شرعية الخلافة، إذ أن كل طرف من هذين الطرفين: العباسيون والعلويون، يدعى كامل الحق، والشرعية في الخلافة، وينظر كل طرف للطرف الآخر كمغتصب للسلطة، أو يريد اغتصابها تلك تهمة العباسيين للعلويين.

أخذ العلويون يشيعون في الناس أن العباسيين اغتصبوا الخلافة، وهم ورثتها الحقيقيون، إذ أنهم أبناء بنت الرسول (ص) فاطمة، وأبناء علي ابن عمه، فرد عليهم العباسيون بأنه ينبغي الرجوع إلى (المرجعية الشرعية)، وذلك أن الأصل في المواريث، وما فرض فيها من حجب العم لابن ا لعم، وحرمان ابن البنت من ميراث جده لأمه، فهم يدلون للرسول بعمه العباس الذي آل إليه ميراثه فهم كذلك أولو الأمر، وأهله خصوا

برحم رسول الله (ص) وقرابته ونشأوا من آبائه، ونبتوا من شجرته وإذا كان العلويون يزعمون أن الرسول نص على إمامة (علي بن أبي طالب) بعده، ثم لأبنائه تؤكد إمامته، فقد زعم العباسيون أن الرسول قال لجدهم العباس: إن الخلافة قد تكون في ولدك[355] واستفحلت الأزمة بقيام (الزيدية)، وهي فرقة شيعية، بثورتها بقيادة (محمد بن عبد الله) ضد الخليفة (أبو جعفر المنصور) أول خليفة عباسي، ومؤسس مدينة بغداد، فيرسل المنصور كتاباً لصاحب الثورة الزيدية يعرض فيه خطته، وهي:

* عرض مالي.

* ينزل الثائر الزيدي، إلى أي بلد شاء.

فيرد صاحب الثورة على هذه الخطة لحل الأزمة، يصور في رسالته: اغتصاب العباسيين للخلافة من أصحابها الشرعيين، ويقول للمنصور إن الحق، حقنا، إنكم إنما طلبتموه بنا، ونهضتم فيه بشيعتنا، وإن علياً له الحق، بالوحي وهو الإمام، فكيف ورثتموه دوننا، ونحن أحياء، وكانت خديجة أول من آمن بالله من بناته، وأفضلهن، من سيدة نساء الجنة...

ولم يكد (المنصور) يقرأ الرسالة حتى رد عليه برسالة ينقض فيها حجج النفس الزكية نقضاً قائلاً: بلغني كلامك، فإذا جل فخرك بالنساء لتصل به الجفاة، والغوغاء، لم يقبل الله النساء، كالعمومة، ولا الآباء كالعصب، وأنكم بنوا ابنة رسول الله ؏، إنها لقرابة قريبة غير أنها: امرأة لا تحوز الميراث، ولا يجوز أن تؤم الصلاة، فكيف تورث الإمام من قبلها[356] لم تتم إدارة الأزمة بالتفاوض، ولا بالمراسلة، أو بالاستناد إلى الشرعية، وقد نسي الطرفان أن وصول الخليفة العباسي إلى الخلافة مخالفة صريحة لقواعد الشريعة الدينية، وليست كما تم نقلها بين الشيخين مثلاً هذه نقطة.

والنقطة الثانية لم يتم وصول الخليفة العباسي حسب قاعدة الشورى وطبقاً للآية الكريمة في القرآن الكريم (وشاورهم في الأمر).

وثالثاً لم تستشر الرعية (الأمة) في صعود الخليفة، ولم تتم البيعة خياراً أو طوعاً، بل كراهية أما بالنسبة لموقف المعارضة العلوية من الأزمة، إنها موقفها المستند إلى: النص والتعيين لم يثبت بالثقة والتواتر والإسناد الكامل، ولا شرعية دينية لتوريث السلطة، ولا شرعية قبلية ترجع إلى تقاليد عربية، كما قلنا سابقاً.

لقد ضل الجميع في طرائق إدارة الأزمة التي دارت حول مسألة الشرعية، وكانوا جميعاً مقتنعين بأنهم الأحق بالخلافة، ودب الانقسام، ودارت الأزمة بين طرفين:

* معسكر بني العباس وبيده مقاليد الحكم.

* معسكر العلويين يحاولون الوصول إلى الحكم.

ولجأ الفريقان إلى ادعاء غير مقنع للعقل، وغير صادر عن الشرع الإلهي أو موافق له، وبعبارة أخرى لقد استبعد: العقل والشرع كما ذكرنا في فرضياتنا في الفصل الرابع من هذا العمل.

نماذج من الخلفاء العباسيين، وأسلوبهم في إدارة الأزمات:

1- **أبو العباس السفاح** (754 – 775) أطلق على نفسه هذا اللقب بقوله: أنا السفاح المبيح[357]، وهذه العبارة تشكل مفتاح حكمة وطبيعة سلطته، وكذلك طريقته في إدارة الأزمات وأوضح أنها ليست إدارة تتوجه إلى التعايش مع المعارضة، ولا إلى المساكنة لا إلى الوفاق، ولا إلى المهادنة، ولا إلى الصراع الودي ولا إلى المشاركة بل لقد سد (السفاح) جميع هذه الطرق المؤدية إلى الإدارة الجيدة للأزمة وفتح باب المواجهة، والتهديد، والوعيد تحت ظل شرعية بزعم أنه حاملها عند ما وصل إلى السلطة، وبسط نفوذه.

لسنا أمام خطاب جديد في الحكم، لا إلى إبداع طريقة أصيلة في تسيير أمور العباد، والمعارضة بل إن أسلوب (أبو العباس) هو امتداد لأسلوب من سبقه ذلك الأسلوب في التعامل مع المعارضة بواسطة: العنف والقهر، إنه الأسلوب المتطرف، والقائم على استبعاد المعارضة كلية من الساحة، إنه خطاب يستند إلى القرابة بينه، وبين النبي (ص) دون أن يأخذ بمبادئ الرسالة وما تتطلبه من إيجاد حلول للأزمات على أسس من الأخوة والمساواة والعدل والإحسان إنه المؤسس الأول للدولة العباسية، ومع أن خلافته لم تدم طويلاً إذ توفي بعد أربع سنوات من ولايته.

كان خطاب الشرعية هو المهيمن على خطبة أبي العباس يقول فيها: الحمد لله الذي اصطفى الإسلام لنفسه تكرمة، وشرفه، عظيمة واختياره لنا وأيده بنا وجعلنا أهله، وكهفه،

وحصنه، والقوام به، وألزمنا كلمة التقوى، وجعلنا أحق بها وأهلها، وخصنا برحم رسول الله ﷺ وقرابته وأنشأنا من آبائه وأنبتنا من شجرته، واشتقنا من نبعته، ثم يواصل الكلام حول شرعية القرابة، فيطلب السند لها من القرآن الكريم فيقول: ووضعنا الله من الإسلام وأهله بالوضع الرفيع، وأنزل بذلك على أهله الإسلام كتاباً يتلى عليهم، فقال عز من قائل فيما أنزل من محكم القرآن: إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس، أهل البيت، ويطهركم تطهيراً[358] وقال، وانذر عشيرتك الأقربين[360]، وقال: ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى[361]، وقال: واعلموا أن ما غنمتم من شيء فإن لله خمسه وللرسول، ولذي القربى واليتامى[362]، يضع أبو العباس مقاربة بين السند القبلي، والإرادة الإلهية.

يمكننا أن نتساءل مع الدكتور (محمد عابد الجابري)، لماذا بنو العباس دون العلويين من أهل البيت فيجيب (أبو العباس) في اللحظة نفسها، وزعمت (السبئية) أنصار العلويين: الضلال إن كان غيرنا أحق بالرياسة، والخلافة منا، فشاهت، وجوههم بكم، ولم أيها الناس وبنا هدى الله الناس بعد ضلالتهم، وأظهر الحق بنا[363].

صحيح أن (العباس) يذكر من الناحية النظرية بمبادئ العقيدة، ويستشهد بالآيات التي تؤيد وجهة نظره، حيث الإرادة الإلهية اختارته للخلافة، ولكنه لا يركن إلى: الحاكمية الإلهية واعتبار خلافته أداة تنفيذ للإرادة الإلهية في حكم الناس، ومطلب العقيدة الإسلامية في أصولها، ومبادئ التعامل مع الكفار، والمعاندين والمعارضين باللجوء إلى كلمة سواء.

كان في الطرف المقابل لاستناد (السفاح) على العقيدة الإسلامية، اتكاءه أيضاً على العنصر القبلي في دعم سلطته، ولم يختف هذا العنصر بعد أكثر من مئة سنة من نزول القرآن الكريم، ودعوته للشعوب والقبائل إلى وحدة الأمة.

يتابع (أبو العباس) خطابه قائلاً: يا أهل الكوفة، أنتم محل محبتنا، ومنزل مودتنا لم تغتروا عن ذلك، ولم يثنكم عنه تحامل أهل الجور، فأنتم أسعد الناس بنا وأكرمهم علينا، وقد زدت أعطياتكم مئة، مئة فاستعدوا، فأنا السفاح المبيح، والثائر المبيد[364]، ويقول صاحب (تاريخ الخلفاء)، ولما بلغ مروان (من بني أمية) مبايعة الحجاج خرج لقتاله

فانكسر، ثم قتل، وقتل في مبايعة السفاح، من بني أمية، وجندهم مالا يحصى من الخلائق، ثم توطدت له الممالك إلى أقصى المغرب[365] وتولدت من خلافته أزمات أخرى كما يقول (السيوطي)، فقال (الذهبي): بدولته تفرقت الجماعة وخرج عن الطاعة ما بين (تاهرت) و(طينة) إلى بلاد السودان، وجميع مملكة الأندلس[366].

كان السفاح سريعاً إلى سفك الدماء، فاتبعه في ذلك عماله في المشرق والمغرب، وكان مع ذلك جواداً بالمال[367].

مبدآن أساسيان في سلوك أبي العباس السياسي، كانا هاديين له في مواجهة الأزمات السياسية بدءاً من معارضة العلويين، وانتهاء بالأزمات في الأمصار الإسلامية، وهما:

1– العنف والشدة، والمواجهة المسلحة.

2– الإغراء بالمال والعطاءات إذا لزم الأمر.

2- **أبو جعفر المنصور** (754 – 775م):

استند حكم (أبو جعفر المنصور) في السلطة إلى القوة، واعتقاده بأن الإرادة الإلهية تقف إلى جانبه، وتدعم قوته، ونظر الخليفة إلى العمل السياسي من خلال هذين المنظارين، كان يحج البيت، ويصلي ويصوم رمضان، ولم يكن مبتعداً عن شعائر الله، ولكن عندما يرفع أحد عقيرته ناقداً، أو ساخطاً أو ثائراً، ومتمرداً ضد سلطانه، وقلما يتردد بإلغائه من الوجود، وأن أول عمل قام به عند توليته الخلافة هو استئصال حليفه الأكبر ومسانده بقوته وجيوشه وهو: (أبو مسلم الخراساني) صاحب دعوة العباسيين، وممهد لمملكتهم[368].

كان سلوك المنصور السياسي كما وصفه السيوطي بأنه فحل بني العباس، رهبة، وشجاعة وحزماً، وجبروتاً جماعاً للمال، تاركاً اللهو واللعب، كامل العقل جيد المشاركة في العلم والأدب فقيه النفس، قتل خلقاً كثيراً حتى استقام ملكه، وهو الذي ضرب الإمام (أبو حنيفة) رحمه الله، على القضاء لأنه أفتى بالخروج عليه[369].

استند (المنصور) إلى الإرادة الإلهية في اختياره، وحكمه، والنتيجة هي أن إرادته من إرادة الله وهو يتصرف، ويسلك بإرادة الله، وبعبارة أخرى إن إرادة الله تتجسد في أفعاله،

وبواسطته ولقد أفصح (المنصور) عن هذه الدعوة بعبارات صريحة في خطبة له يوم (عرفات) قال فيها: أيها الناس إنما أنا سلطان الله في أرضه، أسوسكم بتوفيقه وتسديده، وأنا خازنه على فئة أعمال بمشيئته، وأقسم بإرادته، وأعطي بإذنه، قد جعلني الله عليه قفلاً إذا شاء أن يفتحني لأعطينكم، وقسمته فيكم، وأرزاقكم، فتحني إن شاء، ويقفلني إذا شاء.

الخليفة، أيها الناس، هو سلطان الله في أرضه، والسلطان هو القوة، والخليفة هو القوة المنفذة لإرادة الله[370].

هكذا تصور (المنصور) أنه سلطان في أرضه، وقد زرع هذه الفكرة في الميخال الشعبي في عصره وهنا تتكرر سلسلة الخلفاء الذي يظهر فيهم القاسم المشترك بينهم وهو: الرغبة في الملك والخضوع لجاذبية السلطة، بغطاء إسلامي أولاً، والاستناد إلى القوة ضد من يخرج أو يعصي أوامر السلطان فالمبدأ الحاكم في مواجهة المعترضين: هو التعامل مع الأزمة بالقوة أو السلطان تحت مظلة الإرادة الإلهية والأزمة تدار بوسيلتين:

1- الإرادة الإلهية - وقد لبست، عقل ونفس وجسم الخليفة وهو المنفذ لها.

2- استعراض القوة واستخدامها ضد من يقول (لا)، ويخرج على السلطان ويعزى إلى المنصور قوله: لا يخرج علينا أحد إلا قتلناه[372].

بعد أن أقام (المنصور) في بغداد سنة (140هـ-) ظهرت الحركة (الراوندية) القائلة بالتناسخ، وعوضاً عن مجادلة الحركة، أو يبعث إليهم من يجادلهم، ويحاورهم بالتالي هي أحسن قام بقتلهم جميعاً[373] وقال (السيوطي): أخرج عن الربيع بن يونس الحاجب، قال سمعت المنصور يقول: الخلفاء أربعة: (أبو بكر) و(عمر) و(عثمان) و(علي)، أما الملوك فأربعة أيضاً: معاوية وعبد الملك وهشام وأنا[374].

يجد المنصور نفسه، حسب هذه الكلمات، وما سبقها، أنه سلطان، وملك، وكان أحياناً يعد بحدود الله فيما يعرض عليه من مشكلات من أهل الرعية[375] من كلامه: الملوك تحتمل كل شيء إلا ثلاثة: إفشاء السر، والتعرض للحرم، والقدح في الملك[376] كان (المنصور) أول خليفة قرب المنجمين، واستعمل مواليه على الأعمال، وقدمهم على

العرب وكثر ذلك بعده، حتى زالت رياسة العرب وقياداتها، وهو أول من أوقع الفرقة بين ولد بني العباس وولد (علي) وكانوا قبل ذلك أمرهم واحداً[377].

3- المهدي أبو عبد الله محمد بن المنصور(775 - 785م)

كانت أزمة (المهدي) مع انتشار الزندقة في أيامه في العراق، فرأى فيها شراً مستطيراً يهدد كيان الدولة، فجد في طلب الزنادقة، واحداً إثر واحد منذ العام (162 - 163) واتخذ لهم ديواناً يتعقبهم وأفنى منهم خلقاً كثيراً وأمر بتصنيف كتب الجدل في الرد عليهم وعلى الملحدين، وقد سلك المهدي في معاملة المخالفين في الرأي، والعقيدة مسلكين لإدارة الأزمة معهم وهماً:

1- استئصال من أراد استئصاله منهم عن طريق إيجاد ديوان خاص بتعقبهم (خلية أزمة) بلغة العصر.

2- أمره بتأليف كتب للرد عليهم.

عمل (المهدي) إذن بسلوك مزدوج، اللجوء إلى العنف واستخدام القوة والحكمة في (الرد) عليهم، واللجوء إلى السجالات الثقافية أو ما يسمى بالمعارك الفكرية بين الزنادقة والمدافعين عن الإيمان[378].

ويقول (د. شوقي ضيف) ثم جاء (المهدي)، فكان يقتل الزنادقة، ويتناول المسكر ويلعب بالنرد، ويركب حماراً فارهاً، وكانت أمه حاكمة مستبدة بالأمور الكبار[379].

ويبدو أن استئصال الزنادقة كان مألوفاً في العصرين الأموي والعباسي، ونظراً لاشتباك الديني والسياسي في الإسلام، فإن استئصال الزنادقة كان يرمي إلى هدفين:

1- الاستجابة إلى الرأي العام الديني.

2- إلباس المعارضة السياسية تهمة الزندقة والعكس، فيلجأ الخلفاء إلى القضاء على ظاهرتي: المعارضة السياسية والدينية، ويكونوا في حل من المعارضين.

4- هارون الرشيد (789 - 809م)

يمثل (هارون الرشيد) حالة استثنائية في تاريخ الخلافة العباسية، وقد تناقلت الأنباء

والروايات منذ أيام هذا الخليفة، وحتى يومنا فضائله، حيث كان عصره من أزهى عصور الخلافة العباسية، وقد انطبعت صورته الزاهية هذه في المخيال الشعبي العربي، رغم أن مجيئه أيضاً كان حسب آلية توريث السلطة، وهو من أضاف على توليه الخلافة، حسب مبادئ العقيدة الإسلامية، مبدأ ينص على احترام اختيار المؤمنين وبيعتهم، ومشورتهم واهتمامه بمبدأ الإجماع، ومع ذلك ف-(الرشيد) استثمر خلافته على أكمل وجه، أي أعطى المؤسسة الخليفية كامل هيبتها.

لقد لعب الخليفة دوره في ازدهار الحياة الحضارية، وعمل على استكمال الفتوحات الإسلامية وما جعل عصره ذهبياً بالأصالة.

لا تزال ذكراه حية في نفوس عرب اليوم، وربما كان للقصص الخيالية دورها في بناء هذه الصورة، والتي تجسدت بعض معالمها في قصص (ألف ليلة وليلة)، من حيث تصوير الحياة العباسية وحاضرة الخلافة ترفل في حلة من الرفاهية والترف، والبذخ حافلة بالغناء، والمطربين، وحافلة أيضاً بجمهور العلماء والأدباء، والمفكرين والمترجمين والأطباء، والشعراء، والجواري من كل جنس ولون وكان الرشيد كلفاً بالسماع، وليالي الأنس، وساعياً طوال مدة خلافته وراء متع الحياة، ولكنه لم ينس إعطاء الدين حقه، يقول (الطقطقي)، كان الرشيد من أفاضل الخلفاء، وفصحائهم، وعلمائهم، وكرمائهم، وكان يحج سنة، ويغزو سنة، وكان يصلي مئة ركعة في اليوم، ويحج ماشياً[380].

وقد ذكر صاحب (تاريخ الخلفاء) عبارة تدلنا على سلوك الخليفة السياسي، وعلى كونه غير مهادن بلغة اليوم مع المختلفين معه في العقيدة، وربما كان مبدأه هو: عدم التسامح مع المعارضين له في الدين أو في السياسة، وقد روى (السيوطي) أن الرشيد حينما بلغه عن (بشر المريس) أحد أقطاب فرقة (المعتزلة) القائل بحرية الإرادة والعدل والتوحيد، وصاحب التفكير العقلي والقائل بخلق القرآن، أن الرشيد قد قال: لئن ظفرت به لأضربن عنقه[381].

وقال (السيوطي) عن الرشيد أيضاً، له أي (الرشيد) أخبار في اللهو، واللذات المحظورة والغناء سامحه الله، أي بعبارتنا، كان: من هواة: حب الدنيا، وفي تاريخ الخلفاء للسيوطي أخبار وتفاصيل حول سلوك الخليفة الشخصي، وتعلقه بملذات الدنيا وغفوته

عن ملذات الحياة الآخرة، ومطالبها، فضلاً عن الأوامر والنواهي القرآنية في موضوع الملذات المحظورة التي ذكرها (السيوطي)[382].

أما سلوك الرشيد السياسي، وانتهاجه مع المعارضة السياسية، ومواجهته الأزمة معها فقد كان (الرشيد) يعمل على التخلص منها، بلغة القوة والعنف، تلك كانت قصته مع (البرامكة)، أولئك الذين كانوا حراساً أبا عن جد في المعابد البوذية، ثم عملوا في وزارات هارون الرشيد، وعلا أمرهم شيئاً فشيئاً.

وأصبحت لهم سطوة كبيرة في الحياة السياسية، فقرر الرشيد أن يحكم بنفسه في المشكلة، وكان في الوقت نفسه غيوراً من ثرواتهم، فأراد أن يصبح الحاكم الأوحد في أمور الإمبراطورية، فنكبهم النكبة الكبرى، وقضى عليهم (187هـ–) وقصة هذه المواجهة هي أنه في سنة (803م) نكب الخليفة (الرشيد) بالبرامكة نكبتهم المشهورة بعد أن ترك ل–(خالد البرمكي) وأولاده يصولون ويجولون في الحياة السياسية، ويصبح لهم شأن في الدولة ويصبحوا أهل الحل، والعقد، وجاعلاً من (خالد البرمكي) صديقاً لا يستطيع مفارقته لحظة واحدة، حتى إذا بلغ نفوذ البرامكة الأوج حيث حاولت هذه الأسرة وأفرادها الاستئثار بالوزارة، وتشكيل مراكز قوى، أصدر الرشيد قراراه بقتل (جعفر البرمكي) وسجن ابنه (يحيى) وأخيه (الفضل وإيداع باقي أفراد الأسرة السجون ومصادرة أموالهم واضطهاد من أشاد بذكراهم[383].

كذلك كان أسلوب (الرشيد) في إدارته للأزمة السياسية مع (البرامكة)، والمتنفذين أو النافين له في السلطة، وهو يظهر إلى أي حد عمل الرشيد كغيره من الخلفاء على الحفاظ على المصالح الخليفية، وعلى سلطتها، أولاً وقبل كل شيء، وإدارة الأزمة على هذا النحو ولا نعلم بالضبط ما هي منطلقها سوى ما ذكرنا، هذا فضلاً عن تحييد مصالح الأمة، والرعايا في الإمبراطورية.

ولقد كان أسلوب الرشيد كغيره من أساليب الخلفاء ويسير على خطاهم في إدارة الأزمة بالقضاء على الأطراف المعارضة، وقد يكون للمعارضة، هنا مشكلة (البرامكة)، نية الاستيلاء على الخلافة بعد تشكيلهم مراكز قوى، وإذا افترضنا ذلك، فلم يكن أسلوبها في تداول السلطة عقلانياً، ونكون في النهاية في حضرة أطراف الأزمة يتمتعون بممارسة أسلوب واحد وهو محاولة كل واحد منهما: القضاء على الآخر لتحقيق أهدافه.

الأمين، والمأمون (198 – 218هـ) وأزمة الخلافة والصراع على السلطة:

الأمين، والمأمون، ابنا (هارون الرشيد)، اصطرعا على الخلافة بعد وفاة الخليفة الأب وإن كان الصراع على السلطة أمر مألوف في التاريخ السياسي لمختلف الدول والشعوب وليس قصراً على التاريخ السياسي العربي والإسلامي، ولكن ما أسبغ على هذا التاريخ الصراعي على السلطة بعض الخصوصية، هو الآثار السلبية (التداعيات)–الاثار الجانبية– التي خلفها الصراع على مسيرة المجتمع وانعكاساته على مسيرة الامبراطورية بأسرها.

ورغم الكثرة من الإيجابيات التي تذكرها لن يكتب التاريخ من شخصية (المأمون) خاصة (188 – 218هـ) فهذه الإيجابيات لا تتعلق في الواقع بالأداء السياسي، ومهارات الحكم بقدر ما تتعلق برغبة الخليفة، متابعة النهوض والازدهار الحضاريين وذلك بتشجيعه العلوم، والآداب والثقافة وتشجيع الحركات العقلية، ونشاطها في الحياة الثقافية والفكرية، وفسح المجال لها في سجالاتها بالدفاع عن العقيدة بالمنطق والعقل، والحجج العقلية، واستخدام آليات الفكر الفلسفي لهذا الغرض، حتى أن هذا التشجيع للحركات الفكرية العقلية قد اتخذ أسلوباً متطرفاً إزاء المخالفين في التفكير والرأي، وأساليب الاقتناع، والبرهان، وقد دفعه هذا الأسلوب إلى: استبعاد بل وإلغاء المخالفين له في التفكير الديني العقلي كما فعل مع الإمام (أحمد بن حنبل)[384] وإجبار الناس على القول بخلق القرآن أسوة بما قالته المعتزلة كما شرحنا سابقاً.

والآن لندع تاريخ الخلفاء يحدثنا عن قصة نزاع (أزمة السلطة) بين الأخوين:

1– الأمين محمد أبو عبد الله ابن الرشيد

كان ولي عهد أبيه (هارون) فولي الخلافة بعده، وكان من أحسن الشباب صورة، أبيض طويلاً جميلاً، ذا قوة مفرطة وبطش، وشجاعة معروفة، يقال أنه قتل مرة أسد بيده، له حصافة وبلاغة وأدب، وفضيلة لكنه كان سيء التدبير (الإدارة) كثير التبذير ضعيف الرأي، أرعن لا يصلح للإمارة[385].

ويتابع (السيوطي) حديثه فيقول: وأول ما بويع بالخلافة أمر ثاني يوم ببناء ميدان بجوار قصر المنصور للعب، وفي سنة أربع وتسعين ومئة عزل أخاه (القاسم) عما كان الرشيد قد ولاه ثم وقعت الوحشة بينه وبين أخيه المأمون وقيل إن (الفضل بين الربيع) علم أن الخلافة إذا ما أفضت إلى المأمون لم يبق عليه، فأغرى الأمين به، وحثه على خلعه، وأن يولي العهد لابنه (موسى)، ولما بلغ (المأمون) عزل أخيه القاسم، قطع البريد عن الأمين وأسقط اسمه من الطرز والقرب – ثم تطورت الأمور واستفحلت الأزمة بينهما، وأخيراً أسقط الأمين اسم المأمون من ولاية العهد[386] ووقعت الحرب بينهما فيما بعد، وإثر اشتعال الحرب ساءت أحوال الناس بسبب ذلك وعظم الشر وكثر الخراب والهدم من القتال، ورمي المجانيق والنفط حتى درست محاسن بغداد، وعملت فيها المراثي ومن جملة ما قيل آنذاك:

بكيت دماً على بغداد لما فقدت نضارة العيش الأنيق

وقال (ابن جرير) الذي نقل عنه السيوطي حول شخصية (الأمين) لما ملك الأمين اتباع الخصيان، وغالى بهم وصيدهم لخلواته، ورفض النساء والجواري، وقال غيره لما ملك، وجه إلى البلاد من طلب الملهين، وأجرى لهم الأرزاق، واقتنى الوحوش، والسباع، والطيور، واحتجب عن أهل بيته، وأمرائه، واستخف بهم، ومحق ما في بيوت الأموال، وصيغ وجواهر ونفائس وبنى عدة قصور للهو، وأجاز لمن غنى له:

هجرتك حتى قلت لا يعرف القلى وزرتك حتى قلت ليس له صبر[387]

وينقل السيوطي عن (المسعودي) استكمالاً لإعطاء صورة أخرى عن شخصية الأمين قول الأخير: ما ولى الخلافة إلى وقتنا هذا هاشمي ابن هاشمية سوى علي بن أبي طالب، وابنه الحسن، والأمين فإن أمه (زبيدة بنت جعفر بن أبي جعفر المنصور)، وأسمها (أمة العزيز)، و(زبيدة) لقب لها وقال إسحاق الموصلي: اجتمعت في الأمين خصائل لم تكن في غيره كان أحسن الناس وجهاً وأسخاهم، وأشرف الخلفاء أبا، وأما حسن الأدب، عالماً بالشعر، لكن غلب عليه: الهوى واللعب[388].

لنحاول تفكيك الفقرات التي ذكرنا ونسجلها فكرة تلو الفكرة لنقف عند بعض العناصر السيكولوجية، المكونة لسلوك الأمين.

1- ولي الأمين عن طريق التوريث، إذ لا بيعة ولا اختيار ولا شورى ولا استشارة لأهل الرأي، ولا لأهل الحل والعقد.

2- كان جميلاً بهي الطلعة (ليس معياراً لتولي الخلافة، أو لملك أو السلطة).

3- له من القوة المفروطة والبطش والشجاعة (هي عناصر تمهد سلوكياً للغلو، والتطرف في السلوك).

4- صاحب فصاحة، وبلاغة، كان عالماً بالشعر (استبعاد التفكير العقلاني).

5- أرعن لا يصلح للإمارة (كلام واضح للقارئ).

6- أول عمل قام به، بنى ملعباً للعب.

7- خاصم أخاه المأمون أو إن المأمون خاصم الأمين، وقعت الأزمة، كان من الممكن إدارتها بين الأخوين بأسلوب رشيد.

8- اسقط الأمين اسم أخيه من ولاية العهد.

9- ساءت أحوال الناس، وعظم الشر (إهمال شؤون الرعية والاستخفاف بوجودها، والتفرغ للصراع من الأخ).

10- ابتاع السباع، والطيور، والوحوش.

11- احتجب عن أهل بيته، وبذر الأموال.

12- بنى عدة قصور للهو.

13- كان هاشمياً ابن هاشمية.

14- كان أشرف الخلفاء أباً، وأماً.

15- غلب عليه الهوى، واللعب.

هذه أهم عناصر السلوك لخليفتنا (الأمين)، ولعل أهم ما جاء فيها: إدارته لأمور الخلافة شؤون حياة الناس، أو بمعنى أصح إدارته للأزمة مع شقيقه المأمون حيث صورت هذه الطريقة في إدارة الأزمة من جماع عناصر سلوكه التي رأينا في تفكير كنا له، هذا

بالإضافة لإغفال كامل للمرجعية الدينية – الشرعية، أو المرجعية النموذجية للنبي، والراشدين في إدارة الأمور، والأزمات.

إذا كان الأمين عربياً، ومن أصول عربية، فهذا لا يبيح له أن يسيء إدارة الأمور، والرعية وإذا كان عالماً بالشعر، فهذا لا يبيح له إبعاد النشاط العقلي، والتفكير الحر، والنمو الثقافي والفكري في المجتمع.

والآن لنتصور كيفية صناعة القرار المتعلق بمصائر الناس أو لقراراتنا نحن في إطار سلوكي عالم كما ذكرنا عناصره سابقاً.

نحن نفترض، بالمقابل، ألا تكون لمثل هذا السلوك الشخصي أية آثار جانبية تمس القرارات الخليفية العليا، ولكن يمكننا تصور وجود عناصر أخرى لم يذكرها المؤرخون، وهي عناصر قوة إيجابية، تتجاوز المسالك السليمة التي ذكرتا، تدفع بصاحبها إلى ممارسة سلوك عقلاني كامل وهو بصدد صناعة قراراً ما؟ نرجو أن تظهر وثائق تاريخية أخرى يوماً، تناقض ما أوحينا به من عناصر سلبية وتأثيراتها في مجريات الأمور آنذاك.

2- المأمون (167 – 218هـ)

عبد الله أبو العباس، ابن الرشيد قرأ العلم في صغره، أدبه (اليزيدي)، وجمع الفقهاء من الآفاق وبرز في الفقه، والعربية، وأيام الناس ولما كبر عنى بالفلسفة، وعلوم الأوائل[389] فجره ذلك إلى القول بخلق القرآن، كان أفضل رجال بني العباس، حزماً وعزماً، وحلماً ورأياً، ودهاء وهيبة وشجاعة وسؤدداً وسماحة، وله محاسن، أسيرة طويلة، لولا ما أتاه من محنة في القول بخلق القرآن[390].

قال الرشيد، والد المأمون إني لأعرف في عبد الله، حزم المنصور، ونسك المهدي وعزة الهادي، لو أشاء أنسب إلى الرابع، يعني نفسه، لابنته، وقد قدمت محمداً عليه، وإني لأعلم أنه منقاد إلى هواه، مبذر، لما حوته يده، يشارك في رأيه الإماء والنساء[391].

أظهر المأمون القول بخلق القرآن كما ذكرنا، ومال إلى تفضيل (علي) على (أبو بكر وعمر) فاشمأزت النفوس منه، وكاد البلد يفتتن (يقع في أزمات مذهبية) ثم صار المأمون إلى غزو الروم، وتزوج (بوران) بنت (الحسن بن سهل) وبلغ جهازها ألوفاً كثيرة، وقام أبوها، بخلع القواد، وكتب رقاعاً فيها أسماء ضياع له[392].

في سنة ثمان عشرة ومائتين امتحن المأمون الناس بالقول بخلق القرآن، وكتب إلى نائبه على بغداد (إسحاق بن إبراهيم الخزاعي) ابن عم (طاهر بن الحسين) في امتحان كبار العلماء، ورجال الفكر، في المسألة، يقول له في فقرة: امتحن الناس فيما يقولون، واجمع من بحضرتك من القضاة فاقرأ عليهم كتابنا، وامتحنهم فيما يقولون واكشفهم عما يعتقدون في خلقه (القرآن) وأعلمهم أني غير مستعين في عملي، ولا واثق بمن لا يوثق بدينه، فإذا أقروا بذلك ووافقوا، فمرهم بنص من حضرتهم من الشهود، ومسألتهم عن عملهم القرآن وترك شهادة من لم يقر، أنه مخلوق واكتب إلينا بما يأتيك عن قضاة أهل عملك في مسألتهم، والأمر لهم بمثل ذلك[393] وكتب (المأمون) بإحضار مجموعة من سبعة أشخاص المشهورين في الدولة، فأشخصوا إليه فامتحنهم بخلق القرآن، لما جابوه من الرقة إلى بغداد وأجابوه تقيه (أي أنهم لم يظهروا ما يبطنون خوفاً).

ثم كتب إلى (إسحاق ابن إبراهيم) بإحضار مجموعة من الفقهاء، ومشايخ الحديث، وغيرهم، فأجابه هؤلاء بما أجابه السبعة، وقال بعضهم لقد أجبنا خوفاً من السيف[394].

ثم أحضرت جماعة مع الإمام (أحمد بن حنبل) وعرض عليه كتاب المأمون، فعرضها، ولم يجيبوا، لم ينكروا قال صاحب الكتاب للإمام (أحمد) بعد أن سأل الآخرين قبله حيث قالوا: إنه (أي القرآن) كلام الله، وعندما سؤل الإمام ما يقوله؟ فيقول الإمام ولا أزيد على هذا وأخبر المأمون بالأمر فأمر الخليفة بضرب عنق البعض الذين أنكروا خلق القرآن، وسجن الإمام في الحبس، وأصيب بالمحنة الكبرى، وقيل أنه مات بالسجن.

عالج الخليفة المأمون (أزمة) القول بخلق القرآن، وعدم خلقه بـ:

* إجبار الناس، عامة ونخبهم، وفقهائهم، ورجال القضاء، على القول بما كان يعتقده تحت تأثير فرقة المعتزلة التي كانت قد تبنت هذا الاعتقاد بذريعة الميل إلى التفسير العقلي للمسألة، وفي فهم العقيدة الإسلامية، على حساب (النقل).

* اللجوء إلى العنف في إقحام نمط تفكير الخليفة الشخصي على الناس.

وهل كانت الرعية معنية بهذه المسألة أم بالسعي نحو رغيف الخبز، والطعام والشراب والحياة الكريمة؟

* مواجهة المعارضة: الدينية – السياسية – الثقافية، واشتباك هذه الجوانب، وإلباس المعارضة السياسية ثوباً دينياً (كالكفر، والزندقة) لتبرير استئصالها، والعكس وقمع المثقفين المخالفين في الرأي تحت غطاء تشجيع التفكير العقلي.

* للمأمون قول رائع، جاء في كتاب تاريخ الخلفاء وهو: ((لا نزهة اللذ من النظر في عقول الرجال))[395].

ولكن هل كان للمأمون هذا المنهج في سلوكه السياسي – الفكري، وقبوله عقول الرجال على اختلاف وجهات نظرهم، وبعقل مفتوح؟

العصر العباسي الثاني ـ سقوط السيادة العربية
إدارة الأزمات من قبل عناصر غير عربية

مقدمة:

منذ بداية هذا العصر، آذنت شمس السيادة العربية، والقيادة السياسية العربية بالمغيب، وغربت معها سلطة القرار الخليفي العربي، ورغم ما كان يكتنف القرار العربي للقيادة الخليفية العربية من مشكلات أشرنا سابقاً إلى ذلك إلا أنها كانت سيادة عربية بمختلف المقاييس، ورغم استشراء الفساد وسيطرة الأهواء، وكثرة الأزمات، بل والصراعات كما رأينا ،وكما سنرى فيما بعد، إلا أن القرار في القيادة السياسية الخليفية، كان عربياً، ورغم أنه كانا فردياً، يصدر عن الخليفة كفرد، لا كمجموعة أو هيئة، أو صادر عن مرجعيات شرعية دينية، أو دستورية مدنية.

تدهور السيادة العربية مع بقاء المظلة الدينية للخلافة:

علمنا منذ بداية الحديث عن العباسيين أن هؤلاء، نظروا إلى أنفسهم أنهم أصحاب حق شرعي في الحكم والخلافة، فالعباس عم النبي، وعلى هذا النحو عمل العباسيون منذ اعتلائهم عرش الخلافة على التشبث، والاستئثار، والاحتفاظ (الدموي) والتوريث للخلافة في جلدتهم، دون أبناء عمهم العلويين، مما جعل كثيراً من هؤلاء يسخطون، ويثورون على العباسيين طوال العصر وأخذ أنصار العلويين يدعون لدعوتهم سراً.

ومن ناحية ثانية، رأينا أن العباسيين، وحتى هذه الفترة بين أيدينا قد نجحوا في أسلوب حكمهم، وتعاملهم مع المعارضة الأسلوب الاستبدادي، ولم يخطر لأحد الخلفاء يوماً أن يدعو المخالفين، والمعارضين المشاركة في السلطة والتعايش جنباً إلى جنب في سلطة واحدة ومشتركة بهدف خدمة شعوب الإمبراطورية.

لمحة عن مناخ العصر العباسي الثاني:

جاء الابن الثالث (لهارون الرشيد)، وهو المعتصم (833 – 842م)، وكان ذا شجاعة وحكمة وله محاسن وكلمات فصيحة، وشعر لا بأس به غير أنه إذا غضب لا يبالي من قتل[396].

وكان من أشد الناس بطشاً غزا الروم، وأصابهم بنكبة كبرى شتت جموعهم، وضرب ديارهم، وفتح (عمورية) بالسيف، وفي هذه الواقعة أشاد الشعراء بالبطولة العربية، وأشاد (أبو تمام) شاعر الخليفة آنذاك بقصيدته المشهورة:

السيف أصدق أنباء من الكتب   فى حدّه الحدّ بين الجد واللعب

ولا شك أننا في الكلمات السابقة نصادف عناصر إيجابية في شخصية الخليفة والعرب من المحيط إلى الخليج يذكرون صيحة امرأة (وامعتصماه)، وعندما سمع الخليفة هذه العبارة هب، وجيوشه للمعركة الرهيبة لغزو الروم وفتح (عمورية) أما من ناحية الآثار السلبية (الجانبية) لخلافة المعتصم، فإننا سنفصل فيها الأمر في السطور التالي:

يقول (تاريخ الخلفاء) كان المعتصم أول خليفة أدخل (الأتراك) الديوان[397]، وهذه العبارة تستحق منا الوقوف عندها، عندما نقرأ تعليق د.شوقي ضيف على هذه المسألة ما يلي:

(أخذ المعتصم منذ توليه الخلافة يفكر في استخدام عنصر جديد يعتمد عليه في حروبه غير الفرس، فثورات هؤلاء أصبحت كثيرة، ولا تنقطع، وأمانيهم في إحياء مجدهم القوي لا تخمد، واستظهارهم للمشاعر الشعوبية، وأفكارهم في الزندقة تنتشر هنا، وهناك فهداه تفكيره إلى اعتماد عنصر من الرقيق اشتهر في عصره بالصبر تحت ظلال الرماح، وعلى خدمة بالرمي، يمنة ومسيرة ومقبلاً، ومدبراً، وهو: الرقيق التركي)[398].

بإدخال (المعتصم) العنصر التركي نكون قد بدأنا بداية أليمة أصابت السيادة العربية في الصميم وسيمهد هذا الطريق للخلفاء الآخرين أن يقعوا تحت سيطرة كاملة للقواد الأتراك، ينصبون، ويعزلون، من شاءوا ومتى أرادوا.

إذن نحن هنا إزاء تحول كبير، وخطير، في التاريخ السياسي للعصور العباسية، ذلك أنهم كانوا في السابق يعتمدون على العنصر الفارسي، وكان هؤلاء أصحاب مدنية وحضارة، وأراد هؤلاء مزج عناصر من حضارتهم والتراث العربي، والإسلامي والثقافة اليونانية (علوم الأوائل) لإنتاج حضارة جديدة مزيجة، وهذا ما حصل في واقع الأمر.

ولكن هذا المشروع بدأ يفشل حضارياً وسياسياً بدخول العنصر الوافد الجديد أي (الأتراك) فهؤلاء جاؤوا، واعتنقوا الإسلام كغيرهم من الشعوب التي اعتنقته، ولكنهم لم يحملوا معهم تراثاً حضارياً، ولا نضجاً سياسياً، ولم يفكروا أصلاً بإثراء الواقع الحضاري بعلومهم، وثقافتهم فقد كانوا اجتماعياً من الرقيق.

يقول الدكتور (الأنصاري) على الصعيد الفكري، والثقافي والحضاري العام، يلاحظ أن الخط البياني المتصاعد لازدهار، وإبداع الحضارة العربية الإسلامية قد أصيب بانكسار، وهبوط سريع وغير طبيعي بعد سيطرة العسكر التركي على السلطة في بغداد بين عهدي المعتصم، والمتوكل، وفي أقل من عهدين من الزمن، وانتهاء بالردة الأصولية للمتوكل في قمة السلطة[399]، وبعبارة أخرى إننا نرى أن محصلة الأمر كله هو أن الحضارة العربية (وشمولها للتاريخ السياسي) قد بدأت تخضع للبداوة الآسيوية ومنذ وقت مبكر والمشكلة لم تنحصر في البداوة العربية ذاتها بقدر ما كانت للبداوة الآسيوية الأعجمية الأشد وطأة، وهي قوى رعوية، ومنذ ذلك الحين وإلى ما بعد أكثر من ألف سنة أخذت الخلافة والسلطة السياسية والقيادة السياسية، كل ذلك بيد أنماط مختلفة من عناصر إسلامية (ربما ظاهراً، وربما ظاهراً وباطناً)، ولكنها غير عربية، زد على ذلك أن الأتراك كانوا بداة لا يعرفون الصناعة ولا الزراعة ولا التجارة ولا الآداب ولا الفنون ولا قواعد متطورة للحكم، والسياسة إنما هم سكان صحارى وقفار، وحرب وجلاد، وبأس ومراس، ولقد صورهم، منذ ذلك الوقت كثير من الكتاب العرب، في رسائلهم الأدبية[400].

إذن لقد فتح الخليفة (المعتصم) الباب أمام القواعد الأتراك، وبدأ هؤلاء بالإمساك بالشؤون الإدارية[401] إلى جانب ما مسكوا به من أمور عسكرية.

يقول (الطقطقي) في (الفخري) في الآداب السلطانية: استولى الأتراك منذ مقتل المتوكل على المملكة، واستضعفوا الخلفاء، فكان الخليفة في أيديهم كالأسير، إن شاءوا أبقوا عليه، وإن شاءوا خلعوه وإن شاءوا قتلوه.

ثم اعتلى (المنتصر) الخلافة بأيدي قتلة أبيه من (الترك)، وبايعوه، ثم أخذوا البيعة من الناس ولم يلبثوا أن حضوه على خلع أخويه: (المعتز)، و(المؤيد) من ولاية العهد بعده، وكان المتوكل قد أوصى لهما (المنتصر) ثم خلعه[402].

ولقد سيطر الأتراك على أدوات الحكم، وخاصة بعد مقتل (المتوكل) وأصبح الخليفة حينئذ أشبه ما يكون ببغاء في قفص، يردد ما يقوله مخاطبه، ولا أمر يملكه، فالأمر كله لحاجبيه (رصيف)، و(بغا)[402] ولم يعد الخلفاء يحكمون منذ عهد (المقتدر)، المشؤوم فقد استولى الأتراك، والنساء والجند على الحكم، وشكل العنصر غير العربي عاملاً ألقى بظلال سلبية على أسلوب إدارة الأمور في حاضرة الخلافة ولكن الأتراك بدورهم، مروا بفترة تراجع أو ضعف في التأثير على القرار في عهد الخليفة (المعتضد) لقد كان هذا الخليفة كماي قول (المسعودي) غير راغب إلا في النساء، والبناء.

لقد اتسع الخرق في هذا العصر، ولم يعد من الممكن رتقه، وكان ذلك مظهراً واضحاً حيث تمت مصادرة أموال الناس، منهم الوزراء، والكتاب في الدواوين، حيث عمل هؤلاء على الاحتيال للحصول على أموال الدولة، ولم تعد الدولة تحكمها القوانين والتشريعات الدينية.

تلك صورة من صور فساد الحكم، وتعطينا فكرة عن كيفية تعامل خلفاء هذه المرحلة مع الأزمات لقد نعم الخلفاء على حد السفه والهوس أما طبقات الشعب، فقد قتر عليهم في الرزق وعاشت ضنك العيش، هذه الأوضاع المزرية في حياة الشعب جعلته يبتعد عن الاهتمام بالخلافة.

وما يجري حولها من تحكم من قبل الأتراك والجند والنساء، وفي الوقت نفسه، كان الخلفاء يأكلون في أواني من الذهب، والفضة ويسرفون في الإنفاق على مطامعهم، وموائدهم ويقول: (الصابي) في كتابه (الوزراء) كان لابن الفرات مطبخان: مطبخ للخاصة، ومطبخ للعامة[404].

زد على ذلك انتشار الرقيق، والجواري والمجون، والزندقة، وبعض حلقات التصوف والزهد في المقابل.

تطرف في الانهماك في ملذات الحياة الدنيا، وزهد، وتشقف وانسحاب من ملذاتها لملئ حياة الروح.

في هذا المناخ الشاذ، والفساد للعصر العباسي الثاني، في حياته السياسية وفي أسلوب العيش لدى فئات الشعب كانت تدار الأمور وتعالج الأزمات، ولنر أمثلة من الأزمات التي حصلت وأسلوب معالجتها.

1- ثورة الزنج: شغلت هذه الثورة حياة الناس، على رأسهم الخلافة أربع عشرة سنة وأربعة أشهر، اكتوى الجميع بنيرانها، ولم يضع حد لهذا الصراع الذي وقع بين (255 - 270هـ-) لقد كانت ثورة فارسية اللاعبون الرئيسيون فيها كانوا غير عرب وغذاها العبيد الذين أرادوا الثورة ضد السادة، وانتهت بالقضاء المحتم على أكثر من مليون ونصف من الناس، وأوضح أن أهم مطالب ثوار الزنج كانت العدالة، وأين للخلفاء، والقيادات السياسية التي كانت مغمورة من أن تفكر يوماً بحاجات الشعب، وتلبية مطالب المضطهدين؟

2- ثورة القرامطة بقيادة عبد الله بن ميمون القداح[405] (277هـ-):

القرامطة أصحاب طقوس مذهبية خاصة باطنية وشديدة الإخلاص للإمام الغائب، (محمد بن إسماعيل) المهدي المنتظر وقد استقرت تعاليم هذه الطائفة في الأعماق الشعبية، التي كانت تستغل ميولها الاجتماعية[406] وكانت تؤمن عما نسميه اليوم ب- (الرعب الثوري) وهي فرقة باطنية شيعية إسماعيلية.

قام هؤلاء بعده حملات في العراق، وشماله ما بين النهرين، وجزيرة العرب التي انتزعوا منها الحجر الأسود، ولم يعيدوه إلا في (340هـ-).

وظاهر الأمر أن مطالب هذه الثورة دينية أكثر منها اجتماعية، ولكن ليس من خط فاصل بين الدين والسياسية، لذلك لابد من أن تكون مطالب هذه الحركة مزيجاً من الدين والسياسة وبما تنعكس هذه على الاجتماع والثقافة.

جاءت هذه الحركة في قلب انحلال مؤسسة الخلافة، وجاءت هذه الثورة لتضع مسامير أخيرة في نعش السلطة الخليفية - غير العربية المتهالكة.

نبذ حول جوانب سلوكية مضطربة لعينة من الخلفاء (القيادات السياسية) :الأمويون والعباسيون

1– لم يتحرج كتابنا، ومؤلفونا القدماء في كتابة تواريخهم لرجال السياسة – الخلفاء، من ذكر بعض الجوانب، والأمور الصغيرة في سلوك القادة السياسيين، فكانوا يذكرون ما هو إيجابي وما هو سلبي في سلوك القادة السياسيين، فكانوا يذكرون ما هو إيجابي وما هو سلبي في سلوك هؤلاء الخلفاء، التزاماً بالروح الموضوعية أولاً، وربما كانوا يرمون بشكل غير مباشر إلى الإشارة إلى أن سلوك الخليفة كغيره من عامة الناس له (مطباته) وله سلبياته التي قد تؤثر في مجرى سلوكه العام، من ناحية، وفي قراراته العليا المتعلقة بأبناء المجتمع (الرعية) من ناحية ثانية.

وقد ذكرنا سابقاً أن السلوك الإنساني يشكل كلاً واحداً تتأثر، وتؤثر عناصره بعضها ببعض، وبعبارة أوضح إذا أردنا أن نبحث في جانب العنف، أو التطرف والقمع والاستبداد في سلوك ما، تلك السلوكيات التي مارسها خلفاؤنا في الماضي في تعاملهم مع أزمات التمرد والثورات، والعصيان فإن هذه لا تنفصل (التصرفات) القيادية عن السلوك العام للقيادة وأعني أن السلوك المتصف بالعنف، سيعالج أزماته بعنف أيضاً.

هذه الجوانب السلوكية في السلوك السياسي تمتد آثارها لتشمل مجريات الأمور العامة ولقد انتبه كثير من مؤلفينا القدماء إلى الصلة بين سلوك إدارة الأزمات الشخصية الخاصة لدى الفرد، أو لدى القائد أو الخليفة وإدارته للأمور العامة في شؤون المجتمع والدولة.

ورأوا العلاقة وثيقة بين سلوك الفرد في بيته مثلاً وسلوكه إذا كان قائداً في الخارج ولقد ذكرنا ما قاله (عمر بن الخطاب) عندما رفض توليه ابنه للخلافة عندما سأله أحدهم لم لم يول (عبد الله) فقال: كيف أدع الخلافة لشخص غير قادر على تطليق زوجته؟

ويمكننا أن نذكر مثالاً آخر، من كتابنا القدماء الذين عقدوا الصلة بين سلوك الفرد في جوانبه الخاصة وسلوكه العام، فقد كتب (ابن سينا)[407] رسالة في (السياسة)، مبتدئاً رسالته بطلب الخليفة من رجل السياسة أن يكون قادراً أولاً وقبل كل شيء على إدارة النفس (سياسة الرجل لنفسه) ثم بيته، ثم زوجته، ثم أولاده، وهذه شروط لابد منها

لإيجاد توازن سلوكي – سيكولوجي لدى رجل السياسة، وإذا لم يتوفر له هذا التوازن فكيف سيدير شؤون المجتمع، وأزماته إذا لم يكن قادراً على إدارة شؤونه الخاصة، وأزماته الشخصية؟

إذا أردنا أن نوسع أو نطور هذه الفكرة الأخيرة على شكل سؤال، يمكن صياغته على الشكل التالي:

هل المأزوم (فكراً وسلوكاً) يمكنه أن يدير الأزمات؟[408].

تلح كتب الآداب، والأحكام السلطانية، كما سنرى فيما بعد على تعداد الخصال الواجب توفرها في من سيتولى الخلافة، وتشير وبشكل مباشر إلى أن يكون الحاكم – الخليفة – القائد، قادراً على إدارة سلوكه وجعله متوازناً (صالحاً)، وغير ذلك من الأخلاقيات المطلوبة في رجل السياسة، وبعبارة أخرى إنها تلح على أهمية: التوازن، والعقلانية، والاعتدال في مناحي السلوك، وأن يكون السلوك خالياً من الاضطرابات (السلبيات).

كان قدماؤنا إذن، يذكرون حسب قنوات نقل المعلومات في تلك العصور كثيراً من الجوانب السلوكية لأهل البلاط، والقصور الخليفية، وكانوا يشيرون بشكل غير مباشر إلى ضرورة أن يكون: الخليفة – الحاكم – في منأى عن هذه السلوكيات، ليكون قدوة ونموذجاً للشعب (للرعية) وأن يكون مثالاً في ضبط الانفعالات، والمشاعر المتطرفة والغرائز الهائجة، وأن لا يغضب الحاكم غضب الصبي مثلاً.

وزبدة القول لقد نقل القدماء في تراثنا وتاريخنا السياسي الوجه الآخر للخلفاء، وهو ما نريد أن نسجل بعضاً منه لدي عينة من الخلفاء[409].

زد على ذلك أن الحديث عن ظاهرة السلوك القيادي، وتأثر عناصره بعضها ببعض يظهر ذلك بجلاء أيضاً في النظام السياسي القائم على: الفرد، والحاكم الأوحد، وصاحب القرار خاصة إذا كان الأمر يتعلق بخلفاء، أو ساسة مستبدين لا يخضعون لضوابط شرعية – دينية، ولا ضوابط دستورية مدنية، يخضعون سلوكهم لها، وبناء على سلوكياتهم الخاصة، والعامة التي تعاني في بعض جوانبها من: سلوكيات غير متوازنة فإن

هذا الوضع ينعكس في قراراتهم، وفي طرق معالجتهم للأزمات خاصة وأنهم هم الوحيدين أصحاب المعالجة، وأصحاب القرار، وكذا الأمر ينطبق على قادة الحركات والأحزاب المعارضة للحكم، بينما في الأنظمة الدستورية أو ذات ضوابط شرعية، فإن في هذه قواعد، وضوابط، ومسؤوليات، ورقابة لا يستطيع الحاكم، ولا الخليفة أن يتجاوزها، وباعتبار أن القيادات السياسية العربية الإسلامية في تاريخنا السياسي، وكما رأينا عبر الصفحات السابقة، قد استبعدت المرجعيات الضابطة لحكمها، وسلوكها وفكرها، فأصبح الأمر كله بيدها، فالقائد الفرد في هذه الحال لا يسأل عما يفعل، حتى وإن صدرت أعماله، وأقواله من جوانب سلوكية مضطربة ومنحرفة.

1- لقد سجل كتاب (تاريخ الخلفاء) لجلال الدين السيوطي الكثير من الجوانب السلوكية المضطربة، والتي يمكن أن يعتبرها البعض طريفة، ولكن ليس غرضنا تبيان طرفاتها، لأن الموضوع أكثر جدية من ذلك، تذكر الدراسات السيكولوجية الحديثة كما قلنا الصلة بين الاضطرابات السلوكية والسلوك الإداري للأزمات أو إدارة الخفاء لشؤون الحكم، وشؤون الرعية، ومن ثم إدارتهم للأزمات والصراعات.

والواقع إذا أردنا التوسع في مجالات اضطرابات السلوك، ونمط التفكير، في التاريخ السياسي العربي يمكننا العودة إلى مرحلة بني العباس، بعد أن مررنا بمرحلة العصر الأموي لنذكر حالات سلوكية مأزومة من وجهة نظر عقلانية، لأنها لا تتوازن مع الجوانب الأخرى، أو بالأحرى كان من المفترض أن لا تكون جانباً سلبياً في سلوك القائد أو الخليفة.

أما طبيعة السلوك اللامعقول، أو الجانب السلبي والوجه الآخر للسلوك فهو الذي لاحظنا أماراته في تاريخنا السياسي يظهر بجلاء لدى القادة والمعارضة، والأفراد في مظاهر من قبيل النزعات القبلية المتعصبة والمفاخرات القبلية والهجاء المقذع والتطرف والعنف والاقتتال من أجل الرياسة (السلطة)، والمثالب التي تذكرها المعارضة ضد السلطة وهذه ضد تلك، في الشعر والخطابة، وفي المساجد وعلى المنابر، وعلى رؤوس الأشهاد كل ذلك يدخل في سلوكيات (ونمط فكر) غير عقلاني، وكل ذلك ترك بصماته في تاريخنا السياسي، ولا تزال آثاره في حياتنا السياسية المعاصرة.

فظواهر القتل والاستبعاد، والعنف، والحروب الكلامية وليس النقد النزيه والعلمي، والموضوعي، كل هذه المظاهر تعبير عن: اضطرابات سلوكية، أو إذا أردنا التخفيف التعبير لقلنا إنها تعبير عن اللامعقول في السياسية، والبعض يُدخلها مع ذلك في مجال: علم النفس المَرضَي السياسي Political Pathology.

2- وسنضطر إلى اختيار (عينة) من الخلفاء، والذين جاء ذكرهم في تاريخ الخلفاء، وجوانب من سلوكياتهم الخاصة:

ذكر السيوطي في كتابه المذكور سيرة سبعة وثلاثين خليفة للعصرين الأموي والعباسي الأول والثاني في العراق، والشام، ومصر، حواضر الخلافة العربية الإسلامية طوال أربعة قرون ونيف والخلفاء جميعهم روى السيوطي جوانب سلوكهم السلبية:

1- **الخليفة المتوكل**: قال السيوطي في تاريخ الخلفاء: كان (المتوكل) معروفاً بالتعصب، وكان رافضياً ومنهمكاً في اللذات والشراب، وقال (علي بن جهم)، كان (المتوكل) شغوفاً بقبيحه أم ولده المعتز، لا يصبر منها[409].

2- **المنتصر بالله**: قيل أن المنتصر جلس في بعض الأيام للهو، وقد استخرج من خزائن أبيه فرشاً فأمر بفرشها في المجلس، فرأى في بعض البسط دائرة فيها فارس وعليه تاج، وحوله كتابة فارسية فطلب من يقرأ له ما فيها، فاحضر رجل، فنظره، فقطب، فقال: ما هذه؟ قال القارئ لا معنى لها، فألح عليه الخليفة فقال: أنا شيرويه بن كسرى بن هرمز، قتلت أبي فلم أتمتع بالملك إلا ستة أشهر، فتغير وجه المنتصر، وأمر بإحراق البساط، وكان منسوجاً بالذهب[410].

3- **الخليفة المعتمد**: انهمك في اللهو، والملذات واشتغل عن الرعية، فكره الناس[411].

4- **المعتضد بالله**: كان قليل الرحمة، إذا غضب على قائد أمر بأن يلقي به في حفيرة، ويطعم عليه، في أول سنة استخلف فيها منع الوراقين من بيع كتب الفلاسفة، وما شاكلها، ومنع القصاص، والمنجمين في القعود في الطرقات، عزم المعتضد على لعن (معاوية) في المنابر... واعتل المعتضد، وتغير مزاجه من كثرة إفراطه في الجماع[412].

5- **المكتفي بالله**: أبو محمد علي المعتضد، كانت أمه (تركية)، عاث فساداً وتسمى بأمير المؤمنين ودعي ب-لوطي المنابر[413].

6- **المقتدر بالله**: قال الذهبي، اختل النظام كثيراً أيام المقتدر لصغره، وقد صلب الصوفي (الحلاج)، وقد ذكر المستشرق (آدم ميتز) قائلاً، ونظراً لأن المقتدر كان صغيراً فقد كان تنصيبه للخلافة انتخاباً غير شرعي، وقد ذبح أحد القضاة لأنه أطاع ضميره حين قالوا له: تبايع المقتدر، قال هو صبي، ولا تجوز المبايعة له، لبث المقتدر قرابة خمسة وعشرين عاماً في الخلافة، تحت جناحي أمه، وخلع أثناء ذلك مرتين[413].

7- **القاهر بالله:** كان ا لقاهر أهوج، شديد الإقدام على سفك الدماء محباً للمال، قبيح السياسة قليل الرغبة في الغناء، ومع ذلك حرم على الناس الخمر[414].

8- **المستكفي**: نادراً ما كانت تقر عينه بمنصبه، وهو بين: امرأة مشجعة رفعته بدسائسها إلى منصب الخلافة، وبين (الترك) الذين أصبحوا سادة بغداد، وأخيراً جاء (بنو يويه)[415].

9- **الراشد بالله**: أفتى الفقهاء بخلعة لما جرى في عهده من الظلم، وأخذ الأموال وسفك الدماء وشرب الخمر[416].

10- **الراضي**: لم يجد أصحابه من العيب فيه إلا أنه كان يؤثر شهوته على رأيه[417].

هذه صور لعشرة خلفاء من (بني العباس)، وكنا قد ذكرنا بعضاً آخرين في الصفحات السابقة عن سلوكيات بعض خلفاء (بني أمية) في النبذ من خطبهم السياسية، وأفكارهم المتطرفة والعميقة ومسالكهم المستبدة في السلطة وطرق معالجتهم للأزمات.

ولا شك أن الصورة أشد قتامة لاضطرابات سلوكية الخلفاء ظهرت لدى الخلفاء المتأخرين والذين ضعفوا في إدارة الدولة وقعوا في أكثر منهم تحت سيطرة الدوافع المبتذلة.

لقد أورد (السيوطي) في كتابه (تاريخ الخلفاء) أسماءهم جميعاً، وعددهم كالتالي:

	العدد
* خلفاء بني أمية	**14**
* خلفاء بني العباس (العراق)	**37**
* الخلفاء العباسيون (مصر)	**17**
المجموع	**68**[418]

استطعنا الوقوف على سلبيات جميع الخلفاء الذين ذكرهم (السيوطي) وتكاد هذه السلبيات مستنسخة لدى الجميع، وكلها تجسد استبداد الجانب المبتذل في الطبائع البشرية، ولم تكن القيادات السياسية، مستثناة من سيطرة هذا الجانب الاستبدادي، والقاهر لعالم الشهوات والميول المبتذلة.

خاتمة

نهاية القيادة السياسية العربية للأمور

وسقوط القرار العربي في دنيا العصور الوسطى العربية الإسلامية

1- يتولى الخليفة (المعتصم) زمام القيادة السياسية العربية، وتحقيق بعض الانتصارات على الروم وتجلى صورة إيجابية له في العمل الخليفي، تجلت في الوقت نفسه الصورة السلبية في خلافته لتلك المرحلة، وسجلت أولى الخطوات في دخول العنصر غير العربي في قلب القيادة السياسية، وتسلم (الأتراك) رويداً رويداً زمام الأمور، وهؤلاء بالرغم من كونهم مسلمين، يؤمنون بالله ورسوله، وبالعقيدة الإسلامية إلا أن سلطة القرار التي أمسكوا بها ليست بتلك السلطة الحريصة على إرساء أو تكريس السمات العربية الإسلامية للسلوك القيادي من ناحية ومن ناحية ثانية لم تكن حريصة على إثراء الحضارة أو الإشعاع الحضاري الذي بدأ بتسليطه المسلمون منذ العهد النبوي والراشدي، وبداية العصر الأموي والعباسي.

لقد كانت النتيجة الكارثية لهذه المرحلة من مراحل التاريخ القيادي السياسي العربي أن سقط القرار العربي.

لقد كان القرن الرابع الهجري آخر تجليات الإشعاع الحضاري من علوم، وفلسفة، وآداب، وتطور روحي، وكان هذا القرن أيضاً آخر القرون العربية حضارياً.

وكان مرحلة ضعف في مواجهة القيادة غير العربية للأزمات والصراعات، وإدارتها، نحن في هذه المرحلة بإزاء خلافة عباسية اسما، وظاهراً، كان هؤلاء الخلفاء مسلمين، ولكن طابع وسلوك، ومسيرة القيادة السياسية لم تكن من العروبة في شيء، وفي الوقت نفسه كانت غير شرعية بمعنى التزام الحاكمية الإلهية.

لقد كانت الأرضية الخليفية العباسية في نهاية العصر العباسي الثاني قد مهدت في شكلها القيادي السياسي، السبيل إلى مزيد من تدخل الأطراف غير عربية، والتي جاءت هذه المرة بهدف تدمير الخلافة الإسلامية، وقد ذكرنا سلسلة الأسر الخليفية غير العربية التي توالت على الخلافة.

لقد أخذ (الفاتح التركي) يحل محل الجند، المرتزقة الأتراك في عهد الخليفة المعتصم، ومن جاء بعده من الخلفاء.

لقد أصاب الانحلال معالم الحياة العربية الإسلامية بدءاً من انحلال القيادة السياسية عندما انقلبت هذه القيادة لتصبح خارج اليد العربية، وإرادتها في بسط السلطة.

لقد كانت الملحمة (السلجوقية) التي جاءت لتحل محل البداة الأتراك وفرض سلطتها في بغداد حوالي العام (447هـ–)، وفرضت سلطاتها على إيران والعراق وسورية.

وكانت الخلافة العربية هي الخاسر الأكبر في دخول العسكر سدة الحكم، ومن خلال الغزو وأصبح هؤلاء هم الحكام الجدد، وبدأت سيادة الإسلام التركي[419].

2– في تلك الأثناء بدأت الأطماع الصليبية تظهر على الساحة العالمية، لتوجه أنظارها إلى غزو الإمبراطورية العربية – الإسلامية وصعد الصليبيون على المسرح العالمي وتغيرت موازين القوى تغيراً كاملاً وشاملاً، وقد تخلل تحقيق غزو الصليبيين، بعض الانتصارات عمل (صلاح الدين الأيوبي) في قيادته: على وحدة العالم الإسلامي، وحقق الانتصار على الصليبيين، كان قائداً مسلماً، وسرعان ما أصبحت شخصيته (كاريزمية) في الجزء الشرقي من العالم الإسلامي خاصة، وفي شمال أفريقيا كان المرابطون، وخلفاؤهم، والموحدون يحاولون توحيد المغرب الإسلامي في مواجهة (أزمة) الأندلس الممزقة في حينها.

3– جاء الغزو الجديد بقيادة المغول، والذين قدموا من أواسط الصين، وبعض مناطق أوروبا الشرقية وقد مر هذا الغزو بمراحل، أولاها قيادة (جينكيز خان المتوفى 1227م) جاء عابراً الصين والقوقاز غازياً العالم الإسلامي، وكانت صدمة كبرى من جراء هذا الغزو في مختلف أرجاء العالم الإسلامي، وظلت صورة (هولاكو) عالقة في مخيال المسلمين، من حيث كونه جاء متوحشاً يريد تدمير كامل معالم الإمبراطورية، ومعالم حضارتها.

4– لقد تكونت صورة جديدة لعالم إسلامي جديد، وتم خلق حالة جديدة في العالم العربي الإسلامي لم يعد لها علاقة بآية مسمى من المسميات: العروبة، أو الإسلام الذي يعتبر العرب مادته ولقد أصبح أسلوباً تركياً، سلجوقياً، مغولياً، مملوكياً عثمانياً.

أصبحت إدارة الأمور ومواجهة الأزمات وإدارتها تتبع سلطة القادمين الجدد، وحلت مفاهيم وأنماط سلوك جديدة حملها القادمون الجدد.

لقد طويت صفحة من السيادة العربية – الإسلامية، وأصبح القادة الجدد يواجهون الأزمات الحاصلة حسب مبادئ وقيم جديدة، وظلت المظلة الإسلامية بيد الجميع، ولكن تغير اللاعبون، وتغير مديرو الأزمات.

القسم الرابع

الفصل الثامن
النظريات السنية، والشيعية في القيادة، والتدبير والمعالجة

تصورات لمعالجة (إدارة الأزمات) في:
كتابات أهل السنة، والشيعة، والفلسفة الإسلامية، والكتابات السلطانية
أولاً: نظرية الخلافة لدى أهل السنة:

تمتد الأصول التاريخية لبزوغ فكرة خليفة رسول الله ﷺ مباشرة إلحادثة وفاة النبي (ص) واجتماع السقيفة، واختيار (أبي بكر الصديق) خليفة رسول الله، ثم تولى الشيخ الثاني (عمر بن الخطاب) وفي عهد كلا الخليفتين تأسست نظرية إدارة شؤون المسلمين، ذلك أنه وحسب المرجعية الإسلامية فإن على الخليفة عند توليه الخلافة تنفيذ أوامر الله حسب مقتضى الحاكمية، وبتفصيل أكثر، عليه إقامة العدل، والمساواة، وبناء جسور الأخوة في الإيمان بين المؤمنين وبكلمة واحدة: إقامة المجتمع الصالح حيث يتحقق فيه التوازن بين مطالب الحياتين الدنيا والآخرة.

يجمع أهل السنة على الأصول الخمسة وهي: القرآن الكريم، والسنة النبوية، والإجماع، والقياس، والرأي، على أنها الأسس العامة، أو المنطلقات النظرية والعملية لتنظيم حياة المسلمين من كافة النواحي، لقد رأينا سابقاً أن مسألة الخلافة في التنصيب، والنوعية والتكاليف، والاختيار، والبيعة كل ذلك قد حسم عملياً في تولية الشيخين، ولكن سرعان ما نشب نزاع ظاهر أحياناً، ومخفي أحياناً أخرى بين أهل البيت، حول مسألة الخلافة، فمنهم من أبدى تحفظاً وبعضهم من تذرع بوجود وصية رسول الله ﷺ في من يتولى الخلافة بعده، من آل النبي.

1- حصلت الأزمات، كما ذكرنا سابقاً، وبالتالي وقعت المعارك بين المصلين أدت إلى انقسام المسلمين وتوزع كلمتهم، وحصل انقلاب في النظرية السياسية العربية الإسلامية في ظل هذا الاختلاف.

2- مس هذا الانقلاب النظرية السنية ذاتها في الخلافة، فقد توارى النموذج المثالي الواقعي، الذي تجسد في العهد النبوي والقيادة النبوية - وفي عهد الشيخين، وظهر على سطح الأحداث مفهوم آخر للخلافة لدى أهل السنة أنفسهم، أي نشأ مفهوم: توريث الخلافة منذ مجيء الأمويين إلى الخلافة، وتحديداً منذ عهد (معاوية بن أبي سفيان).

وكذلك استمرارية هذه الظاهرة التوريثية في الحكم، منذ ذلك العهد، وحتى يومنا هذا في وطننا العربي المعاصر، ومنذ ذلك الحين أصبحت نظرية السلطة والخلافة تعكس مفهوماً ثنائياً يقوم على:

1- التوريث.

2- الفردية.

والواقع لقد عكست نظرية الخلافة السنية حلاً وسطاً، خاصة في (الكتابات السياسية) بين: المثال والواقع، فمن حيث العنصر المثالي نجد أنها صممت في كثير من جوانبها حسب النموذج المحمدي كقائد قدوة، ومثالي من حيث احتياز كامل الوصاف، والخصال الحميدة التي يجب أن يتصف بها من يتولى الخلافة.

ثم أخذ الأمر يتضح كذلك من حيث التركيز على أهل الحل والعقد، وأهل الاختيار الذين يتوجب عليهم أن يختاروا الأفضل لقيادة الأمة، ونشوء حالة من الجدل، حول مسألة من يتوى الحكم هل الأفضل بوجود المفضول أم العكس.

إذن يجب أن يكون الخليفة: أفضل القضاة في فض النزاعات، وأفضل المقاتلين، وأفضل المجتهدين وخير من يدير بيته ونفسه، والجماعة، ولقد انعكست مثالية الرجل الحاكم، الفرد، العظيم في صورة: الرجل العظيم، وتمثلت هذه المثالية في افتراض أن يكون الخليفة الأفضل في كل شيء[420] في عملية نظرته للأمور، ورؤيته للحياة والواقع، وبكلمة أفضل من يدبر شؤون الأمة.

أما من الناحية الواقعية، فقد أصبح الخليفة متسلطاً، متفرداً، مستبداً وأحياناً كثيرة جائراً.

وأصبح لولاة الأمور في نهايات العصر العباسي كما رأينا، لا حول، ولا قوة لهم.

ابتعدت صورة النموذج النبوي، والراشدي في القيادة ابتعاداً شبه كامل.

3- عكست نظرية الخلافة السنية كما قلنا مفهوماً فردياً للقيادة، وذلك واضح في التركيز على الصفحات، والخصائص، وقوائمها المتعددة لشخص الخليفة، ثم تصور كافة وظائف الدولة بحيث تكون مجتمعة في شخص القائد، أو الخليفة، فهو مسؤول عن:

إدارة الأمور كافة ،العالم بكل الأمور الكبرى والصغرى في دولته وإمارته، مالك لزمام القرار يعين كبار القادة في الجيش، وكبار القضاة والولاة في مختلف البلاد والأمصار، لا تغيب عنه شاردة، ولا واردة يحيط به من حوله علماً بكافة أخبار الرعية، كل ذلك يعكس تركيزاً شديداً للمفهوم الفردي للسلطة[421].

إن النقطتين السابقتين تشيران، وبوضوح إلى ما يلي:

إن إدارة الأمور العامة، ومن ضمنها: الأزمات عندما تقع فمن المفترض أن يتخذ الخليفة أو السلطان، أو القائد قرار إدارتها، وتدبيرها أحسن التدبير أو أسوئه، وهو الذي يحسم الأمر.

لقد تلاءمت السنية بواقعية معينة مع هذا المفهوم في القيادة، من حيث كونها: فردية يقع على عاتقها قيادة الأمة، بالمفرد، وهذا القائد المفرد يجب أن يكون قادراً على: حل أزمات الأمة، ومواجهتها، وإدارتها وقد قبل أهل السنة كذلك، وهذه هي المشكلة الكبرى، أن يستبد الحاكم بأمره مفضلة هذا الأسلوب الفردي، والمستبد، خوفاً من وقوع الفتنة والعصيان، أي خوفاً من وقوع الأزمات، وأصبحنا أمام موقف يتجسد في مقولة: >سلطان غشوم، ولا فتنة تدوم<[422] وضعتنا السنية أمام ثنائية حادة: إما أن نقبل السلطان الغشوم أو نقبل بوقوع الفتن والأزمات والاضطرابات وتذهب ريحنا.

لقد تورطت السنية بمعنى ما في تبرير الاستبداد، والتفرد في الحكم، والقهر، والظلم (وهذه كلها عناصر ذاتية تتوفر فى الحاكم -كحاكم-او كانسان)في سبيل تفادي الفتنة والتمرد، والعصيان والهرج[423].(وهذا تعبير عن المقولة السياسية العربية-الاسلامية التى تقول:سلطان غشوم ولا فتنة تدوم).

وسؤالنا في هذا المجال هو لماذا تضعنا (السنية) أمام ثنائية: إما، أو، أي إما سلطان غشوم، أو فتنة تدوم، ولم تطلب عوضاً عن هذه المقولة الثنائية في إقامة المجتمع الصالح ووجود السلطان الصالح الذي يمكنه أن يدير الأزمات، والصراعات بناء على قاعدة العدل، والإصلاح الذي خاطبهم القرآن الكريم في آيته الكريمة:

{وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما، فإن بغت إحداهما على الأخرى، فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله، فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل واقسطوا إن الله يحب المقسطين}[424].

الواقع، لقد ظلت السنية تطالب بإقامة المجتمع الصالح والحاكم العادل، وظلت تطالب بالتقيد (بالحاكمية) واتباع الأصول، في التنصيب، ومشاركة أهل الحل والعقد، وإقامة الشورى، وظلت متمسكة بالإجماع، وبيعة أفراد الأمة، وقد كان الفكر السني ولا زال، يرى في النموذج النبوي القيادي والنموذج الراشدي هما النموذجان في الواقع والتطبيق.

وهنا أيضاً نحن أمام ثنائية أخرى، وهي المثالية، والواقع: المطلب المثالي الذي يقتضي تطبيق شروط المرجعية الشرعية، والواقع الذي جسده التاريخ السياسي، والذي ظل، ولا يزال مبتعداً عن المثال.

ثانياً: المعتزلة، والنظرة العقلانية في إدارة وتدبير الأمور:

من الآثار الجانبية (التداعيات)التي خلفتها الأزمة الكبرى، بين (علي)، و(معاوية) واستقرار الأمور لصالح بني أمية المجادلات (الكلامية)، ونظرية حول (مرتكب الكبيرة)، ومسألة (التحكيم) و(الخروج على الإمام)، ومناقشات لاهوتية معقدة، طرحت كثيراً من الأزمات الثقافية، والفكرية طوال العصور اللاحقة ودارت المناقشات داخل المساجد والمحاريب بين الأئمة، والشيوخ، ورجال الفكر والفقه والحديث، وكتب الإمام (أبو الحسن الأشعري)، كتاباً يحمل عنواناً لافتاً، وهو (مقالات الإسلاميين، واختلاف المصلين)، وهو يعكس الاختلافات والانشقاقات الصغيرة والكبيرة بين المسلمين.

لقد اختلف المسلمون في الفكر، كما اختلفوا في السياسية، وحصل أول اختلاف بين رجال الفكر الديني في المسجد في حضرة (الإمام البصري) عندما طرحت مسألة من

هو: مرتكب الكبيرة، وهل هو كافر، فقال أحد الحضور وهو (واصل بن عطاء) إنه ليس بمؤمن ولا بكافر إنه في (منزلة بين المنزلتين) وانسحب (واصل) فقال الإمام البصري لقد اعتزلنا (واصل)، وأطلق في حينها على تيار جديد صدر عن هذه الجلسات الفكرية الدينية اسم: المعتزلة، وهذه إحدى الروايات المشهورة لنشوء هذه الفرقة، وسميت فيما بعد بأهل العدل والتوحيد.

لقد ذيع أمر هذه الفرقة وانتشرت أفكارها وتبناها كما قلنا سابقاً الخليفة العباسي (المأمون) عندما طرحت مسألة: خلق القرآن.

هذا هو الجو الفكري الذي نشأت فيه هذه الفرقة، السياق الداخلي أما السياق الخارجي، فقد تأثر أقطاب هذه المدرسة بالفلسفة اليونانية، ما ترجم منها إلى العربية منذ عهد (يزيد بن معاوية)، وانتشار الأفكار الفلسفية العقلية فعملت المعتزلة على: إيجاد توازن ما بين المنهج العقلي، والنقلي في الفهم والتفسير، والتحليل لكبرى القضايا التي كانت مطروحة حينذاك[425].

فالمعتزلة هم أهل سنة، ولكنهم حادوا عن التفكير السني التقليدي في منهجهم في التفكير، حيث رجحوا الجانب العقلاني على حساب النقلي، ومن هنا، فقد فهموا العمل السياسي، ونظروا إلى مفهوم القيادة السياسية من وجهة نظر (عقلانية)، وهذه الفكرة تتعارض في مضمونها مع النظرة: الفردية، والذاتية (التوريثية) في الحكم والقيادة، وكذلك لا تلتقي مع النظرة الخليفية الاستبدادية مع إدارة الأمور والقرار.

فالإمامة (الخلافة) في نظر المعتزلة تقوم على: العقد، والموافقة والاختيار، ولا مكان للإرغام على الطاعة، والإمام عندهم له سلطة تنفيذية.

وبعبارة أخرى، يمكن أن نستنتج من الإطار المنهجي للتفكير المعتزلي: الإدارة العقلانية للأمور وبالتالي الإدارة العقلانية للأزمات الحاصلة، أو التي يمكن أن تحصل.

والواقع يمكن تأويل الفكرة الأساسية التي انطلق منها التفكير الاعتزالي والقائلة: بالمنزلة بين المنزلتين أي أن: مرتكب الكبيرة ليس بمؤمن ليس بكافر، هو بمعنى ما، يشكل ابتعاداً عن التفكير الثنائي الحدي القائم على النظر إلى الأمور من ناحية إما، أو،

وهو أيضاً، ابتعاد عن: التطرف الفكري، في الرؤية، فأمور الحياة، والواقع الإنساني معقدة ويصعب تصنيفها بهذه الحدية المطلقة، إذ أنه يمكن النظر إليها من زوايا متعددة.

ثالثاً: الأشعرية (أبو الحسن الأشعري) (873 – 917م):

تمثل الأشعرية كمدرسة فكرية إسلامية تطوراً في الفكر السني، ويتمثل الموقف الأشعري في إيجاد نوعٍ من: التوافق، أو التوفيق بين العقل والإيمان، وقد عبر عن هذا الموقف اتباع الإمام (أبو الحسن الأشعري) في مجادلاتهم العقائدية، والفكرية، وخاصة في تركيزهم على القول أن: الله هو المدبر، ومعنى ذلك أن مواجهتنا للواقع، وشؤون أزماته، ومشكلاته، تنطلق من هذا التدبير الإلهي، السابق على التدبير الإنساني حيث يأتي التدبير الأخير دائماً ب–: معونة التدبير الأول وبإرادته، فالإنسان يواجه الأزمات الشخصية، والحاكم يواجه الأزمات في دولته، ولكنهما لا يديرانها مباشرة بل إن المدير الفعلي الله تعالى وهو المدير الحقيقي للعمل الإداري للأزمات وهو الضامن لنجاحها، ونجاح خطة التدبير.

لقد وقفت الأشعرية موقفاً وسطاً بين: أصحاب العقل (المعتزلة) و(الحرفيين: أو السلفيين) الذين يأخذون بالإرادة الإلهية وحدها، ويعزلون، ويلغون إرادة الإنسان في الفعل وبينما أبدعت الأشعرية نظريتها الخاصة في القول بأن الإنسان لديه هامش لا بأس في التحرك في الحياة، وبوعي لإرادته، المرتهنة بالحرية الإلهية، وهذا الهامش، دعته الأشاعرة بنظرية (الكسب) أي الإنسان لديه كسب ما، من الحرية للتصرف، والسلوك والفعل والإدارة والتدبير للأمور، سواء كان فرداً من الرعية أم حاكماً أو خليفة.

إن الطريق الوسط التي خطته الأشعرية ولا تزال تخطه الغالبية المطلقة من المفكرين الإسلاميين أصحاب التيار المعتدل، وإلى يومنا هذا، وكذلك على المستوى الشعبي، فإن الوسطية والاعتدال هما عنوان العمل، والنظر لدى الغالبية من المسلمين والمعاصرين، ويتمثل هذا الموقف في القرآن والسنة اللذين يدعوان إلى: الوسطية {وجعلناكم أمة وسطا} وكذلك الاعتدال والعدل، {وإذا حكمتم بين الناس فاحكموا بالعدل}.

وقد رأى الدكتور (زكي نجيب محمود) أن الموقف الفكري للأشعرية لا يزال يخطه الفكر الإسلامي إلى يومنا هذا، وقد رأى أيضاً أن (الأشعري) يوفق بين: مذاهب السنة

توفيقاً يوحدها جميعاً في نظرة واحدة لأنها مذاهب تتفق على الأصول ولا تختلف إلا في الفروع[426].

وحاصل القول أن الأشعرية تتفق والموقف العقلي في النظر إلى الأمور، ولكنها لا تريد أن تذهب شاؤوا بعيداً باتباع العقل، وحسبنا دليلاً على قوة الموقف الوسط الذي اختار (الأشعري) أن نعلم كم من الأئمة الأعلام بعد ذلك، وعلى طوال القرون التالية اختار هذا الموقف (الإمام الباقلاني، البيهقي، إمام الحرمين الجويني، الأسفراييني) وقد امتد هذا التيار التوفيقي والذي سينعكس في النظر إلى مشكلات الحياة، وأزمات المجتمع، لدى شيوخ المسلمين في عصر (النهضة العربية) في منتصف القرن التاسع عشر الميلادي كالشيخ (محمد عبده)، وتلميذه (محمد رضا)، وغيرهما كثر[427].

أما من حيث المنهج الأشعري العام، في التفكير، فهو يقسم مجالات النظر شطرين: أحدهما يجوز أن يعرض على العقل ليكون له الرأي على ضوء تحليلاته المنطقية، والآخر لا يجوز فيه مثل ذلك لأنه من الأمور التي تؤخذ إيماناً وتصديقاً[428].

وبعبارة أخيرة إننا ننظر إلى الأمور من زاويتين: العقل، ونظرته التحليلية والتركيبية ومنهجه، والإيمان عندما نجد أن المشكلة استعصت على الحال المعقول.

إن مرجعية الإمام هي: القرآن الكريم، وما يجمع عليه أهل السنة.

لقد عرض الإمام في كتابه الذي ذكرنا سابقاً مختلف مقالات (وجهات نظر) الإسلاميين بتياراتهم واتجاهاتهم وفرقهم في: الفكر والحياة.

يرى العقليون أن العقل قادر على معالجة مختلف أمور الحياة، ولا يستوجب الاعتقاد أو التسليم بأمور نقول عنها في لحظة عجز أنها ليست من شأن العقل بل هي من شأن الإيمان، وكذلك يقول هؤلاء إن العقل بآلياته المختلفة قادر على معالجة أزمات الحياة، في السياسة والاقتصاد والاجتماع، والفكر...الخ.

رابعاً: إخوان الصفا (القرن العاشر الميلادي ـ الرابع الهجري):

لا نعرف الكثير عن (إخوان الصفا وخلان الوفا)، هويتهم، تكوينهم السياسي، والاجتماعي والثقافي، الأفراد الذين كانوا ينتمون إلى هذه الجماعة، وكل ما لدينا من

معلومات عن مواقف، تلك المجموعة في رسائلهم والبالغ عددها(51) رسالة، والتي عالجوا فيها مختلف شؤون المجتمع، من سياسة واجتماع، وفكر، وفلسفة، وثقافة، وحياة روحية، أنها أشبه بالموسوعة.

أجرى كاتبو الرسائل في رسائلهم قصصاً على لسان الحيوان، وتدور كلها حول: محاكمة بني الإنسان إذ ترفع الحيوانات شكواها إلى ولي الأمر مما تعانيه من (أزمات) من قبل الإنسان، رافضة أن يكون للإنسان الفضل عليها من حيث أنها هي، وهو معاً من خلق الله، فيسأل ولي الأمر بني الإنسان ماذا يقولون دفاعاً عن أنفسهم، فيجيبون بما يظنونه مؤيداً لموقفهم من آيات القرآن الكريم، لكن الحيوان سرعان ما يجد التأويل لهذه الآيات تأويلاً يبينه أن الإنسان قد جاوز حدود الحق حين فهمها على الوجه الذي فهمها به، أما ولي الأمر هنا، فلا هو إنسان ولا هو بحيوان، وهو محايد في نظره وحكمه بين الطرفين، إذ هو ملك من الجان يقال له: (بيراست الحكيم).

وتتابع الصورة الأدبية هذه بأن جعلت مقر: (بيراست) الحكيم وسط البحر الآخذ مما يلي خط الاستواء وهي منطقة (جزيرة) متميزة بطبيعة الهواء، والتربة، فيها أنهار عذبة، عيون جارية وأشجار مختلفة ألوانها وثمارها، وجدت ذات يوم أن طرحت الرياح العاصفة مركباً من سفن البحر إلى ساحل تلك الجزيرة، وكان على المركب قوم من التجار والصناع وأهل العلم فخرجوا من مركبهم إلى أرض الجزيرة وطافوا بها فرأوا فيها من ضروب النبات، ومن صنوف الحيوان والبهائم والأنعام، والطيور، والوحوش، وكان الكل يألف الكل، ويأنس الكل للكل، فاستطاب القوم الجزيرة وما عليها، واستوطنوا بها، وأخذوا يبنون وينشطون بحياتهم على نحو ما اعتادوا في بلادهم أن يفعلوا وعندئذ لم تأخذهم ريبة من أنفسهم حين تعرضوا لما استطاعوا أن يتعرضوا إليه من صنوف الحيوان ليستخدموها، وليركبوها، حتى فزعت صنوف الحيوان لهذه المصيبة التي نكبت بها من حيث لا تدري، لكن هؤلاء الناس تعقبوها حتى أمسكوا بها، وأعادوها معهم لتكون مسخرة لأغراضهم، فجمعت البهائم والأنعام زعماءها، وخطباءها،، وذهبت إلى (بيراست) الحكيم وشكت إليه ما لقيت من جور بني آدم، وتعديهم عليها واعتقادهم فيها بأنهم عبيد لهم فبعث ملك الجن رسولاً إلى أولئك القوم ودعاهم إلى حضرته، فذهبت منهم طائفة عدادها نحو سبعين رجلاً اختاروهم ممن ينتمون إلى بلدان شتى، فلما مثلوا بين ملك الجن قال لهم على ترجمان، ما الذي جاء بكم إلى بلادنا؟

قال قائل منهم، دعانا ما سمعنا من فضائل الملك وعدله، وها نحن أولاً بين يديه ليحكم بيننا، بين عبيدنا الآبقين من صفوف البهائم والأنعام، فقال الملك: بينوا ما تريدون.

قال زعيم الإنس: نقول أن هذه البهائم، والأنعام، والسباع، الوحوش أجمع عبيد لنا ونحن أربابها، ولكننا نراها إما هاربة آبقة، عاصية، وإما مطيعة، وهي كارهة منكرة لحقوقنا فيها، وقال الملك: ما حجتك فيما زعمت للإنسان سلطان عليها، قال الإنسان، لنا على ذلك دلائل شرعية وسمعية عما قلنا، وحجج عقلية تؤيد ما زعمنا، ويمضي النص فيقول: فقال الخطيب من الإنس من أولاد العباس، ورقي المنبر، قال: ما يؤكد أن الصورة الرمزية كلها إنما صيغت من قبيل الثورة على: حكم العباسيين، وما يلقاه الناس منهم من صنوف الجور، وكأنما هؤلاء عبيد لهم[429].

جوهر القصة وعبر رموزها، يقوم على موقف معارضة لإخوان الصفا، للحكم العباسي، وبعبارة ثانية يعبر عن وجود أزمة (فكرية) و(سياسية) بين الخلافة العباسية، والإخوان في تلك المرحلة من التاريخ السياسي العربي – الإسلامي.

وبشكل واضح لقد كان لبحوث (الإخوان) أهميتها السياسية، وهي تنقسم إلى خمسة أنواع، يمكن أن نستشف من خلالها بسياسة (التدبير) عندهم أو وجهة نظرهم في (تدبير الممالك) وهي:

1– السياسة النبوية، وتقوم على معرفة كيفية وضع النواميس (القوانين والسنن الزكية) بالأقاويل الفصيحة، ومداواة النفوس المريضة، والديانات الفاسدة، والآراء السخيفة والعادات الرديئة.

2– السياسة الملوكية: معرفة كيفية حفظ الشريعة على الأمة، وإحياء السنة في الملة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

3– السياسة العامة، وهي الرياسة على الجماعات كرياسة الأمراء على البلدان والمدن، ورياسة الجيش ومعرفة طبقات المرؤوسين.

4– السياسة الخاصية: معرفة كل إنسان كيفية تدبير منزله، ومعيشته[430].

5– السياسة الذاتية، معرفة كل إنسان نفسه، أخلاقه، وتفقد (مراقبة) أفعاله[431].

إذا فهمنا عبارة التدبير والتي وردت أكثر من مرة في فكر إخوان الصفا، وهي مرادفة كما ذكرنا لكلمة إدارة ومعالجة، فإن إخوان الصفا، ينظرون أولاً إلى:

تدبير الإنسان منزله، وأمور معيشته، وما يسمى بلغة اليوم: إدارة النفس، ويلعب دور إدارة الذات المتوازنة كبيراً، ومهماً في حسن وجودة، إدارة الفرد للمؤسسة، وللهيئة وللمنظمة وللجماعة، والحاكم لمحكوميه والرئيس لمرؤسيه، وأعضاء الحكومة الشعب، وهكذا.

فنقطة الانطلاق في إدارة الأمور ومعالجتها لدى إخوان الصفا هي: إدارة الفرد لنفسه أولاً وأخيراً، إن نظرة الإخوان إلى القضايا والمسائل الأخرى في المجتمع، والدولة والأمة، وهي: نظرة عقلية شرعية، كما وردت في المقتطفات من قصصهم المذكورة في السطور السابقة، لقد كانت لهم نظرة عقلية تحليلية للواقع، لكن ذلك لم يمنع من إيرادهم كثير من الفقرات في رسائلهم، وخطبهم التي تشير لنا بأن منهجهم لم يكن غاية في العقلانية كما كنا نود كي تكون خطاباتهم متوازنة، لقد مزجوا (عقلانيتهم) بكثير من النظرات (اللاعقلية) كمواقفهم من السحر، وإيمانهم بكثير من الأفكار الغريبة عن التفكير العقلي (العلمي)، أي أنهم لم يكونوا من العقلانيين الخلص(432).

يقول أصحابنا: وأعلم أيها الأخ أيدك الله – أننا رأينا اليوم أكثر الناس المتغافلين إذا سمعوا بذكر السحر، يستحيل الواحد منهم أن يصدق به ويتكافرون – بمن يجعله من جملة العلوم التي يجب أن ينظر فيها أو يتأدب معرفتها، وهؤلاء هم المتعالمون، والأحداث من حكماء دهرنا المتخلفين والمدعين بأنهم من خواص الناس المتميزين(433).

يعتقد الدكتور زكي (نجيب محمود) أن أفكار الإخوان انعكاس لصورة (عقل) عصرهم، الذي تميز: بالقوة والضعف في آن واحد(434).

إنه القرن الرابع الهجري فيه بلغت الحضارة العربية الإسلامية أوج تقدمها، وإشعاعها، وفيه بدأت معالم السقوط والانهيار، كما ذكرنا سابقاً.

خامساً: النظرية الشيعية في الإمامة والإدارة الإمامية ـ ولاية الفقيه وإدارة الأمور:

مقدمـــة: تمتد الأصول التاريخية للشيعة، كما ذكرنا سابقاً إلى حادثة وفاة النبي (ص)، والخلاف بعد الوفاة حول مسألة الخلافة، وقيادة المسلمين، وانصب النزاع السياسي – الديني حول السؤال من سيخلف النبي ، وبعد اجتماع السقيفة خرج المسلمون، (أبي بكر الصديق) خليفة رسول الله ، البعض منهم احتفظ بتحفظ على مجريات الأمور، ومثل هؤلاء أنصار (علي بن أبي طالب) ورأت الشيعة منذ ذلك الحين أن الشرعية في الإمام تعود وحسب الوصية إلى (الإمام علي) ليكون أول خليفة وما حصل في السقيفة هو خرق لهذه الشرعية.

إذن لقد انصب الخلاف بين المسلمين حول الإمامة، السياسية المدنية، والسياسة الشرعية – الدينية ثم تطورت الأمور بعد (الفتنة الكبرى)، وتعمق الخلاف بين أنصار الإمام (علي)، وأنصار الخليفة (عثمان) ثالث الخلفاء، أو بعبارة أوضح دار الخلاف حول الإمامة بين بني هاشم وبني أمية.

انطلقت الشيعة من فكرة أن الأمة لا يمكن أن تخلو من وجود الإمام، واعتقد أن الإمام بغيبته، وحضوره المنتظر سيأتي ويملأ الأرض عدلاً بعد أن ملئت جوراً (بالأزمات)، واعتقدوا أن الإمام قادر على الإمساك بدفة الأمور بيده وحده، ونستطيع أن نميز داخل الشيعة وجود فريقين أو اتجاهين كبيرين هما:

أ– الإمامية الاثنا عشرية.

ب– الإسماعيلية.

ولهذا التمييز مبرره، وهو ما اصطنعه الإمام (الذوبختي) في كتابه (فرق الشيعة)، حيث يقول من بين جميع الفرق الشيعية التي ظهرت في التاريخ السياسي العربي والإسلامي وعددها كبير اختفت جميعها ما عدا ثلاث: ذكرناهما أعلاه والثالثة هي الزيدية، ونعتقد أن (الزيدية) تقترب في أفكارها الشيعية من أفكار المعتزلة (العقلانية) ولم نفرد لها فصلاً خاصاً بها.

مثلت (الشيعة) منذ ظهورها على الساحة السياسية العربية جانب المعارضة في الإسلام ولقد انصب الخلاف بينها وبين السنة حول طريقة تولية الخليفة والمرجعية.

فمن حيث الطريقة عملت السنة إلى تولية الخليفة بالاختيار والبيعة لأفراد الأمة واستشارة أهلالحل والعقد والجمع إلى الشورى.

أما المرجعية السنية، فهي الحاكمية الإلهية، التي نص عليها القرآن الكريم، والسنة النبوية بينما ترى الشيعة طريقة وأسلوباً، ومرجعية مختلفة.

أما بالنسبة للشيعة فالطريقة هي الانطلاق من نص التعيين منذ بداية الأمر (للإمام علي)، والذي أوصى به النبي محمد ﷺ، ثم تولية أفراد البيت، وذريتهم.

والمرجعية، هي الإمام كشخص، والإمام كروح منبثة ومعبرة عن الروح الإلهية، وممثلة ومقتدية بالسنة النبوية الذي يعتبر النبي محمد هو النبي والقائد... والإمام لا يخالف الشرع ولا الحاكمية ولكنه يمثلهما خير تمثيل.

يتحدد مفهوم القيادة في الفكر الشيعي من خلال نظرية النص التي تقتضي بالقول إن الله يحدد الشخص الأكمل، والأشبه بالنبي، وإنه الإمام الموجه والمرشد، وجامع كامل الصفات الحميدة والتي تؤهله ليكون إمام المسلمين.

وأول ما نفهمه من هذه النظرية هو قيام الخلافة (القيادة) على أساس: فردي، ولا تمنع الشيعة من إشراك الناس في مهمات الأمور من دون أن يكون لهم الرأي الفصل، ودون أن يكون لهم السلطة والولاية، بل الرقابة، والمتابعة.

يعبر الشيخ (محمد سند) أن نظرية الإمامة، والشورى عند الشيعة الانثى عشرية بالقول: إن ولاية الأمر تكون بالنص، ولا مناص منه، وأن الولاية لله عزل وجل يجعلها لمن يشاء من خلقه، فهي تابعة للمنصوص عليه، ومن بيته غايته أن يكون ملزماً مع فريقه تسيير شؤون دولته وأمته بالاستشارة، ولكنه غير ملزم بنتيجة المشورة، ويستطيع مخالفتها.

والنتيجة أن سواء كان الحاكم للإمام المعصوم، أو لمن يقوم مقامه، لا يكون لمجلس الشورى دور تشريعي بل أشبه بالمجلس الاستشاري، تحتاج قوانينه إلى إمضاء الفقيه وليس للمجلس دور في اختيار الإمام، فإن اتخاذ القائد، والزعيم، ليس من الأمور التي تعود بصلاحيتها بيد الشورى[435].

وفي مناقشة للآيتين الكريمتين في القرآن الكريم، واللتين تنصان على الشورى ترى فيهما أن الشورى هناك تدل على أن الولاية أو السلطة هي للأمة، بل إن معنى الشورى في الآيتين: استكشاف الرأي، أما القرار فهو للإمام[436].

نظرية الإمامة، ودورها في تثبيت الإمام الواحد:

عندما تتحدث الشيعة عن الإمام، فهي تعني إماماً، فرداً واحداً، ولا تعني قيادة إمامية جماعية، أو سلطة مشتركة بين قادة عدة يشتركون في صناعة القرار ولا عن سلطة تشريعية مدنية تشرع للحاكم، وما عليه إلا تنفيذها إن ما اصطلح عليه الدستور المشرع إن هذا النمط يكرس كما قلنا: الفردية، وهو يشبه بما أخذت تقبل به السنية كرهاً أم طواعية بالحاكم الواحد، والذي بدأ يأخذ دوره كفرد واحد، وسلطان، وخليفة، خلال فترات التاريخ السياسي العربي الإسلامي، ومع ذلك فلا بأس أن نشير إلى بعض الفروق بين النظريتين السنية والإمامية في مسألة الحاكم الفرد.

1- اشتملت نظرية الخلافة عند السنة على عناصر مثالية، وواقعية كما بينا سابقاً بينما ظلت نظرية الشيعة في الإمام الواحد مثالية من حيث الشروط الواجب توفرها في شخص الإمام ليكون إماماً، ولم تدخل عناصر الواقعية التاريخية التي أثرت نظرية الخلافة السنية، والتي حملتها، ومع مرور الزمن على قبول مجريات الأمر الواقع أخذت تتجلى الخلافة في شخص العادل، الواحد والمستبد والتي ستغير مفهوماً فيما بعد لنتحدث عن: الحاكم الواحد والمستبد العادل.

ظلت النظرية الشيعية حبيسة عالمها المثالي في مطلبها الإمام المعصوم، رغم إدراكها صعوبة تحقيق هذا الأمر في الواقع، وفي التاريخ، أي أن الإمام المعصوم لم ير النور رغم وصول كثير من السلالات التي حكمت بعض أجزاء من العالم الإسلامي بناء على النظرية الشيعية كدولة الأدارسة، ودولة العلويين، والبويهين والفاطميين، والدولة الحمدانية، والصفوية، هذه الدولة التي حكمها أئمة، وقادة إما من الشيعة أو يتعاطفون معها، ومع ذلك فلم يسجل لنا تاريخهم بأنهم كانوا صورة طبق الأصل لمطلب الإمام المعصوم، المنزه عن الخطأ، الذي لا يأتي باختيار أية جهة بشرية، بل باختيار الله مثله مثل الأنبياء، ولكن بلا وحي إلهي، وهو الذي يوجه الأمة إلى الطريق الصحيح، والقويمة، إنه المرجع، وهو: المرشد الأعلى للجمهورية في إيران الإسلامية المعاصرة[437].

2- إن الصفات المفترضة، والمتوجب توافرها في شخص الإمام هي صفات الكمال المطلق إنها تشبه نظرية الإنسان الكامل في الإسلام[438] الذي هو في النهاية النبي محمد ؐ هذه المثالية المفترضة الداعية لحمل جميع الصفات الكاملة في شخص الإمام، توحي لنا بنظرة (قدسية) للإمام بالإضافة إلى العصمة.

فالإمام المنصور، والمنتظر، يتعامل مع الأمة، وربما – لديه إحساس باطل بأنه في منزلة الأنبياء، بلا رسالة، ويتصل بالغيب، أو هو امتداد للنبوة، وتعتقد الشيعة أن اتصال الأئمة بالله لم ينقطع منذ وفاة النبي، وهذا الاتصال يتم عن طريق هؤلاء الأئمة الذين تتوارثهم الأمة واحداً، بعد الآخر.

فالإمام في هذه المنزلة وهذه القدسية يقع فوق النقد، والمحاسبة، والرقابة والمساءلة إنه مرجع الأمة وليست الأمة مرجعاً له[439].

ويصدر عن هذه التصورات اعتقاد آخر وهو: انتظار المخلص، أو المهدي الذي سيأتي لا محالة ليخلص الأمة مما علق بها من شرور وآثام، وما لحق بها من تعلق بأدران المادة.

فالأئمة إشارات إلاهية، إنهم آيات الله، وآيات الوحدانية، يكشفون في وجودهم سر الألوهية الأعظم، كما يثبت الابن وجود أبيه، إن الإمام هو آية الله القوي العزيز.

3- أما الإسماعيلية، فقد ذهبت إلى أبعد من ذلك في الشطحات الخيالية في تصورها لأشخاص الأئمة، فقد رأت في الإمام روح الكون، وهو صفة الله الأزلية، لديه مفاتيح الغيب، القادر قدرة لا محدودة على مواجهة الواقع، والحياة.

4- مع تقدم الثقافة الإنسانية، ونموها، والإطلاع لدى أقطاب الشيعة، ومفكريهم ومثقفيهم، والاحتكاك بثقافات الشعوب الأخرى يبدو أن نظرية الشيعة الإمامية خاصة دخلها بعض التعديل تجاوباً مع العصر، والتغير التاريخي الحاصل ولكن صورة الإمام المعصوم لا زالت في الخيال الشعبي الشيعي، ماثلة، كما كانت في الماضي البعيد، لكن الباحث المنصف، لا ينس أن يذكر أن التعلق بهذه المثالية المطلقة في تصور بل، في الاستعداد لقبول فكرة: الإمام، الواحد، يجب أن يخالها بعض الخلخلة، نظراً لكون الإمام كائناً بشرياً، من لحم، وعظم، هو جسد وروح، وعقل، تراه يتحرك أمامنا، إنه بشر

سوي صحيح، تحكمه مجموعة من الدوافع والغرائز، والنزعات، والميول البشرية التي ترمي بظلالها وبآثارها الجانبية في فكر، وسلوك الإمام، تظهر في لحظة أو في لحظات ما فتظهر ضعفه ككائن بشري.

ألم يقل النبي محمد (ص) إنما أنا بشر مثلكم آكل وأنام، وأمشي في الأسواق؟

ألم يعاتبه الله تعالى في قوله له: {عبس وتولى، أن جاءه الأعمى فما يدرك لعله يزكا...}.

فهل يخضع الإمام للنقد و(للعتاب)؟

آلية ادارة الأزمات السنية، والشيعية:

1- تصدر الأساليب وطرق معالجة الأزمات لدى أهل السنة من نظريتها في الخلافة، ولقد قلنا أن السنية أخذت تنظر إلى الحكم والسلطة بواقعية أي الحكم القائم على فردية القيادة، وهي تقترب من مفهوم القيادة الكاريزمية، أو تقبل الرجل العظيم، ودوره في قيادة الأمة، وإدارة أمورها، وأزماتها بمفرده، وقد يستعين بغيره، ويدعوهم للإدلاء بآرائهم، ووجهات نظرهم، ولكن القرار في النهاية يعود إلى شخصه كحاكم أعلى للأمة، وكصانع قرارها، وهذه الواقعية السنية لا تنفي تفكيرها في التأكيد النظري الدائم على أن المرجعية الحقيقية في القيادة، والحكم والقرار، وإدارة الأمور ليس الحاكم الفرد المتواجد في السلطة إنما هي الحاكمية الإلهية ويطلبون سراً أو علانية من الحاكم أن يتقيد بأوامر الله تعالى، وتنفيذها واتباع سنة نبيه وقد صدرت عن السنية حركات سياسية – دينية تطالب بإزاحة الحاكم العصاة[440].

تدور فكرة إدارة الأزمات، والصراعات بالطرق الفردية للحاكم الفرد، والطرق اللامؤسسية لأن الحاكم الفرد، هو المؤسسة، وقد يستعين بمختلف الأجهزة التي يضعها حوله، ولكن الجميع، تبع له في القول والعمل.

وفي هذا الإطار يمكن تحليل السلوك السياسي للحاكم الفرد من خلال سيكولوجية الدوافع البشرية، والعوامل الشخصية، (والمؤثرات الجانبية،) والعوامل الموضوعية كالجغرافيا والاقتصاد والثقافة هذا بالإضافة إلى شبكة معقدة من التأثيرات التي تلقاها

الحاكم بوعي أو بلا وعي من قبيل التعصب الأسري العائلي والقبلي، والفئوي والمذهبي، والتطرف الفكري الذي كان يحيط بالحاكم الفرد، هذه الشبكة من العوامل تدخل في طبيعة سلوك الحاكم الفرد، وهو يدير الأزمات ويعالجها من هذه العوامل ما يظل مكبوتاً، ومنها ما يطفو على السطح في لحظة ما على شكل سقطات لسان، أو عبارات مقتضبة، أو قصيرة من فم الحاكم، بحيث تبدو فى تعامله مع الأزمة كالمصالح، والحسابات الشخصية ،أو الفئوية ،وهذه العوامل أو شبكتها أن طبيعة التعبير تدخل في طبيعة معالجة القائد أو القيادة للأزمة ونظرته إليها وقراره فيها.

2– الإدارة الشيعية للأزمة وآليتها:

في أول خطبة (للحسن بن علي) رضي الله عنه بعد مقتل أبيه يقول مفتخراً: أيها الناس من عرفني فقد عرفني من لم يعرفني، فأنا الحسن بن(على) ابن عم محمد رسول الله (ص) ، أنا ابن البشير، وأنا ابن النذير، أنا ابن الداعي إلى الله بإذنه، والسراج المنير، أنا من أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس، وطهرهم تطهيرا[(441)]، كانت هذه الحجة التي لا تخلو من قوة وذريعة للمطالبة بصيرورة الأمر إلى الشيعة في الحكم والإمامة.

وقد انطلقوا من اعتبار الإمامة، هي: القيادة السياسية الروحية، تعريفاً، وأن مفهوم القيادة كان قد تحدد كما قلنا من خلال النص الذي حدد معالم هذه القيادة والمتمثلة في شخص الإمام، القائد، والمرشد بامتياز.

أما البيعة عند الشيعة فتعني الطاعة والتعهد بها، وهي لا تنشئ الالتزام، بل توثقه[(445)] وقد بلغت مسألة التركيز على فردية الإمام ودوره في الحكم (الإرشاد)، وولايته كفقيه، حسب التعبير الحديث إلى درجة أن أنشد كان شاعرهم منذ أكثر من ألف عام مخاطباً الحاكم الفاطمي المعز لدين الله: يقول (ابن هاني الأندلسي):

ما شئت لا ما شاءت الأقدار فاحكم فأنت الواحد القهار
وكأنما أنت النبي محمد وكأنما أنصارك الأنصار[(446)]

الواقع نفهم أن من النظرية التقليدية للشيعة الاثنا عشرية وتصورها مطلبها أن يكون الإمام، هو: المكلف إلاهياً، وبشرياً من قبل الشيعة أن يتولى زمام الأمور والإرشاد، والتوجيه، ومن ثم القرار في إدارة أزمات الأمة.

أما النظرية الحديثة للشيعة المتمثلة حالياً في الجمهورية الإسلامية في إيران، والمنبثقة في جوهرها من النظرية التقليدية، مع تعديلات حول مسألة: ولاية الفقيه التي تعني في النهاية أن الإمام هو المرشد الأعلى للجمهورية ترفع إليه كافة الاقتراحات، والمشاريع السياسية والمتعلقة، بالمشكلات والأزمات الطارئة والواقعة.

ومن البديهي أن دستور الجمهورية الإسلامية في (إيران) يستند إلى الإيمان بالله، وبالوحي والعدالة الإسلامية، وقيام الإنسان بحقوق الخلافة في الأرض والأمانة في الولاية المستمرة ودورها الأساسي في استمرارية الثورة الإسلامية – الدستور – المادة (1) وتقرر المادة الخامسة من الدستور تطبيق مبدأ العمل بولاية الفقيه العادل الكفء وهو امتداد لمبدأ الإمامة، ويأتي تفصيل ذلك في المواد من رقم 107 إلى الرقم 112، ولا شك أن نظام الجمهورية الإسلامية الإيرانية له خصوصيته، إنه يختلف عن النظم الخليفية في التاريخ الإسلامي ويبتعد عن النظم السياسية المعاصرة.

والخلاصة: إن آلية إدارة الأزمات يقع ممارستها، والعمل بها وتطبيقها، حسب مقتضيات المرجعية الشيعية، مرتبطة بشخص المرشد الأعلى، وطبقاً لمبدأ التشاور حول المسائل الاجتماعية والسياسية، ويحتفظ المرشد بحقه الإمامي باتخاذ القرار، والواقع في الجمهورية الإسلامية الحالية هناك العديد من المواد التي تعزز مؤسسية الحكم مثل تشكيل يؤكد العدالة الإدارية للتحقيق في شكاوى الناس (نزاعاتهم، خصوماتهم، مشكلاتهم) وهو ما يدخل في نظرنا في مسألة: إدارة الأزمات الداخلية – وأيضاً الدوائر الحكومية المادة 173 ودائرة التفتيش التي تشرف على سير الأمور والتنفيذ الصحيح للقوانين في المؤسسات الإدارية (تجنباً لوقوع الأزمات) المادة 164 بالإضافة إلى ديوان المحاسبة الذي يقدم تقاريره لمجلس الشورى الإسلامي المادة 54[447].

تعتبر هذه التطورات مهمة في تجاوز نظرية القيادة الإمامية الفردية، التي كانت سائدة نظرياً في الكتابات الشيعية، ومبادئها عملياً في بعض فترات من التاريخ السياسي الإسلامي كما مر معنا.

ويتضح كذلك من سردنا للأفكار السالفة وجود بعض المؤسسات القائمة في الجمهورية والتي تقوم بدور: النظر في الأزمات الناشئة، ومناقشتها، ورفع نتائجها إلى

مجلس الشورى ومن ثم إلى المرشد الأعلى لحسم الأمر، إنها آلية ذات خصوصية خاصة تمزج بين: المؤسسية واللامؤسسية في نظام الحكم، وبالتالي في معالجة أزمات المجتمع، فإستراتيجية إدارة الأزمات في الجمهورية الإسلامية تتعامل معها:

* بعض المؤسسات التي ذكرنا منذ قليل.

* عرض النتائج، واستشارة، أو الرجوع إلى المرشد الأعلى للجمهورية.

ولكن آلية إدارة الأزمات على صعيد المرجعيات، لم تعد كافية إنها بحاجة إلى آلية أخرى مجهزة بمهارات الفكر العلمي، والإدارة العلمية للأزمات وهذه تقتضي وجود قواعد علمية في الدولة.

الفصل التاسع
تصورات الفلاسفة المسلمين لمعالجة أزمات المجتمع

أولاً: فلاسفة المشرق:

1- أبو يوسف يعقوب الكندي (796- 873م)

أحاد الإطار العقلي في القرنين التاسع، والعاشر الميلاديين، قلب العصور الوسطى الإسلامية، فيهما توهج التفكير العقلي، وبدأ النشاط الفلسفي يأخذ مجراه، ولولا النشاط السياسي المتواضع في التقدم والنمو، والأوضاع العامة في العالم الإسلامي آنذاك التي بدأت تميل إلى الانحطاط، لكان هذان القرنان بفضل الأنشطة الفلسفية العقلية وتطور العلوم والآداب وتحفيز القرآن الكريم المسلمين على التفكير في عالم الشهادة لكنا قرأنا صفحات مختلفة لتاريخ الإشعاع الحضاري العربي الإسلامي ولكن هذا الإشعاع العقلي ظل يعمل في الظل، إن صح التعبير، أو ظل منعزلاً عن التأثير في الحياة العامة فضلاً عن الحياة السياسية وحياة الخلفاء.

كان التواصل مقطوعاً بين الخلافة والحياة السياسية، وبين الأنشطة الفلسفية، أو الفكرية وفي هذه الأجواء فضل الفلاسفة المسلمون أن يكونوا شهوداً للانحطاط والفساد، فعملوا كرد فعل طبيعي لمسؤولياتهم الفكرية إزاء المجتمع أن يضعوا تصوراتهم الخاصة، وأن يتصوروا الحلول والبدائل لأزمات المجتمع الإسلامي في ذلك الحين.

بدأت رحلة الفلسفة في الإسلام[448] في هذه المرحلة المبكرة في تاريخ الحضارة العربية والإسلامية مع فيلسوف عربي الأصول واللغة والثقافة والحياة الروحية ألا وهو، أبو يوسف يعقوب الكندي والذي ينتسب إلى قبيلة كنده والذي أصبح تاريخياً حائزاً على لقب فيلسوف العرب.

لقد بدأ معتزلياً في تفكيره أو تكوينه الفكري، ثم بلغ مرحلة النضج، ليتجاوز أفكارها ويؤسس وجهة نظر فلسفية خاصة به، تعبر عن شخصيته الفكرية المستقلة.

كان (الكندي) موسوعياً وأول فيلسوف عربي وضع قضية المعرفة في مجال أوسع مما وضعها السابقون، وخاصة أصحاب الفكر الديني الإسلامي، وفتح الباب أمام الفكر

العربي نحو آفاق المعرفة الفلسفية بمعناها الأشمل، وآفاق البحث عن الحقيقة والتقاطها أنا وجدت بغض النظر عن قائلها ومصدرها.

وضع رسالة في العقل ودراسة في النفس وقواها المختلفة، وأحوالها، ومظاهرها وآثارها في سلوك الإنسان، وكل ما يبدو من علاقة بين حركة النفس وأنواع النشاط البشري الأخرى[449].

وانصب اهتمام (الكندي) على: العقل والنفس، وكان هذا الاهتمام حافزاً لوعي دور العوامل العقلية والنفسية، وتأثيرها في السلوك الإنساني، وبالتالي النشاط السياسي كسلوك بدوره.

يبدو أن كتب الفيلسوف ورسائله الفلسفية، وخاصة في رسالة له إلى الخليفة (المعتصم) لم تترك ذلك الأثر في إنضاج تفكير المشتغلين بالسياسية، وخاصة الخليفة التي وجهت إليه الرسالة التعريفة: ماهية الفلسفة وكونها نشاطاً عقلياً يبغي الحقيقة، والمعرفة ثم إن في تركيز الفيلسوف على أهمية العقل، والنفس ،يشير وبشكل غير مباشر إلى أن معالجة الأمور حيث يمكن أن ينظر إليها من خلال:

1– دور العقل في النشاط البشري وأهميته.

2– دور العوامل السيكولوجية في السلوك البشري منه، النشاط السياسي ويبدو أن الدورين المذكورين كانا مجهولين في عصر (الكندي)، أو مهمشين، نظراً لبداية غروب الشمس العربية في القيادة السياسية، وبداية تغلغل العناصر غير العربية في عهد المعتصم، كما ذكرنا سابقاً.

إن رسالة (الكندي) إلى المعتصم في الفلسفة الأولى، تعني أن الفيلسوف أراد أن يلفت نظر الخليفة كقائد سياسي، إلى دور الفلسفة في الحياة السياسية، وبعبارة أخرى الإشارة إلى أن الفلسفة كنشاط عقلي، يمكن أن تساهم في الحياة السياسية، تنمية، وإصلاحاً.

2– أبو النصر الفارابي (870 – 950م):

اعتبر (الفارابي) أكبر الفلاسفة في الإسلام على الإطلاق وقد لقب بالمعلم الثاني بعد أرسطو الذي كان (المعلم الأول)، وضع الفارابي منظومة فكرية متكاملة من الآراء

الفلسفية[450] سنستقي منها ما يناسب بحثنا حول تصور الفيلسوف إنقاذ المجتمع الإسلامي في عصره من حالة الفساد، وتصوره الخيالي في (آراء أهل المدينة الفاضلة) أشهر كتبه.

خليفة التفكير الطوباوي:

حديث المدن الفاضلة له خليفة واسعة في تاريخ الفلسفة والفكر عموماً كما عرفنا، ففي عرض تاريخي طريف، وممتع وضعته الكاتبة (ماريا لويزا برتيري) تحت عنوان: المدينة الفاضلة عبر التاريخ[451] تناولت المؤلفة المدن الفاضلة منذ العهود القديمة (عصر اليونان أو كتاب أفلاطون المشهور) (الجمهورية) وصولاً إلى اليوتوبيات الحديثة، وقد قفزت عن العصور الوسطى الإسلامية، ومحاولات (أبو النصر الفارابي) في كتابه (آراء أهل المدينة الفاضلة)، ومتجاوزة الرؤى الصوفية للمجتمع الإسلامي الفاضل، وذلك كعادة كثير من المؤلفين الغربيين الذين يهمشون منجزات الفكر العربي الإسلامي أو يغضون الطرف بدعوى عدم الأصالة، ولا يتناول هؤلاء أعمال المؤلفين العرب والمسلمين، بتأثير دوافع كثيرة، لا تدخل في نطاق صفحتنا هذه.

لنقول بادئ ذي بدء أن فكرة المدينة الفاضلة، منذ أن ابتدعها الفيلسوف (أفلاطون) في أثينا تقوم على وضع الحلول الفلسفية للمجتمع الذي يعاني من الفساد، أو يعش أزمة كبرى ولابد من انتشاله من هذه الأزمات لذلك تصور الفيلسوف علاجاً لأزمات المجتمع بابتكار حلول طوباوية سجلها في (الجمهورية) يدعو فيها[452] إلى إقامة مدينة فاضلة تخلو من الشرور والآثام والأزمات.

إن ميزة الفكر اليوتوبي هي إبداع أفكار جديدة تتضمن إمكانية تحقيقها في المجتمع، وقد تجنح أحياناً نحو: الخيال المفرط لدرجة أن الناس يشعرون بالضعف الكامل، وعدم القدرة على تحقيقها.

لقد كتب أفلاطون جمهوريته – إبان الحروب الأهلية بين: أثينا، وإسبارطة – الحروب البيلو بونيزية(431 – 404ق.م).

وكان من الطبيعي أن تهتم كتابات (أفلاطون) اهتماماً كبيراً بالقضايا السياسية والاجتماعية، وأن يستخلص بعض الدروس المستفادة من هزيمة أثينا، وانتصار أسبارطة[452].

لقد كثرت، واختلفت الاجتهادات في عصر أفلاطون لإيجاد طريق، أو أسلوب لمعالجة (أزمة)، هزيمة المجتمع الأثيني، وبطريقة مخالفة لطريقة أفلاطون، وكان العلاج الذي اقترحوه هو المزيد من الحرية، لا التخفيف منها، وقد رجعوا إلى الإيمان التقليدي بعصر ذهبي عاش في البشر حالة من الحرية التامة، والمساواة المطلقة وقالوا لابد من استعادة هذا العصر الذهبي[453].

أبدى (أفلاطون) رد فعل مضاد وطالب بوجود طبقة حاكمة قوية لا تفتقر إلى السلطة التي يمكن أن تمارسها على عامة الشعب، بل يجب أن تتمثل فضلاً عن ذلك بتفوقها الأخلاقي، والعقلي ووحدتها الداخلية، ولا يجوز اختيار الحكام، أو الحراس في مدينة أفلاطون الفاضلة على أساس نسبهم وثرواتهم، ولكن على أساس الخصال التي تؤهلهم للقيام بمهمتهم، ولا ينكر قيمة كون الحكام منحدرين من سلالة طيبة، وأن يتمتعوا بصحة جيدة، ويكون لهم عقل راجح، وتلقوا تربية حسنة[454].

لقد ذكرنا السياق الفكري الذي سينطلق منه (أبو نصر الفارابي) في تأسيس نظرته للمدينة الفاضلة، ومستعيناً بأفكار أفلاطون، وجعلها أكثر واقعية ومزجها بالفكرة الإسلامية وفي الوقت نفسه كان شاهداً على اضطرابات وفتن (أزمات) وثورات عصره.

1- يقصد الفارابي بالمدينة الفاضلة، أي الدولة الفاضلة، والذي كان عصره يفتقر إليها، وإن أول ما يسترعي النظر في فلسفة المعلم الثاني في فلسفته الاجتماعية السياسية تركيزه على إرادة الناس، وحريتهم في الاختيار كأفراد في المجتمع، ويقارن الفيلسوف في كتابه المذكور بين قيام المجتمع بكامل وظائفه وممارسة أبنائه كل لما خلق له، بالنشاط الحيوي للجسم الكامل، السليم، والفارابي في هذه النظرة، وما سيليها من نظرات أخرى حول: القيادة السياسية يشبه (أفلاطون) مع فارق بسيط هو أن (الفارابي) يعتبر أعضاء البدن طبيعة، والهيئات التي لها قوى طبيعية، بأجزاء المدينة، وإن كانوا طبيعيين لكن أفعال هؤلاء (أجزاء المدينة) ليست طبيعية، بل إرادية[455]، يجب أن تكون صادرة عن إرادة مستقلة، وهذا يعني أن الإنسان عند الفارابي قادر على تبديل وضعه في المجتمع بإرادته الحرة وبتنمية قدراته، ومهاراته.

ثم يعالج (الفارابي) المجتمع المأزوم في ديناميته، وحركته فيطرح (الفارابي) في مدينته الفاضلة برنامجه السياسي – الاجتماعي ويوصف هذا البرنامج باعتباره مشروعاً وصفه في مدينته الفاضلة بالخيالي، وباستحالة تنفيذه، مع أنه ممتع للقراءة ويفسح المجال للتأمل، والغوص في سبحات وشطحات الخيال.

يرسم الفارابي مثله الأعلى نابذاً المدن (الدول) الجاهلة، والمدن الفاسدة، والمدن الضالة داعياً إلى معالجة الأزمة بتحقيق: المدينة الفاضلة، وهي الضمان، والكفيل، للخروج من المأزق، وهذه المدينة في خيال الفيلسوف تقوم على التعاضد، والتواصل الإنساني والروحي، ويتم فيها تقسيم العمل بعدالة مطلقة، ويحقق الأفراد فيها ذاتهم، وحريتهم في المدينة الفاضلة تتحقق أعلى مرحلة لتحقيق الذات الإنسانية.

إن مرجعية الفارابي في النظر إلى الأزمات، وإداراتها، وتدبيرها، وحلها، هي: المدينة الفاضلة.

وكان (الفارابي) يرى أن مهمة الفيلسوف تدريب الناس على الفضيلة[456] وهذه ليست دعوة خيالية، ولايوتوبيا، إذ من منا لا يرغب في أن يكون فاضلاً؟

كان مصير فلسفة الفارابي الاجتماعية – السياسية – الأخلاقية، وأفكاره لإدارة الأزمات كسابقتها في (الجمهورية) لأفلاطون، فقد ظلت وما تزال تدغدغ خيال هواة الفكر التأملي والمجرد، والمتسم باللاواقعية واللاعقلانية، إنها فلسفة غارقة في الآمال التي يحب الناس التحدث عنها، ولكنهم عاجزون عن تحقيقها، إنها غرق كامل في المثل العليا هي مدينة لا تشوبها شائبة، خالية من العلل، والأمراض، والمفاسد، وبعيدة عن التلوث بأدران المادة، يحصل أفرادها على السعادة الكاملة[457]، والإخاء الجميل والمحبة الفاضلة والتعاون، ويتعاون جميع الأفراد على بلوغ الكمال، والذي هو السعادة القصوى.

و(الفارابي) كغيره والفلاسفة في تصوراتهم الخالية يقع في (مطب) أو غيبوبة غائبة عن: طبائع البشر، وقواهم الدفينة، وغرائزهم المتصارعة وتناقضاتهم الأليمة والمفاسد التي يتعرضون لها، واستعداداتهم الدائمة للعدوانية، والنزاع، وخلق الأزمات وتناقض كل ذلك مع رغبات الناس جميعاً بتحقيق الحياة الفاضلة، والعيش في الزمن الجميل.

2- تقوم فلسفة (الفارابي) للقيادة السياسية على اعتبارها مسؤولة عن إدارة شؤون المجتمع والقيادة مناط المسؤولية، والقرار، والقائد العام، والإمام، موضوع من المواضيع الرئيسية التي شغلت فكر الفارابي، وفي القسم الثاني من (آراء أهل المدينة الفاضلة)، حيث يؤكد ضرورة وجود القيادة، لما لها من أهمية اجتماعية - سياسية.

يرى الفارابي أن الزعامة أو القيادة تكمن في توفير الظروف المناسبة للنمو المنسجم لكافة الفئات الاجتماعية وفقاً لما أعدت لها، ويربط الفيلسوف بين مسألة القيادة وقيام المدينة الفاضلة والعادلة والصالحة، وقد جعل وجود الأولى شرطاً لوجود الثانية، والمدينة لا يمكن أن تكون صالحة وعادلة إلا بوجود قيادة صالحة.

يرى (الفارابي) أن رئيس المدينة لا يمكن أن يكون أي إنسان اتفق، وأن الرئاسة تكون بشيئين أحدهما أن يكون بالفطرة، والطبع معداً لها، والثاني بالهيئة، والملكة الإرادية، ويرى أن كمال الزعيم، أو القائد أو الإمام مرهون بتوفير العامل الفاضل لا بقوة السلطة، ويعدد (الفارابي) الخصائص الفطرية الطبيعية الفردية للقائد: مما يوحي أن (الفارابي) ينظر إلى القائد نظرة فردية، أي إن الدور الأعظم والرئيسي في الحياة السياسية هو للقائد الفرد، والحاكم الواحد.

يجب أن يكون الحاكم حازماً شجاعاً يحتقر المال شريفاً عزيزاً... وكل ذلك يؤكد نظرية (تفريد القيادة) هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية، أن مطلب الفيلسوف لهذه الخصائص والصفات الفردية ألا يدل ذلك على نقصانها في خلفاء عصره!

وزبدة القول في فلسفة الفيلسوف للقيادة، ونظرته لأزمات وضلالات ورذائل عصره، يرى في التحليل الأخير أن المرجعية في تحديد، وإدارة ومعالجة كل ما سبق بناء على قيادة رشيدة مرجعيتها: الشريعة والفلسفة فالرئيس عند الفارابي هو القائد والرأس، والرائد، وهو الذي يهتدي: بالوحي المحمدي وبالعقل الفلسفي، إن يمثل النبي بمعنى ما.

إن القيادة، أو القائد إن صح التعبير هي في التوفر الكامل على الصفات الكاملة وبذلك يكون قادراً بالبداهة على إدارة شؤون مجتمعه، وأزماته، وقيادته نحو المجتمع الكامل.

3- حلم (الفارابي) في مدينته الفاضلة يتحقق فيها الوحدة التي تقوم على: العدل، والمحبة، والتعاون، والائتلاف، وكل هذه العناصر تصلح لأن تكون القواعد المهمة لبناء وحدة وطنية، أو قومية، أو دينية وهي ليست من الخيال، ولا بالمثل الفاضلة، ولقد اعتقد المعلم الثاني بضرورة قيام رئاسة فاضلة تعتمد على الطرق البرهانية (ليعلى من قيمة العقل) والعمل على ما انقطع بين: الدين والدنيا في عصره، ولقد وقف ضد الحروب الصراعات المذهبية، والفتن والسلب والنهب، وضد الظلم والمذابح، ودافع عن حقوق الرعية في الحياة الكريمة والآمنة، حيث بدأت هذه القيم الأخيرة تحتضر في زمن الفيلسوف[458].

3- الشيخ الرئيس أبو علي ابن سينا (980 - 1037)سياسته ، ومدينته الفاضلة:

لم يكن الشيخ الرئيس أبو علي بعيداً عن الحياة السياسية في عصره، بل بالعكس، لقد كان قريب الصلة بها، وكانت له طموحاته السياسية، وكان من الطبيعي له كمفكر أن يهتم بهذا الشأن أن ينظر في إيجابياته، وسلبياته، ويضع يده، خاصة، على الثغرات الكامنة في واقع الحياة السياسية وما تعانيه من أزمات، والتفكير في أسلوب ما للعلاج، أو للإدارة، والتدبير.

والواقع عاش (ابن سينا) مرحلة تاريخية مليئة بالأحداث التاريخية، والعلاقات السياسية والاجتماعية المعقدة، والصراعات الطبقية والطائفية، والتي رافقتها تبدلات وتحولات سياسية في السلطة والحكومات، حيث دخلت الدولة العباسية مرحلة الانقسام السياسي الناتج عن ضعف السلطة السياسية للخليفة العباسي، وازدياد النزاعات الانفصالية والأزمات الاستقلالية عن جسم الدولة من قبل الحكام والأمراء المحليين[459].

ومن ناحية أخرى كان (ابن سينا) قريباً من الأوساط الإسماعيلية الشيعية، وقرأ رسائل إخوان الصفا.

1- وضع (ابن سينا) للمجتمع وللدولة تصوره لمدينة فاضلة للخلاص من أزماته الاجتماعية والسياسية، ورأى فيها التنظيم الاجتماعي الأمثل.

وضع الفيلسوف على رأس مدينته الرئيس، صاحب السلطة، وهو بمثابة الوازع والخليفة، والرئيس في المدينة الفاضلة: له مطلق الإرادة فيما يدير، ومستقل السياسة ويعطي (ابن سينا) الدور السياسي كله لرئيس المدينة، ويجب أن يكون هذا الرئيس عادلاً إنه القائد، وواضع القوانين، وهو النموذج الأمثل للسلوك، ويرى الفيلسوف أن على كل فرد في المدينة وكل طبقة فيها اتباع العادات والأخلاق الفاضلة التي سنها الشارع وبذلك تتأهل في نفوس الجميع الميول لفعل الأعمال الجميلة، الخيرة، ويتهيأ كل منهم لحياة أخرى سعيدة[460].

في المدينة الفاضلة يتحقق النظام الأمثل في ظل رئيس صاحب سلطة مطلقة، ويبدو واضحاً أن ميل (ابن سينا) إلى الفردية في السلطة، حيث أن الرئيس هو المشرع، وهو المثل الأعلى في الأخلاق، والسلوك القويم، إنه رئيس عادل لمدينة عادلة يقود أبناء مدينته (دولته) نحو الفضائل في الدنيا، ونحو الأعمال الجميلة، ويهيئ النفوس للتمتع بالحياة السعيدة.

تطرق (ابن سينا) نتيجة تأمله حياة عصره، إلى العيش المشترك، وضرورته، وإلى مسألة: تجنب الأزمات الطاحنة والصراعات التي أخذت منذ مراحل، ما قبل عصر (ابن سينا) تنخر في جسد الإمبراطورية، وكذلك، بحث كما رأينا منذ قليل، مسألة القيادة، ودراسة شخصية الإمام، والقائد، وكان في نظراته، في هذه المسائل يعكس نمط تفكير مختلف مراحل التاريخ السياسي للإمبراطورية وصولاً إلى عصره، والقائم على النظر للقيادة المتمثلة في فرد، وشخص واحد وحيد، بيده كامل السلطات، وهو القادر على: إدارة الأزمات، وبيده سلطة القرار وهو الذي يحسم أمر الصراعات الناشئة.

وعالج (الشيخ الرئيس أبو علي) مسائل ذات علاقة مباشرة بالقيادة، والزعامة والأمانة وحاول إضفاء فلسفته الشخصية في كتاباته عن الواقع السياسي، والسياسة الموجودة في أيامه، ليخلع عنها سلبياتها، المتمثلة في سياسة التغلب، وسياسة الأقلية السلطوية، وقوامها التغلب (صراع القوى)، وما تولده من أزمات، ويطالب بقيادة الأكثرية المطلقة في المجتمع لسلطات الأقلية[461]، حيث يشكل سلطان الأقلية أرضية واسعة للأزمات السياسية[462].

2- يطرح (ابن سينا) نموذجاً إسلامياً في مدينته الفاضلة، ويراه ضمناً قدوة، تجلى في الخلافة الراشدة، ولكن هذه الخلافة انقلبت، كما رأينا إلى ملك وسيادة الملك العضود مالك القوة، والبأس الشديد، وهو يعادل في هذا النظام الجديد المدينة غير الكاملة عند (أفلاطون)، وقد رأى (ابن سينا) أن تحقيق المدينة الفاضلة على الطريقة الأفلاطونية هي الطريقة المثلى، والمثالية والأفضل بعد دولة الشريعة، ولكن تحقيق هاتين المدينتين بات صعباً في ظل توالي الخلفاء، واحداً بعد الآخر من طريق القوة والغلبة والسلطان القاهر، غير آبهين هؤلاء آراء، وخيارات ومواقف الرعية، وكذلك يرى (ابن سينا) إن هذا النموذج الأمثل للدولتين سواء الدولة (الأفلاطونية) أو الدولة الشرعية أصبح نادر التحقيق، لأن الإمام الذي يسعى إلى تحقيق هذه الدولة أو تلك تواجهه أزمات سياسية، واقتصادية، تؤدي إلى الخلاف والنزاع[462].

3- يتحدث ابن سينا أخيراً في قصة له عنوانها (حي بن يقظان) عن دور الغرائز والانفعالات والأهواء البشرية في مسالك البشر (كما أشرنا إلى ذلك في عملنا حول العوامل الخاصة في الفصل الرابع)، تدور أحداث هذه القصة، وباختصار، إن جماعة خرجت تتنزه، فصادفها شيخ وقور مهيب الطلعة اسمه: حي بن يقظان، وقد رمزت هذه القصة بهذا الشيخ، كما رأى الدكتور (زكي نجيب محمود) إلى العقل، وأن الجماعة التي صادفته فهي رمز للشهوات، والغرائز والانفعالات والعواطف، وسائر القوى اللاعقلية في الطبيعة الإنسانية، يقول الدكتور: فإذا رأينا الحوار قائماً بينها وبين الشيخ، عرفنا أن الحوار المألوف في حياة الإنسان حين تتنازعه في باطنه أحكام العقل، والمنطق من جهة، ودوافع الوجدان من جهة أخرى[463] وليس يسيراً على بني البشر، ومنهم رجالات السياسة وقادة الحكم والخلف، الانتصار على الغرائز وترجيح الأسلوب العقلاني في الفكر والسلوك، ويبدو واضحاً أن (ابن سينا) يعلي من شأن العقل في صناعة قصصية، ولعل المثل الأعلى الفلسفي، كان ولا يزال هو بتحقيق: التوازن في حياة البشر هي بين: القوى الغريزية، والدوافع والانفعالات، وما يتصل بها من قوى غضبية وشجاعة وقوة شهوانية أي ما يتصل بسيكولوجيا الإنسان، والقوة العقلية في الرأس، وهذه الصورة ذاتها التي مثلها أفلاطون في (العربة) التي يقودها سائق وهو العقل، والحصانين الجامحين هما: القوة الغضبية والقوة الشهوانية:

إنها حياة الطوابق السفلية في البناء الإنساني بتعبير حديث.

4- رسالة ابن سينا في السياسة، والمنشورة حديثاً تدور حول إقامة نظرية متكاملة في القيادة السياسية القادرة على إدارة شؤون الدولة أو المدينة وهي نظرية لا تفرق في الخيال، بل يمكن للإدارة الإنسانية خاصة، تلك التي تتطلع إلى العمل السياسي تحقيقها كي تكون قيادة رشيدة، وفي مستوى تحمل المسؤوليات العظيمة المتعلقة بحياة الأمة، وتقوم عناصر هذه النظرية على وجوب الربط بين السياسة والأخلاق من ناحية وعلى وجوب أن يكون القائد السياسي، **Leader** أو غيره في مستوى وموقع الإدارة للمنظمة، والهيئة، المشتركة والمجموعة، والقطاع أن يحقق السياسة المتوازنة في:

* الرجل مع نفسه، أي إدارة سلوكه الخاص.

* سياسة الرجل لدخله وخرجه، الأمور المالية.

* سياسة الرجل لأهله، لأسرته، لولده.

* سياسته للآخرين.

يقول الفيلسوف في مفتتح رسالته مشيداً بأهمية نعمة العقل: الحمد لله الذي نهج لعباده بما دلهم عليه من حمده سبيل شكره، وأشرع لهم بما هيأهم له من شكره أبواب مزيدة، ومن عليهم بالعقل الذي جعله لدينهم عصمة، ولدنياهم عماداً[464] ونقول أن إدارة الإنسان لنفسه، مبتدأ وخبر كل فعل إنساني، (في سياسة الرجل نفسه): إن أول ما ينبغي أن يبدأ به الإنسان من أصناف السياسة نفسه إذ كانت نفسه أقرب الأشياء إليه، وأكرمها، وأولاها بعنايته، ولأنه متى أحسن سياسة نفسه يحسن ما فوقها من سياسة العصر (البلد).

ومن أوائل من يلزم من رام سياس نفسه أن يعلم أن له عقلاً هو السائس، ونفساً أمارة بالسوء، كثيرة المعايب جمة المساوئ في طبعها، وأصل خلقها في المسوسة[465].

لعل أهم ما نقرأه، ونحن نتكلم عن الفلاسفة في الإسلام في المشرق العربي الإسلامية وفيما يتعلق برؤاهم في إدارة شؤون المجتمع ومشكلاته وأزماته، هو التصور المشترك لمدينة أو دولة فاضلة، كان للخيال في تصورها النصيب الأكبر وعندما نقول الخيال فالقارئ يدرك مباشرة: صعوبة تحقق هذا المشروع أو التصور بل إننا إذا ذهبنا

بعيداً في قراءة تفاصيل هذا المشروع الطوباوي، لإدارة مجتمع بدوره هو كائن طوباوي، يصعب تنفيذه، وتطبيقه على أرض الواقع وليس عبثاً أن يذكر مؤرخو الفلسفة، أو يصنفوا الفلاسفة مثل (أفلاطون)، ومروراً بفلاسفة الإسلام وعصور النهضة الأوروبية كـ-(توماس مور) وغيره ضمن دائرة أصحاب المدن الطوباوية أي الخيالية.

لا شك أن فلاسفة المدن الفاضلة يستفزون أبناء المجتمع والساسة، والقادة ويدفعون جميع هؤلاء إلى مقارنة واقعهم، وحياتهم السياسية بهذه التصورات الخيالية فيقف الجميع مشدودين أمام هذه الصروح الخيالية لمدن خيالية، وأناس، وقادة، أيضاً من صنع الخيال.

والخلاصة: إن أفكار الفلاسفة الطوباوية، وتصوراتهم للدول الفاضلة هي امتحان لقدرة الناس على تحقيق هذه المشاريع، إنه امتحان صعب، ولم يعمل البشر حتى الآن على إعداد أنفسهم لصناعة مثل هذا الامتحان، ولا بالتحضير له، ولكن إذا فعلوا يوماً فإن التنبؤ بتوقع النتائج سيكون أمراً أصعب.

ثانياً: فلاسفة المغرب، والأندلس:

1- ابن باجة (1082 - 1183م) الدولة الفاضلة خلوها من الأزمات:

صناعة إستراتيجية الخلو من الأزمات، هذا ما تصوره الفيلسوف (ابن باجة) في رسالته (تدبير المتوحد) وهي صورة للتدبير السياسي، والحكومة الفاضلة، الكاملة.

لم يكن مفهوم الدولة الفاضلة مفهوماً قبلياً، ولا محاولة لقلب نظام الحكم، بل كان وسيلة لإصلاح العادات والأخلاق، ويهدف قبل كل شيء إلى تحقيق الوجود الإنساني على أكمل صورة، وفي كل فرد من أفراد المجتمع، والمتوحدون في نظر (ابن باجة) هم مواطنون في الدولة المثالية، وإن كانوا غرباء في المجتمع إلا أن خبراتهم الروحية، تدفعهم إلى مجاوزة شروط الواقع وإلى أسلوب ومنهج عقليين، يهيئون بواسطتها أسباب السعادة.

كذلك لا يُقصد بمفهوم (المتوحد) فرد واحد أو بضعة أفراد، بل عدد كبير جداً من الأفراد الذين يقومون بأفعال الإنسان الهادفة إلى بلوغ الكمال والسعادة.

إنها صورة حياة (المتوحد) وهي صورة حياة الدولة النموذجية المثالية، إنها المدينة الفاضلة، التي تحدثنا عنها سابقاً، وحيث تقوم العلاقات بين أفرادها على: الحب، والتمسك بالمثل الأخلاقية، وتنعدم فيها الأزمات، والنزاعات والخلافات، والآثام، والأمراض[466]، وترتسم في رسالة (تدبير المتوحد) أو الدولة الفاضلة في صورة أنيقة وجميلة خلابة، ومغرقة في الخيال والابتعاد عن واقعية الحياة، إنها ممتعة وعذبة للإطلاع، والقراءة، وصاحبها يضعها وهو جاد في الأمر، على أنها إستراتيجية: الخلو من الأزمات والصراعات إنها بمعنى ما مشروع إدارة الخلو من الأزمات – وإبداع التوازن المطلق، والعيش في سعادة غامرة وضمن مجتمع فاضل لا يعرف معنى للرذيلة ولا للفساد، لا يرتكب أحد فيه شراً، إنه في الواقع مشروع دولة من نمط خاص.

2– ابن رشد (1126 – 1198م):

مع فيلسوف (قرطبة) نبتعد كثيراً عن شطحات الخيال، المتعلقة ببناء صروح مدن خيالية، أو دول فاضلة، ونقترب من الواقع، (فالوليد ابن رشد) كان قاضياً، وفقيهاً وعالماً، وفيلسوفاً يميل ميلاً شديداً إلى العقلانية الفلسفية، وسنقف عند أفكاره في السياسة، والاجتماع، وعند أفكاره الفلسفية لتدبير شؤون المجتمع.

كثير من الباحثين اعتبروا (ابن رشد) رائداً من رواد فلسفة العقل، وبامتياز[467] إنه في الواقع يمثل أحد كبار الناشطين العقليين في الإسلام، وقد انقسم المفكرون، واللاهوتيون في العصور الوسطى الأوروبية بعد أن وقفوا على فلسفته من خلال شروحه على الفيلسوف (أرسطو) إلى قسمين هما: الرشديون، واللارشديون، يرى (فيلسوف الأندلس) في فلسفته العامة، وهي تدور حول: الشخصية الإنسانية أن على المرء أن يراقب نفسه، ويتعمق في المراقبة، ولا يجري وراء الانفعالات والخواطر المنتزعة منها، وهو يرشدنا إلى أن نهتدي، بالجزء الواعي فينا، وهو العقل[468].

لا يفرق (ابن رشد) بين الدولة والمجتمع، ويرى أن الدولة منظومة من العلاقات الاجتماعية ويعالج الفيلسوف موضوع: القيادة، وكان مطلعاً على جمهورية (أفلاطون)، وعلى (أراء أهل المدينة الفاضلة) للفارابي، وقد أدخل تعديلات على تصور (أفلاطون) للجمهورية ويتوقف (ابن رشد) طويلاً عند مسألة صفات القائد ورئيس الدولة المثالية لأن

عليه بالذات يتوقف إلى حد كبير إمكان اكتساب المواطنين الفضائل، ومن الصفات التي يتطلبها مثلاً: الذاكرة الجيدة والدفاع عن الحقيقة، وأن لا يكون أنانياً، وأن يكون سخياً، شجاعاً حازماً، بليغاً وبالإضافة إلى الخاصيات الطبيعية عليه التمتع بالخاصيات المكتسبة[469].

يبدو أن (ابن رشد) وخلافاً للفارابي، وابن سينا وغيرهما الذين بحثوا في موضوع القيادة والإمامة ينظر إلى رئيس المدينة الفاضلة بصفته: قائداً، فيلسوفاً، وليس بصفته زعيماً دينياً، ومن ناحية أخرى، فهو يصنف أنواع السياسات الأربع:

السياسة الجماعية، وسياسة للخسة، وسياسة جودة التسلط، وسياسة الوحدانية، وهو يحكم على كل سياسة بناء على الهدف منها، والغاية التي تريد تحقيقها.

فالسياسة الجماعية تكون بالاختيار، والاتفاق، وأما سياسة الخسة ففيها يتسلط المتسلطون وسياسة جودة التسلط التي تكون عن طريق الأدب والاقتداء بما توجبه السنة[470] أي ما يوحيه القانون، أما سياسة الوحدانية، فهي الرياسة التي يجب أن يتوحد فيها الكرامة والريادة وغاية السياسة الجماعية: الحرية وغاية الرياسة الثروة، غاية جودة التسلط: الفضيلة والتمسك بالسنة وغاية الوحدانية: الكرامة أي كرامة الحاكم الفرد[471].

إن النظام السياسي المفضل عند (ابن رشد) هو القائم على الشورى، والذي أقامه العرب في شبه الجزيرة العربية ثم جاء الإسلام وكرسه كأفضل أسلوب للحكم، كذلك رأى (ابن رشد) أن الدين أداة سياسية ضرورية لابد منها للدولة[472].

3- نستطيع الاستنتاج من أفكار (ابن رشد) الفلسفية الأسلوب الرشدي في مواجهة الأزمات يرى (ابن رشد) أن البداية في الإدارة هي سلوك طرائف مختلفة للإقناع، وتتجلى هذه الطرائق في:

1- التوجه إلى الجمهور الواسع عن طريق العبارات، الشعرية، والخطابية.

2- التوجه إلى النخبة بالبراهين العقلية والمنطقية.

3- إمكان استخدام القوة في مقاومة الأعداء الخارجين للدولة[473].

ومن هذه العناصر والأساليب الثلاثة ينطلق الفيلسوف في إدارة الأزمات وباتباع ما يلي:

*** استخدام الحوار والنقاش إذا كانت أزمة جماهيرية، شعبية واللجوء إلى أساليب الإنشاء والخطابة واللغة الشعرية.**

*** استخدام الحوار العقلاني الهادي، الرصين لمعالجة الأزمة إذا كانت تعني النخب السياسية أو الثقافية.**

*** استخدام القوة للدفاع عن أمن الدولة إذا كانت أزمة صادرة عن عدو خارجي.**

من الباحثين من رأي (ابن رشد) معزز لدور: الحاكم الفرد، عند حديثه عن الصفات الواجب توفرها في الحاكم، ومسؤولياته وسواء كان فيلسوفاً أم ملكاً أو خليفة، أو إماماً، وفي فلسفة ابن رشد لا وجود لحديث عن هيئات أخرى لها دور حاسم، وفعلي في اختيار الحاكم الفرد أو مراقبته، أو تقاسم السلطة معه، مما يعزز نظرة هؤلاء لبذور الفردية، والذاتية، واللامؤسسية وأهمية الرجل الفرد العظيم(474).

4- ثمة نظرات معاصرة إلى فلسفة (ابن رشد) السياسية، وإلى نظرته في إدارة الأمور، ومعالجتها، ذلك أن المنصور واسمه (أبو يحيى) طلب من (ابن رشد) أن يعد له كتاباً (براغماتياً) في الشكل والمضمون ليفيد في أسلوب الحكم والإمارة تذكرنا برسالة (ابن المقفع) التي رفعها (لأبي جعفر المنصور) في بغداد.

وضع (ابن رشد) في كتابه الموجه إلى المنصور وجهة نظره في إصلاح الدولة، والواقع كان مطلب الأمير من الفيلسوف إعداد هذا الكتاب يشكل مشكلة ل- (ابن رشد) لأنه كان ينوي الكتابة عن: المدينة الفاضلة وأخيراً وجد الحل للمشكلة، بأن وضع الكتاب يجمع فيه الأقاويل العلمية الواردة في كتاب (أفلاطون)، بعد تحويله إلى نص حواري، أي أن (ابن رشد) أراد أن يرتفع بالفكر السياسي من مستوى الجدل النظري المجرد إلى مستوى العلم.

لقد أراد الأمير، بواسطة كتاب الفيلسوف أن يقدم نفسه كبديل للحكم القائم الذي اتسم في آخر عهده بالاستبداد، والقمع، والسلطوية والقهر، وبالتالي تكون فرصة

للفيلسوف نفسه بمعرض آرائه والتعبير عنها، ومساهمته في التجربة الحضارية العربية الإسلامية عامة وفي حضارة الأندلس بشكل خاص.

ثم إن القسم المهم في الكتاب الذي يدور حول: تدبير المدينة، حيث يهدف إلى تحصيل كمالاتها وهو ما يسميه بعلم السياسة، حيث كان يعتبر السياسية جزءاً من العلم المدني، وهي تعني إدارة شؤون الناس، وهو يضع نموذجاً علمياً، ويطلب في خلاصة الأمر أن يتحرك الأمير، في ضوء ما يقرره العقل[475].

ونجمل القول في آراء (ابن رشد) في تدبير المدينة وشؤونها، إن (ابن رشد) باعتبار أنه نهجاً عقلياً، براجماتياً وواقعياً، كان يرى في: التطرف سواء في السياسة[476] أو في النظر إلى الفلسفة كميدان فكري تم تهميشه، بشكل متطرف هو أمر لا يقبله العقل.

إن ما يشتكي منه الفيلسوف هو وجود متطرفين يحاربون الفلسفة باسم الدين من جهة: ووجود متطرفين يشوهون الفلسفة بتصرفاتهم، وأقوالهم غير المسؤولة، ويجد الفيلسوف الحق نفسه في مثل هذه الحال بين خصوم الفلسفة، والمتفلسفين المسيئين إليها ويكون الجميع في وضعية حرجة (أزمة) عبر عنها الفيلسوف مستعيداً تجربة (ابن باجة) فقال: وإذا اتفق أن نشأ في هذه المدن فيلسوف حقيقي كان بمنزلة إنسان وقع بين وحوش ضارية فلا هو قادر على أن يشاركها فسادها، ولا هو يأمن على نفسه منها، ولذلك فإنه يفضل التوحد ويعيش عيشة المنعزل.

إنها أزمة فكرية عامة تمس حياة المجتمع الثقافية وأنها أزمة شخصية تدفع بالمفكر إلى العزلة، والانسحاب من الحياة العامة

3- محمد بن ظفر الصقلي (1104 – 1172م) تنظيره للأزمات:

منظر سياسي، مبدع، عقد كاتب عربي صلة بينه وبين المنظر السياسي الإيطالي (مكيا فللي) الذي ظهر في القرن السادس عشر وصاحب كتاب (الأمير) في النظرية السياسية، وقد وجد كاتبنا[477] في هذه الصلة المعقودة أن الكاتب الإيطالي قد نقل حرفياً آراء (الصقلي) في موضوعين رئيسين شغلا العربي والإيطالي، وهما:

* التنظير للأزمات.

* مقولة الغاية تبرر الوسيلة.

عندما نقول أن (الصقلي) ينظر للأزمات فنعني أن له آراء في إداراتها، ويبدو واضحاً أن مفكرنا كان سابقاً لعصره بأزمان.

ولقد (الصقلي) في صقلية، وعاش في حماة (سورية)، وعاصره في هذه الفترة فقيهاً أو منظراً عربياً آخر وهو (ابن جماعة) سنذكره فيما بعد:

لظفر هذا، كتاب عنوانه (سلوان المطاع في عدوان الاتباع) يشير فيه المنظر إلى علاقة الحاكم بالمحكومين، والقائمة على: الخوف من السلطان القاهر، لا على المحبة، لأن المحبة علاقة متساوية بين القوي والضعيف (أو بين متساويين) أما الخوف فهو علاقة إذعان لا يستطيع الضعاف نقضها إلا بنقض أسبابها[478].

وقف (ابن ظفر) في عصره على ضعف سلطة الخلافة، وتفرق المسلمين في القرن الحادي عشر مما استدعى انتصار المغول، والأتراك ووضع الصقلي قواعد للحكم في كتابه المذكور واعتبر أن العدل قاعدة التدبير السياسي، ويجب أن يرشد ا لقيادات في عملها التدبيري لشؤون العباد.

ويشير الصقلي إلى أن على الحاكم أن يكون دائماً مستعداً لحدوث الأزمات، والعمل على إدارتها وذلك بحشد (المال) الموارد والجيوش (القوة) والتحصين[479]، وكان يطلب من القائد أن يتحلى بصفات الأسد، والثعلب على الطريقة (المكيا فيلية)، ويجب أن تكون قاعدة ثابتة في التعامل مع:

الأزمات أي بعبارة أخرى أن نظرية الصقلي في عناصرها تقوم على:

* المرجعية: العدل.

* الأسلوب: الأسدي، والثعلبي في التعامل.

* التخطيط: وضع الخطط لمواجهة الأزمات، والصراعات (الإستراتيجية).

لم يظهر منذ (عصر الصقلي) وحتى يومنا هذا ما ينقض هذه النظرية بل بالعكس إنها تثبت أنها ما زالت معاصرة وإبداعاتها تجلت أنها ظهرت في القرن الحادي عشر

الميلادي، وهي بهذا المعنى سابقة لعصرها، من ناحية، ومن ناحية ثانية، تدلنا على وجود هوة عظيمة بين التنظير السياسي في التاريخ السياسي العربي الإسلامي والقيادات السياسية التي ظلت ومنذ بدايات الخلافة في القرن الأول الهجري وحتى عصر كاتبنا تستنسخ أسلوب القيادة ذاته شكلاً ومضموناً.

4- ابن خلدون (1332 – 1406م)

عبقري عربي آخر، ظهر في عصر حفل بالهزات السياسية والاضطرابات الاجتماعية، وقد شهد سقوط الدولة العربية الإسلامية في الأندلس، وكان شاهداً على حملات المغول، والتتار في المشرق العربي، وانقسام دول شمالي أفريقيا وإماراتها، وانتفاضات القبائل في المغرب[480].

أ- يسلط (ابن خلدون) نظراته منذ بداية عمله الفكري على: طبائع البشر ونظر في استعداداتهم للظلم والعدوان، وابتداع المشكلات، والأزمات، وهو ما دعاه إلى القول بضرورة: إنشاء التنظيم الاجتماعي (كما كتبنا في بداية عملنا) يقول العلامة: إن اجتماع الناس يحمل في ذاته الخطر، لما في طبائعهم الحيوانية من العدوان والظلم، لذا فهم بحاجة إلى حماية أنفسهم بعضهم عن بعض، أي الإنسان من أخيه وإخوته، ولتأمين هذه الحماية لابد من وازع يدفع بعضهم عن بعض، أي وجود شكل من أشكال التنظيم الاجتماعي، وهذا الوازع هو: القائد، تكون له الغلبة والسلطان، وتكون له اليد القاهرة، فلابد إذن من:

* ضرورة التنظيم الاجتماعي.

* وضرورة وجود القائد – السلطة[481] وبمعنى حديث: الدولة.

ب- يركز (ابن خلدون)، وكما ذكر كثير من الباحثين العرب[482] على العصبية ودورها في الترابط الاجتماعي، ونشأة السلطة، وتثبيتها، ومواجهة المشكلات والأزمات انطلاقاً من هذه (المرجعية) إذا صح القول، فالعصبية عند (ابن خلدون) ضرورية لتماسك بنية النظام، والدولة، ولها أثرها الكبير في السياسي والاجتماعي[483] ولها آثارها الجانبية (تداعياتها)التي لم يذكرها العلامة، بل يراها نواة الرياسة وبذرة من بذور شجرة الملك، وهي قوام التطور السياسي.

ت- في بحث مسألة القيادة والدولة يتصور (ابن خلدون) وجود ثلاثة أنماط من الدول أو الملك، والقيادة وهي:

* الملك الطبيعي (الشبيه بنظام المجتمعات القديمة ووجود عقد بين الناس للعيش في ظل سلطة ما).

* الملك السياسي (العمل بمقتضى العقل – المدني – الدستور الوضعي).

* الملك الديني (الخلافة) و(السياسة الشرعية)(484).

ج- يميل (ابن خلدون) أسوة بالمفكرين العرب والمسلمين المتقدمين عليه إلى: القيادة الفردية ويتحدث عن الصفات والخاصيات الواجب توفرها في القائد، الحاكم، وهي صفات عقلية، وسلوكية، شخصية فردية، فالقائد هنا، هو الحاكم بأمره، هو مرجعية الحكم، وتدبير الشؤون.

لا أدري لماذا لم يركز الباحثون، حسب علمي، النظر على النمط السياسي العقلاني(485) الذي وصفه بن خلدون ضمن تصوره لأنماط الدول، والسياسات، وهو يمثل قمة التطور والتفكير السياسي وهي أيضاً فكرة سابقة لعصرها بقرون، وهي نظرية كان من الممكن لقادتنا وسياسيينا تنظيم الدولة انطلاقاً منها في الوطن العربي أعني: الملك السياسي (العقلي)، ذلك عوضاً عن الاستيراد العشوائي للتيارات الليبرالية والعلمانية، والحداثة السياسية (فى الشكل ووعى اسسها العقلانية)وهذه التيارات كلها تنطلق في جانبها السياسي من: العقل.

إن مفكرنا ألمح إذن إلى دور العقل في الحياة السياسية، ودوره في بناء الدولة، إنه نمط عقلاني يصلح لبناء دول العقل، ويطالب الدول ببناء دول العقول، ومن ناحية ثانية يمكن لهذا النمط العقلي أن يكون قاعدة لاتباع الخطوات العلمية، والتفكير العلمي في حياتنا السياسي والاجتماعي فضلاً عن تحفيزهما لنا في إدارة الأزمات والصراعات بناء على التخطيط العلمي لإداراتها، كما ألمحنا سابقاً وكما سنذكر في خاتمة عملنا هذا.

لقد عاش ابن خلدون في سياق حضاري – عربي – إسلامي، وهو يفضل من وجهة نظر خلدونية، وفكرية نظام الدولة أو النظام الشرعي للسياسة المدنية، والقيادة السياسية، وتدبير الشؤون، ولكن العلاقة، في مجمل آرائه، نظراته في السياسة والاجتماع يشكل مقدمة (للنهضة العربية) منذ منتصف القرن التاسع عشر، ولم تكن حملة (نابليون) هي الحاملة لبشائر هذه النهضة، كما رأى مفكرونا العرب(486).

الفصل العاشر
قضايا التدبير وإدارة الأزمات لدى
مفكري الأحكام، والآداب السلطانية ونصائح الملوك
(قراءة، واستنباطات)

مقدمة:

ميز المفكرون العرب والمسلمون في تاريخنا السياسي بين: الأحكام وبين الآداب السلطانية، وأرادوا بالأولى الأحكام الفقهية في السلوك السياسي والحياة السياسية بشكل عام والحياة الخليفية والسلطانية بشكل خاص، ومدى ملاءمتها للشرع الإلهي والهدى المحمدي والسنة النبوية، وكذلك موافقة أحكام الخلفاء لنصوص الشرع، وتحمل الكتب السلطانية في تضاعيفها النصائح والحكم، والأقوال التي أثرت على الحكماء والمفكرين والفلاسفة الأقدمين حول: الحكم الصالح ومن ثم إسداء بعض النصائح للسلطان هذا بالإضافة لذكر قوائم الصفات والخصال الواجب توفرها في: الحاكم.

أما الآداب السلطانية فتتناول مسألة: التدبير السياسي، وتعالج أساليب الحكم، وعلاقة الحكم بفئات الشعب (الرعية) في الاصطلاح التقليدي، وكيفية إرضاء الحاكم والخليفة – السلطان ومرجعيات هذه الأدبيات كثيرة أولها ولا شك، نظراً للمناخ العام لعصور الإمبراطورية العربية الإسلامية، أي الإسلام كدين، وثقافة فيجعل كتاب الأدبيات: الوحي المحمدي، والسنة النبوية، وأحاديث الصحابة، والنموذج الراشدي كل ذلك بشكل المرجعية الأساسية، يلي ذلك مراجع إضافية وهي تراثات الأقدمين: فلاسفة اليونان، حكماء الهند والصين، وفارس كل ذلك يشكل الجانب الإيجابي في هذه الآداب، ولكن ما هو سلبي، فيها وتعاني مشكلات كثيرة، إلى درجة أنها وصلت الفكر السياسي الذي تضمنته هذه الآداب السلطانية إلى أقصاه في:

1– القبول كمبدأ، وعقيدة راسخة بالقيادة السلطانية، أو الخليفية، القائمة على الذاتية والفردية، للحاكم الواحد، والتفرد بالسلطة وتعكس إرادة الشعب وتقبله لنظرية الرجل العظيم[487].

2- ينتج عن هذا المبدأ عمل كتاب الآداب على تبرير الاستبداد السياسي، وحتمية استكانة الجماعة، وخنوعها وإذعانها أحياناً للقيادة الاستبدادية.

أما كتب (نصائح الملوك)، فالعبارة (نصائح) واضحة من حيث أنها توجهت بأهدافها إلى تقديم النصائح والإرشادات النظرية، والعلمية للحكام، والملوك، ومرجعياتها أيضاً الإسلام، وأدب الملوك السابقين في الحضارات القديمة[488].

والواقع لدينا كثير من المحاور تنعكس في هذه الأعمال المختلفة نشير إلى أهمها:

*** التركيز على شخص السلطان، كفرد، وحاكم بأمره، والتفريد في السلطة والانفراد في القرار وتهميش الشورى، وخيارات الرعية في تنصيب الخليفة.**

*** تبرير القوة السلطانية، وبعبارة أكثر دقة: تبرير القهر السلطاني كلما اقتضى الأمر، أو خرجت الرعية عن الطاعة.**

*** أبواب التدبير السياسي العملي.**

*** التدبير وآلياته السياسية التي يمارسها السلاطين، والسلبيات الثانوية وتقديم النصائح.**

*** المماثلة بين الحاكم، والإله، باعتبار أن الخليفة سلطان الله في أرضه.**

*** تعطينا فكرة من الممارسة السياسية في التاريخ السياسي العربي - الإسلامي.**

*** لا تستنكر مبدأ توريث السلطة.**

***كتبت جميعها داخل إطار الإيديولوجية السائدة حينذاك، ولا يعني ذلك كون العقيدة الإسلامية، هي التي كانت تمثل هذا الإطار بل ثقافة السلطة السلطانية أو الخليفية، هي التي كانت الإطار الذي أحاط بالحياة السياسية.**

*** مؤلفو هذه الكتب وخاصة كتب: النصائح، منحازون سلفاً للسلطة[489]، وهم مقتنعون بضرورة السلطان، يعملون على مد السلطان بحجج (تبريرية) لممارسة سلطته وهي تشكل ما يمكن أن نسميه في عصرنا الحاضر قاعدة للنقد البناء وهم داخل النظام السياسي لا خارجه.**

* يشرون إلى لزوم تقديم الولاء والطاعة والصبر على (نكبة) القهر السلطاني إذا وقع هذه أهم محاور هذه السلسلة من الكتب، إنها في جملتها تشكل: فكراً سياسياً – عربياً – إسلامياً، كان من الممكن تطوير إيجابياته.

ومما تضمنته هذه الكتب أيضاً وضع مرتبية اجتماعية (مراتب الوجود الاجتماعي) أي وجود الطبقات لكل منها موقعه الخاص من السلطان، تلك المرتبة التي تعتبر صانعة المراتب، وليست فقط أعلاها، والملك، تفرد، وانفراد بمعنى أن لا أحد له الحق في مشاركة السلطان في إدارته وقراراته، فهذه امتياز له وحده.

أيضاً تجلت في هذه الأعمال مسألة، تمجيد السلطة والإشادة الدائمة بها وتقديس الطاعة، ومماثلة السلطان بالدولة، وهذا المبدأ الأخير لا يخلو من خطورة، أي تشبيه الملك بالإله، وهذا ما أطلق عليه في كتاباتنا الحديثة بتسييس المتعالي، وقد انتقلت هذه الفكرة من التراث القديم للحضارات الشرعية القديمة، كالبابيلية، والآشورية والفارسية[490].

في اعتقادنا أن مسألة تسييس المتعالي أو التشبيه بين الإله السلطان، هو انعكاس لفكرة مختلطة في المخيال السلطاني والشعبي على السواء، أي اختلاط بين: فكرة الله، والوحدانية الإلهية كمبدأ عقيدي، ديني متعال، ومجرد، ومنزه، نادى به الإسلام في أول الوحي، وفي آيات القرآن المكية الأولى تشكل أول ركن من أركان العقيدة، وبين السلطان كشخص إنساني، وهو فرد، وواحد، ولكن لا علاقة له بوجوده كشخص أو كفرد أو ككائن بشري بالطبيعة الإلهية، ولم يكن من المنطقي الربط بين المفهومين في الحياة السياسية.

ومن ناحية ثانية إن الخلط الحاصل، هو خلط بين: النسبي، والمطلق، فالله هو الواحد الأحد، بالمطلق وليس كمثله شيء، لا يشبه سلطان أو ملك، أو حاكم بأمره، أو خليفة، الإنسان إنسان بالنسب إلى الله لقد تكلم الإسلام عن كيانين منفصلين مختلفين بالطبيعة لا بالدرجة، ولكن الخيال الشعبي، ربط بين: ملك الناس، وإله الناس، بينما المقصود، بالملك في النصف الأول لآية، هو أن الله مالك حياة الناس، وهو إلاههم.

حصل هذا الخلط في العصور القديمة، وحصل في تاريخ الشعوب على اختلاف أشكالها وألوانها وحصل في التاريخ العربي الإسلامي ولا زالت هذه الفكرة التشبيهية عالقة في المخيال الشعبي والمعاصر.

ومن الأمثلة على عناوين هذه الكتب في الأحكام، والآداب والنصائح:

(رسالة الصحابة) و(الأدب الصغير والأدب الكبير) لابن المقفع (109 – 145هـ) و(السياسة في تدبير الرياسة) ترجمة (يوحنا بن البطريق توفي 200هـ) و(عهد لارديسر) على ملك الفرس: القرن الثالث الهجري ترجمة في نهاية العصر الأموي، (ملوك الملك في تدبير الممالك) (لابن أبي الربيع 227هـ) (التاج في أخلاق الملوك) المنسوب إلى (الجاحظ 155 – 255هـ) و(الفخري) في الآداب السلطانية، والدول الإسلامي لابن طباطبا (660 – 709هـ) و(الأحكام السلطانية) للماوردي[491] (974 – 1058م) و(سراج الملوك للطرطوشي 451 – 520هـ) ول-(ابن الأزرق) (بدائع السلك في طبائع الملك 896هـ)، وكتب أخرى غيرها[492].

(أدب الدنيا والدين) للماوردي أيضاً فيه شذرات حول الحكام والملوك وآداب الملوك، إن هذه الكتب في مجموعها موسوعة سياسية في الأحكام والآداب والنصائح والإرشادات، وهي تربط بين: الأخلاق والسياسة ربطاً محكماً هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى رأى بعض الباحثين تصورات لدور الحاكم، ومرتبته في المجتمع والدولة[493].

كما أننا يمكن أن نستنبط منها نظرية في السياسة العربية الإسلام[494] ورأى فيها آخرون أنها تمثل مشروعاً سياسياً تبنته المؤسسة السلطانية[495] أو أنها تمثل الثقافة السياسية في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، ويمكن دمجها ضمن ما يسميه الفرنسيون بتاريخ الأفكار السياسية[496] بدأت حلقة مهمة في تاريخ هذه الأفكار.

وعندئذ ذهبنا إلى أبعد من ذلك، حيث ننظر إليها على أنها تشكل قواعد أو مقومات لنظرية سياسية عربية إسلامية لها خصوصيتها الخاصة.

أريد أن أسلط الضوء في الأحكام والآداب السلطانية على محورين يتصلان بموضوع بحثنا أعني، التدبير السياسي، والجانب النصائحي المرتبط بالناحية السلوكية للسلطان أي بعض الجوانب من العوامل الخاصة التي يجب أن تحرك السلوك السلطاني.

التدبير السياسي هو السياسة العملية، والتنفيذية، إنه ممارسة السلطة، ولكي يكون الحديث هنا أكثر دقة إنه يهدف إلى تلمس كيفية إدارة الأزمات التي تقع عادة في دائرة

التدبير السياسي، وكذلك بعض التصورات الواردة في الأحكام والآداب السلطانية التي ترشد السلاطين لممارسة سلطتهم، وإلى تحسين تدبيرهم السياسي.

سنرى من خلال عينات مختارة لبعض مؤلفي الأحكام والآداب كيف تصور هؤلاء:

* **كيفية فض المنازعات، والمرجعية المعتمدة في الفض**:

قلنا سابقاً إن الشريعة الإسلامية ظلت طوال فترات الحياة الثقافية في التاريخ العربي الإسلامي مصدراً، ومرجعاً للأفكار في الأحكام والآداب السلطانية.

ورغم ابتعاد الخلفاء والأفراد والسلاطين عن الشريعة كمصدر للحاكمية الإلهية في الحكم إلا أنه على الصعيد النظري ظلت العلاقة وثيقة في فكر الكتاب السلطانية بين الدين والسياسة.

ومما يلفت الانتباه إلى أن هذه الكتابات جميعها، تجنبت الكتابة عن شرعية السلطات التي توالت على الحاكم طوال العهود، وظل هذا الجانب هو: المسكوت عنه في ثقافتنا السياسية، خوفاً من ردود فعل السلاطين.

يقوم بالتدبير السياسي، السلطان المتفرد بالسلطة، وكان الخليفة أو السلطان، ومنذ أن انقلبت الخلافة وأصبحت في يد الملك العضود مالك فرمان التدبير في أرجاء الإمبراطورية، وبالرغم من الضعف الذي أخذ يدب في أوصال بنية الخلافة أو القيادة العربية أي منذ بداية العصر العباسي الثاني، ظل الخليفة، وكرسي السلطان له شأن في صناعة القرار، أو على أقل تقدير ظل يصدر القرار باسم السلطان،زد على ذلك أن المخيال الشعبي، كان يتصور دائماً أن القرار يرتبط عادة باسم السلطان، ويغفل الخيال دور اللاعبين حول السلطان، والدافعين لإصدار هذا القرار أو ذاك، وبعبارة أخرى يميل المخيال الشعبي، ولا يزال حتى يومنا هذا إلى شخصنة السلطة.

إن خصائص النظام الخليفي، أو السلطاني، من طبيعة تكوينه الاستبدادي أن لا يسمح بإبداء وجهات نظر معارضة، أو مخالفة أو مناقضة، ولا يؤيد تدخل وجهات نظر معارضه، وحين يريد في لحظة ما استشارة أحد، فهو يستدعي من يراه مناسباً لإبداء الرأي.

فالتدبير السياسي في كل كلياته، وجزيئاته هو من شأن الحاكم الفرد.

عمل كتاب الأدبيات السلطانية على تبرير القهر السلطاني لتفادي الفتن، والاضطرابات والعصيان، وقد استمر إشعار الرعية بالخوف وتبرير استبدادية السلطة طوال مراحل التاريخ السياسي العربي الإسلامي، من الملك الأموي إلى العباسي إلى سلطانية في هذه الدول، وأسرها الحاكمة واحدة حكم استبدادي قاهر، وتدبير سلطاني يعكس أبدية الحكام، ورعايتهم لأبناء الرعية، ومن ثم الدفاع عن أخلاق الطاعة [497].

فالخليفة أو السلطان يمسك بزمام الأمور المتعلقة بالحكم، والتعامل مع المعارضين أو المعارضين لتدبيره بأسلوبه السلطاني وكانت الكتابات السلطانية تتفهم الأساليب السلطانية بذريعة حماية الأمة من الفتنة أو الفساد.

وليس من الصعوبة بمكان أن نتصور كيف أن الخليفة أو السلطان، أو الملك الذي يحكم بفرديته أن يمارس تدبيره السياسي مع من يعارضه بأساليب يتوقعها القارئ من قبيل القمع وعدم السعي لإيجاد أرضية مشتركة بين الطرفين ورفض التعايش.

والمواجهة، والواقع أن أسلوب الحاكم الفرد في تعامله مع المعارضة، هو واحد في طبيعته، وقد تجلى في ظاهرة ما يسمى بالطغيان، والاستبداد، أو الدكتاتورية، وقدتمثلت هذه الظاهرة السياسية في مختلف مراحل التاريخ الإنساني السياسي وتتجلى هذه الظاهرة حتى يومنا هذا بطريقة مباشرة وغير مباشرة. والتاريخ السياسي العالمي عامر بأسماء دكتاتورين حكموا شعوبهم، ومارسوا أعنف الأساليب في معاملتهم مع معارضيهم. أو إدارة الأزمة معهم بالقوة والعنف، أما بالنسبة لكتابنا في الأدبيات السلطانية فقد كانوا يستأنسون بالأدبيات السياسية القديمة.

والواقع لم يخل التاريخ البيزنطي أو الفارسي أو اليوناني أو العصور الوسطى الأوروبية أو تاريخ العصور الحديثة من وجود هذه الظاهرة: الانفراد، والتفرد بالسلطة.

فالحاكم الفرد، يدبر الشؤون كافة في بلاده وهنالك خيط رفيع يفصل بين الحاكم العادل والحاكم المستبد بين الخاضع لقواعد الدستور والقانون، وبين المتسلط والطاغية[498].

أبو الحسن الماوردي (364 – 450هـ-)

كان عصر (الماوردي) مضطرباً أيما اضطراب، ومسرحاً للفتن والقلاقل، والثورات

والدسائس من الداخل والخارج، وكان خلفاء بني العباس على درجة من الضعف، والوهن، وخور العزيمة بحيث أصبحوا أدوات مسخرة في أيدي الأتراك والديلم.

ولقد شهد (الماوردي) فتنة (البرامكة) ومذبحتهم الكبرى، واشتداد نفوذ العناصر الأجنبية وقيام الدولة الحمدانية في (حلب)، ومملكة الفاطميين في (مصر)، وحكم المنصور ابن أبي عامر في (الأندلس).

وكان يرافق هذه الفوضى السياسية في الوقت نفسه عصر من أخصب العصور العربية الإسلامية في الإنتاج الفكري، وفي العلوم الآداب [(499)] ويبدو أن الوهن ، والضعف اللذين أصابا الحياة السياسية واللذين كانا متغلغلين في القصور، وفي عقول الخلفاء، وسلوكهم، لم يكن لهما أثر يذكر في النشاط الحضاري، وكان إشعاع هذا النشاط تأخذ أنواره دروباً مستقلة، تنيرها لذاتها، غير عابئة بالشوارع المظلمة المجاورة لها.

كانت الحياة السياسية إذن مشحونة بالأزمات والتوترات، والفتن، والصراعات.

كان (الماوردي) شاهداً على كل ذلك وكان قاضياً، كتب مجموعة كبيرة من المؤلفات الفقهية وأغلبها يدور حول الفقه والسياسة، ولقد أراد أن يضع دليل عمل، ومرجعاً للخليفة، والحاكم والوالي، يرجعون إليه، ويهتدون في حكمهم لدولهم، وإماراتهم، وإدارة تدبير شؤون رعيتهم، فوضع كتابه الشهير: (الأحكام السلطانية).

ما يهمنا أولاً في تفكير (الماوردي) هو عدم فصله بين الدين والسياسة، وثانياً نظراته إلى الحاكم كفرد وكحاكم مطلق، وكذلك الشروط التي تنعقد فيها الإمامة هي من وجهتين:

أحدهما: باختيار أهل الحل، والعقد.

والثاني: بعهد الإمام من قبل [(501)]

يؤيد (الماوردي) وجود الخليفة أو القيادة رغم كونها مؤسسة ضرورية إلا أنه يتجه، وبوضوح تام إلى تأكيد ضرورة وجود الحاكم الفرد، وأن نظرية القيادة الفردية كانت مقبولة لدى جميع كتاب والخطابات السلطانية وأدبياتها كبديهة، أو ضرورة أو كمسلمة، لأنه في ذلك الإطار التاريخي لم يكن المخيال الخاص (لدى الطبقة الخاصة)، ولا المخيال الشعبي يتصوران وجود ما يسمى بالمشاركة في السلطة وبين المعارضة أو التيارات

المطالبة بالمشاركة، وهذا الوضع القائم على تخليه للمكان بكامله للحاكم الفرد، يترك الباب مفتوحاً أمام الأزمات السياسية كذلك فإن لكتاب الخطابات السلطانية، مع قبولهم مبدأ سلطة الحاكم الفرد، وتبريرهم لسلوكه السياسي فهم يشاركون السلطة الفردية في (أيديولوجيا) وفتح نوافذ وأبواب إضافية في المجتمع للأزمات السياسية في المجتمع.

ومع ذلك ف- (الماوردي) يضع الشروط للأزمة للحاكم، كي يحكم بمقتضيات السياسة الشرعية لأن الماوردي هو قاضي وفقيه.

أما بالنسبة لما هو مسكوت عنه في كتابات (الماوردي) حول الأحكام السلطانية، فهو، وكما أشرنا سابقاً عرض رأيه في لا شرعية الحاكم، لأن الماوردي عندما يربط بين الدين والسياسة منذ البداية في كتاباته ففي ذهنه أن الحاكم يجب أن يحكم،بما أنزل الله، وأن يخضع سلطته للحاكمية كمرجعية، وكان يدرك أن هذه المرجعية أصبحت بعيدة عن فكر، وسلوك خلفاء عصره.

إن عبارة الماوردي في ربط الدين بالسياسة تقول ما يلي: تجمع الزعامة الدينية، والزعامة السياسية الدنيوية، ووجب عنده إقامة إمام يكون سلطان الوقت، زعيم الأمة ليكون الدين محروساً بسلطان السلطان، وجارياً على سنن الدين، وأحكامه [502]، وكأنه يريد أن يقول إن الخليفة القائم في زمانه لا لا يجري على سنن الدين وأحكامه، أي أنه بعبارة لم تذكر صراحة، فاقد الشرعية ويقال أن (الماوردي) كان قد أوصى بنشر كتابه بعد موته، ورغم أن له كتابات أخرى كانت تتموضع في إطار السلطة القائمة وتبين تفهمه للواقع القائم.

ويمكن لنا أن نستنتج من فكرة الماوردي بأن السلطة الفاقدة الشرعية، لا شرعية لتدبيرها السياسي، ولا شرعية لمواجهتها للمعترضين، كما أنه يمكن القول بأنه إذا كان للمعترضين دور فهم في الوقت ذاته لا يطبقون: السياسة الشرعية لذا اعتراضهم بدوره فاقد الشرعية، من وجهة نظر: السياسة الشرعية الإسلامية.

وأخيراً إن ما نلاحظه في أدبيات (الماوردي) هو هيمنة الجانب الأخلاقي في السياسة، وربما جاء هذا التركيز لكون كتاب الأدبيات والأحكام السلطانية عموماً، والماوردي أحد كبارهم كانوا شهوداً على الفساد الأخلاقي، والانحرافات السلوكية،

للخلفاء، وكون هؤلاء يعيشون فساداً أخلاقياً مدمراً لحياة الأمة، لأن الأمة تجد قدوتها في السلطان، وفي قياداتها، فهؤلاء يعملون من حيث يعلمون أو لا يعلمون على إفساد كل شيء وقد رأينا كيف أن الحياة السياسية، وتحديداً منذ بداية العصر العباسي الثاني بدأت تنحط انحطاطاً مريعاً، تحت تأثير عوامل عدة عامة، وخاصة.

لقد انطلق (الماوردي) كما انطلق غيره من كتاب النصائح بتوجيه النصائح للملوك، والخلفاء، وذلك لسبب بسيط هو أننا نذهب عادة لنوجه فرد ما، سلوكياً، لأننا نلاحظ أن سلوكه أصبح منحرفاً، وهذا ما يقوله الناس جميعاً، فالخلفاء عندما بدأ الفساد يدب في سلوكهم السياسي انبرى الكتاب يحاولون إعادة الدفة إلى وجهتها الصحيحة كي لا يغرق المركب، وكان هؤلاء يتحملون على مضض غضب السلطان، وطغيانه، وحاكميته الفردية، ولكن بشرط أن لا يعوج في سلوكه وأخلاقه لأن لذلك الإعوجاج، والانحراف آثار خطيرة على حياة الرعية.

2ـ ابــن طباطبــا (661 – 709هـ–): الفخري في الآداب السلطانية والسياسات المملوكية[503].

يفتتح ابن طباطبا كتابه (الفخري) بمبدأ عبر عنه حول موضوع: كثرة الرؤساء تفسد السياسة يقول: أمران جليلان لا يصلح أحدهما إلا بالتفرد والاستبداد، ولا يصلح الآخر إلا بالاشتراك فأما الذي لا يصلح إلا بالانفراد فالملك، ومتى وقع فيه الاشتراك وثق فيه الصواب[504].

في القول السابق تبرير (منطقي) لوحدانية الحاكم، ورفض فكرة: التعددية في الرؤساء، والواقع أن انفراد الرئاسة في الرئيس الواحد متجسد في واقع الحياة السياسية في كل مكان، وفي كل الأزمان وأن الرئيس يجب أن يكون واحداً، ولكن دون أن يعني أنه الواحد في التدبير وكونه المرجع الوحيد للقرار، ولا تنفي وحدانية الرئيس مع وجود المرجعية الشرعية، أو الدستور بالمدني، التي يجب أن ينفذها، أو يخضع لها الرئيس أو الملك.

كذلك يرى ابن طباطبا في (الفخري) أن الملك يجب أن لا يستبد برأي، وأن يشاور في الملمات (الأزمات) خواص الناس، وعقلائهم[505] وهذا القول لا يناقض مقولة (ابن طباطبا) في دعمه لوجود رئيس أو ملك واحد، لا يشاركه في الرئاسة أحد، لأن الواحد

عليه أن يشاور في إدارته للأزمات (الملمات) أهل الرأي، والاختصاص، والعقلاء، أي فئة المثقفين والمفكرين.

إن موضوع كتاب (الفخري) كما يحدده (ابن طباطبا) هو: السياسات والآداب التي ينتفع بها في الحوادث الواقعة، والوقائع الحادثة[506].

هذا يعني أن (ابن طباطبا) يهتم منذ بداية انطلاق تفكيره في العمل السياسي بالوقائع، الواقعة، والتي تتضمن آليات حدوث أزمات، ولذلك فهو معنى أي المؤلف بوضع إرشادات أسلوبية للتعامل مع الوقائع، الواقعة، كي يهتدي بها السلطان.

إن السياسات عند (ابن طباطبا) هي خمسة: سياسة المنزل والقرية والمدينة، والجيش، والملك[507] وسيتوسع (ابن طباطبا) في نمطين من التدبير السياسي: التدبير العسكري، وهو يهدف إعداد الجيوش لصد العدوان، والمواجهة والتدبير المالي، أي تأمين الموارد المالية، لحسن التدبير، العام شؤون الدولة والخاص، لمواجهة الأزمات وإدارتها.

3- الإمام أبو حامد الغزالي (1058 – 1111م):

شخصية الغزالي الفكرية مزيج غريب، وعجيب وخارق، ومبدع فهو:

أولاً: الغزالي الناقد العنيف، المهدم والساخر، والساعي نحو إيجاد مختلف نقاط الضعف والتناقضات لدى الفلاسفة في الإسلام، أولئك الذين استنسخوا أفكار الفلسفات اليونانية أو الهيلينية وظهر هذا الموقف في كتابه (تهافت الفلاسفة).

ثانياً: الغزالي الفقيه وعالم الدين الموسوعي الوثوقي المطلق في الدين، والمتجه نحو تدعيم الإيمان دون أن تعوزه في هذه النقطة الحقيقية العقلية للسير في (القسطاط المستقيم) وهو الشاك، والباحث من اليقين العقلي، ثم الروحي، والاتجاه نحو الانفتاح على عالم الروح في كتابه، وقصة عزلته الروحية في (المنقذ من الضلال).

ثالثاً: الغزالي التقليدي، والسني، والشيخ العظيم، والحريص على إحياء علوم الدين، وإعطائها حيوية جديدة، إنه حجة الإسلام في (إحياء علوم الدين)[508].

أخيراً: الغزالي الموجه السياسي في نظراته، التي لا تخلو من أهمية، خاصة عند تأكيده على دور الشورى في السياسة، وانتهاج سبيل الحكمة في التدبير السياسي، ومن هذه النقطة الأخيرة سننطلق في نظرنا إلى تفكير الغزالي السياسي.

عاش الغزالي مرحلة سيطرة (السلاجقة) على السلطة الخليفية، وتسلمهم زمام الأمور القيادية في الخلافة الإسلامية، وكذلك تعاظم نفوذ العسكر من ذوي الأصول التركية وشهد أولى الحملات الصليبية.

يقول: (الغزالي): السياسة هي أشرف العلوم، والشرف موضوعها، وأما وظائف السياسة كما يرى فهي تربية المواطن الصالح، وتكوينه نفسياً على عين القيم، والمعاني الأخلاقية تكلم الإمام عن أهمية الدولة، ورأى أن الدولة بسلطانها القاهر، شرط أساسي لبقاء النوع الإنساني، أو البشر يقول: لولا وجود الدولة وسلطانها القاهر، ولم يكن رأي مطاع بجمع شتاتهم، ليهلكوا عند آخرهم، وهذا داء لا علاج له إلا بسلطان قاهرة مطاع، يجمع شتات الآراء[509].

هكذا علينا أن لا ندع الناس يعيشون في فوض لا ناظم لهم، ولأنهم لو فقدوا هذا الناظم (الدولة) لنهشوا بعضهم بعضاً وأكل الأخ لحم أخيه ميتاً، ولابد إذن من سلطان يضبط مسالكهم.

ويرى (الغزالي) أن الدولة عليها أن تهتم بمصالح الفرد، والجماعة، وأما مسألة القيادة وهي أساس مشروع الولاية العامة، فالأمة صاحبة السيادة الحقيقة[510].

هذا كلام جديد، ولا شك، وقد يكون للمرة الأولى في تاريخنا السياسي أن يظهر فيها دور (الأمة) في السيادة.

ويؤكد (الغزالي) تكملة لفكرته حول دور الشعب والأمة، على دور آخر منبثق من الأمة ولها مرجعيتها الشرعية ألا وهي فكرة الشورى، ودورها في العمل السياسي أو التدبير السياسي، ومن هنا يمكننا أن نستنبط أفكاراً أخرى حول: تدبير الأمور سواء كانت أموراً طبيعية، عادية أو حالات أزموية تقتضي معالجتها، ولكن من خلال الشور، ومعلوم أن الشورى نزل فيها نص قرآني كريم، وهي قاعدة شرعية.

كسائر الفقهاء المسلمين، يولي (الغزالي) أهمية خاصة لمبدأ الشورى في العمل السياسي العام ولكنه لا يعطيها الدور الكبير في عملية الحكم وبمعنى آخر إن يميل كباقي المفكرين السياسيين العرب المسلمين في التاريخ السياسي إلى تأييده أو دعمه لمبدأ التفرد في السلطة أو الفردية وتنصيب الحاكم أو الخليفة الفرد، والواحد.

ونلتقط عند (الغزالي) فكرة أيضاً بدورها لا تخلو من جده في عملية الحكم، إنها الكفاية، والتي تقوم عنده على ركنين: الفكر والتدبير، والاستضاءة أو استطلاع الرأي عن طريق المشورة[511] ويناقش الغزالي مفصلاً مسألة الشورى في كتاب له بعنوان (فضائح الباطنية)(512)، حين يتساءل فيما إذا كانت الشورى واجبة أم مندوبة، وفيما إذا كانت نتيجة الاستشارة وإن حدثت فهي ملزمة، أو غير ملزمة، يقول الإمام، أما الركن الثاني، وهو: الاستضاءة بخاطر ذوي البصائر، واستطلاع أولى التجارب عن طريق المشاورة، وهي الخصلة التي أمر الله بها نبيه إذ قال: >وشاورهم في الأمر<، وشرط هذا الركن أن يكون المستشير مميزاً بين المراتب، عارفاً للمناصب، معولاً على رأي يوثق بدهائه، وكفايته بالرأي، وإن كان من ذوي البصائر مذموم[513].

واضح أن الشورى كما يقول الدكتور (الخضرا) جزء من مهام إدارة الأمور، ولكن ليس لها صفة مؤسسية من صفات الحكم[514].

ولا يخرج (الغزالي) عن الخط العام الذي رسمه السابقون في التفكير السياسي وهو إجماعهم على تأييد الحكم السلطاني المفرد، والقبول بفردية الحكم، تحت إمرة سلطان قاهر، وقادر على تدبير الأمور، ومواجهة الصعاب بمفرده كقائد الأمة، وحل الأزمات التي تعترضها ومواجهة الأعداء، دون أن يمنع ذلك اللجوء إلى الاستشارة بأصحاب الرأي والحكمة ولكن يظل دور هؤلاء دوراً استشارياً، وليسوا هم بأصحاب القرار.

والغزالي باعتباره فقيها، وحجة الإسلام فهو لا ينسى أن يحدد مرجعية الحكم بالرغم من قناعته بفردية السلطة ولكن يجب أن تتحدد هذه الفردية بالمرجعية الشرعية.

5ـ شيخ الإسلام ابن تيمية (728 – 1328م):

إن مسألة تدبير الأمور عند الشيخ تظهر في كتاباته من خلال توليه مبدأ الشورى

الأهمية المناطة لها، واعتباره منذ البداية في كتاباته السياسية أن الاستبداد في الرأي، هو انحراف عن الشورى، حيث يؤكد دورها ولزومها في بنية الحكم، وتلقى الشورى عناية خاصة في تفكير (ابن تيمية) السياسي ونظراً لورود نص فيها يقول الشيخ في كتابه (السياسية الشرعية) وبداية من الصفحات الأولى: لا غنى لولي الأمر عن المشاورة، فإن الله تعالى أمر بها نبيه فقال: فاعف عنهم واستغفر لهم، وشاورهم في الأمر، فإذا عزمت فتوكل على الله، إن الله يحب المتوكلين[515]، (159 آل عمران) ويتابع الشيخ قوله، وروى عن أبي هريرة رضي الله عنه قوله لم يكن أحد أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله ﷺ.

ويعلق (ابن تيمية) قائلاً: وقد قيل إن الله أمر بها نبيه لتأليف قلوب أصحابه، وليقتدي به من بعده، وليستخرج منهم الرأي فيما لم ينزل فيه وحي في أمور مثل: أمراء الحروب والمنازعات، والأمصار وبناء على قوله تعالى: {فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله ولرسوله، إن كنتم تؤمنون بالله، واليوم الآخر، ذلك خير، وأحسن تأويلاً وكذلك في الأمور الجزئية أو غير ذلك}[516].

أي المور الطارئة في المحن، في الأزمات في النكبات والمصائب، والمنازعات...إلخ وفي هذه الجزئيات التي لا تجد لها مرجعية مباشرة في النص، ولا في السنة، على الحاكم أو من يتولى إدارة هذه الأمور اللجوء إلى الاستشارة، والأخذ بعين الاعتبار آراء أهل الرأي، والحكمة.

القيادة السياسية عند ابن تيمية:

القيادة عند (ابن تيمية) أمانة، ومن خان الأمانة فقد خان الله، ورسوله يقول في كتابه المذكور: هذه رسالة مختصرة في جوامع السياسة الإلهية، والإنابة الإلهية، لا يستغني عنها الراعي والرعية ويذهب الشيخ في قوله هذا منطلقاً من الآية القرآنية: {إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها، وإذا حكمتم بين الناس، أن تحكموا بالعدل}[النساء: 58]، ولقد نزلت الآية في: ولاة الأمور، أي أن عليهم أن يؤدوا الأمانات إلى أهلها، ونزلت الثانية في الجيوش وغيرهم أي أن يطيعوا أولى الأمر الفاعلين لذلك[517].

استعمال الأصلح:

قال النبي (ص) من ولي أمر المسلمين شيئاً فولى رجلا، وهو يجد من أصلح للمسلمين، فقد خان الله، ورسوله، وفي رواية أخرى من قلد رجلاً عملاً على عصابة لمودة، فقد خان الله ورسوله، وقال (عمر بن الخطاب): من ولي من أمر المسلمين شيئاً، فولى رجلاً لمودة بينهما، فقد خان الله ورسوله والمسلمين[518].

ويمكننا أن نضع أكثر من خط تحت كلمة مودة الواردة في القول أعلاه، وتشير إلى أن الشيخ ينبه الرعية إلى أن على القيادة مسؤولية كبرى وعظيمة في تقليد الرجل مركز القيادة، أو تقليد أي شخص في موقع مسؤولية مهمة يجب أن ننزع من موقفنا هذه (البطانة الوجدانية): المودة التي قد نحملها لزيد أو عمرو، فالمسألة ليست مسألة محبة، وهوى، أو إعجاب إنها: موقف شرعي وعقلي والتوازن بينهما في مسألة: المسؤولية، وما دون ذلك من مواقف عاطفية تنأى بنا من الشرع، والعقل لأننا في اتخاذنا مثل هذه المواقف الوجدانية نخون الله والرسول.

وهذه المقالة موجهة إلى الرعية أكثر منها إلى القيادات، فالرعية (الشعب) أو (الأمة) تتحمل المسؤولية الكاملة في خياراتها: الشرعية – العقلية للحاكم، وللراعي، وليس عبثاً أن يعنون الشيخ كتابه ب–(السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية)، أي بعبارة ثانية إن على الطرفين أن لا يغفلا شرعية العمل السياسي وتدبيره حسب مقتضيات الشرع الإسلامي، ثم إن المؤدي للأمانة مع مخالفة هواه يثبه الله فيحفظه في أهله، وماله بعده، والمطيع لهواه يعاقبه الله ينقيض قصده فينزل أهله، ويذهب ماله[519]، قالوا ولاية لأمانة، واختيار الأمثل، فالأمثل[520].

فالوالي راع للناس كراعي الغنم والسلطان ظل الله في الأرض، وستون سنة من إمام جائر أصلح من ليلة بلا سلطان.

يوصف الشيخ بأبي السلفية الإسلامية بدءاً من الحركة الوهابية في الجزيرة العربية وانتهاء بالحركات الإسلامية السلفية المعاصرة، ونستغرب قوله: السلطان ظل الله في الأرض، ذلك وحسب منطق ابن تيمية الإسلامي، لا تتفق هذه العبارة، إلا إذا فهمت بأن السلطان رغم كونه واحداً في الحكم كما أيد (ابن تيمية) هو الموقف، ولكن يجب أن

يكون مكلفاً بتنفيذ وتطبيق شريعة الله، وإذا فهمت العبارة على أن السلطان ظل الله، بتقريبها من فكرة المماثلة بين الأصل، والظل، فهذا مالا نظنه في الرجل.

إن ابن تيمية في خلاصة منهجه الفكري يحاول أن يوفق بين: صحيح المنقول (النقل) وصريح المعقول، (العقل) أي أن العقل يجب أن يطابق في بنية التفكير النقل (النص) ويدرأ أخيراً تعارض العقل والنقل[521].

5- بدر الدين بن جماعة (1241 - 1333م):

شيخ وفقيه شافعي كبير، وقاضي بارز، شيخ الإسلام ولد في حماة (سورية)، وتوفي في القاهرة له من الكتب المتصلة بموضوع: التدبير السياسي كتاب (تحرير الأحكام في تدبير أهل الإسلام) يتكلم فيه عن: القيادة، والإمامة ويصنفها إلى: إمامة اختيارية، وإمامة قهرية ويحدد (بن جماعة) للإمام ثلاثة صلاحيات:

1- تفويض ولاية كل إقليم، أو بلد أو ناحية، أو عمل، ويجب أن يكون كفؤاً للقيام بالمهمات.

2- تقليد الوزارة.

3- اتخاذ (يقين) الأمراء لجهاد الأعداء.

أما حقوق الإمام أو الخليفة فهي في نظره عشرة:

1- الطاعة ظاهراً وباطناً في كل ما يأمر به وينهي عنه إلا في معصية.

2- تقديم النصيحة له.

3- نصرته، وتأييده.

4- تعظيم قدره، والاعتراف بحقه في الإمامة.

5- تنبيهه وإرشاده عند هفوته.

6- تحذيره من أعدائه أو حساده.

7- إعلامه بسير ولايته، عماله، أحوالهم، وأمورهم.

8- إعانته، ومساعدته قدر الإمكان.

9- رد القلوب النافرة، والذود عن ساحته قولاً، وفعلاً سراً وعلانية.

ويضيف قائلاً إن القيادة الاختيارية خير من القهرية، ولا يعارض عقد البيعة للقائد القاهر الذي يصل إلى الإمامة والقيادة بالقوة، أو بقوة شوكته وجنده، حتى لو كان جاهلاً، فاسقاً، بشرط الحفاظ على مصلحة المسلمين، وجمع كلمتهم[522].

ويرى في مقابل حقوق الإمام أن للرعية حقوقها على الإمام، وهي عشرة أيضاً[523].

ينظر الفقيه (ابن جماعة) إلى الإمام على أنه إنسان، قبل أن يكون ؟؟؟، وهو معرض لاستيلاء الشهوات والنزوات وإلى توفر نقاط ضعف في شخصه، مع ذلك ورغم تعرض القائد للسقوط في حبائل الشيطان لابد من طاعته، و؟؟؟ هي الشرط الأول للرعية، وفي هذه النقطة يدور (ابن جماعة) داخل الحلقة نفسها التي تدور داخلها جميع كتاب الأدبيات السلطانية، وهي الطلب من الرعية الطاعة، للسلطان حتى ولو كان فاسقاً (غشوماً)... وابن جماعة من قلائل الكتاب للأدبيات والسياسة العرب استند إلى الشرعية الإسلامية في طلبه طاعة الخليفة وهي عنده مشروطة بعدم وقوع القائد في المعصية إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق هي القاعدة الذهبية في فقه السياسة العربية الإسلامية.

هنالك نقطتان:

الأولى: حقوق الإمام هي تقديم النصيحة للقائد، وهذا التقليد في نصائح الملوك، وهو من أهم محاور الأدبيات السياسية والأحكام والآداب السلطانية كما مر معنا ونعتقد أن هذه النقطة تقابل في عصرنا الحديث وجود المستشارين إلى جانب القائد وهؤلاء دورهم إبداء الرأي ووجهات النظر بناء على امتلاكهم ناحية المعرفة والخبرة والبصيرة وهذه المشورات والآراء، ووجهات النظر تقابل ما يعرف في أدبياتنا السياسية بالنصائح ويوجد فرق بسيط، بين (النصائح) و(المشورات التي يقدمها المستشارون المعاصرون) وهو أن الأولى تركز على الجانب الأخلاقي، بينما الثانية تركز على الجانب الفني والمعرفي والخبرة الداعمة لوجهات النظر.

وكلما كبر حجم التركيز على القائد الفرد، كلما كانت الحاجة إلى المستشارين نظراً لكون هذا القائد الفرد، خاضعاً في فرديته للتعرض إلى الخطأ وأن إمكان الخطأ في الحكم الفردي أكبر بكثير من إمكانه في الحكم الديمقراطي حيث تشارك في الحكم المؤسسات المدنية.

والثانية: في نظرة (ابن جماعة) إلى الإمامة بأنها حاجة: سياسية دينية، أي إن كاتبنا يدخل عنصراً جديداً في التفكير السياسي لكتاب الأدبيات السلطانية، وقد لا تجدها عند غيره أقصد ما يتصل بالظروف المستجدة والتي تقضي بتغير طريقة تولية القيادة، حسب الظروف وتطور الأوضاع، فالأحق بالخلافة، وهو العلم، والأشجع، ذلك أن مواجهة الأزمات وإدارتها تتطلبان جانباً (الأعلم) معرفياً واسعاً، وكذلك الشجاعة، ويبدو أن (ابن جماعة) يضع الشجاعة ويقدمها على المعرفة، لأن مواجهة الأزمات الاجتماعية داخل المجتمع، كظهور أزمة أو انحرافات ما، فذلك يقتضي توفر العلم أو المعرفة، وفي ظروف انعدام الأمن يجب تقديم الشجاعة[525].

والخلاصة: إن طبيعة الأزمة شكلها ومضمونها هما اللذان يحددان طبيعة أسلوب مواجهتها وإدارتها فيها وتكون كل هذه الخطوات متوافقة مع الظروف المستجدة.

القسم الخامس

الفصل الحادي عشر
التجليات الحديثة والمعاصرة في إدارة القيادة السياسية للأزمات
(1)

مقدمة:

أولاً: التجليات الحديثة...

بدأت القيادة السياسية العربية تتراجع أمام التدخل أو النفوذ التركي كما ذكرنا منذ أيام الخليفة (المعتصم) واستمرت التدخلات غير العربية في الدولة الخليفية العربية الإسلامية عبر البويهية، والسلجوقيين، والمماليك، والأتراك، والمغول، وحيث بدأت مرحلة انحدار الحضارة العربية الإسلامية، وخاصة في مضمونها السياسي، حيث سقطت بغداد (1258م) على يد المغول، والتتار، وظهرت على أنقاض الحضارة العربية الإسلامية الإمبراطورية العثمانية، وقد أتاح هذا الغزو المغولي الفرصة كاملة للعنصر العسكري من السيطرة على الحياة السياسية منذ ذلك الحين[526] وربما نجد الأمر طبيعياً في نهضة، وازدهار، وسقوط الإمبراطوريات، إذا أخذنا بنظرية (ابن خلدون).

ولقد تخللت هذا الانحدار البطيء الحروب الصليبية، وتسجيل (صلاح الدين) بعض الانتصارات فيها.

ولقد كان للمغول طموحاتهم عند مجيئهم إلى بغداد بقيادة (جنكيزخان) الاقتصادية، التجارية، والعسكرية خاصة إذا تذكرنا أن التركيز كان قد بدأ منذ ذلك الحين على استثمار طريق ما سمي بطريق (الحرير) وحل في تلك المرحلة ما يمكن أن ندعوه بالزمن المغولي، وعاش المسلمون في كافة أنحاء الإمبراطورية الإسلامية: صدمة المغول الكبرى[527].

لقد حلت السيطرة العثمانية، وكانت الإمبراطورية ذات طابع عسكري (سياسياً)، وزراعي رعوي – (اقتصادياً)، حيث سادت البداوة الرعوية التركية التي لم تكن ذات طابع حضاري[528] وحلت السيطرة العثمانية في الوطن العربي خاصة تحت المظلة الإسلامية.

المولد التركي:

وخلال فترة التحرك المغولي الطويلة والصعبة التي حلت محل تركيا الأولى (السلجوقية)، ولدت تركيا جديدة، هي تركيا الأتراك ا لحقيقيين، الذين جأوا من الأناضول[529].

أصبحت الأزمتان: الغزو المغولي، ثم السيطرة التركية في الوطن العربي، وتأثيراتهما على الضمير الإسلامي، كارثيين، وتحطمت نتيجة ذلك طاقات الأمة، وأصبحت الأمة تعيش بلا خلافة.

أعقب ذلك عصر المماليك في (مصر) خاصة الذين كانوا في البداية عبيداً، واعتقوا ثم تم تتويجهم، فمنهم: (الظاهر بيبرس 658هـ – – 1260م) و(قلاوون 678هـ – – 1879م) و(الناصر الأول 691هـ – – 1299م)،، وساد النظام المملوكي في كل من مصر وسورية.

ثم تدخل مرحلة من أهم العصور الإسلامية غير العربية التي تمثل ذروة العالم التركي، حيث كان قد مهد له السلاجقة، ومن ثم المغول، وظل هذا الوضع جاثماً على بطن العالم العربي، أي من أول غارة لجنكيزخان على بلاد الإسلام في القرن الحادي عشر، وظلت هذه السيطرة تلقي بثقلها على الوطن العربي حتى القرن الثامن عشر، ولم يكن الإسلام كمظلة واقية، لجميع أنماط السيطرة غير العربية في الوطن العربي بعيداً عن هياكل السلطات المتتالية وحياة الشعوب.

كان (الباب العالي) في الإمبراطورية العثمانية هو صاحب القرار، والحسم في أية أزمة أو صراع في أرض الإمبراطورية، إنه يقع على رأس الهرم، والهيكل للإمبراطورية، والباب العالي نمط فردي تسلطي مطلق الإرادة، وكان الباب العالي روح الإمبراطورية، وسيدها المطلق الأوحد[530].

وعالم السلطان هو (السراي)، ويعيش فيه محاطاً بغلمانه، وعلى بعد خطوات منه الحريم الذي تعيش فيه أسرته والخدم الخاص، تحت إمرة وسلطة والدة السلطان الأم، إنه عالم لا حصر له ويصعب الدخول إليه بعيد عن أنظار العامة، وكان يعيش في بذخ فائق يثير إعجاب المدعوين، إنه عالم العظمة والكبرياء، والترف[531] (وهنا ندخل أيضاً

في مدى عيش الباب العالي، والسلاطين العثمانيين عموماً تحت تأثير أهم العوامل الخاصة التي ذكرنا في الفصل الرابع أعني: إيثار منع الحياة الدنيا).

يقول (أندريه ميكل)، ما زال المؤرخون يتساءلون، كيف لهذا البنيان الشامخ ولهذا التوسع الشامخ أن يضمحل، بحيث أصبحت الإمبراطورية العثمانية معروفة بذلك التعبير المشهود: (الرجل المريض)[531](مكرر) لقد حل الاستبداد التركي، وأدى ذلك إلى استيقاظ المقاومات الوطنية والقومية في بلاد الإسلام لاسيما في الوطن العربي، وبتعبير آخر أدت المواجهة مع الاستبداد، إلى استيقاظ الروح العربية بعد سبات طويل، ووجدت هذه الروح نفسها تواجه أزمة كيان، وهوية، ووجود، إنها أزمة عنصر عربي غائب عن الوجود، والحياة، ولو كان الأمر يظلله الإسلام، ولكن الأمر لم يكن في الدين، ولا في الإسلام، بل في: السلطة المستبدة الجاثمة على صدور العرب.

نابليون يدق بالقوة أبواب الشرق (توسع امبراطوري ،ومحاولة اكتشاف كنوز حضارته)

تغيرت موازين القوى في عالم ما بعد (عصر النهضة الأوروبي)، ذلك منذ بدايات القرن الخامس عشر وبدأ العالم العثماني، ومعه الوطن العربي يعلم من بعيد، ماذا حصل في العالم الأوروبي المجاور من نهضة في مختلف مجالات الحياة، وقد شملت النهضة، الاقتصاد، والسياسة والفكر والثقافة، والعلوم.

لقد ظلت أبواب الإمبراطورية العثمانية مغلقة، إزاء مجريات العالم المجاور، لا تتأثر بها إلا النخب في الإمبراطورية، وبينما الشعوب، ظلت تحت سيطرة السلاطين، واستمر هذا الوضع قروناً إلى أن وصلت إلى مسألة معالجة: انهيارات الإمبراطورية العثمانية، وظهور مشكلة حل أو علاج (الرجل المريض) صاحب الإمبراطورية العثمانية، وذلك بانتظار حلول قوى جديدة على الساحة العالمية، وكان ذلك منذ قيام الثورات (الأمريكية) و(الفرنسية) في القرن الثامن عشر.

لقد انتهى أمر الخلافة العثمانية، وظهرت كما قلنا على الساحة العالمية القوة الأوروبية، ذلك وقد دشنت الحملة الفرنسية على (مصر) و(الشام)، القوى الأوروبية المساعدة انطلاقاً من (فرنسا) ودخلت المنطقة عصراً جديداً من التدخل الأوروبي

والاختراق المباشر للغرب، وبتعبير آخر شهد الوطن العربي (الغرب السياسي) في أوج مطامع الإمبرايلية وتطبيق خطط إستراتيجياته للسيطرة على مقدرات المنطقة.

جاءت الحملة الفرنسية على مصر والشام لتضع حداً فاصلاً بين العالم العثماني، والعالم الحديث، ودخل نابليون بجيوشه، وعلمانه غازياً، وباحثاً في حضارة مصر القديمة – كما زعم إنه يحمل رسالة الرجل الأبيض التحضيرية، وحاملاً مبادئ الثورة الفرنسية في الحرية والإخاء والمساواة ولكن ومع ذلك كانت هذه الحملة أيضاً بدورها صدمة أخرى تلقاها أبناء الوطن العربي إذ انفتحت العيون على القوى العسكرية الحديثة، وانفتح الوعي أمام التقدم[532].

ولكن من الآثار الجانبية التي جهلها الإمبراطور الفرنسي أن العرب والمسلمين لم ينسوا جروح الماضي القابعة في اللاشعور الجمعي من جراء الحروب الصليبية، على الصعيدين السيكولوجي، والروحي لذلك قابل العرب منذ البداية المشروع الإمبراطوري، أو أنهم قابلوا هذه (الأزمة) بالرفض وأرادوا مقاومة الجيوش المسيحية الغازية التي تريد تنصير العالم الإسلامي، التبشير بحضارة مسيحية على حساب الحضارة العربية الإسلامية، لقد أدارت الشعوب الأزمة إذن بالرفض، والمقاومة.

الظاهرة الاستعمارية (1800 – 1914م)

العرب وبداية مواجهة الأزمة في الوجود، والهوية

قلنا منذ لحظة أن موازين القوى بدأت تتغير لصالح الغرب الأوروبي، وحلت مشكلة الرجل المريض أو المسألة الشرقية ووضع حد نهائي لسيطرة الإمبراطورية العثمانية، بقايا الدنيا القديمة، وكان قد سبق كل ذلك انسحاب العرب من المشهد العالمي إثر سقوط آخر معالم الحضارة العربية الإسلامي في المشرق العربي (العراق، وسقوط بغداد)، ولكن ظلت صورة ورسم العالم الذي رسمته الفتوحات الإسلامية منذ العهد المحمدي والراشدي والأموي، والعباسي هي هي (وسنتحدث عن هذه الحالة من الفتح الإسلامي)، في الصفحات القادمة.

ولكن ماذا حصل تاريخياً عند انسحاب العرب من المشهد العالمي بتأثير عوامل موضوعية، وذاتية (خاصة) كان لهذه الأخيرة التي ذكرنا في الفصل الرابع، كفة الرجحان في تأثيرها، والتي جعلت العرب وعلى رأسهم مشكلاتهم السياسية وطبيعة تكوين القيادات السياسية عبر القرون، والمسالك السياسية كل ذلك جعل هؤلاء يتخلون شيئاً فشيئاً عن رؤيتهم العالمية، ومن خلال ثنائية قائمة منذ العصر العباسي، بين العرب والعجم وسيطرة العجم، وتراجع العرب من ساحة الإمبراطورية التي بدؤوا هم ببنائها.

بدأ استيقاظ العالم الأوروبي، وأفاق من سبات عصوره الوسطى، وأخذ يشهد انهيارات الإمبراطورية العثمانية، وفي الوقت نفسه يتطلع إلى العالم لإعادة اكتشافه من قبله هو، ويسجل بداية مرحلة جديدة.

ومن روح الاكتشاف هذه، بدأت الظاهرة الاستعمارية (الأوروبية) تعلو على السطح مبتدئةبالعام 1492 عندما تحرك (كريستوفر كولومبس) واكتشف العالم الأمريكي العالم الجديد، وهو ما أيقظ بدوره الأوروبيين، وجعلهم ينظرون إلى دول العالم من حولهم، باحثين عن: مصادر الثروة وعن الموارد، والإمساك بخيوط التجارة والملاحة العالميتين، هذه الخيوط كان قد أمسك بها العرب في العصور الوسطى عندما سيطروا على البحار حولهم كافة ومن ثم حل محلهم العثمانيون في الإمساك بخيوط التجارة العالمية وجاء دور الأوروبيين الآن.

بدأت دولة اسمها (البرتغال) في بدايات القرن السادس عشر التحرك بأساطيلها في مختلف الاتجاهات البحرية فيما حولها، وما خلفها، ما وراء البحار بهدف القبض على القيادة في البر والبحر أي الإمساك بالتجارة العالمية، فاقتربت جيوشها من منطقة الخليج العربي نظراً لموقعه الجغرافي والإستراتيجي، وكذلك بهدف القضاء على السيطرة البريطانية البحرية الناشئة فتحركات البحرية البريطانية بدورها نحو أمريكا الشمالية، واستراليا، وجزر الكاريبي، ثم آسيا وأفريقيا والهند، والشرق الأوسط، وخاصة وطننا العربي، وسرعان ما لحق الفرنسيون إخوانهم البريطانيين ليأخذوا بنصيبهم من الدنيا، وبذلك يكون العالم قد بدأ العصر الأوروبي، في بداية القرن الثامن عشر الميلادي[533]، وبدأ العالم يعيش (حالة) أخرى أو بعبارة أعمق، بدأ العالم يعيش العصر الإمبريالي

الغربي[534]، وبعبارة ثالثة أخذ الغرب الإمبريالي يمسك بإدارة العالم، إنه مثل القيادة السياسية العالمية، كان العرب والمسلمون قد قدموا التنازلات أمام زحف القوى الأوروبية.

بدأت انتصارات البريطانيين، والفرنسيين شرقاً، وغرباً، لقد واجه العثمانيون، بلا شك هذه الطموحات الغربية في حينها، في شرقنا العربي، فأراد (محمد علي باشا) مثلاً أن يقاوم الزحف الإمبريالي، ويوقف تمدده لصالح الإمبراطورية العثمانية، ولكنه بدأ في عهد أو إدارة أزماته السياسية في الزمن الضائع إذ أن عجلة التاريخ كانت قد بدأت مسرعة نحو الوصول إلى القيادة العالمية، والإطاحة بالقوى الموجودة.

بدأت صورة جديدة ترتسم أمام العرب، هذه الصورة لم تغير الجغرافيا، التي كان العرب والمسلمون قد رسموها، ولكن القوة أو السلطة، والنفوذ، والقرار وإدارة دفة العالم، هي التي صعدت على يد غير العرب والمسلمين، ومنذ ذلك الحين، بدأ العالم يتحرك في هذا الإطار الجديد.

لقد عملت العوامل الموضوعية، والذاتية الخاصة عملها في إسقاط الإمبراطورية العثمانية كما المحنا سابقاً وبالتالي نشوء علاقات: العالم/الغرب أو ظهور ثنائية حادة بين الشرق/الغرب وعلاقات من نمط جديد، علاقة الغالب/المغلوب، التابع/المتبوع بلغة العلاقة (ابن خلدون)، حيث أصبحت قيادة العالم بيد قوتين عظيمتين في القرن التاسع عشر وحتى نهاية النصف الأول من القرن العشرين أعني بريطانيا/فرنسا، وسجل التاريخ العالمي انبثاق الظاهرة الاستعمارية.

كيف أخذ العرب خاصة الشعوب، تتعامل مع هذه الظاهرة!؟ وبمعنى يناسب مضمون هذا العمل، وهو كيف أخذت الشعوب العربية تدير أزماتها وصراعاتها مع الظاهرة الاستعمارية التي أحدثها الغرب السياسي؟

الفصل الثاني عشر
إدارة الشعوب العربية للمواجهة مع الإمبريالية الصاعدة ومعالجتها الظاهرة الاستعمارية

لمصطلح (الإمبريالية) دلالات عديدة، اقتصادية، وسياسية، وثقافية، ففي السياسة يعني القوة التي تراقب، وتشرف، وتدير بشكل مباشر أو غير مباشر قرارات الدولة التي تخضع لها أو تدور في فلكها، أو أنها تدير شؤون الحكومات الأخرى التي استطاعت السيطرة عليها ومن الناحية الاقتصادية تجعل الإمبريالية الدول الضعيفة التابعة لها في قراراتها الاقتصادية الكبرى كقرار التوسع في زراعة القطن، والحد من إنتاج النفط أو زيادته، أو غير ذلك من الموارد الأولية، أما الإمبريالية الثقافية، فهي أن الدول الضعيفة التابعة لها سياسياً واقتصادية تتبع لها في الأخذ، والتأثر، وتلقي اللغة، والثقافة فكراً، وأدباً وأخيراً الاقتداء بها من قبل الدول التابعة لها في أسلوب الحياة، Life Style[535]، وبكلمة مختصرة تسعى الإمبريالية إلى أن يكون لها مستعمرات تتبع لها[536].

في القرن التاسع عشر وعلى امتداده الزمني كانت السيادة شبه كاملة في العالم للإمبريالية، وذلك بعد التفوق التكنولوجي العسكري الذي امتلكه الغرب في حينه، وذلك بفعل التفوق في العلم، والفكر العلمي، وكذلك في العلوم الأخرى، والفكر الأدبي، الثقافي، وهذا كله مهد بطبيعة الحال إلى تفكير (الغرب السياسي) في التمدد خارج المساحات الإمبريالية.

عملت الإمبريالية منذ حينها إلى التطلع للسيطرة والهيمنة على المناطق الإستراتيجية في العالم، وتحقيق الأهداف الجيوبولتيكية، فنظرت فوراً إلى الأطراف القريبة من الغرب، فانطلقت بجيوشها للتدخل، وخلخلة كافة الأوضاع في البلاد العربية، ومنطقة الشرق الأوسط عموماً: سياسياً واقتصادياً وثقافياً[537].

واستطاعت هذه الإمبريالية، التغلغل، والدخول المباشر لاستعمار بلاد الوطن العربي، وتم لها النجاح، واستمر هذا النجاح طوال القرن التاسع عشر وإلى منتصف القرن العشرين.

وكانت أولى نتائج أو الآثار المباشرة لهذا الاستعمار هو الجانب السياسي أي بعبارة أوضح: التراجع الكامل، والانسحاب العربي من إدارة شؤون ومصائر مجتمعاته،

ومواطنيه، وأبنائه، وأصبح الأمر كله بيد القوى الإمبريالية، بحيث يمكن القول إن الوطن العربي واجه الصدمة الكبرى الثالثة[538]، ذلك إلى درجة القول مع أحد الباحثين العرب إن قارئ التاريخ السياسي العربي يدرك أن الأزمات السياسية العربية المعاصرة، والمتلاحقة التي يعانيها عرب اليوم ليست وليد الحاضر الراهن وحده وليست نتاج لحظاتها الآنية المنعزلة عن ذلك التاريخ، وإنما هي أعراض لتراكم واقع، موضوعي، طويل الأمد، تداخلت فيه عوامل المكان والزمان، والتكوين المجتمعي أو بكلمة أخرى عوالم الجغرافيا والتاريخ والتركيبة المجتمعية المتوارثة، والممتدة إلى عمق الحاضر المعاش في مختلف مظاهره وأعراضه التي يعانيها اليوم، وهذا هو الواقع الموضوعي[539]، نضيف إليه العوامل الخاصة.

إن إحدى التراكمات للواقع الموضوعي، وأهمها، في عصورنا الحديثة، هي هذه الحقبة الاستعمارية الإمبريالية التي نحن في صدد عرضها هنا:

مواجهة الأزمة مع الإمبريالية:

المقاومة[540]

يقاوم الإنسان بالفطرة ما يواجهه من صعوبات، ومشكلات وأزمات، ويواجه ما يهدد وجوده، وكيانه، وبقاءه، وكل ذلك يعكس نداء الحاجة الفطرية، بالمقاومة، والصراع ضد المعتدي إذا يصدر ذلك عن الطبيعة البشرية، والشعوب تدير أزمات التدخلات الأجنبية ضد وجودها، وحياتها بالمواجهة، وتدير الصراعات بالمقاومة.

لقد علمت العقيدة الإسلامي المسلمين أن يقابلوا الاعتداء بالدفاع عن النفس، والوجود ورد العدوان، وعندما جاءت الإمبراطورية غازية، وكان العرب قد حفظوا في ذاكرتهم وتاريخهم المقاومة ضد الحروب الصليبية، فكان الأمر طبيعياً أن تقود هذه الشعوب العربية المقاومة، وتديرها لأنها وعت منذ بداية التغلغل الإمبريالية أن هذا الاستعمار يجب أن يرتد إلى الوراء تحت أي شكل من الأشكال، ويجب أن يعود من حيث أتى، وعندما تصعد القيادات السياسية الوطنية لتواجه هذا العصر الإمبريالي فهي تصدر عن هذا الواقع الشعبي.

إذن لقد وجدت الشعوب العربية نفسها أمام كبرى الأزمات المهددة لوجودها، وعلى أرضها فعملت على إدارتها بنفسها، وبوعيها شعبياً، ونخبوياً – دينياً، سياسياً وبالمواجهة المباشرة، ولنر كيف تمت: إدارة هذه الأزمة (الغازية) من قبل القوى الخارجية.

السياق العام للإدارة الشعبية في الوطن العربي، مشرقه، ومغربه عند المواجهة مع الإمبريالية:

قلنا أن الذاكرة الشعبية للعرب والمسلمين حملت في طياتها مقاومة (صلاح الدين الأيوبي) للفرنجة، وتحقيقه الانتصار، واستعادة القدس من ايد الصليبيين، وتوفي في دمشق 589هـ– وسط التبجيل الشعبي الكبير، واستطاع قبل موته إعادة نمط من الوحدة السياسية لسورية، ومصر وجعل من البلدين قلعة السنية[541].

وبدأت الشعوب العربية بأساليبها في مواجهة الأزمة أولاً مع السلطنة العثمانية، وخاصة بعد أن بدأت سياسة هذه السلطة بنزع الهوية العربية من حياة الشعوب العربية وانتهاج سياسة (التتريك)، وزرع ما سمي آنذاك: القومية التركية في أرجاء السلطنة العثمانية، فكان طبيعياً أن يقاوم العرب هذا التوجه المنحرف قومياً وإسلامياً.

والواقع كانت المقاومة العربية الإسلامية في بداية السيطرة العثمانية ضعيفة لعدة أسباب، كما نعتقد: أولاً السبب السيكولوجي وهو الصدمة التي تلقتها الشعوب العربية والإسلامية من جراء الغزو المغولي التتاري وسقوط الخلافة في بغداد، وزوال الرمز السياسي للإمبراطورية الإسلامية إحدى مراكز القرار العالمي آنذاك والثاني أن الفاتحين العثمانيين جاؤوا يحملون المظلة الإسلامية، ولم يكن مجيئهم مستعمرين أو إمبرياليين والثالث الضعف المادي العسكري اللذين سادا أرجاء الإمبراطورية الإسلامية المهلهلة إثر فساد القيادات السياسية وسوء إدارتها للأمور والانقسامات التي دبت في أرجاء الإمبراطورية، وأخيراً الميول التي ظهرت على أيدي الأتراك وعسكرهم شيئاً فشيئاً، تجسد مطامحهم السياسية وبداية عملياتهم في اغتصاب السلطة من القيادة العربية السياسية منذ أيام الخليفة المعتصم.

يقول الأستاذ (طارق البشري) لقد حكمنا المساليك مئة وخمسين سنة لأنهم كانوا حراساً وحماة للأمن الجماعي في مواجهة المخاطر الخارجية لذلك العصر التي تجسدت

في وحكمنا العثمانيون نحو أربعمئة سنة لأنهم نجحوا على مدى قرون في أن يحموا المنطقة من مخاطر الخارج الآتية من الشرق الآسيوي، أو الغرب الأوروبي[542]، ولكن بدأت الأمور تتغير لصالح قوى الغرب بعد ذلك بوصول الإمبريالية لوطننا العربي.

في نهاية العصر العثماني، إذا بدأت الإمبراطورية العثمانية تخلع الثوب الإسلامي لصالح الأتركة وبدأت نغمات الدعوات التتريك القومية التركية والطورانية، وتأسيس الجمعيات التركية المتعصبة لتزيح ستار الدين، وتحمل محله أنماط فكر وأسلوب حياة تركيين، إضافة إلى ذلك أصبح التوجه نحو تفضيل الأمة التركية على الخلافة الإسلامية[543].

شعرت، وأدركت الشعوب العربية بهذه الاتجاهات (المتطرفة)، فأبدت مقاومتها، لأنها بدأت تدرك بأن هويتها الذاتية، عروبتها وحتى دينها بدأ يهتزان، وقد ظهرت اليقظة على مستوى المقاومة المباشرة لفئات من الشعب المتنورة والمناهضة للوضع العثماني الجديد، والمعارضة له على المستوى الثاني الثقافي، كالاحتجاجات ضد محاولات القضاء على (العربية)، وهو أمر لم يهادن المسلمون فيه لأنه يعني في نهاية الأمر تهديداً للغة القرآن الكريم.

شكل هذا الوعي المسبق، إذن، بداية وعي آخر، لإدارة المقاومة ضد الدخيل الجديد أي الإمبريالية الأوروبية.

جاءت الإمبريالية الأوروبية كما قلنا، غازية عسكرياً، واقتصادياً وسياسياً وكانت على معرفة ودراية شبه تامتين بالمنطقة عن طريق المعلومات التي أخذ ينقلها الرحالة الغربيون للوطن العربي منذ بدايات القرن الثامن عشر، وكتابات المستشرقين عن تراث وحضارات المنطقة، وما ترسله سفارات الدول الغربية في أرجاء الإمبراطورية العثمانية إلى الحكومات الغربية كله فصب ذلك في الجانب المعرفي، وقد تم توظيف هذه المعارف التي قدمتها (الإمبريالية الثقافية)[544] وكل إنتاجها من قبل القيادات السياسية في الإمبريالية السياسية القادمة.

صحيح أن الإمبريالية جاءت لتكشف، تأخر العرب والمسلمين عموماً من النواحي العسكرية وتقنياتها وفي التفكير العلمي والإنجازات العلمية والتكنولوجية، وكل ذلك انكشف إثر الطلقات العنيفة لمدافع (نابليون) الذي جاء غازياً لمصر والشام كما قلنا،

وظهور المقاومة ضد مجيئه غازياً، بالرغم من المظلة التحضيرية التي زعم أنه حاملها، لأن الشعوب أدركت أنه أجنبي جاء غازياً هذا كل ما في الأمر.

ثم اقتربت الإمبريالية البريطانية نحو (مصر) وعملت على الدخول المباشر فكانت مقاومة (أحمد عرابي) 1882م.

لقد أدارت القيادة السياسية حينذاك أزمة التدخل الأجنبي بإجراء (محمد علي باشا):

1- الإدارة للأزمة عسكرياً.

2- إجراء الإصلاحات، وإرسال البعثات العلمية للوقوف على التقدم العلمي والتكنولوجي للإمبريالية وتحولت إدارة الأزمة من مصر إلى سورية ولبنان منذ منتصف القرن التاسع عشر، والانطلاق في هذه المرحلة نحو مرحلة سميت مرحلة: النهضة العربية، وتلك كانت القمة في وعي إدارة الأزمة – ثقافياً – ضد الإمبريالية الغربية.

أما في الجانب الآخر من شبه الجزيرة العربية، ظهرت الحركة (الوهابية) لتمثل على طريقتها الخاصة إدارة الأزمة (إسلامياً) واضعة استراتيجية المواجهة القائمة على:

العودة إلى الإسلام الصافي، والبريء من كل البدع والشبهات والانحرافات التي داهمته عبر القرون وتعريته من الشوائب ومواجهة الكفرة، والتعامل أو معالجة الأزمة معهم، إسلامياً لقد كانت النهضة: عربية – إسلامية تمت إدارتها بأسلوب عربي إسلامي، أي أن كثيراً من أقطاب هذه النهضة: غير المسلمين (المسيحيون) ساهموا بفعلهم، وأقلامهم، وأفكارهم في عملية النهضة وقاموا بالمشاركة الفعالة في عمليات الإصلاح السياسي (القومي) والوطني، والثقافي والعلمي.

وهنالك شكل آخر وأسلوب آخر لإدارة الأزمة الإمبريالية تجسد في صعود الوطنيات الخاصة بعيد الحرب العالمية الأولى في هذا الجزء من الوطن العربي.

وفي الطرف الثالث من الوطن العربي وهو المغرب العربي، وقد جاءه الغرب الإمبريالي غازياً مباشراً وكان الاختراق الاستعماري لكل دولة بدءاً من الجزائر 1830 وثم ألحقت بها دول المغرب لتصبح مستعمرات لكل من فرنسا على نطاق أوسع ودخول بريطانيا على الخط الإمبريالي باستعمار ليبيا 1911.

ظهر الغرب (السياسي الإمبريالي) على صورة عدو مباشر منذ أن جاء غازياً وكان من الصعب معالجة الأزمة معه بالحوار، والتفاهم، أو مطالبته الانسحاب طوعاً، أو سلماً من الأرض العربية فهو لم يقدم اليوم لينسحب غداً.

لقد عملت الإمبريالية على افتراس الجسد العثماني أولاً ثم الدخول إلى الوطن العربي لافتراس الجسد العربي الإسلامي، مشرقه ومغربه وثم استعمار أجزاء الوطن العربي، والتي كانت أصلاً أرضاً خصبة بما كانت تعانيه من تفكك، وانقسام، وتجزئة، وآثار التركة التاريخية السابقة.

الأزمة مع الإمبريالية وإدارتها:

كانت نظرية الشعوب في المقاومة لمواجهة أزمة التدخل الإمبريالي تقوم على:

1- عدم القبول بالطعن في هويتها الوطنية، والقومية، أو الدينية.

2- عدم القبول بالمس بكرامتها الوطنية، والقومية، أو حتى على صعيد الكرامة الشخصية لكل فرد من أبناء الشعب.

3- مطلب الحرية، والحرص الشديد على الأرض.

بغض النظر عن الدوافع الاقتصادية؛ فإن العربي عموماً، والمسلم، لا يقبلان أن تمس كرامتها، ولا يهادنان في المس بهويتهما، ولا يقبلان بالحد من حريتهما، وقد وجدت الشعوب أن هذه الأسس المرجعية (لإدارة أزمتها) ضد التدخل الطاعن في هذه الأسس، تحتاج إلى خيارات سياسية تكون في المقدمة للدفاع عن هذه المبادئ وإذا لم تتوفر القيادة القادرة على إدارة الأزمة، فيمكنها أن تثور بنفسها وبطرقها الخاصة، وأساليبها المختلفة.

لقد حصل تعد سافر على القيم العربية الإسلامية، مما أثار الوجدان العربي والإسلامي، ودفعه للمواجهة، وظهر الإسلام على محك المقاومة، وشكل دعامة الاحتجاجات الوطنية [545] بدأت تنشأ الجمعيات السرية، والأحزاب، والحركات في مختلف أرجاء الوطن العربي، لمواجهة الأزمة، ولم يكن الأمر بحاجة إلى التخطيطات العلمية للمواجهة، لقد كانت عفوية وفطرية، وطبيعية.

والواقع كانت الأحزاب السياسية خاصة، مشكلة حسب النموذج الغربي، مع احتوائها على الخصوصيات العربية، أي تأثير بعض العوامل الخاصة التي ذكرناها في الفصل الرابع.

في هذه المرحلة ظهرت معالم كثيرة، وطرق مختلفة لمعالجة الأزمة مع الإمبريالية الغازية المستعمرة وإذا ما استطعنا أن نقول إن 1905، كان عاماً حاسماً فذلك لأنه أعطى لبعض الاتجاهات كياناً كافياً ليمكنها من أن تكون على المستوى الذي يسمح لها بتقبل انطلاقة حاسمة من التاريخ، تلك هي انطلاقة الثورة العربي، سجل ذلك العام شهدائها ونجاحاتها(546)، ولكن يبدو أن المؤامرات البريطانية، والأحلام المشكوك فيها لشخصية بريطانية اسمها (لورانس) العربي وثورة شريف مكة 1916، كل ذلك كان أقل أهمية لصحوة ووعي الضمير العربي، من خيبة الآمال التي سببتها في الأوساط الثقافية، والجماهير(547)، ولكن حصلت ثورة أخرى انتقلت من أيدي الأمراء، والملوك إلى أيدي الشعوب لمقاومة الاحتلالين البريطاني والفرنسي بدأت تأخذ مجراها من الآن فصاعداً، وانتقلت الشعوب العربية من أزمة المقاومة ضد المحتل إلى معالجة مطلب: الاستقلال والحرية للتخلص من التبعية للغرب وفي الوقت نفسه مطالبة (الشعوب) بالتقدم، والاستفادة من النموذج الغربي المتقدم.

النهضة العربية ومواجهة الأزمة في الغرب الإمبريالي: (خطابات النهضة)

انطلقت النهضة العربية من معالجة التأخر ومطلب التقدم، حيث سأل في هذا الإطار (شكيب أرسلان) سؤاله الشهير: لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم، يسعني أن الزوج المفهومي المستعمل في توصيف الوضع التي يعيشها العالم العربي بالمقارنة مع العالم الغربي كان هو: التأخر/التقدم(548).

فالنهضة من حيث دلالاتها اللغوية تدل على أفعال حركية، وهي كلمة دالة على البراح من الموضع والقيام عنه، والنهضة، الطاقة والقوة، وأنهض، قواه على النهوض، ومنه وصف الطائر/الفرخ بالناهض للدلالة على أنه وفر جناحيه ونهض للطيران، أما من ناحية الاصطلاح، فلفظ النهضة ليست له دلالة محددة، فهو يدل على إنجاز حراك ثقافي، ومجتمعي، لذا فإن دلالة ذلك الحراك مختلفة حسب المرجعية(549).

والواقع أن الإدراك الشعبي الفطري يرى أن النهوض لا يتم إلا من خلال ذاتية الشعب، وثقافته وخصوصيته، واتباع المبادئ العامة العقيدية والتراثية وعدم ذم ما هو مستحدث، ومستجد، لأن الشعب يدرك أن له تراثه الخاص وتقاليده، وعاداته، ونمط تفكيره، ولا يقبل اقتلاعه من كل ذلك في سبيل تقدم، لا تعرف مصدره أو إحلال نسق جديد، لمجرد كونه جديداً.

إن النهضة في زمن الاستعمار، وهو موضوع هذه الصفحات، ارتبطت حاجاتها الآنية المتمثلة في مطلب الاستقلال السياسي، فهو مقدمة لغيره من المطالب، والاحتياجات.

والواقع لقد جاءت النهضة، والتي بدأت تاريخياً على (الصعيد الأدبي) لتؤكد القيم المثالية التي كان التاريخ العربي، خاصة في عصوره الزاهية قد مثلها، وجسدها بإشعاعه الحضاري وفي الوقت نفسه جاءت لتؤكد إنسانية العربي والمسلم واعتزازه بكرامته، بوصفه كائناً حراً، وأخلاقياً[550] لقد جاء الخطاب الثقافي – السياسي النهضوي من موقع الالتزام بالقيم العربية الإسلامية، والذاتية أو الهوية، ولكن تطلب هذا العصر أن تقوم إدارة الأزمة مع الغرب على عدة جبهات ويجب أن تكون إدارتها على الصعيدين المعرفي والحركي: المعرفي أي الجدل، والحوار مع الإمبريالية وتوجيه الشعوب نحو المقاومة والنضال المباشرين، هذه هي الخطوط العريضة لإدارة الأزمة في عصر النهضة العربية.

أوحينا سابقاً بأن الوعي العربي الشعبي، والثقافي قد ولد من المواجهة مع التفوق المادي والتكنولوجي وحتى الثقافي مع الغرب الأوروبي المستعمر، وهدف هذا الوعي منذ البداية إلى تغيير وضع العرب (دعوة التقدم)، والتخلص من التأخر ودفعه لمقاومة المستعمر، لقد تميزت هذه المرحلة الأولى لولادة اليقظة العربية على الصعيدين الديني والقومي.

وبعبارة أخرى تولدت اتجاهات مختلفة في الوطن العربي منذ بداية النصف الثاني من القرن التاسع عشر، حيث ظهرت ثلاثة تيارات في الحركة النهضوية لا تخلو من إيجابيات وسلبيات.

فأما الإيجابيات فقد كانت كلها متفقة على:

* تأكيد الهوية العربية والإسلامية.

* التأكيد على الاستقلال والحرية.

* الأخذ من الغرب كل ما يمكن أن يفيدنا في التقدم والنهوض.

* الحوار والدخول معه في معارك فكرية.

وكانت المقاومة الإسلامية حركياً، والاتجاه الإسلامي في الخطاب، هما الأبرز في إدارة هذه الأزمة وإلى جانب ذلك برزت الاتجاهات اللبرالية، والقومية، والتيارات السياسية اليسارية.

أ- **تجلت أولى التحركات العملية لمواجهة أزمة الإمبريالية على يد (جمال الدين الأفغاني)** (1838 – 1897م)، كانت مواجهة أو إدارة (ثورية) وتجسدت على صعيد الخطاب في الجدل الذي دار بينه وبين (الدهريين) و(الماديين) الغربيين، ونرد عليهم بالتركيز على روحانية الإسلام، ومبادئ حضارته الأخلاقية ومطلبه في التوازن بين: المادة والروح.

وتلخصت إستراتيجية (الأفغاني) في إدارة الزمة كما يلي:

1- الأسلوب المباشر و(الثوري) في المواجهة.

2- المواجهة الفكرية في كتابه (الرد على الدهريين).

3- إعادة بناء الوحدة الإسلامية.

الشيخ محمد عبده (1849 – 1905م)

كانت مواجهة إصلاحية في الداخل الإسلامي، انصب على إصلاح التربية والتعليم، ومن ثم محاورة الغرب في كتبه المتعددة التي كانت تدور حول الإسلام والمدنية، والإسلام والعلم، ومحاور له مع (هانوتو) الفرنسي و(ارنست رينان) الفرنسي أيضاً حول أصالة الحضارة والفكر الإسلاميين، وما يهمنا من محاوره هو انحياز الشيخ إلى العقل والتفكير العلمي وقوله أن الإسلام لا يناقض التفكير العلمي، بل هو على العكس الداعي (في آيات القرآن الكريم) والمحفز للتفكير في عالم الشهادة، وإمكان النفوذ إلى كل شيء فيه بواسطة العقل.

ولعل المضمون الفكري لدعوة الشيخ وهو ما لم يدخل بعد مجال الحوار العلمي أعني: عناية المسلمين بالفكر العلمي، وبتعبير آخر تشجيعهم على:

* البحث عن الحقيقة.

* اكتساب مهارات التفكير العلمي، ويعني اكتسابهم مختلف مهارات التخطيط العلمي للأمور، ومن حيث المبدأ.

ونعلم كذلك أن أهم مهارات التفكير العلمي الشكلية: الموضوعية والنزاهة، والموقف الأخلاقي، من ناحية، ومن ناحية ثانية يمكن الاستنتاج من كل ذلك أن الشيخ ومقولته في التشجيع على التفكير العلمي لا يرى ماناعاً، إسلامياً، من اكتساب مختلف المهارات الأخرى للتفكير العلمي أعن:

* أسلوب حل المشكلات.

* التفكير الناقد الذي لا يمس العقيدة ومبادئها.

* التخطيط العلمي.

وحول النقطة الثالثة، فالشيخ في (عصره)، والمسلمون المعتدلون في عصرنا، لا يعارضون اكتساب مهارات الإدارة العلمية للأزمات.

ج- **قاوم عبد الرحمن الكواكبي** (1849 – 1904م) الاستبداد السياسي، واعتبره أساس كل الشرور في السياسة، والاجتماع فالمصائب التي حلت بالأمة كانت بسببه، وليس أدل على ذلك من وضع كتابه المشهور (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد)، وعندما يتحدث الكواكبي عن الاستبداد، فالمقصود هو: استبداد السلطان، أو الخليفة، أو الملك أو الحاكم، وتعامل المستبد مع شعبه مستبداً بهم ظالماً إياهم فالمطلوب إذن: التحرر من الاستبداد.

فإدارة الأزمة عند (الكواكبي) هي إدارة أزمة الاستبداد السياسي، وقد اتخذت هذه الإدارة شكل:

* المواجهة للسلطة الفردية سواء كانت متمثلة بسلطان، أو خليفة أو ملك والخلاصة لقد كانت مناهج زعماء النهضة هي:

– إدارة الأزمة، عند الشيخ (الأفغاني) كانت منهجاً عملياً، وبالكلمة المباشرة، والدعوة لثورة.

– أما عند الشيخ (محمد عبده) فكانت منهجاً بالإصلاح المتدرج غير الثوري والكواكبي: كان منهجه بالكلمة، وبالموقف الصلب ضد الاستبداد.

هذه الأساليب تعكس، ولا شك أنماط تفكير، وأمزجة هؤلاء القادة، وكان مرجعيتهم الإسلام، والتراث العربي الإسلامي، للاسترشاد بهما في مقاومة العدوان.

أما مرجعية التيارات الأخرى غير الإسلامية، خاصة أقطاب النهضة الذين عاشوا في تلك المرحلة والقادمين من (الشام إلى مصر) فقد طالبوا بدورهم بالتأكيد على الذاتية، والقومية، والأخذ من الغرب والاستفادة من ثقافته وتقدمه العلمي، نذكر على سبيل المثال: ال–(البستاني) و(اليازجي) و(صروف) و(شميل) و(فرح) وكان لأقطاب النهضة في المغرب العربي انطلاقات إسلامية في إدارة الأزمات مع الغرب الفرنسي الاستعماري.

تجلت بعض المظاهر السلبية في تيارات النهضة العربية أهمها:

* عدم التركيز على النهضة العقلية، وعدم الدعوة إلى حداثة قائمة على العقل أو النظر إلى أن الحداثة مشروع عقلي في الدرجة الأولى، أو على الأقل الدعوة إلى توازن: العقل والإيمان باستثناء فكرة الشيخ (محمد عبده) الذي لم يتوان في الدعوة والإشادة بالتقدم العقلي في الحضارتين العربية الإسلامية والغربية.

ولقد امتد تأثير أفكار النهضة إلى عصرنا الحديث حيث انعكست في ظهور بعض معالم متطرفة في إدارة الأزمة مع الغرب الإمبريالي تجلت في:

– اعتقاد التيار الليبرالي بأن النهضة لا تتحقق إلا بتطبيق الليبرالية.

– وإيمان التيار الديني السلفي، بأن النهضة لا تتحقق إلا باستنساخ النموذجين النبوي والراشدي[541] استنساخاً كاملاً، وبالعودة الحرفية للماضي.

– اعتقاد التيارات اليسارية الاشتراكية بأن النهضة لا تتحقق إلا بالأخذ بالنموذج الاشتراكي (العلمي) والماركسي اللينيني، ولم يدرك هؤلاء أن عملية الاستنساخ لمرحلة ماضية صعبة التحقيق بل هو ضرب من المحال، وأن النهضة ممكنة بالتجديد وإبداع مرحلة حضارية جديدة، مع الاستئناس بتراثنا، وخبراتنا وتجاربنا التاريخية، والاستئناس أيضاً بتراثات غيرنا، والاحتفاظ بهويتنا وخصوصيتنا.

الفصل الثالث عشر
تجليات حديثة، ومعاصرة لبعض الحالات الأزموية وإداراتها

(2)

إدارة القيادة السياسية والشعبية (الحالات الحديثة):

* معاهدة سايكس بيكو 1916.

* وعد بلفور 1917.

* اغتصاب فلسطين 1948 (سنبحثها في الكتاب الثاني في موضوع إدارة الصراع).

* أزمة السويس 1956.

أولاً: معاهدة اقتسام مناطق النفوذ 1916: (سايكس بيكو)

في الوقت الذي كانت فيه الإمبراطورية العثمانية تلفظ أنفاسها، وتعاني من سكرات الموت، وبعد أن كان الرجل المريض يحتضر في وقت بدأ فيها عنفوان النهضة الأوروبية قد سار قطاره شوطاً بعيدا آخذاً بالتطلع نحو التمدد شرقاً، وغرباً، شمالاً، وجنوباً، التفت البريطانيون أولاً إلى الوطن العربي، وفي وقت كان يطالب بالتحرر من السيطرة العثمانية، فقدمت بريطانيا مساعدتها زاعمة تشجيع العرب على التمرد والثورة ضد بقايا السيطرة العثمانية فوجدوا في (الشريف حسين) شريف مكة، إمكانية التعامل معه لإدارة الأزمة مع العثمانيين واستخدموا وسيلتين لإدارة هذه الأزمة:

الأولى: تشجيع الشريف على قيادة ثورة ضد العثمانيين، وإدارته لهذه الزمة.

الثانية: في الوقت نفسه أخذوا يمارسون أسلوب الخداع مع الشريف حسين.

ولقد كتب: السير ماكماهون Hussein- Mac Mahon المقيم البريطاني في مصر، يعد الشريف، عندما يشهر الحرب ضد العثمانيين بتكوين مملكة عربية بقيادته تمتد من جبال طوروس حتى الخليج العربي، وتم إيفاد شخصية لعبت دوراً مهماً غريباً وطريفاً في وسط العرب وخاصة عرب الجزيرة، وتدعى لورنس، ليهندس هذه العملية.

توجه الجيش العربي بزعامة (فيصل ابن الحسين 1916) وسميت هذه الحركة بالثورة العربية، وجسدت إدارة عربية بريطانية للأزمة ضد الإمبراطورية العثمانية.

وفي العام 1916 ذاته عملت كل من (بريطانيا) و(فرنسا) الحليفتان حينذاك، وبالاشتراك مع (الروس) على إجراء محادثات تدور حول مصير المقاطعات العربية التابعة للإمبراطورية العثمانية بعد نهاية الحرب العالمية الأولى (1914 – 1916)، فقرر المجتمعون أن تكون هذه المقاطعات تابعة في شكلها آنذاك: سورية وأعالي الرافدين إدارياً لفرنسا تدير شؤونها بشكل مباشر وتعتبر مناطق نفوذ فرنسية، أما بريطانيا فستكون لها: العراق وفلسطين، وأما روسيا فستنال أناتوليا، وبالنسبة للقدس، فتصبح دولية[552].

كانت إدارة ما بعد خروج الدولة العثمانية تديرها، بلاشك، العقول الإنكليزية، وكانت القيادة السياسية العربية تدير هذه الأزمة بالوكالة.

والواقع لم تؤد هذه الإدارة إلى النتائج الوطنية، ولا الدينية المرجوة، ولم تكن ترضي مطامح الشعوب العربية آنذاك.

ثم أعقب هذه المرحلة بفترة قصيرة جداً: إعلان بلفور (BalFour 1917) سكرتير الدولة في وزارة الخارجية البريطانية، وجاء نص هذا الإعلام كما يلي:

إن حكومة جلالة الملكة لا تمانع إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين، ستعمل بريطانيا بكل ما وسعها، وتقدم جهودها كاملة لتحقيق هذا الهدف<، ولقد التزمت (بريطانيا) بهذا الإعلان[553].

وقد جسدت هذه السلوكيات السياسية الأولى، خديعة البريطانيين الثانية وبهذا الإعلان حدثت أزمة كبرى بين بريطانيا، والعرب شعباً، وقيادة، إذ كان الموقف البريطاني متناقضاً شديد التناقض ظهر في:

وعدها بمساعدة العرب على التحرر والاستقلال من السيطرة العثمانية، وإعطاء تصريح باستيطان استعماري صهيوني في فلسطين.

رأينا كيف أن القيادة السياسية العربية أثناء إجراء المراسلات المذكورة، وتقديم الإغراءات لمملكة هاشمية، والاستقلال الكامل للأقطار العربية وإن كل هذه الوعود، ذهبت أدراج الرياح.

وواقع الأمر كانت إدارة الأزمة من قبل القيادات السياسية العربية حينذاك لها نقاطها الضعيفة الكثيرة تعود إلى أسلوب تفكير تلك القيادات التي كانت قد ورثت أنماط تفكير تقليدية موروثة،(المؤثرات الجانبية) ،ولم تُدر تلك الأزمة بأساليب متميزة بالحنكة.

لا شك أن القايدة السياسية أدركت في حينها تطور وأبعاد الموقف البريطاني المخادع، وباعتبار أن هذا الموقف لم يُكشف عنه في حينه وكيف للمخادع أن يكشف عن خداعه؟ لذلك فقد وقعت هذه القيادة في حبائل هذا الموقف الذي كان منافياً للصدق، وبلغة أخرى موقف التناقض بين السياسة والخلاق في الموقف البريطاني.

كانت الإدارة الشعبية لهذه الزمة، منقسمة على نفسها بين الرفض المطلق للخديعة البريطانية، وإدراك الشعب رغم ما كان يعانيه من تأخر في كافة المجالات، أن بريطانيا لم يكن موقفها نزيهاً إزاء العرب، ومن جهة ثانية لم يستطع الشعب تلبية نداء الشريف للجهاد المقدس ضد الأتراك، لأن العاطفة الدينية وخاصة الإسلامية لم تكن تسمح له بمحاربة السلطة العثمانية، وبقايا نفوذها في الوطن العربي نظراً لأنها كانت سلطنة مسلمة، واعتبار الخروج عليها، من قبيل الفتنة، وقد عرضنا أن الموقف التقليدي الإسلامي لا يقر بالخروج على الخليفة خشية الفتنة.

لقد شكلت هذه المعاهدة لمرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية، نقطة خطيرة في امتداد النفوذ البريطاني، في حال انتصار الحلفاء، وقد تم الأمر فقد انتصر الحلفاء ووجدوا الفرصة سائحة لاستكمال المشروع الاستعماري في أقطار الوطن العربي وخاصة مشرقة، وطبقاً للمعاهدة وبنودها، والواقع لا أحد يدري ماذا كان يدور في رأس (الشريف حسين) حينذاك وقد عمل البريطانيون على طمأنة الشريف وقللوا من مخاطر هذه المعاهدة ويبدو أن الشريف حسين صدقهم[554].

في هذا الوقت، بدأت الجماعات والحركات السياسية الصهيونية تتحرك، وتدفع باليهود من مختلف أرجاء العالم إلى الهجرة إلى الوطن الموعود في فلسطين، وإنشاء

الكيان، وتحقيق أحلام المؤتمرات الصهيونية التي كانت قد بدأت تعقد منذ منتصف القرن التاسع عشر في أوروبا بين زعماء اليهود، للترويج للفكرة الصهيونية (مؤتمر بال في سويسرا 1897) بزعامة Herzel هرتزل، حيث قال الزعيم الصهيوني في مذكراته: لقد عملت في هذا المؤتمر على تأسيس دولة اليهودية، ولكن لو أني قلت ذلك علناً لواجهت رفضاً عالمياً، ولكن سيكون هذا الأمر مقبولاً عالمياً ربما بعد خمس سنوات ربما بعد خمسين سنة[555].

إن إعلان (بلفور) في نوفمبر 1917 والذي أيدته كل من (فرنسا)، (إيطاليا) و(الولايات المتحدة الأمريكية)، قد فتح الباب للعديد من الأزمات التي جعلت الشعوب والتي لم تنقصها أزمات التأخر تدفع ثمن هذه المعاهدة[556].

الإدارة الشعبية للأزمة بالمقاومة:

قاوم العرب والمسلمون مواقف الغرب الاستعمارية سواء على صعيد معاهداته أو على صعيد تغلغله العسكري المباشر، ورأينا أن الشعوب العربية، قد قاومت، وبفطرتها وطبيعة السيكولوجية البشرية في مقاومة الظاهرة العدوانية الظاهرة، وحسب الإمكانات متاحة لها.

قاوم العروبيون، والإسلاميون، كل حسب توجهاته، ومنطلقاته الظاهرة الاستعمارية وتدخلات الإمبريالية في مختلف أرجاء الوطن العربي، وشكلت هذه المواقف المعارضة الشعبية، وقد أهملت هذه المعارضة مختلف مواقف القيادات السياسية، التي لم يكن لها باليد حيلة، إزاء القوى الإمبريالية الزاحفة حينذاك.

المعارضة الشعبية، وبدايات انتظامها في الأحزاب والحركات[557]

قلنا منذ قليل أن الإصلاح الإسلامي، والعروبي، منذ منتصف القرن التاسع عشر، والإرهاصات الفكرية لحركة النهضة العربية قد تولد من ذلك كثيراً الأحزاب، والحركات السياسية، والسياسية الدينية، أولاً لمواجهة أزمات الداخل، ثم انتقالها لمواجهة أزمات الخارج أو بتعبير آخر لإدارة أزمات الداخل مشكلة السلطة، وأزمات الخارج التغلغل الإمبريالي في المنطقة.

المعارضة والسلطة:

تاريخياً، يمكن أن يؤخذ على المعارضة السياسية التي خرجت من أحشاء الشعب، كما كان يؤخذ على تركيبة القيادات العربية السياسية لتلك المرحلة، وهي مشكلة: الشرعية أي أنها لم تولد في ظل نظام ديمقراطي حر.

كذلك يؤخذ على هذه المعارضات الشعبية التي تشكلت على هيئة حركات وأحزاب، عجزها عن إحداث التغير الذي كانت مختلف شرائح الشعب والتي لم تنتظم داخلها من إحداث التغير الذي كانت مختلف شرائح الشعب والتي لم تنتظم داخلها من إحداث التغيير الذي انتظرته، وفي حالات كثيرة، كانت النُظم السياسية تستخدم عجز المعارضة هذا عن إيجاد البديل الصالح لإقناع الجماهير بأن لا قيمة لهذه التنظيمات والحركات والأحزاب ولا جدوى منها، ولكن من ناحية أخرى هناك جانب من الصواب في الأقوال بأن هذه المعارضات لا تتحرك بحرية، وبشكل سليم، إلا في إطار ديمقراطي حر، وفي هذا الإطار الحر، والمعقول يمكن لهذه المعارضة أن تقدم التصور البديل وحلولها للأزمات المطروحة[558].

ولا ننسى أننا نغض الطرف هنا عن تركيبة الأحزاب والمنظمات المعارضة، أفراد وكقيادة، وطبيعة تكوينها، وتشكلها، والعناصر المكونة لها، أي التركيبات الفئوية، الطائفية، والمذهبية، والولاءات الشخصية، والقبلية، والأسرية، وبعض أنماط التفكير المتطرف الذي تنتهجه في الإدارة الأزموية، وخضوعها لقيادات فردية، والتآمها حول قيادات متفردة، وكاريزمية[559].

أمثلة من أحزاب المعارضة، وتصوراتها لإدارة الأزمات: (مواجهة الاستعمار)

1- حزب الوفد المصري:

انطلقت الحركات الحزبية في مصر بين الحربين العالميتين الأولى، والثانية من النظر إلى الإمبريالية البريطانية على أنها العدو الذي يجب مواجهته، بطريقة ما، فهو قدم ليحتل (مصر) ويستغل خيرات الوطن المصري، ويستعبد المصريين، وقد تشكل هذا الحزب في فترة عصيبة، متأزمة من تاريخ (مصر) الحديث، وفي وقت كانت الإمبريالية وصلت إلى

درجة عالية من التقدم كما قلنا، عسكرياً وتكنولوجياً، وقد جاءت زاحفة إلى مختلف الأقطار العربية.

وبالنسبة للوطن (المصري) رأى الوفد أن الإمبريالية لها أهدافها الاقتصادية والسياسية والثقافية: الاستغلال الكامل لموارد (مصر)، وصناعة القرار السياسي المصري والمس بالهوية الوطنية، وكرامة الشعب، وأخيراً التمهيد للاغتصاب الصهيوني لقطر عربي مجاور، وهو (فلسطين).

كان للوفد بزعامة (سعد زغلول 1880 – 1928م) شعبيته الكبرى داخل (مصر) وكانت توجهاته إصلاحية ومرجعيته وطنية، والاستئناس ببعض الأفكار البريطانية في العمل الإصلاحي السياسي[560] يمكننا تصور إستراتيجية الوفد في مواجهة، أزمة (بلفور)، ومعاهدة (سايكس بيكو)، مستخرجاً من نظرته الإصلاحية العامة، وعندما نقول إصلاح ReForm يعني أن نظرته ليست ثورية، وأن الأسلوب بالتالي الذي تنتهجه في إدارة الأزمات هو الأسلوب: السياسي القائم على: المفاوضات، والحوار، وإيجاد أرضية للتفاهم والاتفاق، مع إمكانية إعطاء تنازلات من قبل أطراف الأزمة.

لقد كان الزعيم (سعد زغلول) يذهب على بريطانيا ليبحث سبل التفاهم مع مديري الأزمة والوصول إلى الحل السياسي وخروج البريطانيين من (مصر)، ومنحها الاستقلال، وكان يعود ليقول قولته الشهيرة: (ما فيش فايدة) أي أن البريطانيين لم يكونوا مستعدين لتلبية مطالب المصريين.

2- الإخوان المسلمون 1928:

شهد العام 1928 تأسيس حركة شعبية سميت بالإخوان المسلمين، من قبل (حسن البنا 1996 – 1949) الذي أعلن، منذ نشأته، هذه الحركة على الملأ ومصرحاً بأنه يكره السيطرة البريطانية على (مصر) وكان الإمام منذ البداية واضح المرجعية، وهي الالتزام الكامل بأسس وقواعد العقيدة الإسلامية، وإقامة الخلافة الإسلامية.

وقال الإمام أن الأزمات والمشكلات التي تعاني منها (مصر) خاصة، والأمة الإسلامية عامة مرجعها تقليد الغرب، ومحاولة الأخذ بمقومات وأسس وأشكال حضارته

اللادينية والحل، والإدارة المثلى لهذه الأزمة الكبرى لمصر وللأمة بالنسبة للشيخ تتمثل في:

* إبعاد المستغربين وأتباعهم عن الحياة السياسية وعن جسد الأمة.

* إقامة النظام الإسلامي المنبثق دستورياً من القرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة.

كان الوفد يتوجه إلى الطبقات الوسطى، بينما توجهت حركة الإخوان المسلمين إلى الطبقات الشعبية[561] ويبدو واضحاً وحسب النظام الإسلامي الذي يطالب الإخوان المسلمون إقامته، فإن مواجهة الأزمات التي اصطنعها الغرب يجب مقاومتها، لأنها تشكل اعتداء سافراً على أراضي المسلمين، وعقيدتهم وكرامتهم.

فلسطين:

تحركت الحركة الصهيونية مباشرة في أعقاب وعد بلفور 1917 لدفع بيهود العالم للهجرة إلى فلسطين لإقامة الدولة وتحقيق وعد (بلفور)، وكان الفلسطينيون هم المستهدفون في هذه المؤامرة كذلك كان من الطبيعي أن يواجه هؤلاء الأزمة منذ انطلاقاتها، وفي الوقت نفسه كان العرب يطالبون بتحقيق الوعود البريطانية في الاستقلال وظلت هذه الوعود تراوح أكثر من ربع قرن في دائرة المماطلة البريطانية.

انتفض الشعور الوطني الفلسطيني، وطالب بحق تقرير مصيره الوطني، فتحرك الفلسطينيون نحو المواجهة، منذ العام 1921 لمنع الإدارة البريطانية، والعسكرية من إعطاء تسهيلات هجرة اليهود إلى فلسطين.

لقد انطلق العرب والفلسطينيون من بداهة عدم شرعية وعد بلفور، واعتباره نقطة انطلاق سوداء لتحقيق مشروع استيطاني، واغتصاب أرض فلسطين رغم أن (تشرشل)، وزير المستعمرات البريطانية كان قد أوضح أن إعلان وعد بلفور لا يعني احتلال فلسطين كلها بل إنشاء وطن قومي لليهود داخل فلسطين[562]، وقد قيل ذلك من قبيل ذر الرماد في العيون إلا أن الشعوب العربية والقيادات السياسية، بمواقفها الوطنية، والرافضة، للأهداف البريطانية والصهيونية، فقد عمدت إلى إدارة الأزمة بحسب الإمكانات المتاحة.

تحرك الفلسطينيون لمواجهة الأزمة في إطار أربع مراحل أساسية، وفي وقت مبكر، وذلك في الأعوام (1920، 1921، 1929، 1936)، قامت بريطانيا على إثر ذلك في الحد من مساعدة اليهود في الهجرة والدخول إلى الأراضي الفلسطينية، وكانت ثورة 1936 من أعنف هذه المواجهات[563] وفي فترات الحرب العالمية الثانية خشيت بريطانيا من أن يتوقف العرب عن دعمهم لها، فنشرت (الكتاب الأبيض 1936) **White Paper** تبنت فيه موقفاً واضحاً حول إيقاف الهجرة اليهودية إلى فلسطين[564] مدة خمس سنوات[565].

والواقع كانت بريطانيا تنظر إلى مسألة إقامة الدولة اليهودية في فلسطين والهجرة اليهودية ودعمه أو تخفيفه من خلال إدراكها للسياق الدولي غذ رافقت هذه الخطة البريطانية مجموعة من العوامل الدولية، كانت بريطانيا تسلك بناء على هذه العوامل فمثلاً في ربيع عام 1941 كان وضع بريطانيا قد لقي عداء من قبل العرب واكن موقف بريطانيا يضعف بدخول القوى الألمانية اليونان، وانتصارهم في معركة العلمين، فعمل البريطانيون على الحصول على دعم اليهود[566].

ثانياً: أزمة السويس 1956:

اشتداد المطالبة بحق تقرير المصير (الاستقلال):

مع ولادة الظاهرة الاستعمارية التي ذكرنا سابقاً استيقظ العرب على صدمة الإمبريالية، وتغلغلها عسكرياً مباشراً داخل أراضي الأقطار العربية قاطبة، وقد نشأ الوعي العربي الفطري للشعوب ونخبها، وقياداتها والتي كانت موجودة رغم ضعفها، وتركيبة عقليتها، فالجميع حمل مبدأ، ومنذ البداية، وهو: المطالبة بحق تقرير المصير، وبعبارة ثانية الاستقلال الكامل، وإبعاد غير العرب عن الأراضي العربية والمقصود هنا طبعاً القوى الإمبريالية التي تتحكم بمصائر الحكومات والشعوب العربية، ثم إن مبدأ حق تقرير المصير، تقره العقيدة الإسلامية، والقومية لا تقبل بأن تمس كرامة الأمة، والعروبة أيضاً لا ترتضي بأن تلغى لحساب هويات أخرى غريبة عن الوطن، إنها مسلمات الشعوب العربية.

وفي هذه المرحلة، أي الخمسينات من القرن الماضي كانت كل من (سورية والعراق ولبنان والأردن ومصر) وبعض دول شمال أفريقيا قد حصلت على الاستقلال، وكانت قد تأسست الجامعة العربية ومقرها في القاهرة 1945، ولعل أول تحول سياسي كبير، زلزل

المنطقة العربية قيام مجموعة من الضباط المصريين الأحرار بحركتهم للإطاحة بالقيادة السياسية حينذاك، وإعلان قيام ثورة 23 يوليو 1952، وتسلم القيادة بقيادة الرئيس الراحل جمال عبد الناصر، لقد أعلن هؤلاء الضباط بأنهم جاؤوا لتغيير الواقع السياسي والاقتصادي، والاجتماعي والثقافي، وجاؤوا ليقضوا على الفساد، وقد عبروا عن شعورهم بالخزي والعار وكامل الإحباط لهزيمة 1948، واغتصاب (فلسطين)، وكان من جملة مبادئهم الدفاع عن الحق العربي الفلسطيني وتحرير الأرض المغتصبة، وهذه جملة أفكار ثورة 23 يوليو وهي موضوعة في كتاب الرئيس الراحل عبد الناصر في (فلسفة الثورة) وتشكل مرجعية لإدارة الشؤون السياسية وخاصة أزمات المجتمع المصري.

لقد ظهرت عقب الحرب العالمية الثانية قوتان عالميتان، منتصرتان في هذه الحرب وشهدت هذه المرحلة بداية تراجع القوتين التقليديتين (بريطانيا وفرنسا) من الساحة العالمية، والقوتان المذكورتان هما: الولايات المتحدة الأمريكية، والاتحاد السوفياتي لقد عملت القوتان القديمتان: بريطانيا وفرنسا على الاحتفاظ ببعض مصالحها في الساحة الإقليمية العربية، والعمل في الوقت نفسه على الحد من طموحات ضباط ثورة 23 يوليو الوطنية.

ومن هذه المصالح التي رغبت بريطانيا في العمل جاهدة على الاحتفاظ بها هو حق استثمار الممر البحري الإستراتيجي، والمهم، لقناة السويس وفق معاهدة موضوعة وطويلة الأمد، وقد وضعت تحت ضغط بريطانيا عندما كانت محتلة لمصر وفي عهد القيادات السياسية المصرية السابقة، أراد عبد الناصر أن يفجر موقفاً وطنياً لصالح (مصر).

قناة السويس: مقدمة تاريخية موجزة:

في عام 1854 حصل أحد المهندسين الفرنسيين من الحكومة المصرية حق شق قناة تربط بين البحر الأحمر والبحر المتوسط، وبدء في الحفر عام 1859، وفي عام 1869 تم افتتاح القناة في حفل عظيم ومهيب جرى في القاهرة شاركت فيه النخب المصرية والعالمية بحضور (الخديوي إسماعيل باشا)، ورعايته وتم عرض أوبرا (عايدة) الإيطالية، ومنذ ذلك التاريخ شكلت هذه القناة صورة في الخيال الشعبي العربي لا تخلو من عظمة وأهمية سجلت في الذاكرة الوطنية المصرية[567] فنظرت الشركات البريطانية في حينها إلى استثمار هذا الممر المائي باعتباره ممراً تجارياً ضخماً يصل بين ثلاث قارات، وله أهمية إستراتيجية، وسرعان ما اكتسبت هذه القناة أهميتها الدولية.

وعندما حصلت مصر على الاستقلال من قبل الاستعمار البريطاني، ظلت هذه القناة مرتبطة إدارياً وعسكرياً واستثمارياً بإحدى كبريات الشركات البريطانية، (شركة قناة السويس).

وبعد ثورة يوليو 1952، وما أعلنته من أهداف وضعت القيادة المصرية نصب عينها تحرير هذا الممر المصري من أيد الشركة البريطانية، وإعادتها إلى الحكومة المصرية، وتلغي آخر مظهر من مظاهر الهيمنة البريطانية السياسية والاقتصادية في مصر.

السياق الدولي أو العالمي للأزمة:

رفضت الولايات المتحدة الأمريكية طلب مصر تسليحها كي لا تهدد أمن إسرائيل التي كانت قد بدأت تشكل القاعدة العسكرية للإمبريالية في المنطقة لتأمين مصالحها الإستراتيجية، من هذا الرفض فسح المجال أمام القيادة المصرية كي تلتفت إلى القوى العالمية الأخرى آنذاك، وخاصة الاتحاد السوفياتي طالبة منه المساعدة العسكرية مقابل توريد القطن المصري[568].

كذلك رفضت الولايات المتحدة تمويل وإقامة السد العالي في أسوان كي لا تصبح مصر قاعدة متطورة زراعياً في المنطقة، ولكي لا يكون هذا السد المصدر المائي الكبير لري الأراضي المحيطة.

لقد كان رد الفعل المصري الطبيعي، ولدى القيادة المصرية، هو تأميم قناة السويس، وجعلها مصرية وإلغاء كافة الاتفاقات الموقعة بين الشركة والحكومات المصرية السابقة، والطلب من بريطانيا سحب بقايا القواعد البريطانية العسكرية المتواجدة حول القناة.

أبدت (فرنسا) منذ ولادة الثورة والكشف عن نواياها الوطنية والقومية، واستثارة المشاعر الوطنية وبداية دعم القيادة المصرية للثورة الجزائرية ضد الاستعمار الفرنسي كامل استيائها إزاء هذه المواقف، وبالتالي الانضمام إلى بريطانيا في موقفها في حال الخلاف مع مصر.

أما إسرائيل فكانت الطامة الكبرى إذا كانت تخشى دعوة القيادة المصرية لتحرير فلسطين وإثارة المشاعر العربية والإسلامية.

وفي الوقت نفسه بدأت يقظة الاتحاد السوفياتي الإستراتيجية، وميله نحو الشرق الأوسط، ودعوته الشعوب للتحرر من الإمبريالية أعلى مراحل الاستعمار على حد تعبير لينين (**1870 – 1924**).

كيف أديرت أزمة السويس من قبل القيادة السياسية المصرية:

اتخذ القرار كمباردة مفاجئة، من قبل القيادة المصرية، وأعلنه الرئيس (عبد الناصر) شخصياً في خطاب شهير موجه إلى المصريين، وإلى أبناء القطار والأمة العربية، ولقد كان القرار وطنياً محضاً ولكن ترك آثاره الجانبية (تداعياته)على امتداد رقعة الوطن العربي، حيث اتخذ صفة شعبية على صعيد الشعوب العربية، وشكل خطوة كبيرة نحو نمو وازدياد الوعي العربي في المواجهة مع القوى الخارجية.

خصوصية اتخاذ القرار العربي في الوطن العربي:

دور القائد المهيمن، وشخصيته وطموحاته الشخصية، والوطنية والقومية:

في تلك المرحلة وحتى يومنا، إن للقائد الفرد والزعيم، البطل دور مهم في صنع القرار الوطني واتخاذه وقد عرض الباحثون المشاركون في موضوع: (صناعة القرار في الوطن العربي)[569]، وسنعتمد عليه في هذه الصفحات كمرجع في تحليلنا لظاهرة إدارة أزمة السويس.

وإذا كنا قد المحنا إلى دور القائد الفرد في صنع واتخاذ القرار، فذلك لأن النظم السياسية العربية عموماً تابعت بعد الاستقلال وتكون الدول الهيكلة العامة للنظام والقائم على الدور الأكبر لرأس الهرم في النظام أعني: الرئيس الفرد، والقائد الواحد الأوحد الذي يسير جميع قواعد الهرم، من الأسفل إلى الأعلى.

ولا شك أن الصفات الشخصية للقائد الذي كان قد ركز عليها تراثنا السياسي، وأدبيات السياسة، وتطور شخصية القائد عبر الزمن[570]، وكذلك المستوى الثقافي للقيادة وتاريخها السياسي المنقول كتابة أو شفاهة، وما يتركه كل هذا في (لاشعور) القائد قبيل وصوله إلى القيادة، وأيضاً من الأبطال ومحركي التاريخ كأفراد وما تذكر هذه الصور من آثار في المخيال القائدي والشعبي على حد سواء، كل ذلك ترك أثره في ممارسة القيادة

السياسية والقيادة المصرية برئاسة الرئيس (عبد الناصر) لم تخرج عن هذه القاعدة من تلقي كافة أنماط التأثير، إن القرار الذي اتخذه عبد الناصر كان وطنياً، وقد ذكر الدكتور (اسيد سليم) في دراسته كثيراً من التفاصيل حول كيفية وصناعة هذا القرار الوطني، وكيفية إدارة الأزمة من قبل القيادة المصرية، ولقد سار هذا القرار قبل صدوره والإعلان عنه حسب الآلية التالية:

أولاً:

1– تمت دراسة العوامل المدعاة – إدراكية في القرار أي:

*** التشاور مع مجموعة اتخاذ القرار.**

*** النظر في بدائل التأميم.**

*** الرشد في عملية اتخاذ القرار.**

2– إعداد مشروع قانون تأميم شركة القناة.

3– إبلاغ مجلس الوزراء ومجلس إدارة هيئة القناة بالقرار.

4– الإخراج النهائي.

5– عملية اتخاذ القرار:

*** قواعد اتخاذ القرار.**

*** جمع كافة المعلومات، ومن مختلف المصادر.**

6– عملية تنفيذ القرار:

*** الكتمان.**

7– إستراتيجية حماية قرار التأميم:

*** التمسك بالقرار.**

*** التنازلات المحدودة.**

*تأكيد كفاءة الإدارة المصرية لإدارة شؤون القناة.

* تأمين الملاحة الدولية.

8- النتائج – التقييم.

ثانياً: العمليات الإجرائية

* المفاوضات بين شركة قناة السويس والحكومة المصرية.

* الأعمال التحضيرية لقرار التأميم.

* السياق المباشر لقرار التأميم.

* **قناة السويس والسد العالي في أسوان**[571].

تم اتخاذ القرار بسرعة، وبكتمان شديد، وقال الدكتور (السيد سليم) أن قرار تأميم قناة السويس كان أهم القرارات على صعيد مصر، والوطن العربي خلال النصف الثاني من القرن العشرين حيث مثل تحدياً سافراً للمشروع الغربي في المنطقة العربية، والذي كان يهدف إلى إبقاء المنطقة مرتبطة بالمصالح الغربية[572] لقد شكل هذا القرار الوطني تحدياً، وأزمة كبرى بين (مصر)، والغرب.

من خلال نقاط عملية إدارة أزمة السويس والخطوات التي خطتها القيادة السياسية تبين أن:

1- صناعة هذا القرار قد سارت بخطوات مدروسة (علمياً)، وهو ما يتفق إلى حد ما مع التخطيط المعاصر، والعلمي لإدارة الأزمات.

2- سارت العملية إضافة إلى الخطوات المذكورة، بتاثير مباشر للعنصر البشري، أي تأثير شخصية القائد الذي أخذ على عاتقه مسؤولية القرار وتداعياته (آثاره الجانبية).

لقد أشير في الدراسات السابقة حول عملية صناعة القرار العربي إلى امتزاج: الطموحات الوطنية، والقومية بالطموحات الشخصية[572] لدى القيادات الوطنية والقومية، وهو ما يقربنا إلى قول (هارولد لاسويل)، إن القائد يحول قضاياه الشخصية (الطموحات والميول الشخصية في السلطة) إلى قضايا عامة.

كذلك أشير في دراسات الندوة المذكورة للباحثين إلى تأثير الصفات الشخصية للزعامات المختلفة، وحرص بعض الزعامات علتحقيق الطموحات الوطنية في الأساس، وحرص آخرين بدرجة أكبر على مجرد البقاء في الحكم[573].

ومن ناحية أخرى كانت شخصية (عبد الناصر) متصفة ببعض المرونة إذ كان الرئيس الراحل ميالاً في صناعة القرار إلى التشاور الواسع، والحصول على أكبر قدر من المعلومات قبل اتخاذ القرار حتى وإن لم يلتزم بالتشاور بالضرورة.

والواقع كان التشاور هذا قد تم في المرحلة الأولى لحكمه[574]، تلك التي شملت قراره تأميم قناة السويس.

وفي إطار المناقشات في مجلس قيادة الثورة، حيث ك ان الأعضاء يسهرون الساعات الطويلة للمناقشة للوصول إلى قرار مشترك يرتضيه الجميع، ورغم حل مجلس قيادة الثورة، وانفراد عبد الناصر بالسلطة بعد ذلك، فقد استمر حرصه على معرفة رأي زملائه من أعضاء مجلس قيادة الثورة السابقين والذين اختلفوا معه أو أبعدوا[575].

النظر في أبعاد الأزمة:

لم تتجاهل القيادة المصرية دور رد الفعل الغربي، وخاصة (بريطانيا) لقرار التأميم، ودور إسرائيل في مواجهة أي قرار وطني لأي قطر عربي مجاور لإسرائيل سيما (مصر) التي تشكل القاعدة الكبرى من حيث موقعها الإستراتيجي، وتشكل العنصر الأكبر، من حيث التكوين البشري ومركز القارتين الآسيوية، والأفريقية، كذلك رأى الغرب بما فيه إسرائيل أن القرارات التي تصدر عن هذا البلد ستكون له انعكاسات على مصالحه مباشرة، ولذلك لابد من مواجهته وعرقلة تنفيذه، وإن لم يكن بالقوة السياسية والدبلوماسية فبالقوة العسكرية والصراع المباشر، وكانت القيادة المصرية مدركة لخطورة قرارها، ووضعت احتمال المواجهة العسكرية مع الدول المعنية بمصالحها في القناة، ولقد أشارت الدراسة المذكورة إلى أن الرئيس الراحل عبد الناصر طلب من معاونيه، وزملائه في مجلس قيادة الثورة كتابة تقويمهم لاحتمالات النجاح، والمخاطر المتوقعة في حالة تأميم القناة.

حشدت القوات البريطانية والفرنسية والإسرائيلية في المتوسط، ووصلت الأزمة على حد المواجهة العسكرية، ووقع العدوان الثلاثي على مصر، وفي اكتوبر 1956، وانفجرت في حينها المشاعر العربية في كافة أنحار الوطن العربي، وأظهرت حماساً غريباً، واستثنائياً، ومعبرة في الوقت نفسه عن غضبها العارم ضد الغرب والتأييد الكامل للقيادة السياسية المصرية، وبدافع شعبي لتحية الرئيس الذي أعلن القرار حيث حاز في إعلانه هذا على الصورة الكاملة للشخصية القيادية الكاريزمية وصعد كبطل مصري، وقوي في آن واحد أظهرت الشعوب العربية كامل استعدادها لتقبل فكرة الرجل العظيم[576] بناء على هذا القرار الوطني في تأميم القناة ومواجهة الغرب سياسياً وعسكرياً.

نظرة موضوعية إلى إدارة أزمة السويس:

1- لا شك أن الرئيس الراحل (عبد الناصر)، كان يتحرك بدافع وطني لتأميم الشركة ويعيد حقوقها وفوائدها لمصر، وكان في الوقت نفسه، شاباً يحمل في باطنه إحساساً بالمهانة من جراء هزيمة العرب في الحرب العربية والإسرائيلية الأولى 1948، واغتصاب (فلسطين)، علاوة على ذلك فكان يجسد الروح الوطنية والقومية، لذلك عندما أعلن في خطابه قرار تأميم الشركة كان واعياً أنه يخاطب المصريين، والعرب جميعاً، واستطاع تحريك المشاعر العربية الوطنية والقومية، وظهر بطلاً قومياً بلا منازع في تلك الفترة من التاريخ السياسي العربي الحديث، تلك الفترة التي ران على العقل العربي التخلف، والتأخر على صدور الأقطار العربية، والصدمات المتكررة منذ سقوط الإمبراطورية العربية الإسلامية، ومروراً بهيمنة السلاطين المماليك والعثمانيين، ثم الأوروبيين وتحصيل الاستقلال.

وكان الرئيس الراحل يدرك أن الوحدة العربية يمكن أن تحل مشكلات العرب السياسية والاقتصادية وتحقق الانتصار على إسرائيل الذي بدأ يشكل وجودها خطراً على الأقطار العربية.

2- حقق العدوان الثلاثي انتصاراً عسكرياً في المواجهة، وفي هذه النقطة يكون قد حقق أهدافه المباشر، ولكن الانتصار العسكري عادة ليس كل ما في الأمر، لأن عوامل أخرى دولية أخرى بدأت تدخل، وتلعب دورها في إدارة الأزمة، وأعني دخول: الولايات

المتحدة الأمريكية، والاتحاد السوفياتي في الأزمة، وتلك القوتين العظيمتين اللتين كانتا في البداية تراقبان تطور الأزمة، وكانتا تراقبان مجريات الأزمة نظراً لارتباط مصالحهما في المنطقة، فبدأت الضغوط ترمي بثقلها على أقطاب العدوان الثلاثي، فتحركت الولايات المتحدة لإقناع (بريطانيا وفرنسا وإسرائيل) بالانسحاب من السويس، ومناطق أخرى كسيناء، وبور سعيد والتوقف من ضرب المدن، وكذلك لفت الاتحاد السوفياتي انتباه الأقطاب الثلاثة إلى أنه موجود، ويمكن أن يكون طرفاً في هذا النزاع، وتم الأمر فانسحبت القوى الثلاثة في العام نفسه (ديسمبر 1956).

3- كان من نتيجة كل ذلك أن إدارة الأزمة من قبل القيادة المصرية قد نجحت على الصعيد السياسي الوطني والقومي، ولكن في الوقت نفسه وضعت المرحلة الناصرية ومنذ البداية اللبنة الأولى في مرحلة ما بعد الاستقلال في تكريس دور الفرد والبطل، في صناعة أحداث المنطقة، على النطاق القومي، وقطعت الطريق أمام الطموحات الديمقراطية، والمشاركة السياسية للمواطنين وللمعارضة، وسدت آفاق التعددية السياسية، في العقل السياسي العربي في العصر الحديث، ومنذ ذلك الوقت أصبحت القرارات العليا المتعلقة بالحرب والسلم من شأن الحاكم الفرد، وقد جاء فيما بعد الرئيس الراحل (السادات) ليذهب إلى أبعد من ذلك في صناعة القرار الانفرادي.

الفصل الرابع عشر
تجليات إدارة الأزمات في بعض الحالات المعاصرة

(3)

1- السياق الدولي للأزمات العربية المعاصرة وإدارتها:

إن تاريخ العالم، والدول لم يخل يوماً من الأزمات والصراعات، هذا التاريخ يراه البعض سجلاً لجرائم البشر، وإذا كانت هذه نظرة سوداوية، إلا أنها لا تخلو من نصيب من الحقيقة، ووقائع وأحداث التاريخ لا تكذبها أما بالنسبة إلى وطننا العربي.

فلقد تميز التاريخ السياسي العربي الإسلامي القديم، والحديث والمعاصر بكثرة الأزمات، وقد لا تكون هذه ميزته، بل قدره، والتي تعود إلى عبقرية مكانه الجغرافي التي جعلته منذ القديم محط أنظار وأطماع وارتباط مصالح مختلف دول العالم فإذا كانت العرب في موقع القوة فإنهم يتحكمون بموقعهم الجغرافي ويلعبون فيه دوراً رائداً في صناعة القرار العالمي أو الدولي، وعندما يكونوا في موقع الضعف، يصبح مصير الوطن العربي وكيانه معلقين في أيد أخرى تصنع الأحداث والقرارات العالمية كما ذكرنا سابقاً.

فخصوصيته تتأتى من عوامل عدة هي:

1) موقعه الجغرافي الإستراتيجي، كما قلنا الذي كان، وما زال، وسيظل موقعاً مهماً بالنسبة لقارات العالم المحيطة.

2) توفر الموارد الطبيعية فيه وهي عصب الحياة الدنيا، ونعيمها، فالجميع يريد أن يحصل على هذه الموارد في الصناعة والتجارة والزراعة، من ذلك: النفط ومشتقاته، ولِمَ لا، فعالمه الصحراوي، ورماله إن صح التعبير، هما أيضاً محط استثمار على الصعيد البناء والتعمير هذا بالإضافة لطاقته الشمسية.

3) الموقع الثقافي والديني (كونه مهد الحضارات القديمة) وهو يتجلى في كونه كذلك مهبط الأديان السماوية الثلاثة، (خاصة في المشرق العربي) مما جعله محط أنظار العالم (ثقافياً – ودينياً).

بناء على وجود هذه العوامل الثلاثة أصبح الوطن العربي لولب مجريات أحداث العالم، حيث تتضارب، وتتقاطع فيه مختلف المصالح العالمية، وهذا السياق جعل من الأزمات العربية الداخلية تزداد تعقيداً، ولاسيما أن الدول الكبرى أرادت منذ أن صعدت على المسرح العالمي، ولا تزال تريد، أن يكون لها دور في شؤون المنطقة، سلماً أو حرباً، وبتعبير آخر أرادت التدخل في إدارة أزماته.

ونتجه هذه الأوضاع، فقد أزدادت، وتعقدت أزمات الوطن العربي، وأخذت تنهك جسده، إذن إن معظم الأزمات العربية السياسية خاصة يزداد تعقيدها نظراً لازدياد الدور الخارجي في إدارة تفاعلاتها، وبعبارة أخرى نظراً لمصالح الدول الكبرى المتضاربة في الأساس وغياب الدور العربي الفاعل ولعل الأخطر من كل ذلك أنه بدلاً من تتوفر الإرادة العربية الواحدة، والراغبة في التنسيق العربي لبلورة موقف موحد قادر على وقف التدهور على الصعيد العربي، وهو أمر ليس سهلاً في الواقع نظراً لانجرار كل قطر من أقطاره نحو دور مختلف في لعبة المصالح الدولية، ومهما يكن من أمر، إن هذا الواقع المعقد والمتشابك يؤثر سلباً في إدارة أزمات المنطقة، ومعالجتها، ونحصد من نتائج هذا الواقع أن الخلافات العربية، تتسع هوتها، وتتعدد الاستقطابات الإقليمية العربية[577]، أو بعبارة أخرى تزداد خطورة التفتت العربي.

فالعرب المعاصرون يواجهون تحديات مشتركة، من الصعب على أي قطر عربي مواجهتها منفرداً لابد من العمل المشترك، وعلى هدى من العمل المشترك بناء على منهجية علمية، عقلانية والمصلحة المشتركة، وزبدة القول إن ضعفنا يزيد من قوة الدور الخارجي في إدارة أزماتنا، وهذه الإدارة حيث العنصر الخارجي (غير العربي) يصبح دوراً فاعلاً، لن تؤدي مطلقاً إدارتها إلى نتائج جيدة لمصلحة الشعوب العربية، هذا فضلاً عن الجهل شبه الكامل لأقطاب السياسة في هذه الدول أو القوى الكبرى للخصوصيات أو طبيعة المجتمعات العربية وتركيبها وتراكم تاريخها الماضي.

لقد سجلت المجموعة الدولية للأزمات L.C.G[578] عدداً لا بأس به من أزمات الوطن العربي نسجلها فيما يلي ونختار بعض الحالات كما قلنا في عنوان هذا الفصل للوقوف على طبيعة إدارتها:

1- مصر، ومسألة صحراء سينا.

2- الصحراء الغربية بين (المغرب العربي - الجزائر).

3- السودان - (أزمة دارفور).

4- الصومال.

5- الطائفية، والقبلية والعرقية في العراق.

6- أزمة المقاومة الفلسطينية، (فتح وحماس).

7- أزمة الرئاسة اللبنانية.

8- أزمة في المحادثات السورية الإسرائيلية بشأن الانسحاب من الجولان المحتل.

2- النظام العربي، وإدارته للأزمات الداخلية والخارجية:

نعتمد في عرضنا هنا لمجمل سمات النظام العربي السياسي المعاصر (2006 - 2008) على التقرير العربي الذي رفعته مجموعة من الباحثين العرب الأجلاء بناء على طلب مركز دراسات الوحدة العربية في بيروت ونشر في كتاب تحت عنوان (حال الأمة العربية) والمنشور من قبل المركز ذلك بهدف الوقوف على السياق السياسي العربي الذي يلقي، بلا شك بظلاله على السياسات القطرية العربية، كل على حدة.

جاء في هذا التقرير ما يلي: وفيما يتعلق بالنظام العربي، ومحنته فلقد شهد هذا النظام في المدة التي وضع فيها هذا التقرير تناقضاً واضحاً بين قواه، ومؤسساته الرسمية التي كشفت عن عجز متفاقم بصدد مواجهة التحديات (الأزمات) المتمثلة في: الاختراق الخارجي، والتفكك الداخلي[580].

وبعبارة أخرى، تمشياً مع عملنا في هذا الكتاب، يبدو واضحاً أن إدارة الأزمات في النظام العربي السياسي القائم أو التحديات، والاختراقات الخارجية، وأزمات التفكك الداخلي، هذه الإدارة ليست على مستوى العصر، من حيث الخلفية الفكرية الناضجة فضلاً عن فقدانها للآليات العلمية، وابتعادها عن العقلانية، وعدم عنايتها بالمصلحة القومية المشتركة، التي تقتضيها العقلانية السياسية، جميع هذه الجوانب تفقد النظام العربي قدرته على إدارة الأزمات الإدارة الناجحة.

يعطي التقرير المذكور أمثلة على عجز هذا النظام في إدارة أزمات (السودان، وفلسطين، والصومال، والصحراء الغربية، ولبنان)، ورغم ذلك أنه بالرغم من الإنجازات الإيجابية واللافتة لقوى المقاومة، والمواجهة في هذه الأقطار إلا أنها لم تستطع حسم الصراعات والأزمات لصالحها[581].

ونتيجة هذه الإدارة المهلهلة، بقيت مؤشرات كثيرة أمامنا واضحة، متمثلة في أداء مؤسسي هزيل، مراوحة في المكان، ومناعة يزداد تآكلها في مواجهة الأزمات من جراء الاختراقات الخارجية، ومن ثم عجز واضح عن تحقيق الأهداف[582]، ويخلص التقرير إلى أن إدارة النظام العربي لأزماته، ومستوى الأداء السياسي، ضعيفان.

التقرير يظلم النظام السياسي العربي ظلماً شديداً عندما يضع المسؤولية الكاملة على إدارته، ويشدد على أثر العوامل الداخلية (طبيعة النظام) وتركيبته البشرية، ولكن بالمقابل فهو يهمل دور العوامل الخارجية في المساهمة الفعالة، والنشطة والدائمة في دفع هذا النظام نحو الارتباك في الإدارة للأزمات.

كذلك يهمل دور الشعوب العربية، التي تعي بذكائها كل ما يجري على الساحة، وهذا الدور الذي يوصف عامة بالسلبية، والذي يعبر عن نفسه أحياناً عن سخطه بالغضب (العربي) والانفجارات التي تظهر بين الحين والآخر والتي تفقد صفة الاستمرارية، وكونها (الشعوب) متفرجة في كثير من الأحيان ولا تعمل على دفع النظام السياسي العربي للعمل الجاد، في إدارة الأزمات، الإدارة المناسبة، سنتناول ثلاث أزمات اخترناها كعينة:

من المشرق العربي:

الأزمة اللبنانية (تمت إدارتها عربياً، واستخلاص اتفاق الدوحة 15 مايو/أيار2008).

من المغرب العربي:

أزمة الصحراء الغربية (أزمة مفتوحة).

من السودان:

أزمة دارفور (أزمة مفتوحة).

السؤال هنا هو كيف أديرت هذه الأزمات الثلاث داخلياً، وخارجياً؟

أولاً: الأزمة اللبنانية: أزمة الرئاسة وسلاح حزب الله (2006 – 2008).

سنستند في عرضنا لهذه المسألة إلى المصادر العربية، وبناء على تقارير موضوعية وبعض المصادر الأجنبية في محاولتها إدارة الأزمة، أخص بالذكر هنا المجموعة الدولية لإدارة الأزمات L.C.G التابعة إلى الاتحاد الأوروبي.

1. **الوضع اللبناني**: الاجتماعي السياسي – الانقسام الطائفي (1976 – 2008).

* بدا لبنان عام 2008 بعام استفحال الأزمة، وبصورة أعمق من حيث الانقسام الطائفي، عما كان عليه سابقاً، فلقد كان هذا الانقسام خلال الحرب الأهلية اللبنانية (1975 – 1990) بين المسلمين والمسيحيين، وكان طبعاً ذا طابع سياسي، ما بين قوى سياسية يسارية(583)، وقومية عربية لبنانية ذات توجهات علمانية قاعدتها من المسلمين، إلى جانب قوى سياسية عابرة للطوائف مثل: الحزب الشيوعي من جهة، وقوى سياسية تمثلت بالكتائب، والقوات اللبنانية ذات توجهات يمينية غربية من جهة أخرى.

* حالياً إن الانقسام الأعمق يبدو بين سنة لبنان، وشيعته الذين برزوا كأكبر قوة سياسية وعسكرية في لبنان، وعقب نهاية الحرب الأهلية اللبنانية تعززت قوتهم مع انسحاب إسرائيل من جنوب لبنان 2001.

* أما الوجه الآخر للانقسام اللبناني الحالي فيتمثل بالانقسام في الشارع المسيحي نفسه حيث انقسم المسيحيون إلى محورين رئيسيين موزعين على طرفي الانقسام الإسلامي في لبنان بين السنة والشيعة.

* توزع الشارع المسيحي بين المرونة، مركز ثقلهم العددي السياسي والروحي بين: المعارضة والموالاة رغم المرجعية الروحية للموارنة وكونها واحدة.

انتهاء مرحلة:

انتهت الحرب اللبنانية بموجب اتفاق (الطائف) الذي عكس توازنه القوى على الساحتين اللبنانية والإقليمية عام 1990.

* بدأ الانسحاب الإسرائيلي، وأصبح (حزب الله) أكثر انخراطاً في الحياة السياسية عن طريق المشاركة في الانتخابات النيابية.

* بعد الاحتلال الأمريكي للعراق (إبريل 2003)، واندلاع العنف الطائفي الذي ألقى بظلاله على الشارع العربي وخاصة في الدول المجاورة للعراق، اتسع نطاق الحديث عن: هلال شيعي ومثلث سني.

* تراجعت القوى العلمانية، واليسارية، والليبرالية.

* جاءت محاولات عدد من المنظمات المجتمع المدني التي تجاوزت الانقسامات الطائفية في لبنان لإقامة نشاطات بمناسبة ذكرى الحرب الأهلية، وتطالب بحل الأزمة الحاصلة[584].

* بلغت الأزمة ذروتها، في النصف الثاني من عام 2008، ووصلت أطرافها[585] إلى حد المواجهة المسلحة في شوارع لبنان.

3- معطيات الأزمة والوقائع:

* شهد لبنان عام 2006 وحتى الشهور الأخيرة من عام 2007 تجاذباً داخلياً، وتدخلات خارجية، وصلت ذروتها في العدوان الإسرائيلي على لبنان و(الجنوب) خاصة صيف عام 2006.

* بدا واضحاً أن ثمة استقطاباً حاداً بين معسكرين لكل منهما حلفاؤه الخارجيون (إقليمياً ودولياً):

- **فريق المعارضة**: يتخوف من مشروع أمريكي - إسرائيلي يهدف إلى تعطيل سلاح المقاومة سلاحاً، وقوة سياسية، وإدخال لبنان والمنطقة بأسرها في مشروع الشرق الأوسط الجديد.

– **فريق الموالاة**: المتخوف بدوره من مشروع إيراني – سوري، (على الصعيد الإقليمي)، وتعزيز نفوذه في لبنان، وبالتالي طلب الموالاة متابعة إجراءات المحكمة الدولية للتحقيق في جريمة اغتيال (رفيق الحريري) رئيس وزراء لبنان الأسبق.

– ومما عزز مخاوف الفريق الأول الدعوة إلى نزع سلاحه بالكامل بينما يرى أصحاب هذا الفريق أنه من المستحيل نزع سلاحه طالما أن العدو الإسرائيلي جاثم على الحدود اللبنانية يهدد في ضرب لبنان في أية لحظة.

– لا ترى الموالاة ضرورة لسلاح الحزب ولا تعتقد في حال المصالحة مع إسرائيل أن هذه الأخيرة ستهدد لبنان.

* أطروحات متعارضة، متناقضة، ولا وجود لأرضية مشتركة، ولا لعمود فقري يربط بين أجزائها، وفي مثل هذه الظروف، فقد تعطل الحوار.

* إن لهذه الأزمة كما هو واضح أبعادها المحلية والإقليمية، والدولية، وكما يقول خبراء، ومهندسو إدارة الأزمات، والصراعات في مثل هذه الحال من تطور الأزمات، فإن أطراف النزاع هم في أسوأ موضع لتسوية أزماتهم، وصراعاتهم[586] لذلك أصبح لابد من وجود طرف ثالث.

كانت اللجنة الدولية لإدارة الأزمات أحد الأطراف الثلاثة أرادت أن تساهم في إدارة هذه الأزمة، وقد درست معطياتها، وقد وضعت توصياتها المتمثلة فيما يلي:

بالنسبة إلى لبنان:

* رأت اللجنة أن هناك إجماع على انتخاب رئيس للجمهورية.

* وضرورة وجود بيان وزاري لبناني، ينص على أن وجود المقاومة حق مشروع، ولكن هذا الوجود يجب أن يكون مرحلياً.

* إعطاء الدبلوماسية فرصة النظر وإيجاد مخرج للأزمة.

* قبول، وتطبيق قرار الأمم المتحدة رقم 1701.

* بناء العلاقات مع سورية على مستوى تبادل السفراء، وفتح السفارات لدى البلدين.

بالنسبة إلى حزب الله:

* إعادة نظر في ميثاقه الذي وضع 1985، والقائل بإقامة دولة إسلامية.

* الطلب من الحزب توضيح موقفه بالإعلان عن إجراء إصلاحات داخلية فيه.

بالنسبة لسورية:

* تطبيع العلاقات، وتبادل السفراء.

بالنسبة إلى إسرائيل:

* الموافقة على إعادة مزارع شبعا، بإشراف الأمم المتحدة، بإشراف مؤقت.

* تجنب تحليق الطائرات الإسرائيلية في الأجواء اللبنانية بيروت بروكسل 2007/10/10.

4- الطرف الثالث: العربي، وإدارته للأزمة:

تمكنت دولة قطر، كعضو في اللجنة العربية المشكلة من قبل الجامعة العربية، من إنجاز، ما عجزت عنه الإدارة اللبنانية، والأزمات الدولية، وما لم تحققه الجامعة العربية[587] تحقيقاً كاملاً، وما لم تحققه دول أجنبية أخرى مثل: إيطاليا، وفرنسا، وإسبانيا.

والواقع أن كل هذه الجهود لم تكن فاشلة، بل لقد صنعت مناخاً ما، ومهدت سيكولوجياً للإدارة (القطرية)، ولا نكران أن لهذه الجهود التي سبقت الإدارة القطرية للأزمة قد تركت أثراً ما لدى طرفي الأزمة.

ولكن باعتبار أن الأزمة في الجوهر، والأعراض، لبنانية، وعربية، فقد بدا طبيعياً، نظراً للخصوصيات العربية على الصعيد السيكولوجي، وعلى صعيد المصالح المباشرة، أن يكون العرب مؤهلين لفهم بعضهم بعضاً بشكل أوضح من إدراك الأطراف الخارجية لعقلية، وسيكولوجية أطراف الأزمة.

لقد صرح صاحب ملف الأزمة اللبنانية في B.B.C إلى أهمية الدور الإقليمي – والدولي في التوصل إلى إدارة الأزمة، وتسوية خلافها، وأن كانت بعض تفاصيل هذا الدور ستبقى، ربما في طي الكتمان لفترة طويلة[588].

الانفراج: الإدارة العربية للأزمة

عملت الإدارة العربية للأزمة اللبنانية وضمن دائرة السياسة الإقليمية والدولية، وضمن هامش واسع لهذه الإدارة توصلت الإدارة إلى أن:

1) صدر على الفور الموافقة في كل من (إيران، والسعودية) صاحبتي النفوذ في لبنان من خلال تصريحات مؤيدة لاتفاق الدوحة، وستباركان للبنانين انفراج أزمتهم، وتوصلهم إلى تسوية وصفت بأنها حل لا غالب، ولا مغلوب[589].

2) يضع خبراء تسوية النزاعات والأزمات قواعد بسيطة وعملية، للتسوية، بحيث يخرج جميع الأطراف راضين عن النتائج، وترتسم هذه القواعد كالتالي: هنالك أربع نتائج محتملة للنزاع، واحدة منها هي التي تُعتبر مرضية وهذا يرتبط بفرع من علم الرياضيات يطلق عليه نظرية: اللعبة Game، ويمكن قياس النتائج على النحو التالي:

1- نتيجة موجبة +2 =	الطرف أ (+1) والطرف ب (+1) يشعران بالرضا، وتمت تسوية الصراع الأزمة
2- الحصيلة صفر 0 =	الطرف أ (يشعر بالرضا) (+1) ولكن الطرف (ب) يشعر بالاستياء (-1)
3- الحصيلة صفر 0 =	الطرف أ (يشعر بالاستياء) (-1) ولكن الطرف (ب) يشعر بالرضا (+1)
4- نتيجة سالبة -2 =	الطرف أ (لا يشعر بالرضا) (-1) ولكن الطرف ب (-1) الأزمة تستمر (1)

ويبدو بناء على هذه النتائج المرسومة أن أطراف الأزمة اللبنانية قد حققت النتيجة[590] وهو الشعور العام (ونقول الشعور العالم، والظاهر) بالرضا، وقد لا تكون النتائج مرضية للأطراف مئة بالمئة، وهو ما يحصل في تسوية كل الأزمات والصراعات عامة، ولكن على كل حال، أنقذ هذا الاتفاق البلد من أتون حرب أهلية جديدة طاحنة

كان يمكن لها انعكاساتها إقليمياً، وربما (عالمياً) إذا عملت هذه الأطراف الأخيرة على تأجيج الصراع كل حسب مصلحته.

لقد كان واضحاً منذ البداية أن الأطراف الإقليمية المعنية بالأزمة اللبنانية، وبعض الأطراف الدولية قد أعطت النور الأخضر للتحرك القطري بشأن التوصل إلى الاتفاق.

الدور القطري:

بدت دولة (قطر) منذ البداية كوسيط فاعل، ولاعب أساسي على الساحة السياسية في المنطقة[591].

اللعبة السياسية داخل دائرة إدارة الأزمة:

مهما قيل عن الدور القطري، والتوافق اللبناني في التوصل إلى اتفاق الأربعاء التاريخي، وهما أساسيان لا شك، إلا أن لعبة السياسة الإقليمية الدولية تبقى هي صاحبة الأثر الأكبر في تقرير ما جرى في ردهات فندق (شيراتون) في الدوحة.

لقد عكست تصريحات المسؤولين حول ما حصل: وهو ما يعبر عن رضى عام من قبل الأطراف الخارجية؛ فقد قال أحد الوسطاء في أعقاب التوصل إلى التسوية: لقد أبقينا قنوات الاتصال مفتوحة مع كل من: (السعودية، وإيران، وسورية) ووجدنا تجاوباً إيجابياً من العواصم الثلاث.

أما وزير الخارجية الفرنسي، فقد عبر عن غبطته في إعلان الدوحة.

وأما اللاعب الدولي الآخر فكان (النفط) الذي سجل سعره يومئذ 130 دولاراً للبرميل الواحد لقد تأخر الدور الأمريكي الذي رحب بحذر بتوصل اللبنانيين لاتفاق المصالحة.

وكان الموقف الأول إيجابياً.

الدور العربي، والجامعة العربية في إدارة الأزمة:

مثل اتفاق الدوحة (لحظة[592] توافقية بين كافة الأطراف واللاعبين داخل دائرة الأزمة ولكن يصعب القول بأن هذا الاتفاق قد أزال كافة العقبات من قبيل).

* الحساسية الطائفية المفرطة في المجتمع اللبناني، ونقول حساسية مفرطة وهي من مكونات المجتمع اللبناني، ونعني بالمفرطة أي أنها تحمل بذور التوجه المتطرف، والتصلب، الفاقد لمهارات الليونة، والتفاهم وهذا عنصر سيكولوجي (أشرنا إلى تأثيره في الفصل الرابع) من هذا الكتاب وقد يأخذ هذا التطرف تبريراته الطائفية والمذهبية، ولكنها حتماً ليست بالتوجه الديمقراطي ولا يعتبر مدخلاً للحوار الوطني المجرد عن الروح الطائفية السياسية.

* لم تمح (إلا مؤقتاً) في أيام الاتفاق، روح التصلب في المواقف.

* لقد وعي رئيس الحكومة في حديث له عقب الاتفاق مطالباً الجميع.

* بمداواة الجراح، وتجاوز مرحلة الانقسام[593].

* وفي تلك الأثناء أيضاً قال (سعد الحريري) رئيس تيار المستقبل.

* و إن الجرح عميق .

هذه الجملة الصغيرة، والعبارات المقتضبة، والتى قد تحمل آثارا جانبية(تداعيات) لتسوية الأزمة، ويعبر عنها السلوك السياسي، لها تأثيرها في إطالة الموقف الوفاقي أو تفجير الأزمة من جديد ،والدخول في مرحلة جديدة، وقد تعيق التقدم نحو البناء السليم أو تدميره، وذلك بحسب قوة وضعف هذه الآثار ومقاومة الجسد اللبناني لها، إنها جمل صغيرة تعبر عن عدم رضى باطن لشروط التسوية، وإدارة الأزمة.

على كل حال، إن نجاح النظام العربي المتجسد في (جهود الجامعة العربية)، والتحرك (القطري) الناشط والفعال قد صنعا قرار تسوية الأزمة، وقد بدأ جلياً أن أهل مكة أدرى بشعابها.

ثانياً:السودان وأزمة دارفور:

الوضع السوداني المعاصر:

مقدمة: لازم وجود السودان في شكله الحديث تحدي بناء دولة وطنية قادرة على جمع تلك التعددية العرقية والثقافية التي ميزت البلد منذ وجوده، وظل تشكل هذه الدولة

يقبع خلف كل أزمات السودان، وصراعاته المحلية، والسياسية والمسلحة، والثقافية، والاقتصادية، وإذ ترجع المشكلات الراهنة إلى تاريخ استزراع الدولة الوطنية من الخارج، وبطريقة متعسفة يعتمد على معايير إستراتيجية، وإدارية تسهل عمل الاستعمار الذي كان يجثم على صدر السودان، وهذا التطور التاريخي بدا مع ظهور السودان بوصفه كياناً سياسياً بعد غزو (محمد علي باشا) للسودان 1821[594]، ثم خروجه منها، وكان يطلق على الملك (فاروق) ملك مصر، والسودان و(دارفور)، ومنذ الاستقلال ظل السودان، وحتى اليوم يبحث عن صيغة مركزية، ولا مركزية تؤدي وظيفة إدارة الدولة الشاسعة جغرافياً، والمتنوعة ثقافياً.

لقد مثلت اتفاقية السودان التي وقعت أخيراً في 2005/1/9 أملاً كبيراً لمستقبل السودان في بناء دولة الوحدة والتنوع[595].

السودان بين المحلية، والتدويل:

صارت القضايا والمشكلات السودانية في حالة تدويل مستمر، ومتزايد منذ مجيء النظام الحالي إلى السلطة صيف 1989 ويعود ذلك لأسباب من أهمها:

* محاولة النظام المثابرة على إبعاد المعارضة السودانية عن المشاركة في إدارة الأزمات التي يعاني منها الوطن، ومال إلى تفضيل الوساطات الأجنبية التي أخذت تصل إلى البلاد، ووصل الأمر إلى الاعتماد على تدخل القوات الإفريقية، والدولية[596].

* تم الدخول في مفاوضات مع الحركات المعارضة والحركات الشعبية لتحرير السودان، وحركات (دارفور) وفي ظل هذه التدخلات الدولية، وقعت اتفاقات، وفي الوقت نفسه خضع السودان لتدويل أزماته بشكل متزايد على حساب الإدارة الوطنية، وأصبحت إدارة الأزمات تأخذ طابعاً دولياً وإقليمياً، معقداً جداً.

ومن مظاهر هذه الأزمات التي اشتد تعقدها وأصبحت مستعصية هي:

* حدود الجنوب.

* اقتسام الثروة النفطية.

* الأوضاع الإنسانية في دارفور.

* مسارات التنمية في بعض المناطق السودانية.

* منطقة آبي.

* الميليشيات العسكرية في الجنوب.

* جيوب أخرى مدنية ومسلحة في دارفور والجنوب.

وقعت اتفاقية سلام شامل لعام 2005، رأت فيه معظم القوى السياسية، وكثير من المراقبين أن الحصيلة العامة كانت دون التوقعات، وقد اعتقد الكثير من السودانيين أن الأزمات السودانية التي بدأت تظهر منذ 1956 قد آن لها أن تنتهي، بينما رأى البعض الآخر أن النظام السوداني أراد من هذه الاتفاقية تحقيق مكاسب حزبية حكومية[597].

ظلت الانقسامات الحادة بين القوى السياسية السودانية، وما سيقوم به النظام نفسه من تفكيك قوى المعارضة، كل ذلك يعصف بالحياة السودانية اليومية من معيشة كريمة، وأمن، واستقرار وتقدم.

استحقاق التحول الديمقراطي:

ربطت اتفاقية السلام الشامل بصورة شرطية بين تحقيق السلام، وإنجاز الديمقراطية، وقد جاء في مستهل المبادئ المتفق عليها.

إن وحدة السودان التي تقوم على الإدارة الحرة الشعبية، والحكم الديمقراطي، والمساءلة والمساواة، والاحترام والعدالة لجميع مواطني السودان ستظل هي الأولوية بالنسبة للطرفين، وإنه من الممن رد مظالم شعب جنوب السودان، وتلبية طموحاته ضمن هذا الإطار[598].

هذا هو الإطار المرجعي لإدارة الأزمة.

ولكن يبدو أن التحول الديمقراطي عنوان هذه الفقرة، هو الكفيل بإدارة الأزمة ديمقراطياً لم يتحقق لأن الأحزاب السياسية أدركت صعوبة تحقيق هذا التحول من دون أن تكون هي نفسها ديمقراطية في داخلها[599].

الدور الخارجي في إدارة الأزمة:

بدأت الأزمة الدارفورية صغيرة، وكان يمكن احتواؤها لولا سوء تقدير النظام، وتجاهل المظالم الإقليمية، واضطراب العلاقات الآثنية، وبخاصة بين الرعاة، والمزارعين، ومما زاد الأمور تعقيداً، كون التدخل الخارجي أخذ يلعب دوراً كبيراً، في دارفور، وكون هذه المنطقة محاذية حدودياً مع (تشاد وإفريقيا الوسطى وليبيا)، حيث تتداخل قبائل هذه المناطق المتاخمة من ناحية، ومن ناحية ثانية تفتح العيون الغربية على ثروات المنطقة من:

* الثروة الحيوانية.

* احتمالات وجنود النفط، والمعادن واليورانيوم.

وقد صرح وزير الخارجية السوداني مرة أن الغرب يريد من السودان (ثروة دارفور النفطية واليورانيوم، والتطبيع مع إسرائيل).

احتدمت الأزمة، واستفحلت ووصلت إلى حد الصراعات بين النظام السوداني، والقوى الدولية، وعطلت الأزمة الدارفورية علاقة السودان مع كثير من الدول الغربية، ودخلت الصين رغم بعدها الجغرافي على خط الأزمة[600].

الإدارة العربية للأزمة:

تعيش هذه الإدارة تردداتها، وتعيش حالةمن سوء تقدير المواقف المتنازعة، ولم تكن قادرة علىتقدير النتائج لهذه الأزمة، وخاصة (مصر، وليبيا)، فالأزمة مفتوحة، وعالقة تحتاج إلى:

1) وفاق وطني شامل.

2) إقامة دولة موحدة متعددة الثقافات.

3) تقسيم عادل للثروة.

4) المشاركة السياسية.

5) إقناع الأطراف الخارجية بالوقوف حيادياً إزاء أزمات السودان الداخلية ذلك أحد الأطر أو البدائل المهمة، والذي يمكن أن يشكل مرجعية لإدارة الأزمة الدارفورية.(فى 13

يوليو 2011 .تم انفصال الجنوب عن الشمال فى السودان وتكونت جمهورية جنوب السودان وبناء على استفتاء فى عموم السودان الى اجرى فى العاشر من العام المذكور ،وكانت اسرائيل الاولى التى هنأت وباركت الدولة الوليدة . (فى 13 يوليو2011 تم انفصال الجنوب عن الشمال فى السودان وتكونت دولة الجنوب بعد اجراء الاستفتاء بتاريخ 10-7-2011 وقد بارك مجلس الامن الدولى هذه الخطوة وكانت اسرائيل او كيان بارك هذه الخطوة – عن موقع ال BBCا على الشبكة العنكبوتية)

ثالثاً: أزمة الصحراء الغربية (الجزائر ـ المغرب):

منذ أكثر من ثلاثين عاماً، والصحراء الغربية تعيش أزمة، وبين حين وآخر تنقلب الأزمة إلى مواجهة، وصراع مسلح، بين بلدين جارين في الشمال الأفريقي هما: الجزائر، والمغرب (مراكش) وتقوم جبهة (البوليساريو) الصحراوية بالمواجهة بدورها مطالبة بحق تقرير المصير، فأطراف الصراع ثلاثة: الجزائر – المغرب – جبهة البلوليساريو.

وتجد هذه الأطراف نفسها عام 2008 أمام الطريق المسدود، رغم محاولة الأمم المتحدة إدارة هذه الأزمة، وتوجيه توصياتها للحل.

لعبت الأمم المتحدة في هذه الإدارة دور (الوسيط) المحايد، ومع ذلك، فقد أصبح التوصل إلى اتفاق بين الأطراف صعب المنال منذ عام 2003.

وأعلنت الأمم المتحدة عدم التوصل إلى اتفاق بين أطراف النزاع، وفي مقابل ذلك دفع الشعب الصحراوي ثمن عدم الاتفاق هذا، وترك آثاره السلبية على وحدة المغرب العربي الكبير وعلى مقاومة دولة في سبل تحقيق مصالح شعوبه.

وللخروج من الأزمة، فقد قرر مجلس الأمن إعطاء خيارين للأطراف:

* إما اللجوء إلى استفتاء عام، وحر، وعادل للشعب الصحراوي.

* أو العزوف من قبل الوسيط الحالي، مع النظر في هذه الأزمة، وبالتالي عودة الصراع[601] لقد رتبت الجزائر والبلوليساريو أمورهما، وعملا على حل خلافاتهما.

ومع تبني القرار 1754 الذي يدعو إلى المفاوضات بين الأطراف، فقد فعل مجلس الأمن إجراء الاستفتاء.

ويقول التقرير الرسمي للمجموعة الدولية لإدارة الأزمات إن الحل يكمن، أو هو ممكن إذا أفسحنا المجال للأطراف الثلاثة بالمفاوضات، مع إتاحة المجال إعطاء تنازلات من قبل الأطراف الثلاثة.

والخلاصة: تتلخص مواقف الأطراف حسب ما جاء في تقرير المجموعة الدولية المذكورة فيما يلي:

* بالنسبة للمغرب، عودة أراضي الصحراء الغربية إلى الأرض المغربية، والاعتراف بالشرعية الملكية المغربية عليها.

* بالنسبة لجبهة البوليساريو، إن الأمر بالنسبة إليها المطالبة بالهوية الصحراوية، المستقلة.

* بالنسبة للجزائر يجب إعادة النظر في مسألة ترتيب الحدود الموروثة عن المرحلة الاستعمارية وإعادة رسم هذه الحدود، التي كان وقد وضعها (الاستعمار الفرنسي، وكذلك الحفاظ على التوازن الإستراتيجي بين الأطراف، وإقرار الجزائر التزاماتها إزاء جبهة البلويساريو.

يبدو حتى الآن أن اللاعبين الرئيسين في إدارة الأزمة هم:

* الأمم المتحدة.

* الجزائر.

* المغرب.

* البوليساريو.

لقد أذاع مجلس الأمن توصياته بشأن تسوية الأزمة[602]، وكانت توصياته هي التالي:

1- إقناع الحكومة المغربية تنظيم استفتاء عام للشعب الصحراوي لتقرير حق المصير الذي يمكن أن يؤدي إلى استقلال الصحراء المغربية.

2- أو دعوة المغرب، والجبهة، والجزائر للمفاوضات لإيجاد مخرج للأزمة، مع الاتفاق المسبق على قاعدة يتفقون عليها[603].

يبدو، أن الإدارة العربية لهذه الأزمة غائبة تماماً، وسؤالنا هو: لماذا لا نتخيل أن إدارة عربية مشتركة للأزمة يمكن أن تنجح في إيجاد مخرج للأزمة؟ وأنه في عدم التوصل إلى تسوية ينتج ما يلي:

1- إن عدم إيجاد تسوية للأزمة يعرقل مشروع الاتحاد المغاربي العربي.

2- عدم تحقيق المصالح العليا لشعوب المنطقة المغربية.

3- وإلى عزلة المغرب العربي عن المشرق نظراً لانهماكه بهذه العقدة وعدم تمكنه من إعطاء الوقت الكافي للسعي نحو تحقيق المصلحة العربية المشتركة للأمة العربية.

هذه المصلحة المشتركة لصالح شعوب المنطقة، والتي تقوم على التعاون المثمر بين المشرق والمغرب، وحفاظاً على الأمن القومي الإستراتيجي، وتحقيق رفاهية الشعوب العربية وصون كرامتها[603] هي التي توجب الإسراع بتحقيق الإدارة المعقولة للأزمة.

الكتاب الثاني

القسم السادس

الفصل الخامس عشر

الغضب أرضية الصراع

لفت انتباهي وأنا أقرأ كتاباً لمؤلف وكاتب فيلسوف بريطاني واسمه A.C.Grayling (غريلينغ) وعنوان كتابة هذا (علة الأشياء The Reason of Things) وعندما وقفت بداية على فهرس عمله هذا وجدته يرتب أفكاره، بشكل لافت أيضاً، ففي هذا الفهرس عقد صلة أو أن هذا الترتيب أوحي بوجود صلة بين: الغضب، والصراع وأدوات القتال السلاح) والحرب، ونحن سنقف عند الحالة الأولى وهي نقطة انطلاق الصراع وما يهم أوراقنا هنا وهو حديثه عن الغضب، إذ يراه أولاً على رأس قائمة الانفعالات الإنسانية، وهو بطبيعة الحال انفعال، أو حالة سيكولوجية انفعالية ويقول في معرض حديثه عن هذه الظاهرة الانفعالية أن البعض يرى الغضب قدرة عظيمة لها آثارها الإيجابية إنها هوى قوي يتجه مباشرة إلى موضوعه، ويصارعه، وينتصر عليه، أما من حيث علاقته بظاهرة الصراع الإنساني، فبدهي أن الصراع يبدأ بالغضب، وبتعبير آخر إن الصراع كحالة سيكولوجية بدوره، يتجسد في حركة صراعية بين المستفز والمستفز.

ويرى آخرون أن الغضب عندما يطفح، ويصدر إلى الخارج، فهو يهدف إلى تحقيق الانتصار على الطرف المواجه بسبب هذه الحالة الغضبية، إنه يهدف إلى إرباك الأطراف المواجهة ويهدف أيضاً إلى تشتيت قواهم.

ويرى الكاتب المذكور أن أشد المناطق في العالم تتجسد فيها حالات الغضب والذي قاد إلى الصراع هي منطقة الشرق الأوسط، إذ أن هذه المنطقة تكاد تكون الفريدة في التاريخ وفي تاريخ الشرق الأوسط المعاصر التي تتجسد فيها حالات الغضب الإنساني، والتي تملأ الدنيا وتشغل الناس بالحالات الغضبية التي تقودها إلى الصراعات[604].

الخلاصة: غالباً ما يكون الغضب ممزوجاً بالرغبة في الصراع، إنه استجابة لحالة قد سببت ألماً عند الغاضب[605].

تاريخ التنظير للصراع البشري

لماذا يتصارع الناس؟ تأملات فلسفية وتفسيرات العلوم الإنسانية لظاهرة الصراع.

مقدمة: لماذا يتصارع الناس؟

ينشأ الصراع عادة عندما يكون شخصان، أو أطرافاً يعالجون الأمر نفسه بطرق مختلفة ومتعارضة، ومتضادة وحيث لا تتشابه الأطراف في المواقف، وقد قدم (إدوار دي يونو) مجموعة أفكار حول اختلاف الناس، وما يؤدي هذا الاختلاف بالتالي إلى مواجهة وصراع، يقول: (يختلف الناس لأنهم يرون الأشياء بصورة مختلفة، باختلاف كبير) [606].

ويعدد (دي يونو) أسباب هذه الاختلافات، وكونها مسببة للصراع، فيذكر أولاً:

المزاج، ويذكر قصته المتفائل الذي يرى أن الكأس مليئة إلى نصفها بينما المتشائم يؤكد على النصف الفارغ منها، وكذلك أن الاختلافات في المزاج نتيجة تغيرات الوضع الكيميائي للدماغ عندما ندرك الأشياء، وأخيراً تأثير الحالة المزاجية على التفكير[607].

البيئة (المحيط) وهي كلمة فضفاضة، وتوحي أساساً بأن الإنسان في هذه البيئة يرى الأمور والوقائع، الجارية بصورة مختلفة عن إنسان آخر وفي بيئة مختلفة.

النظرة المحدودة للأمور أو النظرة المحلية، وقد يكون لواقعه ما معنى في المسرح المحلي ولكن لابد من خلال إدراكها محلياً التمتع بالنظرة الواسعة للأمور.

اختلاف المجالات. إذ يبدو من الصعوبة بمكان أن يفهم صاحب أيديولوجية أو عقيدة ما، عقيدة أو إيديولوجية أخرى مختلفة[608].

إدراك جزء من الصورة، كما يفعل الإعلامي عندما ينقل ما يريد نقله من جانب معين، واختياره، وقد يكون هذا من مقتضيات عمله لكن في حالة الصراع علينا أن ندرك أو نرى الصورة كاملة.

ثم يتابع (دي يونو) عرض أفكاره حول أسباب اختلاف الناس وبالتالي انجرارهم نحو الصراع بسبب هذا الاختلاف، يقول يختلف الناس لأنهم يريدون أشياء مختلفة أو أن الصراع ينشأ لأن الناس ينظرون للأشياء بصورة مختلفة أو لأنهم يريدون أشياء مختلفة أو الاثنين معاً[609].

إن الاختلاف في الرؤية لا يؤدي آلياً إلى صراع، بل بالعكس من الطبيعي جداً أن يرى الناس الأمور بصورة مختلفة، وألا يغرقوا في الرؤية الواحدية الأحادية للأمور، وليس من الضرورة الانطلاق من اختلاف الناس في القيم والمفاهيم إلى مرحلة المواجهة، و للناس قيم أو مفاهيم مختلفة وهم يريدون أن تكون لهم خيارات مختلفة. عندما تختلف هذه الخيارات مع خيارات الآخرين هنا يكون الصراع[610]، وعندما تصطدم وجهات النظر ، أو تتعارض بعضها البعض يحدث الصراع[611].

الاختلاف في المبادئ، وكلمة مبادئ كما يعنيها (دي يونو) تلك المواجهات الصريحة، وغير الصريحة للقرار ربما تكون من مبدأ (الاستثمار الحر) أو (الفرص المتساوية) أو (النمو الاقتصادي) وقد قامت الثورة الفرنسية على مبادئ: الحرية والمساواة والأخوة، وليس من المرجح أن تكون هي الباعث الأساسي والقوي لحصول الثورة ولكنها بلورت الهدف بشكل كاف[612].

الشعارات: قد تتعارض الشعارات وتتناقض، وقد تؤذي إحساسنا، وتدفعنا إلى الصراع.

القيم، ترتبط القيم بالمبادئ والمعتقدات، ويمكن أن يكون الصراع هو في حقيقة الأمر، صداما بين القيم[613].

يقول (دي يونو) إن الصراع القاسي بين المبادئ والقيم، يجب أن يعامل بطريقة أكثر خيالاً من نظمنا الجارية ذات الصراع العاري المكشوف[614].

يحدث الصراع بين الناس لان أسلوب تفكيرهم المختلف يشجعهم على ذلك، فإذا كنت ديمقراطياً فهذا لا يقتضي التشجيع الآلي وغير المقدر لظروف البلدان الأخرى، على الأخذ بالديمقراطية قسرا، فبعض البلدان لا تملك الاستعداد لها في هذا الوقت وربما يكون ذلك في وقت آخر، فأنا مختلف لكن لا أتعنت في فرض اختلافي على الآخرين.

مبدأ التناقض، هو القاعدة لنظامنا المنطقي العادي: أمران متعارضان لا يمكن أن يكون كلاهما صحيحاً، فالشيء لا يمكن أن يكون صحيحاً وخطأ في الوقت نفسه،

ولكن أسلوبنا في التفكير القائم على مبدأ التناقض هذا، يدخلنا مباشرة في تفكيرنا الصراعي، وعلينا ننتقل من المصطلحات الحادة القاطعة، المتناقضة إلى مصطلحات توحي بالتعايش، النجار الذي يصنع طاولة يمضي بثبات في حرفته واضعاً القطع على بعضها البعض حتى يحصل على كل متكامل، هذا النجار لا يستخدم مبدأ التناقض فقد وجد أن هذه القطع يمكن أن توافق بعضها وأن مفصلاً يمكن أن يوضع بطريقة معينة هذا مبدأ إيجابي مناسب، وناجح ويمكن أن يصنع، هذا هو مبدأ البناء ويمكن استخدامه بدقة[615].

أخيراً يقول (دي يونو) لماذا يختلف الناس لأن من المفترض أن يختلفوا، والصراع أسلوب متوقع، ومتصل بحضارتنا، ويبدو أن حضارتنا معدة إعداداً عالياً لخدمة الصراع، فالأساليب تعم كل مواقعنا، آمالنا، ولغتنا، وهنالك فجوات واسعة في ثقافتنا تجعل الأمور دائماً تصل إلى صراع[616].

الناس يتكلمون ويحلمون دوماً بالسلام، ولكنهم يفكرون فقط بالطريقة التي توصلهم إلى عكس السلام، أي الحرب لأنهم يعتقدون أن الحرب توصل إلى السلام، وهي ليس بديهياً.

والواقع أن الصراع أمر مطلوب في أحيان كثيرة في الحياة، فالدفاع البطولي عن الوطن ضد المعتدين، أو ضد الطاغية لدى أمة من الأمم، أو شعب من الشعوب، وهنالك أوقات يكون فيها الصراع ضرورياً، وربما هنالك أوقات ربما يكون الصراع فيها ممتعاً كالمنافسة الرياضية والفكرية والعلمية، والصراع ضد الخرافة والجهل والتأخر، والصراع من أجل لقمة العيش، وهذه الأنماط الصراعية لابد أن تكون مجهزة بنمط رشيد، وعقلاني، لا تقوده الانفعالات مثل هذه الحالات الصراعية وتنقلب إلى صراعات بدائية لقد راى عالم النفس، والمفكر، جون ديوي (Johon Dewey 1952-1859).

يرى إن الحرب، والصراع ليسا متأصلين في الطبيعة البشرية، وهما ليسا حتميين، ويعبر عن أسفه عندما يقول أن ليس هنالك من دلائل ولا براهين تشير إلى احتمال إلغاء الصراع، والحروب ذات يوم، غير أنه كان يرى أن القوى التي دأبت بوعي على إشعالها لحروب قد تهتدي إلى إيجاد مخارج أخرى، وخلق حوافز جديدة مستندة إلى جملة من الأوضاع الاقتصادية، والسياسية، المستجدة، لذلك فإن الصراع (الحرب) إن هي إلا ابتكار ووظائف المؤسسات.

ففكرة الصراع، والحرب، وممارستهما بعيدتان عن أن تكونا متجذرتين في صلب الكيان الإنساني[617].

وخلاصة الموضوع: إن ما يهمنا في هذه الصفحات والتي يليها أمران:

1- التفكير حول الصراع - تأملات، ونظريات.

2- إدارة الصراع.

أولاً: تأملات فلسفية لظاهرة الصراع الإنساني

التفكير الفلسفي القديم

الصراع في الوجود، صراع الأضداد

هرقلبطس، فيلسوف يوناني،عاش في أواخر القرن السادس قبل الميلاد، يوم كانت (أيونيا) في أوج الثورة على الفرس، وسقوط مدينة الفيلسوف فريسة الفتن والحروب قاد هذا السياق العام، والتاريخي الفيلسوف إلى تأمل ظاهرة الصراع الإنساني والحرب متأثراً فكره بمجريات الأمور فلمس جوهر الدراما البشرية القائمة منذ فجرها الأول، فخلص إلى أفكار الصراع والصدام، والحروب، وقال: إن تنافر الأضداد، والتضاد بين رغبات الناس، ومطامعهم، وتناقضات أهدافهم، وقيمهم، واعتقاداتهم كل ذلك قادهم إلى الصراع، ووضع تأملاته الفلسفية على شكل شذرات فلسفية تناولت الطابع الكلي للصراع البشري، فوجد أن السمة العامة للوجود الإنساني هي: الصراع فقال إن: الحرب أبو الأشياء، فالكل يصارع الكل، وأن مسرح الوجود يعج بالصراعات والمنازعات ويفجرها تنافر الأضداد.

فصراع الأضداد إذن جوهر الوجود، وأول قوانين الوجود هو: الصراع، أو هي الحرب إنها بمثابة قانون أزلي وأبدي [(618)].

من تقابل الشعوب يتكون العالم الذي نعيش فيه، ذلك أننا منذ ولادتنا على سطح الأرض شهدنا متقابلات، وثنائيات، وهي تعيش متواجهة، بمعنى ما من قبيل: الليل والنهار الشمس والقمر، الأرض والسماء، الماء والنار، الشتاء والصيف، الحياة والموت، الخير والشر، الفضيلة والرذيلة، الحق والباطل، الفجور، الجمال والقباحة القوة والضعف، والديمقراطية والدكتاتورية إلخ...

تتواجه إن صح التعبير، هذه الأضداد، وتتساوق، وتتنافى، وتتعارض، وأحياناً تتحالف، وتتحد، أو تتصارع، وقوامها هو الجدل الذي هو بعبارة ثانية منهج تسير عليه هذه المتضادات.

إذن لقد تصور (هيراقليطس) الوجود صراعياً وجدلياً، عندما نقول صراعياً فهو على صعيد الفكرة، وعندما نقول جدلاً فهو المنهج في التفكير، ومنطقه، أي أن طريقة تواجد هذه التضادات هي طريقة صراعية، لا تعايشية سلمية.

الخلاصــة رأي الفيلسوف أن الصراع قائم في باطن الوجود [619] ويعلو ظاهره، ويدركه البشر بداهة، وبعقولهم ومشاعرهم.

وسننتقل من العصر اليوناني القديم إلى العصور الوسطى الإسلامية لنسير تاريخياً في استدعاء التنظير الظاهر والصراع.

النظرية الإسلامية في الصراع

مقدمة: الصراعات العربية في الجاهلية:

في الأربعينيات من القرن الماضي صدر كتابان لـ-: (محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البيجاوي) وهما تحت عنوان: (أيام العرب في الجاهلية) و(أيام العرب في الإسلام)، وهما كتابان يجمعان من عدة مصادر عربية تراثية ما تعلق بحياة العرب لمرحلة ما قبل الإسلام، وما بعده، تناولا علاقات العرب الصراعية، مع أنفسهم، ومع الآخرين، والمقصود هنا بكلمة (أيام) أي الوقائع، والصراعات التي دارت، والمنازعات سواء بين العرب، قبائلهم، أو بينهم، وبين جيرانهم من الفرس والروم.

لقد صارع العرب، وتصارعوا كغيرهم من شعوب العالم، وتاريخهم الصراعي يشبه تاريخ الأمم الصراعي، من حيث كونه سجلاً حافلاً بالمواجهات، والصراعات، والوقائع. (الأيام) هنا توضيح كما يقول المؤلفان الصلات التي كانت قائمة بين العرب وغيرهم من الأمم كالفرس، والروم، وتروي هذه الأيام كثيراً مما كان يقع بين: العرب القحطانيين، والعرب العدنانيين، من خلاف وبين العدنانيين أنفسهم من أسباب النزاع، بل إن هذه الأيام تساعدنا على فهم، ما وقع من أيام بعد الإسلام من حروب شجرت بين القبائل والوقائع والتي جرت بين الفروع والبطون والأفخاذ، وبين القبائل والعشائر، وترقى أيضاً قصصاً منهم في: الحرب والسلم [620].

وكما ذكرنا سابقاً إن من أهم أسباب صراعات العرب الداخلية:

1- الآبار (الماء) والكلأ (العشب) و(موارد العيش الضنينة في الصحراء).

2- الاعتداء على الجار

3- انتهاك الأعراض والاعتداء على الحريم

وقد ذكر الكتاب أن أهم الوقائع لمرحلة ما قبل الإسلام في ذلك العصر كانت الصفقة ويوم ذي قار [621].

ثم إن الأشعار المنسوبة لشعراء العصر الجاهلي تذكر الوقائع، والأيام والصراعات والنزاعات القبلية، وكذلك الصراعات مع الأعداء الخارجيين فحديث: الوغى، والرماح،

والسيوف والخيول الهائمة، وهياج المحاربين، وفروسية الفرسان كذلك ما ورد في قصائد الجاهلية لمرحلة ما قبل الإسلام.

وكان من عادة العرب توقيف القتال في أشهر معينة في السنة، وفي مقابل ذلك مع كون العرب أمة محاربة، مصارعة إلا أنها كانت وعبر السنة شعرائها منذ تلك المرحلة تدعو إلى السلم.

فالشاعر (عنترة) مثلاً يقول:

يخبرك من شهد الوقيعة أنني   أغشى الوغى وأعف عند المغنم

وفي مقابل ذلك كان (زهير بن أبي سلمى) يقول:

وما الحرب إلا ما علمتهم   وما هو عنها بالحديث المرجّم

العقيدة الإسلامية والصراع: (انظر آّيات القتال في القرآّن الكريم)

أولاً: من حيث المبدأ تحرم العقيدة الإسلامية الاقتتال، والصراع، وتمنع كل أشكالهما فالقاعدة في الإسلام هي السلم، والاستثناء هو الصراع، والتعاليم الإسلامية واضحة كل الوضوح في هذا المجال، فالمؤمنون في الإسلام هم أخوة في الله وأخوة في الدين، تظللهم روح الإخاء والتفاهم والمساواة، والمحبة الروحية، والرغبة في التعاون المثمر بين أفراد المجتمع، إن المؤمنين جميعاً تشرئب أعناقهم للعيش في الحياة الآخرة، فهم لا يكترثون إلا قليلاً بالحياة الدنيا لذلك فهم غير متهالكين عليها ولا يجدون مبرراً روحياً، ولا عقلياً للصراع من أجلها.

ثانياً: أبصرنا الوحي الإلهي بمكامن الطبيعة البشرية، واستعداداتها للخلاف والنزاع فدعا المسلمين إلى وعي قوانين الصراع البشري، فنزلت الآية القرآنية المشهورة حول التدافع وهي: الآية 251من سورة البقرة.

(ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض، ولكن الله ذو فضل على العالمين)

ففي الآية إيحاء مباشر إلى قانون وحتمية صراع البشر، ولكن ليس الصراع هنا من أجل الصراع، إنه من أجل العقيدة [622].

لقد نظم الفقه الإسلامي قواعد الحرب والسلم انطلاقاً من الأصول القرآنية، وكذلك وضع قواعد دقيقة لتنظيم:

1- التدافع.

2- الاختلاف وحله.

3- رد العدوان.

4- فقه تفاصيل الحرب.

5- الجنوح للسلم.

ثالثاً: كذلك وضع القرآن الكريم القاعدة العامة للتعامل مع الخلاف الذي ينشب بين المؤمنين، وذلك حسب الآية 9 من سورة الحجرات والقائلة:

(وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما، فإن بغت إحداهما على الأخرى، فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله، فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين).

فالعدل هو مرجعية التعامل مع الاختلاف، وبالتالي إدارة الصراع، كما هو واضح في الآية.

رابعاً: وضع الإسلام مبدأ الجهاد في سبيل الله، وهو يقوم على الصراع ضد الكفار، الذين يحاربون الله ورسوله، والمؤمنين ولنشر الدعوة وإحلال الإيمان، وليس في إحلال: مبدأ حب الدنيا، أو الدعوة إلى الانهماك بشهواتها وتلبية الغرائز البشرية، بل إلى الاجتماع في دائرة التقوى، ولقد وضع شروطاً للجهاد، ومعارك الجهاد، وكان الفقهاء قد ميزوا منذ قرون بين (دار الحرب) و(دار الإسلام) وهو التمييز التقليدي، فدار الحرب هي دار الكفار الذين يبيتون نوايا الحرب والهجوم ذد المسلمين ودار الإسلام هي دار المؤمنين.

خامساً: إن هذه الروحانية المثلى الذي زرعها الإسلام عند نزوله في نفوس أبنائه لم تكد تر النور، حتى توارت، وهي بعد غضة طرية العود، ولم يستطع أولئك الذين آمنوا بها الارتفاع عن مستوى الاستعدادات البشرية الكامنة الدافعة للصراع، والاقتتال، والعدوانية،

فسرعان ما سلت السيوف، وسالت الدماء العربية والمسلمة، وعادت النوازع الجاهلية بسيرتها الأولى وظهرت الصراعات من أجل: الشرف والرياسة وهذان هما قطبا الرحى الدنيوية فقامت الفتن والثورات والحروب الطاحنة وظهرت العصبيات القبلية من جديد، تلك المشاعر التي كانت قابعة في اللاشعور، والمخبأة في قعر النفوس. وهو ما ألمحنا إليه في فصل (العوامل الخاصة) في فصلنا الرابع.

هذا الواقع الأليم، والحالة الجديدة التي ظهرت بعد العهدين النبوي والراشدي، دفع أحد الباحثين إلى القول: إن أول ما يلفت نظر المتأمل في التاريخ السياسي العربي الإسلامي، ويثير دهشته ظاهرة تفجر الصراع الشديد، والحروب الأهلية الضيقة التي طبعت الحياة السياسية العربية منذ العهد الراشدي، بعد وفاة النبي بعقدين من الزمن، بين أصحابه وقادته والتابعين الذين كانوا المثال والقدوة في دينهم، وتقواهم، وفي سلوكهم، وخلقهم، وعلمهم، لكنهم في اختبار السياسة، وفي تعاملهم الخلافي فيما بينهم، وبشأنها تعرضوا وعرضوا المسلمين لمحن وويلات [623] ونضيف قائلين لم نتجاوز نحن المعاصرين آثارها الجانبية حتى اليوم.

ومنذ ذلك الحين أصبح التعامل وإدارة الأزمات، وإدارة الصراعات، تعاملاً دموياً تجلى ذلك في العهدين الأموي والعباسي، ودخل التاريخ السياسي العربي منذئذ مرحلة الانتحار السياسي.

ثانياً- عصر النهضة الأوروبية

الفلسفة السياسية: المكيافيلية والإستراتيجية العدوانية والصراعية

تعود هذه النظرية الإستراتيجية إلى شخص يدعى نيكولوميكا فيللي Niccolo Machiavelli، إيطالي عاش بين (1469–1527) ألف كتاباً صغير الحجم بعنوان (الأمير the Prince) ليكون تحت تصرف الأمراء، ليقرؤوه ويتبعوا نصائح هذا المؤلف حول نظرية شاعت في أدبيات الغرب والعالمين العربي والإسلامي وغيرهما أيضاً والقائلة بأن (الغاية تبرر الوسيلة)، والتي لا تعني أن تكون الغاية نبيلة بل أية غاية أحب أن أصل إلى تحقيقها أن استعمل كل الوسائل الممكنة المشروعة وغير المشروعة، الأخلاقية وغير أخلاقية، السلمية والحربية لكي أصل إلى تحقيق الغاية، أو الغايات التي أنشدها.

هذه باختصار شديد نظرية مكيافيللي وقد نصح المؤلف في كتابه الحكام والأمراء في زمانه أن يعملوا بهذه النظرية لاستمرار واستقرار حكمهم، وسيطرتهم، وتحقيق أهدافهم السلطوية.

يقول مكيافيللي: (من الضروري للأمير، ليستطيع الإمساك الجيد بدفة الأمور أن يتعلم كيف يكون كيف يكون سينا، وأن يستخدم طاقاته ومعارفه لهذا الغرض [(624)] والواقع يعتبر هذا) الكتيب كما يقول صاحب كتاب (علم الصراع)، كتاباً بشكل عام مجرداً من غرس العواطف أو الاكتراث بالوجدانيات، في تحليلاته السياسية وفهمه للواقع السياسي الذي يعيشه البشر.

وقد يتبادر إلى الذهن، السؤال حول علاقة هذه الكلمات بموضوع العدوان والصراع. الجواب يقول أولاًشهد التاريخ القديم والمتوسط والحديث ، وفى الدول غير الديمقراطية، إن السلطة أياً كانت طبيعتها، هي بالتعريف اغتصاب، وعملية عدوانية، وبالتالي يتطلب أمرها أن يكون لدى الحاكم كل وسائل الدفاع عنها، والإمساك بها بقبضة من حديد، في مواجهة من يريد أو يطمح إلى امتلاكها.

إن على الأمير أن يكون جيشاً، وأن يكون مستعداً في كل لحظة لأن يهاجم أو يواجه على أقل تقدير من يفكر بالاعتداء على سلطته إن أسس بناء الدولة [(625)] أو الدول كلها في رأي مكيافيللي تقوم على عنصرين أساسيين الجيش والقوانين [(626)].

إن إمكانية المواجهة، والعدوانية قائمة في بنية السياسة التي يتبعها الأمير، وكلمة الأمير تعني كل صاحب سلطة وليس المقصود بها الأمير بالمعنى المألوف في لغتنا ولكن المؤلف استخدام هذه العبارة لأن عصره في إيطاليا المقسمة إلى إمارات في ذلك الزمن من حيث كان لكل إمارة (مقاطعة) أمير يحكمها، ذلك قبل توحيد إيطاليا المعروفة، والتي عمل (غاريبا لدي) على توحيدها في بدايات العصور الحديثة رغم أن (مكيافيللي) كان من الأوائل الذين كرسوا جهودهم الفكرية لوضع أسس التفكير الاستراتيجي لكي يستخدمه السياسيون في أيامه، إلا أن نظريته الإستراتيجية حملت في طياتها نوازع مباشرة للتفكير في العملية الصراعية وكون الصراع أمراً واقعاً في حياة البشر، وهذا يشير إلى أحد المعاني الواقعية السياسية **Real Politik** والتي ما تزال تستخدم لدى ساسة الغرب السياسي عموماً، أي (التعامل مع ما هو واقع، وموجود) ومحاولة قبوله وتفهمه، وإذا كان الصراع الإنساني أمراً واقعاً وهو من الدوافع الإنسانية، فعلينا أن نتعامل معه، كواقع.

ومكيافللي في كتابة المذكور، وكما يقول صاحب كتاب (علم الصراع) يضع اللبنة الأولى ويرسم الخطوة العملية لفكر استراتيجي لمواجهة المواقف الصراعية ..[627].

الخلاصة: إن الصراع، أمر واقع، بين الأفراد وبين الأمم، وذلك نظراً لتضارب الأهداف، والغايات والمصالح، ولا بد إذا كان الصراع أمراً واقعاً من أن نحسن إدارته، إن نبدع الاستراتيجيات. الخلاصة في إدارته.

وهذه الاستراتيجيات الخاصة، يجب أن تأخذ بعين الاعتبار دراسة الواقع الصراعي الذي تواجهه دراسة، شاملة بتحليل الأسباب ودراسة السياق العام **Context** أي بنية السلطة السياسية، والجغرافية والاقتصادية والثقافية، والموارد البشرية والمادية للطرف المصارع، أو الذي نواجهه، أو يواجهنا.

ثالثاً: العلوم الإنسانية:

أ- **علم الاجتماع**: اعتبرت ظاهرة الصراع الإنساني، وتفسيرها أحد المداخل النظرية الأساسية للتفكير الاجتماعي، وقد عمل علماء الاجتماع على تتبع هذه الظاهرة وأسبابها لدى المفكرين الأيديولوجيين ك- .كارل ماركس. **K. Marx** وغيرهم.

فلقد وجد ماركس، Marx في نقده للرأسمالية أن الصراع يمثل جوهر النظام الرأسمالي سواء في طبيعة السياسة أو في العلاقات الاجتماعية، أو تعامل أفراد المجتمع، في المجتمعات الرأسمالية ذلك أن من منطلقات هذا النظام قاعدة أساسية فيه وهي التنافس، تنافس الجميع في المجتمع الراسمالي، أو لغة أشد صرامة حرب الجميع، ضد الجميع، وتدور رحى هذه الحرب، أو هذا الصراع في النظام الراسمالي حول ما يلي: الثروة والسلطة، والمكانة في المجتمع: وكذلك في المجتمعات، Wealth Power, and Prestige[628].

الأخرى غير الرأسمالية وحيث تختفي في المجتمعات التي بشر بها ماركس معالم، ومظاهر الصراع الاجتماعي.

وتتلخص أسباب الصراع الاجتماعي، وحتى الصراعات بين الأفراد في:

الأسباب الاقتصادية خاصة، وبعبارة ثالثة يتصارع الناس عادة، حسب نظرية (ماركس) لأسباب: اقتصادية، وبالتالي يذهب (ماركس) إلى اعتبار العالم الاقتصادي محركاً للصراعات بين الأفراد والمجتمعات والأمم والشعوب ولم لا فالاقتصاد محرك التاريخ، والخلاصة، إن الفروق الطبقية الاجتماعية الاقتصادية ومستوى العيش بين الطبقات وتوفر طبقات محرومة في المجتمع [629] هي الدوافع لصراعات اجتماعية لا نهاية لها، ويصبح المجتمع بكامله حلبة صراع لا أحد بقادر على إدارة هذا الصراع، لأن الجميع يزج بهم في المعركة. وهم أطراف فيها وينقلب الأمر، عوضاً عن إدارة الصراع، إلى الإدارة بالصراع.

والواقع كانت الماركسية تنتقد الرأسمالية باعتبارها تشكل الأرضية التي تجري فيها صراعات الناس، ولذلك فهي، أي الرأسمالية، أيديولوجية فاسدة، متوحشة ولكن الماركسية نفسها تنطلق عن نظرية العنف الثوري، والصراع، والنضال، والكفاح ضد الأنظمة الرجعية، القائمة، وبعبارة أخرى، إن الصراع الحقيقي يجب أن يدور بين الطبقات وصولاً لتحقيق المجتمع الاشتراكي الخالي من الطبقية.

ب- يدعم عالم الاجتماع ماكس فيبر Max Weber تأثير العالم الاقتصادي في حركة الصراع ولكنه يضيف عوامل أخرى لا تقل أهمية عن العامل

الاقتصادي، وهي العالم العرقي و الديني وتأثير هذين في الحياة الاقتصادية، وديناميكيتها، وبتعبير آخر، إن الصراع الإنساني له أسبابه المتعددة، ولا يقوم فقط بسبب العامل الاقتصادي، بل لا يقل تأثير العامل الديني بشكل عام عن تأثير العامل الاقتصادي.

ج- **ويجد عالم اجتماعي آخر وهو** (رالف داهر ندوري Ralf Dahre ndory) أن أسباب الصراع تتركز في امتلاك السلطة، أو بتعبير آخر أن ما يدفع إلى الصراع هو: تقسيم المجتمع إلى الحاكمين، والمحكومين، حيث إن الحاكم يسيطر على المحكومين من خلال خلق نظام بيروقراطي وأنظمة ومؤسسات تعاونية لصالح الحاكمين.

ولا ينسى علماء الاجتماع عموماً مسألة تضارب المصالح بين الأفراد، أو الجماعات، أو الدول وتناقض وتعارض هذه المصالح، وتسببها بالتالي للصراع.

د- **التفسير الجغرافي (المكاني) المجال الحيوي le Champs Vital** ذهب بعض علماء الجغرافية البشرية في تفسير الصراع الاجتماعي برده إلى أسباب التوسع الجغرافي في المكان، والاستيلاء أراضي، حيث قامت بعض الصراعات، والحروب بين أمم كثيرة العدد بسكانها للسيطرة على أراضي مجاورة، للتوسع الجغرافي وإحلال بعض من سكانها في الأراضي المحتلة.

ولعل من أهم أسباب إقامة الكيان الإسرائيلي هو: السيطرة على الأراضي لإحلال اليهود مكان الفلسطينيين تحت غطاء مطالب دينية فضلاً عن تكريس الغرب (لإسرائيل) كقاعدة عسكرية، وتكون جسراً لتأمين مصالح الغرب، وتلعب دوراً (تآمرياً) لتفتيت، المنطقة، واستثمار مشكلاتها الداخلية.

هذا من ناحية الصراعات الكبرى، أما الصراعات بين الأفراد فنكاد نلمسه في تدافع الأفراد في المدن الكبرى ذات الضغط السكاني، لتحصيل مكان أو موطئ قدم إذ أن كل واحد، أو كل أسرة تحاول أن تجد بقعة مكانية تقف عليها في هذه المدن، وكذلك يتدافع الناس أو يتصارعوا في الأمكنة الطبيعية عندما يتجاوز هؤلاء بعددهم المساحة الموجودة، أو المتوفرة.

فالصراع إذن له أسبابه (المكانية) كما تقول هذه النظرية.

النظرية الدراوينية (البيولوجية) في الصراع

تأمل (شارلس دارون) (1809– 1825) وهو عالم بريطاني، عالم الحيوان محللاً من بين مظاهر أخرى، ظاهرة الصراع، من أجل البقاء في عالم الحيوان، ومنتقلاً بعدها إلى عالم الإنسان، والتطبيقات الاجتماعية، لظاهرة الصراع، أي الصراعات بين أفراد المجتمع، وصراعات مجتمعات ضد مجتمعات أخرى، وتسأل فيما إذا كان هنالك تشابه ما بين ظاهرة الصراع الحيواني وظاهرة الصراع الإنساني؟ وكيف تجرى الأمور على هذا النحو؟

نظرية التطور، والاصطفاء النوعي الداروينية:

انطلق (داروين) من ملاحظات عالم الطبيعة، والحفريات الجيولوجية، أثناء رحلاته العلمية، وذلك لإثبات فرضيته العلمية القائلة: أن الكائنات الحية من أدنى صغرها، وصولاً إلى الكائن الإنساني ذاته، كلها تصارع من أجل البقاء، والعيش وفي غمرة هذا الصراع، يظهر ويكتب الاستمرار، والبقاء على قيد الحياة لمن ينتصر في الصراع، ووضع (داروين) كما هو معروف كتابه الرئيسي بعنوان أصل الأنواع[630] The Origin of Species يحلل فيه عملية الاصطفاء الطبيعي بين الكائنات حيث حلل سلوك الكائنات الطبيعية التي تمثل الحلقة الأضعف، فوجد أنها لا تستمر في الوجود بل إنها تنقرض، أو انقرضت عبر الزمن، ولم يكتب له البقاء في الوجود إلا لتلك الكائنات التي صارعت من أجل الوجود وانتصرت سواء في تحديها الطبيعة، أم في تحديها ببعضها لبعض، وأن الوسط الطبيعي Environment هو الذي حدد نوع الكائنات التي استمرت في الوجود حتى يومنا (عهد داروين) وبتعبير آخر لقد تم تدريجياً مع أحقاب الزمن المديدة، من قبل الوسط الطبيعي اختيار الكائنات التي تستحق الحياة، تلك التي امتلكت زمام القوة والتي أثبتت جدارتها في الاستمرار في العيش، وصارعت من أجل البقاء.

<لقد تكررت ظاهرة الكائنات الحية التي وجدت في الطبيعة واستطاعت البقاء على قيد الحياة بصراعها، وحتى أن الكائنات الضعيفة في بنيتها، فقد حاولت جاهدة أن تقاوم بطريقتها الخاصة كي تظل على قيد الحياة وسط الظروف الطبيعية المختلفة، وشروط الحياة القاسية، وظلت مصطفاة مستمرة في حياتها.

إن قانون تطور الكائنات الأدنى في بساطتها، ووجودها وصولاً إلى الإنسان الذي هو في أحسن تقويم، هي سلسلة متصلة، والإنسان هذا ليس مختلفاً من حيث تكوينه عن الشامبانزي بيولوجيا، وسلوكياً وحتى فكرياً إلا في الدرجة، وهما ليسا مختلفين في النوع... وهذا القانون الذي سماه (قانون التطور) أو نظرية التطور هو قانون طبيعي كوني.

والحياة الإنسانية تقوم، كما هي الحياة في عالم الحيوان، وسط الطبيعية على الصراع، والاصطفاء والانتقاء، لمن هو قادر على البقاء، والأصلح للوجود. كما تقول في لغتنا العادية: (البقاء للأقوى).

فالصراع هو من قوانين الوجود، بل هو جوهر الحياة، كما ترى هذه النظرية.

إن قصة الإنسان البيولوجية[632] The Story of Man والاجتماعية تدور حول هذه الدراما الأليمة، أي الصراع من أجل الحياة.

تعرضت، ولا زالت تتعرض نظرية (داروين) وخاصة في تفسيرها أصل الإنسان البيولوجي لانتقادات جمة، ولكن تظل فكرة (داروين) عن وجود ما يسمى الصراع من أجل البقاء، صحيحة يقبل بها كثير من علماء الاجتماع الإنساني، إلا أن هؤلاء يرفضون (التطور البيولوجي المتصل بين الكائنات الحيوانية – الإنسانية) لأن هؤلاء العلماء يؤثرون (العامل الثقافي) في نشأة وتطور الإنسان وتأثير هذا العالم على التطور البيولوجي ذاته.

على كل حال يهمنا كما قلنا في نظرية داروين (جانبها الصراعي، والتي ستمتد بتأثيراتها نحو الحديث عن (العدوانية) الإنسانية، ذلك أن بعض العلماء في السلوك الإنساني يرون أن: الصراع والعدوان في عالم الحيوان، والإنسان، هما وجهان لعملة واحدة، كما سنرى بعد قليل لدى لورنز Lorenz وغيره.

يعقد الورنز Lconrad Lorenz صلة بين الصراع والسلوك العدواني لدى الإنسان في كتابه الشهير (العدوان)[633] يقول إن السلوك العدواني تعبير من غريزة، وعن طاقة كامنة في التركيب البيولوجي للكائن الإنساني، تصدر نحو الخارج، ويقول مباشرة في المقدمة أن كتابي هذا يبحث في الغريزة العدوانية أي غريزة الصراع. لدى الحيوان، والإنسان.

وقد فصل ذلك في كتابه: تطور وتعديل السلوك[634] نظرة مفادها الإنسان ليس سوى حيوان (يصارع) الإنسان ومع ذلك فهذا السلوك الحيواني خاضع للتعديل.

فالحيوانية ليست حتمية والسلوك العدواني ليس قدره المحتوم.

آدم سميث، وصراع المصالح

أدم سـميث (1723–1790) باحـث اقتصـادي بريطـاني، ويعـرف فـي الثقافـة الأنجلوسكسونية بأبي الاقتصاد الحديث، ورأس النظام الاقتصادي الرأسمالي[635].

يقول سميث كل فرد إنساني مخلوق، يبحث، أو يسعى نحو مصلحته الخاصة Self Interest، ولا نكران في هذا القول ما يضمر في لغتنا اليومية» النزوع الأناني للفرد، في الحياة أو تأكيد أنانيته الخاصة، وكأن هذه الأنانية هي في طبيعة البشر، وهذه الأنانية تدفع بالأفراد والجماعات نحو المزيد وتراكمية الخيرات المادية، وذلك يؤدي طبعاً إلى المزيد من التوسع في آفاق الحياة الاقتصادية (الإنتاج، والعمل).

إن الإنسان في نظر (سميث) يسعى دوماً نحو (الثروة) إن هذا السعي هو جوهر عمله الفكري، نظام حياته، وهذه الثروة هي بتعبيرنا هي (الرأسمالية) ذاتها. كتب (سميث) كتابه في 1776 ثروة الأمم The Wealth of Nations وهو النص الأول الذي اعتبر إنجيل الرأسمالية.

ولكن السؤال الذي يطرح هنا، هو: ما علاقة هذا الكلام بنظرية الصراع الإنساني؟ الجواب لا يخلو من سهولة، ذلك أننا إذا قلنا، كما يرى (سميث) أن أفراد المجتمع يبحثون عن مصالحهم، وأن مجموع هذه المصالح (الخيرات المادية) تشكل ثروة المجتمع، وليس هذا من الأنانية بمعناها الشعبي، ويؤدي هذا السعي من قبل الجميع نحو المصلحة، إلى تقسيم العمل وبالتالي تبادل المصالح، وكذلك يجب أن يتم هذا العمل وتبادل المصالح في جو كامل من الحرية. أو ضمن نظام يقوم على حرية السعي الطبيعية System of Natural Liberty وهذه الفكرة الأخيرة تلتقي مع نظرية الاقتصاد الحر، الفرنسية، والتي يعرفها الاقتصاديون والقائلة <دعه يعمل دعه يمر> Laissez faire laissez passer.

ولكن (ديناميكية البحث الفردي) والاجتماعي، عن المصلحة الفردية، أو مصلحة المجتمع ككل تصطدم مع مصالح المجتمعات الأخرى ويحصل الاصطدام أيضاً بين الأفراد وهم يبحثون كل واحد عن مصالحه الخاصة، وأحياناً يتم خرق القوانين من أجل تأمين المصلحة الذاتية، أو الاجتماعية وأحياناً كثيرة يتصارع الباحثون على الثروة

والخيرات المادية وتراكمها إذ أن كل فرد يستطيع أن يزعم أن هذا وذلك له، والآخر يواجهه بالقول أنا أحق منك بهذا، إن التنافس، على الثروة والجاه، وامتلاك الخيرات، هو من طبيعة المجتمع الثرواتي، أو المجتمع القائم على تأمين مصالح أفراده فقط، ربما على حساب مصالح الآخرين وهنا ينشأ الصراع.

الواقع إن في الرأسمالية كنظام اقتصادي، واجتماعي وثقافي كل إمكانيات الصراع، متوفرة بدءاً من التشجيع التنافسي، والبحث عن المصلحة، والمنافع وانتهاء بالعملية الإبداعية على الصعيد الفكري، ولكن لابد، للرأسمالية أن تأخذ بعين الاعتبار وجود ضوابط أخلاقية لتنظيم عملية الصراع على المصالح بين الأفراد وبين المجتمعات، وبين الأمم، ولكن هل الضوابط والقوانين الأخلاقية، تتحكم دوماً في عملية التنافس والصراع على المصالح بين الناس والمجتمعات والأمم؟[636].

علم النفس الصراعي[637]

ويعرض علم النفس الحديث، مجموعة أخرى من تعاريف الصراع، وخاصة من وجهة نظر علم النفس الاجتماعي، فهو: اصطدام بين حالتين، أو نزاعات سلوكية تولد تناقضات مختلفة ولا تبنى نظريات الصراع على المحتويات المعاكسة على بنية تجمعات صراعية.

ويميز في نظريات الصراع السلوكية بين التقارب، والحذر مع إظهار تراكيب مختلفة تحدد قوة الصراع ومدته.

وتهتم نظريات الصراع (الظاهرية) اهتماماً أساسياً بالمعاش الصراعي، أي معاش الانفصال، والشك، والإحباط.

كذلك تعتمد نظريات الصراع المعرفية على أسباب التقييم في بروز الصراع: خيارات تنافسية، مواقف غير عادية، خلاف بين الآراء والأفكار.

كذلك يتعلق الأمر بتطور الصراع بعبارات دينامية الجماعة: تنافس، مواجهة بحسب المرتبة، والدور والاتصال المباشر أو الضوابط، والصراعات العرقية والدولية ثم أن نظريات الصراعات التعليلية، وأسباب انطلاقة الصراع واستمراريته: الاستعداد للدفاع عن النفس، والحاجة إلى التآلف، أو العدائية، أو الميل إلى الغش والتزوير والخداع...الخ.

أما في علم النفس العيادي فتعتمد نظريات الصراع بحسب نموذج علم نفس الأعماق على المنحدر، اللاواعي لظهور الصراع وامتداده أو آليات الدفاع، ومواجهة الخطوط الموجهة للوجود.

ولا تحاول أخيراً نظريات الصراع فقط توضيح أسباب الصراع، ولكن أيضاً إظهار كيفية القضاء على نظرية الاستسلام له، وبالفصل بين المتخاصمين بترتيب وفاقي، أو بالتذكير بنشوء الصراع الذي غالباً ما ينسى[638]، وسنختار فيما يلي جانباً من جوانب الصراعات السيكولوجية المألوفة في حياتنا اليومية.

صراع الدوافع والقيم:

يعرف الصراع السيكولوجي بأنه التعارض بين دافعين لا يمكن إرضاؤهما في آن واحد لتساويهما في القوة، أو هو الحالة النفسية المؤلمة التي تنشأ عن هذا التعارض كالصراع بين أهواء الفرد وشهواته وبين مبادئه وقيمه**220**[639].

ويصنف الدكتور (راجح) الصراعات السيكولوجية إلى:

* صراعات إقدام/ حيث يتعين على الفرد الاختيار بين أمرين كلاهما حلو، كالاختيار بين مهنتين وكليتين أو زوجين.

* صراعات إحجام/ حين يتعين على الفرد الاختيار بين أمرين كلاهما مر كما هو الحال في الزوجة التي تضطر إلى البقاء مع زوجها الذي تكرهه، لا عالة نفسها، وأولادها.

* صراعات إقدام وإحجام/ بين الرغبة في الزواج، والخوف من المسؤولية بين التزامات المنصب والرغبة في الاستمتاع بالحياة واستثمار الوقت لذلك[640].

وإذا تحدثنا عن (تصنيف الصراعات) فلا بأس أن نذكر باختصار منابع الصراع على حد تعبير الدكتور (عاقل) أو أسبابه بلغة أكثر وضوحاً.

المنابع الرئيسية للصراع النفسي هي:

1- الموانع المحيطة (البيئة المحيطة) التي تحول دون إرضاء الدوافع.

2– العيوب الشخصية التي تتداخل بصورة مباشرة أو غير مباشرة (عن طريق استجابات الآخرين) في إرضاء الحوافز.

3– الحوافز المتضاربة (التي ذكرنا بعضاً منها منذ قليل).

فبالنسبة للموانع المحيطة، فقد يكون المنع المحيطي اجتماعياً أو غير اجتماعي (أقرباء – أصدقاء – القوانين...الخ) في وجه إرضاء الخواطر أو المحيط الطبيعي كالقحط والمجاعة...

أما العيوب الشخصية كالذكاء المتدني، والقدرة الضعيفة على التخصص بعمل ما، الذي يحول بيننا وبين النجاح.

الحوافز المتضاربة، إذ تجبرنا الحوافز المتضاربة عادة على القيام بعملية تصميم صعبة، ولا شك أن هذا النوع من الصراع أشد انتشاراً، وأبعد أثراً من النوعين السابقين، مثال هل أذهب إلى الجامعة أم إلى السينما؟[641].

الفصل السادس عشر
علم الصراع

مقدمة

تكون غالبية الناس في مخيلاتها صورة سلبية عن ظاهرة الصراع، ورغم أنه يتمتع بشعبية كبيرة لدى كافة الشعوب، وعلة تكون الصورة السلبية المذكورة هي خوف الناس من استفحاله، وتطوره، وانحرافه نحو الاقتتال، والدمار، وهو أمر لا أحد من بني البشر الأسوياء، يهواه أو يعشقه.

إن الصراع في أبسط أشكاله يتسم بالعنف، ويقترب من الحرب، المنتصر والخاسر يخرجان منها غير راضين لأن المنتصر كان يرغب بالمزيد من تحقيق النصر، والخاسر يشعر بالإحباط والهزيمة ويضاع النصر، الخاسرون في الصراع يحاولون جمع قواهم اللدخول في المعركة القادمة والصراع، هو مواجهة، ونضال، يعبر عن نفسه أحياناً بأنه صورة من صور الكفاح من أجل قضية أو أمر أو هدف ما.

الصراع في الأصل سلوك حيواني تعلمه الإنسان، وطور آلياته والمصارع يتميز عادة بالتصلب وفي هذه الحالة يقال عنه بالإنكليزية إنه متصلب كالبغل **Stubborn as a mule** الصراع، أما كمقاضاة، فقد شرعت الأديان شرائعها لتحكم في قضايا الناس الخلافية، وفي نزاعاتهم، وصراعاتهم، والشرائع تحدد قوانين الصراع.

والواقع لا نستطيع أن ننكر وجود الصراع، فهو يدور بين الناس سواء داخل البيت، بين أفراد الأسرة، داخل القبيلة بين أفرادها بين الأصدقاء، وبين الطلبة، مع بعضهم، وبين هؤلاء، والمدرسين وطواقم المؤسسات التعليمية، بين العمال، وأرباب العمل، بين الرؤساء والمرؤوسين، بين الشعوب وبين الأمم، وبين السلطة والمعارضة وبين الأحزاب وداخل التجمعات.

ونظراً لوجود هذه المظاهر بحكم البداهة، فقد تأملها المفكرون، والفلاسفة وعلماء الاجتماع والنفس، ولقد بدأ الاهتمام العلمي بظاهرة الصراع (كعلم) في سبعينيات القرن الماضي[642].

والواقع أنه من الصعب – رغم الدراسات والبحوث العلمية حول ظاهرة الصراع – تفريغها من المضمون الإنساني أعني أن الظاهرة الصراعية تظل: ظاهرة إنسانية، تتعلق بحياة الناس، ومن هنا فنحن لا نخضع كفاعلين للصراع، للدراسات العلمية أو المختبرية، زد على ذلك أننا من الصعوبة بمكان الوقوف دوماً إزاء صراع ما يحدث هنا، وهناك، محايدين وبعبارة ثانية، من الصعب أن نتحلى بالموضوعية حول صراع نشهده، أو يحيط بنا أو نسمع عنه أو نقف متفرجين على الظلم الناتج عنه صراع ما، والذي يصيب أحد أطرافه، لأننا كبشر لدينا أحاسيسنا ومشاعرنا، ننظر، ونفكر، ولنا تجاربنا ومخزوننا الفردي والاجتماعي ومخزون الأمة التي ننتمي إليها، هذه (العناصر) تدعونا إلى نظهر رد فعل، ما[644].

وزبدة القول أن البنية العائلية، والتي نشأنا فيها، والمجتمع الصغير، والكبير الذي نعيش فيه والأمة التي ننتمي إليها، وحياتنا اليومية، كل ذلك يشكل خلفية لموقفنا الانفعالي عندما نواجه موقفاً صراعياً.

علم الصراع The science of conflict conf lictology:

تحدثنا بعض الكتب الحديثة عن علم الصراع بإعطائنا جملة من التعريفات العلمية لهذه الظاهرة.

الصراع، مواجهة تسبب خوفاً، وظهور عنف وقوة يصاحبها أحياناً عنف لفظي، وإهانة تمس كرامة طرف المواجهة. وذلك بغية إزاحة أحد طرفي الصراع، ودفعه بالقوة جانباً أو تحييده، أو القضاء عليه في أسوأ الأحوال[645].

ويعني أيضاً سلوكاً يهدف إلى تدمير أو إهانة أو التحكم من قبل أحد أطراف الصراع في الآخر.

ومن هذه التعريفات الحديثة والمعاصرة لهذه الظاهرة يمكن القول مستخلصين أن الصراع موقف يعبر فيه الناس من خلال صلاتهم ببعضهم، بشكل صريح أو ضمني عن الخلاف حول تلبية حاجاتهم، ومصالحهم، وأيضاً أن الصراع ينشب حين يظهر تباين بين فردين أو أكثر، في الموقف أو لهدف[646].

والصراع تعبير عن انهيار، وفشل التواصل، وتعطل الحوار، وهو أحياناً لعبة كروية وظاهرة شعبية.

والصراع كذلك يرمي أحياناً إلى توازن الأمور، وأنه مد وجذر، ورقص في الحلبة، أو هو زرع في بستان بانتظار الثمار(647).

أما من الناحية الثقافية فهو يدور بين ثقافات مختلفة، متناقضة في نمط التفكير، ونحن نتصارع عندما تكون مرجعياتنا مختلفة.

وأكثر ذيوعاً من كل مما ذكرنا القول إن الصراع ينشأ من جراء التنافس على الحصول على موارد العيش.

ويذهب مصدر عربي في تعريفه للصراع إلى القول: تجدر الإشارة إلى أن ظاهرة الصراع تعد من بين الحقائق الثابتة في حياة وواقع الإنسان والجماعة، وعلى كافة مستويات الوجود البشري إنه تصادم إرادات، وقوى خصمين أو أكثر، حيث يكون لكل طرف من الأطراف رغبة في تدمير الطرف الآخر كلياً أو جزئياً، بحيث تتحكم إرادته في إرادة الخصم، ومن ثم يمكن أن ينهي الصراع بما يحقق أهدافه وأغراضه(648).

وتختلف طبيعة الصراع في شدته وعنفه، فقد يظهر في مستويات مختلفة:

1- قد يظهر صراعاً خفيفاً، لطيفاً، وديعاً محبباً.

2- قد يعبر عنه بعدم اتفاق في الرأي أو وجهات النظر، ويقف عند هذا الحد.

3- قد يكون في مستوى مشادة لفظية، أو هجاء متبادل بلغة الشعر العربي.

4- قد يعبر عنه بحملة عسكرية.

5- قد يقود إلى المحاكم.

6- قد يؤدي إلى الحرب والاقتتال(649).

وفي أعلى مستوياته، وشدته يؤدي إلى الحرب، وحول ظاهرة الحرب تنطع أصحاب النظريات الصراعية والحربية في تعداد أنماط الحروب. هل الصراع علم جديد؟

يتساءل (جيمس شيلنبرغ J.A. Schellenberg) الأستاذ في جامعة أكسفورد في مستهل كتابه الصادر عام 1982 تحت عنوان: علم الصراع The science of conflict قائلاً هل الصراع علم جديد؟ من الجدير بذكره أن فكرة الحرب تقترن في ذهن المؤلف المذكور بفكرة الصراع، إذ أنه يشرع منذ البداية عند مناقشته للسؤال المقترح حول كون الصراع علماً جديداً أم لا، وذلك بإيراده واقعة أحد الأشخاص الذين عرفهم ورفض حمل السلام والمشاركة في الحرب العالمية الأولى[650] ولقد أورد بعض التفاصيل عن الرجل، عندما عمل على جمع كثرة هائلة من المعلومات حول ظاهرة الحرب وأخذ يحلل هذه الظاهرة من وجهة نظر: رياضية (رياضيات)، ومتسائلاً فيما إذا كنا نستطيع التنبؤ بمصير ونتائج ومستقبل الحرب، وقام الرجل بإعداد دراسة حول الموضوع.

ويقول (شيلنبرغ) إن فئة قليلة من الناس نظرت بجدية لدراسة هذا الباحث، في الوقت بينما نظر إليها (ريتشاروسون) بجدية واعتبرها أهم الدراسات، وكذلك وجد صاحبها صعوبة كبيرة لدى دور النشر لنشرها، وأخيراً تم نشرها بعد سبع سنوات من الانتظار تحت عنوان arms and lnsecurity and statistics of deadly quarrels جيوش ومخاطر وإحصاءات حول المشاجرات القاتلة[651].

وبعد ثلاثين عاماً من نشرها، أخذ الباحثون ينظرون إليها بجدية، واحترام، ولكن (جيمس) يتساءل لم لم ينظر إلى هذه الدراسة بالجدية المطلوبة طوال تلك الفترة، هل لأن ظاهرة الصراع الإنساني مسألة هي من السخف والتفاهة لدرجة أنها لا تستحق الدراسة؟[652].

اليوم لا يبدو هذا الأمر كذلك، وخاصة في مجال العلوم الإنسانية، إذ أن هذه الظاهرة تحتل مكاناً واسعاً في المعالجة، دراسة وتأملاً وخلوصاً إلى النتائج التي تستحق كل نظرة، واهتمام وجدية.

والواقع لقد بدأ هذا النوع من الدراسات يأخذ مجراه منذ الخمسينات من القرن الماضي على صعيد مقارنة ظواهر السلوك الإنساني، والنظر إليها من الزاوية المختبرية، والنظرية البحتة، وأصبح علم الصراع من العلوم التي تدرس في مختلف الجامعات الأمريكية والأوروبية – لا بل تكاثر الطلبة الذين رغبوا ولا زالوا في إعداد أطروحات

الدكتوراه في PHD في مجالات علم الصراع، كعلاقة علم الصراع بالعلاقات العامة Public Relations وعلاقته بالسلام Peace... الخ.

لقد تكون هذا العلم، واصبح فرعاً مهماً من فروع العلوم الإنسانية haman sciences أو العلوم الاجتماعية solial sciences كما يحلو للبعض التسمية وأصبح هو العلم ورديفه السلام، من الدراسات المهمة على الصعيد العالمي، بدءاً من الدراسات التي تضعها منظمة اليونيسكو Unesco ومروراً بالدراسات التي تضعها المؤسسات والمنظمات الخاصة والعامة في مختلف دول العالم، وجامعاتها.

ويقول جيمس شيلنبيرغ أمامي على المكتب، وأنا أكتب هذه الأوراق مجموعة من الدوريات، والمجلات حول مسائل <حل الصراعات ، والسلام، وأوراق صادرة من الجمعية الدولية للسلام...الخ[652].

وخلاصة الموضوع: يعود البروفيسور جيمس ليتساءل في نهاية صفحاته الاستهلالية حول سؤاله الذي انطلق منه وهو: هل الصراع علم جديد؟

يقول إذا كنا نعني بكلمة علم بحثاً منسقاً تجريبياً (مختبرياً) فالصراع ليس علماً من هذا القبيل. أما إذا نظرنا إليه كعلم منظم ومنسق حول النظر في السلوك الإنساني، وأن هذا السلوك (وضعي) أكثر منه معياري في مبادئه فهو علم بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى أي أنه يخضع لشروط الدراسة العلمية، ولكن دون أن نخلطه بمجال العلم المحض – pure scienceأي أنه له شروطه العلمية الخاصة به كفرع من العلوم الإنسانية.

يتكون كتاب (جيمس شيلبنرغ) علم الصراع من ثلاثة محاور رئيسية وهي:

1– الأسس النظرية للصراع.

2– دراسات مختارة عن العنف والصراع.

3– حل الصراع – والتسوية السلام.

وسنستقي من الكتاب بعض الفقرات التي سنترجمها حول:

الأسس البيولوجية للعدوان، وخاصة: نظرية (دارون شارل): **Charles Darwin** والذي ذكرنا سابقاً ونعالج الموضوع من مصادر أخرى، هذا بالإضافة إلى نظرية مكيافللي الإيطالي في الصراع، ولكن من زوايا أخرى مستمدين من المصدر المذكور. يرى كالترايسارد **(walter isard)** أن الصراع والحرب ينشآن أساساً من اختلافات الناس في بيئتهم... وهو يرجح تفجر الصراع والحروب لأسباب أهمها الاختلافات الثقافية بين المجتمعات أي في (نمط التفكير والعيش) ويقول يختلف علماء الإنثربولوجيا، وعلماء الاجتماع وعلماء النفس في تعريفاتهم لظاهرة الصراع، وكل ينطلق من طبيعة تخصصه العملي.

ومن الطرفة أن (إيسارد) يستشهد بالقول العربي المشهور: أنا وأخي على ابن عمي وأنا وابن عمي على الغريب[653] والخلاصة يرى معظم الباحثين في علم الصراع أن هذه الظاهرة لا تتمتع بالعقلانية والرشاد، إنها مرتبطة بالبنية الانفعالية والبيولوجية للإنسان من حيث تكوينه الفطري في الدفاع عن النفس، على صعيد الفرد أو المجتمع.

علم إدارة الصراع conflict Management

عرفنا حتى الآن أن الصراع أصبح علماً، في عصرنا الحديث، وقدمنا مجموعة من التعريفات لهذا العلم، وهذه الظاهرة الصراعية اقتضت، باعتبار كونها ظاهرة إنسانية نعيشها على صعيد حياة الأفراد والمجتمعات والأمم فلا بد من معرفة، وممارسة إداراتها، وأن توضع لها أسس لإدارتها قد وقفنا في الكتاب الأول من هذا العمل على علم إدارة الأزمة، وقلنا أن الأزمة مرحلة من مراحل الصراع، وكثيراً ما تصل الأزمة إلى مرحلة الصراع، والمواجهة، فلابد إذن أن تكون على بنية فيما إذا توفر للباحثين في علم الصراع إمكانية وضع قواعد معينة لإدارة هذه الظاهرة.

وعلينا أن ندرك منذ البداية أن الهدف الذي وضعه الباحثون في علم إدارة الصراع هو الوصول إلى حالة إيقاف الصراع، وبعبارة أخرى تحقيق السلم بين أطارف الصراع، وذلك انطلاقاً من بديهة قائمة على أن عقلنا الواعي لا يرى في الصراع سوى الشر المستطير وبالرغم من تكويننا اللاشعوري وما يخبئه من مشاعر مكبوتة، وميول غريزية عدوانية، ونزعاتنا المندفعة إلى الولوج في العوالم المتصارعة، ورغم شعبية هذه الظاهرة، إلا أن هذه الظاهرة الشعبية عندما تعود الشعوب إلى رشدها تدرك بعقلها أن الصراع هو

من النفايات القذرة ويصعب إدارتها، ومع ذلك، فنكران الظاهرة لا ينفي وجودها، وكلنا يرغب بالبحث في الحالات الصراعية، البحث عن الطريق المستقيم، والعدالة في حل وتسوية الصراعات.

لنتخيل أن طرفين أو أكثر. تجاوزاً الحالة الأزموية ووصلا إلى درجة المواجهة والصراع لأسباب وطنية أو قومية أو اختلاف في الثقافة، أو صراع من أجل الموارد، أو صراع من أجل الدفاع الأيديولوجي، أو صراع من أجل التغيير، أو من أجل السلطة...الخ.

ففي هذه الحال لابد من التركيز على الجانب المعرفي والمهاري، وبعبارة ثانية دراسة وتحليل واقعة هذا الصراع أو ذاك، ووضع الخطط العلمية لإدارته.

فمن حيث الجانب المعرفي، علينا أن نعرف أولاً نوع هذا الصراع، وطبيعته، والدوافع التي أدت إليه وبعبارة أوضح علينا معرفة من هم أطراف الصراع؟ وعندما نقول: معرفة من هم: أي أن إدارة الصراع لابد لها من دراسة وتحليل واقع أطراف الصراع من حيث الوقوف على:

الجانب النظري:

- قضيتهم.

- مواقفهم – أهدافهم.

- نمط تفكيرهم العام – وتفكيرهم الخاص حول فكرة الصراع.

- واقعهم الثقافي، نمط تعليمهم، وتربيتهم.

- سيكولوجية وسلوكية أطراف الصراع كيف يتخيلون الفشل والنجاح، النصر أو الهزيمة.

- الخلفية التاريخية، الخلفية الثقافية، الخبرات السابقة ففي ممارسة الصراع.

- واقعهم الاقتصادي.

– الجماعات المؤثرة في أطراف الصراع، وجماعات الضغط، وإدراك الأطراف الأخرى ذات المصلحة.

– من هم أصحاب القرار في الصراع.

– البنية الاجتماعية – التكوين العائلي – والطبقي.

– الوقوف على الجوانب: الإحصائية (الرقمية) والنوعية لأطراف الصراع.

– جمع كل ما يكمن من البيانات.

ولعل واجب إدارة الصراع أن يكون لديها:

1– القدرة على تشخيص أسباب الصراع واختيار الإستراتيجية الملائمة للتعامل مع هذه الأسباب أو بعبارة ثانية وضع خطة علمية (منهجية) لإدارة الصراع.

2– القدرة على التسوية العادلة للصراع، بالاعتماد على مرجعية تقوم على فكرتي العدل والمساواة والشرعية.

3– القدرة على حسم الصراع، والتمكن من المهارات التفاوضية: بالتركز على موقفي: القوة والسياسة (والدبلوماسية).

4– قبول واختيار الطرف الثالث المتمتع بالموضوعية، وعدم الانحياز والنزاهة.

5– التنسيق والتعاون مع كافة الجهات المعنية بالصراع.

6– صناعة القرار حسب الآلية العلمية لصناعته واتخاذه.

7– الإبداع في حل المشكلات (في إدارة الصراع).

وهذا جزء أساسي في عملية إدارة الصراع، وحله، ويقوم على تفهم المبادئ والأسس المنطقية لأي شخص يشارك في إدارة الصراع، ويرى (دي يونو) أن أساليب تفكير الصراع لسوء الحظ تختلف كثيراً عن أساليب الجدل، لهذا السبب فإن الناس الذين يشتركون في حل الصراع هم عادة أبعد الناس عن إمكانية الإمداد بتغذية إبداعية، والأمر ليس موهبة ولا مزاحاً، إن دور المتخاصمين لا يتيح للإثارة والتكهنات الإبداعية أن تتفتح

عليه، هنا تأتي الحاجة إلى الطرف الثالث في التفكير المثلثي **triangular system** والواقع يحتاج أطراف الصراع عامة إلى الطرف الثالث عندما يعجزون لأسباب عدة منها التقاليد (الفكرية) أو عدم التدريب، أو غلبة أسلوب الجدل الفكري، أو فقدان الكفاءة والخبرة في حل المشكلات، وأيضاً، وربما لأن النوايا غير متطابقة، والأمزجة متنافرة.

ويطالب الباحثون في علم إدارة الصراع أن تكون لإدارة الصراع مهارات ضافية وعملية من قبيل:

- أن ندع العقل والقلب يعبران.
- الإصغاء إلى أطراف الصراع.
- أن نكون عقلانيين قدر الإمكان.
- الاختصار في عرض الأفكار[654].
- ممارسة مهارة الحوار.
- عدم اللجوء إلى التهديد.
- استيعاب المواقف المظلومة، ومقارنتها مع الظالمة.
- الانحياز إلى الموقف العادل وبكامل الجرأة والمصداقية.
- التركيز على الجوانب الأخلاقية والإنسانية والروح الدينية ونداءات الضمير.

تمهيد:نحو اعادة تفكير فى وسائل ادارة الصراع :-

يرى إدوارد دي يونو في كتابه (الصراعات) أن علينا أن نقبل بأن أساليبنا لحل الصراعات والنزاعات الكبرى متحجرة وبدائية، وقاصرة، ومكلفة وخطرة، ومدمرة، والتعقيد المتزايد للعالم، والقوة المتزايدة لأسلحتنا تجبرنا على إعادة التفكير في أساليبنا لحل الصراعات.

حتى لو كان علينا إعمال أساليبنا التقليدية بأقوى عزيمة في العالم، وبأحسن النوايا، وبأعلى مستوى للذكاء، فإن هذه الأساليب لم تعد تكفي، هناك حاجة لنقله أساسية في طريقة تفكيرنا لحل الصراع.

ويلخص(إدوار دي يون) تمهيديه لكتابه المذكور بأن هناك ثلاث طرق لحل الصراع:

1- القتال/ المقاضاة.

2- التفاوض/ المساومة.

3- تصميم طريق الخروج.

الطريقان الأولان فقط هما المتاحان للمتصارعين، أما طريق التصميم فيتطلب طرفاً ثالثاً، يستطيع النظر على الحالة من زاوية الطرف الثالث[656].

يفتتح (إدوار دي يونو) كتابه حول الصراعات بفصل لا يخلو من أهمية وهو بعنوان: (طريقة عمل العقل وأساليب التفكير) لا نجد مبرراً للدخول في تفاصيل هذا الموضوع، لأننا كنا قد عاجلنا مسألة اكتساب مهارات التفكير كمقدمة عامة لإدارة الأزمات، والمخاطر والصراعات في كتابنا (مهارات التفكير ومواجهة الحياة) نشر دار الكتاب الجامعي – العين (الإمارات)، ط1 و2 (2003 – 2006).

إدارة الصراع السياسي
(العام ـ أو الدولي)

1– يرى الدكتور حامد ربيع (أن علم إدارة الصراع هو التحام بين التأصيل الفكري لعلم الحركة في النطاق الدولي، والتعامل مع الواقع بأبعاده المختلفة) وتكون إدارة الصراع على هذا النحو عملية اكتشاف لمتغيرات الموقف ومحاولة للتلاعب بتلك المتغيرات، بما يفرضه التدفق الحركي نحو الخصم فإذا بإرادته تنحني، وتشكك بالإرادة المهاجمة.

2– ولدى الدكتور (مجدي حماد) ترمي عملية إدارة الصراع بشكل عام، إلى محاولة توجيه الحركة السياسية، والسعي إلى تنشيط، أو السيطرة على الموقف السياسي بما يتضمنه من عناصر ضعف، وما ينطوي عليه من مصادر قوة من خلال أدوات، ووسائل متعددة فضلاً عن عمليات تحريك، وتوجيه متنوعة ثم التحكم في مجموعة متغيرات الموقف السياسي، وإعادة تشكيله في بعض الأحيان مما يسمح في النهاية بتوجيه الحركة، أو السيطرة على الموقف من خلال عمليات ضبط معينة، وفي اتجاه محدد، بحيث يصل مخطط الصراع إلى نتيجة تعتبر أكثر اتفاقاً مع مصلحته القومية، وأكثر تعبيراً عن الأهداف التي حددها في إطار عملية التخطيط للحركة.

وبهذا المعنى يمكن القول إن عملية إدارة الصراع تفترض أدوات متعددة ومراحل متتابعة، كما أنها تفترض وظائف متباينة، تبعاً للقوى المتصارعة ولطبيعة كل منهما، كذلك يمكن القول أن عملية إدارة الصراع لا تعدو أن تكون تنظيراً لمبدأ توزيع الأدوار عندما يأخذ ذلك التوزيع صورة التفاعل مع الموقف بقصد تصفية مشكلة معينة قد تحددت مكاناً وزماناً، وموضوعاً [653].

حبذا لو نعلق من جهتنا على هذين التعريفين لإضاءة المعاني الواردة والكثيرة في التعريفين المذكورين:

إن عبارة التأصيل الفكري، تعني الإمساك، أو اكتشاف عناصر الموقف الفكري، للخصم والتعامل مع الموقف كما يجري بحركته، وبواقعيته العملية أو بعبارة أخرى معرفة ما يريده أو ما يفكر به الخصم، أو طرف الصراع، لمعرفة التعامل معه، هذه نقطة، والنقطة الثانية: اكتشاف لمتغيرات الموقف والتحكم بهذه المتغيرات، وما يفرض هذا

التحكم من تدفق الحركة والمناورة بجعله يستسلم، أو يتشكك بقدراته على أقل تقدير.

أما ما جاء في التعريف الثاني، فيبدو أن عملية إدارة الصراع ترمي إلى التحكم بالحركة السياسية للسيطرة على الموقف، ومن ناحية أخرى حيث تبدو لنا مهمة بهذا الشأن، وهي اكتشاف عناصر القوة وعناصر الضعف من خلال تعاملنا مع الموقف إزاء الخصم، وذلك من خلال ما نستخدمه من عمليات تحريك وتوجيه متنوعة، ولعل الغاية الأولى والأخيرة في هذا التعريف هي الإيحاء لنا بإدارة الصراع بقصد: التحكم بالموقف بكامله أو السيطرة عليه، خدمة للمصلحة العليا للبلد الذي ننتمي إليه.

وعلينا أن نلاحظ أن التعريف الثاني يشير إلى نقطة معينة في أخريات كلماته وهي أن عملية إدارة الصراع تأخذ عبر التفاعل مع الموقف بنظرية: توزيع الأدوار والباحث يعني ضمناً >التقاليد الإسرائيلية في إدارة الصراع العربي الإسرائيلي< [654] حيث تأخذ هذه النظرية طابعاً خاصاً يعتمد على التعامل مع الصراع أو إدارته عبر توزيع الأدوار، وفي رأينا أن إدارة الصراع لا تقتصر فقط على هذا المبدأ، وإنما هي إدارة في غاية التعقيد يقتضي للتعامل معها: الإمساك بالقواعد العلمية لعلم الصراع، والقواعد العلمية لإدارته.

قواعد إدارة الصراع:

نستخلص مع باحثينا مجموعة قواعد لإدارة الصراع السياسي وهي: [655]

أولها:- القدرة على التمييز بدقة، بين عناصر القوة الحقيقية، ومواطن الضعف، حتى الباطنة، والخفية في الموقف السياسي.

ثانيها:- استغلال (عناصر القوة) إلى حدها الأقصى، ولو اقتضى ذلك اللجوء إلى نوع من التمويه، والمناورة.

ثالثها:- شل عناصر الضعف الذاتية أو محاولة تلافيها بحيث يستطيع الفاعل السياسي إن أمكن تحويلها إلى مصادر قوة.

رابعها:- استغلال عناصر الضعف في الخصم لأقصى حد ممكن بحيث يبلغ الاستنزاف، والإنهاك مداه، ولو في الأجل الطويل.

خامسا:– محاولة تحييد عناصر القوة في الخصم، أو العمل على تحويلها إلى عناصر ضعف ولو عن طريق المناورة بالعناصر النفسية، واستخدام أسلحة الحرب الدعائية.

لعل أهم ما نلاحظه في هذه القواعد، هو التركيز على: اكتشاف عناصر القوة والضعف في طرف الصراع الذي نواجهه وبكافة الوسائل التي تملكها وخاصة: استخدام العناصر النفسية والمناورة والواقع أن اكتشاف أو التركيز على عناصر القوة والضعف لا تقتصر على علمنا إياها أو محاولتنا اكتشافها في الطرف المقابل لنا في الصراع، بل علينا أن نسلط عليها الأضواء في كلا طرفي الصراع، فهي عملية مزدوجة، أي علينا أن نحددها في طرفنا نحن كطرف صراع أيضاً، وذلك بغية إزالة عناصر الضعف لدينا وتقوية عناصر القوة كطرف في الصراع.

الجوانب التطبيقية في عملية إدارة الصراع:

(إن مفهوم إدارة الصراع) لدى د. حامد ربيع يستمد مصادره في تطبيقين:

التطبيق الأول: هو كيف يستطيع القائد (أو مدير إدارة الصراع) أن يمسك بتلابيب الموقف، وأن يقود الموقف إلى النجاح في تحقيق أهدافه في ذلك الصراع.

يبدو أن الدكتور ، ربيع ، يركز على دور القائد أو المدير كشخص في الإمساك بتلابيب الموقف ويهمل دور المؤسسات الكبرى، البحثية، ومراكز الدراسات والمستشارين والخبراء، ودور المؤسسات في المجتمع المدني وكيف تلعب جميعها، وخاصة في الدول ذات النظام الديمقراطي في دفع القائد وإرشاده، والإيحاء له والإشارة إليه الإمساك بخيوط الموقف وهو لا يمسكها بمفرده، بل من حوله من أصحاب السلطة حيث كل يمسك بطرف من تلابيب الموقف الصراعي... والخلاصة أن >القائد< في الدول الديمقراطية ليس هو الممسك بخيوط الموقف، وإنما مراكز القرار في العواصم الكبرى، هي الممسكة بخيوط الموقف والرئيس هو في موقف أداة التنفيذ[657]، مع تمتعه بهامش في صناعة القرار وتنفيذه.

التطبيق الثاني: هو ما يتصل بالنشاط الاقتصادي وصلته بالفرد (المستهلك) أو (الدولة المستهلكة)[658]، فالصراع الاقتصادي في المجتمع الرأسمالي له قواعد لإدارته

بتأصيل مفهوم يسمى ب-(عملية التسويق) من جانب، والحرب الاقتصادية من جانب آخر، وفي كلا التطبيقين يكون الفرد العادي (المنطقي) هو الهدف لأنه سيتجه نحو السلعة التي تناسبه بالثمن والإشباع[659].

وتلخيصاً لما سبق من تعريفات، وتعليقات، يمكن القول أن: إدارة الصراع هي عملية تطويع المتغيرات، والقوى في نطاق التعامل الدولي، وهي بتعبير آخير: إدارة الموقف، أو الحدث الصراعي نتيجة التوتر الذي يتطلب لتصفيته اتخاذ قرارات، وتدابير للقرارات (سلوك قراري) وهذا السلوك القراري يمثل إدارة الصراع، والسلوك القراري يتوجه، نحو مرحلة جديدة من مراحل الصراع، وهي وعي تعارض الموقف والأزمة، القرارات وخلق التقارب بينها، وهذه المرحلة يسميها الدكتور ، ربيع ، بفن إدارة الصراع، حيث يتجلى هذا الفن في رأينا ليس في تأجيج الصراع وإنما الوصول إلى حال: الانفراج.

أشكال وأساليب الصراع:

كثيرة هي أشكال الصراع، منها الصراعات السياسية والاقتصادية، والاجتماعية والثقافية (صراع الحضارات)، والعرقية، وأخيراً صراع ما يسمى بالاحتيال وكذلك أنواعها لا تحصى كما ذكرنا في الصفحات الأولى من هذا الفصل.

وإن أساليب التعامل مع أشكال الصراع أيضاً متباينة >لتشمل: الحصار، والضغط، والاحتواء، والعقاب، والمساومة، والتفاوض، والتنازل والواقع إن أولى الخطوات الاستراتيجية كما يرى كثير من الباحثين لمواجهة الصراع هي أن يطرح مدير إدارة الصراع، أو لجنة المقاومة أو خليته دراسة الصراع، هي أن تطرح مجموعة من الأسئلة، الباعثة على التفكير وليست بالضرورة أن تكون أسئلة من طبيعة تأملية، باردة، بل من الممكن والمطلوب أن تكون أسئلة من طبيعة عملية والإجابة السريعة، للمواجهة الفردية للصراع الناشب، أو المحتمل.

وسنعمل في الأسطر التالية على تحويل الأسئلة التي يضعها الإستراتيجيون العسكريون عندما ينظرون إلى صراع ما، وجعل أسئلة إستراتيجية[660] (افتتاحية) عامة يمكن أن يطرحها أي مدير، أو إدارة ما، للصراع وهي من قبيل:

* من هو الطرف الذي نواجهه؟ كيف يفكر، وما هي الإيديولوجية أو الأفكار العامة التي تتحكم في سلوكه؟

* ما هي أهداف صراعنا معه، وما هي أهدافه كطرف مصارع لنا؟

* ما هي القوى التي يملكها في مواجهته لنا؟

* ما هي قوانا نحن التي نملكها لمواجهته؟

*كيف يمكننا الإعداد الجيد للمواجهة؟

* بأية وسائل سندير صراعنا معه؟

ومن خلال الأجوبة المحددة، والعملية، والسريعة على هذه الأسئلة التي تضعها (أو يضعها) إدارة أو مدير الصراع، وسواء كان صراعاً اقتصادياً أو اجتماعياً، أو إيديولوجياً، فإن مهمة أصحاب إدارة الصراع يمكنهم أن يضعوا الإستراتيجية لتوجيه الصراع، وتبدأ هذه الإستراتيجية كما يلي[661]:

1- تحديد الموقف وتطوير سياسة رد الفعل لحل المشكلة، بما يحقق المصلحة العامة لأصحاب إدارة الصراع... ويقوم هذا التحديد على: إدراك التهديد، وعدم الثقة والتجاوب

2- وضع الإستراتيجية، وتشمل:

* خطط وتحركات الإدارة، وقائدها لتحقيق أهداف الدولة.

إن الإستراتيجية العامة للدولة هي التي ستتولى جزءاً من الصراع – الحرب[662] مهمة توجيه الصراع من خلال مضاعفة الإمكانات الاقتصادية، والقدرات البشرية بقصد دعم الوحدات المواجهة للطرف الثاني المواجه، ويمكن استخدام أساليب فرعية في المواجهة كأساليب: الضغط المالي، والسياسي، والدبلوماسي، والتجاري والثقافي،وكلها تهدف إلى إضعاف الخصم[663].

متطلبات علم إدارة الصراع:

يمكن القول أن علم إدارة الصراع السياسي يفترض المقدرة الفكرية والمشاركة العلمية، فضلاً عن القدرة على التخيل والتنبؤ، مع استخدام الأساليب الفنية التي تمكننا

منهـا الثـورة التكنولوجيـة فـي نطـاق التحليـل السياسـي[664]، وإن إدارة الصـراع تتطلـب (موهبة) فذة تحسن تطبيق المبادئ الأساسية[665]، ويترتب على ذلك بعض المحددات يذكرها صاحب كتاب دراسة في إدارة الصراع الدولي وهي:

الأول: إن خصائص القيادة السياسية هي التي تتحكم في أسلوب إدارة الصراع، ومعنى ذلك أن نجاح عملية إدارة الصراع تفترض وجود تلك القيادة ذات القدرة على التأصيل الفكري مقروناً بالخيال الخصب الذي يتصف بالابتكار والأصالة فضلاً عن الدراسة العلمية، وتطبيق قواعد تحليل أساليب التحرك السياسي بجميع أنواعه[666].

ومن الضرورة بمكان أيضاً أن يتمتع قائد إدارة الصراع، وأعضاء الإدارة معه بثقافة سياسية، وكذلك الإلمام بالأفكار والآراء، وحتى الخلفية الثقافية لطرف المواجهة في الصراع[667].

الثاني: إن النجاح في عملية إدارة الصراع وبغض النظر عن خصائص القيادة يفرض عدداً من العناصر الأساسية أهمها: التكيف مع الموقف من جانب، والتخطيط من جانب آخر[668].

الثالـث: ضرورة عدم الخلط بين عملية (صنع السياسة) وعملية (صنع القرار السياسي) وعلاقة كل منهما بعملية إدارة الصراع إذ يمكن القول أن إدارة الصراع لا تعني صنع السياسة، ذلك أن عملية إدارة الصراع من حيث إطارها الخارجي ليست سوى اتخاذ مجموعة متتالية من القرارات[668] ولعل هذا يوضح لماذا يفرض نجاح إدارة الصراع وضوح الرؤية، وتحديد الأهداف، والقدرات، وإطار الحركة مسبق على الانتقال إلى توجيه مسارات الحركة[670].

الرابـع: إن الإعلام، يعتبر إحدى الأدوات الأساسية في عملية إدارة الصراع السياسي، وهو تارة وسيلة إعداد على مستوى صانع القرار أو توجيه الرأي، وهو تارة أخرى وسيلة للتمويه، وتكتيك القوى المعادية في وجهة غير الوجهة الصحيحة، بحيث يسهل حسم الصراع، وفي بعض الحالات يستخدم لتغطية عملية انسحاب مثلاً[671].

الواقع إن الإعلام وبكل ما يملكه من تقنيات متطورة جاءت مع الثورة التكنولوجية المعاصرة أصبح ما يشبه (سلاح الدمار الشامل) أي أننا بواسطته وبفعالية أدواته المختلفة نستطيع أن نحقق نصراً على الخصم بنسبة عالية جداً، والنسبة المتبقية تصنع الإدارة الصراعية البشرية فالإعلام أخطر مما يتصور الفرد منا، وإنه يصنع الهزيمة، ويصنع النصر شريطة استخدامه، وتوظيفه بواسطة مبدعة وذكية.

وأخيراً فإن عملية إدارة الصراع، تسعى في حقيقتها إلى التحكم في حركة التطور السياسي، من حيث المعدل والاتجاه، ومن هنا التأكيد على أهمية التخطيط السياسي، وأساس: ذلك أن الهدف النهائي لهذه العملية أو النتيجة النهائية له، إن أمكن القول هي:

أولها: محاولة تغيير معادلة القوة – بمعنى عناصر الضعف وعناصر القوة على جانبي الصراع.

ثانيها: محاولة تهيئة البيئة الدولية باستمرار ليس فقط كجزء من عملية تغيير معادلة القوة، وإنما أيضاً كمدخل لتوفير (الشرعية الدولية) للحركة القادمة.

ثالثها: محاولة الاستجابة بصفة دائمة للظروف المتغيرة سواء تلك الظروف التي تتصل بعناصر ومفهوم القوة، أو تلك التي تتصل بالبيئة الداخلية والخارجية للصراع[672].

دور التفكير الإستراتيجي في إدارة الصراع

مقدمة في أهمية التفكير الإستراتيجي:

رغم أن الإنسان كما يخيل إلينا تصدر عنه كثير من الأفعال والتصرفات العفوية، ونتصور أنها لم تمر عبر عملية تخطيط مبيت، إلا أننا نستطيع أن نتصور في الوقت نفسه أن هذا الإنسان لم يهمل في حياته اليومية، وفي أعماله الجادة التفكير المسبق أو النظرة التخطيطية السريعة لأمور يومه، وهو في حالة الوعي يخطط لأعماله لمأكله، ومشربه، ولعمله اليومي، ذهابه، ورواحه، ما يريد أن يفعله وما سيفعله فيما بعد، وفي عصرنا لا تغيب عملية التخطيط عن أعمال الإنسان أياً كان موقعه، ونظراً لتشابك، وتعقد عالمنا الحديث فالجميع مضطر، وفي أبسط الأعمال للنظر فيما يعمله، وفيما سيفعله أقصد التخطيط فيما يقوم أو ما سيقوم به.

والبحث في مجال الإستراتيجية إحدى محاولات الإنسان لاصطياد الحكمة في النجاح في العمل، والسلوك.

والواقع أن الناجحين في مختلف مجالات العمل قد امتلكوا مهارة التفكير الإستراتيجي، قبل ذلك وقبل أن يتم التنظير لهذا الميدان، ولقد جاء التنظير لهذا النمط من التفكير فيما بعد، من وجهة النظر الزمنية، وجاء كمحاولة لتفسير ما يدور في عقول المخططين لأعمالهم وطريقة تفكيرهم في صناعة القرارات الصائبة[673]، والواقع أن التخطيط عامة عدو الفشل.

ولقد عرفت الحضارات القديمة أهمية، ممارسة التفكير والتخطيط الإستراتيجي في العمل السياسي والعسكري، وفي التعامل مع الأزمات والمشكلات، والصراعات، وقد اشتقت كلمة إستراتيجية كما هو معلوم من الكلمة اليونانية **Strategia**، التي تعني علم الخطط الحربية، أو علم الجنرالات العسكريين، وتفيد الاستخدامات المحددة لهذه الكلمة في التاريخ القديم أن كلمة جنرال تعني تطبيق **Strategeo**.

وفيما يتصل بهذا المصطلح الذي لم يستخدمه السياسيون أو القادة العسكريون المسلمون في العصور الوسطى الإسلامية كما هو مفهوم في الفكر اليوناني إلا أن عملية التخطيط، ومضمون التفكير التخطيطي، أي الفعل الإستراتيجي، كنمط تفكير وفعل، وتحرك سياسي وعسكري قد مارسه هؤلاء بكل قوة واقتدار.

والأصل أن التفكير الإستراتيجي بمعنى خطة انتشار القوة لمواجهة مشكلة صراعية، وهنا على المستوى الروحي ونشر العقيدة الدينية، قد جاءت في الشريعة المحمدية منذ نزول الوحي عندما دعا الوحي النبي محمد (ص) أن يبشر بالدعوة الجديدة، وينشرها على الملأ وينذر عشيرته، ومن حوله، ويعلمهم بما تلقاه من عالم الغيب عن عالم الشهادة، والذي يهدف إلى إحداث انقلاب شامل في المجتمع القبلي، وثم الانتقال إلى المجال الأوسع أي مخاطبة شعوب الأرض قاطبة.

لقد انطلق النبي منذ بداية تلقيه الوحي نحو تحقيق هذا الهدف، ولم يتنازل عنه طوال حياته النبوية، حيث بدأ منذ البداية في: المواجهة والصراع.

ولقد اقتدى القادة العسكريون المسلمون الأوائل بالتجربة المحمدية فيما بعد في توجيه إدارة صراعاتهم وعند شروعهم بالفتوحات شرقاً وغرباً.

وحبذا لو نقدم تعريفاً حديثاً للإستراتيجية، تقول لنا إحدى المصادر العلمية إذا أردنا فهم ما يعنيه هذا المصطلح، فهو إعلان للنوايا، وتحديد ما نرغب في أن نكونه على المدى القصير أو المتوسط أو الطويل، وعلى الإستراتيجية أن يلم بكل العلميات بذلك، (أي أسلوب التفكير المنهجي) كي يتمكن من تفادي العثرات المحتملة، وذلك بهدف وضع إستراتيجية ناجحة[674].

إن الإستراتيجية تعني المسار المستقبلي بالنسبة للعمل المستهدف الذي ستقوم به ووضع خطة للقيام به، وفي مجالنا هنا إن التفكير الإستراتيجي هو: فن تخطيط إدارة الصراع[675].

هل الإستراتيجية عملية مفيدة:

نعم، ولا يختلف اثنان في جدواها في مختلف مجالات الحياة، لأنها تساعدنا على رسم طريقة للنجاح، وتساعدنا على بناء مهارات التحليل، والتخطيط، سواء في أعمالنا الخاصة أو العامة وهي في الواقع مفتاح التحرك الواعي في العمل.

أبعاد التفكير الإستراتيجي:

أولاً: إن صاحب التفكير الإستراتيجي يتصرف بصورة يقينية، ومدركة، وهادفة، وحازمة، ويعمل على اختبار الفريق الأنسب لتحقيق ميزة من نوع ما، (تحقيق النجاح).

فالعسكري الذي يدير المعركة مثلاً عليه أن يتخذ القرار الصحيح، ويضع الخطة العلمية، ويوظف الكم والكيف المناسبين من الإمكانات المتاحة لديه، وعليه من ناحية أخرى الربط بين الهدف وإمكاناته الإستراتيجية في اتخاذ القرار، فهو يقوم بمجموعة من الأفعال الهادفة ذات الطبيعة الإستراتيجية التي تقوم أساساً على قدرته على توظيف عقله الإستراتيجي الشامل في إدارة المعركة (الصراع)، وعليه امتلاك عقل إستراتيجي ذي الأبعاد المتعددة[676] من قبيل معرفة المسالك، والشروط الضرورية، ولديه كافة المعلومات والحقائق حول أطراف الصراع.

ثانياً: المفكر الإستراتيجي يعلم أنه لا يتحرك في فراغ لأن قوى أخرى حوله في مسرح الصراع تؤثر وتتأثر بطريقة ما في الحركة والتصرف، واتخاذ القرار، وقد تمارس ضغوطاً على النتائج التي يريد التوصل إليها، لذلك فعليه أن يراقب المشهد بكل تفاصيله الصغيرة، والكبيرة وتقترب منه أو تبتعد، دون السقوط من إحدى حوافه الخطرة، إنه يرقب، ويتابع، وينصت بأذن حساسة لكل ما يجري من مداولات إستراتيجية في ساحة الصراع عند الخصوم[677].

ثم إن طبيعة الإدارة الإستراتيجية للصراع تفرض على المخطط أن يقوم بمجموعة من الأدوار، ويطرح على نفسه مجموعة من الأسئلة:

*كيف يمارس دوره في تحفيز عناصره، بحيث يشكلون نسيجاً واحداً يواجهون بأسلوب موحد.

*كيف يفاوض قيادته لتزويد ما يحتاجه عناصره من دعم، وفي الوقت المناسب.

*كيف يفاوض أعداءه لتحقيق أكثر الشروط ملاءمة لتحقيق السلام، ووقف الصراع.

*كيف يمارس أسلوب المناورة الإستراتيجية ضمن السياق السياسي، والبيئي المحيط.

*كيف يحدد بدقة نقاط القوة، ونقاط الضعف لديه، الطرف الآخر في الصراع وفي ساحة الصراع.

*كيف يناور لجذب الآخرين، وعقد التحالفات معهم للتأثير في مجريات الصراع[678].

ثالثاً: المفكر الإستراتيجي هو الذي يملك حساً عميقاً بالزمن، متى يجب أن يتصرف وهو يدرس خططه، وتحركاته الإستراتيجية بعمق، وينفذها في أوقاتها المناسبة.

ويبدو ان القدماء بمن فيهم مدراء الصراع في التاريخ السياسي العربي الإسلامي قد أدركوا ركائز الخطط التي كانوا يضعونها حينئذ وحيث يمكن إجمالها فيما يلي:

1- الأهمية، وتعني أن الإستراتيجية تتعامل بجدية مع القرارات والقضايا ذات الأهمية البالغة دون غيرها من القضايا ذات الأبعاد التكتيكية، فعندما يعلم المفكر الإستراتيجي أن طرفاً ما في جزءما قد تناول مواقع إستراتيجية لدى الطرف الثاني، وقام بتدميره، فعلى مفكرنا أن يعلم أن هذه المواقع كانت مهمة، أي أن يستأنس بما فعله الطرف الأول في الصراع.

2- الشمولية، وتعني أن الفعل الإستراتيجي يتصف بكونه، واسع النطاق، يتعامل مع الإطار العام، وباتجاه المستقبل، ويقوم بأدوار واسعة الآفاق وربما غير متخصصة بوظيفة محددة بعينها.

3- النظرة المستقبلية بعيدة المدى، إن المجال الحقيقي لتطبيق الإستراتيجية هو دائماً ما سيقوم به الإستراتيجي في المستقبل، أي أن الإستراتيجية تنفذ عبر خط زمني يبدأ من الآن، ويمتد في المستقبل لسنوات، ومن هنا يعرف التخطيط الإستراتيجي بأنه مجموعة القرارات والأنشطة التي تتخذ الآن لضمان الأداء الإستراتيجي في المستقبل لذلك علينا أن ندرك منذ البداية أننا نتعامل مع ظاهرة مستقبلية[679].

4- النظرة الاستشرافية المستقبلية: من المهم أن ندرك أن علاقة وطيدة قائمة بين الدراسات الإستراتيجية، والدراسات المستقبلية، والتي بدأت تشهد تصاعداً منذ ستينات القرن الماضي[680] كان العالم، وما زال يشكل كثيراً من الضغوط على الأفراد والجماعات، وتتمثل في إنهاء المهام المحلة، والوفاء بأهداف العمل اليومية، والتغلب على المشكلات التي تطرأ على المدى القصير ويدخل كل ذلك في إطار التخطيط قصير

المدى الذي يتسم بالعمليات الإجرائية والذي غالباً ما يميل إلى الأخذ بالأولويات المباشرة من التخطيط للمستقبل.

بينما نجد أن الإستراتيجية تهتم بما هو آت، وتركز على المسار القادم للعمل، ووسائل الوصول إلى ما يستهدف تحقيقه في المستقبل، وحتى في معرفتنا لواقع العمل الذي نقوم به وتحقيق نتائجه المطلوبة، فإننا نحتاج دوماً إلى إستراتيجية محددة لضمان تحقيق ذلك في المستقبل[681].

رابعاً: الإطار الإستراتيجي: يتجسد الإطار الإستراتيجي في النقاط التالية:

* وضع الهداف الإستراتيجية[682].

* تحليل البيانات لفهم الوضع القائم.

* البيئة الخارجية – الفرص المتاحة – المخاطر.

* البيئة الداخلية – عوامل القوة – عوامل الضعف.

* تحديد الميزانية المطلوبة.

* تحديد مجال المردود العملي (المنتوج)، ومدى اتساع نطاقه.

* تحديد النقاط التي ترغب في تركيز إمكاناتنا المتوفرة حولها.

* تحديد الأولويات دون إهمال الأمور الثانوية – والصغرى.

* القيام بعملية التغيير لما يحتاج إلى تغيير في الخطة – الإستراتيجية.

* التقنية، والمتابعة، والمراجعة للخطة الإستراتيجية[683].

وتلخيصاً لهذا الموضوع إن بناء الإستراتيجية يحوم حول نقاط مركزية ثلاث:

1– تحليل، 2– وضع الخطة، 3– التطبيق(التنفيذ)[684].

خامساً: الخيارات الإستراتيجية: يضع خبراء الإستراتيجية آلية للاختيار الإستراتيجي الذي يحدد كيفية اختيار الإستراتيجية المناسبة في ظل العناصر الإستراتيجية في البيئة الخارجية والداخلية، ويجب أن يكون لدى المخطط الإستراتيجي مجموعة من

البدائل والخيارات المناسبة، وفيما يلي مصفوفة الخيارات الإستراتيجية.

عوامل الضعف	عوامل القوة	داخلية خارجية
اختبار بدائل إستراتيجية تستفيد من الفرص المتاحة وتتغلب على عوامل الضعف	اختبار بدائل إستراتيجية تستخدم عوامل القوة للاستفادة من الفرص المتاحة.	الفرص المتاحة
اختبار بدائل إستراتيجية تقلل من عوامل الضعف وتحييد المخاطر	اختبار بدائل إستراتيجية تكبر عوامل القوة وتحييد المخاطر	المخاطر

سادساً: وضع السياسات:

بعد الانتهاء من وضع الخطة الإستراتيجية، تقوم المجموعة المكلفة بوضع الخطط، بوضع السياسات المناسبة التي تسعى إلى خدمة الخطط، وتساعد على حشد الطاقات، والإمكانات لإنجازها، وتعرف بأنها مجموعة القرارات التي تسعى إلى تسهيل عملية تنفيذ الخطط الإستراتيجية والسياسات تشكل عادة القواعد الرئيسية لعملية التنفيذ الناجح للخطط، وكذلك علينا الانتقال إلى مرحلة تطوير هذه السياسات[685].

وأخيراً الانتقال إلى مرحلة التنفيذ خلال وضع البرامج التنفيذية، والميزانيات المالية والإجراءات، وأخيراً تحديد طواقم العمل، وكيفيته.

سابعاً: دور القيم، والرسالة والرؤية في نجاح الخطط الإستراتيجية:

إن الوصول إلى السلطة مثلاً قد يكون ضرورياً في العمل السياسي، ولكنه ليس الغرض من الحياة السياسية، لأن هناك مفاهيم أخرى تدخل في تكوين الحياة السياسية وهي:

* القيم الروحية: مثلاً (كما كان الحال في نشر العقيدة الإسلامية).

* الرسالة: مثلاً (رسالة الإسلام).

* الرؤية: مثلاً (نقل الناس من حال الجهل لعبادة الله الواحد الحق، ونقل المجتمع من حال المجتمع القبلي، والمتشرذم، إلى المجتمع المتوحد).

وبقدر ما تكون هذه القيم الثلاثة محددة، وواضحة فإنها تساعد على نجاح الخطة الإستراتيجية.

ثامناً: القوى المؤثرة في صناعة الإستراتيجية[686].

دور القائد في صناعة القرار، وإدارة الصراع (خاصة في الأنظمة السياسية الفردية).

الوضع السياسي: طبيعة النظام السياسي القائم.

الوضع الاقتصادي، والإمكانات.

الوسائل، والتقنيات.

القوانين واللوائح.

البيئة.

القسم السابع

الفصل السابع عشر
إدارة الصراع في العهد النبوي

القيادة النبوية وإدارة تغيير الواقع
الديني ـ السياسي ـ الاجتماعي الثقافي الاقتصادي

المقدمة: صراع الإسلام، ضد الوثنية – إدارة الصراع في الداخل:

وُجد النبي (ص) منذ ظهور دعوته إلى الإسلام وسط بيئة رافضة، معادية للدعوة الجديدة منذ النشأة الأولى وقد أدرك النبي أن الأمر ليس سهلاً خاصة وأن الدعوة الجديدة تحمل في طياتها دعوة إلى تغيير شامل في حياة القوم. من نقلهم من عبادة الأوثان إلى عبادة إله واحد، وعلى نقلهم من الانقسامات القبلية إلى أمة واحدة، ومن استغلال الأماكن الحرم، والتجارة إلى نظام اقتصادي آخر، ومن حياة اجتماعية قبلية لا رابط بين أبنائها سوى الولاء للقبيلة إلى ولاء المسلم لأسرته، والمجتمع الجديد طور التكوين تسوده الألفة والإخاء.

والواقع أن أقطاب مكة، وزعماء قبائلها الممسكين بتلابيب الحياة الاقتصادية والسياسية قد أدركوا أبعاد هذه الدعوة، التي ستضرب مصالحهم المباشرة وتضرب أعمالهم، وتحرمهم من مميزات اكتسبوها مع مرور الأزمنة، والأيام.

وتعكس الآيات القرآنية الكريمة منذ البداية (الآيات المكية) خاصة المواجهة التي حصلت بين النبي والمشركين، وتحدثنا السيرة النبوية عن تفاصيل كل ذلك، وبعبارة أخرى لقد تحددت أطراف الصراع منذ بداية الدعوة على النحو التالي:

1– الوثنيون، وما يمثلون من قوة.

2– النبي محمد (ص) ومن معه، وما يدعو إليه.

مرت إستراتيجية القيادة النبوية بمرحلتين: المواجهة في الداخل، والمواجهة في الخارج.

أولاً: على الصعيد الداخلي:

1- بدأ النبي دعوته بالكلمة، والإعلان، أي دعوة سلمية حاول بالإقناع، والدعوة بالحكمة والموعظة داعياً القوم إلى عبادة إله واحد، والتفكير بالعالمين: عالم الغيب، وعالم الشهادة.

لقد واجه النبي منذ البداية محدودية العقل القبلي الجاهلي ب- عقلانية مفتوحة ليس على عالم واحد (الدنيا)، بل نحو عالم آخر، وبين الحياة الدنيا والحياة الآخرة.

ولكن أهل مكة واجهوا بدورهم عقلانية الدعوة الجديدة بعقلانيتهم الواقعية المضادة والقائمة على النظر إلى هذه الدنيا، وكذلك التمسك بما كان عليه آباؤهم وأجدادهم من عبادة ونمط تفكير، ولا شأن لكل هذا بحياة آخرة لا يشاهدون منها شيئاً، ولا يعلمون عنها أمراً، كانت عقلانية النبي محمد في دعوته، تقوم على التغيير للواقع بعد أن ران عليه الفساد وأراد النبي إظهار نمط آخر من التفكير، والعمل، داعياً بني قومه إلى السير، وبداية المشوار معه.

أطروحتان متعارضتان، متضادتان، وليس بين أطراف النزاع أرضية مشتركة، ولا يتكلمون لغة واحدة، فانقطع الحوار، بانتظار الانتقال إلى المواجهة والتحدي.

اتبع النبي محمد (ص) إستراتيجية في الإعلان عن الدعوة والتي قامت على خطتين:

1) سياسية: الدعوة بالكلمة وإسماعهم الآيات القرآنية التي يتلقاها والنقاش والمداولة معهم.

2) المواجهة المباشرة إذا أرادوا المواجهة.

كان سلوك النبي نابعاً في هاتين الخطتين من المرجعية القرآنية (الوحي)، الآيات القرآنية التي تدعو إلى التعامل السياسي، مع المعترضين على الدعوة والآيات التي توحي إلى النبي وتطلب منه التحرك، وتأذن له بالمواجهة.

والواقع لقد واجه النبي منذ بداية الدعوة قوى ثلاث:

– القبائل العربية (قبيلة قريش صاحبة الزعامة).

– اليهود الذين أشهروا عداوتهم منذ البداية.

– المسيحيون الذين شعروا أن الدعوة الجديدة ستؤثر سلباً عليهم كأصحاب رسالة سابقة. بدأ الطرف المنازع للدعوة المحمدية بالحصار الاقتصادي بلغة العصر واهتدى النبي بالآية التي تقول بالصبر والصلاة {يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين}[687] حاولت قريش القضاء وتصفية النبي جسدياً ولكنها عجزت، وقررت بالإجماع على الإيذاء به، ونبذه، وأصحابه ومن معه، صباح كل يوم، ومسائه في ذهابه وإيابه، عند دخوله وخروجه من منزله وأماكن عبوره، وتعاقدت قريش كذلك على عدم الاتصال مع النبي وأي من أصحابه وأن لا يناكحوهم ولا يبايعونهم، ولا يدعوا لهم سبباً من أسباب العيش يصل إلى أيديهم ولا يقبلوا صلحاً، ولا تأخذهم بهم رأفة وأن يسلم بنو المطلب رسول الله (ص) إلى قريش لتعمل إلى قتله، وقد علقت قريش هذا الكتاب في جوف الكعبة.

لقد اشتد البلاء برسول الله والذين آمنوا منه حتى اضطر بهم الأمر إلى أكل الحنط، وورق الشجر، يغالون من أسعار السلع عليهم، وكان الأطفال يتضورون من الجوع.

وبعد ثلاث سنوات أجمع بنو قصي على نقض ما تعاهدوا عليه، فأرسل الله على صحيفتهم الأرضة، فأتت على معظم ما فيها من ميثاق وعهد، ولم يسلم من ذلك إلا الكلمات التي ذكر فيها اسم الله عز وجل، فقال الله تعالى: {ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض، ونجعلهم آئمة، ونجعلهم الوارثين}[688].

أحياناً يتم الرهان على الزمن والصبر وعندما يكون الإنسان في المواجهة لا يملك من أمره شيئاً ويكون مستضعفاً في الأرض، فتأتي هاتان الفضيلتان لتعملا على إبراز الجانب السيكولوجي، ولتعملا على دفع الطرف الأضعف على التفكير، وتأمل الموقف أثناء هذه الفترة من الصبر، والانتظار، بحثاً عن وسائل جديدة لإدارة الصراع، والواقع لم تدم فترة الصبر والرهان زمناً طويلاً، فهناك عناصر سيكولوجية أخرى عملت على تحريك إدارة الصراع من هذه العوامل:

- التفاؤل.
- الإيمان بالقضاء والقدر.
- تجنب الغضب.
- اللجوء إلى الاستشارة.
- التوكل على الله.
- عدم التراجع والتخاذل.

كان النبي يدرك أن وحي الله والحق، يدعمان موقفه رغم أنه لم تكن له القوة المادية المطلوبة في هذه المرحلة لحسم الصراع لصالحه وقد آمن، رغم مواقف قريش القاسية إزاءه بأن الله سينصره وما عليه سوى الصبر، وعليه أن يعمل على جلب مزيد من المؤمنين حتى يكثر عدد الضعفاء وكثرتهم تعني: القوة.

2- مرحلة الدولة الناشئة، وإدارة شؤونها إدارة الانتشار خارج الجزيرة:

تجلى نظام الحكم في ادولة الإسلامية في يثرب المدينة، وعبر ذيوع الرسالة الإسلامية منذ بداية البعثة النبوية سنة 610م حيث تبلور نظام الحكم النبوي بشكل تدريجي من الضيق إلى السعة، ومن العقيدة إلى الشريعة، ومن قلة عدد المؤمنين إلى كثرتهم، وبالتالي من الإيمان إلى العمل:

كانت المرحلة الأولى من العهد النبوي في (مكة) تمثل نقطة انطلاق العمل السياسي، وبلورة مضامينه كما مثلت مرحلة اعتناق العقيدة، وتثبيت الدعائم الروحية، وإزاحة كافة معالم الشرك والوثنية استناداً إلى تقديرات التنزيل القرآني الذي اتسمت آياته البينات، خلال المرحلة المكية والتي استغرقت زهاء ثلاثة عشر عاماً بالقصر، والاقتضاب كما قلنا سابقاً وتركيز على الإيمان بعالم الغيب.

لقد سعى الرسول (ص) إبان تلك المرحلة إلى التخطيط، وحصر الجهود لإيجاد السبل والمنافذ التي تكفل نشراً فعلياً لأحكام القرآن، والتمسك بتعاليم الرسالة الإلهية التي أمر بنشرها بين الناس، فكانت هذه المرحلة الريادية، تمثل اللبنات الأولى التي قام

من خلالها نظام الحكم، وتأصلت عبر معطياته معالم الدولة الإسلامية ضمن أطرها المنهجية والتصورات الفكرية الاعتقادية، من جراء المحصلة العملية، والأنشطة الوظائفية، والتنظيمية التي تولى الرسول ؐ القيام بها وذلك على الرغم من كثافة المعارضة التي واجهتها من قبل مشركي قريش[669] عمل النبي على تشكيل جماعة حوله، وكانت تتألف من بعض الأقارب والأصحاب وقادها بصورة سرية طيلة السنوات الأولى من بدء الرسالة وكان ذلك:

* أسلوباً دفاعياً.

يضمن لهذه النواة الاستمرار، والحفاظ على مصالحها، وبالتالي إمكان اتساعها وتزايد عدد أفرادها، وبالتالي إمكانية أن تصبح قوة، بعد ذلك يتم الاستعداد للخروج من السرية على العلن.

استطاع النبي بعد ذلك الخروج إلى الملأ جاهراً بدعوته، فقال لهم:

لقد أرسلني الله واصطفاني من العالمين، وجعلني حجة على كل من بلغته دعوتي من الأولين والآخرين، وجعلني خاتم النبيين، وآخر المرسلين، وأن ديني يظهر على الأديان كلها وأن كلمتي وكلمة اتباعي تعلوان، وأنهم الغالبون، الظاهرون[690].

بهذه الكلمات تتضح أولاً:

– المسؤولية القيادية: النبوية – السياسية.

– إدارة شؤون الدعوة.

– الثبات والعزيمة والإصرار.

– تجنب المواجهة التي يشنها المشركون ضد دعوته لأنه أدرك أنها مواجهة غير متكافئة مما جعله يصدر توجيهاته بالهجرة إلى المدينة[691].

ويدخل النبي مرحلة جديدة من إدارة الصراع، وهي:

– عقد المحالفات، وعقد البيعة الأولى والبيعة الثانية[692].

لقد واجه الرسول (ص) حصار قريش، ومقاطعتها، وكانت هذه بداية الزمة كما المحنا سابقاً، والتي ستتطور أو تستفحل لتصبح صراعاً، أي أن المواجهة ستنقلب إلى صراع بين النبي وصحبه المؤمنين والمشركين.

لقد شكل العهد المدني البنى الارتكازية لإقامة نظام الحكم الإسلامي، حيث اختتمت المرحلة المكية، وفي هذه المرحلة أخذت ممارسات الحكم النبوي تمارس فعلها من حيث:

- تولي مهام المسؤولية المدنية والدينية.
- قيادة المسلمين في الجهاد.
- الفصل في الشكاوي والتظلمات والنزاعات.

أما فيما يتعلق بالنقطة الثانية، وهي الجهاد فكان الرسول ؑ يتحرك لمواجهة الصراع، وكان ينتظر أن يأذن الله بالقتال، والنقطة الثالثة: الفصل في التظلمات، والخصومات، فالآية القرآنية واضحة في هذا المجال والقائلة:

{فلا، وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليما}[693].

3- المواجهة، والصراع ضد المشركين ـ الإدارة

معارك النبي: (بدر، أحد، الخندق).

في المرحلة المدنية واجه المسلمون أولى الصراعات، فعمل النبي كقائد على إدارة هذه الصراعات وخرج وصحبه إلى الصدام المباشر.

في هذه المرحلة تخللتها إستراتيجية النبي في إدارة هذه المعركة والتي قامت على نقطتين جوهريتين هما:

- الاقتتال.
- التفاوض.

أراد النبي بالمواجهة تحقيق الأهداف السياسية، أي الشروع ببناء الدولة، وتثبيت أركانها، لأن الحرب في ظل دولة لها شرعيتها الإلهية، ومرتكزاتها الدينية تكون قادرة على إدارة الصراع لصالحها ثم أن النبي (ص) أدرك في بعض الأحيان أن الأهداف السياسية يستحيل تحقيقها بالإقناع وأساليب التواصل المألوفة والمعتاد، خاصة وأن عدائية قريش كانت منذ البداية، مشرعه ضد كل شكل من أشكال التواصل، وكان يدرك موقفها، لذلك وضع نصب عينيه عندما لا تتم الأمور بالحوار، والكلمة السواء، اللجوء إلى القوة وسيلته الثانية لإدارة الصراع حقق النبي، ومن معه الانتصار في المعركة الأولى (بدر)، والمسلمون في هذه المعركة، وهم كبشر قد أعجبتهم قوتهم، وشعروا بالنصر، وبعض الغرور قد علا وجوههم، فاغتروا، وفرحوا، بينما كان النبي متحفظاً إزاء هذه المشاعر الإنسانية.

جاءت المعركة الثانية (أحد) فوقعت الهزيمة للمسلمين ومن المناسب القول في هذا المجال أن الهزيمة في هذه المعركة لا تعود إلى أسباب غيبية (ميتافيزيقية) كما يقال، بل لأسباب وأخطاء بشرية (اجتماعية – إنسانية – سياسية) كانت فيها قريش أكثر عدة وعداً وجمعت كافة قواها لهذه المعركة.

جاءت الأساليب الأخرى من إدارة الصراع، وهي أساليب المفاوضات، وكانت تدور حول عقد:

1- التحالفات.

2- المساومة.

3- التفاوض المباشر.

4- المخادعة.

5- التنازلات[694].

مارس النبي في المرحلة ما يسمى بفك التحالف بين القوى المعادية، فعمل على تحييد (غطفان) لمواجهة قريش وحدها، وكذلك على زرع التناقض بينهم جميعاً.

إذا أردنا أن نقرأ الصراع بين المسلمين والمشركين في ذلك الوقت لابد من قراءة الأسباب العقائدية، والاقتصادية، كعوامل موضوعية، وكذلك الأسباب والموروثات العقائدية القديمة (الرواسب في الفكر والنفس) لدى أهل مكة التي تحكمت في مسالكهم وطبيعة مواجهتم، ورفضهم القاطع للدعوة الجديدة، ولعل العوامل الثانية (أي العوامل الخاصة)، والتي هي من طبيعة سيكولوجية، شعورية، وعبر عنها قوله تعالى: {الذين قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة، وإنا على آثارهم لمهتدون) وسيكولوجية لا شعورية، الرغبة في الاستمرار في الزعامة وحب الرياسة، والسلطة القبلية، التي شعرت قريش أن دعوة النبي تهدد هذه الرغبة بالموت.

هذا من ناحية المشركين، حيث كان لهذه العوامل السيكولوجية لغة الرجحان.

أما من ناحية المسلمين، فإن العوامل الموضوعية أيضاً لها دورها، ولكن علينا ألا نستهين بالعوامل الأخرى (الذاتية) التي دفعت بالمسلمين إلى الوقوف خلف النبي في كل معاركه مثل: النمط النبوي (الكاريزمي) والعلاقة الوجدانية الصادقة بين النبي ﷺ وأصحابه والمصداقية التي أظهرها النبي في إيمانه، وسلوكه، والدفاع عن الهوية الجديدة التي صنعها لهم الإسلام، وبكلمة مختصرة.

العوامل الموضوعية.

العوامل الذاتية (الخاصة).

كان لها الأثر الفاعل لدى الطرف الثاني.

ثانياً: إدارة الصراع مع الخارج:

في ظل قيادة النبي للدولة الإسلامية الناشئة في (يثرب) مارس النبي أسلوبه الخاص في إدارته للصراع بالتعاون، وباستشارة أصحابه، حيث تمثلت هذه الإدارة في (تحرير مكة) وغزوة (تبوك) وقد مثل تحرير مكة تبلوراً في الإدارة، ونضجاً ملحوظاً في حملة (تبوك) لقد قاد محمد ﷺ القوة العسكرية المتجهة نحو (تبوك) جنوبي (الشام) حيث عسكر هناك مدة عشرين يوماً يستطلع ويجمع المعلومات عن (الروم).

قادها بنفسه، ومع كبار الصحابة: أبو بكر، عمر، وعثمان، وعلي، ويسأل الرسول صحابته عن إمكانية اللحاق بالروم إلى داخل بلاد الشام، حيث تقوم هناك قيادتهم، وقواتهم التي تحتل بلاد الشام العربية ذات الديانة المسيحية، فاعترض (عمر بن الخطاب) على الفكرة، ودافع عن اعتراضه، ووجه نظره بأنه لا يوجد مسلمون في بلاد الشام في تلك الفترة، فإذا ما تقدم المسلمون إلى بلاد الشام فسيقضي على القوة الإسلامية لا محالة لهذا السبب، وهو عدم وجود مسلمين في بلاد الشام، لذا اقترح (عمر) على الرسول، وعلى القيادة الجماعية الإسلامية العليا بالرجوع إلى يثرب (المركز) بعد أن حققت الحملة هدفها، وعملت على إثبات وجودها السياسي – العسكري الفاعل حتى حدود الروم اقتنع الرسول محمد ﷺ، والقيادة الإسلامية برأي (عمر)، وعادت القوة الإسلامية إلى مركزها (يثرب)، وتوصل المسلمون حينئذ إلى الاستخلاص من الإستراتيجية الصراعية القائمة أولاً على أن المعركة السياسية تسبق المعركة العسكرية الفاصلة، كما أن الهدف الإستراتيجي من إدارة الصراع مع العدو إنما يكون بتحطيم نظامه السياسي، وإقامة النظام الإسلامي البديل.

بتعبير ثان إن إستراتيجية الرسول ﷺ العسكرية كانت جزءاً من إستراتيجيته العليا لإدارة الصراع بمعنى أن المبادئ الإسلامية، وهي المرجعية العليا لإدارة الصراع، والتي تقتضي نشر الدعوة سلما، وتجنباً لسفك الدماء، وتقليل خسائر العدو الإنسانية، شكلت ضابطاً للإستراتيجية العسكرية، وموجهاً لها[695]، هذا مع تجنب كامل إن صح التعبير لقتل العزل من السلاح.

لقد أرست إستراتيجية إدارة الصراع المحمدية، قواعد صارمة في تلازم: الأخلاق، والحرب، والسياسة الصراعية، وعندما تدار هذه الصراعات، كان الجنود المسلمون، بتوجيهات النبي (ص) يعملون جاهدين على عدم:

- سفك الدماء البريئة.

- التقليل من خسائر العدو البشرية.

- إنقاذ الجرحى.

– عدم مواجهة العزل من السلاح.

– عدم إيذاء الشيوخ والنساء والأطفال.

هذه القواعد الأخلاقية الإنسانية وارتباطها في العمل الصراعي، وهي ملزمة لقادة وجنود المعارك بينما هي لوائح وبرامج ورقية في عصرنا الحديث، ولا يتم التقييد ولا الالتزام بها في الحروب والمعارك ولا ينقص المنظمات العالمية للدفاع عن المدنيين في الحروب الأدلة على الاختراق الكامل لهذه البرامج أو قواعد الحروب.

لا شك أن المفكرين وفلاسفة الفكر السياسي، وحتى العسكري في الغرب يلحون على التقيد بالقواعد الحربية الإنسانية، ولكن ميدانياً تعمى القلوب، والأبصار.

لقد كانت هذه الإستراتيجية الأخلاقية الصراعية نموذجاً لدى الخلفاء الراشدين فيما بعد حيث جاء (أبو بكر الصديق) وألقى خطبته المشهورة في المحاربين بتطبيق القواعد الإسلامية في الحروب، حتى وصل به الأمر إلى أن يوصي الجنود بأن لا يقطعوا شجرة، وهم يسلون السيوف.

لابد من التأكيد على مسألة مهمة هي أن المقصود بالإستراتيجية المحمدية، هو المنهاج العملي الذي وضع أسسه وطبقه عملياً لبناء الدولة الحديثة، والتعامل مع قوى الشرك.

أي أن إدارة الصراع على الأرض كانت لصد قوى الشرك، ونشر الدعوة، والحفاظ على حقوق الناس وأمنهم وإقامة العدل الدنيوي لحماية الحياة الاقتصادية، فكل هذا ليس عسكرياً فقط، بقدر ما هو تعبير من تفكير أوسع من ذلك أي:

– إستراتيجية لبناء الدولة.

– إدارة الصراع بكافة أشكاله[696].

ونضيف ثالثاً:

نشر الدعوة للعمل على استكمال عملية التغيير الشامل في المعتقدات وأسلوب التفكير، والعيش، وعلى امتداد شبه الجزيرة، وما حوله، ثم الامتداد إلى ما هو أبعد من ذلك.

لقد كانت إدارة الصراع المحمدية تقوم على المبادئ التالية:

* إدراك عناصر البيئة الوطنية (المحلية) وهي من عناصر:

1- متابعة نشر الدعوة.

2- عنصر الدولة القانونية بناء على الشرع الإلهي.

3- التعامل الاجتماعي، العقلاني.

4- بناء الأسرة المسلمة.

5- القضاء.

6- الشورى في الحكم.

7- عنصر الحفاظ على المثل العليا، والتقاليد والرموز الدينية[697].

* البيئة الإقليمية والعالمية، وتقوم على إدراك العناصر التالية:

1- مسألة الحفاظ على العهود والمواثيق مع المشركين ما دامت الأطراف الأخرى محافظة عليها.

2- مسألة التحالف مع العرب غير المسلمين من اليهود والنصارى.

3- تبليغ رسالة الإسلام إلى مختلف دول العالم.

4- العلاقة بين دولة المسلمين في (يثرب)، وغيرها مما أقيم على أساس الإسلام.

أما فيما يتعلق بتبليغ النبي محمد ؐ رسالة الإسلام إلى العالم، فلقد حفل التاريخ السياسي لهذه المرحلة بمختلف الرسائل التي كان النبي قد أرسلها، ووجهها إلى دول الجوار، ودول العالم البعيدة يدعوهم إلى الإسلام وهذه الرسائل قد وجهها عقب (صلح الحديبية)[698].

والخلاصة: إن إستراتيجية الصراع المحمدية كانت تقوم على مبادئ إلهية إنسانية تتمثل في جوهرها على عدم المساومة على العقيدة، والدفاع عنها، والحفاظ على دماء المسلمين وعدم التفريط بأرواحهم والتقليل من خسائر العدو، وحماية الضعفاء أثناء

المعارك، وتجنب سفك الدماء قدر الإمكان [699] وقد شملت إدارة الصراع هذا الامتداد خارج الجزيرة العربية وسيستمر هذا الانتشار في العهد الراشدي وإلى ما بعده وسنرى ذلك في الصفحات التالية.

الفصل الثامن عشر
العهد الراشدي (الشيخان) وإدارة الصراع

1) إدارة الصراع الداخلي.

2) إدارة الصراع الخارجي.

1- أبو بكر الصديق: من الحكم الصالح إلى الإدارة الناجحة للصراع.

أ- إدارة الصراع في الداخل:

واجه (الصديق) بعد توليه خلافة المسلمين عقب اجتماع السقيفة أول تحد كبير، تجاوز مقاييس الأزمة المعروفة، وهو تحد وصل إلى حد التقرير من قبل الخليفة الصدام مع قبائل العرب التي ارتدت عن الإسلام، ورفضت دفع الزكاة، لقد أدرك الخليفة حينها أن المستهدف هو الوحدة الداخلية للدولة الإسلامية الناشئة التي عمل النبي على تأسيسها وإدارة شؤونها وتثبيت أركانها في المدينة، وقد هددت هذه القبائل المرتدة الإسلام نفسه، ووضعت أمام إمكانية التصدع العظيم، ولو قيض لهؤلاء المرتدين النجاح لتغير وجه التاريخ العربي الإسلامي، ولكن (الصديق) عمل مباشرة، ودون تردد على معالجة (إدارة) هذا الصراع مع الجهات المرتدة حفاظاً على وحدة المجتمع والدولة.

ولقد صنف العلماء موضوع الردة تحت مسمى: البغي[700].

في تعاليم الإسلام يشكل المسلمون أمة واحدة، وإن وقع خلاف بين أبنائها لسبب أو لآخر، فالمرجعية في الاحتكام هي: النص القرآني الكريم، وسنة النبي، والقرآن واضح في هذا الشأن، حيث يطلب من المختلفين والمتنازعين المصالحة، فهذه هي القاعدة الرئيسية لإدارة النزاع حسب الآية القرآنية {وإن طائفتان من المؤمنين}[الحجرات 9].

وتفصيل هذه الواقع المشهورة أنه عقب وفاة النبي (ص) وتولى الخليفة أبو بكر مقاليد الحكم واجهت الدولة الناشئة، حروباً وصراعات عنيفة، وقد تجلت على الشكل التالي:

1- تمرد على الإسلام وخروج، وارتداد عنه، بشكل واضح.

2- تمرد على السلطة السياسية المتمثلة بأبي بكر، وثلة (مانعي) الزكاة[701].

كان (الصديق) يعلم أن رفض دفع الزكاة يعني هدم أحد أركان الإسلام، لأن الصلاة والزكاة لا ينفصلان، لذلك قال أبو بكر لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة[702] كانت الردة عامة، حتى أنه لم يبق مع دار الخلافة غير الأنصار والمهاجرين من أهل مكة وثلة من العرب، وقد ذكرت كتب التاريخ أن: العرب ارتدت وكفرت الأرض[703].

وقد نقل عن عائشة (رضي) قولها: توفي رسول الله (ص) فنزل بأبي ما لو نزل بالجبال الراسيات لهدمت، لقد اشرأب النفاق في المدينة، وارتدت العرب، فوالله ما اختلفوا في واحدة إلا طار بخطها، وفنائها عن الإسلام، وكان من شدة واتساع الردة، وقسوة الظرف الذي أحاط بالمسلمين حينئذ، أن غلب على رأي الصحابة بادئ ذي بدء عدم قتال مانعي الزكاة وقبول الحلول الوسط معهم، وقدموا بذلك بقول رسول الله ": أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فإن قالوها عصموا عني دماءهم وأموالهم إلا بحقها.

لكن (أبا بكر)، بصفته رئيس الدولة الإسلامية، لم ينظر إلى الزكاة باعتبارها مجرد فريضة دينية وإنما باعتبارها أيضاً رمزاً للولاء السياسي، أي أن مانعي الزكاة كانوا ينون التمرد والانفصال عن الدولة، والإحاطة بوحدتها، ووحدة الأمة، وكان رفض دفع الزكاة بالنسبة للشيخ بمثابة عدم الاعتراف برئيس الدولة، ودولته معاً.

أسلوب أبو بكر في المعالجة:

لجأ المرتدون إلى المساومة أي قبول (أبي بكر) بالصلاة دون دفع الزكاة.

رفض أبو بكر المساومة، لأنه لا مساومة على الثوابت الإسلامية، ولا على أركان الدين لأن في المساومة، لأنه في المساومة مخالفة صريحة للمرجعية القرآنية.

عمل الصديق على تجهيز القوة العسكرية لأنه فكر باستخدام القوة، وهيأ الجند والقادة لذلك.

قبل أن ينطلق القادة بجنودهم، عهد إليهم بكتاب واحد، توجه إلى جميع المرتدين، دعاهم فيه إلى الالتزام مجدداً، ونبه قواده بأن لا يبدؤا بالقتال قبل أن يدعوهم إلى العودة، أي اتباع الأسلوب السياسي قبل استخدام القوة.

الواقع لم يكن التمرد على الإسلام جديداً أو أنه ظهر فجأة، فنحن نعرف أن رفض اعتناق الدين الجديد، والتمرد عليه، والاعتداء على النبي، وإيذائه، ودعوته وأصحابه العزوف من الدعوة ومحاربته، كان ذلك منذ بداية ظهور الدعوة، ولكن الجديد في هذا التمرد هو في اتساع رقعة هذا التمرد، وامتداده عبر شبه الجزيرة العربية، وقد جاء هذا التمرد بالإضافة إلى ما يسمى بالعامل الاقتصادي (رفض دفع الزكاة المالية)، يحمل في طياته الكثير من أنفه وعزة القبيلة الجاهلية وتحت تأثير لا يستهان به (للعوامل الخاصة التي أشرنا في (الفصل الرابع) أقصد: الأنفة والعصبية والكبرياء، ورفض الخضوع لسلطة ما، وغير ذلك من المشاعر القبلية المكبوتة التي ظهرت على سطح الأمور، وهذه كلها كما نتصور عوامل (وجدانية)، وقد نقل عن (عينية بن حصن)[704] قوله لقومه بعد أن توفي رسول الله ؑ، والله لنبي بني أسد أحب إلي (لنلاحظ كلمة أحب ذات البطانة الوجدانية) من بني هاشم، ومات (محمد) وهذا طلحة فاتبعوه، فوافق قومه فوله بني فزارة على ذلك[705] واعتبر آخرون أن الزكاة كانت علاقة مع الرسول ؑ، ومن أجله، فحين مات الرسول ؑ لم يعودوا ملزمين بها، وتأولوا قول الله تعالى: {خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها، وصل عليهم، إن صلاتك سكن لهم، والله سميع عليه)[706].

فقالوا فلسنا ندفع زكاتنا إلا إلى من كانت صلاته سكناً لهم، وأنشد بعضهم:

أطعنا رسول الله إذا كان بيننا   فواعجبا ما بال ملك أبي بكر

أيورثها بكرا إذا مات بعده   وتلك لعمر الله قاصمة الظهر[707]

ويميل الدكتور (عمر فروخ) إلى رؤية أسباب الردة في العوامل الموضوعية أي أنها متصلة بالسبب السياسي القبلي، بين رفض البادية الخضوع للحواضر، والنزاع بين شرق شبه الجزيرة العربية وغربها، وتطلع المتنبئين لتولي الحكم في المناطق التي يسيطرون عليها[708].

قال أبو بكر في كتابه إلى جموع المرتدين، وقد بلغني رجوع من رجع منكم عن دينه، بعد أن أقر بالإسلام، وعمل به اغتراراً بالله وجهالة بأمره واستجابة للشيطان، وأني

بعثت إليكم فلاناً في جيش المهاجرين، والأنصار والتابعين بإحسان، وأمرته ألا يقاتل أحداً حتى يدعوه إلى داعية الله، فمن استجاب له، وأقر، وكف، وعمل صالحاً قبل منه، وأعانه عليه ومن أبى أمرت أن يقاتله[709].

لم يهادن (أبو بكر) في مسألة الثوابت، وأركان الدين، ولو فعل ذلك لكان ذلك فرصة للتدحرج نحو هدم ركن من أركان الدين واحداً بعد الآخر بين القبائل العربية.

لم يتحل المرتدون بالمرونة، (لأن العصبية اكتنفت رؤوسهم) ولم يفكروا لحظة بإعادة النظر في موقعهم المتمرد الذي يحمل تأثيراً خطيراً على وحدة المجتمع والدولة والمة، إذن لم يكن من مناص من رد المرتدين إلى الرجوع وحسم الموقف بالقوة، بعد استنفدت وسائل الإقناع، لا لشيء إلا لأن الدولة تريد أن تدافع عن وحدتها، وعن مرجعيتها في الوجود، والحكم.

انطلق المسلمون لمواجهة الردة، وحصلت المعارك، وانتهت حروب الردة مرة واحدة، ووضعت هذه المواجهة حدا لخروج القبائل عن الإسلام، ووضعت حداً للمواقف المهلهلة، وتحولت القبائل من اللحظة التي انتهت فيها هذه الحروب لتكون حاملة لراية الإسلام في معارك الفتوح القادمة، حيث عمل الصديق على توجيه طاقة هؤلاء نحو الخارج كما سنرى بعد قليل.

حققت إدارة هذا الصراع نتيجتين وهما:

الأولى: الحفاظ على وحدة الدولة الإسلامية ووحدة قيادتها.

الثانية: الحفاظ على المعنى الديني لمنصب الخلافة[710] أي التلازم بين الخلافة السياسية والدين باعتبار أن الخليفة هو حارس الدين.

ولهذا سمى هذا الصراع، بالصراع ضد المرتدين، أو الارتداد، وكان سياسياً، ودينياً كان (الصديق) يحذو حذو النبي في القيادة، والمواجهة والإدارة، وكان النبي النموذج والقدوة الكاملة (لأبي بكر)، وحيث كان النبي قد انطلق في مواجهة المشركين، وإنهاء الصراع معهم لصالح وحدة الجماعة الإسلامية التي كونها، وكذلك فعل (أبو بكر).

حقاً لقد عمل أبو بكر، على إدارة الصراع كما كان يفعل النبي (ص) ولكن الصديق أضاف نتيجة الوقائع الجديدة في عهده، وتغير الظروف وظهور مواقف جديدة، اجتهاداته الخاصة في الإدارة، مع الاحتفاظ الكامل بتلازم: العقيدة، والصراع من أجلها، فكانت حروب الردة كما قال الأستاذ (العسلي) حروب إيمان[711] والحفاظ عليه مهما كان الثمن، وليس من أجل الزكاة كقيمة مالية بل لكونها أحد أركان الدين.

كان البحث عن الحسم في الصراع يهدف إلى الحد من ويلات الصدامات والحروب وعدم تكرارها وكان هذا هو الحافز الذي دفع (الصديق) لتبين ما هو معروف في الأزمنة الحديثة باسم: إستراتيجية التقرب غير المباشر لبلوغ العمق الإستراتيجي لإنهاء الصراع، وبالسرعة اللازمة[712].

والسؤال الذي يمكن طرحه هنا، لماذا لم يقم (الصديق)، بكامل جهده لتجنب سفك الدماء في الوقت الذي استشهد   في هذا الصراع، خيار المسلمين؟

لم تكن القضية من وجهة نظر (الصديق) قضية ولاءات شخصية، إنما كانت في الحفاظ على الدين ،وعدم مهادنة من يريد هدم قواعده، وأركانه، لذلك لم يكن هناك من مفر من المواجهة لحسم الأمر، ولابد من تقديم التضحيات.

ب- إدارة الصديق للصراع مع الخارج (الفتوحات)

انطلقت جيوش الخليفة الصديق لمواجهة (الفرس) و(الروم) في العراق، والشام بقيادة (خالد بن الوليد)، ثم (المثنى بن حارثة الشيباني)، وتم حسم الأمر عسكرياً لصالح المسلمين، حيث تم فتح البلدين.

كانت الإدارة (الصديقية) وبالتعاون مع صحبه تقوم في الأساس على عناصر وهي:

(1) نشر العقيدة، كما أمر الله في كتابه (المرجعية)

(2) عناصر شخصية (الصديق) نفسها القيادية

(3) القدوة النبوية

(4) الثقة بمن حوله من أصحابه والقادة

(5) استخدام القوة

2ـ عمر بن الخطاب: إدارة الصراع الخارجي.

عمل الشيخ على متابعة إستراتيجية الفتوح، والصراع مع الخارج في سبيل ذلك، لنشر الدعوة والتوسع في النطاق الجغرافي، وتحصيل الفوائد الاقتصادية للدولة الإسلامية، فأرسل جيوشه لاستكمال فتح الشام، وفتحت (دمشق) وسار الصراع لصالح المسلمين، ثم من خلاله استكمال فتح بلاد الشام كلها، ما عدا مناطق في الجنوب، فكتب (عمرو بن العاص) إلى (عمر بن الخطاب) يقول فيها إني أعالج حرباً كؤوداً صدوماً[713]

ونجحت إدارة الصراع عسكرياً لصالح المسلمين في كل من الشام والعراق ومصر لقد كانت إدارة الصراع على استخدام القوة، وبناء على خطة في أذهان القادة المحاربين.

لقد تم تصعيد الصراع ضد الفرس، فأيقظ هذا الصراع الفرس من سباتهم، وحملهم على وضع الصراع في مستواه الحقيقي فحشدوا قواتهم، وتوالت المعارك بداية من (القادسية).وكان الشيخ، كلما مرت جيوشه بأزمة، وتوقفت عن القتال، أو تراجعت، أو تمردت نظراً لمقاومة الجيوش المواجهة ينادي إلى الصلاة جامعة، ويعمد إلى طرح المسائل للنقاش يستشير أصحابه من ذوي الرأي (المستشارون والخبراء بلغة العصر)، ويجتمع إليه وجوه أصحاب النبي، وأعلام العرب، فيقول لهم: أحضروني الرأي فإني سائر، وذلك تبعاً للمرجعية القرآنية، وأمرهم شورى بينهم في سورة الشورى واقتداء بالنموذج النبوي وفي كلمة الشيخ التي تعبر عن حسن إدارته للشؤون مسألة الغنائم.

عندما بلغ أمير المؤمنين (عمر) انتصار المسلمين في القادسية، ورأى وفرة ما أفاء الله به على المسلمين مما جعل القادة في حيرة من تقسيم وتوزيع الغنائم على المجاهدين في سبيل الله واستشاروا أمير المؤمنين في ذلك، فوقف (عمر) في الناس وقرأ عليهم سورة (الفتح)، ثم قال: إني حريص على ألاّ أدع حاجة إلا سددتها، ما اتسع بعضها لبعض، فإذا عجزت ذلك عنا، ما سبنا في عيشنا، حتى نستوي في الكفاف، ولوددت، أنكم علمتهم من نفسي مثل الذي وقع، فيها لكم ولست بعلمكم إلى بالعمل، إني، والله، ما أنا بملك فاستعبدكم وإنما أنا عبد الله، عرض علي الأمانة، فإن أبيتها، ورددتها إليكم، واتبعتكم حتى تشبعوا في بيوتكم، وتردوا سعدت، وإن أنا حملتها واستتبعتها إلى بيتي، شقيت ففرحت قليلاً، وحزنت طويلاً، وبقيت لا أقال، ولا أراد، فاستعتب[714]

عملت إستراتيجية إدارة الصراع في فكر (عمر بن الخطاب) كسابقتها في فكر (الصديق)، والقائمة على:

تقنين العنف في الصراع، أولاً وتقنين الخسائر، ثانياً، وعدم مس المدنيين الآمنين والعزل في بلاد الفتح، والحفاظ على كل صفة أهل البلاد على بلادهم.

ومن ناحية ثانية إعادة بناء مجتمعات الفتح على أسس جديدة، واستبعاد الصراعات المسلحة، ثم تحديد العلاقة بين الصراع والسلم بحيث لا يكون ثمة تناقض، وتوتر أو رجحان للصراع، إعطاء المحاربين ثمن جهودهم كما أمر الله.. والواقع إن تقنين العنف لا يأتي من خلال قرارات ومراسيم، بل هو وازع داخلي بنته العقيدة وهو يعلو على المشاعر البدائية، والنزاعات المكبوتة، ويراقبها ويجتهد في التحكم فيها.

3- ذو النورين ونذر (الفتنة الكبرى)، وإدارة الصراع الداخلي:

رغم قناعتنا بأن الفتنة الكبرى إذا وضعناها في إطارها التاريخي المناسب تمثل البدايات الأولى، والفعلية للصراع على السلطة [715] وهو أمر طبيعي، فهذا الصراع وجد منذ أن وجدت السلطة في حياة المجتمعات السياسية، لأن للسلطة جاذبيتها الخاصة، وللرياسة شرفها، وكيانها، وكانت العرب تتصارع من أجل تحصيلها، فهي تعني من ضمن ما تعنيه: العلو والرفعة وهي من أهم مظاهر حب الدنيا وتعني كذلك متعة التحكم بمصائر الناس والإمساك بأقدارهم، إنها طريق الثروة، والجاه والسلطان، كما تقول العرب أيضاً، وهي بالتعريف تحقيق مجموعة كبيرة من الرغبات المعلنة والصريحة والرغبات الكامنة لدى الفرد، أو المجموعة الصغيرة أو المجتمع الكبير.

لقد مرت هذه الفتنة قبل مقتل (عثمان) بمرحلتين، أي أن إدارتها مرت عبر إستراتيجيتين، فالخليفة الراشدي الثالث (عثمان) أصر عند ظهور الفتنة على مواجهتها بالحوار، وعلى الأسلوب السياسي واعتبرها نوعاً من المعارضة الداخلية ليس أكثر، ولم تكن إدارة هذه المرحلة بهذين الأسلوبين ناتجة عن ضعف أو قصور في القدرة، ذلك أنه قد ثبت أن (معاوية بن ابي سفيان) عرض على الخليفة في أعقاب المؤتمر الذي عقدة (عثمان) لأمرائه لمشاورتهم فيما يحصل تجنيد أهل الشام لحماية الخليفة، ويقرون سلطانه، فأبى ذلك ثم عرض على الخليفة الانتقال إلى الشام فيكون في منعة فأبى ذلك

أيضاً، وتكرر عرض الانتقال إلى الشام، في وقائع العام الثاني عام (35هـ-) حين حاصر الثوار قصر الخليفة فقدم العرض (المغيرة بين شعبة)، فأبى الخليفة ذلك[716].

بعث (عثمان) (علياً) لمحاورة الثائرين القادمين من (مصر) ومن بعض الأمصار الإسلامية الأخرى، ودحض الصحابة حجج الثائرين، وطلبوا منهم العودة إلى بلادهم فيعف عنهم الخليفة، ولكنهم رفضوا.

لقد نزل (عثمان) في إدارته لهذه (الفتنة – الثورة) عند مطالب الثوار عندما رأى ذلك مفيداً، وهذه الطريقة تدلنا على احتمال القادة السياسيين المسلمين الأوائل وجود المعارضة، والحوار معها كأساس للتعامل بين الخليفة ومعارضيه[717].

أما المرحلة الثانية من إدارة هذا الصراع. فقد بدأت بدعوة (عثمان) أمراء أمصاره وقادة جنده إلى الاجتماع في المدينة (34هـ) لحظة استفحال الأزمة، وحضر حينذاك (معاوية) أمير الشام، و(عمر بن العاص) أمير مصر و(عبد الله بن سعيد بن أبي سراح) أمير المغرب، و(سعد ابن أبي وقاص) أمير الكوفة، و(عبد الله بن عامر) أمير البصرة، واستشارهم جميعاً في طريقة مواجهة الفتنة، فوضعوا أمامه خمسة خيارات (بدائل) وهي:

* عبد الله بن عامر قال بإشغال أصحاب الفتنة بالغزو والثغور والفتح.

* سعد ابن أبي وقاص دعا إلى استئصال شأفة المفسدين (استخدام القوة).

* معاوية بن أبي سفيان دعا إلى إهمالهم، وتثبيت عماله في أقاليمهم.

* عبد الله بن أبي سرح قال بتقديم المال والعطايا لهم.

* أما عمر بن العاص فأشار بالنزول عند مطالبهم بتغيير العمال أو تعديل سيرتهم.

أمام هذه البدائل، استبعد الخليفة اللجوء إلى القوة، وأخذ يفكر في الطرق الأخرى جميعها في إدارة الصراع، فعمل على جمع المصالح كلها [718] لكن الثوار، عندما جاؤوا كانت في رؤوسهم فكرة واحدة خططوا لها وهي: تولية (علي بن أبي طالب) أو (تأمير) (الزبير)، وآخرون صمموا على تولية (طلحة)، وربما كان المسكوت عنه في صراع الثوار ضد عثمان هو: تغيير السلطة بأحد أولئك المذكورين مكان الخليفة، و جاؤوا رافعين شعار مظالم الأمراء في الأمصار، واستئثار آل عثمان في العطايا والأراضي وغيرها،

وجاءت اللحظة الحاسمة فدخل الثوار وداهموا قصر الخليفة، وأردوه قتيلاً، وكان لحظتها كما تروي كتب التاريخ، يقرأ القرآن.

نتائج إدارة الصراع:

لم تكن إدارة الصراع في العقل السياسي (العثماني) متوازنة، وبمقتل الخليفة اكفهرت وجوه الأمة جميعها، واختلفت الأجواء كلها، وانقسمت الآراء وتجلت الفتنة في أوضح معانيها، ولم تتمثل هذه الفتنة في عملية قتل الخليفة كحدث، بل فيما تبع ذلك من أجواء انقسامية واختلافات ومشاحنات أصابت جموع المسلمين، وأهل الحل والعقد منهم على وجه الخصوص[719]، صحيح أن الكثرة الغالبة، ذهبت أثناء ذلك إلى (علي) واختارته خليفة، وهو كاره ولكن ذلك تم في محيط من الفوضى، وتشتت الأفكار وبداية الصراعات الجانبية، وقد معظمها كي تقبع في اللاشعور (الجمعي)، وسط ضغوط القوى المتمردة، وتطلع أكثر من صحابي لمنصب الخليفة، ومنهم (معاوية) لإدارة معركة الثأر لدى (عثمان) وفي هذا المطلب تجلى الأثر القبلي الجاهلي والموروث والذي سيستفحل أمره فيما بعد للمطالبة بدم المقتول، وتكريس العصبية في مراحل لاحقة في التاريخ السياسي العربي الإسلامي، لتتجسد هذه العصبية في مقاتل القبائل، في الفتنة الكبرى، وطوال العصر الأموي.(وهى ما ستكون المؤثرات الجانبية للمرحلة التالية .)

انتهت بمقتل (عثمان) المعارضة الداخلية السلمية وفتح الباب أمام الصراعات الدموية بين المسلمين أنفسهم[720]

امتدادات العهد العثماني إدارة الصراع الخارجي:

أهم الامتدادات الاسلامية فى عهد الخليفة الراشدي الثالث، اقتحام أفريقيا:

إذ لما ولى عثمان أقر (عثمان بن العاص) على عمله في مصر، وكان لا يعزل أحداً إلا من شكاة أو استعفاء من غير شكاة.

وجه (عثمان) (عبد الله بن سعد) لحرب أفريقيا، وقال له: إن فتح الله عليك فلك من الفيء خمس، الخمس نفلاً، كما وجه معه (عبد الله بن نافع بن عبد القيس)، و(عبد الله بن نافع بن الحصين) القريبين وأمرهما بالتوجه بجيشهما إلى الأندلس على أن يجتمعا

(مع عبد الله بن سعد) حتى يتم له فتح أفريقيا، ثم يبقى عبد الله بن سعد في عمله، ويسيران إلى عملهما. فخرجوا حتى قطعوا مصر، فلما أوغلوا في أرض أفريقيا تصدى لهم الأفارقة. وحسم الأمر لصالح الجيوش الإسلامية وتابع أمير الشام (معاوية) صراعاته مع الروم، حيث أطلق (معاوية) آنذاك مقولته الشهيرة <شدوا وثاق الروم فبها تضبطون أمم الأرض، وكانت الوسيلة لضبط الروم وشد وثاقهم هي حرمان الروم من مجال عملهم البحري والحد من قدراتهم البحرية وتم الأمر على سواحل مصر والشام.

كان (عثمان) و(معاوية) يتعاونان، ويتشاوران في الصراعات البحرية ضد الروم، وكانا معاً يديران هذا الصراع ورغم أن القرار كان دوماً للخليفة (عثمان) إلا أن القدرات التنفيذية كانت بيد (معاوية) وهما معاً حققا هذا الإنجاز وقد سمي بحر الروم، المتوسط حالياً، ببحر (الشام)، وظل يحمل هذا الاسم خمسة قرون إلى أن جاءت الحروب الصليبية[721] فتغير الاسم، وأصبح يعرف الآن بالبحر المتوسط.

4- الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: إدارة الصراع والتصدع:

انفتح باب الصراع بين المسلمين بمصرع الخليفة (عثمان)، وأخذت هذه الوقائع التي وصلت بعدئذ اسم، الفتنة، وقد عنون الدكتور (طه حسين) كتابه المعروف ب- (الفتنة الكبرى) ثم أعقبه بكتاب (علي وبنوه)[722] نشراً، إذن صارع المسلمون من أجل السلطة كما قلنا واختلف أهل الإسلام حولها، وقد أجمع كثير من المؤرخين العرب والمسلمين على تسمية هذه الفتنة بالبغي وكانت حقاً فتنة كبرى تجسدت في أنماط ثلاثة من الصراع:

* معركة الجمل

* وصفين

* معارك الخوارج

ولقد كانت إدارة هذه الصراعات من أعقد الإدارات الصراعية في العهد الراشدي، وحيث أمسك كل طرف من أطراف الصراع بمسوغ شرعي يبرر صراع هذه الأطراف الأخرى، وتقرر عند علماء المسلمين وثبت بدليل الدين أن (علياً) (رضي) كان إماماً، وإن كل من خرج عليه باغ. وأن قتاله واجب حتى يفيء إلى الحق أو ينقاد إلى السلم[723]

دار الصراع بين الصحابة أنفسهم وقد نقل (د. صيداوي) عم مصدر إسلامي قوله إن معنى (البغي) ليس اسم ذم كما يقال، أو ما تدل عليه الكلمة في ظاهر الأمر من قبيل القول أحكام البغاة في القتال وللبغي ليس اسم ذم عندنا لأنهم إنما قالوا بتأويل جائز في اعتقادهم، ولكنهم مخطئون فيه فلهم، لما بينهم من أهلية الاجتهاد، نوع من العذر، ومن هؤلاء أيضاً من يرى بأن خطأ هؤلاء الصحابة الذين اقتتلوا بخطأ المجتهدين من الفقهاء[724] ويرجح (ابن حزم) وصف البغي إلى افتقاد العدل سواء عند الخارج على الإمام أو عند الإمام ذاته[725] ويستشهد هؤلاء العلماء عند كلامهم على البغي بالآية القرآنية 9 من سورة الحجرات التي تقول وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا... فإن بغت.

كيف يرى معاصرونا هذه المسألة من زاوية أخرى، أي بعيون معاصرة:

يقول الدكتور (محمد جابر الأنصاري) وكنا قد ذكرنا ذلك سابقاً أن أول ما يلفت نظر المتأمل والباحث في التاريخ السياسي الإسلامي وتثير دهشته ظاهرة تفجر الصراع الشديد والحروب الأهلية العنيفة التي طبعت الحياة السياسية منذ العصر الراشدي وبعد وفاة النبي (ص) بعقد من الزمن بين صحابة، وقادة وتابعين، وكانوا المثال والقدوة في دعيهم وتقواهم، خلقهم وعملهم ولكنهم في اختبار السياسة وفي تعاملهم الخلافي فيما بينهم، تعرضوا وعرضوا المسلمين لمحن، وفتن متتالية أدت إلى اعتزال بعض المسلمين وخروج بعضهم على البعض الآخر، وإلى تبادل التكفير والتفسيق[726] وبعد أن ذكرنا سابقاً مقالة الدكتور (الخضرا) حول أهم أسباب الفتنة وهو الصراع على السلطة(او الصراع بين مشروعين كما ذكرنا فى موضع سابق) ويتابع مؤلفنا قوله إن علينا أن نحلل المسألة بعقلانية، ورشد، ونستخلص الدروس المفيدة، ومن أ÷/ ما استخلصه كاتبنا من تلك الأحداث أنها كانت تمثل تجلياً واضحاً للنمط (النبوي الخليفي) في عصر فجر الإسلام، وربما يكون من أهم الدروس وأبرزها في تلك الأحداث أن العقيدة المشتركة أي العقيدة الإسلامية، لم تمنع الاقتتال الذي نهى عنه الإسلام بشدة، وأن الاختلاف والاقتتال لم يكونا حول العقيدة، بل حول أمور دنيوية (علمانية) بتعبير الكاتب المذكور، اجتهادية [727] إننا نستخرج من الكلمات الأخيرة لكاتبنا المذكور أعلاه ما يلي:

1- الابتعـاد عـن المرجعيـة الدينيـة وعـن النمـوذج النبـوي فـي إدارة الأمـور وإدارة الصراع.

2- الاختلاف والصراع كانا حول جانب مهم من (الحياة الدنيا) التي ألمحنا في الفصل الرابع من عملنا.

3- تأثير (المؤثراتالجانبية) اوالآثار القديمة، من الصراعات القبلية ،والتي لم تخل من العصبية والتطرف في التعامل.

4- أخطاء في التأويل للنص الديني كما ذكر بعض العلماء المسلمين سابقاً أو بعبارة أخرى ظهر بينهم ما يمكن أن نسميه ب- صراع التفاسير للنص[728] بين المتقاتلين.

أخيراً نعتقد أن أسباباً عدة تكمن وراء هذا الصراع، وقولنا هذا صادر عن قناعتنا بأن الظاهرة الإنسانية لا تفسر بسبب واحد بل من أسباب عدة لها، اجتمعت معاً وأدت إلى الانفجار، وهذا لا ينفي اعتقادنا بأن من الأسباب المهمة كان الصراع على (السلطة كما ذكرنا) والآن كيف تم إطفاء هذا الحريق الهائل وكيف تمت إدارة هذا الصراع الداخلي؟

*** قررت عائشة (رضي) المطالبة بدم عثمان وسار معها خلق كثير**

*** تخلف عدد من الصحابة وأمهات المؤمنين عن اللحاق بركب عائشة، ومن معها من المقاتلين**

*** تمت مبايعة (علي) (رضي) وقبل بعض الصحابة، ثم تكون معسكران:**

*** أتباع عائشة وعثمان، وأنصار علي.**

*** يشير بعض المؤرخين إلى دور قتلة (عثمان) في تأجيج الصراع بين المعسكرين**

*** تمت الإشارة إلى دور السبئية إشارة إلى (ابن سبأ) في الصراع**

كان (علي) (رضي) قد أمر جيشه ألا يبدأ القتال حتى بدأه رجل من أهل (الجمل) فقتل أحد رجال (علي) بسهم، فقال (علي) حينئذ، اللهم فاشهد انحدروا إلى القوم[729] بدأت معالجة الصراع الذي أخذ بالاحتدام بإلقاء (علي) خطبته القائلة:

(أيها الناس إذا هزمتموهم، فلا تجهزوا على جريح، ولا تقتلوا أسيراً، ولا تتبعوا مواليّاً، ولا تطلبوا مدبراً، ولا تكشفوا عورة، ولا تمثلوا بقتيل، ولا تهتكوا ستراً ولا تقربوا شيئاً من أموالهم، إلا ما تجدونه من عسكرهم من سلاح، أو كراع، أو عبد، أو أمة، ما سوى ذلك فهو ميراث لورثتهم على كتاب الله[730])

ورغم أسفنا لحدوث المعركة، وبالرغم من تحفظنا على اللجوء والاحتكام إلى السلاح أصلاً، ولكن مع ذلك فإن النص ناطق بأخلاقيات الصراع، ويهمنا الوقوف عند الجانب الإنساني في هذا الصراع، وهو نقطة انطلاق إدارة الصراع، وهو جانب مهم من ناحية أخرى نراه صالحاً لإدارة الصراعات، إذا أردنا أن نكون واقعيين، وأردنا رؤية الأمر بعيون معاصرة.

لقد تمثل صراع (أهل الشام)، وعلي في عصيان أعلنه (معاوية) أمير الشام على (علي) الخليفة، ودعي الخليفة أهل الشام إليه، ولكن استمر (معاوية) بالمطالبة بدم عثمان ثم كانت وقعة صفين (37هـ–) وهي أشبه بوقعة الجمل، ولم يكن أحد يشك بأن (علي) كان على حق، وأن كل من خرج عليه متأولاً في خروجه، وفي وصف عائشة (رضي)لخروج (معاوية) على (علي) أبلغ الدلالة في هذا المجال، ويجمع الفقهاء على خطأ موقف (معاوية) وعلى أن فئته هو الفئة الباغية، وهو مذهب فقهاء الحجاز، والعراق، وفريقا الحديث، والرأي منهم (مالك) و(الشافعي)، و(أبو حنيفة) وغيرهم، كما ذكر الإمام (عبد القاهر الجرجاني) في كتابه (الإمامة)[731]

في حرب الجمل كانت وصية أمير المؤمنين، كما أشرنا ووضعت القواعد لأسلوب إدارة الصراع، والتعامل مع الفتنة المسلحة، داخل المجتمع الإسلامي، وفي حرب (الشام) كرر الإمام الموقف نفسه، وكانت وصيته لجنده يوم (صفين) ألا يبدأ أحد بالقتال حتى يبدأ أهل الشام وألا يجهزوا على جريح، وألا يتبعوا مدبراً...إلخ[732]

وفي مواجهة الخوارج على (علي) كان الرأي نفسه، والمنطلق ذاته في إدارة الصراع، ومن القواعد الأخرى التي توضحت إدارة الصراع هنا هي: طريقة التعامل مع المعارضة المسلحة والتي تمت على مرحلتين.

* المنعة بدون قتال، وهو جانب معروف في فقه الحرب لدى المسلمين، لأن الناظر في هذا الفقه يكتشف قواعد، وأصولاً في إدارة الصراع داخل المجتمع الواحد تفتقر إليها معظم النظم والقوانين التي وضعتها المؤسسات والنظم الدولية ذلك أن الإطار العام الذي عالج من خلاله الفقه الصراعي الإسلامي هذه الظاهرة ضرورية لتأسيس قواعد عالمية للصراعات العالمية.

* المرجعية القرآنية لعلي وصحبه، وهو عدم البدء في القتال إلا في حال الاعتداء الذي يشنه الطرف الآخر، وذلك حسب الآية القرآنية (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم...) وهو ما يسمى في العصر الحديث بالدفاع عن النفس.

* إن لجوء الإمام إلى السلاح هو آخر إجراء يقدم عليه بعد أن يسبقه الباغي إلى ذلك وبعد أ تفشل الأساليب الأخرى، أخيراً يرى الفقهاء أن الصلاة واجبة على قتلى جميع أطراف النزاع بين المسلمين.

لقد أدرك الفقه الإسلامي في إدارة الصراع الطبيعة البشرية التي تميل وفي غفلة من وعيها وضميرها الروحي، إلى التنافس الشديد والتدافع، والصراع، فنظر هذا الفقه إلى الأمر بواقعية وعمل على تفهم هذه الطبيعة، وهو لا يبررها ولكن يضع لها ضوابط، ويعمل على إدارتها حسب الضوابط، وذلك تجنباً للويلات، والمآسي الإنسانية الواقعة، واللاحقة، ويميل هذا الفقه إلى عدم القتال، (لقد كتب عليكم القتال وهو كره لكم) ولكن عندما يقع يجب الحد من اشتداده بكل الوسائل الممكنة.

تم النصر (لمعاوية) وأبنائه وعاد إلى (الشام)، وقام بتأسيس أول دولة عربية في التاريخ السياسي العربي الإسلامي كما ذكرنا سابقاً.

إن الخيال التاريخي يبيح لنا طرح مجموعة من الأسئلة بغرض استثارة المخيلة للقارئ حول هذا الحدث التاريخي الفاجع والذي أدى إلى نتائج تركت بصماتها على مسيرة التاريخ العربي الإسلامي لا بل على التاريخ العام للمجتمعات العربية الإسلامية، وحتى يومنا هذا:

لقد أشعلت هذه المعارك بين (بني هاشم) و(بني أمية)، وهما من قريش كما ذكرنا سابقاً حرباً أهلية بامتياز، ظهرت فيها كل أنماط العصبيات القبلية المتطرفة الجاهلية، وعوامل أخرى موروثة كالأخذ بالثأر، بدوره الموروث من العصر الجاهلي ما قبل الإسلام، وما اتسمت هذه المسالك العصبية وللثأر من لا عقلانية واضحة، أشرنا إلها كعامل من العوامل الخاصة في الفصل الرابع، ولم يلتفت المصارعون إلى مسألة (التحكيم)، والمطالبة بالحاكمية الإلهية التي أمر بها الله في كتابه العزيز وسنة نبيه الكريم، وإذا افترضنا أن النوايا لم تكن سليمة وأن نداء التحكيم كان حقاً أريد به باطلاً، ولكن هل كان من الممكن:

*** النظر إلى التحكيم على أنه المرجع الأول في اختلاف الأمة، والرجوع الصادق إلى النص القرآني كمرجعية في ذاتها بغض النظر عن نوايا المطالبين بها، لماذا لم يعمل المتصارعون تبعاً لمقولة: انظر إلى ما قيل (أي المطالبة بالتحكيم)، لا إلى من قال؟**

*** هل كان من الممكن العمل على إضعاف الروح المتأججة للصراع، والتذكير بالقرابات القبلية والمصاهرات والأخوة العربية، والدينية والمصلحة المشتركة والعيش القبلي المشترك؟**

*** هل كان من الممكن جعل روح العقيدة الإسلامية كعامل مخفف من حدة المواجهة وتأجيلها لتهدأ النفوس، وإمكانية استمرارية هذا الهدوء زمناً، ما وبالتالي الشروع في الحوار؟**

*** هل فكر المتصارعون بمضاعفات أو الآثار الجانبية للصراع ونتائجه على مصير الأمة لمرحلة ما بعد الصراع، وأثر ذلك على المشروع الإسلامي الذي شرع به النبي والشيخان؟**

*** هل كان من الممكن تعقل الحدث والركون إلى الخصلة العربية التي يحبها العرب في القيادة السياسية وهي: الحلم!**

*** تقول العرب بقد سبق السيف العزل، أي انقطع الحوار، وحلت لغة السيف، وتراجعت المرجعية الإلهية، والإنسانية وسادت لغة العنف بين أبناء المجتمع الواحد فهل**

تساءلوا ما جدوى سل السيوف بين أبناء المجتمع الواحد، وهل فكر المتصارعون لمرحلة ما بعد الحرب، عندما تضع أوزارها، ويبدأ المتصارعون بتعداد الخسائر البشرية والمادية والكوارث السيكولوجية، وعمق الجراح ومشاعر الغضب والأحقاد والضغينة التي ستترك آثارها حيناً من الدهر بلا علاج ولا إرادة شفاء.

* وهل فكروا أنه في الحروب الأهلية الجميع فيها خاسر؟

الفصل التاسع عشر
إدارة الصراع في العصر الأموي

أ- إدارة الصراع الداخلي: السلطة - المعارضة

ب- إدارة الصراع الخارجي: اثناء الامتدادات الاسلامية

مقدمة (صراعات داخلية وامتدادات خارجية)

اعتبر المؤرخون القدماء (الطبري)، والمحدثون (د. حسن إبراهيم حسن) و(شوقي ضيف) (عبد العزيز الدوري) (البيرحوراني) أن مجيء (معاوية) (**80**هـ– – **661**م) شكل منعطفاً حاداً مرحلة جديدة في التاريخ السياسي العربي – والإسلامي حيث حصلت قطيعة بين النموذج النبوي والراشدي في البناء السياسي وبين الواقع المستجد، وظهور أسلوب ونمط تفكير جديدين في السلطة، والحكم.

لقد قلنا في الفصل المتعلق بإدارة الأزمات في هذا العصر أن (معاوية) وعقب توليه الخلافة، واستقرار أمره في الشام، قام بتأسيس الدولة العربية، وفسح مجالاً لنهضة عربية في مختلف المجالات أهمها في الإدارة العامة للدولة وفي الثقافة (الأدب خصوصاً) وقد مهد الأرضية اللازمة لنمو الثقافة العربية – والإسلامية في العصر العباسي اللاحق، ومن ثم ازدهار الحضارة، وقلنا إن (معاوية) قد انقلب سياسياً على مفاهيم الخلافة التقليدية، وابتعد عن النموذجين النبوي والخليفي وأظهر ميوله الحادة إلى نظام الملك فأقام ما سمي بنظام المَلِك العضود أي (القوي) ذي النفوذ، والسلطة (الإمبراطورية) حيث امتدت في عهده رقعة البلاد.

ولكن انتصاره على (علي) في صفين، واختفاء (الحسن) و(الحسين) ابنا علي من المشهد السياسي لم ينه المعارضة الشديدة لحكمه، واعتباره مغتصباً للسلطة، وهذا الاعتقاد الذي ساد كثيراً بين القبائل حينذاك شكل (فكرياً) البذور الأولى للمعارضة العنيفة للحكم الأموي، وبدأت المواجهة في باطن الثنائية المعروفة: السلطة والمعارضة، وكان على (معاوية) وجميع من جاء بعده أن يعدوا العدة للمواجهة السياسية، وانتقال هذه

المواجهة إلى الصراع المباشر، قال أحد المتخصصين في أدبيات وتاريخ العصر الأموي أن هذا العصر، سجل صراعاً متصلاً بين الفرق والأحزاب المختلفة، فيما بينها، وهذه السلطة، وكان مدار هذا الصراع على: الخلافة، ففي سبيل الظفر بها، اصطرعت الأحزاب والفرق لسانياً وحربياً لم تهدأ ثائرته طوال العصر، وكان النزاع القبلي صورة من صور هذا النزاع السياسي وقد شهد هذا العصر تجدد الخصومات القبلية، التي استطاع الإسلام إخماد جذوتها فترة قصيرة[733].

ونضيف من ناحية ثانية أن الصراع لم يكن قبلياً بحتا، بل لقد كان قبلياً سياسياً – دينياً وغالباً ما كان يأخذ منحى قبلياً – سياسياً في المواجهات المتعارضة، وسنرى ذلك في الأسطر القادمة مجريات هاتين الصورتين من الصراع في هذا العصر.

1- الموقف من جانب السلطة:

لقد كان نظام الحكم الأموي منذ تولي (معاوية)، نظاماً فردياً، والحكم الفردي كما نعلم يقوم في جوهره عدم قبول المشاركة وعدم قبول المعارضة هذا من ناحية ومن ناحية ثانية كان الخلاف قد دب بين (بني هاشم)، و(بني أمية) منذ مقتل (عثمان) حيث هرع الفرقاء إلى الاحتكام إلى السلاح، وإلى إدارة الصراع بينهم إدارة: مسلحة وقد شكل هذا خلفية (أسلوبية) أو أداتية إن صح التعبير في التعامل، وعندما تولى (معاوية) استمر الصراع بين الطرفين واشتد أواره.

أبدت السلطة الأموية على يد (معاوية) استعراضها للقوة، وكانت مستبدة في طبيعة حكمها، ووقفت موقفاً شديد التعصب ضد المعارضة.

ومن ناحية أخرى أثار (معاوية) بمطالبة بدم (عثمان) احتقاناً قبلياً، وبعث بأفكار قديمة وآثار مشاعر مكبوتة استيقظت من سباتها حول الأخذ بالثأر.

ولا شك أن موقف معاوية كان سبباً قوياً من أسباب استشعار جماعته للعصبية القبلية، وكأنه أراد أن يحي قاصداً، أو غير قاصدٍ الفكرة القبلية القديمة التي تجعل من حق القبيلة أن تتولى الأخذ بالثأر، ومعروف أن الإسلام قد هدم هذا (الحق) وحوله إلى المسؤولية الفردية وما يفرضه الدستور القرآني.

لقد جاء الأمويون كما عرفنا إلى الخلافة بالقوة (بحد السيف)، وقد قال (معاوية) في خطبته له عام الجماعة: أما بعد فإني والله، ما وليتها بمحبة منكم، ولا مسرة بولايتي، ولكني جالدتكم بسيفي هذا مجالدة.

لقد توارت روح (الديمقراطية) والشورى التي كانت سائدة في عصر الراشدين تحل محلها إرادة فردية مطلقة، ولا يرضيها أن يجهر إنسان بمعارضتها، ولم تكن حرية القول متاحة وخاصة إذا كانت تميل إلى التحريض، أما ما لاكته ولفظت به الألسنة، كلاماً وثرثرة، فكان (معاوية) لا يأبه لذلك.

ونذكر ما قاله (يزيد بن المقنع) عند توليه (يزيد بن معاوية)، وإشارته إلى السيف ضد من لا يرغب بالمبايعة، فكانت القوة منذ بداية السلطة الأموية مدار معالجة الأمور المعارضة للسلطة الأموية.

فكان (زياد بن أبيه) في خطبة البتراء بالتهديد والوعيد وما قاله أيضاً (عبد الملك بن مروان) من أنه لا يداوي الأمة إلا بالسيف حتى تستقيم قناتها، والله لا يأمرني أحد بتقوى الله بعد مقامي هذا إلا ضربت عنقه[735].

وخطب الحجاج مليئة بالتهديد، والوعيد ضد المخالفين للسلطة، كان بنو أمية يطالبون الرعية بالخضوع المطلق، أو السيف[736].

أما روح العصر الثقافية للعصر الأموي فصحيح أن (معاوية) فتح أبواب القصور للشعراء والأدباء، (بدأت الحياة الأدبية بالانتعاش، ولكن هذه الخلافة، ومن سيلي الخليفة (معاوية) لم تأبه إلى التطوير الفكري، والعقلي، ولم تأذن لعلوم الأوائل العقلية والعلمية بالامتداد في المجتمع بل لقد جاءت الوجدانيات الشعرية المبتعدة عن العقلانية لتأجج الصراعات السياسية، وتفسح المجال في لغة شعرية نارية للصراع، ورغم تجسد العبقرية العربية في الشعر في ذلك العصر إلا أنه أخذ أي الشعر يتجه اتجاهاً عنيفاً نحو تأجيج نار العصبية الموالية لبني أمية.

لقد انتشر، وساعدت السلطة على ذلك، شعر الهجاء المقذع، وهو نمط عدواني لفظي يمهد عادة للصراع... وقد شكل هذا الشعر خطوة في إدارة الصراع من جانب

السلطة يقول (شوقي ضيف) احتدم الهجاء في هذا العصر احتداماً شديداً بتأثر العصبيات القبلية التي اشتعلت بنيرانها في كل مكان، ومهدت أو تأجيج الصراعات القبلية[737] وأصبح كل شاعر يتحدث بلسان قبيلته ويغمس ريشته بالدم.

ولقد ساهمت الخطابة في هذا العصر تأجيج الصراع، فحين انقسم المسلمون على أنفسهم وافترقوا طوائف وشيعاً، كان خطباء كل فرقة يحضون أنصارهم على قتال مخالفيهم، مظهرين لهم أن الله في جانبهم وأنهم وحدهم على حق، وخصومهم على باطل، وكانوا يعدون قتال مخالفيهم جهاداً في سبيل الله وأخذ الطابع الديني في صدر الإسلام هو الغالب، ثم ما لبث أن ساد الخطاب السياسي في العصر الأموي[738].

2- موقف المعارضة:

ظهرت حركات مناهضة للأمويين في كل من جزيرة (العرب) ومصر، وكذلك ظهرت المنافسة الحادة بين (البصرة)، و(الكوفة) في العراق وبين عرب الشمال، وعرب الجنوب، في سورية، وتكونت فرق (الزبيريين) و(الشيعة)، (الخوارج)، ورغم أن كثيراً من البواعث الاقتصادية كانت كامنة وراء هذه المعارضات للسلطة الأموية، إلا أن هذه التيارات المعارضة انطلقت أساساً من اعتبار الأمويين مغتصبين ومتسلطين، وينثرون أموالهم وعطاياهم على أنصارهم، ومن يلوذون بهم دون نظر إلى الجماعة أو الرعية.

ذهب (الزبيريون) إلى أنه لا يمكن تحقيق مصلحة الرعية إلا بعودة الخلافة من دمشق إلى الحجاز، وتحرير الناس من تحكم القبائل (اليمنية) التي جعلها لها الأمويون معظم السلطان، وذهبت (الشيعة) إلى أن مصلحة الأمة لا يمكن أن تتحقق إلا على يد (علوية) تحمل الناس على الجادة.

وذهبت الخوارج إلى أنه لا يمكن أن تتحقق المصلحة، إلا برد الأمر إلى الأمة لتختار أولياءها الصالحين، ومضى هؤلاء جميعاً يجاهدون جهاداً عنيفاً ضد الأمويين[739].

ذهبت المعارضة في موقفها إلى الجهاد العنيف إزاء اغتصاب السلطة من قبل الأمويين.

وكان من أبرز المعارضات زمن بني أمية هي:

1- ثورة ابن الزبير.

2- ثورات الشيعة.

3- وثورات الخوارج.

4- ثورة ابن المهلب[740].

كان الخوارج يشتمون من يقف ضدهم، أو من ينضم إلى بني أمية، وقال (أبو حمزة الخارجي) في بني أمية، إنها واحة ضالة، وبطشهم بطش جبرية، يأخذون بالظن، ويقضون بالهوى، ويقتلون على الغضب، ويحكمون بالشفاعة، ويأخذون الفريضة في غير موضعها، ويضعونها في غير أهلها[741].

وتصور المعارضة (الخارجية) سيكولوجية هذه الفرقة المائلة إلى التطرف في الرؤية والفعل، وكانت تريد تطبيق أحكام الدين تطبيقاً مثالياً.

أما (خطب) الشيعة كمعارضة أيضاً، فقد شن خطباؤهم حملة عنيفة على بني أمية خاصة وعلى سائر الأحزاب المناوئة لهم عامة، وعملوا على تتبع مثالب بني أمية، وما يؤخذ عليهم من مطاعن[742]، يقول (الحسين): أما بعد، فأن تتقوا تعرفوا الحق لأهله، نحن أهل البيت أولى بولاية الأمر عليكم، وهؤلاء المدعين ما ليس لهم[743].

وكان زعماء المعارضة الداعون إلى الثورة على الحكم الأموي يعدون الناس بالعمل بكتاب الله وسنة رسوله، وبإزالة السخط، والشكوى والظلم.

وكانوا يلجؤون بالدعوة إلى خلع الطاعة عن بني أمية، وتعداد مثالبهم يلجؤون إلى الذم والشتم، والقذف (خطبة يزيد على المهلب)، والله لم يثوروا هؤلاء غضباً لله ودينه، وإنما طلباً للدنيا، ورغبة في نيل الخلافة، وطمعاً فيما وراءها من مغانم، وحياة[744].

أسلوب إدارة الصراع بين السلطة والمعارضة:

1- **أسلوب السلطة:** يبدو أن (معاوية) وحسب المصادر التي بين أيدينا أكثر الخلفاء مهارة في التعامل مع المعارضة وإدارته للصراع معاً، فقد سلك في هذه الإدارة مجهزاً بالمهارات السياسية القائمة على:

- التحايل.

- التجاهل.

- الحنكة.

- الدهاء[745].

- القوة.

- وجمع ما يُجمع.

- التأرجح بين جانبي القبيلتين القويتين في عهده.

وكانت كما وضُح لنا سلطة معاوية فاتحة عهد ملكي أوتوقراطي، توارث فيه الحكم الأبناء فيه عن الآباء[746]، لم تكن مرجعية الخليفة مرجعية شرعية إسلامية أو مستندة معتمدة إلى الشورى وأهل الرأي، والحل والعقد، لم يُشهر (معاوية) سيفه ضد المعارضة في البداية وترك الألسنة تلوك هجومها طالما أن ثرثرتها لا تؤدي إلى الفعل، ولم تتجاوز الكلمة، ولكن رغم سلوك (معاوية) في إدارته للصراع فإن هذه السلوكية، لا تنسينا أنه كان يلجأ إلى القوة والعنف، وخاصة أنه يدرك أنه جاء إلى السلطة وجالد القوم بالسيف، ومثال استخدام (معاوية) القوة مع المعارضة عندما أرسل من أمعن في الخوارج، كمعارضة، فيهم بطشاً وتقتيلاً[747].

أما في عهد (يزيد بن معاوية)، فلقد ظهرت المعارضة الشديدة للحكم، فأعمل (يزيد) السيف مستأصلاً إياها، وسلك ما أوصاه (معاوية) بأن يأخذ ثورة (ابن الزبير) بالعنف والشدة، والقضاء على ثورة (يزيد بن علي)، وعمل (يزيد) ومن تولى بعده بالشيعة شر تنكيل، وقمعوا حركاتهم أعنف قمع، واستأصل (عبد الملك بن مروان) الزبيريين، وهدد أبناء الرعية بالسيف[749].

يستخلص من ممارسة وسلوكية الخلفاء الأمويين، وقد جئنا على بعض الأمثلة أن إدارتهم للصراع ضد المعارضة قامت على العناصر التالية:

1) الاحتجاج لحق بني أمية في الحكم والسلطة والخلافة.

2) مطالبة الرعية بالطاعة تحت طائلة التهديد والوعيد.

3) استخدام ضعيف للأسلوب السياسي، والاعتماد الأكبر على القوة ضد المعارضة.

4) الترغيب بالعطايا والهدايا.

5) تحدي الأعداء في الداخل.

6) استخدام الخطابة والشعر في إثارة وجدان السلطة، في مقاومتها للمعارضة.

7) استغلال مقتل الخليفة (عثمان).

8) مزج السياسة بالخطابة الدينية، وفي أسلوب الوعظ والإرشاد.

2- أسلوب المعارضة:

لم تواجه المعارضة منذ نشوئها موقف السلطة بالرضى أو بالقبول، وقد أرادت بدورها إظهار واستعراض قوتها، وقد استخدمت بدورها أساليب: العنف والشدة، والرفض والقدح والشتم، والذم، والتمرد، والثورة، وانطلقت المعارضة من مبدأ خلع الشرعية عن الخلافة الأموية.

ولقد كان خطباؤها يلجؤون إلى خلع الطاعة عن بني أمية، واتسمت إدارتها للصراع ضد السلطة، باستخدام أسلوب القوة، والمواجهة المباشرة، وتبني أسلوب الجهاد العنيف والمساهمة في زرع الاحتقان والعصبية القبلية، وهذه مواقف لا تخلو من تطرف ولا عقلانية بدورها، فقد كان خطباء كل فرقة معارضة تدفع بأفرادها إلى الجهاد ضد السلطة لأنها أي السلطة على باطل[750].

الخلاصة:

اتسمت العلاقة بين السلطة، والمعارضة في الحياة السياسية في العصر الأموي، بالشدة، والتوتر والعنف والاستبعاد المتبادل، واستخدام القوة وكان الموقف الثنائي، وكما وضح لنا، متطرفاً، وبالتالي كانت إدارة الصراع تقوم في جوهرها على محاولة كل طرف القضاء على الطرف الآخر أو عدم القبول بوجوده، ولا التعيش إلى جانبه ولا مشاركته.

وكذلك لم تكن الإدارة لدى الطرفين ذات مرجعية شرعية، وأعني أن السلطة كان مجيئها إلى الخلافة (بالسيف)، ولم تكن بإرادة المؤمنين وخيارهم، وأن المعارضة سلكت الأسلوب (السيفي) إن صح التعبير مخالفة الشرع الذي يقضي بالمصالحة بين الطائفتين عندما تقتتلا، ولم تطلب المعارضة حسب المصادر التاريخية بين أيدينا من الخلافة الأموية، سواء من (معاوية)، أو ممن جاء بعده الاحتكام إلى الحاكمية الإلهية، بل حكمت مسبقاً بلا شرعية السلطة واكتفت بهذا الحكم، وشرعت المعارضة.

لقد اتخذ الصراع بين السلطة والمعارضة شكلاً قبلياً، ودينياً، ولكن اتخذ كلا الطرفين الأسلوب المتطرف، واللا عقلاني، في ممارسة السلطة، والمعارضة على حد سواء، ولا شك أن أصحاب السلطة والمعارضة يجهلون، أن سبعة وأربعين آية في القرآن الكريم تخاطب المؤمنين تدعوهم إعمال العقل والفكر، في أمور الحياة الدنيا والآخرة، ولقد كان الخطاب السياسي لهذا العصر لدى الطرفين يتسم بالحرارة، وباللغة النارية والعنف والقوة والتوتر العصبي، ويصور اندفاع العاطفة، والهيجان، وقد عكس طبيعة العربي: الغضوب السريع الانفعال الثائر والذي قلما يتوجه إلى الاعتدال والتعقل والحكمة[751].

لقد أدى إدارة الصراع الداخلي بين سلطة بني أمية، والمعارضة والتي قامت على العنف والقوة إلى تسريع ضعف الدولة الأموية وانهيارها...

إدارة الأمويين للصراع الخارجي: (فى بلاد المد الاسلامى)

أثر الصراعات الداخلية الأموية على إدارة الصراعات الخارجية:

وقفنا عند كثير من العوامل السلبية التي كانت تُدار بحسبها صراعات الداخل وقلنا كذلك أن من الآثار الجانبية لهذه الإدارة سواء من طرف السلطة أو المعارضة إزاء بعضهما البعض أن ألقت بظلالها الثقيلة على أسلوب التعامل مع الصراعات الخارجية، ولكن هذه الآثار التي نتحدث عنها لم تكن بالمدمرة لسلوك وأسلوب الخلفاء، فرغم كل التوترات العميقة والصراعات فقد استمر، وهنا وجه الغرابة بتقديم الخلفاء إنجازاتهم، ونجاحاتهم في إدارة الصراع مع الخارج (الفتوحات) خارج أراضي الإمبراطورية العربية الناشئة.

حقاً لقد عادت كما قلنا الخصومات والنزاعات القبلية، إلى الظهور، وامتلأ هذا العصر بالأحداث السياسية الخطيرة، وعندما استوطن العرب الأقطار المفتوحة في (خراسان) و(الأندلس) وغيرهما، حملوا معهم: عصبياتهم وخصوماتهم القديمة ولم يستطيعوا تناسي أحقادهم القبلية، في أشد الأوقات حرجاً، وذلك حين كان عليهم أن يقفوا صفاً واحداً أمام أعدائهم من الأمم الأخرى التي كانت تتربص بهم شراً.

لا ريب أن هذه الخصومات كانت عائقاً عظيم الشأن في الحد من انتصاراتهم، وهم سائرون في دنيا العالم الوسيط شرقاً، وغرباً، شمالاً، وجنوباً وكان ذلك من أسباب سقوط الدولة الأموية(752) أي أنها قد أنهكتهم الصراعات الداخلية وخارت قواهم نتيجة ذلك.

لقد وقف الخلفاء الأمويون، من النزاع القبلي موقف الرضى، والتشجيع أحياناً حين كانت المصلحة تقتضي ذلك، ولم يستطع خلفاء، ولا أمراء بني أمية أن يتحرروا من هذه العصبية، فكان الوالي المضري يقرب إليه المضرية، ويتعصب لها، فتثور ثائرة اليمانية، ويأتي الوالي اليماني، ويقرب اليمانية، فتسخط عليه المضرية، ويشب النزاع، وتقوم الفتن بسبب هذه العصبيات التي فتت عضد العرب، وأذهبت بقواهم، وكذلك كان الشعراء المتعصبون يعملون بمعول شعرهم على تأجيج نار الفتن، والعداوات(735).

ومع كل هذه الأوضاع الأليمة، والتي تركت آثارها على مسيرة الحياة السياسية، وإنجازات السياسة التي كان من المفترض أن تكون أكبر من ذلك بكثير، وأن تكون رائعة تتجاوز (الصغائر) وتمحو الآثار الجانبية، فقد استمرت الفتوحات الخارجية ولكن مواجهة الخلفاء الأمويين لصراعات الخارج لم تستمر طويلاً.

أ- المد الاسلامي في الشرق:

لم يجاوز المسلمون زمن الخلفاء الراشدين في فتوحاتهم بلاد فارس، وانصرف همهم في تثبيت أقدامهم في الأقاليم الإيرانية، وإخضاع الثائرين عليهم بين الحين والآخر.

وفي عهد الأسرة الأموية سار المسلمون شوطاً آخر في فتوحاتهم، فقطعوا (جيحون) في الشمال وتوغلوا شرقاً في (سجيستان) وبلاد (الهند)، وتابعوا حملاتهم نحو، ما وراء النهر في عهد (معاوية) حيث أمر (زياد) عامله على (خراسان)، (الحكم بن عمرو الغفاري) فغزا حبل (الأشل).

ثم نشطت الفتوح في الشرق، وفي الغرب زمن (الوليد بن عبد الملك) ففي عهد والي (الحجاج) (قتيبة بن مسلم خراسان) 86هـ- فقام بحملات عديدة غزا فيها (السند) و(الترك) واستمرت غزوات ما وراء النهر في زمن ولاية (يزيد بن المهلب) الثانية على خرسان وكان يزيد يستعمل غاية العنف والقسوة مع أهالي البلاد المفتوحة[754].

ب - امتدادات في الغرب:

عندما ثبت العرب أقدامهم في (مصر)، وجهوا أنظارهم قبل إفريقيا، والمغرب، فاستطاع في عهد (معاوية) أن يفتح (برقة) ثم عرج نحو مدينة (القيروان)، وحين ولى (موسى بن نصير) إفريقية أصبحت (قرطاجنة) ولاية تابعة لدمشق، وقد استطاع هذا القائد أن يخضع شمال إفريقية كله إلى الحكم الإسلامي، ثم بعث (طارق بن زياد) ليصل إلى (إسبانيا).

تابع المسلمون فتوحاتهم في عهد (هشام) تحت قيادة (عبد الرحمن الغافقي) واتجهوا نحو بواتيية (فرنسا)، فواجهوا الفرنجة 114هـ- وهناك توقل العرب بسبب الفتن التي اندلعت حينذاك من: ثورات البربر، وقد أوهنت هذن الثورات وخاصة البربرية من قوى الجيوش العربية، ولقد كان الدافع لهذه الثورات معاملة العرب للبربر، على الرغم من انضواء هؤلاء جميعاً تحت لواء الإسلام، ومشاركتهم فتوح إسبانيا[755].

ولقد تقدمت الجيوش في العصر الأموي تحت تأثير، ودوافع بشرية طبيعية من حب الغنائم والسعي بحثاً عن الثروات، وتغمرهم الروح الجهادية، ولكن العوائق كانت أمام استمرارية هذه الإنجازات، وتوقفها في (بواتييه) و(اكسفورد) كان من أهمها:

الإدارة السياسية للصراع، حيث كانت هذه الإدارة مشغولة بالصراعات الداخلية وإطفاء الفتن، وإخماد الثورات وملاحقة المعارضات، وانتشار المظالم والسخط هنا، وهناك على أراضي الإمبراطورية، وعدم الركون الصادق إلى المرجعية الشرعية الإسلامية في الإدارة، وأخيراً فسح المجال كله للعوامل (الخاصة) تلعب دورها في الفكر والسلوك القياديتين في ذلك العصر.

ومع كل هذا، فالفتوحات ستستمر في العصر العباسي، اللاحق، وستعمل إلى ذكر ما نعتقده حول جملة هذه الفتوحات في آخر الفصل.

الفصل العشرون
إدارة الصراع في العصر العباسي الأول

أـ إدارة الصراع الداخلي: السلطة ـ المعارضة

مقدمة:

تركت الخلافة الأموية بعد سقوطها 132هـ– تركة هائلة من المشكلات، تجسدت في غضب الشعب، والبؤس الذي ران على قلوب أبناء الرعية، وأجسادهم والاضطرابات القبلية – الدينية – والاجتماعية، ومضاعفات التمرد الذي انفجر هنا، وهناك في أرجاء الإمبراطورية، واستغلال القصور الخليفية للثروات التي جنيت، أو جناها الفاتحون، انطلقت الخلافة العباسية إثر ثورة قادها (أبو مسلم الخراساني) من إيران، وأتت على الخلافة الأموية، وتم إعلان الخلافة العباسية الجديدة، وكان (العلويون) حلفاء لبني العباس، ولكن سرعان ما انفصل هؤلاء عن حلفائهم ليعلنوا عدم شرعية الخلافة العباسية، والمناداة بالشرعية العلوية، وبإقامة الحق وإعادته إلى نصابه بعد أن اغتصب من قبل العباسيين أيضاً.

برز الصراع بين الحلفاء السابقين إلى الواجهة، والواقع لقد انتقلت منظومة الخلافة الاستبدادية من يد الأمويين ليرثها العباسيون بدورهم، في أسلوب الحكم، وفي أسلوب تعامل سلطاتهم وإدارة صراعاتهم مع غرمائهم، حلفاء الأمس أو المعارضة الجديدة للخلافة الجديدة.

بنية السلطة السياسية العباسية، وموقفها من المعارضة:

قال (ابو جعفر المنصور) بأن مدينة بغداد، عاصمة الخلافة، بأن طاعة الإمام (الخليفة) من طاعة الله، وبدأ الخلفاء العباسيون يدعمون سلطتهم بالاستعانة بفارس، وأوجدوا السند الديني لطاعتهم، وقاموا بالبحث عن مسوغات دينية شرعية لسلطتهم سيما وأنهم جاهروا بأن جدهم العباس هو عم النبي (ص).

أعلن العباسيون منذ مجيئهم إلى السلطة الخليفية أنهم أصحاب إصلاح سياسي واجتماعي وقدموا أنفسهم أنهم أنصار الحكم الصالح وجاؤوا لنصرة الحق والعدل، على الباطل والظلم اللذين أشاعهما الأمويون قبلهم.

يقول (شوقي ضيف): إذا انتقلنا إلى العصر العباسي، وجدنا النظم الساسانية تنتقل بحذافيرها في كل شؤون الحكم، وكأنما أصبح الخليفة العباسي ملكاً ساسانياً، وأصبح يحكم حكماً مطلقاً، فتنقل هذا الحكم بالوراثة ويطبعه بالطابع الديني.

أقام العباسيون خلافتهم على أنهم أحق الناس بها بإرث الرسول ، ومضوا يحيطون أنفسهم بهالة كبيرة من التقديس كان لها أسوأ الأثر في خنوع الناس وخضوعهم للظلم، والفساد ونعجب كما يقول (ضيف) أن نرى الفقهاء والتقياء الذين كانوا يعترضون على بني أمية، ويعدونهم دنيويين، وظالمين ينصاعون انصياعاً أعمى للعباسيين، ويعدونهم رؤساء شرعيين للأمة من الناحيتين الزمنية والروحية[756].

قال الخليفة المنصور أول الخلفاء العباسيين في خطبة له يوم عرفة: أيها الناس، إنما أنا سلطان الله في أرضه، أسوسكم بتوفيقه، وتسديده، وحارسه على ماله، أعمل بمشيئته وإرادته أعطي بإرادته، وأقفل عليه قفلاً بإرادته[757].

وأخذ العباسيون يحيطون أنفسهم بهالة دينية ويتقربون من الفقهاء ويعلنون تمسكهم بالدين، فقد أوصى (المنصور) المهدي بقوله: وأهل الدين فليكونوا أعضادك[758].

وصاروا يظهرون بزي الدين، يطاردون الملاحدة والزنادقة، يؤكدون على الالتزام بالمراسم الدينية، كالحج والصلاة ويحرصون على تحصيل لقب الإمام.

لم يكن للرعية دور في تولية الخليفة، سوى المبايعة (القسرية)، والطاعة، وكان نتيجة ذلك أن ازدادت قدسية الخليفة، حتى صار يدعى الخليفة العباسي: خليفة الله[759].

يقول (د. عبد العزيزي الدوري) قد لا نبالغ في أثر النفوذ الفارسي في النظام الاستبدادي الذي سار عليه العباسيون لأن نواة النظام موجودة في مقالتهم بقدسية الخليفة وقدسية سلطانهم، كما اتضح في خطبة المنصور، وكذلك بالتطور الطبيعي للخلافة فالأبهة، والانعزالية عن الرعية، والاستبداد كان قد ظهر كل ذلك في العصر

الأموي[760]، وهذه عوامل ذاتية داخلية، خاصة بسيكولوجية السلطة الخليفية في العصرين معاً وقد جاءت التأثيرات الفارسية لتدعم التوجهات الخليفة.

لقد أصبحت الرعية أداة مسخرة للحاكم العباسي[761] ليس لها من الأمر شيئاً، وفي يد الخليفة كافة السلطات يولي الولاة والقضاة، الوزراء، والقواد، والشرطة والمحتسبين الذين يراقبون الأسواق، يعينهم ويعزلهم متى يريد، وتبعاً لهواه ومزاجه[762].

وقد ذكر الأستاذ (نبيل هلال نبيل) قول المنصور: لا يخرج علينا أحد في هذه الأيام إلا قتلناه[763] وقد ذكر المؤلف المذكور نتفاً من خطبة أبي العباس السفاح[764] وقد ذكر المذكور أيضاً أن أربعين فقهياً جميعهم أحد الخلفاء العباسيين ليفتوا له أن لا حساب على الخلفاء يوم القيامة[765].

ويقول (أبو العباس السفاح) الحمد لله الذي اصطفى الإسلام لنفسه، فكرمه، وشرفه وعظمه واختاره لنا، وأيده بنا، وجعلنا أهله، كنعة، وحصنة والقوام به الذائدين عنه إلى أن قال: ورد علينا الله حقنا ليمن بنا على الذين استضعفوا في الأرض، وختم بنا، كما اختتم بنا، وما توفيقنا أهل البيت إلا بالله.

ولم يفته التلويح للناس بالقوة، إن عصوا، وقال في نهاية الخطبة: فاستعدوا فأنا السفاح المبيح والثائر المبيد.

ويرى السفاح، كحاكم مستبد حقه في اعتلاء العرش منه للمستضعفين في الأرض[766].

أكد العباسيون مبدأ الوراثة، وضربوا التقاليد القبلية ضربة قوية، إذ بنوا حقهم في الخلافة على قرابتهم عن رسول الله ؐ قد ظهر ذلك من أقوالهم، ودعامتهم، قال (أبو العباس) وخصنا الله برحم رسول الله ؐ وأنبتنا من شجرته، وأنزل ذلك في كتابه فقال فيه قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى[767]، قاصداً بذلك إلى أن الله فرض على المسلمين أن يرشد رسوله اقرباءه، فكانت هذه الآية عنوان الحق الشرعي في الحكم للعباسيين[768].

لقد ذكرنا أن مبدأ التوريث في الحكم سيعود إلى أحد العوامل الخاصة التي أشرنا إليها في الفصل الرابع، أي مبدأ الذاتية (حفظ السلطة في الأسرة دون غيرها)، هذه هي بنية السلطة السياسية للخلافة العباسية منذ مبتدئها، وسنرى الآن كيف تمت معالجة إدارة الصراع مع معارضتها:

إننا سنستكشف من خلال حوار أولي (مراسلة) تمت بين الخليفة العباسي (المنصور) وبين (محمد بن عبد الله) صاحب أول ثورة للعلويين في العصر العباسي ضد حلفائهم بالأمس: طرق التعامل مع المعارضة من قبل السلطة الخليفية.

لم يكن العباسيون يستولون على السلطة، وتسلم مقاليد الخلافة حتى انبرى العلويون يشيعون فكرة اغتصاب العباسيين للخلافة، وإذاعة عدم شرعيتهم لها، ويروجون أنهم هم أصحاب الحق وورثو الرسول ﷺ، وهم أبناء (فاطمة) وأبناء علي ابن عمه.

فرد عليهم العباسيون بأنه ينبغي الرجوع في ذلك إلى أصل حكم الله في المواريث، وما فرض فيها من حجب العم لابن العم، وحرمان ابن البنت من ميراث الجد للأم، منهم يدلون للرسول ﷺ بعمه العباس الذي آل إليه ميراثه، وهم لذلك أولو الأمر وأهله وخصوا برحم رسول الله، وقرابته، ونشأوا من آبائه وبنوا من شجرته، وإذا كان العلويون يزعمون أن الرسول نص على إمامة علي بن أبي طالب بعده، وأن أبناءه ورثوا منه إمامته، فقد زعم العباسيون أن الرسول قال لجدهم العباسي، إن الخلافة قد تكون في ولدك[769].

واجه العلويون، ومن ثم الخوارج هذه الإدعاءات بالثورة فقامت ثورة (الزيدية) لمحمد بن عبد الله حيث أعلن الثورة على المنصور.

وقد تمت إدارة الاختلاف الذي انقلب إلى صراعن على النحو التالي:

كتب المنصور على محمد بن عبد الله كتاباً يعرض فيه الأمان، ولأهله يعطيه ألف ألف درهم، وينزل في أي بلد يشاء.

فيرد عليه (محمد) بكتاب طويل يصور فيه اغتصابهم للسلطة، من دون أصحابها الشرعيين، فيقول: إن الحق معنا، إنكم إنما طلبتموه بنا، ونهضتم منه بشيعتنا، وإن أبانا علياً فكان الإمامة فكيف ورثتموها دوننا، ونحن أحياء، وإن الله تبارك وتعالى لم يزل

يختار لي مولاتي من البنين أفضلهم محمد (ص) من أصحابه أقدمهم إسلاماً، وأوسعهم علماً، وأكثرهم جهاداً، علي بن أبي طالب، ومن شأنه أفضلهم خديجة بنت خويلد من آمن بالله وصلى للقبلة، ومن بناته أفضلهم سيدة نساء أهل الجنة.

ولم يكن (المنصور) يقرأ هذا الكتاب حتى يرد عليه ينقض فيه حجج النفس الزكية نقضاً، قائلاً بلغني كلامك فغذا جل فخرك بالنساء لتصل به الجفاة، والغوغاء، ولم يجعل الله النساء كالعمومة، ولا الآباء كالعصبة، وإنكم بنو ابنة رسول الله وأنا لقرابة قريب بذاتها امرأة لا تجوز الميراث، ولا يجوز أن تؤم في الصلاة فكيف تورث الإمامة من قبلها[770].

لقد استغرب الدكتور (ضيف) عدم اللجوء إلى الرعية أو جمهور المسلمين في ذلك العصر للنظر في الأمر، ولم يتم الرجوع إلى نظام الشورى، لتصبح الخلافة حقاً للأمة، ومع منعتهم رعاية البيت الهاشمي، وجعلتهم يقنعون بأنها ميراث آل إليهم من الرسول ؑ وانقسموا إزاء ذلك إلى معسكرين[771].

أمسك كلا الطرفين بأطروحته تمسكاً متطرفاً، وابتعدت الرعية من مسرح الصراع وتطورت الأمور، وانقطع الحوار والمراسلات، وحمل الطرفان السيوف، ولم تستشر الأمة، ولا أهل حلها، وعقدها، واشتعلت الحروب والفتن.

لقد اتسمت إدارة الصراع بمجموعة من العناصر الأساسية:

1- التشبث بالسلطة من قبل العباسيين.

2- اللجوء إلى الثورة من قبل المعارضة (الشيعة والخوارج).

3- إدعاء الطرفين الشرعية لمطلبه.

لجأ الطرفان إلى:

1- القوة.

2- بالنسبة للسلطة فقد لجأت إلى القمع، ومطاردة المعارضة.

في عهد (المهدي) وفي النصف الثانيمن القرن الثاني للهجرة أخذت إدارة الصراع الداخلي شكلاً فكرياً، وتحت المظلة الإسلامية، فلقد قاوم الخليفة (المهدي) الحركات

الفكرية النشطة والمتحررة نسبياً والتي نشأت من جراء الامتزاج الجنسي واللغوي والثقافات الأجنبية التي وردت من الهند، وفارس واليونان، وما ترجم من تراث الأوائل إلى العربية من علوم وفلسفات وآداب.

ولقد أدار الخليفة بنفسه هذا الصراع ضد الحركات، والتي اتخذت طابع التمرد على العقيدة الإسلامية، وانعكست في حركات زندقة، وإلحاد في بغداد والعراق عموماً فرأى فيها الخليفة شراً مستطيراً يهدد الدولة، فاتخذ له ديواناً (لإدارة الصراع ضدها) وجعل عليه (عمر الكوذاني)، فأخذ هذا بدلاً من محاورتهم، ومحاولة إيجاد أرضية مشتركة للتفاهم الفكري، وإقناعهم بالعدول عن الأفكار المتطرفة ضد العقيدة، وتبادل الآراء بهدف الوصول إلى أفكار مبدعة، أوصى ديوانه بقتلهم، وبصلبهم نكالاً بغيرهم، ومن بينهم المقتول: بشار بن برد الشاعر(772).

لقد أدار الخليفة الصراع بالسيف، لا بالقلم شبيهاً بما كانت عليه إدارته في الشأن السياسي.

وقد كان موقف هذه الحركات المتمردة فكرياً بدوره موقفاً رافضاً، وملحداً، ومستفزاً لأهل الإسلام، والعقيدة الإسلامية، كذلك فنحن نجد أنفسنا مع إدارة للصراع لكلا طرفي النزاع الفكري – السلطة والمعارضة (الفكرية) متشابهاً في إدارة الصراع.

ولى الخليفة (هارون الرشيد) **170**هـ– وامتدت خلافته حتى عام **193**هـ–، وكان عصره ذهبياً، بما بلغه من أبهة الملك، وفخامته، ولا تزال ذكراه حية في نفوس، ومخيال العرب حتى اليوم.

لكن الرشيد كان مأخوذاً من ناحية سلوكه العام، وكلخيفة، بحياة البذخ، والترف والراحة، ومحاطاً بالغلمان، والجواري والقيان، وكان كلفا بالسماع، وكان في خلاصة القول مأخوذاً بنعيم الحياة الدنيا، ويبدو أنه مع ذلك لم ينس حقوق الحياة الآخرة، ولكن الرعية استمرت تعيش في حياة البؤس، والاستبعاد والاستبداد الخليفي(773).

كان (البرامكة) خصوم الرشيد، وقد عمل هؤلاء على ممارسة نفوذهم في الدولة الرشيدية، وعملوا كذلك على استغلال هذا النفوذ، وأظهروا مراكز قوى في أرجاء

الإمبراطورية، وعاثوا فساداً، وطغياناً، وخشي الرشيد من نفوذهم هذا سيما أنهم إضافة لهذا النفوذ السلطوي، فقد جمعوا الثروات والمال، وارتكبوا أخطاء كثيرة.

الواقع حاول (الرشيد) إدارة الصراع معهم ب–:

– بالتحاور معهم باستطلاع آرائهم، وفي الوقت نفسه كان يبطن شكوكاً عظيمة إزاء وجودهم إلى جواره.

– حزم أمره، وأراد أن يواجههم، للقضاء على سلطتهم، ومراكز قواهم في حاضرة الخلافة وعمل على تطهير دولته منهم جميعاً[(774)].

إن إدارة الصراع ذاتها في تعامل الخليفة مع المعارضة (البرامكة) هنا، إذ أنه لم يقبل وجودهم كمعارضة في دولته، وهؤلاء بدورهم لم يشكلوا معارضة سلمية بل لقد عملوا للقفز على السلطة بمد نفوذهم، وتشكيل مراكز القوى، ذلك كانت إدارة الصراع لدى الطرفين متميزة بالتطرف والشدة.

إدارة الصراع بين الأخوين: الأمين والمأمون ـ ابنا الرشيد:

اعتبر عصر الخليفة المأمون ابن الخليفة الرشيد من أزهى عصور الحضارة العربية الإسلامية، والإشعاع الحضاري العربي الإسلامي، وكان ذلك من طبيعة الأمور أي أن من يتولى الحكم عليه أن يقدم الإنجازات لشعبه وأمته، وليس هذا المحك السياسي، بكاف للحكم على القيادة بقدر ما يتبين من سلوكها السياسي في التعامل مع الصراع ضد مناوئيها في الحكم، وكيفية إدارة شؤون أفراد الرعية.

كان من الآثار الجانبية لسلوك (المأمون) السياسي أن تجلت في صراعه مع أخيه (الأمين) الذي كان ولياً للعهد، والخليفة بعد وفاة الرشيد، كانت إدارة هذا الصراع في غاية السوء لدى الأخوين، حيث انعكست إدارة الصراع بينهما على حياة الرعية وعلى المشروع الحضاري الذي أخذ المأمون على عاتقه بنائه، ذلك أن الصراع لم يتخذ شكلاً أخوياً بينهما، بل انقاد الاثنان، بلا حكمة ولا رؤية إلى المواجهة والصراع، من أجل الخلافة.

لقد تمت الإدارة على النحو التالي:

– حاصر المأمون (بغداد) للقضاء على أخيه ولمدة خمس عشر شهراً، وكان الشعب هو الضحية لهذا الحصار.

– نشب القتال بين أنصار الأخوين، أتلف العسكر معالم الحياة الحضارية في حاضرة الخلافة.

– نفذت خزائن الدولة.

– ساءت أحوال الناس.

عظم الشر وكثر الخراب، والهدم من القتال، ورحى المجانيق: حتى دسرت محاسن العاصمة وانعكس هذا الدمار المادي والبشري على لسان أحد شعراء ذلك العصر قائلاً:

بكيت بغداد دماً لما فقدت نضارة العيش الأنيق[775]

هكذا تمت إدارة الصراع بين طرفي النزاع، سعياً للسلطة والخلافة وشغفاً بهما، وعدم الاكتراث لنتائج الإدارة، وما آلت إليه على حياة الناس، والذين رزحوا تحت طغيان الخلفاء، ويقول صاحب كتاب (هارون الرشيد) أن الأمين قتل على يد الأعاجم انتصار للمأمون[776] وينفي من ناحية أخرى، طغيان الجانب الفارسي في حاشية المأمون ودفعها له بالقضاء على أخيه.

إدارة الصراع في العصر العباسي الثاني

* طرف جديد (غير عربي) في إدارة الصراع الداخلي.

* إدارة الصراع الخارجي (الروم).

مقدمة:

عندما أعلن العباسيون أنهم أصحاب الحق الشرعي، والإلهي في الخلافة، وتوليها والاستئثار بها، وتشبثهم بها كما قلنا، وأصبحت الخلافة عقداً توريثياً لخلفاء بني العباس وحدهم وبذلك يكونوا قد فتحوا الباب أمام مطالبين آخرين غيرهم بالخلافة وأعني (العلويين)، وبالتالي المواجهة، والصراع، بين الطرفين، اللذين مارسا مختلف أنماط التفرد بالسلطة والاستبداد من قبل الأوليين والمطالب المتطرفة لدى الآخرين ولم تكن النية لدى أحد الطرفين لتداول سلمي للسلطة، ولا للمشاركة السياسية وللتشاور مع المعارضة في سبيل حياة الناس والرعية، والحفاظ على حياة الرعية وأمنها وسلامتها والارتقاء بأساليب حياتها، وبمعنى آخر لم يكن الأمر بين أطراف النزاع، وإدارة الصراع لديهما إدارة شؤون الرعية على أحسن وجه وفي سبيل الارتقاء، ولا في سبيل متابعة المشروع الحضاري وإشعاعه.

لقد تأجج الصراع بين الطرفين، وكانت كما لاحظنا هذا للإدارة تتصف باللاعقلانية وكانت تدار بآلية الصراع على السلطة، وعلى شرعية هي أصلاً لا شرعية لأنها لم تكن صادرة عن مرجعية شرعية التي تأمر أصحاب الحكم تنفيذ أوامر الله في كتابه وسنة نبيه، كما صنع النبي – القائد والشيخان.

وكان أسلوب التعامل قائماً على العنف والقوة:

أما الشعب (الرعية) بلغة العصر فقد كان متفرجاً، ويستخدم كأداة مسخرة لجمع الخراج، والضرائب مما دفع بالكثير من فئاته للقيام بالتمرد، والثورة في (إيران) خاصة.

الخليفة المعتصم، والطرق الجديدة في إدارة الصراع:

عندما تولى المعتصم الخلافة أخذ يفكر في إدماج عنصر جديد يعتمد عليه في صراعاته سوى العنصر الفارسي، ذلك أن ثورات الفرس وطموحاتهم في إحياء وجودهم

القومي التليد لم تخمد، واستظهارهم للشعوبية، والزندقة لم تهدأ فورته، فهدأه تفكيره إلى اعتماد عنصر من الرقيق اشتهر في عصره بالصبر، تحت ظلال الرماح، واشتهر كذلك بالإقبال، والإدبار، وهو: العنصر التركي[777].

كان ذلك تحولاً خطيراً في تاريخ الدولة العباسية، وفي تركيب سلطتها، ذلك أنها كانت وحتى ذلك التاريخ تعتمد كل الاعتماد على الفرس، وكان هؤلاء أصحاب حضارة وتاريخ وتراث، وقد اندمج كل ذلك في الحياة العربية بعد الإسلام، وسارت الحضارة العربية الإسلامي إشعاعها من خلال هذا الامتزاج الذي حصل بين الإسلام القادم كعقيدة جديدة وكمشروع حضاري، والحضارة الفارسية القديمة فهذا بالإضافة لعناصر حضارية أخرى، أخذت هذا الامتزاج (من الهند واليونان) وتشكل في نهاية الأمر، نسيج حضاري واسع، ولكن دخول العنصر التركي، والذي لم يكن ليميزه تاريخ، أو حضارة أو تراث، ولم يكن أصحابه يعرفون الزراعة، ولا الصناعة، ولا الفنون، ولا الآداب ولا السياسة، وإنما جاؤوا بالأصل وهم سكان صحارى، إنهم رعويون بداة أصحاب صبر، وجلد، وحرب ومراس[778]، وسرعان ما أصبحوا من مقومات السلطة الخليفية.

لقد فتح المعتصم الباب لقواد الأتراك العسكريين ليمسكوا برمام الشؤون الإدارية إلى جانب، ما أمسكوا من الشؤون العسكرية، وأصبح هؤلاء صناع القرار وأقطاب المواجهة ضد العناصر المناوئة، والمعارضة للخلافة.

إدارة صراع الخليفة المعتصم مع الروم، وفتح عمورية:

يروي تاريخ الخلفاء أن الخليفة المعتصم غزا الروم، فأنكاهم نكاية عظيمة لم يسمع بها أي خليفة غيره، وشتت جموعهم، وخرب ديارهم، وفتح عمورية بالسيف، وفي هذه الواقعة التي أدار صراعها الخليفة بنجاح سجله له التاريخ، قال فيه الشاعر أبو تمام قصيدته المشهور التي يمجد فيها القوة:

السيف أصدق أنباء من الكتب ... في حده الحد، بين الجد واللعب

والعلم في شهب الأرماح لامعة ... بين الخميسين لا في السبعة الشهب[779]

إلى أن يقول:

تسعون ألفاً كآساد الشرى نضجت جلودهم قبل نضج التين والعنب

وهذه الواقعة حفظتها الذاكرة العربية، وحفظت معها هذه القصيدة الشعرية المجيدة وفوق كل هذا، فعلى سطح الذاكرة العربية أيضاً تعلو صيحة المرأة العربية في عمورية بالعبارة الشعرية (وا معتصماه)، وعندما سمعها المعتصم اهتزت أركان سدة الخلافة واقشعرت لها الأبدان، فهب الجميع بقيادة الخليفة فأدار الصراع وتم تحقيق النصر.

لقد تطور أمر الأتراك وتحكم دورهم بعد أن تم فسح المجال لهم، بالمشاركة في الحياة السياسية الخليفية خاصة، ولا ندري حقاً هل كان المعتصم الخليفة يدور في خلده مضاعفات دخول العنصر الجديد في الحياة السياسية أو لا؟. هل كان غافلاً عن النتائج الخطيرة لتقريب عنصر غير عربي ليسود شيئاً فشيئاً ويمسك بزمام الأمور، ويساهم في انهيار الإمبراطورية سياسياً وحضارياً؟ مهما يكن من أمر، فقد بدأ الأتراك يعملون كرجال الدولة على البيعة للخليفة (المتوكل) الذي جاء بعد المعتصم وكان ذلك نذير شؤم، إذا أصبحت توليه الخلفاء فيما بعد بيد الترك[780]، وأصبح أي بعبارة أوضح: انسحاب العرب من القيادة السياسية وابتعادهم من المسرح السياسي الفعلي وبقائهم في الظل، وأمسكت هذه الأطراف الجديدة بالقرار الخليفي.

يقول (الطقطقي) في (الفخري في الآداب السلطانية): استولى الأتراك منذ مقتل المتوكل على المملكة، واستضعفوا الخلفاء، فكان الخليفة في يدهم كالأسير، إن شاؤوا أبقوه، وإن شاؤوا خلعوه وإن شاؤوا قتلوه[781].

ويقول (د. عبد العزيز الدوري) كان لتقريب الأتراك وتعاظم نفوذهم آثار سيئة ومؤلمة في نظام الخلافة، وفي وضع الخلفاء، وليس هذا بغريب لأن الأتراك لم تكن لهم تقاليد حضارية سابقة، ويسميهم الجاحظ ببدو العجم لم يكن لهم إدراك للشؤون السياسية، أو الإدارة أو فهم لأسسها النظرية أو العملية كما كان حال الفرس[782].

لقد انقلب الصراع على السلطة في هذه الفترة من حال الصراع بين: بني العباس، والعلويين، إلى صراع بين بعض الخلفاء العباسيين، والأتراك[783] وكانت نتيجة ذلك نتائج

وخيمة على الخلافة إذا كان فاتحة سلسلة من التعديات على سدة الخلافة، بالقتل والسجن، والخلع دون مبرر، وقد أصبح الترك في هذه الفترة سادة الوضع[784]، أي أنهم بأسلوبهم العسكري أصبحوا هم إداريو الصراع مع الأطراف المضادة.

دب الفساد في هذا العصر في مختلف أرجاء الإمبراطورية، صرنا كلما تقدمنا في هذا العصر، اتسع نطاق الخرق، ولم يعد من الممكن رتقه، ومن مظاهر هذا الفساد كثرة المصادرات لأموال الوزراء، والكتاب (في الدواوين)، ولم تعد هنالك دولة تحكم بقوانين، أو شريعة[785] وبهذه الصورة من الفساد المستشري، أصبحت أموال الدولة تختلس، وتنهب، يختلصها الولاة، والوزراء، والكتاب، ينعمون بها والشعب يتمرغ في البؤس، والحرمان، والشقاء، مما زاد في هذا الفساد غلبة النساء على الحكم، فكن كثيراً ما يصرفنه بحسب أهوائهن[786].

والنتيجة لم يعد الخلفاء يحكمون منذ عهد (المقتدر) المشؤوم، فقد أصبح الترك، والنساء والجند هم الذين يصرفون أمور الدولة، وعم الفساد، وانتشرت الدسائس، والمؤامرات وفسدت إرادة الحكم فساداً شديداً[787]، وفي هذه الأجواء الفاسدة قامت ثورة دعيت في التاريخ الإسلامي بثورة الزنج.

إدارة الصراع ضد ثورة الزنج (من 869م إلى 883م):

في مناخ العصر العباسي الذي جئنا على ذكره منذ لحظة والذي أخذ يعج بالفساد، في مختلف جوانب الحياة العامة للرعية والحياة السياسية داخل وحول القصور، والاستبعاد الكامل لأبناء الرعية، ولأهل الحل، والعقد، ولمجالس الشورى، وأهل الرأي من ذوي الحكمة، والقول السديد، وفي ظل سيطرة الجند الأتراك، وإمساكهم بمصائر الأمور وسيطرة الأسلوب العسكري على الخلافة، وبكلمة مختصرة السيادة الكاملة لعنصر اللا معقول في مجرى الأحداث، فكيف سنتصور إدارة الأمور، ومن ضمنها إدارة الفتن والصراعات أو بالأحرى هو سنتصور مجتمعاً على هذا النحو من البنية يخلو من الفتن والتمرد والثورة؟ في هذا الجو إذن قامت ثورة رهيبة بدأت بمطالب التظلمات والشكاوي من مشكلات الحياة اليومية، وانتهت إلى تقطيع أوصال الإمبراطورية أو ما تبقى من أوصلها، لقد شغلت هذه الثورة أربع عشرة سنة من التاريخ العباسي الذي شارف

على الانتهاء وكان الذي أشعلها رجل فارسي من قرى الرعاة في إيران[788]، ثم حدثت ثورة العبيد على السادة الجائرين[789].

ففي أيام الخليفة (المعتمد على الله) أبو القاسمي وهو الخليفة الخامس عشر حسب ترقيم صاحب كتاب (تاريخ الخلفاء)، حيث يقول هذا المؤلف، وفي أيامه، دخلت الزنج (البصرة) وأعمالها، وأضربوها، وبذلوا السيوف، وأحرقوا وخربوا، وسبوا، وجرى بينهم وبين عسكرها وقعات، وأعقب ذلك الوباء الذي لا يكاد يختلف عن الملاحم بالعراق، فمات خلق لا يحصون، وأعقب ذلك هزات، وزلازل مات تحت الروم الوفأ من الناس، واستمر القتال مع (الزنج) من حين تولى (المعتمد) سنة ست وخمسين إلى سنة سبعين فقتل فيها رأس الزنج لعنه الله واسمه (بهيوذ) قد أدعى أنه أرسل من الله إلى الخلق، فرد الرسالة وأنه يطلع على العينيات وذكر (الصولي) أنه قتل من المسلمين ألف، ألف، وخمسمئة ألف أدمي، وقتل في يوم واحد بالبصرة ثلاثمئة ألف، وكان له منبر في مدينته يصعد عليه، ويشتم (عثمان) و(علي) و(معاوية)، و(طلحة) و(الزبير) و(عائشة) رضي الله عنهم.

وكان ينادي على المرأة العلوية في عسكره بدرهمين، وثلاثة وكان عند الواحد من الزنج منهم العشر من العلويات يطؤهن ويستخدمهن، ولما قتل هذا الخبيث، كان يوماً مشهوداً، وأمن الناس، وتراجعوا إلى المدن التي أخذها[790].

لم يذكر (السيوطي) من الذي قضى على رأس هذه الثورة، ولكن الأمر واضح أن الثورة تستدعي لوضع حد لها من قبل السلطة أو من يضادها، استخدام القوة المماثلة، وأن إدارة الصراع والثوار عادة لا ينفع فيها الأساليب الرشيدة والمعقولة والحكمة، لأن الأسلوب الثوري بطبيعته ينأى عن أساليب الحكمة والعقلانية إن أسلوب الثورة يعني اللجوء إلى التظهير بالعنف، ولذلك لابد من السلطة من استخدام بدورها أيضاً الأسلوب اللا معقول، في إداراتها للصراع ضد الثوار.

هكذا كان أسلوب الثورات في التاريخ العالمي، ونحن لا نطلق أحكاماً حتمية على الثورة الزنجية، ولا على السلطة التي واجهتها وقد نحاول فهم الأسلوبين المتبعين في المعالجة، وهما متشابهان في حالة ثورة الزنج.

إدارة الصراع ضد ثورة القرامطة (عهد الفاطميين):

لم تكن ثورة سياسية، أو اجتماعية وإنما هي ثورة مذهبية، ولبست لبوساً سياسياً ذلك أنه في سنة (النصف الأول من القرن الرابع الهجري) إلى 890م كما قال (الصولي)، ونقل عنه السيوطي في (تاريخ الخلفاء) عندما ولى هارون بن علي إبراهيم الهاشمي الحسين، أمر أهل بغداد أن يتعاملوا بالفلوس، فتعاملوا بها على كره، ثم تركوها، في سنة ثمان وسبعين، وحينما ظهرت القرامطة بالكوفة، وهم نوع من الملاحدة يدعون أنه لا غسل من الجنابة وأن الخمر حلال، ويزيدون في آذانهم، وأن (محمد بن الحنيفية) رسول الله. وإن الصوم في السند يومان، يوم النيروز ويوم المرجان وأن الحج، والقبلة إلى بيت المقدس.

أمر الخليفة المعتضد في هذه السنة أن لا يقعد في الطريق – منجم، ولا قصاص واستحلف الوراقين أن لايبيعوا كتب الفلاسفة، والجدل[791].

عد المستشرق (ج بيرلو) أن ثورة القرامطة من الثورات الاجتماعية – السياسية في التاريخ العربي الإسلامي في العصر الوسيط، وكانت حركة سرية في العصر الفاطمي، أخذت ترسل المبشرين بعقائدها في مختلف أرجاء العالم الإسلامي، وتوسع نطاقها ثم حصل نزاع فيها وبين الخلافة الفاطمية وكانت تشكل خطراً كبيراً على الخلافة وهاجمت البصرة ودمرت أجزاء كثيرة منها واستولت على (مكة)، واحتفظت بالحجر الأسود للكعبة حتى 925م، وقد استمر أمرها حتى القرن الحادي عشر الميلادي[792].

ويراها (اندريه ميكيل) أنها ثورة طائفية (إسماعيلية) وطائفة تقوم على (الترغيب الثوري) وهي شديدة الإخلاص لنظرية الإمام الغائب محمد بن إسماعيل، المهدي الذي ينتظرون رجوعه، قد استقرت تعاليم هذه الطائفة إلى الأعماق الشعبية التي كانت تستغل ميولها الاجتماعية، وتطورت في العراق وفي سورية والبحرين، وإن العلاقة السياسية المذهبية بين القرامطة، والفاطميين غير معروفة تماماً[793].

لقد استطاعت بأسلوبها اللا معقول من إدارة الصراع لصالحها في فترة من فترات التاريخ العباسي، وهو مشرف على نهايته ومع ذلك ظلت الخلافة العباسية تدير صراعاتها بقوة وجودها الروحي لأنها ظلت ترمي إلى الإسلام، حتى أجهز عليها الغزو الخارجي الذي جاءها من المغول، وهنا فشلت إدارة الصراع الخارجي وسقطت بغداد 1258م.

تدهور الخلافة وسقوط آخر معاقل الخلافة:

انسحاب القيادة الخليفية العربية من إدارة الصراع:

1- أعقب استلام القادة الترك زمام السلطة الفعلي، وإمساكهم بآلية تعيين الخلفاء وعزلهم، أو قتلهم، وانتزاع سلطة الفرد وإدارة الشؤون منهم، إلى أن توارت كما قلنا القيادة السياسية العربية الإسلامية، وعلى الرغم من أن فترة استبداد الأتراك كانت قصيرة بين مقتل (المتوكل) 247هـ- ومجيء (المعتمد) 256هـ- كان نفوذهم قوياً، وظل أثره واضحاً حتى الغزو البويهي 334هـ- ولهذا كان من الضروري أن تعد الفترة الكائنة بين 247هـ- و334هـ- دوراً واحداً من أدوار الخلافة مع ملاحظة بعض الاستثناءات، حيث رجحت فيها كفة تعيين الخلافة في زمن (المعتضد) و(المكتفي) 279هـ- - 265هـ- وبرزت قوة هذين الخليفتين، وقل النفوذ التركي 794، ومع ذلك فإن إدارة الصراع كانت بيد الأتراك يديرونه بأساليبهم العسكرية أي باستخدام:

العنف والقوة.

القتل وعزل الخلفاء، وحملات التعذيب استخدم مختلف الأساليب اللا إنسانية في الإطاحة، والعزل لهذا الخليفة أو ذلك، وقد روى السيوطي قصصاً غريبة وعجيبة عن طريق عزل هؤلاء لهذا الخليفة أو ذاك، في كتابه (تاريخ الخلفاء).

ومن جهة ثانية، دخل البويهيون أيضاً كعناصر غير عربية في نسيج الحياة السياسية في هذه الإمبراطورية المتداعية وبدقة التي بدأت تتداعى.

ويقول الدكتور (الدوري)، ومن الجهة الأخرى يمكن أن نعد فترة الحكم البويهي تتمة لفترة وإمارة الأمراء 324 - 334هـ- في كثير من النواحي، إلا أن كون البويهيين (زيدية) وأجانب فاتحين، فدورهم يتميز، تميزاً غير قوي من الناحية الدستورية.

عن دور أمير الأمراء، ولسنا نخطئ إذا قلنا أن فترة إمارة الأمراء امتدت لمدة تسع سنوات في كثير من الوجوه، مع فرق واحد، هو أنها تمتاز عن الأخيرة بتوحيد صفوف الأتراك، وبانفارد شخصي واحد منهم بزعامتهم.

وتعتبر هذه الفترة متميزة أيضاً بدخول الترك، وبتدخلهم في اختيار الخلفاء تدخلاً يتراوح بين ممارسة بعض التأثير واليقين التام للخليفة[795] وبعد مقتل (المتوكل) بعد صراع طويل بينه، وبين الأتراك على السلطة، كانت نتائج ذلك وخيمة على الخلافة، غذ أنه كان خاتمة سلسلة من التعيينات للخليفة، ومن التعدي على الخلفاء بالقتل، وبالسجن والخلع، دون مبرر، وهذه السابقة كانت القاضية على الاحترام التقليدي لسدة الخلافة أولاً وثانياً السيادة التامة للعنصر التركي، في الحياة الخليفية السياسية.

وأين كانت الرعية و(الشعب) من كل هذا العبث والتدهور المريع للسيادة العربية أولاً وللفقدان الكامل لحقوق الشعوب في هذه الإمبراطورية من حياة ونمو وازدهار، ومشاركة في الحكم والقرار ثانياً.

لقد نتج إذن عن ازدياد نفوذ الأتراك أن ضعفت سلطة الخلافة، ضعفاً كاملاً وأصبح الخليفة العوبة بأيدي الترك[796].

والواقع كان من الصعب (شعبياً) التخلي الكامل أو التقليل من احترام منصب الخليفة من قبل الرعايا، والوقوف ضده لأن ذلك كان يعني إثارة سخط الرعية على من يحاول ذلك، وكان من الضروري إيجاد، دوماً، توثيق ديني فقهي بين تمتع رجل بالسلطة الحقيقية، وتظاهره بالخضوع لمنصب الخلافة، والخليفة، وغن كان مسؤهلاً نظرياً عن الإدارة لكنه لم يكن هو الذي يديرها. إن يأخذ شكل، ومظهر الخليفة[797] ولقد أدى تدخل العسكر، ورجال الجيش منذ البداية إلى زعزعة مؤسسة الخلافة وإدارتها وبالتالي زوال هيبتها، كما أدى إلى فساد الإدارة[798]، ولقد مسك العسكريون بإدارة الأمور، وإدارة الصراعات الداخلية، والخارجية، وأخذ البويهيون يديرون هذه الصراعات.

أصبحت (بغداد) مطمع الطامعين، ولقد أدى الغزو البويهي، كما قلنا إلى قهر الناس وأشاعة الظلم، وقطم الحقوق في الحياة العامة، وأصبح الخليفة العباسي شبحاً لا سلطة له على أية مؤسسة من مؤسسات الدولة، ولقد تجلت بعض الأوضاع الجديدة، جعلت وضع الخلافة ينتقل من سيء إلى أسوأ، وأنشأ البويهيون إمارة وراثية، وقد كانوا كما ذكرنا شيعة (زيدية) لا يعترفون بحق العباسيين، ولم يبق هؤلاء الخلفاء العباسيين إلا لاعتبارات سياسية[799]، وزبدة القول أن البويهين أصبحوا سادة الموقف.

لقد أذنت شمس الخلافة العباسية بالمغيب في هذه المرحلة، واتضحت تماماً معالم زوال السلطة الخليفية، ولقد ورد في رسالة الخليفة (المطيع 361هـ–) إلى بختيار حينما طلب الأخير منه مالاً للجهاد، مدعياً أن ذلك من واجب الإمام، فقال له الخليفة، والغزو يلزمني إذا كانت الدنيا في يدي، وإلى تدبير الأموال والرجال أما الآن، وليس لي منها القوت القاصر عن كفائي وهو في أيديكم، وأيدي أصحاب الأطراف، فما يلزمني غزو ولا حج، ولا شيء، مما تنظر الأئمة فيه، إنها لكم عني هذا الاسم الذي تخطبون به على منابركم، تسكنون بدياركم، فإن أحببتم أن اعتزل، اعتزلت عن هذا المقدار أيضاً[799] لم يقتنع البويهيون بأخذ السلطة السياسية، بل شاركوا الخليفة كافة الامتيازات، وقد أصبحت الخطب في بغداد التي هي رمز سيادة الخليفة العباسي، وحصل البويهيون هذا الامتياز أيضاً وأصبح اسمهم وقد ذكر (البيروني) (973 – 1550م) هذه النقلة قائلاً:

إن الدولة، والملك قد انتقلا من آل العباس إلى آل بويه[800] وبقي الخليفة رمزاً دينياً، لمنح الألقاب، والتشريفات، أما إدارة الأمور الفعلية، فقد أصبحت بيد العناصر غير عربية كما نوضح، وظل هذا المركز الديني محل احترام البويهيين.

2– وكان من أسباب تدهور الخلافة والتدهور العربي أن كثرة من الخلفاء انغمست في اللهو والترف،(العوامل الخاصة او الانصرف الى تلبية الشؤون والحياة الخاصة) وانصرفت عن حياة الرعية وحرمتها من أبسط حقوق العيش الكريم، وأقبلت هذه الشرعية الكبرى من الخلفاء على الانهماك بأطايب العيش والتمتع بالنعيم المادي وبناء القصور الباذخة.

لقد كان (المتوكل) أحد هؤلاء الذين ابتنوا لهم قصوراً، ففي سامراء، وأنفق عليها الأموال الطائلة، وأن (المعتضد) كما يقول المؤرخ (المسعودي) لم تكن له رغبة إلا في: النساء وبناء القصور (العوامل الخاصة)–انظر فصلنا الرابع .[801].

المستعصم بالله: غزو التتار والمغول

عندما هاجم التتار والمغول معاقل الخلافة ينسب إلى الخليفة المستعصم قوله: بعد سقوط معاقل الإمبراطورية (إن بغداد تكفيني) ولم يكن الخليفة من أولى العزم، وركن إلى سلطة وزيره (مؤيد الدين العلقمي) الرافضي، فأهلك الحرث والنسل، ولعب بخليفته كما أراد، وباطن التتار وناصحهم وأطعمهم بالمجيء إلى العراق، وأخذ بغداد وقطع الدولة العباسية، لتقيم خليفة من (آل علي).

ثم قدم الإفرنج، وأخذوا (دمياط) من أعمال (مصر) واستولت امرأة اسمها (شجرة الدر) جارية لأبيه كوران شاه، وحلف لها الأتراك وشرعت في الخلع للأمراء، والأعطيات[802] سار التتار، وكانت سيرتهم من الحوادث العظمي، والمصائب الكبرى على حد تعبير (ابن الأثير) ووصلوا بغداد 1256م يتقدمهم هولاكو، فسقطت آخر معاقل الخلافة 1258م وبذلوا السيف ووصلوا إلى دمشق، وحقق في حينها (الظاهر بيبرس) بعض الانتصارات وأدار الصراع بنفسه، ولكن عمد الظاهر إلى إدارة الصراع في الوقت الضائع لأن القوى الغازية كانت بمثابة القوة التي كانت من الصعب إيقاف تمددها. نذكر النقطتين التاليتين لاستكمال جملة الأسباب التي ساهمت في انهيار الإمبراطورية العربية الإسلامية:

1- الحروب الصليبية تغير موازين القوى العالمية.

2- نهضة الغرب وبداية النهضة الاوروبية فى الاقتصاد (التجارة)والفكير فى التوسع الجعرافى.

3- الدخول في العصور الحديثة.

خاتمة: إدارة الصراع الخارجي – والامتدادات الإسلامية

* حالة إبداعية في التاريخ.

* صفحات مشرقة في التاريخ السياسي – العربي الإسلامي

انطلاق الامتداد ، وولادة العالم الإسلامي:

تعتبر الفتوحات الإسلامية إحدى أكبر أحداث التاريخ العالمي المهمة، وقد عملت منذ انطلاقتها على زعزعة وحدة العالم القديم الذي كان ينى تحت سيطرة إمبراطوريتين كبيرتين حينذاك وهما: الإمبراطورية الرومانية والإمبراطورية الفارسية.

ولقد وقف المؤرخون مندهشني أمام حركة هذه الفتوحات التي اتسمت بالسرعة وبقلة الإمكانات العسكرية لشعب صحراوي أمام أقوى إمبراطوريتين عسكريتين، وهذا ما دعا هؤلاء المؤرخين، وحتى يومنا هذا إلى التساؤل عن الأسباب الكامنة وراء هذا النجاح الذي حققته الفتوحات.

1– اجتهد المستشرقون في العصر الاستعماري الأوروبي في ابتكار صور مشوهة، وإذاعتها في الكتب المدرسية والأكاديمية المتعلقة في التاريخ العالمي وعندما تطرقت إلى تشكيل العالم الإسلامي فهي تبرز صورة المسلم الطاغي وهو يحمل القرآن الكريم بيد، والسيف باليد الأخرى، إشارة إلى أن المسلمين عندما ذهبوا للفتح كانوا يضعون الناس أمام خيارين: إما اعتناق الإسلام أو الموت، ولهذا فقد شاعت الفكرة التي قامت على أساسها مقولة غير صحيحة، هي أن الإسلام انتشر تحت أسنة الرماح(803).

هذه الصورة الكلاسيكية الشائعة تجاوزتها الدراسات والأبحاث العلمية الموضوعية في التاريخ لتبين أن القرآن الكريم الذي حمله المسلمون يبشرون برسالتهم يتضمن آيات كثيرة واضحة حول احترام إيمان وعقائد الشعوب الأخرى(804).

وتتضمن الآيات القرآنية الكريمة دعوة صريحة لأهل الكتاب، والاستجابة لدعوة النبي إبراهيم إلى الإيمان بالدين الحنيف، والدخول طوعاً في الإيمان الجديد.

كذلك فعندما وصل المسلمون على (فارس)، و(الهند)، وأقاصي (الصين)، لم يجبروا الناس على الدخول في الإسلام، ولم يشهروا السيف ضدهم، بل لقد تركوا لهم الخيرة من أمرهم، بين اعتناق الدين الجديد، إذا أحبوا، أو الوقوف محايدين يدفعون الجزية مقابل حمايتهم وأمنهم من قبل الجنود المسلمين.

لقد حافظ الفاتحون على معالم الحضارات القديمة والوثنية في بلاد الفتح، كما حافظوا على الكنائس والمعابد، وقد برهن المنتصرون على تسامح عجيب إزاء من خالفهم في الإيمان(804).(مكرر)

إذا لم يكن هناك إكراه في الدين، بل لقد ترك الفاتحون الناس أمام قوله تعالى: {من شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر، وفي النهاية أن الله غفور رحيم}.

والواقع إذا أردنا أن نفهم الأسباب الكامنة وراء انطلاقة الفتوحات، ومن خلال نظرة (علمية) فلقد كانت هنالك:

1– أسباب موضوعية (مادية).

2– أسباب ذاتية (روحية).

فأما الأولى: فكانت متجسدة في رغبة المسلمين حط رحالهم في مناطق الهلال الخصيب المحيطة، والمجاورة مباشرة بشبه الجزيرة العربية، وكون هذه المناطق غنية بالمياه، والزراعة، ومصادر العيش، وموارده، بالإضافة لموقعها الجغرافي.

والثانية: وهي أن المسلمين أرادوا نشر الدعوة الإسلامية، استجابة لدعوة الإسلام والمسلمين لينتشروا في الأرض، داعين إلى الإيمان بالله والقضاء على الشرك، والإيمان بالدار الآخرة التي هي خير وأبقى هذا بالإضافة إلى المبادئ الإسلامية الأخرى، والواقع إذا تحدثنا عن أسباب موضوعية، وأسباب ذاتية، لا نكون قد خرجنا عن جوهر الإسلام الذي يدعو في آن واحد إلى ثنائية تقوم على:

الأخذ بالحياة الدنيا، والعمل للحياة الآخرة.

وفي هذه النقطة الأخيرة، والتي تعبر عن خصوصية الإسلام، و(جاذبيته) في آن واحد مرت الفتوحات الإسلامية بعدة مراحل لقد تم فتح كل من:

1) فارس، 2) العراق وبلاد الشام، 3) مصر والشمال الأفريقي، وبعض البلدان في القارة الأفريقية، 4) بعض بلدان القارة الآسيوية، 5) إسبانيا الأندلس.

تم ذلك ما بين: 632 – 656م المرحلة الأولى (الرقنان السابع والثامن الميلاديين المرحلة الثانية).

توقفت الفتوحات عند معركة (يواتبية) جنوب فرنسا.

1– لم تكن الفتوحات الإسلامية حالة استعمارية، بدليل أن الشعوب التي اعتنقت الإسلام أو الدول التي يشكل فيها الإسلام الغالبية العظمى، والدول الإسلامية منذ أن اعتنقت الدين الإسلامي لم تتخل عنه ولم تهجره، بل لقد استمرت في إسلامها أما الشعوب والدول التي استعمرها الغرب فقد تحررت جميعها من السيطرة الاستعمارية ونالت استقلالها، رغم أن الغرب جاء يحمل لها رسالته الحضارية.

2– نعتقد من جهتنا أن الفتوحات الإسلامية كانت تمثل حالة إبداعية في التاريخ، وهي فريدة لم تتكرر، وكانت خارقة ومدهشة في سرعة انتشارها، وقبول، وتقبل الشعوب التي وقفت على العقيدة، منذ العهد النبوي، وحتى يومنا هذا، لقد قاومت القيادات

السياسية، وقواها المحيطة بالإسلام والمسلمين ولكن الشعوب، لمست بمخيالها وروحها وعقلها الجاذبية الخاصة التي حمل لها الإسلام وخاصة في دعوته إلى (خلق نمط جديد) من التفكير والحياة، ودعاها إلى تغيير مختلف أنماط التفكير القديمة التي ورثوها، كذلك دعا هذه الشعوب على (عقلانية) توازن بين: الحياتين قائلاً إن المغالاة، والغلو، والتطرف كل ذلك ينعكس بالإمساك بأحد طرفي الثنائية، أي إما الحياة الدنيا، وإما الحياة الآخرة، بينما عرض المسلمون عقيدة من نوع مختلف، وأصيل قائم على: الأخذ بالحياتين، وقالوا إن لدينا مفتاح هاتين الحياتين، فمن يمسك به ينال جزاءه وينجو يوم القيامة.

3- أخيراً، إن صورة العالم المعاصرة الجغرافية (تقسيمات الدول فى عالم اليوم بين الدول الإسلامية وغير الاسلامية،اوالتقسيم الجغرافى الدينى)، وصورته الحالية من الناحية الجفرافية ، والاقتصادية (الدول التي تحتل المرتبة الأولى في امتلاك الموارد الأولية) وكذلك التقسيمات الثقافية ،اوهو التشكيل الراهن لخريطة العالم هي : صناعة إسلامية ونتيجة من نتائج الامتدادات الاسلامية التي تحدثنا عنها. أي (مناطق العالم التي يدعوها المسلمون بدول الفتوح) وهي تقسم العالم حتي اليوم وخريطته السائدة .

.

مراحل تغيّر خريطة العالم الإسلامي

المرحلة الأولى

– تبدأ المرحلة الأولى للعالم الإسلامي من هجرة الرسول صل الله عليه وسلم و ذلك في عام 1–11هـ–/ 622–632م ، ففي هذا الوقت تشكل أول كيان إسلامي في المدينة المنورة ، و بعد فتح مكة في السنة الثامنة للهجرة أخذت الدولة الإسلامية في التوسع ، حيث دخلت العديد من القبائل في الإسلام ، و مع وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام كانت دولة الإسلام تشمل الجزيرة العربية .

المرحلة الثانية

– تبدأ المرحلة الثانية في 11–40هـ–/632–661م و هو عهد الخلفاء الرشدين ، و مدتها ثلاثين عامًا ، و خلال هذه الفترة توسعت الدولة الإسلامية خارج الجزيرة العربية لتشمل العراق ،وبلاد الشام ، (سوريا ، و لبنان ، و الأردن ، و فلسطين) ثمّ قبرص ، و مصر ، و كان مركز الدولة في المدينة .

المرحلة الثالثة

– بعد الخلفاء الراشدين جاءت الدولة الأموية و ذلك في الفترة 41– 132هـ– /661–750م ، و التي بدأت عندما تولى معاوية بن ابي سفيان الحكم ، و استمرت تسعين عاما و بلغ العالم الإسلامي مساحة واسعة في هذا الوقت ، فقد امتد في الشرق ليشمل إيران ، و الهند ، وأجزاء من

الصين ، و آسيا الوسطى ، و امتد في الغرب إلى شمال أفريقيا ، و الأندلس (إسبانيا و البرتغال و جنوب فرنسا) ، و كان مركز الدولة في دمشق .

المرحلة الرابعة

– تتبلور المرحلة الرابعة في عهد الخلافة العباسية و التي تمتد من 132–656هـ– /750–1258م ، واستمرت دولتهم قوية وشاملة حتى القرن الرابع الهجري، ثم ضعفت وتفككت ونشأت في ظلها أو مستقلة عنها دول كثيرة، ثم قتل الخليفة العباسي على يد

المغول عام 656 هـ/ 1258م. وكان مركز الدولة في بغداد ، و في هذه الفترة امتد الإسلام في العهد العباسي في آسيا الوسطى متوغلا في أقاليم جديدة .

المرحلة الخامسة

– المرحلة الخامسة للعالم الإسلامي هي تلك الفترة التي ظهر فيها المماليك ، و هي في الفترة 648–922هـ/1250–1517م ، و شملت دولتهم مصر ، و الشام ، و العراق ، و كانت ثمة دول إسلامية مستقلة في أقاليم العالم الإسلامي المختلفة ، مثل : شمال أفريقيا ، و الأندلس ، و الهند ، و الصين ، و آسيا الوسطى ، و امتد الإسلام في عهد المماليك في جميع أنحاء القارة الهندية و جنوب شرق آسيا و جنوب غرب أفريقيا و خرجت الأندلس من العالم الإسلامي نهائيا عام 1492 .

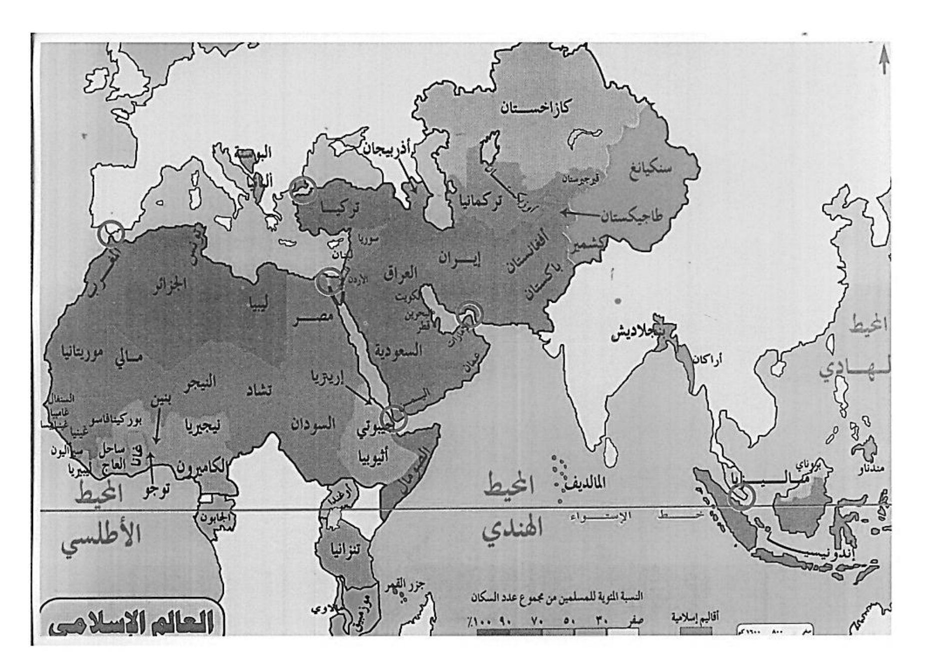
المرحلة السادسة

– تتمثل هذه المرحلة في عهد الخلافة العثمانية عام 1300م في تركيا ، و التي امتد حكمها إلى شمال أفريقيا ، و قد توسع العالم الإسلامي في عهد العثمانيين في تركيا ، و البلقان ، و شرق أوروبا و وسطها ، كما انتشر الإسلام في غرب أفريقيا ، و الهند ، و شرق و جنوب شرق آسيا ، و كان مركز الدولة في إسطنبول (القسطنطينية) التي كانت مركز الإمبراطورية البيزنطية حتى عام 1453م ، و قد انهارت الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى و فقدت جميع المناطق التي كانت تابعة لها خارج تركيا ، و في عام 1924م قام كمال أتاتورك بإلغاء الخلافة ، و أعلن تركيا دولة علمانية .

المرحلة السابعة

– يمكن وصفها بأنها العالم الإسلامي في صورته الحالية ، و الذي قد خضع للاستعمار الأوروبي و تم تقسيمه ، و يوجد اليوم 56 دولة تجمعها منظمة المؤتمر الإسلامي ، و توجد تجمعات إسلامية كبيرة في الهند و الصين ، و هناك بعض الدول التي يمكن اعتبارها إسلامية و لكنها ليست عضوا في منظمة المؤتمر الإسلامي ، مثل البوسنة و الهرسك ، و إريتريا .

عـدد المسـلمين فـي العـالم بنسـبة حـوالي 23.4% مـن سـكان العـالم ويصـل عـدد المسـلمين مليـار وسـتمائة مليـون مسـلم ومسـلمة. وإحصـاءات أخـرى تقـول ب مليـار وثمانمائة مليون نسمة مسلمة .



القسم الثامن

الفصل الحادي والعشرون
إدارة الصراع ضد الاختراق الاستعماري

أولاً: الصراعات العربية ـ العربية

مقدمــة:رأينا سيطرة السادة الجدد (الترك والبويهيون) على الحياة السياسية في التاريخ السياسي العربي الإسلامي، وكيف أصبحوا قادة العالم الإسلامي، وعملوا تحت مظلة الخلافة العباسية الإسلامية على التوسع في أراضي الروم البيزنطيين حوالي القرن العاشر الميلادي، وكيف أنهم الذين أداروا الصراع الخارجي كذلك أداروا بدورهم الصراع الخارجي كذلك أداروا بدورهم الصراع الداخلي في مصارعتهم الشيعة.

تلا مرحلة الحروب الصليبية (تقول الحروب الصليّبية بالجمع لأنها كانت سلسلة من الحروب بدأت بتحريض البابا الموجه إلى المسيحيين في عالم العصر الوسيط حوالي 1095م وتحرك هؤلاء في أول حرب لهم 1099م والثانية عندما حقق صلاح الدين انتصاره عليهم حوالي عام 1187م والثالثة 1229م امتدت إلى 1244م، والواقع عملت هذه الحروب على إيقاظ المسلمين من سباتهم ثم تلا ذلك، غزو المغول بقيادة تيمور لنك 1336 – 1405م ثم سيطرة المماليك 1205 – 1207م وهؤلاء المماليك كانوا أصلاً أسراً من العبيد عاشوا في المنطقة منذ قرون، جاؤوا من محيط البحر الأسود، والقوقاز، وأسسوا نظاماً عسكرياً ونقلوا ثقافتهم إلى منطقة المشرق العربي خاصة، واشتهر من ناحية أخرى في هذه المرحلة أدب، وشعر ليس فيهما إبداعية، ولا أصالة، حيث اشتهرت بعض الأسماء (كالمقريزي) و(القلقشندي) و(ابن منصور) و(السيوطي) وأخيراً العلامة (ابن خلدون)، وانتهى العصر المملوكي في بدايات القرن الخامس عشر الميلادي.

ساد الأتراك الساحة السياسية منذ ذلك التاريخ، واختلفت موازين القوى إثر هذه الغزوات والحروب، وحلت في مجال الحياة الاقتصادية الزراعة محل التجارة، وهجر العرب السيطرة التجارية في البحار.

ندخل مع العثمانيين[805] مرحلة جديدة في تاريخ العالم الإسلامي مشرقة، ومغربه، وقد أمسك العثمانيون بسلطة القرار، وإدارة الصراع في العالم الإسلامي ضد الاختراقات الخارجية.

هذا بالإضافة إلى إدارتهم الشؤون الداخلية للولايات العثمانية وقد كانت الدولة العثمانية سنية المذهب، وظلت المنطقة العربية رازحة تحت نير السيطرة العثمانية حتى نهاية القرن التاسع عشر.

من ناحية أخرى، أدارت الإمبراطورية العثمانية الصراع الخارجي راغبة في التوسع في العالم الغربي، ووصلت جيوشها إلى فيينا (النمسا)، وصارت الدنيا القديمة تستيقظ كل صباح على إعداد القهوة التركية، Turkish Coffee.

تشكلت الإمبراطورية العثمانية من القوة العسكرية وكانت هذه وسيلتها وأداتها في إدارة الصراعات وكانت دولة عسكرية بامتياز، وتحت مظلة إسلامية، ومن هذا المنطلق، أخذت إداراتها للصراع شكلاً عسكرياً، وخاضعة لاستراتيجيات عسكرية.

لم تعتن الدولة العثمانية بالنمو الاقتصادي، ولا بالازدهار الحضاري، ولا بالنمو الفكري أو الثقافي، رغم أنها اهتمت ببناء المساجد وتحويل كثير من الكنائس البيزنطية إلى مساجد وأصبح هذا كله وبلاشك من أبرز آيات الفن الإسلامي، خاصة في الفن المعماري، والخط والرسوم الجدرانية الفنية.

تراجعت جميع القوى العثمانية، وانهارت إمبراطوريتها، بعد أن امتدت شرقاً وغرباً شمالاً وجنوباً في العالم القديم حاملة بدورها مظلة الإسلام، ولكنها أهملت العرب، وهم (مادة الإسلام) ونعتقد أن الإمبراطورية العثمانية جاءت كقوة ضاربة، ولكنها لم تكن تحمل مشروعاً حضارياً، ولم تعمل جادة على نشر الإسلام في الأصقاع التي حلت فيها غازية، بل، ربما، أعطت صورة سلبية عن الإسلام، والدين الإسلامي في كثير من دول العالم الغربي التي وصلت إليها.

ومقارنة مع إدارة الصراع مع القوى العربية التي كانت بفتوحاتها ونشر الإسلام، كانت العثمانية فتوحاتها عسكرية وسياسية واقتصادية بينما كانت الفتوحات العربية الإسلامية

معنية كذلك بنشر دين جديد، أي أنها جاءت برسالة دينية، تحمل قيماً، ونمط حياة وفكر مختلفين.

ظهرت القوة الأوروبية في بداية العصر الحديث، وتغيرت موازين القوى من جديد في العالم، وتم الانتهاء من حكاية (الرجل المريض)، وحسمت المسألة الشرقية، وتولت أوروبا الإدارة، فكانت إدارة ناجحة لصالحها، وسجل التاريخ نهاية مرحلة، وبداية لأخرى، أمسك من خلالها الغرب بالقيادة والقرار العالميين.

في القرن السابع عشر سادت فكرة التقدم ومحركها العقل، وتراجع الإيمان المسيحي في القارة الأوروبية، وتم تحجيم كامل لسيطرة الكنيسة على التقاليد السياسية، والاجتماعية، والفكرية، وربض العقل ليشكل قاعدة صلبة تعمل على بناء مشروع الحداثة الغربي، مستبعداً بذلك كافة أنماط التفكير الخرافي، و(الدوغمائي) واللا علمي، وكذلك مفسحاً المجال أمام مختلف أنماط التقدم الأخرى في الاقتصاد، والجغرافيا والتطلع إلى مناطق العالم لاستثمار ثرواته، وباحثاً خاصة (الغرب السياسي) عن مناطق نفوذ في مختلف أرجاء العالم.

وعلى الطرف الآخر من البحر المتوسط، ونعني الوطن العربي على امتداد رقعته بدأ بتململ من الوجود العثماني، فانتشرت الحركات الإصلاحية، والحركة الوهابية في (شبه الجزيرة العربية) وظهور الصفويين في (فارس) (**1499 – 1722**م) وكذلك نهضة الإمبراطورية المنغولية في (الهند) بالإضافة ظهور بداية اليقظة في المغرب (شمال إفريقيا) ورأى أحد الباحثين أن الحداثة لم تبدأ مع أصوات مدافع (نابليون) كما يزعم البعض بل لقد كانت هنالك في العالم الإسلامي نهضة فكرية سابقة شرع بها (ابن خلدون) في مشروعه إعادة بناء الفكر السياسي – الاجتماعي – الثقافي، الذي شكل إرهاصاً للنهضة العربية التي جاءت فيما بعد في منتصف القرن التاسع عشر.

أولاً: روح الشعب وفكره[806] يقودان إدارة الصراع ضد الاختراق الاستعمار:

قلنا سابقاً أن الغرب الأوروبي في انطلاق مشروعه الحضاري أطلق العنان لقيادته السياسية البحث المأفون عن مناطق النفوذ، واستعمار كل ما يمكن من مناطق العالم لتلبية حاجاته الاقتصادية وتطوير عوالمه الاستثمارية والتمدد بمصالحه الاقتصادية في

مختلف أصقاع الأرض، وقد وقعت كافة الدول العربية تحت سيطرة الاستعمار الأوروبي.

اندفعت الإمبريالية الثقافية (المعرفية) منذ منتصف القرن الثامن عشر من مقولة في غاية البساطة هي: معرفة الآخر، فكان المستشرقون، والرحالة، وكتب الرحلات إلى (الشرق) والدراسات، قد انتشرت في الأجواء الثقافية في أوروبا، بالإضافة إلى الروايات والقصص عن الشرق، وكثير منها يغذى الخيال الأوروبي بخلق تهاويم ساهمت في تكون صوره عن (الآخر) (الشرق) ومن ناحية أخرى لقد وظفت الإمبريالية السياسية هذه المعلومات لصالح تقدمها الاستعماري في الوطن العربي.

وضعت الإمبريالية الأوروبية حدّاً لكافة أشكال، السيطرة العثمانية في منطقة الوطن العربي، واندفعت هذه الإمبريالية لممارسة مختلف أنماط التغلغل الاقتصادي بالسيطرة على كافة الطرق والممرات العالمية، وتحصيل الامتيازات من القيادات السياسية المحلية للاستثمار، والتنقيب، والبحث، وإدخال المنجزات والإنتاج الصناعي، والزراعي وربط المنطقة بالسوق الأوروبية، وربطها بالديون، والقروض وتم إفراغ الخزائن المالية ووضعت دول المنطقة تحت سيطرة البنوك الأجنبية، وقبل ذلك كله حل الخراب في مختلف المدن العربية حتى وصل التغلغل العسكري إلى أعماق القرى والأرياف وأعماق المدن النائية لم يبق لدى القيادات السياسية من قوة تستطيع المواجهة، أو رد التغلغل العسكري[807].

دخل الوطن العربي، منذ القرن التاسع عشر حلبة صراع المصالح العالمية، وتنافسها وأصبح محطة تقاطع وتضارب مصالح القوة الإمبريالية الغربية: فرنسا، بريطانيا، إيطاليا، وألمانيا، وروسيا.

كانت (الجزائر) أولى الدول التي تعرضت للاستعمار الفرنسي 1830 وتبعتها تونس 1881 وكذلك (مصر) وقعت في قبضة البريطانيين 1882 ثم انقض الفرنسيون على مراكش 1911 ودخلت ليبيا 1911م في قبضة الإيطاليين.

في تلك الأثناء كان المشرق العربي ما يزال يعاني من بقايا سلطة عثمانية متداعية، وظهور حكومة الاتحاديين القوميين الأتراك، وبروز النزعة الطورانية ونزعة تتريك الولايات التابعة للإمبراطورية[808]، وعقب نهاية الحرب العالمية الأولى (1914 – 1918م) وانتصار (بريطانيا) و(فرنسا) نكثت بريطانيا بوعودها مع (الشريف حسين) وعملت على ربط

مختلف مناطق الجزيرة العربية، بمعاهدات عسكرية واقتصادية تكبل إرادة القيادات السياسية في التحرك المستقل لصالح شعوبها.

ثانياً: انتقال إدارة الصراع مع المستعمر من القيادة إلى الشعب:

المقاومات: الدينية (الإسلامية) والوطنية، والقومية:

لقد ظهرت قوى المقاومة لدى شعوب المنطقة منذ أن وطأ الاستعمار أراضي الوطن العربي، ذلك أن المقاومة هي موقف صراعي، فطري يهدف إلى الدفاع عن النفس، والأرض، والوطن، والحرمات، وتقاوم الاستغلال الخارجي للخيرات، ونهب الموارد، ومصادر العيش.

ففي (عُمان) قامت ثورة شعبية، وثارت (الأباضية) وسقطت تحت ضربات القوى البريطانية، واستمر العمانيون بالقيام بثورتهم، وتمكنوا من استعادة مسقط عام 1895م ثم نشبت ثورة ثانية 1913م.

وفي تلك الأثناء كان الصراع في شمال شبه الجزيرة العربية بين آل الرشيد، حكام (شمر) الذين كان يؤيدهم (الألمان)، و(العثمانيون)، وبين (آل سعود)، وأمراء الرياض الذين كان يؤيدهم الإنكليزي[809]، ثم قامت مواجهات تقودها مجموعات من شعوب المنطقة، وأصبح الصراع يُدار من قبل هذه المجموعات الشعبية، وبتعبير آخر، لقد ارتبطت المقاومات الشعبية بالتركيبات الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية في الوطن العربي، وبتعبير ثالث أدير الصراع ومواجهة الاستعمار الأوروبي من قبل القوى الاجتماعية، التي كانت تحركها أنماط مختلفة من الولاء: الديني والسياسي، والاقتصادي، وكانت هذه القوى مع اختلاف توجهاتها، وولاءاتها كانت تقاوم تلقائياً العنصر الأجنبي الدخيل، وكانت تولى أحياناً أمرها إلى قيادات سياسية وطنية تتحرك باسمها، وتعمل لأجلها.

ورأى الدكتور (عبد العظيم إبراهيم) أن قوى المقاومة كانت تدير الصراع ضد المستعمر منذ دخوله أراضي الوطن العربي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وحتى نهاية النصف الأول من القرن العشرين، وبتفصيل أكثر كان هذا الصراع يدار من قبل:

القبائل التي كانت تشكل القوى الاجتماعية الرئيسية في معظم أجزاء الوطن العربي حيث تحلت هذه القبائل بالروح القتالية، ولكنها كانت تفتقر إلى الروح النظامية وتسيطر عليها الظاهرة الانقسامية التي أساءت إلى طبيعة إدارتها للصراع[810].

إن نظرة سريعة إلى مرحلة مقاومة الاستعمار، التي تجلت في مختلف أنحاء المدن، والقرى، والبلدان، تؤكد لنا أنها كانت حريصة على تحقيق الاستقلال، رغم ما كان يشوبها من شوائب كثيرة كالتفرقة، والانقسام، والوقوع في أفخاخ تحالفات، ومصالح آنية، والتنافس من أجل الرياسة، وسيطرة الروح الكاريزمية على حركاتها.

كانت إدارة الصراع تحقق إنجازات ميدانية، وسياسية في غاية الأهمية، وكانت تقض مضاجع المستعمرين، ولنسلط الضوء على بعض من هذه (الحالات) التي تجلت فيها روح المقاومة سواء تحت تأثير الروح الديّنة، أو الوطنية، أو القومية، إلا أنها تعبر كلها عن هدف واحد، وهو الحرية والاستقلال، وتقرير المصير.

ففي المشرق العربي، ظهرت الحركة – الوطنية – القومية أولاً لمقاومة الوجود العثماني الذي أخذ يحاول القضاء على معالم الشخصية العربية والقومية، ثم صارعت هذه الحركات الإسلامية، والقومية الإمبريالية الغربية.

وفي مصر – قامت ثورات شعبية، ثورة أحمد عربي وضحايا (دنشواي) من جراء القصف البريطاني لهذه القرية، ومن ثم نذكر النضال السياسي، للأحزاب المصرية الوطنية.

وفي العراق – ثورة (رشيد عالي الكيلاني).

فلسطين – ثورة 1936 ضد الانتداء البريطاني ثم ضد اليهود.

وفي المغرب العربي، بداية الجزائر، التي قامت الاستعمار الفرنسي والتي أصبحت تدعى ببلد: المليون شهيد.

وفي ليبيا: ثورة (عمر المختار)، والحركة (السنوسية).

وفي السودان: الحركة المهدية.

وقد ذكرنا عمان، وشبه الجزيرة العربية، ومقاومة القبائل العربية في دول الخليج العربي الوجود البرتغالي، ثم البريطاني.

هذه المقاومات، التي تعبر عن الصراع، إدارته من قبل: الشعب الذي تكونت، أي المقاومة من الحركات الدينية، أو الوطنية، أو القومية ونشبت الثورات هنا، وهناك مطالبة بالاستقلال والحرية، واستعادة الكرامة.

والخلاصة لقد كانت إدارة الصراع توكل إلى:

- زعامات القبائل (القيادات السياسية) لعقد المواجهة والصراع واستخدام القوة ومنهج الكفاح.

- القيادات البرجوازية (الصغيرة) التي كانت تعمل بأسلوب إدارة الصراع السياسي. وتؤيد الصراع المسلح في الوقت نفسه.

ولقد مرت إدارة الصراع بمرحلتين أساسيتين:

الأولى: مرحلة مقاومة الغزو الاستعماري مباشرة، وبطريقة تلقائية وعفوية (لم تحقق الاستقلال خاصة في بداية التغلغل الاستعماري).

الثانية: مرحلة التخلص من الحكم الاستعماري وانتزاع الاستقلال[811].

ولا ننسى أن إدارة الصراع في كافة أرجاء الوطن العربي، كانت تستفيد من الدعم الخارجي، وتوظفه لصالحها، وكذلك كانت تنتظر بعض الترتيبات الدولية التي تفسح لها المجال بتحقيق الاستقلال.

استطاعت الشعوب في الوطن العربي، رغم ما كانت تعانيه من ضعف في الإمكانيات، أن تستمر في صراعها، وتصل في النهاية، إلى مرحلة الاستقلال، وبناء الدولة، وتولي قيادات سياسية جديدة، ولكن ما إن وصلت المنطقة العربية إلى هذه المرحلة حتى وضعت أمام تحد جديد لقدراتها، تمثل في: الظاهرة (الصهيونية)، لقد كانت المؤثرات الجانبية التي عاشتها المرحلة الوطنية من قبيل: التشتت، والانقسام والنزاعات الداخلية وتضارب المصالح، وتغير الولاءات، والنزعات الحزبية بالإضافة إلى الافتقار إلى أدوات الصراع اللازمة، هذه الآثار اللاعقلانية، كادت تنهك روح المقاومة،

والمواجهة، وتضيق على مسيرة إدارة الصراع، أحياناً ترمي بقيادتها نحو مهاوي الفشل، الاستقواء بالقوى الأجنبية.

لقد كان الخلل كبيراً في إدارة الصراع، ومع ذلك، رغم هذه الثغرات، فلقد شكلت المقاومة التي شملت كل المناطق المستعمرة عنصراً ونقطة قوة مهمة في التحرر، والاستقلال.

ثانياً: إدارة الصراعات العربية ـ العربية:

مقدمة: ما قبل إدارة الصراعات الداخلية:

عندما سقطت بغداد عاصمة الخلافة، ومركز إشعاع الحضارة العربية الإسلامية لهذه الحضارة والتي ازدهرت طوال أربعة قرون – ونيف، كان العرب والمسلمون في مركز القيادة العالمية، وكانت العاصمة أو عواصم أخرى في العالم الإسلامي حينذاك مراكز القرار الدولي، وعندما صعدت القوى الأوروبية إلى المشهد العالمي، واختلت موازين القوى لصالح القوى الصاعدة وانسحاب العرب والمسلمين من الساحة العالمية بعد أن تلقوا ضربات، وصدمات من المغول، والتتار، وأصبحت منطقة الوطن العربي كمركز، وموقع استراتيجيين، مهمين كما ذكرنا أخذت الإمبريالية منذئذ تتجه بأنظارها نحو المنطقة فبرزت الظاهرة الاستعمارية، ودخلت جميع دول المنطقة الدائرة الاستعمارية منذ القرن التاسع عشر، وتحديداً ما بين عامي **1800 – 1945**م.

وتقتضي الدراسات العلمية لهذه المرحلة قبل الحديث عن تشكل الدول العربية، وتسلم القيادات السياسية زمام السلطة والقرارات وبالتالي تولى هذه القيادات إدارة الصراعات الداخلية، والخارجية – النظر أولاً إلى:

1– وضع البيئة الإقليمية.

2– وضع البيئة الدولية.

في واقع المر، لقد تداخلت هاتان البيئتان وبشكل ضاغط في إدارة شؤون الدول المشكلة، وقيادتها السياسية، وتداخلت هاتان البيئتان أيضاً في إدارة الصراعات، حتى الداخلية منها، والتي حدثت داخل أقطار الوطن العربي، وتفصيل ذلك ما يلي. لقد بين

الدكتور (عدنان السيد حسين) مسألة منهجية في هذا الإطار فيقول: علينا أن نسجل نقطتين منهجيتين في هذا المجال هما:

الأولى: إن الحديث عن الدور الإقليمي، والدولي الضاغط، لا يلغي الخطورة والتأثير الكبيرين للعامل المحلي الداخلي في الصراعات الداخلية.

الثانية: إن الحديث عن العوامل الخارجية للصراعات العربية لا يندرج في إطار ما يسمى بنظرية المؤامرة الخارجية على الأمة العربية[812].

فبعد قيام الثورة الفرنسية 1789م بسنوات قليلة وتولي (نابليون) السلطة الإمبراطورية، أراد الإمبراطور التوسع في الإمبراطورية، وبدأ مشروعه في الحروب النابليونية، وعقد في تلك الأثناء مؤتمر (ففينا) 1815م لإدارة المسألة الشرقية[813] وعلاج (الرجل المريض) ووضع الإمبراطورية العثمانية التي كانت قد شارفت على التداعي، ومن الناحية الثانية كانت لدى (محمد علي باشا) وآلي (مصر)، بعض الطموحات الإمبراطورية على الساحة الإقليمية، وساد في هذا الاتجاه، بتأييد السلطنة العثمانية.

أمام هذا الواقع استيقظت الإدارة الفرنسية، والبريطانية، وقررتا السير باتجاه المنطقة، على الصعيد الدولي، وانعكست المرحلة الاستعمارية في إرادة السيطرة الكاملة، سياسياً واقتصادياً على الوطن العربي، بعد ذلك، وثم حصلت دول المنطقة على الاستقلال، إلا أن الصعوبة ظلت تبرز منذ ذلك الحين، في الفصل بين تطور الحياة السياسية، والاقتصادية، والثقافية العربية، وسياق العلاقات الدولية، أي بعبارة ثانية ظلت القوى الأوروبية، وبعد الاستقلال وعيونها مسلطة على المنطقة، فأخذت تستثمر مشكلات الوطن العربي الداخلية، الخاصة بالمنطقة والموجودة أصلاً فيهان والمتراكمة عبر تاريخ طويل، وحيث وجدت القيادات السياسية العربية التي تولت إدارة الأمور بعد الاستقلال نفسها غير قادرة على مواجهتها فضلاً عن أنها لم تكن على وعي عقلاني كاف لتجاوزها لمصلحة شعوبها.

إضافة لذلك ان القوى الأوروبية كانت كما قلنا سابقاً قد خلت المسألة اليهودية في الوطن العربي بعد أن نقلتها من أوروبا، وتم زرع كيان مصطنع، خاص لليهود في فلسطين، وعاصرت هذه المرحلة من الاهتمام بالمنطقة إرسال البعثات التبشيرية بهدف معلن، هو:

التنمية العلمية والثقافية لشعوب المنطقة بالشكل المباشر، الهدف المخفي: أضعاف الذاتية الثقافية للعرب والمسلمين والتركيز على >المركزية الحضارية الأوروبية<[814].

1- عملت القوى الأوروبية ذات المصلحة المباشرة في المنطقة على ضرب الوحدة العربية والتركيز على التجزئة بدعوى الخصوصيات الإقليمية، والواقع أن المشكلة الانقسامية العربية كان يعاني منها العرب سابقاً، فجاءت الإمبريالية (لتكرس الفكرة الانقسامية والقطرية، والتجزئية).

2- أما مشكلة الأقليات فالأقليات موجودة في مختلف أرجاء الوطن العربي لكنها لم تكن مشكلة فجاءت الإمبريالية، ونبشت هذه المسألة، وشجعت على ظهورها على السطح.

3- في وادي النيل نشأت أزمات حدودية داخلية تحت وطأة وتأثير الإدارة البريطانية.

4- في دول الخليج العربية، كانت القبائل العربية متداخلة فيما بين مناطق الخليج المتاخمة لبعضها، وكانت الدول تبحث حلولاً للمسائل الحدودية بطريقتها الخاصة ولكن عملت الإدارة البريطانية على التدخل في المشاكل الحدودية نظراً لوضعها، هي هذه التقسيمات الخاصة، وخلق بعض الإشكاليات المتشابكة.

5- في العراق وبلاد الشام ظهر التنافس البريطاني الفرنسي على المصالح بالاستناد إلى عدد من الاعتبارات الطائفية المذهبية والإثنية.

6- وكذلك الأمر في المغرب العربي، وهذه الأوضاع الطائفية والمذهبية والأثنية وإن كانت مندمجة في واقع عربي وإسلامي لكنها لم تكن لتشكل مشكلات، إلا أنها ظهرت على السطح نظراً للتدخلات الأجنبية، وارتباطها بالصراعات الدولية في المنطقة.

لقد أصبحت إدارة هذه المشكلات (والتي أخذت طابع الصراعات) من شأن القوى الخارجية أو بمعنى آخر أصبحت تدار الصراعات بأسلوب، توظيفها، تارة كأزمات خانقة، وتارة كصراعات حادة، واقتتالية، وقد شكل هذا الواقع المعقد أرضية خصبة للصراعات المحلية.

الوطن العربي في المرحلة 1914 – 1950م:

حصلت الدولة العربية في المشرق العربي في هذه الفترة على الاستقلال، وكانت (مصر) قد حصلت على استقلالها، وبموجب معاهدات واتفاقيات بين الدول المستعمرة وهذه الدول، وقد تم الاستقلال، كما قلنا تحت ضغط المقاومات، والمطالب والثورات الشعبية.

تسلمت الأسرة السعودية زمام الأمور، وظلت بعض مناطق الخليج خاضعة للنفوذ البريطاني أما فلسطين فقد ظلت حالة خاصة، واستثنائية بالنسبة للغرب.

أما بالنسبة لدول المغرب العربي، فلقد حصلت دوله، ما عدا (الجزائر) على الاستقلال الجزئي، والكامل من قبل الإدارة الفرنسية.

رياح الحرب الباردة والسباق الدولي:

يصعب الفصل بين قيام الدول العربية المستقلة، وتأثيرات الحرب الباردة، والصراعات الدولية على المصالح في المنطقة، ذلك أن هذه الصراعات التي أصبح فيها الاتحاد السوفييتي (السابق) والولايات المتحدة، طرفي الصراع الدولي، انعكس صراعها على الدول النامية[815].

عمل أقطاب الحرب الباردة بعد انسحاب الإمبراطوريتين القديمتين فرنسا، وبريطانيا من المسرح العالمي كقوتين استعماريتين، على استغلال هذه الملفات، وجعل المنطقة العربية تحت رحمة إدارة الصراعات هذه من قبل أقطاب العالم لما بعد الحرب العالمية الثانية أي القوتين العظميين.

فكان الاتحاد السوفييتي يعمل من جهة على تأجيج الصراعات في المنطقة تحت مسمى تحرير شعوب الشرق من الإمبريالية الاستعمارية، وكانت الولايات المتحدة، ومن في دائرتنا، تؤجج الصراعات الداخلية تحت مسمى مقاومة المد الشيوعي.

مسألة المطالب الشعبية بحق تقرير المصير والزعامات الكاريزمية:

في هذه المرحلة، كما قلنا ظهرت المطالبات بالاستقلال الوطني، ومقولة حق تقرير المصير للشعوب لتقود نفسها بنفسها، وظهور التيار القومي في المشرق العربي خاصة، ففي عام 1952 تستلم (القيادة السياسية الجديدة في مصر)، وظهرت في حينها شخصية

(عبد الناصر) على المستوى المصري والعربي لتحتل مركز الصدارة في القيادة في السياسة العربية، وتنال حظها شعبياً، وكاريزميا، وفي (سورية) تسلمت بعض الأسر الكبيرة بعد خروج الفرنسيين السلطة، ثم وصل حزب البعث، فأخذ دوره في القيادة السياسية في وحدة مصر وسورية (1958 –1961) أما في (لبنان)، فقد ظلت تشكيلات قيادته السياسية تأخذ طابع (الطائفية السياسية) وظلت الأنظمة السياسية في كل من الأردن والسعودية محافظة – على شكلها التقليدي، وقام انقلاب عسكري في العراق 1958م، واستمر تركيز الغرب على المنطقة للإمساك بمصادر الطاقة.

ظاهرة الصراعات العربية الداخلية وإدارتها المرتبكة :

ذكرنا سابقاً أن الصراع، ظاهرة إنسانية، وتكاد تكون طبيعية، تحدث بين الأفراد داخل (الجماعات) وبين المجموعات الصغيرة والكبيرة بين الصغار، وبين الكبار، بين الأجناس والأقوام، بين الأمم، بين الأقاليم، وبين دول الجوار، وبين التيارات والاتجاهات والمذاهب والطوائف داخل الدول، والمجتمعات.

عندما نقول أن الصراع ظاهرة إنسانية، فلا نعني أنها ظاهرة عقلانية بل هي لا عقلانية بطبيعتها، ولكن الجانب اللامعقول هو من طبيعة، وبنية الكائن الإنساني، لأننا لسنا حيوانات عاقلة بالمطلق ولسنا في مساراتنا الحياتية نتبع قواعد المنطق، أو التفكير الفلسفي أو اليوتوبي، فانفعالاتنا، وعواطفنا ومشاعرنا، وحالاتنا المزاجية، وكلها متضاربة متناقضة، وتدخل في سياق علاقاتنا الفردية والاجتماعية وتدخل أيضاً في تكوين أفكارنا السياسية وتؤثر في طبيعة اعتقاداتنا الخاصة والعامة، إنها انعكاس للعوامل الخاصة، التي لا نستطيع الإفلات من إسارها، وتأثيرها، والطامة الكبرى هي عندما تكون هذه العوامل الخاصة مدار اتجاهاتنا الصراعية، والمصيبة الأكبر عندما ترجح كفتها، وتزيح جانباً القوة العقلانية فينا.

في حياة الشعوب كثيراً، ما نقلب صراع الأفكار إلى صراع في الشوارع، والأحياء، والمدن، والقرى وكثيراً ما تأخذ المسارات الصراعات الفكرية لتنطلق من قمقمها أن صح التعبير لتأخذ مظهر الصراعات بالأذارع والأيدي، والاقتتال بالسلاح، لقد كتبت الكثير من المؤلفات في القديم والحديث عن (فن الحرب) أو الصراع، وعرفت الإمبراطوريات

القديمة: الصينية واليونانية، والرومانية والعربية الإسلامية قوانين الصراع، ووضعت له ضوابط أخلاقية إنسانية للمتصارعين تدعوهم إلى التزام بها فمنهم من التزم ومنهم منه لم يلتزم.

ولا نعتقد أن الصراعات العربية القديمة، والحديثة، والمعاصرة تخرج من هذا الإطار الصراعي فلقد حدثت هذه الصراعات قبل الإسلام وحدثت بعد الإسلام، وحدثت في الماضي القريب، وتحدث في وقتنا الراهن.

في دراسة للدكتور (أحمد يوسف أحمد) حول الصراعات العربية العربية (**1945 –– 1981**م) ينطلق الباحث بداية مما يدعوه: مصادر الصراعات العربية، ومن المهم أن نذكر أن أول مصدر أشار إليه الباحث في فقرة تحت عنوان: المصادر الفردية – النفسية للصراعات الداخلية العربية. وهو (ما ذكرناه في الفصل الرابع من عملنا) فيقول:

إن مصادر الصراع الدولي يمكن أن تعود إلى اعتبارات فردية – نفسية، أي أن مصدرها شخصية صانع القرار: الملك، الرئيس، القائد، وهو أحد أطراف الصراع الرئيسية مثلاً: ميل القائد الجارف للزعامة (جاذبية السلطة) أو الميول العدوانية المتطرفة... الخ.

ومع افتراض وجود دور لهذه الاعتبارات – الفردية – السيكولوجية في صراع ما، فإن من الواجب أن نفرق بين حالتين:

الأولى: يكون فيها القائد صاحب القرار مجرد قناة توصيل أو مرآة عاكسة لمصادر الصراع، أو كمعجل لحدوثه، بطبيعة الحال، من الممكن أن نتصور هذا القائد أو الرئيس عاملاً كابحاً للصراع.

الثانية: يكون فيها صانع القرار الرئيسي هو المصدر الأصيل، والمباشر للصراع، وفي إطار تحليلنا لمشكلات الصراع، يمكن القول أن هذه الحالة تؤدي إلى صراع زائف[816] أي أنه صراع مجرد، من الأسباب الحقيقية للصراع، ويستعرض الباحث من خلال افتراضاته مجموعة من المصادر الموضوعية للصراعات العربية، والتي يذكرها كثير من الباحثين والدارسين العرب، وهي:

- المصادر التاريخية.

- المصادر الجغرافية.

- المصادر السكانية (الديموغرافية).

- المصادر الإيديولوجية.

- مصادر نظمية (أي النظام السياسية)[817].

لا نجد مبرر للدخول في تفاصيل المصادر الموضوعية فلقد سبقنا كثير من الباحثين العرب إلى معالجتها في دراساتهم (أشرنا سابقاً إلى بعض الأسماء)، ولكن أن ما يهم بحثنا هنا، هو الجانب الأول لهذه المصادر أعني: دور العناصر السيكولوجية، والتي تغذيها العناصر أو المصادر الموضوعية التي تذكر عامة الدرجة الأولى من المصادر، ولكنها في رأينا تظل قاصرة في فهم ظاهرة الصراعات العربية العربية، أو الصراعات العربية مع الخارج لأنها لم تستكمل بتحليل (المصادر الخاصة) ولأن هذه، الأخيرة تدخل في البنية السيكولوجية لصاحب أو أصحاب القرار.

وبما أن البنية السياسية أو بالأحرى القيادة السياسية تجسدت تاريخياً منذ بداية العصر الأموي وحتى يومنا، بسلطة: فردية - متفردة بالقرار سواء كانت متجسدة في سلطة: خليفة أو سلطة، ملك، أو رئيس، أو قائد، متخذة صفه (كاريزمية)، وهذه القيادة الحاكم الفرد هي التي تصنع القرار، في الأزمة أو الصراع، تأجيجه، أو إيقافه إنهائه أو إطالته في الحرب، أو السلم، وفي الحالة العربية يعلو أحياناً دور: الدوافع السيكولوجية - في صناعة واتخاذ القرار ومن ناحية ثانية لم تعرف الدولة العربية منذ نشأتها في العصر الحديث المؤسسات الفاعلة، والفعلية والتي تقوم بدور في صناعة القرار وإدارة الصراع ولم تتوفر في دولنا الحديثة، ومجتمعاتنا السياسية: القاعدة، العلمية لصناعة الدراسات والبحوث لتحليل العوامل الموضوعية، والعوامل الخاصة ودور كل منهما في صناعة القرار لذلك ظلت هذه الأمور في إطار اجتهاد الباحثين الأجلاء وعلى المستوى الفردي والبحثي والأكاديمي.

والواقع إن تداخل العوامل الموضوعية والخاصة، يجعلنا أمام صعوبة كبرى في الفرز بينهما، ولا نمل من تكرار دور العوامل الخاصة التي يدخل فيها: التكوين السيكولوجي لصاحب القرار والتكوين السيكولوجي لمن يحيط به وهذا التكوين المبني على رواسب شعورية ولا شعورية: طفولية، أسرية، قبلية، مجتمعية، إيديولوجية ومذهبية كلها مجتمعة ومختلطة.

هذا الاختلاط السيكولوجي دائرة (اللاشعور) في الصراع ليس خصوصية عربية فمظاهرة موجودة لدى الشعوب، تظهر أثناء الأزمات والصراعات داخلها أو مع خارجها وتعمل الآلة الإعلامية وكتب التعليم وما فيها من: أحكام مسبقة تم عرضها وتبريرها وإظهارها ونبشها من الأعماق لتعبر عن جوانب ما من الصراع ورغم وجود الضوابط الدستورية والمؤسسات العلمية والبحثية إلا أن دور هذه في إدارة الصراع، والقيادات السياسية تستخرج من أعماقها ومن طبقاتها السفلى (على مستوى القيادة، في اللاشعور الجمعي على مستوى المجتمعات بعض التعابير لتعبر عن المواقف مثلاً أثناء قيام الولايات المتحدة بالحرب على العراق (إبريل 2003) ضمن إستراتيجيتها في الحرب على الإرهاب عادت عبارات: >الحروب الصليبية< و(الحروب الدينية) و(صراع الشرق والغرب) وصراع (الإسلام والغرب)...إلخ من كلا الطرفين، الأمريكي، والأوروبي، والغربي الإسلامي.

إدارة الصراع العربي العربي:

هل هي صراعات أنظمة أم شعوب؟

حسب ما تناهى إلينا من معلومات تاريخية حديثة، ومعاصرة، لم تسجل هذه المعلومات أن شعباً عربياً في قطر عربي أعلن الحرب على جاره، أو القطر المجاور، ورغم أن شعب كل قطر عربي، يحمل شعبياً، الانطباعات الخاطئة، والأحكام المسبقة، إزاء شعب قطر عربي آخر، ولكن هذه الأحكام، والأقاويل السائرة في كل شارع عربي إزاء شعب عربي شقيق لا يدفع كل ذلك إلى حرب أو صراع وكل ما سجله لنا التاريخ من وقائع، وأحداث: هو في إطار الصراعات المحتدمة، كلامياً، وإعلامياً، وهجاء، وقذفاً، بين هذا النظام، أو ذاك، إذن المقصود هنا هو الصراع بين أنظمة ذات بنى متضادة، متناقضة، قامت بين: الأنظمة، والتي كانت تسمى بالتقدمية، والأنظمة المحافظة التقليدية، والتي سميت بالرجعية، ظهر ذلك بجلاء، ووضوح في مرحلة الخمسينات،

والستينات، من القرن الماضي، وتظهر حالياً بشكل أو آخر، وتحت مسميات جديدة ومختلفة.

إن بعض الباحثين الأكارم يرى أن حصر الصراع بوجود أنظمة بعينها من أي نوع لا يفي بالمعالجة الجذرية، والشاملة للصراع، لأنه لا ينظر إلى العوامل الأخرى الكامنة في سيكولوجيا المجتمعات العربية[818] ورغم تقديرنا لهذه المقالة، نرى أن الأنظمة السياسية العربية، وهي فاقدة الشرعية، وبينها وبين شعوبها هوة، تعبر عن الروح العربية الشعبية تظل هذه الأنظمة صاحبة القرار في: نشوب الصراع، أو تأجيجه، أو الحد منه، أو حسمه أو تأجيله، أو كبحه، لذلك علينا كما قال الباحث المذكور. أن نعرض رؤيتنا، والقيام بحفريات سيكولوجية، للأرضية التي تجري عليه الصراعات، أي فهم العناصر البشرية التي تتقدم الصفوف الأولى للمشاركة في الصراع أو دفعه للاصطدام والاحتدام، والانفجار، وهنا في هذه النقطة نعود إلى نقطة البداية، وهي أن الأنظمة هي التي تحرك، أو تدير بمعنى أصح: الصراع فيما بينها، وتوتر الأجواء الشعبية، وتدفعها إلى الهيجان، في صراعات ليس لهذه القوى الشعبية اليد الطولى في نشوء هذا الصراع أو ذاك، وليس لها ناقة فيها ولا جمل.

في النصف الأول من القرن الماضي، وعقب الحرب العالمية الثانية وانقسام (القوى العالمية) قوتين أو إلى معسكرين: الكتلة الرأسمالية، والكتلة الاشتراكية، دارت رحى الحرب العالمية الباردة بينهما فأشعلتا حروباً إقليمية أو بالأحرى، تحاربا بالقوة العسكرية بواسطة الطرف الثالث، وكان الوطن العربي، والدول النامية عموماً مسرحاً للصراعات المسلح الذي أدارته هاتان القوتان.

وقد انعكست الحرب الباردة في حرب باردة حيناً وأحياناً ساخنة بين الأنظمة العربية المحافظة والمجددة، وقد كان لهذه الأنظمة نصيب ما، في إدارة الصراعات المحلية وقد أدارتها ضمن إطار إستراتيجي أوسع وضعته كلتا القوتين على الساحة العالمية، وكان لهذا الهامش للقيادات السياسية العربية والمتروك لها في إدارة الصراع دوره المهم.

وفي هذه الأثناء تطورت فكرة القومية العربية مع وصول الرئيس الراحل (جمال عبد الناصر) حيث أعلن الحرب على الأنظمة العربية اللاثورية.

لقد كانت أهداف هذه الصراعات العربية أهدافاً متحركة، بمعنى أنها انتقلت من صراع الأنظمة على الصعيد الإيديولوجي، والحروب الكلامية وأحياناً الاقتتال المباشر، إلى هدف جديد مرتبط بالهدف الأول وهو تغيير الأنظمة، وهو ما مثل نقله نوعية في الصراع لأنه هدف إلى تغيير وجهة الصراع من تقوية مراكز النفوذ للقيادات السياسية على المستوى الإقليمي إلى تغيير وتطوير الجهات المتواجهة أو تغيير موازيين القوى على المستوى الإقليمي وكل ذلك كما قلنا كان يدور ضمن خطة اللاعبين الكبار.

ظهر كل من النظامين في الوطن العربي، ومنذ ذلك الحين، على أنها متضادين ومتعارضين، في الجملة والتفاصيل، وأخذ السلوك السياسي العربي الرسمي، وبالتالي أصبح السلوك الشعبي، تغلب عليه المجابهات المتطرفة بين الأنظمة، وبالتالي المواجهات، وحتى الحروب الكلامية، بين التيارات السياسية طابع التطرف[819] بين السلطة، والمعارضة، واصبحت ساحة الوطن العربي مسرحاً مؤسفاً لمختلف أنماط التفكير المتطرف (الثوري) وأنماط التفكير المحافظ (التشدد الديني) والجدير بالاهتمام هنا هو التأكيد على (الأسلوب المتطرف) في تعامل كلا النظامين مع بعضهما.

لقد كان أسلوب المواجهة، والصراع يميل ميلاً شديداً إلى عصيان أو مجانبة العقل والرشد ولم يعد يكترث هذا النظام أو ذاك بالبحث عن أرضية مشتركة، أو البحث عن الإيجابيات لدى الطرف الآخر، وأصبح لقاء الأضداد مستحيلاً.

إن الصراع بحد ذاته ليس جريمة في حد ذاته، بل هو مطلوب عندما يكون أداة للتخلص من سيطرة أجنبية أو صد محاولات الاختراقات الخارجية أو ضد قوى تمنع النمو، والتطور نحو الأفضل، وهو مرفوض عندما يكون مجرد تعبير عن التفكك والانقسام، وعن فقدان القدرة على التحرك الجماعي من أجل تحقيق الوحدة العربية بين شعوب الأقطار العربية[820]، والتآلف بين الوطن الواحد.

كيف أدير هذه الصراعات؟

قلنا أن تأجيج الصراع بين الأنظمة السياسية العربية المحافظة والثورية كان له عوامله الداخلية وعوامله الخارجية:

1- فأما العوامل الداخلية فتتجلى في: التناقض الكائن بين إيديولوجية التقليد والمحافظة والإيديولوجية التقدمية، وكان هذا الصراع من الممكن أن يظل في مستواه الإيديولوجي، وكان يمكن أن يكون عبارة عن(معركة فكرية) لا تؤذي حياة الشعوب، وكان من الممكن أن يتولد عن هذا التناقض أو الصراع بين النقيضين وما قاله الفيلسوف الألماني (هيجل) في فلسفة الجدل والتي تعني في بعض تفاصيلها تولد مولود جديد من النقيضين، ومن صراعها، ففي مثالنا الصراع العربي هنا فإن النقيضين المتصارعين فكرياً كان من الممكن أن تتولد عنهما فلسفة سياسية عربية ناتجة عن النقيضين الأضداد، ولكن ذلك لم يحصل بل لقد انعكس بطريقة غير عقلانية، وقاد أحياناً إلى الاحتكام إلى: القوة.

2ـ وتجلت العوامل الخارجية في: دفع أقطاب الحرب الباردة الكبرى، في عالم ما قبل سقوط الأنظمة الاشتراكية، وإنهيار الكتلة الشرقية، إلى وضع كل طرف من أطراف الصراع العربي إلى التصلب في موقعه، يفقدان المرونة، والقدرة على اللقاء، والحوار من أجل المصلحة العربية العليا، وفضلاً أسلوب المواجهة.

استخدم الدكتور (أحمد يوسف) أحمد في دراسة استطلاعية حول الصراعات العربية، منهجاً علمياً دقيقاً يقوم على تطبيق المقاييس الرقمية – الكمية – لقياس التفاعلات الصراعية وشدتها، ومن خلال سبعة وثلاثين جدولاً، لكل سنة من سنوات النطاق الزمني عبر فصول خمسة لرصد، الوصول إلى نتائج التحليل للتفاعلات الصراعية بين البلدان العربية، هي: قضايا الصراع، مصادره، وأدواته، وتسويته[821]، وهي دراسة مهمة ومفيدة، تتسم بالموضوعية العلمية، وسنعمد إلى توظيف بعض ما جاء فيها لصالح عملنا هنا مشيرين في كل مجال إلى المصدر.

لاشك أن الصراعات التي دارت بين النظمة العربية، منذ استقرارها، كأنظمة، واستقرار دولها، بعد الاستقلال، وطبيعة تكوينها، وتغيرات بعضها من تقليدي إلى تقدمي عبر انقلابات عسكرية حيناً (سورية – العراق) وثورات (مصر – الجزائر) مثالاً جعل هذا الوضع الأنظمة تفكر في طرح قضايا صدرت من طبيعة أوضاعها المستحدثة لتكون أرضية للصراع، وبالتالي اشتداد هذا الصراع وتسويته:

ولقد تجسدت قضايا الصراع في الأمور التالية:

– القضايا الاقتصادية، حيث احتلت أدنى درجات سلم الصراع.

– أمن الأقطار العربية في الدرجة الثانية.

– الارتباطات الأجنبية في الدرجة الثالثة.

– الوحدة العربية في الدرجة الرابعة.

– الحدود، والمطالبة الإقليمية في الدرجة الخامسة.

– فلسطين، في الدرجة السادسة.

– النظم السياسية في الدرجة السابعة[822].

يلاحظ أن القضيتين الرئيسيتين اللتين احتلتا الدرجة السادسة والسابعة هما فلسطين، والنظم السياسية وتركيبها، لقد استأثرنا شدة الصراع.

وفيما يتعلق بقضايا النظم السياسية وجدت الدراسة الاستطلاعية التي نحن بصدد التعرض لها ماثلة، ويفترض في مثل هذه القضايا التي كانت مجالاً للصراع، أن تكون شأناً داخلياً، بما يعني أنه حتى لو حدث بصدها صراع ما، فإن هذا الصراع يفترض فيه، أو بدوره، أن يكون محدود الأهمية النسبية، غير أن خصوصية العلاقات العربية[823] وبما تدفع البعض إلى الاعتقاد بأن النظم السياسية العربية ليست شأناً داخلياً، مع العلم أن الوزن المنسوب للصراع حول النظم السياسية العربية فقط لا يشمل الصراع حول سياساتها العربية، أو ارتباطاتها الأجنبية، وبالتالي، فإن أية قوة تسعى من أجل التغيير في الوطن العربي، فيها تسعى ضمناً إلى أحدث تغيير ما في نظمه السياسية، غير أن المنطقي، أن هدف محاولات تغيير هذه سيتجه أساساً إلى النظم المحافظة، باعتبارها تمثل وجهة نظر قوى التغيير مرحلة يجب تخطيها في التطور السياسي لأقطار الوطن العربي، وهنا، وكما يقول الدكتور (أحمد) صاحب الدراسة وهي أن الصراع حول قضايا النظم السياسية قد دار أساساً حول النظم التقدمية، وليس حول النظم التقدمية، وليس حول النظم المحافظة[824].

أما القضية الثانية، والتي جاءت حسب الأهمية، كما ذكرنا منذ لحظة، هي القضية الفلسطينية فتقول الدراسة أنه كان من المفترض أن تكون هذه القضية، باعتبارها مرتبطة بخطر خارجي هائل على الوطن العربي[825]، مصدر توحيد، فإنها على العكس، برزت بين قضايا الصراعات العربية ليس باعتبارها مجرد قضية من بين قضايا أخرى، إنما باعتبارها من أهم القضايا الصراعية بين النظم السياسية العربية المرتبطة بجميع القضايا في الوطن العربي لفترة الدراسات الزمنية[826].

هذا بالنسبة للمشرق العربي خاصة، أما بالنسبة إلى المغرب العربي والتي لم تتعرض الدراسة لقضايا الصراعات بين نظمه السياسية، هي قضية تناقض الأنظمة السياسية فيما بينها أولاً لحال النظم في المشرق، بالإضافة لقضية (الصحراء الغربية) التي منعت بدورها التوحد بين الأقطار المغرب العربي الكبير، وأصبحت مصدر صراع بين نظّمه السياسية، خاصته (الجزائر، مراكش)، بينما كان من المفترض أن تكون عامل توحيد، طبعاً ليست مقارنة بالقضية الفلسطينية لأنها لا تشكل تحدياً من خارج المغرب العربي، ولكن كقضية صراع داخلية ساهمت في عرقلة المشروع الوحدوي لدول المغرب، وكان من المفترض تجاوزها، وحلها، وتسويتها بالأسلوب العادل والعقلاني، والتفرغ لتطوير، وتنمية حياة شعوب أقطار المغرب العربي، كما ذكرنا سابقاً.

وتستعرض الدراسة المذكورة كذلك القضايا من النوع الثاني، والتي اعتبرتها الدراسة **من القضايا غير المهمة هي**:

– قضايا الحدود، والمطالب الحدودية أو إعادة ضم مناطق أخرى الإقليمية (كالمطالبة العراقية بضم الكويت، وقضايا الخلاف الحدودية بين مصر والسودان، وبين دول الخليج العربية، وبين السعودية، واليمن وأيضاً قضايا الصحراء الغربية).

– قضية الوحدة العربية، حيث احتلت المرتبة الرابعة في قضايا الصراع العربي الداخلي وليس المقصود هنا الصراع على الفكرة، بل حول الطريقة لتحقيقها، صراع المشروعات الوحدوية، ورد فعل الخصوم على الطرق المتبعة.

– الارتباطات الأجنبية.

- أمن الأقطار العربية.

- القضايا الاقتصادية[827].

3- كرست دراسة الدكتور (أحمد يوسف أحمد) فصلاً لأدوات الصراع، بين النظم السياسية العربية ونحن تمشياً مع عملنا فإننا سنغير عنوان الفصل ونضعه بشكل يناسب إطار بحثنا ليدور حول إدارة الصراع، غذ أن إدارة الصراع كما رأينا في آليات الصراع لها أدوات، ووسائل تنظيمية وتدخل ضمن نطاق إستراتيجية الصراع، وقد لا تكون لهذه الإستراتيجية الوسائل التنفيذية، والخطط الموضوعية أو المتصورة في أذهان القيادات السياسية العربية متسقة وآليات التفكير العلمي أو الخطط العلمية لإدارة الصراع، إلا أننا يمكن لنا أن نستعرض هذه الإستراتيجيات وأدواتها، وبشكل مختصر للإشارة إلى أن الأنظمة السياسية العربية بجانبيها المحافظ، والتقدمي قد استنفدت جهدها، وطاقتها في الداخل، ولم توفر التحرك في الخارج، وما تركت هذه الصراعات من آثار جانبية على شعوب المنطقة وتأخير نموها، وجعلت هذه الصراعات التي استهلكت القوى الذاتية للأقطار العربية، أرضاً خصبة للاختراقات الخارجية، وكذلك ساحة الصراعات الدولية.

كان الهدف الإستراتيجي والمعلن، حيناً، والمسكوت عنه أحياناً لدى طرفي الصراع هو التغيير، أي رغبة كل طرف القضاء على الطرف الآخر، وفي اقل تقدير تحجيم سلطته ونفوذه إقليمياً وبتعبير آخر، أخذ الصراع بين القيادات السياسية العربية شكل: إدارة التغيير، وكان الصراع، وأدواته هما الأسلوبان المتبعان للتغير.

إن الأساليب التي اتبعت، من حيث الشكل كانت أساليب تتسق إلى حد ما وأساليب الصراع التي عرضتها مختلف الدول، والأنظمة الأخرى في العالم، وفي الصراعات العالمية وتكاد تقترب شكلاً، ونقول (شكلاً) من الأسلوب العلمي، وكما ذكر صاحب الدراسة، أي استخدام الأدوات والمنجزات العلمية، لمضامين أو لقضايا لا تتسق والأسلوب الصراعي العقلاني، بمعنى آخر أن القضايا الصراعية بين هذه الأنظمة لم تكن قضايا متعلقة بالأمن القومي ولا بالأمن الوطني، ولا بالدفاع عن الأرض ضد التغلغل الخارجي، ولا ضد المحاولات الأجنبية والاستعمارية أو الاستيطانية مثلاً بل من أجل قضايا اصطنعتها هذه الأنظمة للدفاع عن نفسها كأنظمة.

لقد لجأت الأنظمة على:

1- **الأداة الدعائية في الهجوم السياسي القيادي**، أو دون القيادي من خلال وسائل الاتصال التي كانت متداولة في تلك المرحلة كالإذاعة والصحافة، وغيرها، للاستقطاب الإيديولوجي، سنوات المد القومي، أو آخر الخمسينيات وطول فترة الستينيات من القرن الماضي، وهذه الأداة المستخدمة أو التي استخدمها كانت متأثرة بأساليب والأدوات الدعائية في العلاقات الدولية، إنها صراعات (كلامية)، وصلت إلى حد الإيذاء اللفظي، وهذه النقطة الأخيرة والتي تعني المضمون هنا، وقد تعدت النقد العلمي والعقلاني اللذين تستخدمها أطراف الصراع المعقول.

2- **الأداة والأسلوب الدبلومسيين في إدارة الصراع**:

تعني ممارسة الصراع بالأسلوب السياسي أو الدبلوماسيالتركيز على ، الصراع السياسي،وهوامر مشروع ووارد بين الدول الشقيقة .او الصديقة .او المتناحرة . ولقد أخذ هذا العداء طابعاً ثنائيا ضديا) من قبيل: عدم الاعتراف من أحد الأطراف بالطرف للآخر، أو قطع العلاقات الدبلوماسية، أو طرد الدبلوماسيين من قبل الطرفين أو حجزهم أو استدعائهم للتشاور، أو اللجوء إلى طرق الاحتجاج الثنائي، لدى الجامعة العربية، والمنظمات الدولية، تقديم الشكاوى إلى المنظمات العالمية.

ولقد لاحظت الدراسة الاستطلاعية المذكورة أن أعمال العداء الدبلوماسي كان لها الغلبة كذلك لفتت الدراسة الانتباه إلى أن أقل نسبة كانت تقدم فيها الشكاوى، كانت إلى الجامعة العربية، بينما كان من المفروض أن يكون للجامعة وهي الإطار الأكثر جدارة لإدارة الصراعات بين الأنظمة، ولكن الدراسة عزت عدم اللجوء هذا إلى ضعف ثقة الأطراف المتصارعة بهذه المنظمة أو إلى عدم رضا الأطراف المتصارعة عن ميزان القوى الموجودة داخل المنظمة العربية[829].

3- **التخريب السياسي**:

كانت أهم القضايا كما ذكرنا سابقاً، والتي كانت محور الصراعات العربية – العربية على مستوى القيادات السياسية هي، المتعلقة بالنظم السياسية القائمة، والتي كانت

متناقضة متضادة في بنيتها، والتخريب السياسي يقوم في الأصل على إحداث تخريب أو ضرر، أو المساس المباشر بالاستقرار السياسي لدولة من الدول الداخلة في الصراع، أو العمل على إيذاء العناصر السيادية من قبل أحد أطراف الصراع في الأطراف الأخرى، كاستئجار، أو تكليف عناصر معينة للقيام بعمليات التخريب.

4- الأسلوب المباشر، والمواجهة المسلحة:

يتعلق هذا الأسلوب بتوتر العلاقات الصراعية وتأجيجها، وبازدياد حدتها، وشدة غليانها، والواقع عملت الأنظمة السياسية على الحفاظ على الحد من استخدام هذا الأسلوب في إدارة الصراع، وكان هذا الأسلوب في الواقع يحتل غالباً درجة ثانوية، وكانت الأطراف المتصارعة تكتفي بالمناوشات الحدودية ولم تصل إلى حرب شاملة فيما بينها[830].

ولقد لجأت الأنظمة السياسية إلى هذه الأداة في مرحلة المد القومي، حيث ظن القائمون على إدارة الصراع أن العنف العسكري قد يكون أداة للتغيير، وقد ظهر ذلك في منتصف الستينيات من القرن الماضي، في الدفاع عن (الثورة اليمنية)، وكانت حالة وحيدة.

5- أسلوب العمل الاقتصادي في إدارة الصراع:

جاءت هذه الوسيلة في آخر القائمة من الوسائل التي استخدمت في الصراعات العربية، وقد مثلت نسبة ضئيلة، نظراً لكون القضايا الاقتصادية هي الأضعف في تسبب الصراعات وكونها من ناحية أخرى علاقات ضعيفة بين الأقطار العربية، ذلك أن العلاقات التجارية مثلاً بين الأقطار العربية ليست بالقوة، والحدة، لدرجة أن اللعب في هذه الورقة تكون قوية، وبدا من الصعوبة بمكان أن تكون أداة فعالة أو تكون عقاباً، وقد كانت هذه الأداة ضعيفة الاستخدام، ولكن تغيراً حصل في تلك الفترة، وهو أن العامل الاقتصادي أصبح أداة قوية بعد ارتفاعات أسعار النفط، خاصة في سبعينيات القرن الماضي.

ويمكن أن نضيف قائلين أن هذا العامل كان بيد الأطراف النفطية في الصراعات العربية – العربية، إذا أنها أخذت تلجأ إلى العقاب الاقتصادي، من قبيل الامتناع عن مساعدة الدول التقدمية، وطرد العمالة العربية المتواجدة على أراضيها بهدف التأثير على الأنظمة السياسية العربية المواجهة، وإلغاء عقود العمل...الخ.

نظرة أخيرة في تسوية الصراعات ومجموعة من آليات التسوية:

إن للصراع، مهما تكن طبيعة مخاطره المزعجة أو الخطيرة، وعندما يصبح المجد الشخصي أو نصر الأيدلوجية، أو بهدف لتثبيت النظام السياسي، يصبح الصراع في هذه الحال أكثر مرارة، ومأساوية، وأكثر صعوبة في التسوية، وإذا كان منطلق الصراع هو الرقص على حبل مشدود، أحد أطرافه الربح والثاني الخسارة في هذه الحال إذا كانت القوى متكافئة فإن التسوية تدخل في حلقة مفرغة.

لقد وضعنا كلمة (تسوية) وفي العنوان أعلاه لم نذكر كلمة (حل) رغم إن التوصل إلى حل في الصراع عادة هو المطلوب، لكن في حالة الصراعات العربية، وربما في كثير من حالات الصراعات الأخرى يقلب الهدف من تحقيق نوع الحل والحسم إلى تسوية ما، والاتفاق على وقف الصراع، وعدم اللجوء إلى استفحاله، وشدته أو تعقده، وقد رأى الدكتور (أحمد يوسف أحمد) في كتابه الآنف الذكر إن الصراعات العربية – العربية لم تعرف حلولاً، بمعنى إزالة التعارض بين أطراف الصراع وإنما عرفت آليات للتهدئة، التسوية بمعنى وقف التصعيد وإيجاد صيغ توفيقية مؤقتة لاحتوائها.

ثم إن عملية حل الصراعات أو تسويتها تتم في كثير من الأحيان بعيداً عن متناول الباحثين العلميين، وتظل في إطار من السرية نظراً لحساسية الموقف أو القضية موضع الصراع، بحيث أن الباحث لا يملك في هذه الحالة المعلومات الكافية للتحليل المتعمق لعملية حل الصراعات أو تسويتها وفي كثير من الأحيان تتوقف الصراعات في لحظة ما، بناء على قرار الحاكم أو الزعيم أو الملك، لأسباب لا أحد يدرك كنهها، سوى صاحب القرار نفسه ولقد لعبت الجامعة العربية، باعتبارها المنظمة العربية الوحيدة التي تعني بشؤون، وقضايا الأقطار العربية العامة، ومشكلاتها الصراعية البينية، دوراً معقولاً في تسوية بعضها.

لقد ذكر الدكتور (بطرس غالي) في دراسة عن الجامعة العربية، وتسوية المنازعات المحلية نشرت عام 1977 قائلاً: أن كثيراً من المنازعات العربية التي لم تعرض في أبعادها عن الملأ، قد تمت تسويتها منذ نشوئها، ولا نعرف بالضبط كيف تمت التسوية وتحقق النجاح، هذا بالإضافة إلى أن الذين قاموا بالأدوار الرئيسة لتسوية الصراع لم

يتركوا لنا مذكراتهم، لإضاءة السبيل أمام الباحثين زد على ذلك أن القيادات السياسية العربية من النادر أن تكتب مذكراتها وتنشرها.

ومع ذلك فإننا، والمؤلف نحاول أن نقدم نظرة (استكشافية)، للموضوع عسى أن توفر لنا فروضاً أولية[831].

ويمكن تصنيف الآليات التي اتبعت في تسوية، أو تهدئة الصراعات العربية في تسع آليات هي:

الأولى: أن يقوم بلد عربي ما، بمبادرة في هذا الصدد، وقد كان هذا البلد (مصر) في فترة اضطلاعها بالدور القيادي، وقد جاءت هذه المبادرة شاملة (دعوة الرئيس الراحل جمال عبد الناصر لتنقية الأجواء العربية)، كانوا الأولى، ديسمبر 1963، أو دعوته لمؤتمر قمة من أجل موضوع قومي مهم كالصراع بين المقاومة الفلسطينية، والحكومة الأردنية – سبتمبر 1970، وتتم عادة مثل هذه المبادرات مستقلة المناخ العربي المواتي لهذه المبادرة.

الثانية : التوصل إلى اتفاق ثنائي بين طرفي الصراع تتم بموجبه التسوية، أو التهدئة وتتضمن هذه الآلية المفاوضات كأداة من أدوات لتسوية الصراع الدولي.

الثالثة: تتضمن استخدام الإكراه الصريح أو الضمني، مثل احتجاز دولة لمواطنين تابعين للطرف الآخر لإجبار الأخير على إطلاق سراح المواطنين، تابعين للطرف الأول، أو اللجوء إلى استخدام السلاح، أو التهديد باستخدامه.

الرابعة: تشير إلى حدوث تغيير في نظام الحكم لدى الخصم، والمقصد بذلك حدوث تحول داخلي لدى أحد طرفي الصراع، حيث يترتب على ذلك حدوث تهدئة.

الخامسة: تقوم على وساطة قطر عربي محايد بين طرفي الصراع، وحاصل على ثقتها معاً من أجل التوصل إلى تهدئة.

السادس: حالات من التهدئة حصلت نتيجة تغير إقليمي، ونقصد بذلك حدوث تغير في الظروف داخل الوطن العربي جزئياً، أو كلياً، مثلاً عندما وقع الخلاف بين الجمهورية العربية المتحدة، والعراق 1958 واتسعت شقته عام 1959، فاتجهت الأولى إلى التهدئة مع الأردن.

وكذلك عندما ظهرت بؤرة الصراع في المغرب العربي 1963، إضافة إلى الصراع حول الثورة اليمنية 1962، حيث اتجهت (مصر) التي شاركت في كلا الصراعين، إلى سياسية التهدئة.

السابعة، والتاسعة: تشيران إلى أن نجاح الجامعة العربية، أو منظمة الوحدة الإفريقية في التوصل إلى تهدئة لصراع ما، أو تسويته.

أما الآلية الثامنة: فتتعلق بوجود خطر خارجي يؤدي التحسب له، أو التخطيط لمواجهته، إلى تهدئة الصراعات العربية – العربية، أو تسويتها وقد كان هذا الخطر عادة هو: الخطر الصهيوني(832).

وفي نهاية هذا الفصل، حبذا لو نناقش بعض نتائج التحليل التي توصل إليها الباحث في دراسته الاستطلاعية، المذكورة نضيف إليها ملاحظاتنا، للتوصل إلى رؤية مشتركة.

يقول الباحث، أن حدوث تغير في نظام الحكم لدى الخصم، والذي يساعد في تسوية هذا الصراع، أو ذلك، ثبت أن في كثير من الأحيان لا يحدث سوى تهدئة، أو تسوية مؤقتة سرعان ما ينفجر بعد فترة من جديد، كما يتضح على سبيل المثال من التدهور الحاد في العلاقات بين كل من (العراق، وسورية) من جانب، والجمهورية العربية المتحدة من جانب آخر بعد أقل من ثلاثة أشهر من التحسن الذي سجل في شباط/فبراير وآذار/مارس 1963 على التوالي.

بل إنه من منظور شامل، وبالنظر إلى تعدد أطراف الصراعات العربية – العربية، فإن تغير نظام الحكم لدى الخصم، وإن كان يؤدي إلى تهدئة مؤقتة للتفاعلات الصراعية مع نظام آخر لكنه عادة ما يفضي في الوقت نفسه إلى بداية تفاعلات صراعية جديدة مع حلفاء النظام القديم.

وتجدد الإشارة في النهاية إلى أن التغير في نظم الحكم العربية باعتباره إحدى آليات التهدئة أو التسوية، أفضى ذلك إلى ملاحظة حول تطوير الأهمية بالنسبة لهذه الآلية عبر الزمن أو يمكننا القول أن إمكانية التوصل إلى التهدئة عن طريق تغير نظام الحكم ومن ثم العودة إلى تجدد الصراع، أن هذا التغير عادة يصيب العناصر القيادية التي هي عناصر

الصراع، ولكن ذلك لا يغير الأيدلوجية السائدة، فإذا تغيرت بعض العناصر، وظلت توجهات النظام، الأيدلوجية سواء كانت توجهات لدى النظام المحافظ، أو التقدمي، فإن أيديولوجية النظام تظل هي، وتظل معها طبيعية الخلافات السياسية قائمة (فترة الاستقطاب الأيديولوجي في ستينيات القرن الماضي) كذلك فإن الإدارات السياسية للوصول إلى التهدئة، لم تكن إدارات قاصدة حقاً للتوصل إلى التهدئة ورغم وصول هذه الإدارة مؤقتاً إلى التهدئة المؤقتة نتيجة ممارسة بعض الضغوط لقبولها بالتسوية، ولكنها تظل محتفظة بنوايا العودة إلى الصراع.

ومن الناحية الثالثة: هي فقدان الثقة بين أطراف الصراع.

والرابعة تتجلى في أن أطرافاً إقليمية أخرى، قد تكون مجاورة، أو حتى بعيدة جغرافياً ترى من مصلحتها استمرار الصراع بين بلدين متجاورين حيث نجد ذلك يساعد على توجيه أنظار شعوبها إلى الصراع الناشب (هناك) فتتفرغ هذه بدورها للقضاء على المعارضة، إن وجدت، أو إلهاء شعبها بالصراع الناشب.

وخامساً، مما يجدر ملاحظته أن عملية تهدئة الصراعات العربية، أو تسويتها من خلال آلية التغيير في نظم الحكم قد ازدهرت في فترات، الاستقطاب الأيديولوجي الحاد بين المعسكرين، فترة الستينات وانعكاسها على الصراعات العربية وعندما نشير إلى أن آلية التهدئة من خلال وساطة قطر عربي ثالث قد ازدهرت، فقد ازدهرت في الواقع في فترات (الانفراج) الأيديولوجية في النصف الأول من سبعينيات في القرن الماضي كذلك يمكن إضافة ملاحظة أخرى حول مسألة الاستقطاب الأيديولوجي أن هذا الاستقطاب في الأنظمة السياسية العربية غالباً ما يكون متعلقاً بقناعات خاصة بالحاكم أو السلطة الفردية وقناعات الجماعات الضاغط من حولهما.

وعندما تذهب هذه القيادات الفردية تذهب معها أفكارها (الأيديولوجية) ذلك أن تغير الأشخاص القائمين على رأس السلطة وبغض النظر عن رأي الشعوب التي أولت أمرها بالأساس إلى القائد حيث تفضل الشعوب عادة الوقوف محايدة في حال نشوب صراعات (أنظمة – سياسية) فإن طبيعة الصراع تتغير بتغير الأشخاص، وتوفر أشخاص آخرين يختلفون في نمط تفكيرهم وسلوكهم ومزاجهم السياسي، فالأنظمة كما نعرف

مرتبطة بأشخاص القيادة السياسية، وتنقسم على بعضها نتيجة تقاطع أو تضارب المصالح، ومصالح القوى الضاغطة، ثم يأتي الغطاء الأيديولوجي ليؤطر الصراعات، يرى الدكتور صاحب الدراسة أن تحليل القضايا الصراعية بين البلدان العربية قد أثبت خللاً واضحاً في أولويات الصراعات العربية – العربية، إن جاز التعبير، فالعرب يتصارعون أكثر كما يتصارعون حول نظمهم السياسية القطرية التي يفترض حينها أن تكون شأناً داخلياً، ويتصارعون ثانياً حول القضية الفلسطينية، ثم يعقب على ذلك قائلاً من المناسب أن نركز على دور النظم العربية الحاكمة، لأنها هي التي تعرف بالنهاية نغمة الصراعات العربية – العربية، وتستطيع أن تجعلها نغمة هادئة، أو صاخبة، ومتى تريد، متى تشاء، ولا شأن للشعوب في ذلك.

تنتهي دراسة الدكتور (أحمد يوسف أحمد) الاستطلاعية إلى القول أن سجل الجامعة العربية في تسوية المنازعات العربية، يوضح على وجه الإجمال أن الجامعة أكثر كفاءة من (الأمم المتحدة) في التعامل مع الصراعات العربية، إذ أنه ليس لدينا مثال واحد لنزاع عربي خالص تمت تسويته تماماً في إطار الأمم المتحدة، بينما لدينا العديد من الأمثلة التي تم التوصل فيها إلى تسوية النزاعات، في إطار الجامعة العربية دون تدخل من الأمم المتحدة وهذا النمط يعكس قدرة الجامعة العربية على توفير نوع من الاتفاق العام، بين الأعضاء حول قضايا الأساسية وحساسيتها إزاء التدخل الأجنبي في قضاياهم[834].

إن تعليقنا على مقالة الباحث تقتصر بالقول إن ازدهار آلية (الوساطة) **Mediation** أو التوسط لدى أطراف الصراعات العربية، وتدخل طرف ثالث محايد تأتي هذه الآلية في صلب عملية إدارة التسوية في الصراعات، وهي نابعة من الأصول الشرعية الإسلامية في النص القرآني، وطبقاً للآية القرآنية {وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلا}[الحجرات: 9].

ومن ناحية ثانية أن قبول أطراف الصراع بتوسط الجامعة يؤكد عدم رغبة أطراف الصراعات العربية تدخل (الأجنبي) في عقد المصالحات بين أطراف الصراع وهذه هي ترجمة لما نعتقده من الخصوصية العربية للصراعات، وكون هذه الخصوصية العربية تتداخل فيها (العوامل الخاصة) والعوامل التاريخية المؤثرات التاريخية –الجانبية ، ويتم التركيز لدى الوساطة غالباً على العوامل الخاصة التي أشرنا إليها في فصلنا (الرابع)، سيما

وأن الصـراعات العربيـة -- العربيـة تـدخل فـي نشـوئها وتطورهـا، عناصـر ذات خلفيـات تاريخيـة،(المؤثرات الجانبيـة) خارجـة عـن التحليـل العلمـي فـي إدارة الصـراع، ولا تخضـع إدارتها للتخطيط العلمي، وآلياته والتي توجه عادة المنظمات العالمية في النظر إلى إدارة الصراع، أو التسوية أو الحل، وهذه الخلفيات ذات الجذور التاريخية تدركها الوساطات العربية، وتعمل على استثمارها إيجابياً للتوصل إلى التهدئة والتسوية.

الفصل الثاني والعشرون
تجليات إدارة الصراع في بعض – عيّنة ـ الحالات الصراعية

الحالة رقم (1) 1948 اغتصاب فلسطين:

لماذا أقول (اغتصاب)؟

بداية، كمواطن، وكفرد من أفراد الأمة، وكواحد من أطراف الصراع والقاطن في إحدى الدول المتاخمة لفلسطين، وكطفل في الخامسة من عمره شاهد اللاجئين الفلسطينيين ينزحون من فلسطين هاربين من القتل واللجوء ممسكين بمفاتيح بيوتهم العتيقة والاحتماء في المساجد ليجدوا لهم مأوى بعد أن شردتهم (الهاجانا) اليهودية لا أستطيع، وللأمانة الكتابية أن أكون محايداً، لذلك قلت اغتصاباً ولم أقل ، دولة إسرائيل ، التي حلت محل شعب دفع ولازال يدفع منذ أكثر من ستين عاماً من التضحيات، وقدم الكثير من دماء أطفالة، ونسائه وشيوخه وشبابه وهم في ريعان الصبا، ومازالت هذه المأساة رابضة على الجسم العربي، والإسلامي[835].

عندما أطلق وزير الخارجية البريطاني وعده المشؤوم 1917، كان يتصور، وهو الناطق باسم الدبلوماسية البريطانية، أن بريطانيا لها كامل الحقوق التي منحتها لنفسها دون غيرها ولم يمنحها أحد هذه الحقوق، التصرف بمستعمراتها كما تشاء وبغض النظر عن واقع، وإرادة ورغبة شعوب هذه المستعمرات.

وكانت فلسطين في حينها واقعة تحت الانتداب البريطاني المباشر، وقد تصرفت بريطانيا في حينها تبعاً لنظرية: الحق والقوة، حيث أملت عليها قوتها هذا الحق، وبناء عليه فقد عملت على منح أراضي، وأوطان لمن وجدت في نظرها يستحق ذلك.

ومن ناحية ثانية كان الوعد المذكور حلاً لما أطلق عليه الغرب منذ العصر النابليوني في (فرنسا)، وفيما بعد في (ألمانيا) وبقية الدول الأوروبية (المسألة اليهودية) A question juive ومن هنا ،يمكن اعتبار ان صناعة اسرائيل، هى فى الاصل مسالة اوروبية ، و لقد جاء(الوعد)تلبية لمطالب يهودية أوجدت لها غطاء دينياً من كتاب

مقدس لا نعرف من صنعة، ولمؤتمرات يهودية صاخبة عقدت بين الحين والآخر في أصقاع أوروبا 1896 – تيودور هرتزل (Theodor Herzel) في (سويسرا)، وغيره في (الولايات المتحدة) و(فرنسا) هذه القوى العالمية، التي كانت مركز للقرار الدولي.

لقد جاء كتاب (هرتزل)، والذي نشرته الصحافة الغربية آنذاك تعريف الكيان اليهودي المرتقب في مقدمة للدولة اليهودية (Introduction to: Juden Staat).

أولاً: إن سياق مقالة هرتزل هو التالي:

أتاحت النازية في (ألمانيا) إبان الحرب العالمية الثانية، المجال واسعاً لهجرة اليهود من أوروبا إلى فلسطين، وخاصة من أوروبا الشرقية، وقد جاء بيان هرتزل هذا على خلفية القبض على كابتن اليهودي (دريفيز الفرد) Alfred Dreyfus الذي اتهمته الإدارة الفرنسية بالتجسس لصالح ألمانيا، وفي حينها تطورت النزعة اللاسامية في أوروبا، فجاء جواب هرتزل بإنشاء دولة اليهود في مكان ما في العالم، وقد اقترح أن تكون هذه الدولة في فلسطين، أو الأرجنتين، أو إحدى الدول الأفريقية[836] والواقع إن مجموعة من الأسباب، في رأينا تكمن وراء الإستراتيجية الغربية لاغتصاب فلسطين وزرع الكيان فيها:

1– القاعدة النظرية والعملية لهذه الإستراتيجية: امتلاك الغرب صاحب القرار الدولي القوة كأداة فعالة لتحقيق الهدف الإستراتيجية.

2– وضع فلسطين كبلد خاضع للانتداب البريطاني، وموضوع في دائرة المستعمرات البريطانية وتحت رقابة مباشرة للقوة البريطانية، وقد بدأت الهجرة واستمرت فترات أحياناً بكثافة شديدة وأحياناً تتوقف حسب ما كانت تراه المصلحة البريطانية حينذاك، كل ذلك سهل عملية زراعة هذه الدولة.

3– المطالب اليهودية، وقد شكلت الخلفية (المظلة الدينية)[837].

4– وضع فلسطين تحت تصرف المظلة الصهيونية الدينية لتكون قاعدة للغرب لتحقيق مصالحه في الوطن العربي واستنزاف موارده، وإدارة أزمات وصراعات الوطن العربي انطلاقاً من هذه القاعدة، وبالتالي يعمل الغرب على إيقاف عملية التنمية، في الوطن العربي وتكون أخيراً مخلب قط، لكل غزو محتمل ضد أية حركة مضادة لمصالح

الغرب في الشرق الأوسط، وقد كانت إسرائيل مخلب قط مثلاً في العدوان الثلاثي على مصر 1956.

صراع (حرب) 1948 والإدارة العربية لهذا الصراع:

صدر قرار بريطانيا بالانسحاب من فلسطين في 14 مايو/أيار 1948، وأعلن (بن غوريون) في اليوم ذاته ولادة الدولة الإسرائيلية، وقد سمى هذا الحدث الاغتصابي، بعيد الاستقلال بالنسبة لإسرائيل.

دخلت الجيوش العربية لمواجهة القوات الإسرائيلية تتزعمها مجموعه من العصابات المسلحة تدعى (بالهاغانا)، فهزمت الجيوش التي وصلتها وتراجعت[838] ووقعت الهدنة بين العرب والدولة الناشئة 1949 وصدر قرار تقسيم فلسطين لعام 1947 رفضه العرب لأنه يعطي الحق لعملية الاغتصاب التي تمت، وفي أضعف الحالات فهو يقر بشرعية دولية ومنح 87% من الأراضي الفلسطينية لليهود.

كيف واجهت الشعوب العربية هذه النكبة؟

واجهت الشعوب العربية والإسلامية على طريقتها الخاصة والمختلفة عن طريق مواجهة القيادات السياسية، وقد اتخذت المواقف التالية:

1- موقف القيادات العربية السياسية المعنية مباشرة بالصراع، هو موقف المقاوم، ولكن إدارة المقاومة كان يشوبها الكثير من الخلل ماديا، ومعنوياً، فاندحرت جيوشها وعادت منكفئة تجر أذيال الخيبة.

2- الموقف العربي - القومي - عبر عن نفسه بالغضب وعمل على تكوين جماعات متطوعة، للذهاب إلى المعركة خاصة في مصر وسورية، وكانت الأدوات التي تدير الصراع بواسطتها، انهالت التبرعات المادية، هذا وبالإضافة إلى المظاهرات والاحتجاجات الغاضبة.

3- الموقف الإسلامي، عبر عن نفسه أيضاً بالرفض والمقاومة التي أرادت المشاركة وفي كثير من الدول الإسلامية.

لقد كان من آثار هذه النكبة أن تغيرت الأنظمة السياسية العربية في دول الجوار الفلسطيني في سورية انقلاب 1949 في الأردن مقتل الملك عبد الله 1951 ثورة 23 يوليو في مصر 1953 وأخيراً تغير النظام الملكي في العراق 1959 وكان الأمر في المغرب العربي بالإضافة إلى الاحتجاجات الشعبية أن قويت مقاومة الاستعمار الفرنسي.

دفع الغرب من جراء عمليته الإستراتيجية هذه، القوى الإسلامية إلى الظهور على الساحة العالمية وقويت الحركات الإسلامية، المناوئة للسياسة الإمبريالية.

والخلاصة: لقد تمحورت إدارة الصراع العربي الإسرائيلي 1949 حول ثلاثة أنماط من الإدارة هي:

على مستوى القيادات السياسية:

1- كانت الروح الانقسامية سائدة في القوى العربية التي واجهت القوى الإسرائيلية، وكذلك لم يكن للقيادات السياسية العربية موقف موحد ولا خطة مشتركة هذا بالإضافة لافتقارها للوسائل اللازمة لإدارة الصراع.

على المستوى الشعبي:

2- كانت إدارة الصراع لدى الشعوب العربية، وخاصة في الدول المتاخمة، لفلسطين هي في المواجهة، وبالإمكانيات التي كانت متاحة لها، غير عابئة بالقيادات السياسية القائمة، ولا بالوصفية العامة لهذه الدول من حيث عدم توفر الاستقلال الكامل لها، أو عدم استقلالية القرار في قيادتها.

3- ومن ناحية الموقف الإسلامي، فقد كانت الحركات الإسلامية المتواجدة حينذاك كالإخوان المسلمين رائدة في النداء للتطوع لمحاربة (قتلة الأنبياء) وتحركت المقاومة الإسلامية حسب المبدأ الجهادي في الإسلام.

إذن لقد كان الخلل واضحاً في إدارة الصراع العربي الإسرائيلي 1948 في مستوياته المختلفة وكان الشرخ قائماً بين القيادات السياسية، والقوى الشعبية، وكان المحرك الأساسي للقوة الشعبية هو: فطرة المقاومة منطلقة من مبدأ الحق المشروع في الدفاع عن الذات ذلك أن الشعوب أحست بالخطر الصهيوني فقدمت التضحيات بقدر المستطاع.

4- والواقع كان الشعور العام في الوطن العربي بأن الجامعة العربية فشلت في إدارة هذا الصراع لم تقم بمسؤولياتها، ولكن هل كانت الجامعة قوة مستقلة، وقائمة فوق كل الأوضاع العربية، وتملك القوة على تحويل العجز العربي إلى إدارة غالبة[879] فضلاً عن العمر الزمن القصير نسبياً لتأسيس الجامعة العربية حيث تأسست 1945 ولم يمضى على تأسيسها ثلاث سنوات كما نلاحظ.

الحالة رقم (2) إدارة صراع السويس:

قرار المواجهة إذا حصل العدوان من جراء تأميم قناة السويس.

تركت نكبة فلسطين، وهزيمة الجيوش العربية 1948 جرحاً عميقاً لدى الشعوب العربية ولدى الفئات المتنورة في القيادات العسكرية خاصة، وكانت آثار هذه الهزيمة قد انعكست على أفكار وإيديولوجية ثورة يوليو في مصر 1952، ولدى مجموعة الضباط الأحرار، ولقد قامت الثورة كما عرضنا، وتغيرت الموازين في الشرق العربي إثر هذه الثورة لقد غضب الغرب وخاصة القوتين العظميين في تلك المرحلة وهما: بريطانيا، وفرنسا، وبدأتا تعدان العدة لمواجهة هذا التغير في المنطقة للحفاظ على مصالحه الاقتصادية، والسياسية وبالتالي الاستمرار في تقديم الدعم للدولة الإسرائيلية لتقوم بدورها كطرف أو كضلع مهم في المثلث: فرنسا، وبريطانيا، وإسرائيل.

عملت الثورة المصرية، وطبقاً لأهدافها الوطنية والقومية[840] على مواجهة القوى الخارجية التي أرادت أن تلجم هذه الطموحات، حيث وجدت أنها ستؤثر على المدى المتوسط والبعيد على مصالحها.

فرأت القيادة المصرية أن تخطو خطوة جادة في تحقيق أهداف الثورة الوطنية ألا وهي اتخاذ إجراء متعلق بوضع قناة السويس، لتصبح شركة مصرية وطنية خالصة، تعود بفوائدها إلى الخزينة المصرية.

فكرت هذه القيادة إن عملية استرجاع القناة يحتاج إلى وعي وإدارة كاملين وحساب احتمالات وردود الفعل البريطانية، ومضاعفات القرار، واحتمالات المواجهة المباشرة مع الحكومة البريطانية ذاتها.

وكـان الـدور المركـزي فـي صـناعة القـرار كمـا عرفنـا لشخصـية الـرئيس الراحـل (جمال عبد الناصر) وهو دور القائد الذي يلعبه عادة القائد في الأنظمة السياسية الفردية عموماً وفي الأقطار العربية، وفيما يتعلق بقرار التأمين فقد أعلنه الرئيس المذكور في (26 يوليو 1956)، وكان دور جمال عبد الناصر رئيسياً[841].

لقد أعد الرئيس، ومن حوله القيادة المصرية العدة لإدارة صراع محتمل مع الشركة البريطانيـة التـي سترفض حتمـاً التأميم خاصـة أن موعـد انتهـاء العقـد لـم يحـن بعـد إذ أن العمل بالاتفاقية سيتوقف كما هو منصوص في الاتفاق عام 1968.

يقول (محمد حسنين هيكل)، كان لعبد الناصر جملة التقديرات للمواقف الدولية إزاء قرار تأميم القناة، ووجد أن الجو العالمي يسمح له بأن يستغله ويستفيد منه (842).

كـان مـن ضـمن آليـات القـرار المتخـذ، النظـر فـي المخـاطر الخارجيـة المترتبـة علـى التأميم ومن هـذه الناحيـة فلقـد علمـت أجهـزة الأمـن المصـرية، وقبـل الإعـلان عـن التـأميم بثلاثة أيام استعدادات بريطانية وفرنسية لعمل شيء ما، وتوقعت القيادة هجوماً عسكرياً مشتركاً تقوم به فرنسا، وبريطانيا وإسرائيل[843].

أعلن القرار بخطاب مشهور ألقاه ا لرئيس الراحل، واعتبر هـذا القرار المعلـن أهـم خمسة قرارات اتخذت في النصف الثاني من القرن العشرين، متحدياً المصالح الغربية في المنطقـة العربيـة وفـي أكتـوبر مـن العـام نفسـه حشـدت القـوات الفرنسـية والبريطانيـة والإسرائيلية وقامت بالهجوم.

المواجهة وإدارة الصراع العسكري والسياسي والشعبي:

كانت المواجهة غير متكافئة بين القوة المصرية والقوى الثلاث وكان تحقيق النجاح العسكري صعباً بالنسبة للقوات المصرية.

المواجهة السياسية: تجسدت النتائج السياسية الباهرة من خلال المواجهة أولاً بقـرار الانسـحاب للقـوى الـثلاث، وتـم الانسـحاب فـي 23/ديسـمبر 1956 وثانيـاً علـى الصعيد الوطني المصري، ظهرت الشخصية القيادية لعبد الناصر.

وكذلك تجلت القيادة الكاريزمية لشخصية القائد، وتجسد بذلك، استعداده قبول الشعب العربي للرجل القائد (العظيم) وثالثاً، على الصعيد الإقليمي استطاع (عبد الناصر) بخطبته النارية، حشد الجماهير العربية لتأييده وقد حصل على ذلك وباركت جميع القيادات السياسية العربية الوطنية حينذاك.

كانت النتيجة الأخيرة، على الصعيد القومي، بوادر حقيقية في المقاومة، والدفاع عن النفس بكل الإمكانيات المتاحة، عند العرب عموماً وبداية المد القومي وكانت نتيجة إدارة الصراع السياسية مبهرة سياسياً – قطرياً وعربياً.

يقول (هيكل): كان فوران المشاعر العربية من المحيط إلى الخليج متدفقاً، كما كان في القاهرة، ولم تكن الحماسة حالة عاطفية فحسب، وإنما برزت معها، وعلى نحو لا يقبل الشك إرادة أمة أحست أنها صانت كرامتها وحققت إرادتها والواقع كان عبد الناصر في مجمل خطاباته يعزف على نغمة محببه لدى الشعوب العربية وهي الإعلاء من قيمتين جوهريتين هما: العزة والكرامة.

والخلاصة: لقد كانت نتيجة إدارة الصراع من الناحية العسكرية متواضعة، انعكست بكل شرف وكبرياء في المقاومة، والدفاع عن النفس، والأرض بكل الإمكانات المتاحة، ولكن النجاح كان ممتازاً في إدارة الصراع سياسياً.

ومن الآثار الجانبية (التداعيات)التى نتجت عن هذا الصراع، الإطاحة بالنفوذين الفرنسي والبريطاني في المنطقة وبداية من (مصر) وكذلك بداية ظهور القوة الأمريكية، بعد النصر الحاسم التي حققته في الحرب العالمية الثانية (1939 – 1945)، وقد جاءت هذه الفرصة لإبراز قوتها، وإبراز موقف متميز إزاء قضايا المنطقة.

زد على ذلك أن أمريكا كانت قد شرعت باتباع سياسة خارجية وضعت خطوطها العريضة وثيقة الأمن القومي الأمريكي رقم 2/47 في 17 أكتوبر 1949، حيث كانت قد شكلت الأساس أو المبادرة العامة للسياسة الأمريكية في العالم العربي، والشرق الأوسط عموماً، تطبيق المبادئ حددت بحدود العام 1955 ونصت على أن تكون أمريكا شريكاً[846] في إدارة الصراع العربي الإسرائيلي تعمل على تحقيق السلام، حسب ما تراه، وتعمل على إدماج المنطقة في دائرة إستراتيجية شاملة سياسية، لتطويق طموحات

وبدايات تفكير (الاتحاد السوفيتي) النفوذ في المنطقة، وأيضاً تحل الولايات المتحدة الأمريكية محل الإمبراطوريتين الفرنسية والبريطانية اللتين أصابهما العجز واضطرتا إلى الانسحاب كقوتين عالميتين من المسرح العالمي إثر هزيمة السويس.

وفي أعقاب حرب السويس وبداية الزحف الأمريكي نحو المنطقة، أخذت الولايات المتحدة، بملفات المنطقة، وبدأت تديرها من منظور أمريكي أولاً وراعية لمصالح أصدقائها في المنطقة.

الحالة (3) إدارة الصراع العربي الإسرائيلي لعام 1967

نبذة عن السياق الدولي لهزيمة حزيران 1967

ما بين (1945 – 1965) ومن تداعيات الحرب العالمية الثانية وسخونة الحرب الباردة، إذا صح التعبير، والصراع الإيديولوجي المفتوح بين القوتين العظيمتين، فإن ما توصلت إليه هاتان القوتان من خلال توازن الرعب بينهما هو: استحالة الصدام المباشر بينهما، وكاد الانفجار يحصل بينهما أثناء أزمة الصواريخ (الكوبية) كما ذكرنا سابقاً لكن أدرك كل منهما أن نقل الصراع بينهما عن طريق الطرف الثالث (وهنا مجموعة الدول النامية) هو الأفضل، فتوصل الكبار إلى نتيجة مفادها إشعال الحرائق في كل مكان في الدول التي كانت بمجموعات ما تسمى بدول العالم الثالث، من أهم هذه الدول مجموعة منطقة الشرق الأوسط، والعالم العربي على وجه الخصوص، نظراً لأهمية هذه المنطقة بالنسبة للقوتين كما ذكرنا سابقاً.

واقع الأنظمة والقيادات السياسية العربية:

أرادت إسرائيل تحقيق طموحات زعمائها التقليديين الذين كانوا يحلمون بالسيطرة الكاملة على كامل أراضي فلسطين، واستيعاب العدد الأعظم من يهود العالم على هذه الأرض، وبالتالي تصبح إسرائيل قوة بشرية بالإضافة لكونها قد أصبحت منذ نشوئها قوة عسكرية ومادية من خلال ما يغدق عليها من مساعدات، وتصبح نتيجة لذلك (ندا) لشركائها في الغرب تعمل لمصالحهم، ولكنها تريد أن تعمل لمصالحها أيضاً/ وهنالك عامل آخر، قد يكون قابعاً في اللاشعور الإسرائيلي لدى قيادات وأفراد لتحقيق إسرائيل

الكبرى، التي كان يحلم بها (الحاخامات) منذ عهود طويلة، وأخيراً هزيمة إسرائيل وتراجعها في حرب السويس حيث أرادت أن تتأثر منه.

أما بالنسبة للقيادات العربية، فقد كان أمرها غريباً فلقد أدركت بشكل ما، الخطر الإسرائيلي عليها أولاً، وكان عليها إيجاد صيغة توافقية توحيدية لقواها وبالسرعة اللازمة لمواجهة هذا الخطر وكان على شعوبها أن تتحرك لإجبارها توحيد القوى، ولكل كل ذلك لم يحصل.

فالقيادات لم تقدر الأبعاد والأخطار على دولها وعلى حاضر شعوبها، بل كانت مشغولة بإدارة صراعاتها كأنظمة، وبعيداً عن خطورة الموقف.

يقول (محمد حسنين هيكل) في كتابه (الانفجار 1967) واجهت أمريكا العالم باحتكارها السلاح النووي، وقد لحق بها الاتحاد السوفييتي، ولم تكن النظم الحاكمة في العالم العربي قادرة على فهم ما يجري في العالم، وحولها، ولم تكن قادرة أيضاً على استيعاب دلالته، وكان خوف معظم هذه الأنظمة من شعوبها ومن بعضها لبعض لا يترك لها وقتاً للتفكير فيما هو أبعد من قراها، ومدنها المضطربة[847] وقد استمر وضع هذه الأنظمة، بل لقد عظم أكثر في النصف الثاني من ستينيات القرن الماضي، وقد اقتربت القوى الغربية، وإسرائيل في المقدمة، وفي هذه المرة كانت الولايات المتحدة الأمريكية بدلاً من فرنسا، وبريطانيا أيام حرب (السويس)، وتدفع إسرائيل نحو الحرب وقبل فترة وجيزة، عندما حصل اصطدام الجيش السوري والإسرائيلي، وأجهزت إسرائيل على إسقاط طائرة لسورية، وبدأ التوتر يتصاعد، فأدركت القيادات السياسية لدور الجوار لفلسطين خطورة الموقف، وكان الرئيس الراحل (جمال عبد الناصر) والمشير (عبد الحكيم عامر) مدركين تماماً خطورة الوضع، وجديته ولكن جاء كل ذلك متأخراً عن أوانه، ومع ذلك أصدر الرئيس عبد الناصر قراراً بسحب القوات الدولية من (سيناء) وإغلاق مضايق (تيران) وخليج العقبة وتم استعراض للقوة العسكرية في شوارع القاهرة، قبيل اندلاع الحرب بأيام.

وجدت إسرائيل الفرصة سانحة تماماً للقيام بمغامرتها، فما بين الساعة الثامنة صباحاً والحادية عشر والنصف قبيل الظهر من يوم الاثنين في الخامس من يونيو/حزيران 1967

كانت المرحلة قد بدأت وانتهت بهزيمة مؤلمة لمصر وللأمة العربية[848] وتم إلحاق الهزيمة بثلاث جيوش عربية واحتلت إسرائيل كل ما تبقى من أراضي فلسطين بالإضافة لسيناء والضفة وغزة بكاملها، ومرتفعات الجولان السورية، وهو ما لم تكن تحلم به القيادة الإسرائيلية بل لقد أعطتها الوقائع أكثر مما حلمت به.

لم يكن القيادات العربية السياسية من وقت ولا من فرصة ولا من مناخ يوفر لها الإعداد لإدارة مثل هذا الصراع، هذا بالإضافة إلى أن الرئيس الراحل (عبد الناصر) أدار هذا الصراع منفرداً، وكان الغرب الإمبريالي يتوقع هذه الهزيمة، وكان يهدف من وراء هذه الحرب أهدافاً كثيرة من أهمها:

إيقاف المد الشيوعي في المنطقة التي كانت الدول (التقدمية) في حينها تروج للإيديولوجية اليسارية (اليسارية اللينينية – والاشتراكية العلمية...).

وضع حد للصورة الكاريزمية التي وضعتها الشعوب العربية نصب عيونها من خلال انزلاق انفعالاتها، وهيمنتها، وتكثيف عواطفها الوطنية والقومية في شخص الرئيس الراحل (عبد الناصر).وتأثير العامل المذكور اعلاه وانجراف الشعوب العربية وراء طموحات عبدالناصر وانحيزه نحوالمعسكر المناوىء للغرب الرأسمالى وتأثير ذلك ،على مصالحه.

الاستفادة من ارتفاع أسعار النفط.

وضع حد لترويج القيادات السياسية العربية المتقدمة لصورة الإمبريالية المستعمرة ومحو هذه الصورة، وإظهارها في ثوب جديد.

إلى جانب هذه الأهداف العامة، هناك الأهداف الخاصة لإسرائيل، ذكرنا أهمها سابقاً.

انتقال إدارة الصراع مع إسرائيل من القيادات السياسية إلى الشعب والحركات الشعبية:

الواقع لقد برزت علامات ضعف في الحالة الشعبية سبقت صراع 1967 تركت كثيراً من الآثار الجانبية على الروح العامة للحياة الشعبية في (مصر) و(سورية) خاصة.

من هذه العوامل:

1- حل كافة التنظيمات السياسية الشيوعية، واعتقال الإخوان المسلمين 1965.

2- التضيق على الحريات العامة ومنع الأحزاب وكافة القوى السياسية المعارضة من أي ممارسة لنشاطها.

3- تأميم الأنشطة السياسية، بعد تأميم مصادر الحياة الاقتصادية.

4- اختزال العمل السياسي في حزب واحد.

5- حركة الانفصال بين مصر وسورية.

6- كانت الجبهة العربية على مستوى الوطن العربي عموماً مبعثرة وضعيفة.

7- رفض الأنظمة السياسية العربية التقليدية، الجري وراء القيادة الناصرية في إدارة الصراع(819).

8- كان عبد الناصر قد شتت قواه بين (اليمن) و(سيناء)، والمواجهات مع الأنظمة التقليدية.

كانت هذه أهم الأسباب المباشرة للهزيمة (67/ وهناك أسباب أعمق منها سنذكرها قعد قليل).

رد فعل الشعوب العربية:

وعت الشعوب العربية هذا الواقع وقررت بفطرتها، وعفويتها، نقل إدارة الصراع من القيادات السياسية إليها. وخاصة عندما أدركت أن إسرائيل قوة عدوانية استيطانية مستعمرة، قاعدة للإمبريالية ترفض الانسحاب من الأراضي التي احتلتها في الخامس من يونيو، فأخذ الفلسطينيون خاصة، على عاتقهم تشكيل حركاتهم، ومنظماتهم للمقاومة والتحرير، وبدأت بالأعمال الفدائية، وبمباركة الشعوب العربية، تجسدت أولى أعمالها في معركة الكرامة بين الحدود الأردنية، ودولة إسرائيل.

يرى الأستاذ (ماضي) أن أهم الجوانب اللافتة دخول الشعوب كطرف في إدارة الصراع بعد أن كانت تمنح ثقتها لأنظمة الحكم في إدارة الصراع، فأصبحت الشعوب

والحركات الشعبية هي التي تدير هذا الصراع الآن، سواء منه المسلح كحركات المقاومة (الجهاد، حماس، حزب الله وغيرهم) أو المقاومة المدنية كالمقاومة، ومقاومة التطبيع، ودعم الانتفاضة[850].

الفصل الثالث والعشرون
إدارة الصراعات الخارجية
مواقف، وتصورات، ووجهات نظر مختلفة لإدارة الصراع

أولاً: الحركات الإسلامية وتصوراتها لإدارة الصراع:

مقدمة: يرجع تاريخ المواجهة بين المنظمات والحركات الإسلامية والغرب في صورته السياسية (الاستعمارية إلى بداية منتصف القرن التاسع عشر، عندما شرعت التيارات الإسلامية بمواجهة التقلقل النابليوني 1798، وغزوته الشهيرة للوطن العربي مفتتحاً طموحاته الإمبراطورية بغزو (الشرق) مصر، والشام قادماً وغازياً، ومستعمراً، وباحثاً عن مجالات حيوية للتمدد الاقتصادي – وبالتالي حاملاً رغبة معرفية تجسدت في تجنيد بعض العلماء، والباحثين والمتهمين بالمصريات لفك أفكار، وبنية الحضارة الفرعونية، أخيراً فتح حوار، على طريقته مع شعوب الشرق ليأخذوا بمكتسبات ومنجزات حضارة الغرب.

أدرك شيوخ ورجال الإسلام في الساحة الأزهرية المصرية نوايا (الإمبراطور) ومن ورائهم الشارع الإسلامي، وانتابتهم رعشة الخوف على دينهم وشريعتهم، وتقاليد الأمة، وعقيدتها، وتراثها الحضاري من أن يذهب كل هذا مع رياح الغرب، لذلك عملوا منذ بداية الأمر على المقاومة، رغم أن (الإمبراطور) حاول استمالة رجال الأزهر، وإغراءهم بالعمل المشترك لصالح المنطقة ولصالح الإسلام، وقد تسمى أمامهم بلقب إسلامي: محمد.

وواقع الأمر لقد شملت هذه المواجهة ضد الغرب جميع الدول العربية الإسلامية منذ أن بدأت الحملات الاستعمارية العسكرية، بدءا (من مصر) ومع أن الحملات الاستعمارية في المغرب العربي، ثم الشام، وكذلك التغلغل الاستعماري البريطاني في آسيا، وأفريقيا.

في البداية لم يأخذ شكل المقاومة الإسلامية هذه شكل تنظيمات، أو أحزاب، بل كانت مقاومات طبيعية نابعة من الفطرة الإنسانية القائمة على مقاومة أي غزو أجنبي أو اعتداء، بحكم الدفاع عن النفس، أي بعبارة أخرى لقد كانت المقاومة الإسلامية منذ بدايتها تقوم إدارتها على أساس نظرية (الفطرة).

والتي يتحدث عنها القرآن الكريم في سورية (فاطر)، حيث تعرض في بعض جوانبها الدفاع عن دين الفطرة التي فطر الله الناس عليها، أي على الإيمان بالوحدانية أو بالإسلام عقيدة وشريعة ومنهجاً[851].

الإخوان المسلمون: 1928، موقفهم وتصورهم لإدارة الصراع:

يعتبر الإخوان المسلمون أول حركة ذات تنظيم حزبي محض، وبدأ تشكلها 1928 بزعامة الشيخ (حسن البنا) (1906 – 1949)، ومات غيلة عام 1949.

أسس (البنا) أولاً جمعية الإخوان المسلمين في (مصر) في الإسماعيلية ثم انتقل إلى القاهرة 1933 لتوسيع جمعيته، وفي عام 1938 دخلت الحركة مرحلتها الناضجة كمنظمة مقبولة من الناس، كهيئة سياسية، وكمجتمع علمي وثقافي، وكفكرة إسلامية شاملة للمجتمع.

لقد دعمها طلبة الجامعات في مرحلة الحرب العالمية الثانية.

وجهت جماعة الإخوان المسلمين جهودها بداية للدعوة إلى مناهضة الحكومة الموجودة وإيجاد حكومة بديلة بتوجهات إسلامية كاملة.

كرس الإخوان المسلمون جهودهم كحركة سياسية بالدعوة إلى الجهاد وإلى الاستقلال التام عن الهيمنة البريطانية الاستعمارية.

لم ينكر الشيخ بأن حركته ذات طابع سياسي، تريد إحياء الدين، وكانت له تطلعاته الاجتماعية والاقتصادية، ولم تعزل نفسها منذ البداية عن المجتمع ومن ثم انتشرت في أنحاء (مصر) وفي 1948 شارك الإخوان في المعارك مع الجيوش العربية ضد الغزو الصهيوني وطالبوا بتحرير فلسطين، ومنذ ذلك الحين أخذ الإخوان المسلمون على عاتقهم اللجوء إلى استخدام القوة في المواجهة، سواء في الداخل لتغير نظام الحكم، أو في الخارج لمقاومة العدوان الخارجي.

ومن هنا نقف عند أسلوبهم في إدارة الصراع، وهو الأسلوب المعتمد على: القوة واعتماد المرجعية الإسلامية الشرعية، ثم اتسع نطاق الإخوان وامتد ليشمل كثيراً من أجزاء الوطن العربي.

لقد شكلت فكرة مواجهة العدو الصهيوني لدى الإخوان، واعتماد أسلوب الجهاد في سبيل الله هو حق من حقوق الله على المسلمين وتبعاً لقوله تعالى: {فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً}[852].

وحيثما يقع ظلم على وجه الأرض، كان على الأمة استئصاله، وإزالة أسبابه، وهو ليس حباً يملك الأرض، وإذلالاً للرقاب، بل لتحقيق كلمة الله على الأرض خالصة نم كل غرض ولفرض ربوبيته، وحاكميته وعدله.

هذه هي القاعدة العامة التي ينطلق منها الإخوان المسلمون، وكافة الحركات الإسلامية الأخرى وخاصة (الأصولية) في إدارة الصراع الداخلي، والخارجي.

يرى الإخوان أن الإسلام يعني بحماية الأمة معنوياً، ومادياً، ويرون أنه في كثير من الأحيان لا تنفع الدعوة بالحسنى، ولا يتم التغيير بالنوايا الطيبة، أو بالنقاش، والمؤتمرات، بل لابد من المضي نحو الفعل، لإقرار سلطة الله، وإبعاد سلطة الطاغوت.

ويوسع الإخوان دائرة دعوتهم وفعلهم لتشمل ميدان ما يسمى بأسملة الأمة، وكافة مظاهر حياتها السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والفكرية.

وبكلمة أوضح إن الإخوان يصورون إدارة الصراع ويضعونها كإستراتيجية شاملة، وشعارهم فيما يتعلق بالصراع، هو: أسلمة الصراع، وبناء على هذا الشعار، فهم يرسمون جدول أعمالهم، ويخططون لتحقيق الشعار على الأرض.

إن الخطاب الإيديولوجي، لمؤسس الإخوان المسلمين، المرشد العام الأول في (مصر) هو الخطاب التأسيسي لمعظم الحركات الإسلامية الرئيسة، وبكلمة أخرى إن حركة الإخوان وهي المنظمة (الأم) لكافة الحركات الإسلامية التي نشأت فيما بعد على صعيد العالمين العربي والإسلامي، وإذا أخذنا ظروف المجتمع المصري، خلال النصف الأول من القرن الماضي، والحرية النسبية التي كان يتمتع بها المصريون، لم تكن مسألة اغتصاب السلطة بالعنف على جدول أعمال الإخوان، مع تركيزهم على أسلمة الحكومة، والدول والمجتمع[853] ولقد كانت هذه الفكرة الأخيرة تمسك الإخوان بها، حول الصراع الداخلي، ولجوء الإخوان إلى إدارته بالقوة.

إن رفع الإخوان المسلمين السلاح في وجه الأعداء وحتى المخالفين في العقيدة يعتبر ذلك من أصول العقيدة، فلقد فعلوا ذلك في وجه اليهود الذين اعتدوا على أراضي المسلمين، ولذلك فالمنطلق النظري لإدارة الصراع ضد الصهيونية، والظاهرة الاستعمارية، والغرب الكافر هو: المواجهة هذا من حيث الصراع الخارجي، وكذلك بالنسبة للصراع الداخلي، فهم يعملون من أجل أسلمة الحكومات التي يعتبرونها غير إسلامية.

إنها إستراتيجية شاملة، وواسعة، وستتسع هذه الإستراتيجية كما سنرى فيما بعد على يد المتشددين الأصوليين لتشمل حرباً ضد الجميع، الذين يغرقون في ظلام الجاهلية.

هذه النظرة الخليفية مهدت لظهور تيارات إسلامية غير مهادنة، واستئصالية تقيم أسس إدارتها للصراع الداخلي، والخارجي، على المواجهة الشاملة، وهي ترفع راية الإسلام.

يعتبر (سيد قطب) (1906 – 1966) أول وأهم أولئك الذين ورثوا تراث الإخوان المسلمين الأوائل الذين تحدثنا عنهم منذ قليل، ذلك أنه وبعد اغتيال (حسن البنا) أصبح قطب الناشط الأول ليواصل المشوار، وقد أخذ (سيد) منذ البداية موقفاً مقاوماً، ومصارعاً في الداخل، والخارج، كانت شخصيته قوية نظرياً، وقد كتب عديداً من المؤلفات للنظرية وكان ناشطاً (حركياً) في الوقت نفسه.

أظهر قطب فكرة الصراع إلى الواجهة في العمل السياسي، وكان واعياً كما كان الشيخ (البنا) لقوانين الصراع البشري، وكما وردت في القرآن الكريم وهذه القوانين التي تقوم على: مواجهة العنف بالعنف.

يميل بعض الباحثين إلى القول إلى أن شخصية (سيد قطب)، وما تلقته من ملاحقة، وتعذيب، واضطهاد من قبل النظام (الناصري)، في الستينيات من القرن الماضي، وكذلك سجنه من قبل هذا النظام كل ذلك دفعة سيكلوجيا كأسلوب تعويضي، ورد فعل لموقفه المؤيد لاستخدام العنف والقوة في إدارة الصراع[854].

ننتقل مع (سيد قطب)، والإخوان المسلمين (الموجة الثانية) إلى ما يسمى بالأصولية الإسلامية الثورية، المتشددة واللامهادنة في إدارة الصراع، وهذه، ولا شك حركة سياسية – اجتماعية كان الباعث على تأسيسها، وعملها عاملان أساسيان هما:

إعادة بناء المجتمع، والأمة على أسس إسلامية صحيحة، في العقيدة، والعمل، ومواجهة القوى الاستعمارية، وباشرت، وبنفس السلاح الذي تعتدي به على المسلمين، كذلك محو الآثار الجانبية ضد بقايا الاستعمار هذا فضلاً عن العمل على مقاومة الظاهرة الصهيونية بكل أشكالها على الأرض الإسلامية.

والواقع لابد من الإشارة إلى بعض الفروق في العمل والممارسة بين إخوان (البنا)، وإخوان (سيد قطب) فالأول لم يكن يميل ميلاً شديداً إلى القوة، والعنف، وكان يعمل في إطار من الحرية، ومناخ الحرية التي كان يعيشه المجتمع المصري حينذاك، وكما المحنا منذ قليل، بينما لجأ قطب إلى المواجهة واستدعاء أسلوب التشدد لعاملين أوحينا بهما منذ لحظات أي: مالاقاه قطب شخصياً، وعلى الصعيد السيكولوجي، والوجودي من ممارسة كثيرة من أساليب الضغط، والملاحقة والتعذيب، والسجن، من قبل نظام الحكم، وكذلك طبيعة النظام نفسه القائم على التفرد في السلطة، والقيادة الكاريزمية، وابتعاد النظام عن الإسلام أو بمعنى أدق عن الحاكمية

كان (حسن البنا) يعمل ضمن اللعبة السياسية المعاصرة له في (مصر) بينما عمل (سيد قطب) من خارج اللعبة، الأول انتهج أسلوباً سلمياً، ومهادناً، وصابراً، بينما الثاني وقف موقفاً معادياً، وكان الأول لا يمانع في المشاركة في الحكم، بينما الثاني لا يرى سوى الإسلام البديل، والشرط اللازم لوجود أي نظام سياسي.

ولكن نقاط الاتفاق موجودة بينهما فيما يتعلق بإدارة الصراع الخارجي، فكلاهما أرادا مواجهة الظاهرة الاستعمارية والصهيونية بأسلوب القوة.

لا غرو، والحال هذه أن نجد مفكري الإخوان المسلمين منذ ظهور شخصية الإمام، والشهيد – يثيرون مسألة الغزو الصهيوني لفلسطين، والتي تحولت هذه القضية على حد تعبير جيل كيبل Gille Kepel إلى قضية جديدة، وسامية، تحرك العالم الإسلامي، وتصبح رمزاً للمقاومةضد إسرائيل والإمبريالية الغربية، ومثيرة في فكر المسلمين مسألة: الجهاد، والداعية إلى استخدام السيف بوجه الأعداء[855].

وجد سيد قطب أن تاريخ الإسلام (السياسي) ليس أكثر من صراع بين حزب الله، وحزب الشيطان، ومحور الصراع أو أن قطب دائرته، ومنطلق إدارة الصراع فيه هو: إعلاء

كلمة الله وتثبيت عقيدته، والعمل بالحاكمية الإلهية، واستبعاد كامل لحكام الهوى والطاغوت.

والخلاصة: تقوم إدارة الصراع في الحركة الإسلامية بمختلف أشكالها ومع وجود اختلافات فيما بينها من حيث الأساليب المتبعة على الإدارة على ما يلي:

1- المرجعية: هي الكتاب والسنة.

2- المواجهة لأي اعتداء على الأمة، وأرضها، وخيراتها، وأبنائها، وعقيدتها، وهويتها والعمل بمقتضى قوانين الصراع التي عبر عنها القرآن الكريم.

3- انتهاج مختلف الأساليب في الإدارة بدءاً من الموعظة، واللجوء إلى السلم إذا لجأ العدو إلى السلم، ورد العدوان، واللجوء إلى القوة إذا لم تنفع الموعظة، ولقد مالت الحركات الإسلامية المتشددة في المرحلة الأخيرة إلى استخدام القوة المتاحة لها في المواجهة.

4- ممارسة تكتيك الصراع واستخدام تقنياته وآلياته.

تطور الأصولية الإسلامية في شكلها العربي المعاصر

أ- الأصولية الإسلامية الشيعية: منهج الإمام الصدر

إن المنهج الذي اتبعه الإمام (محمد باقر الصدر) (1935 – 1980)، ولد في العراق، وترعرع في النجف، يعتبر الصدر أحد أهم المفكرين الشيعة الأصوليين البارزين، انتشر فكره في جميع أنحاء العالم الإسلامي، خصوصاً في الأوساط الشيعية، دمج الصدر معرفته للشريعة، والقيادة السياسية من خلال تأسيسه لحزب الدعوة الإسلامية، عمل على محاربة نفوذ الشيوعية، وهيمنة حزب البعث –كان الداعم الأكبر للثورة الإيرانية 1979[856]، أعدم، وأخته عام 1980 أما المنهج الذي أراد الصدر اتباعه، فهو يرمي إلى إبقاء الإسلام في الساحة: فكراً وعملاً وعلماً، وطريقة أو أسلوب حياة: كي يفضي بالإنسان إلى التفاعل بين إيمانه وعمله، فينظر إلى السعادة في الحياة الدنيا، والثواب في الحياة الآخرة[857]، ويسوف الإمام مجموعة من الأدلة منها العلمية ومنها الفلسفية والفكرية لتبرير موقفه، ويمكن أن نستخلص من منهجه أو أسلوب تفكيره هذا، قوله أولاً: بالإمام المعصوم، ونائب المرجع، والذي يعكس تأثره بالتجربة الإيرانية، وقبل ذلك بالتراث الشيعي الإمامي الذي يمتد عبر تاريخ الإسلام الشيعي، ويؤكد (الصدر) على إعادة بعث الإسلام الإمامي.

يرى (الصدر) أن الإسلام يضع مبدأ الخلافة في (الإمام) وهو الخليفة، وقد استخلف الله الخليفة ليسير بالمسلمين نحو طريق الحق، ويضع الصدر للخلافة أهدافها الصالحة، وبهذا يريد أن يحدث انقلاباً عظيماً في تصور الأهداف، وتقييمها، ويؤدي بالمقابل إلى انقلاب في الوسائل والأساليب للعمل[858].

يرى الإمام كذلك أن الشريعة بنصوصها القرآنية والسنة، ومقالات الأئمة المعصومين تحمل لنا الخطوط العريضة لننظر في أية قضية أو مشكلة في الحياة ويبقى على ولي الأمر العثور على استنباط المبادئ المتحركة من المؤشرات الإسلامية العامة وبمعنى آخر الحلول للموضوعات[859] المتعلقة بحياة الأمة أولاها، تحقيق العدالة وبعبارة أخرى أن السلطة المرجعية لحركة الصدر تقوم على:

1- الكتاب (القرآن الكريم)، 2- السنة النبوية، 3- الأئمة.

إن نظام الحكم بالنسبة (للصدر) يسير المجتمع، وما يواجهه من مشكلات سياسية واجتماعية أو اقتصادية أو فكرية، فالأمة يجب أولاً وقبل كل شيء أن تكون إسلامية، وتخضع حركة الدولة في نظره إلى غائية تميزها عن سواها من الدول، التي تأتي في التاريخ وهذه الغائية لا متناهية لأن هدفها هو: الله، وهدف المسيرة الذي تجسده الدولة الإسلامية[860] وصفات الإمام عند الأصولية الشيعية تبدو وكأنها صنو صفات النبي، مع فارق الرسالة التي اختص بها النبي، أما الإمامة بحد ذاتها فهي ظاهرة ربانية ثابتة[861].

ونلمس أسلوب العمل الشيعي الصدري في كثير من أفكاره النظرية، والمرتبطة بالنواحي العملية، والتطبيقية وأهم ما يمكن تسجيله هو ربط المرجعية الشيعية بين ممارسة الإمام المعصوم وربطها بخط الشهادة ويقول ما دامت الأمة قاصرة وضعيفة، خاضعة للطاغوت فالإمام يضع في أولوياته مسؤولية المواجهة، بالإضافة إلى تربية الأمة لاجتياز القصور، واستعادة حقها في الخلافة العامة، وإذا ما حررت الأمة نفسها، فخط القيادة أو الخلافة ينتقل إليه، فهي التي تمارس القيادة السياسية، والاجتماعية، في تطبيق أحكام الله، مع ممارسة الأمة حق الشورى في إدارة أمورها[862].

لا ذكر لإدارة الصراع في حركة الإمام للظاهرة الاستعمارية، الصهيونية كما ظهرت في الحركات الإسلامية الأخرى.

ب - حزب الله:

(حزب الله) تعبير قرآني يستخدمه الأصوليون عموماً لوصف أنفسهم بأنهم أنصار الله وحزبه، تميزاً لهم عن معارضيهم الموضوعيين بحزب الشيطان.

لقد أخذ هذا التعبير في المرحلة الراهنة من الحركات الشيعية، صفة سياسية، وظهر على الساحة العربية الإسلامية كظاهرة سياسية من الطراز الأول، وحزب الله ليس تعبيراً لاهوتياً كما يفهم التراث اللاهوتي في المسيحي مثلاً، إنه تعبير ديني - سياسي وتحت هذا الاسم وتوجد أحزاب الله في تركيا.

أما في (لبنان)، وهو مركز هذه الحركة الأصولية فقد نشأت نتيجة تقارب مصالح شيعية لبنانية، مع السياسية الخارجية الإيرانية، خاصة بعد الاجتياح الإسرائيلي للبنان 1982.

تؤكد عقيدة حزب الله على الأصل القرآني لمصطلحاتها، وتقوم على الارتباط بقيادة العلماء الدينيين للمجتمع الإسلامي.

يلتزم الحزب بمبدأ الجهاد، والقائم على مواجهة الإسلام كافة أعدائه، وهو يفرق بين الجهاد الأصغر والجهاد الأكبر، الأول يقوم على خدمة الدين، والمجتمع كي يصل بداية إلى تنفيذ أوامر الله، والجهاد الأكبر مقاومة أعداء الأمة المتربصين بها، والمتواجدين على حدودها، والمهددين لأمنها، وسلامها.

لقد جسد الحزب إدارته للصراع في مواجهة العسكرية في يوليو 2006، ضد القوات الإسرائيلية في الجنوب اللبناني، وكان قبل ذلك قد واجه إسرائيل أيضاً عام 1984، ولكن شعبيته ازدادت عقب إدارته للصراع، وعلى مستوى المواجهة المسلحة في صيف عام 2006، والواقع ينتهج هذا الحزب في إدارته للصراع أسلوبين: 1- المقاومة، 2- التفاوض.

مع ملاحظة تركيزه على استخدام أسلوب القوة ومن ثم: الفقرة التفاوضية، تتحفظ كثير من القوى المحلية والإقليمية والدولية على منهج الحزب، وأسلوبه، ومعالجته، أو مجمل إدارته للصراع الداخلي والخارجي.

ج - حركة حماس، وإدارتها للصراع الإسرائيلي الفلسطيني:

إنها حركة مقاومة بالأساس وهي إسلامية، ظهرت في أوائل الثمانينات، وهي وريثة حركة الإخوان المسلمين في فلسطين، تنهج الحركة أسلوب المواجهة، والمقاومة وتدير الصراع على طريقتها الخاصة، وبإمكاناتها المحدود والمتاحة.

لقد كان برنامج الإخوان في المناطق المحتلة منذ عام 1967 يدور حول: الإصلاح الاجتماعي والاقتصادي من خلال العودة إلى القيم والمبادئ، وأسلوب المعيشة الإسلامية الأصيلة، بدلاً من الكفاح المسلح، وعندما بدأت الانتفاضة عام 1987، لم تشترك حركة الإخوان في النشاطات المعادية لإسرائيل، مع أن أصوليين آخرين تصدوا للإسرائيليين[863].

ولكن جاءت حماس وطوت جميع هذه الأساليب وشاركت منذ بداية وجودها في مقاومة الاحتلال الإسرائيلي، وأطلقت هجماتها ضد إسرائيل، وأصبح لها شعبية كبيرة بسبب إقامتها للعديد من المؤسسات الاجتماعية لمساعدة الناس.

وقد حققت فوزاً في انتخابات المجلس التشريعي الفلسطيني في التسعينات، وإن أسلوب إدارة هذه الحركة الإخوانية والأصولية يقوم على:

1- الكفاح المسلح ضد العدو الصهيوني.

2- إسقاط عمليات السلام، واتفاقاته، أي رفض التحاور والاعتراف بوجود الكيان الإسرائيلي.

3- الأسلوب المتبع هو: الدفاع والهجوم معاً.

4- تنتهج أسلوب التكتيك المسلح.

5- اتباع الأسلوب التقليدي في المواجهة المسلحة باستخدام صواريخ يدوية الصنع.

نموذج لتصور الحركات الإسلامية لإدارة الصراع العربي الإسرائيلي:

بعد النكبة الكبرى الثانية أي هزيمة 1967، وبأقل من عام صدر كتاب لافت، تحت عنوان (حول النكبة الحاضرة)، فيه سجل لوقائع النكبة، وعرض واسع لوجهات نظر الإسلاميين في تفسير وتحليل أسباب الهزيمة، وكل ما جاء في هذا الكتاب – الوثيقة – من رؤى تدور حول نظرية واحدة إسلامية، تفسر أسباب الهزيمة بسبب واحد، وعلة واحدة هي أهم الأسباب قاطبة، إنه: ابتعاد المسلمين عن عقيدتهم، لقد جاء نص بيان للأستاذ أبو (علي المودودي) أمير الجماعة الإسلامية بباكستان، وهو الأب الروحي لجميع الحركات الإسلامية الأصولية، يقول: لماذا حدث كل هذا؟ (هزيمة الجيوش العربية الستة) أمام العدو الصهيوني، وكيف حدث إذا كنا لا نريد أن ننزوي في هاوية سحيقة من الهلاك، والدمار، وتوضع العصابة على عيوننا علينا أن ندرس هذه القضية دراسة شاملة، ودقيقة، وبكل نزاهة، ولا مواربة[864].

يقول (المودودي) من أسباب انتصار إسرائيل في هذه الحرب الطاحنة هو تكريس جهودها، وفي ظرف تسعة عشر عاماً على تحقيق المشاريع الإنمائية، بدون استنزاف طاقاتها في الصراعات الداخلية ولم يكن في إسرائيل دكتاتور يسيطر على نظام حكمها، يقلب نفسه بمنقذ الشعب، وقائده الأوحد أو حزب واحد يحتكر السلطة[865]، ويوصى (المودودي) إن من أهم أسباب الهزيمة الصراعات الداخلية والانقسامات وسيطرة حاكم واحد واحتكاره صناعة القرار ولقد فشلت جميع مخططات الدول التي حاربت إسرائيل.

الدعامة الأولى: القومية.

الدعامة الثانية: الاشتراكية.

الدعامة الثالثة: الاعتماد على روسيا والمعسكر الشيوعي.

وإن قادة العرب يدركون أن الحقيقة الكبرى هي أن: الإسلام هو الطريق الوحيدة لإنقاذهم مما هم فيه[866] وبعبارة أخرى إن ابتعاد هؤلاء القادة عن الإسلام أوقعهم في الشرك الصهيوني وفشلوا في المواجهة.

ويرى الودودي أننا لا نستطيع مواجهة الأخطار الصهيونية الغربية إلا إذا بادرت الحكومات الإسلامية إلى توحيد صفوفها وتناصر الحكومات العربية بعد أن تعود هذه الحكومات إلى الرشد الإسلامي، لقد وجهت هذه الحرب والهزيمة فيها ضربة قاسية لكرامة المسلمين في العالم[867].

ويذكر الكتاب المذكور نص التقرير الذي قدمه إلى الدورة الاستثنائية لمؤتمر العالم الإسلامي الذي انعقد في عمان (الأردن) 16–1967/9/20، لبحث القضية الفلسطينية السيد مهدي السيد محسن الحكيم باسم إمام الشيعة سماحة السيد محسن الحكيم، وكذلك نص المذكرة التي قدمها إلى مؤتمر العالم الإسلامي في دورته الاستثنائية، في التاريخ المذكور إبراهيم بن علي الوزير زعيم اتحاد القوى الشعبية في اليمن إضافة إلى مقالة الأستاذ أحمد بهاء الدين، ومحاضرة الأستاذ غسان تويني في الجامعة الأمريكية في لبنان[868].

ترتسم إدارة الصراع، بعد وقوع الهزيمة ولدى بعض التيارات الإسلامية خاصة، تلك التي قالت كلمتها عقب الهزيمة مباشرة، وعلى لسان بعض أقطابها الذين لم نعد نرى لهم أثراً في أيامنا هذه وتقوم عناصر هذه الإدارة على الشكل التالي:

تشخيص المشكلة:

إن الأمة تواجه تحديات، تتفاوت في أهميتها، بتفاوت طموحاتها، وتختلف باختلاف طروحاتها والتحدي إذن من لوازم وجود كل أمة على الإطلاق، وقد لا يكون حتمياً ولكن المهم أنه إذا وجد فعلينا مواجهته، ولقد واجه المسلمون جملة من التحديات في العصر الحديث وهي:

1- الاستعمار الغربي.

2- التخلف الفكري.

3- الفقر الناتج عن سوء توزيع الثروة، وتخلف وسائل الإنتاج.

4- إسرائيل[869].

وإن الأبعاد البارزة للوضع العربي الداخلي منسوباً إلى واقع المشكلة الفلسطينية كمشكلة فإنها هي:

1- البعد الديني (تزايد موجة الإلحاد في العالم العربي).

2- البعد الاجتماعي (تزايد الفساد والاختلاف والانحلال واللهو الحرام9.

3- البعد الاقتصادي، ما تودعه البلاد النفطية من أموال وثروات داخل البنوك الأجنبية، في الوقت الذي تعاني فيها الدول من أزمات هائلة لتحويل زراعاتها وصناعاتها.

4- في مجال الإعلام، تهديد الإعلام الغربي وغزوه، ونوعية الإعلام العربي المعنى بالقضية وهو إعلام لا يفي بالغرض ولا يقوم بواجباته في الإعلام عن الحق الإسلامي.

5- على صعيد العلاقات الدولية، ونتيجة لاعتبار الحكام العرب المشكلة الفلسطينية مشكلة قومية وتجريدها من البعد والصفة الإسلامية، وما ينتج عن ذلك ابتعاد الدول الإسلامية عن تأييدها للقضية، أو في أقل تقدير إظهار موقف اللا مبالاة إزاء الصراع مع إسرائيل.

6- وقع الفلسطينيون في فخ الانقسام، وفي فخ النزاعات الإقليمية.

7- العدو، لم يقدر الزعماء العرب قدرة العدو الحقيقية بل استهانوا بها[870].

أما أسلوب المعالجة، أو أسلوب إدارة الصراع كما تتصوره هذه الحركة فيقول: إننا كمسلمين، لا ننتصر بقوتنا فقط، ولا ننتصر بكثرة عددنا أو بثروتنا، وإنما ننتصر قبل كل شيء، فضلاً عن هذه الوسائل، وأهميتها بما هو أهم منها، أي بالإيمان بالله تعالى، والتوكل عليه، وتسليم الأمر إليه والاعتماد عليه ولدينا في تاريخنا مع الرسول الأعظم محمد ﷺ مثلاً بارزاً مذكرة، وهو في معاركه في:

1- بدر، 2- حنين.

حيث تحقق النصر فيها للمسلمين[871].

ويختم سماحة الشيخ وضع خطته لمواجهة إدارة الصراع كما يتصورها في الخطة التالية:

أولاً: علينا أن ننطلق من اعتبار مشكلة الصراع العربي الإسرائيلي مشكلة: إسلامية وليست عربية فقط.

وثانياً: نعمل على تنمية الحياة الروحية.

ثالثاً: بناء معسكرات للشباب، وتأهيلهم وإعدادهم للمعركة.

رابعاً: بناء مجتمع عسكري.

خامساً: التركيز على أبناء فلسطين أنفسهم.

سادساً: خلق جو من التعايش السلمي بين الأقطار العربية.

لقد وقفنا على طبيعة إدارة الصراعات مع الداخل ومع الخارج لدى الحركات الإسلامية بدءاً من حركة الإخوان المسلمين الموجة الأولي، والإخوان المسلمين الموجة الثانية، والحركات الإسلامية الشيعية، ولعل العمود الفقري بينها جميعاً في إدارة الصراع الداخلي، هو: إقامة الحكم الإسلامي والتعويل الكامل على أصل: الحاكمية، وأن إدارة الصراع الخارجي تقوم على المواجهة مع الغرب، وإسرائيل صنيعته، واعتبار مشكلة الصراع العربي الإسرائيلي، مشكلة إسلامية، وعربية، ورفض معاهدات، واتفاقات السلام مع عدو مغتصب لأرض إسلامية.

ومع ذلك، فلم تسلم هذه التصورات لإدارة الصراع الإسلامي من انتقادات نستطيع تصنيفها في صنفين:

1- ذاتي من داخل الحركات نفسها (نقد جواني).

2- نقد خارجي (براني) من حركات مضادة، من جانب الحركات القومية والليبرالية واليسارية.

حاولت دراسات عديدة[873] البحث عن تفسير لظهور الحركات الإسلامية في ضوء تقييم التنظيمات، والحركات هذه وبخاصة فيما يتعلق بتصوراتها، وبرامجها لمواجهة المشكلات التي تعاني منها الشعوب العربية، والإسلامية في الوقت الراهن من هذه المداخلات أو النقد الذاتي التي وجهته إلى هذه الحركات:

1- افتقارها للرؤية الموضوعية، الشاملة للواقع العربي الإسلامي.

2- غلبة النزعة الأممية.

3- تغلغل النزعات المذهبية في الفكر والممارسة.

4- رفض مكاسب العصر فيما يتعلق بالتواصل مع الثقافات العالمية الأخرى، وتفهمها، والحوار معها، وعدم رفضها دون معرفتها، وعدم تقدير ظروف، وشروط نشأتها ومهادنتها، واستثمار ما هو إيجابي يثري الثقافة الإسلامية نفسها والجدل معها بالتي هي أحسن.

5- الانشغال بفكرة الحكم، والسلطة عن المجتمع.

6- غلبة النزعة التآمرية في تغيير الأنظمة السياسية.

7- طرح شعارات تعبوية دون طرح برامج محددة ومشاريع واقعية، ومقنعة للتعامل مع الواقع، وتحدياته وتعقيداته[874].

8- هذا فضلاً عن افتقار قادتها، وعناصرها، لمهارات التفكير، والعلمية في إدارتها للأزمات والصراعات.

9- التصنيف المتعسف والغرق في ثنائية: إما مسلم، أو كافر.

تنطلق الأصوليات الإسلامية من المواجهة الشاملة مع العلم المعاصر وتعتبره عالم الجاهلية والكفر والوثنية (دار حرب) حسب التصنيف الفقهي الإسلامي التقليدي.

ويؤخذ على الحركات المذكورة عادة رؤيتها، وفلسفتها، ومنهجها، وتجسد ذلك في عزلتها عن مجريات الأمور العالمية، أو اكتفائها بفهمها من وجهة نظرها الخاصة، كذلك تكتفي بإدارة الصراعات بنظرة مثالية لواقع الإسلام، ودعوة المسلمين في أصقاع الأرض، دون النظر إلى ظروف كل دولة، وواقع مجتمعها، تدعو إلى الانقلاب الشامل على الأوضاع، وبأسلوب المواجهة المباشرة مع الداخل لتحقيق المثل الإسلامية المنصوص عليها في القرآن الكريم والسنة النبوية.

وبعبارة أخرى تطالب الأصولية بالعودة إلى الأصل أي العودة إلى ما كان عليه العهد النبوي والراشدي والسلف الصالح، وتغض الطرف عن تغير العالم، والدنيا في مناحي الحياة، وتغير موازين القوى، منذ فترة انقضاء العهدين النبوي والراشدي، ويتجاهلون أن القيادة العالمية لم تعد في أيد المسلمين، وأن هؤلاء هم في موقف الضعف أمام التقدم الحضاري الهائل للقوى التي تعتبرها معادية، وبالتالي فلا يستطيع هؤلاء بما يملكون من قوى متواضعة تغيير موازين القوى بالدعوات الخيالية إلى الانقلاب الشامل وتصور الأمر بغاية اليسر والسهولة والسذاجة.

إن مطالبتهم بتغيير العالم هي مطالبة: يوتبية، خيالية، وغير واقعية، ومن ناحية أخرى يبدو أن هذه الحركات بعناصرها وزعاماتها وقياداتها لا تدرك أن مفهومها للعلاقات الدولية، وموازين القوى بينها لا يتلاءم وروح التقدم العلمي والتكنولوجي الفكري والفلسفي والعلوم السياسية الحديثة في إدارة الصراعات الدولية.

ذلك أن الأمر لم يعد يقتصر على مفهوم هذه العلاقات كما هو لدى الحركات الذي يتوقف عند التطلعات الإسلامية زد على ذلك أن تصوراتهم لإدارة الصراع لا تقوم على أسس النظريات الدولية، والفكر الاستراتيجي المتقدم أو على استيعاب لنظريات التوازن الدولي، ونظرية المباريات أو نظرية (الدمينو) التي سادت في ستينيات القرن الماضي ولا تزال معاصرة[875] ولا تنظر إلى المصالح الوطنية والقومية للدول الأخرى، والتي تدير نزاعاتها على ضوئها، كذلك لا تحظى النظريات المختلفة في العلوم الإنسانية المعاصرة

في تحليل الأزمات والصراعات من أهمية ومن هنا فإننا نرى أن العلاقات الدولية التي يجب أن تبنى على الواقع المادي، والسياسي والحضاري، والفهم المعمق لموازين القوى العالمية، والإقليمية استبدلت بتصورات مثالية لطبيعة الإسلام، ولهذا فهذه النظريات الأصولية تعاني من: قصور نظري في دراسة النظام العالمي، والعلاقات الدولية، مما يؤدي في النتيجة إلى وضع حلول لمعالجة إدارة الصراع الخارجي خاصة غير قابلة للتنفيذ.

ثم إن الرفض القاطع الذي تظهره الأصوليات تجاه التعامل مع النظام العالمي، ما هو إلا نتيجة عدم القدرة على التعاطي مع النظام العالمي القائم من حيث هو انعكاس لمعطيات اقتصادية ومادية، وثقافية، وإنسانية، وسياسية جديدة[876]، وفضلت الأصولية، الرفض والمواجهة، والتصلب في عدم التعامل أو على أقل تقدير تجاهل ما هو موجود بداهة،وواقعية.

أما بخصوص إدارة الصراع لدى الأصولية إزاء الصراع العربي الإسرائيلي، فيتمحور حول التصنيف الإسلامي السلفي التقليدي في تقسيم العالم إلى (دار إسلام) و(دار حرب)، وإسرائيل تقع ضمن دائرة دار الحرب، ولذلك فالأصوليون يعلنون الحرب ضدها لأنهم يعتبرونها عدوة كافرة، ضالة، وفاسدة، ومغتصبة لأراضي المسلمين، واليهود كانوا في نظر الأصلويين قتلة الأنبياء، وهم يقتلون الآن المسلمين الأبرياء.

لذلك لابد من المقاومة، ويجب أن تقوم المقاومة على أصل إسلامي، وهو الجهاد فبالنسبة للصراع العربي الإسلامي ترى الأصولية أن الإسلام[877] هو الحل لهذا الصراع فحماس (حركة المقاومة الفلسطينية) تعني هذا النمط من إدارة الصراع، وتكاد تنفرد به في الوطن العربي، ولا شك أن هذه الحركة تشكل قوة إزعاج، وتشكل مصدر قلق للعدو، ولكن لإدارة الصراع على هذا النحو الأمر بحاجة إلى إمكانات مادية هائلة لمواجهة الترسانة العسكرية الإسرائيلية ويبدو أن (حماس) كغيرها من الأصوليات الإسلامية لا تدرك بعمق طبيعة صراعات العصر، القائمة على أهداف تحقيق المصالح المباشرة[878]، لذلك فحماس لا تستقطب المؤيدين والداعمين بناء على دعوتها الأيديولوجية بقدر ما تستقطب بناء على عنصر القوة الذي تعتمد عليه، وتحقق إنجازات بسببه، ومع أن المقاومة في شكلها الحالي تشكل جزءاً من حرب نفسية لا تخلو من جدوى.

وإذا تميزت الأصوليات الإسلامية (وكذا الأصوليات الدينية إسلامية) بنظرة إلى العالم نظرة روحية خالصة، ولكنها غافلة عن مسألة كون العالم الذي نعيش فيه لا يتحرك بالروح بل إن المحرك الفاعل للسلوك السياسي للدول، هو: مطالب الحياة العاجلة حسب التعبير القرآني، وإن صراع القوى الكبرى ينطلق من التنافس الشرعي، ثم الاستيلاء على: الموارد، ومصادر العيش.

الفكر الشيعي الإمامي مبنى على سلطان إلهي يمثل السلطة الروحية ومتمثل في شخص الإمام ثم تطور فيما بعد للحديث من (ولاية الفقية) وبالرغم من الوضوح، والائتلاف الذين يطبعان الفكر الأصولي للتيار (الصدري)، إلا إن نظرية المرجع، أو المرشد الأعلى أو ولاية الفقيه أخذها (الصدر) متأثراً بفكر الإمام (الخميني) إمام الثورة الإيرانية، وقبل هذا بمرجعية الأئمة السابقين وصولاً إلى آل البيت، وللإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه، معتقداً أنها تنطوي على الحقيقة المطلقة، من غير نظر، أو دليل عقلي، ومن ناحية أخرى إن فكرة الصراع، وقوانينه ومواجهة الصراع العربي الإسرائيلي، كما ذكرنا، يبدو أنها لم تحتل مكاناً يذكر، في الفكر الشيعي حيث يجري التركيز على الفكر الإمامي من حيث مطلب إحياء سلطة أهل البيت، والعودة إلى العصر الزاهر الذي أشعت فيه أنوار الأئمة، وردت الحق للمسلمين، وبرزوا حجة للخالق على خلقه، ولقد سيطرت مثل هذه الأفكار، واحتلت مكانه في المخيال الشيعي.

فهل كانت المشكلة الرئيسية وذات الأهمية البالغة بالنسبة للتيار الصدري هذا هو: إدارة الصراع من أجل إعادة سلطة الأئمة، وإعادة سلطة وهيبة آل البيت؟

في النهاية الحركات الأُولية (سنة وشيعة) آخذة دورها في إدارة الصراع العربي والإسرائيلي في الوطن العربي ونظراً لعزفها على نغمة البعد الديني للصراع، خاصة وأن إسرائيل زرعت كيانها بالإضافة لامتلاكها قوة هذا الزرع، فقد روجت لمطالب دينية لاغتصابها الأرض الفلسطينية، ثم إن الحركات الأصولية ستظل تلعب دورها في ظل صعود اليمين السياسي المتطرف على المستوى العالمي، ووجود حركات أصولية في الأديان الأخرى، يعطي حافزاً إضافياً، ومشجعاً للعمل الأصولي الإسلامي.

إن الفكر الإسلامي الشيعي الإمامي، قد ظهر على الساحة خاصة بعد حرب الخليج الثانية والاحتلال الأمريكي للعراق، فقد أصبح هذا التيار الشيعي الأصولي مشغولاً ب-:

العمل المشترك، مع الجمهورية الإسلامية، إيران لتثبيت وجوده كتيار فاعل في العراق.

مواجهة الاحتلال الأمريكي في العراق.

ولقد تراجع الاهتمام بالصراع العربي الإسرائيلي، عن الواجهة الإمامية، والإمامية في هذا التيار بعد أن كان هذا الصراع يحتل الواجهة لدى قطب الشيعة السيد (محسن الحكيم) والذي تحدثنا عنه في فصل نكسة هزيمة حزيران 1967 وكلمته في المؤتمر الذي عقد بعد الهزيمة.

ثالثاً: إدارة الصراع لدى التيار القومي العربي:

إن إحساس المثقفين العرب، بالإضافة إلى المثقفين الإسلاميين الذين جئنا على ذكر هم بالنكبة أو الهزيمة الكبرى لعام 1967 كان إحساساً شديداً بهول الفاجعة ولقد اهتزت ضمائرهم، وارتجت عقولهم، وتمزقت قلوبهم، وران على نفوسهم الهم، وتساءلوا كيف سيواجهون العالم والهزيمة انطبعت على جبينهم، وكيف سيحاورون ويواجهون أندادهم من مختلف العوالم حول طاولات الحوار لمناقشة قضية هزمتها القوة، وتراجع الحق، وسط تصفيق العالم للمنتصرين، والناس بطبيعتهم مستعدون لنصرة الأقوياء، وهم بهم معجبون.

لقد كان المثقفون ولازالوا هم في طليعة الشعوب الذين يدركون الأبعاد الحقيقية للكوارث السياسية، وتقدير نجاحاتها، أو فشلها ولنتحدث الآن عن شريحة من المثقفين المفكرين القوميين الذي عاصروا النكبة، وهم من أهلها المباشرين، لا بل من سنتحدث عنه الآن، عاصر نكبة (1948 – 1967)، وكان من أولئك الذين شعروا بالإحباط الشديد وتمثل المأساة القومية على أنها مأساته الخاصة.

ومع ذلك فلقد تجاوز هو وغيره هول الكارثة، وفكر بالخروج من المأزق بعد أن تم اغتصاب أرض بلد كاملة، فظل يؤمن بأن المواجهة يجب أن تستمر وأن الصراع يجب أن تستمر وأن الحلول ممكنة.

لم تخفت أصداء الوعي القومي لدى أصحابه من إشهار الموقف الوطني والقومي إزاء النكبة الحاصلة، ولم يتردد هؤلاء في ا لدعوة إلى إدارة الصراع من جديد يقول مثقفنا (قسطنطين زريق) في ربيع 1948 نشبت المعركة الأولى بين الجيوش العربية والإسرائيلية، فوقعت الهزيمة التي أدت إلى الهدنة، وإلى قبول إسرائيل عضوا في جمعية الأمم المتحدة.

واليوم، وبعد تسعة عشر عاماً نشبت المعركة الثانية 1967، فلم تكن هذه الكارثة أخف وضأة من الأولى، ولن تكون نتائجها المرتقبة أقل شأناً من سابقتها، بل أنها ونتائجها تبدو أعظم، وأضخم، وأوخم.

يقول (زريق) وهو واحد من أقطاب المشتغلين في التاريخ الحضاري في الوطن العربي، بالأمس حاولت كفرد من أفراد الأمة أن استنطق الأحداث، وأنتزع عبرها، وأن استخلص معي النكبة، وقد دعوتها حينئذ بالنخبة وقلت في مقدمة كلامي:

ليست هزيمة العرب في فلسطين بالنكبة البسيطة أو بالشر الهين العابر، وإنما هي نكبة بكل ما في هذه الكلمة من معنى، ومحنة، من أشد ما ابتلى به العرب في تاريخهم الطويل على ما فيه من محن، ومآسي، أجل لقد كانت نكبة، لا نكسة، مثلها، بل هي شر منها ما أصابنا الآن (880) يقصد هزيمة 1967.

وبدورهم، عمل المثقفون القوميون، كما عمل إخوانهم الإسلاميون على تحليل وتفسير أسباب النكبة، ولقد اختلفت وجهات النظر، واختلفت التفسيرات والروى، وهو أمر طبيعي ونحمده، ولقد وضع هؤلاء تصوراتهم لمواجهة الصراع من جديد، ووضعوا تصورهم لإدارة الصراع لقد رأى (زريق) أن للنكسة أسبابها القريبة والبعيدة، ومن ثم وضع تصوره الخاص للخروج، لقد ذكرنا سابقاً تحليل زريق لأسباب النكسة وهنا نضع تصوره الإستراتيجي للخروج من الكارثة، وتجنب غيرها في المستقبل، يقول أن إستراتيجيتا العربية فتقوم على المدى المباشر:

1- تقوية الإحساس بالخصر وشحذ إرادة الكفاح.

2- التعبئة المادية في ميادين العمل كلها.

3- تحقيق أكبر قسط من التوحيد الممكن بين الأقطار العربية.

4- إشراك القوة الشعبية في النضال.

5- التقوية واستعداد العرب للمقاومة والتضحية ببعض المصالح لدرء الخطر الأكبر.

أما الإستراتيجية الثانية، وهي على المدى البعيد:

1- إجراء تغييرات شاملة وأساسية في الوطن العربي.

2- انقلاب عام في: أساليب تفكيرنا، وعملنا، وأسلوب حياتنا بكاملها، وهو ما يكفل قيام كيان عربي متقدم قادر على درأ الخطر الصهيوني بل أي خطر أجنبي، يداهم أمتنا، ويستطيع التغلب على الأخطار المحدقة، مما يتيح للشعوب العربية أسباب البقاء والكرامة، والازدهار.

ولعل أهم مقومات هذا الكيان العربي المنشود هي:

1- الاتحاد.

2- العمل من أجل التقدم الصحيح، أي أن يصبح التقدم بالفعل، وبالروح، لا بالاسم والجسم فقط قسماً من العالم الذي نعيش فيه، نجاريه في نظم العيش، والفكر، نتكلم لغته ونتصل بأصوله، ونصم مقدراتنا لمقدراته، ولبلوغ هذه الغاية، يجب أن تتخذ عطى عديدة تقلب حياتنا من أوضاع العصر الوسطى، والقديمة إلى وضع العصر الحديث[881].

ويمنح (زريق) لقارئه ضماناً لتحقيق هذه الخطوات (على الصعيد القومي) يقوم هذا الضمان على البدء بعملية:

1- الإصلاح، والتطوير في مختلف نواحي الحياة القومية.

2- مبادرة القادة، وصنعة القرار القومي لدفع عملية الإصلاح، شريطة أن يكونوا هم في طليعة المتقدمين وأن يكونوا متقدمين.

ويختم (زريق) رواه بالقول، وهو يعطي وصفته للعلاج قائلاً إن الإدارة الصحيحة للصراع العربي الإسرائيلي ستبقى حلماً، وإمكانية ما لم يتحقق أولاً في نفوس الفئة المناضلة من أبناء الأمة[882].

نذكر أن عرض المفكر (زريق) هذا قد وضعه صاحبه عقب الهزيمة الأولى 1948، وهو يقول عقب الهزيمة الثانية 1967 بأنه لا يزال عند تفكيره السابق، ولم يدخل عليه تعديلاته أو تغييرات لأن الواقع الذي عاشه في 48 لم يتغير كما رأى واقع 1967 في ضوء الأحداث المستجدة.

نهضة المشروع القومي وإخفاقه:

شهدت كما قلنا مرحلة الستينيات من القرن الماضي، وهو ما يمكن تسميتها تاريخياً بالمرحلة (الناصرية) ازدهاراً، وتألقاً كبيراً للمشروع القومي وقد حققت هذه المرحلة كثيراً من الانتصارات الوطنية، وأثمرت نهضة ثقافية ممتازة[883] ولكن لم يكن ختام هذه المرحلة مسكا بل لقد انخدش هذا المشروع إثر هزيمة 1967 حيث أحدثت هذه النكسة فراغاً في القوة (القومية) على صعيد الوطن العربي وانتهت سنوات الستينات هذه برحيل (رائد القومية العربية والناطق باسمها سياسياً) والذي نال ثقة جماهير عريضة على امتداد مساحة الوطن العربي، حقاً لقد نقلت هذه المرحلة، و(قد تحدثنا سابقاً من أوجهها السلبية) الشعوب العربية من التفكير قطرياً إلى التفكير قومياً، وأدركت الغالبية المطلقة من الشعوب العربية إنها تنتمي إلى نسيج واحد عربي اللسان والوجه ومشترك في التاريخ وفي الآلام والآمال، يرنو إلى التقدم والرخاء.

راجعت القيادة السياسية العربية بعد هزيمة (1967)، وأعادت النظر في نظمها التي كانت تعاني من الثغرات، ما يكفي وخاصة إزاء مسألة الصراع العربي الإسرائيلي، حيث عمل هذا الصراع على كشف هذه النظم، وتشتتها ورغم الدعوات القومية، والدعوات إلى الوحدة والتضامن إلا أن الهزيمة وقعت.

في بداية السبعينيات تم طرح مشكلة الصراع العربي الإسرائيلي على مستوى آخر، أعني المستوى: العربي والإسلامي، مع البداية النشطة للحركات الإسلامية على المستوى العربي الإسلامي، والعالمي وفي الوقت نفسه ظهرت القوة الأمريكية وهي ممسكة بملف الصراع بقبضة يدها، وبكامل الملف، وحيثياته استعداداً لإدارة الصراع من جديد، وعلى مستوى الشرق الأوسط وحسب الرؤية الأمريكية لهذا الصراع.

رافق ذلك كما وضح أفول المشروع القومي، وانكسار حلم أصحاب الفكر والشعور القوميين في القومية العربية تحقيق مشروعهم الكبير أي توحيد العرب، وجعلهم قومية واحدة، وبالتالي إمساكهم بإدارة الصراع بناء على إدارة قومية له. وأحدث غياب هذا المشروع أو أفوله فراغاً كبيراً سدته الحركات الإسلامية، بمختلف تياراتها ومجموعاتها.

والواقع أن من الايجابيات التي تجلت فى المشروع القومي: اكتساب الشعوب العربية روح الانتماء إلى النسيج العربي، وهو أمر إيجابي في ظاهره ولكنهمن الناحية السلبية ادى في الوقت نفسه إلى اكتساب شعور جديد من جراء هذا الانجراف الانفعالي، وهو ما يمكن تسميته على المستوى السيكولوجي ب- (المركزية القومية[884] في أسوأ حالاتها أي الشعور بنوع من (النرجسية) أي إحساس القوميين بأنهم مركز العالم، علماً أن القوميين العرب (المثقفون منهم) قد لهجوا بخطاباتهم قائلين بأن القومية العربية ليست شوفينية وليست متعصبة وليست متطرفة إنها قومية عربية إنسانية.

أدرك القوميون العرب أن المستهدف من الصراع العربي الإسرائيلي والإمبريالي هو الوجود العربي وليسوا الفلسطينيين وحدهم. لذلك لا بد لإدارة الصراع من تعبئة الشعوب العربية على المستوى القومي... وقد ذكرنا أن (قسطنطين زريق) قد فكر للخروج من المأزق الصراعي، على المستوى القومي، والملاحظة الأخيرة في هذا المجال تنصب على التمييز بين الدعوة إلى القومية العربية، والدعوة إلى الوحدة العربية.

إن الفكر (الوحدوي) شيء والفكر (القومي) أمر آخر، الأول هو مطمح فعلي لكافة الشعوب العربية لأن هذه الشعوب تدرك تلقائياً، وعفوياً بأن (التضامن والوحدة) تضمن مصالحها ويحقق كيانها، ويوحد قواها، ويجعلها تدير صراعاتها بطريقة أفضل، أما الفكر القومي فهو رغم إيجابياته، يحمل مخاطر النزعة العنصرية وتأكيد الذات القومية على حساب الأقليات والذوات القومية الأخرى التي تعيش على الأرض العربية منذ فجر التاريخ.

ومع ذلك فلقد شهدت بداية السبعينيات وحتى يومنا هذا صعود التيارات الإسلامية وسط سياق عالمي مختلف عن تلك المرحلة المتحدث عنها، وثم سحب بساط الصراع العربي الإسرائيلي وإدارته من تحت أقدام القوميين والوحدويين ليصبح صراعاً إسلامياً، صهيونياً، ونحن نعيش مرحلة ما بعد القومية في الوطن العربي، والشرق الأوسط، وحلت

العبارة الأخيرة (الشرق الأوسط) محل عبارة (الوطن العربي) في دوائر القرار العالمي.

وسنرى بعد قليل أن هذا الصراع سيختزل إلى صراع إسرائيلي – فلسطيني، إلى الجدران العازلة والمعابر وبناء المستوطنات.

ثالثاً: وجهات نظر يسارية لإدارة الصراع العربي الإسرائيلي:

بعيد هزيمة (1967) صدر كتاب آخر ومن وجهة نظر يسارية وعلمانية مختلفة وهو من أصداء الهزيمة يعرض صاحبه أسباب الهزيمة، ويوجد سهام النقد للواقع السياسي والاجتماعي، والثقافي، للمجتمع العربي وقياداته السياسية، عنوان الكتاب (النقد الذاتي بعد الهزيمة). (885).

ينبه الكاتب في مقدمة كتابه إلى أن النقد لا يعني الكشف عن السلبيات والهجوم والقذف وكيل التهم، بل يعني تحليل الواقع علمياً دقيقاً لتحديد مواطن الضعف وأسباب العجز والمؤثرات المؤدية إلى وجود العيوب، والنقائض وليس عملية تجريح أو تعداد للمثالب والعيوب (886).

ونقل الدكتور (العظم)، ما كتبته بعض الصحف العربية قبيل الحرب، قائلة أن مصر والعرب قادرون على سحق إسرائيل بساعات، ودون استخدام كافة الأسلحة في المعركة (887) مع هذا النمط من الدعاية، والغوغائية، ربحت إسرائيل الحرب، ولم تعد الجيوش العربية بعدها قادرة على القتال، لقد كان أسرع انتصار وعرفه العالم الحديث (888).

يعترض الدكتور (العظم) قبل كل شيء على تسمية الهزيمة بالنكبة لأن هذا المصطلح يجد فيه تبريراً وتهرباً من المسؤوليات والتبعات لأن من تحل به أو بها النكبات، لا يعتبر مسؤولاً عنها، وعن وقوعها ذلك أننا ننسب أحياناً النكبات إلى الزمان، والدهر، والأقدار. والطبيعة إذ أن الإنسان لا سيطرة له على هذه الأسباب (الغيبية)، ولا يمكن أن نحاسب على مجريات أحداثها (5).

ثم ينقل (العظم) ما كتبه الأستاذ (محمد حسنين هيكل) حول أسباب الهزيمة حيث ذكر هيكل أن منها أي الأسباب: أن العرب لم يكونوا على مستوى العلم، والتقنية الحديثة في الحروب لمجابهة العدو (890).

لا يجد مؤلف كتاب (النقد الذاتي)، أن هذا كافياً كسبب لتبرير الهزيمة، فيقول لا يجوز لنا أن نبحث عن الأسباب والمبررات ما صنعناه بأنفسنا على وعي ولا نبحث لأنفسنا عن الأعذار لأنفسنا بغية تسوية إخفاقنا بالتشديد على عنصري العلم والتكنولوجيا، وعنصر المفاجأة، لأن القادة العرب كانوا دوماً يعلنون أن جهودهم موجهة إلى الهدف الأكبر، وهو معركة التحرير ولا يليق بنا أصلاً أن نفاجأ بالمعركة ولا بالهجوم، لمعركة كنا نريدها، أو نتوقعها على أقل تقدير، ونستعد لها [891] والواقع إذا كانت القيادات السياسية تروج باستمرار أن العدو الأول هو إسرائيل وأن المعركة الفاصلة ستكون مع إسرائيل، وأن تحرير فلسطين بات وشيكاً وأن قضية العرب الأولى، والمركزية هي الصراع العربي الإسرائيلي، وأنه لا صوت يعلو على صوت المعركة، فكيف تمت المعركة والقيادات كانت في غفلة من أمرها؟ [892].

نستشف من أقوال الكاتب، أن المسؤولية في الهزيمة تقع على القيادات السياسية العربية لعدم أخذها مأخذ الجد إدارة الصراع، ولم تعمل على اكتساب الأساليب العلمية أو تتيح المجال لاكتسابها للمسؤولين في الدفاع اكتسابها في مواجهة صراع محتمل، ومع ذلك ف- (العظم) يتحدث عن أعراض الهزيمة ويجدها في العرب أنفسهم الذين فكروا، ودخلوا الحرب بروح الفروسية، وتسيطر على عقولهم ردود فعل ترتد إلى عصر الفروسية، وهذه العقلية بالإضافة إلى وجود أنماط من التفكير العشائري، والقبلي والمذهبي تحكمت في سلوكيات العرب اليومية ونظرتها إلى الصراع، ولقد تركت كل هذه الأعراض آثارها السلبية (الجانبية) أثناء الحرب أو رؤية الصراع وأيضاً لقد رأى الكاتب أن هذه الآثار السلبية تركت بصماتها في نفسية العرب الذين نزحوا من الأراضي المحتلة، وعلى ردود أفعالهم في وجه الغزو الإسرائيلي كل ذلك بسبب فقدان المنظمات السياسية التي تعمل على التوعية وفقدان المؤسسات والأحزاب العاملة من أجل الجماهير [893].

كذلك ينتقد (العظم) الآراء التي تعزو الأسباب إلى الاستعمار (نظرية المؤامرة)، والإمبريالية العالمية، لإزاحة المسؤولية عن كاهلهم، ثم يعرج الكاتب على الفكرة التي كانت شائعة عند العرب حول رؤية هؤلاء لأسباب الهزيمة المتلاحقة في إسرائيل نفسها المسببة للهزائم، المدعومة من الصهيونية العالمية [894] مما اضعف قدرتهم العلمية، وعدم إقبالهم على اكتساب الطرق العلمية لمواجهة أو إدارة الصراع.

الخلاصة يرد الدكتور (العظم) سبب الهزيمة الرئيسي إلى سلوك القيادة السياسية العربية ونمط فكرها وطبيعة أنظمة الحكم الصانعة لها، وكذلك يردها إلى بنية العقلية العربية وسلوكها، أو الأسباب الكامنة في نسيج حياة المجتمعات العربية التقليدي وأسلوبه وإتباع هذه العقلية في النظر إلى التحديات والصراعات نظرة تجاوزها الزمن، والعقل الحديث.

ويلمح إلى إدارة الصراع أو معالجته تكمن في إعداد جيل من العلماء العرب الأكفاء والقادرين على امتلاك ناحية العلم والتكنولوجيا الحديثين بالإضافة لتمكنهم من مهارات التفكير العلمي [(895)] ويرى أخيراً أن الجهود القومية العلمية، والعقلية الثورية الحقيقية والإصلاح الإيديولوجي كل ذلك كفيل بمواجهة التحديات التي تواجهنا ومن ثم علينا تدريب الطاقات البشرية على التفكير، العقلاني وممارسته لخدمة الأهداف الوطنية والتقدمية للمجتمعات العربية، وهذه طرق النضال للتخلص من التخلف والتبعية، ومواجهة الغزوين الصهيوني، والاستعماري، ولا ينسى المؤلف مطلبه في مشاركة المرأة في العمل السياسي.

ملاحظات نقدية:

كان نابليون يقول إن هزيمة جيش من الجيوش ليست هزيمة عسكرية بل هي هزيمة حضارية، أي أن الإمبراطور عندما عاد من (مصر) مهزوماً، اعتبر ذلك هزيمته حضارية، وكان (العظم) يرى أنه ليس المقصود إصلاح البنية العسكرية، بل إصلاح البنى الاجتماعية والتعليمية والتربوية [(896)]، أي أن (العظم) لم ير بعد مضي أربعين عاماً على نكسة حزيران (1967) تغيرات ما حصلت في المنطقة، كذلك يبدو أنه لم ير الأمور المستحدثة بعيون مفتوحة، أعني كما يقول الأستاذ (فيصل جلول) الانتصار الذي سجلته المقاومة اللبنانية في عامي (2000)، (2006).

يعبر كتاب (العظم) الذي صدر منذ أكثر من أربعين عاماً عن ثقافة سياسية مبنية على خلاصات ونتائج حملة الإمبراطور الفرنسي، حول التقدم والتخلف، حول النصر العسكري والنصر الحضاري، وكان يمكن لهذا الكتاب أن يكون شاهداً على ثقافة مرحلة ما في حياة الشعوب العربية السياسية، وأن يكون محاولة بين محاولات أخرى مختلفة

لتفسير هزيمة حزيران (1967) محصورة في زمانها، لو لم يعمد الكاتب إلى نشر كتابه في الذكرى الأربعين لتلك الحرب معتبراً أن استنتاجاته السابقة ما زالت تصلح لهذا العام أي (2007)، وما زالت صحيحة أي أننا ما زلنا على حالنا، وما زالت إسرائيل على حالها من الغطرسة العسكرية، والعنجهية، وتملكها روح الاستخفاف بالقيادة السياسية العربية، وشعوبها ولكن كيف يرى العظم حال إسرائيل في جنوب لبنان لعام (2000) و(2006)، حيث لم يتمكن العدو من فرض سيطرة على شبر واحد من الأرض اللبنانية... وكيف أصبحت ضعبته الحضارية كطرف كان منتصراً.

ومن ناحية أخرى لقد أغفل (العظم) إدارة الانتفاضة الشعبية في فلسطين وهبة الأقصى حيث تجسدت روح الشعب في الرفض والمقاومة وإرادة التحرر، وكذلك حركة المقاومة الفلسطينية التي تسبب <خراباً> سيكولوجياً في الجيش الإسرائيلي، وحيث أصبح من المحال القضاء عليها؟ فعندما قتل الشيخ (أحمد ياسين) رأينا صعود غيره وهكذا... وإذا وضع حد ما للمقاومة يوماً فستنبع مقاومة أخرى جديدة، وفي هذه الحال يصعب على العدو فهم هذه العقلية التي يواجهها مع استحالة توقع ردود أفعالها السيكولوجية ومعرفة كيف نفكر، وربما الصعوبة ذاتها إزاء توقعات وردود فعل الشعوب العربية وقياداتها.

أما بالنسبة لتفسير أسباب هزيمة حزيران (1967) وحين اجتهد كثير من الباحثين والكتاب والمثقفين العرب في تفسير أسبابها، وقد جئنا بأمثلة ونعتبرها كعينات عشوائية، ويحسن أن نذكر أخيراً حول هذا الموضوع ما كتبه الدكتور (محمد جابر الأنصاري) يقول: بعد مضي أكثر من أربعين عاماً على الهزيمة فإن الدراسات التي أجريت في (مصر) حول الهزيمة المذكورة قد نبهت إلى أن الانقطاع التاريخي الطويل بين المجتمع الأهلي العربي، وبين مهام ومسؤوليات الحروب النظامية الوطنية الشاملة، كان من بين الأسباب العميقة لهذه الأزمة القومية الكبرى، فمن وجهة نظر تاريخية تحولت المنطقة العربية من طرف في الصراعات إلى مجرد ساحة لها بين متصارعين من خارجها... وأصبحت الحرب تاريخياً من اختصاص الأمراء الأتراك، والمماليك ثم العثمانيين، وفي كل هذا لم يكن للعرب دور في إدارة الحرب، فيما عدا فصل عابر، فترة الحروب الصليبية، وفي هذه العصور كانت الأمة العربية تعرض فكرة التمرد والعصيان والثورة،

وقدر مارستها جميعاً بالفعل في لحظات مختلفة من حياتها، لكن الحرب ظلت فكرة بعيدة وتائهة من الماضي، السحيق متصلة بحماسة الشعراء أكثر من اتصالها بالدفاع عن الأوطان [897] وهذا ما حصل في تاريخنا المعاصر أي (**1967**).

والمحصلة بأن منتصف القرن العشرين لم يكن العرب في رأي (هيكل) بعد قد تعرفوا على فكرة (الصراع) وقوانينه [898] وبداهة وقوعه بين الأطراف المتنازعة، بل بداهة وقوعه بين الأفراد والجماعات، وفي أية لحظة، وعلى دور الصراع في صهر وحب وصياغة معادن الأمم كان العالم قد عاش تجربة حربين عالميتين، وكان الشرق الأوسط في قلب هذين الحدثين لكن أهله ظلوا بعيدين عن ما كان يجري على أرضهم [899].

لقد ذكر (هيكل) في كتابه (الانفجار) ما كان قد قاله (الأنصاري) من حيث جهل القيادات العربية السياسية لما كان يجري حولهم على الساحة العالمية.

خاتمة:
قمة المواجهة للقيادات السياسية العربية
هل من رؤية مشتركة لإدارة الصراع؟

قمة المواجهة، وإدارة هزيمة 1967:

في (أغسطس/آب 1967) ذهب القادة العرب إلى (قمة) تحت شعار إرادة المواجهة، وساعدهم على ذلك أنها أي القمة عقدت وسط زخم جماهيري سوداني، عام حيث استقبلت جماهير السودان الرئيس الراحل (عبد الناصر) استقبال الفاتحين بالرغم من وقوع الهزيمة، وفي إشارة واضحة إلى إرادة الصمود لدى الأمة، والشعوب العربية مما انعكس إيجابياً على أعمال المؤتمر.

وأياً كان مستوى التمثيل[900] فيها حيث كان (عبد الناصر) قبل انعقادها بقليل قد أعلن في خطاب قوله في جملة مختصرة: ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة، ولو أن هذه العبارة كانت من قبيل الأسلوب الإنشائي الخطابي في ذلك الوقت، لأنه لم يعد باليد لا حيلة، ولا قوة ولكن (اللا شعور الجمعي) كان قد أقام الصلوات وقدم القرابين على مذبح هذه العبارة التي دغدغت مشاعره، وأحييت عنده بعد الإحباط الشديد، من جديد شعوراً بالعزة والكرامة ومن ناحية أخرى لقد عقدت هذه القمة على خلفية صراع عربي – عربي (مصري – سعودي) حول اليمن، لكن إرادة القيادتين كانت تميل بقوة إلى اتجاه تجاوز الخلاف، وهو ما تم بالفعل، وقد تم التركيز على مواجهة تداعيات (الآثار الجانبية) للهزيمة.

كذلك عقدت هذه القمة في ظل توازن دولي – أمريكي سوفييتي سمح للعرب بالتفكير في إعادة بناء قوتهم العسكرية... وكان للعرب تلك المرحلة وزنهم النسبي الذي جعل رئيساً أمريكياً شديد العداء لهم وهو (ليندون جونسون) يشير في رسالته إلى الرئيس اليوغسلافي (جوزيف تيتو في 9 آب 1967) إلى التسوية، ويقول لا يجب أن تمس كرامة العرب أو نجبرهم على التنازل عن أية حقوق مشروعة[901].

أما إدارة الهزيمة، فقد خرجت قمة 1967 بقرارات تشكل قاعدة الانطلاق نحو إدارة جديدة للصراع، وقد عكست هذه القرارات مشاعر أفراد الأمة بالمواجهة وإرادة الصمود، جاءت هذه القرارات بشكل مقتضب وحازم ولا يتجاوز سطور كتابتها الصفحة الواحدة من القطع المتوسط تقول بـ:

- وحد الصف العربي.
- العمل الجماعي.
- إزالة آثار العدوان.

أسست هذه القمة لإدارة الصراع مع إسرائيل التي قامت مرجعيتها على كلمات ثلاث هي اشتهرت فيما باللاءات الثلاث: لا صلح ولا اعتراف ولا تفاوض وعلى الرغم من الهزيمة النكراء خرجت القمة حينذاك بلاءات كما قلنا، دون أن يعني ذلك رفض العمل السياسي[(902)] أو متابعة إدارة الصراع بالأسلوب السياسي ولكن على الصعيد الدولي.

إيجابيات القمة وسلبياتها في إدارة الصراعات الخارجية:

ليس الباحث هنا بصدد إطلاق أحكام قيمة ولا تقييم الإدارة السياسية للقمم، أو لهذه القمة للقيادة السياسية العربية والمتعلقة بالصراع العربي الإسرائيلي، ولكن مسار عملنا يضطرنا ذكر بعض الجوانب الإيجابية والأخرى السلبية لنترك القارئ يقارن، ويقرأ أسلوب إدارة الصراع هذا كما يشاء أو يقرأ النتائج لمجريات مرحلة ما بعد 1967 وصولاً إلى عام 2006.

قمة الخرطوم، أغسطس 1967:

- لم يحضر القمة سوى سبعة ملوك ورؤساء، ومثلت أربع دول... دون مستوى القمة كانت نسبة التمثيل أقل من 60% وغابت سورية.
- عادة الغياب عن المؤتمرات، عادة قديمة لدى الرؤساء والملوك والقادة.
- ذهب القادة بإرادة المواجهة والصمود.
- أحيطت القمة بزخم شعبي عارم.

- بدأت القمة على خلفية صراع: مصري - سعودي حول اليمن، تم تجاوزه مؤقتاً للتركيز على مواجهة تداعيات الهزيمة.

- عقدت القمة في ظل توازن دولي - أمريكي سوفييتي - معقول يسمح للعرب إعادة بناء قوتهم العسكرية.

- عدم رغبة الرئيس الأمريكي في رسالة 9 آب 1967 وعدم مس مشاعر القادة والشعوب العربية.

- خرجت القمة بقرارات مقتضبة ذات صيغ حازمة، وتؤكد على وحدة الصف العربي والعمل الجماعي، ومحو آثار العدوان، وتم تأسيس جديد لإدارة الصراع.

- تم التأكيد في القمة على استرداد الأراضي المحتلة.

- بالرغم من الهزيمة خرجت القمة بلاءاتها الثلاثة.

- فهمت القمة العمل السياسي كإدارة للصراع في مستواه السياسي، وأرادت إتباعه بالطرق السليمة.

- تم اتخاذ قرارات الدعم المالي لدول المواجهة[903] وهو ما يشكل السند المالي (الموارد) لإدارة الصراع العسكري مستقبلاً.

منذ ذلك التاريخ، وحتى يومنا هذا اثبت تطور الأحداث في التاريخ السياسي العربي المعاصر تراجعاً، وعجزاً شاملاً للنظام السياسي العربي، عبر قممه التي عقدت حتى تاريخ 2006 أو بتعبير آخر العجز عن العمل الجماعي الموحد في إدارة صراع يهدد هذا الجمع الموحد مما سمح للاختراق الخارجي واللاعب القديم الجديد - أي الولايات المتحدة الأمريكية من: الإمساك بإدارة الصراع العربي الإسرائيلي.

قمة عام 2006:

كان العام 2006 أي قمة هذا العام العربية، يجسد المراحل السابقة، أو بتعبير أوضح جسد تراكماً للمراحل السابقة، حيث ظهرت مشكلات القيادات السياسية العربية، وعدم قدرتها على إيجاد صيغة مشتركة أو رؤية مشتركة لمواجهة الصراع، ووضع

الخطوات الخاصة للتنفيذ لإدارة هذا الصراع، وأصبح النظم السياسي بعد التدخل الأمريكي الصارخ مكبلاً فاقد القدرة على الحركة والفعل، أو اتخاذ زمام المبادرة.

جاء في التقرير الذي قدمه أحد الباحثين في مؤتمر (حال الأمة العربية 2006 – 2008) ما يلي: شهد النظام العربي – القيادة السياسية العربية حتى عام 2006، تناقضاً واضحاً بين قواه ومؤسساته الرسمية التي كشفت عن عجز متفاقم بصدد مواجهة التحديات المتمثلة في الاختراق الخارجي، والتفكك الداخلي، ولم يستطع إيجاد الأرضية المشتركة ولا القاسم المشترك ولا نقاط الاتفاق بين: أطراف الممانعة، والمقاومة، وأطراف الحلول السلمية للصراع.

قمة عام 2006:

– حضر ثلاثة عشر زعيماً عربياً، وكانت النسبة تقريباً كسابقتها عام 1967.

– حضر القادة مؤتمر 2006 مسلمين بالواقع، والحالة الجديدة التي استجدت، راغبين في تكريس التكيف مع هذا الواقع، وساعد على ذلك ت راجع دور الجامعة العربية بصفة عامة واهتزاز ثقة الشعوب العربية في قدرة مؤسسة القمة على مواجهات التحديات.

– كان إعلان الخرطوم العام 2006 قد سجل مؤقفاً من كافة قضايا العالم بدءاً من الحوار بين الحضارات وانتهاء بإلزامية التعليم الابتدائي.

– لم تتم الإشارة في هذا المؤتمر إلى احتلال العراق.

– كرست قمة 2006 المبادرة العربية (لإدارة الصراع) في قمة بيروت 2002 والتي تعد بالتطبيع الكامل بين كافة الدول العربية جهة إسرائيل مقابل انسحابها من الأراضي المحتلة لعام 1967.

مثل (أبو مازن) القيادة الفلسطينية في هذه القمة مما سجل علامة فارقة في مسار النظام السياسي العربي، وعلى الرغم مما بدأ من تحديات هائلة تواجهها خاصة بما يتعلق بالأمن القومي[904].

كانت إحدى العقبات التي وضعت أمام القمم العربية لمرحلة ما بعد 1967 عدم الإعداد الجيد للمؤتمر لذلك كان بعض القادة يضعون قبل قبولهم الحضور شرطاً مفاده:

الإعداد الجيد، لجدول الأعمال، وهو ما يخفي (اللا شعور) عدم الرغبة في المشاركة.

ظهور الخلافات والمواجهات الشخصية والكلامية أثناء المؤتمر، مما أفسد جو الحوار والمؤتمر، ومما أعاق وضع خطة لإدارة الصراع أو التحديات المطروحة.

انتهى التقرير إلى خلاصة تتمحور حول: تفاقم العجز عن تحقيق الأهداف وعدم القدرة على تحقيق مصالح الأنظمة السياسية العربية الإستراتيجية، سياسياً، واقتصادياً، وأمنياً[(905)].

ولعل الأهم من كل هذا ما ذكره التقرير المذكور، وهو ما بدأ في العقود الأخيرة، أن النظام السياسي العربي ممثلاً بقياداته يعاني من غياب رؤية إستراتيجية[(906)] لإدارة الصراع، وهذه النقطة تمثل غياباً كاملاً من قبل القيادة عن مطالب شعوبها العربية.

الفصل الرابع والعشرون
الإدارة الأمريكية للصراع العربي ـ الإسرائيلي

مقدمة: جذور الفلسفة السياسية الأمريكية ـ نمط التفكير الأمريكي العام: البراغماتية Pragmatism:

1- شائع في تاريخ الفكر الفلسفي أن الأب التاريخي للمذهب البراغماتي هو سي.م. بيرس (1839 – 1916)، مثل فكر هذا الفيلسوف نقيضاً تاماً لفلسفة فرنسية كانت شائعة أيضاً، تقوم على أسس (ميتا فيزيقية) غيبية، فجاء (بيرس) بأفكار جديدة تتعلق بإعادة بناء الفكر، والسلوك الإنسانيين، وتقوم هذه النظرة على إيجاد طرق أخرى للنظر إلى الواقع، والبحث عن الحقيقة، وإدراكها، وتحصيل فائدتها ونفعها للبشر، عوضاً عن الاستغراق في أمور (غيبية) لا تعني بواقع الناس، وحياتهم المباشرة، ولا نلمس بواسطتها حقائق الأشياء، ولا نتائجها الفعلية، أو العملية في الحياة.

وقد دعيت هذه الطريقة الجديدة في التفكير بالبراغماتية، أو بالذرائعية، وشيع في تاريخ الفلسفة أن (بيرس) هو مؤسسة هذه الفلسفة الأمريكية، وهنالك جدل أكاديمى حول ما اذا كان (بيرس) هو المؤسس لهذه الفلسفة، أم أن فيلسوفاً آخر، تنسب إليه، وهو (وليم جيمس) (1842 – 1910) أو حتى المربي جون ديوي (1859 – 1852).

وبغض النظر عن هذا الجدل الأكاديمي في القاعات الجامعية أو على صفحات المجلات المعنية، علينا أن نقدم وباختصار شديد – نأمل أن يكون واضحاً – الخطوط العريضة لهذه الفلسفة التي تركت بصماتها في التربية والثقافة، وأسلوب التفكير الأمريكي في الحياة، وفي السياسة الداخلية، والخارجية.

كان (بيرس) و(جيمس) يقولان أن أية عبارة تزعم أنها حقيقة ينبغي أن تكون لها نتائج عملية، أي يجب أن تسمح بإمكان قيام فعل Action معين في الواقع الحاضر أو في المستقبل، وتكوين الاستعداد للتصرف في الظروف المماثلة[907].

يوحي هذا الكلام النظري بالقول أن الحقيقة هي ما يمكن أن يفعله وهي ما يمكن أن تقدم لنا من نتائج عملية.

وبعبارة ثانية ليس هناك بحث عن الحقيقة من أجل الحقيقة، بل البحث عنها لكونها أو يجب أن تكون لها نتائج عملية، (براغماتية) في الواقع، وما عدا ذلك، فأي بحث عن الحقيقة من أجل متعة البحث هو من قبيل العبث ولا طائل تحته، ومضيعة للوقت والجهد.

والنقطة الثانية في هذه الفلسفة هي الجانب التجريبي Empiricism والعبارة تعني أن الأمور يجب أن تقاس بمدى خضوعها للتجربة، ومشاهدتها، ولمس نتائجها، وأن تكون خاضعة بشكل أو بآخر، للتجربة، يبدو أن (جيمس) لا يعترف بشيء ما لم تكن له نتائج عملية والشيء الوحيد الذي يستحق الاهتمام هو ما يكون جزءاً من التجربة.

نفهم من كل ذلك أننا نميل بفكرنا إلى التركيز على العالم المادي، لأن التجربة متعلقة بالعالم المادي (المخبري)، وباعتبار أن فلاسفة (البراغماتية) يستعبدون النظرات الغيبية التي لا نلمس نتائجها المباشرة في الحياة.

ويفضل هؤلاء الفلاسفة التجارب والنتائج الفعلية والعملية على التأمل البارد، والتفكير العقلي التحليلي، والمجرد الذي يغرق في البحث عن المقدمات، والنتائج المنطقية، الشكلية والتي لا صلة لها بالحياة النابضة بالحركة، والفعل، والحيوية.

لقد شرح (جيمس) في كتابه الرئيسي، الذي يحمل عنوان (البراغماتية) 1907 بقوله: البراغماتية، من حيث هي منهج في الفكر والسلوك لا تفرض مقدماً أية نتائج بعينها، إنما هي مجرد وسيلة للتعامل مع العالم، وقوام هذا المنهج هو أن التمييزات التي لا تنطوي على فوارق عملية، لا معنى لها، ويؤكد على أن هذا المنهج يقود إلى أن النظريات العلمية هي أدوات، لفعل، أو السلوك في المستقبل يتضمن نتائج ملموسة، عملية، وواقعية، وهي ليست إجابات نهائية عن أسئلة الطبيعة.

البراغماتي يصر على فحص كل كلمة بدقة مطالباً بما أسماه ب–(قيمته النقدية Cash Value)، ولا تبقى بعد هذا إلا خطوة واحدة نحو التعريف البراغماتي للحقيقة بأنها حالة نتائج مثمرة، وإلى مثل هذه النتيجة ينتهي (جيمس) في تصوره الوظيفي للحقيقة[908].

أي أن الحقيقة هي بقدر ما لها نتائج عملية، ومثمرة، لا وجود لأية قضية، أو حقيقة ما لم يكن لها نتائج عملية.

إن الوعي مرتبط بالبحث عن النتائج، وعندما نقول بالعربية أن الأمور تقاس بنتائجها، أو بـ (خواتمها) فهذه العبارة تعبر عن عقلية براغماتية.

والنجاح هو معيار الحقيقة، وهو معيار العمل الذي نصنعه، وإذا قابلنا الفشل أو تعرضنا له، فليس معنى ذلك أننا فاشلون، بل إن الفشل يجب أن يقودنا إلى النجاح بعد المحاولة تلو المحاولة، وأخيراً يربط البراغماتيون الوسائل بالغايات ربطاً محكماً، ولقد اصطبغت العقلية الأمريكية، نظرياً وأيديولوجيا، وعملياً بهذه الفلسفة، والتي تطابقت في كثير من جوانبها مع الأيديولوجية الرأسمالية، إذ أن النظام الرأسمالي ينظر إلى العالم وهو من خلال العامل الاقتصادي ودوره في التاريخ، وحركة العالم يركز على نتائج الفعل، الربح، أو الخسارة، فالعمل الجيد عندما يقود إلى الربح والعمل الفاشل يقود إلى الخسارة، وبعبارة ثانية تعيش العقلية الأمريكية وحتى (العقلية الأوروبية الغربية) ومنذ نشوء النظام الرأسمالي تحت تأثير هذه الثنائية في الفكر والسلوك أي: دور العامل الاقتصادي، والنتائج العملية للمسائل والقضايا.

2- **العنصر الثاني في الفلسفة الأمريكية وهو**: البعد الديني: لقد ظهر في الولايات المتحدة، منذ تكوينها وتحولها إلى (موازييك) اثني ثقافي، ديني، لغوي[909] وقد شكل الدين بعدا جوهرياً في تكوين العقلية الأمريكية، وعندما نقول بالبعد الديني، فإننا نتصور احتمال تطور الشعور الديني هذا وينقلب إلى "تفكير ديني أصولي" ويوجد في الولايات المتحدة عدد هائل من المنظمات الدينية تطور أمرها مع التحولات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية،ووجود مجتمع وسوق لا ضابط لحريتهما المطلقة.

وعلى صعيد (البروتستانتية) لقد ظهر ميل جارف يواكب القرن العشرين، حيث رأى الباحث في موسوعة الأديان أن هزة دينية كانت وراء نشأة فكرة الأصولية الدينية، ويرجح أن هذه الفكرة (الأصولية) تحولت كمصطلح في مؤتمر عقد حول الكتاب المقدس 1910 في منطقة شلالات نياغارا[910] حيث رأى (وليم فانس ترد للنجر) أن هذه الأصولية ارتبطت دائماً بالوطنية المتشددة والعسكرية، واقتصادياً السوق لدى أمريكي ما

بعد (فيتنام)، وما بعد (ووترغيت) حيث لعب المتحمسون سياسياً دور في الدعوة لإعادة انتشار أمريكا مسيحياً، وجعلها تلعب دوراً مهماً في إحياء الحق[911].

التقت الفلسفة الأمريكية البراغماتية، والبعد الديني المساوق لها بظلالها على الحياة السياسية الأمريكية، ولاسيما أن أصحاب النظريات السياسية، والأكاديميين السياسيين الأمريكيين، وخبراء السياسية الأمريكية، وكبار الموظفين في الحياة السياسية الأمريكية وأساطين الفلسفة الأمريكية الداخلية والخارجية (نفترض) أن جميع هؤلاء قد تلقوا في تعليمهم الأكاديمي، وفي تربيتهم داخل المنزل وفي البيئة الخارجية الآثار الملموسة لمكونات هذه الفلسفة، والخلاصة أن الخلفية الفكرية السياسية الأمريكية تتكون من:

1- الفلسفة البراغماتية.

2- الرأسمالية الاقتصادية.

3- البعد الديني.

لا يهمنا في هذا العرض السريع لعناصر الفلسفة الأمريكية، والتي تكون القاعدة العامة للتفكير أو العقلية الأمريكية وانعكاسها على مجمل السياسة الخارجية، وتعاملها مع وقائع العالم، بقدر ما نريد التركيز على الجانب الذي عني الباحث هنا وهي طريقة تعامل هذه العقلية مع مشكلات الوطن العربي، وخاصة طريقة إدارة الصراع العربي الإسرائيلي، وبالتالي عرض بعض سلبياتها.

نبذة تاريخية عن العلاقات الأمريكية العربية[*]:

خضع التدخل الأمريكي في بدايته مع الوطن العربي ومنذ القرن التاسع عشر لسيطرة المنظمات والهيئات الدينية، وكذلك البعثات العلمية الأكاديمية، وقد انصب التدخل منذ بدايته في عشرينات القرن التاسع عشر حيث نزل اتباع الكنيسة المسيحية البروتستانتية أولاً في (لبنان) وكان آنذاك جزءاً من سورية وأسس هؤلاء فيما بعد الجامعة الأمريكية في

---

[*] إن عملنا هنا استنباطي، أيضاً أننا نستخرج من الأصول العامة لنمط التفكير الأمريكي البراغماتي (فرعية التعامل بناء على هذا الأصل، الأمريكي في السياسة الخارجية وهنا المقصود في جزائية سياسية في هذه السياسة الخارجية أي بخصوص مشكلات الوطن العربي.

بيروت حوالي 1860 وكذلك أنشأت البعثات التبشيرية التابعة للكنيسة الإصلاحية في الخليج العربي سلسلة من الإرساليات التي وصلت إلى (العراق) و(عمان).

انتقل التركيز على المنطقة من الجانب التبشيري الديني، لصالح الكنيسة، والتعليمي، إلى الجانب الاقتصادي، ذلك أنه وقبل نشوب الحرب العالمية الثانية أخذ الاهتمام ينصب في المنطقة، بشكل أساسي في الدفاع عن المصالح التجارية، وخاصة مصادر الطاقة (النفط) فقد شهد الشرق الأوسط فترة حافلة بالاهتمامات الإستراتيجية في الحرب العالمية الأولى عندما انقطعت الإمدادات النفطية عن الحلفاء، في الشرق الأوسط ثم برز تأثير المصالح الإستراتيجية في الحرب العالمية الثانية، وللأسباب نفسها تقريباً.

وفي الفترة الفاصلة بين الحربين كان الاهتمام الرسمي بالمنطقة متقلصاً، ولم يتعد ضمان حصول بعض شركات النفط على المزايا التنافسية نفسها، والتي كانت تحصل عليها شركات النفط الأوروبية[911].

ولنر، ماذا حصل أثناء الحرب العالمية الثانية في مجريات الأمور في الشرق الأوسط وفي (فلسطين) يقول باحثان أمريكيان، تغير تقدير الأهمية الجيواستراتيجية للمنطقة بشكل جذري فقد أخذ المخططون العسكريون الأمريكيون والبريطانيون ينظرون إلى المنطقة على أنها مسرح مهم للعمليات الميدانية، ويمكن أن تشكل منطلقاً لإيصال الحلفاء إلى جنوب أوروبا فضلاً من كونها جسر عبور للإمدادات العسكرية التي تحتاجها القوات الأجنبية بشكل ملح.

فلسطين وأمريكا:

ذكر في زاوية صحفية حول هذه النقطة ما يلي: نحن الآن في عام 1943 أي أبان الحرب العالمية الثانية، ومشكلة فلسطين بدأت تظهر على شاشات رادار (واشنطن) بفعل عاملين: تزايد الحراك الصهيوني الضاغط، وردود الفعل العربية الغاضبة عليه والفرصة أمام (واشنطن) لصياغة أكثر إيجابية جاءت في ربيع ذلك العام، حيث بعث الرئيس روزفلت فرانللين (1882 – 1945) في (26 أيار/مايو) رسالته إلى الملك (عبد العزيز بن سعود) جاء فيها: إن رأي إدارتي هو أنه يجب عدم اتخاذ أي قرار يغير الوضع الأساسي لفلسطين من دون التشاور الكامل مع العرب، واليهود[913].

1- كانت هذه المرحلة بالغة الأهمية، لأنها جاءت في وسط الحرب العالمية الثانية، وبداية انهزام القوة الألمانية النازية.

2- ومن ناحية ثانية كانت المرحلة مهمة تاريخياً لفهم الدور الأمريكي، ليس فقط وراء إقامة دولة إسرائيل بل أيضاً، دفع مشروع هذه الدولة إلى الحالة القصوى التي كانت تطالب بها الحركة الصهيونية[914].

3- إن التفسير عرضه (ايفلد ويلسون) في كتابه الذائع الصيت حول فلسطين لطبيعة التشاور الكامل التي تبنتها الإدارة الأمريكية في العام 1943 إذ يقول: إن صيغة التشاور الكامل لم تعن، كما زعم، الحصول على موافقة العرب قبل أن يطرأ أي تغيير على الوضع الأساسي، ذلك أن التزامنا لأطراف النزاع هو التشاور معهم، وفي العام 1946 دارت مشاورات مع العرب واليهود، وبعدها حكمنا أننا بذلك نكون قد نفذنا التزامنا، ثم يوضح (ويلسون) كيفية تطبيق دبلوماسية التشاور الكامل بقوله أنه كان يطلب من وزارة الخارجية أن تصدر بياناً توضيحياً بعد كل تصريح رئاسي، يوافق عليه الرئيس، ويصاغ في تعابير عامة لإرضاء العرب كان (روزفلت) يعلق على بيانات وزارة الخارجية حول ردد الفعل العربية بقوله إنها بالضبط رسالة وزارة الخارجية، وهي لا تقول شيئاً[916].

4- مع نهاية الخمسينات كان للولايات المتحدة حضور عسكري واسع في المنطقة، وكان للمرتكزين السياسي والعسكري لإستراتيجيتها: محور شمالي ومحور جنوبي، وقد شمل المحور الأول كلاً من: اليونان، تركيا، وإيران، وكانت (طهران) بمثابة مركزه الأساسي أما المحور الثاني، فقد شمل المملكة العربية السعودية، وأثيوبيا[916].

5- في الخمسينات أيضاً، وتحديداً في النصف الثاني منها - عقب حرب السويس، وتراجع الإمبراطوريتين القديمتين (فرنسا، وبريطانيا، من الساحة العالمية، وبداية تخليهما شيئاً فشيئاً عن مستعمراتهما وصعود النجم العالمي الولايات المتحدة، احتكارها للقوة العسكرية الضارية، والمتقدمة مع احتيازها للسلاح النووي، جعل منها حاملة بيدها ملف الصراع العربي الإسرائيلي.

6- في تلك الأثناء نتج عن تأييد الولايات المتحدة الفوري لقيام دولة إسرائيل واعتراف الأمم المتحدبة بنهاية 1948 بها نشوء علامة فارقة أي نشوء علاقة في غاية التميز مع الدولة الجديدة لجدواها الاستراتيجي.

وكونها واقعة في شرق البحر المتوسط، والتي أصبحت ركناً أساسياً من أركان السياسة الأمريكية في الشرق الأوسط، منذ ذلك الوقت[917].

تزايد التعاون الإستراتيجي بين الولايات المتحدة وإسرائيل بعد حرب 1967 إبان ازدياد توتر العلاقات بين الشرق والغرب، واشتداد الحرب الباردة، بينهما، وازدياد ضغوط اليسار العالمي وضغوط الأحزاب الشيوعية في أوروبا والعالم، وكانت الإدارة الأمريكية برئاسة (ليندون جونسون) تظهر عداءها المكشوف للعرب، وخاصة الدول التي انتهجت السياسات الثورية، وانحازت إلى الاتحاد السوفييتي (السابق) وتعقدت محاولات الولايات المتحدة في تقوية علاقاتها الإستراتيجية مع العالم العربي[918] نتيجة انحيازها الكامل لإسرائيل، وتأييدها لعدوان 1967.

7- تجلت تأثيرات الفلسفة الأمريكية التي تحدثنا عنها سابقاً، وخاصة القائمة على أن معيار الفكر أو السلوك السياسي هو ما يعطي نتائج مثمرة، ومباشرة، وقد ظهرت هذه التأثيرات في سعي السياسة الأمريكية الخارجية المتعلقة بالمنطقة عموماً الساعية لتحقيق معالمها (المثمرة - المباشرة) خلال الحرب الباردة أي ما بين منتصف الخمسينات إلى نهاية الستينات، والتي حققت ما يلي:

احتواء امتداد النفوذ السوفييت في المنطقة.

- وضع حد للنفوذ الشيوعي، وتحجيم الأحزاب الشيوعية.

- دعم سيادة إسرائيل، وأمنها، وخاصة ما جنته من مكاسب في حرب 1967.

- الحصول على النفط بأسعار معتدلة، بناء على تزايد الطلب الغربي، والياباني عليه، والوارد من إيران، ودول الخليج العربي، وشمال أفريقيا (ليبيا)[919].

- استقرار الدول العربية الصديقة، للولايات المتحدة وذات النظم المحافظة، ومنح هذه تسهيلات عسكرية، والدعم السياسي لأمريكا في عملية احتوائها للنفوذ السوفييتي[920].

انتهت السياسة الخارجية للأمريكيين في هذه المرحلة إلى تثبيت الركائز الثابتة فيما يتعلق بمنطقة الشرق الأوسط، والوطن العربي، والصراع العربي الإسرائيلي وهي:

– النفط، وتحقيق النصر والمكاسب في مجال الصراعات والتنافسات النفطية على المستوى العالمي.

– كسب الساحة الجيوبولتيكية أي امتداد النفوذ الأمريكي السياسي جغرافياً.

– النفوذ السياسي العسكري.

– الوصول إلى المنطقة لضمان حرية التجارة الأمريكية الحرة الآمنة.

– الدين والثقافة – الترويج للثقافة وأسلوب الحياة الأمريكية، والجذب الديني للمذهب البروتستانتي.

على ضوء هذه الركائز، وحتى تتضمن تحصيل نتائج، ومكاسب مباشرة، وحسب العقيدة الفلسفية الأمريكية البراغماتية بدأت الإدارة الأمريكية تخطو خطوات ثابتة وأكيدة في المنطقة.

أما بالنسبة للصراع العربي الإسرائيلي، لقد كانت الإستراتيجية الأمريكية طوال مرحلة الحرب الباردة أي منتصف الخمسينات إلى 1989 مروراً بحرب السويس ونكسة حزيران، وانتهاء بسقوط جدار برلين، تنطلق في هذه الإستراتيجية من خلال الصراع الأكبر لتلك الحرب الباردة وتوضيحاً لهذا فلقد تركزت الإدارة لهذا الصراع في:

الدعم الكامل لإسرائيل مادياً ولوجيستياً، وجعلها شريكاً إستراتيجياً في صراعها مع العدو الأكبر آنذاك وهو الاتحاد السوفييتي أو الكتلة الشرقية.

دعم الدول العربية الصديقة، ودول إقليمية أخرى في المنطقة صاحبة الأنظمة السياسية المحافظة، وجعلها سداً منيعاً أمام أي تغلغل أو محاولة نفوذ للمعسكر الشيوعي.

ضمان استمرار تدفق النفط من إيران والخليج، وشمال أفريقيا.

فإدارة الصراع كانت تدور ضمن دائرة محددة، وخطوات عملية، ولقد انتهجت الولايات المتحدة أسلوب الصدام والمواجهة غير المباشرة مع الأطراف المناوئة لإسرائيل وعن طريق الدعم العسكري لإسرائيل، وتجيش الآلة الإعلامية، والفن والسينما (هوليوود) وكافة وسائل الإعلام داخل أمريكا وخارجها في مناطق النفوذ الإعلامية في جميع أنحاء

العالم لتشويه صورة العرب، ومسخ الشخصية العربية – الإسلامية في مخيال الشعوب الأمريكية – الأوروبية فإدارة الصراع من الجانب الأمريكي كانت في هذه المرحلة إدارة إشرافية، توجيهية، موجهة داعمة (عسكرياً ومالياً) دولة إسرائيل.

وفي منتصف الستينات من القرن الماضي حضر وزير الخارجية الأمريكي (الجمهوري) (هنري كيسنجر) إلى إسرائيل لإلقاء محاضرة في <إدارة الصراع>، وأضاء الطضريق علماً، وفلسفة، وفناً لإدارة الصراع، وعرض نظيراته الخاصة في هذا المجال.

تطورات الإدارة الأمريكية للصراع العربي الإسرائيلي:

عززت أحداث السبعينات من القرن الماضي (انتهاء مسؤوليات بريطانيا الدافعية من منطقة الخليج، وحرب أكتوبر 1973 بين العرب والكيان الإسرائيلي، وانتهاء حرب فيتنام/وبروز شاه إيران يدور الشرطي في المنطقة، وتحقيق المشروع الأمريكي لتسليح (إيران) وخلق توازن عسكري في (السعودية) وبعض دول الخليج، وكان العراق في تلك الفترة معادياً نسبياً للمصالح الغربية[921].

ومع نهاية السبعينات، بدأت أساليب إدارة الصراع المبنية على افتراضات السياسة الخارجية السابقة، تتداعى خاصة بعد انفجار الوضع في إيران، وقيام الثورة الإيرانية 1979 تم نشوب الحرب العراقية الإيرانية في الثمانينات من القرن الماضي، والتهديد يتوقف تدفق النفط كل هذه العوامل المتعددة، والسياق الجديد، جعل أمريكا تعيد التفكير أو بالأحرى، البحث عن طرق بديلة لإدارة الصراع العربي الإسرائيلي، كبرى الصراعات في الوطن العربي[922]، وخاصة عند اندلا ع الانتفاضة الفلسطينية في الأراضي المحتلة أواخر الثمانينات من القرن الماضي.

ومع انتهاء الحرب الباردة، أفاق العالم على بدعة أمريكية جديدة وهي الحديث عن نظام عالمي جديد، وتلاحقت الأحداث على مستوى العالم، والوطن العربي، وظهرت مستجدات جديدة هي:

الإعلان عن نظام عالمي جديد 1990 في خطاب للرئيس الأمريكي جورج والإعلان عن انتصار الرأسمالية، وانتهاء الحرب الباردة.

انهيار الاتحاد السوفييتي بسقوط جمهوريات الاشتراكية الواحدة بعد الأخرى.

حرب الخليج الثانية 1990.

احتلال أفغانستان.

حرب يوغسلافيا والبوسنة والهرسك.

احتلال العراق.(مارس–ابريل 2003)

الحديث عن بداية (نهاية التاريخ) بالانتصار الكاسح للرأسمالية الغربية.

الترويج لنظرية صراع الحضارات، أو التنظير للحروب الأمريكية القادمة.

هذا هو السياق العالمي، والإقليمي الجديد الذي ارتسم أمام لوحة الخارجية الأمريكية.

مرحلة ما بعد الحرب الباردة:

كان من نتائج، أو الآثار الجانبية(التداعيات) لإنفجار الاتحاد السوفييتي من الداخل، وانهيار حلف (أوسلو) نشوء فكرة جديدة للسلام العالمي، مبني على القوة الأمريكية ذلك أنه كان من أربعة عقود من الاستقرار الأوروبي القائم على القطبية الثنائية bipolar، تراجعت أمام المنافسات العرقية، والأزمات المتفاقمة في شرق أوروبا، ووسطها، اشتعلت الحرب الأهلية اليوغسلافية التي مثلت صورة عنها وغالباً ما درجت الحكومات الغربية على الاختلاف مع الولايات المتحدة في فهمها التحديات التي تواجه المصالح الغربية في الشرق الأوسط[923].

بدأ العالم الجديد، وتحت قبة نظام عالمي جديد، بظهور عالم وحيد القطب Unipolar وبالتالي كنتيجة منطقية واضحة أصبحت هذه القوة الوحيدة، والواقعية وهي الولايات المتحدة الأمريكية وهي التي أمسكت بملف الصراع العربي الإسرائيلي.

لقد أوجدت البيئة العالمية الجديدة فرصة ذهبية للولايات المتحدة لإدارة الصراع العربي الإسرائيلي منفردة والسير قدماً، واثقة الخطى لتطبق، ودون عوائق تذكر إستراتيجيتها في المنطقة من ضمنها الصراع العربي الإسرائيلي. وقامت بمراجعة سريعة

لإستراتيجيته السابقة الموضوعة لتشمل الآن الشرق الأوسط و(الوطن العربي)، وشمال أفريقيا، وتعيد صياغة هذه الإستراتيجية دون تغيير الثوابت.

قلنا في مقدمة هذا الفصل أن التفكير والسلوك السياسي الأمريكي يقومان أو أنهما خضعا بشكل مباشر أو غير مباشر لتأثير البراغماتية، والرأسمالية، والروح البروتستانتية المسيحية وقد وضعت الفلسفة الأمريكية السياسية معيار الأداء السياسي وإدارة الشؤون السياسية، ومن ضمن هذه الأخيرة إدارة الأزمات والصراعات معياراً يقاس الأداء، والإدارة بمقياس النجاح، والفشل وبقدر ما يؤدي الفعل السياسي إلى نتيجة مثمرة، ويكون النجاح حليفاً، يكون هذا الفعل قد حقق الهدف الموضوع له، وبناء على هذه الفلسفة، فإن الإدارة الأمريكية عندما تولت مهام إدارة الصراع العربي الإسرائيلي، والذي بدأت طرفا غير مباشر فيه أثناء حرب السويس واقتربت لأن تكون طرفاً أكبر بقليل من المباشر في حرب 1967 وتدرج هذه السياسة لأن تكون طرفاً فاعلاً ومباشراً في الصراع إلى جانب إسرائيل أو شريكاً كامل الشراكة.

والواقع لقد أظهرت هذه الإستراتيجية الأمريكية منذ (حرب السويس) رغبتها في عقد الصلح بين أطراف الصراع و(التشاور) معها، والشروع بعملية سلام بينها.

ولكن حصل ثغرة في نوايا السياسة الأمريكية المرسومة أثناء فترة حرب السويس في عقد السلام بين الأطراف هذه الثغرة أحدثتها حرب يونيو 1967، وانتصار إسرائيل في هذه الحرب وكذلك إظهار السياسة الأمريكية عداءها للعرب كما بينا ذلك قبلاً وعلى لسان الرئيس الأمريكي (جونسون) وزعمه بأن العرب استفزوا إسرائيل في هذه الحرب، فعليهم أن يدفعوا الثمن.

وبعد حرب 1973 حصلت قفزة نوعية كما بينا ذلك قبلاً وعلى لسان الرئيس الأمريكي (جونسون) وزعمه بأن العرب استفزوا إسرائيل في هذه الحرب، فعليهم أن يدفعوا الثمن.

وبعد حرب 1973 حصلت قفزة نوعية في رسم الاستراتيجية الأمريكية وإدارتها للصراع العربي الإسرائيلي إذ أنها بدت هذه المرة <جادة> في رسم خطط سلام بين الأطراف المتنازعة.

الموقف الشعبي العربي من الإدارة الأمريكية للصراع:

في دراسة لـ: وليم كوانت William Quant حول الصراع العربي الإسرائيلي في التسعينات، واحتمالات التسوية، يقول الباحث... ولكي يتمكن المرء من تقدير المدى الذي وصلت إليه التغيرات في مجريات هذا الصراع، فإن عليه أن يقارن بين طبيعة الصراع في الستينات، وبداية التسعينات.

ففي المرحلة الأولى خرجت إسرائيل منتصرة من حرب حزيران 1967 وبدعم قوي من الاويات المتحدة[923].

ويقول (ريتشارد هرمان)، أحد علماء السياسة الأمريكية، إن القادة الأمريكيين يدركون أن لهم مصالح حيوية في الشرق الأوسط، ولكنهم يجابهون منطقة يسكنها شعب ينظر إلى الولايات المتحدة بروح العداء، وعلى إنها قوة إمبريالية معادية، وإنها مسؤولة عن بقاء الأنظمة السياسية العربية الفاقدة الشرعية[924].

بدأت أمريكا تظهر بالنسبة للأنظمة العربية الحكم، وبالنسبة للشعوب العربية الخصم.

والواقع أن الأنظمة العربية تتحفظ باطناً على نوايا الحكم الأمريكي، والشعوب قالت كلمتها ونظرت لأمريكا شريكاً لخصمها اللدود في فلسطين.

تنظر الشعوب العربية، وشعوب الشرق الأوسط عموماً بعين الشك إلى القوى الخارجية، وهو شك له جذور تاريخية عميقة، فقد أدت فترة الاستعمار الغربي الطويلة، وما تلاها من تنافس في إطار الحرب الباردة، وسياسة التدخل الأجنبي إلى الصعوبات الاقتصادية والسياسية الراهنة وإلى إثارة الشكوك في أهداف التدخلات الأمريكية، ونواياها[925] ومما زاد الطين بلة، كما يقال الدعم الكاملة والغير نزيه للولايات المتحدة لإسرائيل في صراعها، ضد الشعوب العربية.

مفتاح جديد لإدارة الصراع الأمريكية:

قلنا في مقدمتنا لهذه الصفحات بأن الفلسفة الأمريكية السياسية تقتضي الربط الوثيق بين الوسائل والغايات وأن غاية الإستراتيجية الجيوبولتيكية الأمريكية الوصول إلى منطقة الشرق الأوسط والوطن العربي لتحقيق مصالحها الإستراتيجية قد بينا سابقاً المرتكزات والمصالح الأمريكية في المنطقة.

تستخدم السياسة الأمريكية في تحقيق مصالحها مختلف الأساليب، كغيرها من الدول، فهي تلجأ إلى الوسائل الدبلوماسية والسياسية، وفي إداراتها للصراع العربي الإسرائيلي تلجأ إلى طريقتين أو وسيلتين أساسيتين في: السياسة، والعسكرية (الحرب)، وفي كلتا الوسيلتين تنظر إدارة الصراع المذكورة من منظور أمريكي صرف، فالوسيلة السياسية تسير في وضع خطط للسلام، ومن الناحية العسكرية الحربية فهي تدفع شريكتها إسرائيل للحرب.

إن الحرب أو تأجيج الصراع وسيلة في صلب بنية النظام الرأسمالي لتحقيق الأهداف الاقتصادية المباشرة إذن الصراع كامن في بنية النظام الرأسمالي، ولتحقيق الأهداف الاقتصادية المباشرة تلجأ القوى الرأسمالية إلى إزالة التنافس، من الساحة، لكي تتقدم وهذا الجانب العملي والنظري في الأيديولوجية الرأسمالية.

ومن ناحية ثانية إن الحرب ضرورة قصوى لأمريكا للمحافظة على تماسك بنيتها التاريخية الهشة، ودليل ذلك كثرة الحروب التي خاضتها أمريكا في العالم، فهي تلجأ إلى اصطناع، وتوظيف الحروب في خدمة مصالحها الاقتصادية[926]، وبنيتها الاجتماعية (الموزايكية)([*]).

في ضوء هذه الفكرة الأخيرة دفعت الولايات المتحدة إسرائيل والعرب إلى حرب أكتوبر 1973، لتحريك مسألة الصراع العربي الإسرائيلي، وتحقيق نصيب معين من النجاح لطرفي الصراع، وبالتالي الدخول في أزمة جديدة تحت مسمى: تسوية الصراع العربي الإسرائيلي.

ومن هنا فإن مفاتيح إدارة الأزمات والصراعات في الإدارة الأمريكية هي:

الحرب توليد الأزمات، وعدم حلها، والانتقال من أزمة إلى أخرى From Crise to Crise[927].

([*]) وكذلك الحروب الأخرى في العالم التي كانت فيها أمريكا طرفاً رئيسياً فيها: هذا بالإضافة لتحريك الصناعة العسكرية التي تدخل ضمن (العامل الاقتصادي) لصناعة الحروب، وتحتل الولايات المتحدة الأمريكية المرتبة الأولى في التكنولوجيا العسكرية وبيع الأسلحة في العالم، عن قناة الجزيرة الإخبارية يونيو 2008.

وبعبارة أدق إن الإدارة (الجمهورية) الأمريكية تقوم في إدارة السياسة الخارجية على:

- سياسة عدم إنهاء الأزمات.

- عدم حسم المشكلات السياسية المطروحة.

جعل الأزمات تتراوح في مكانها: إنها الإدارة بالأزمة (راجع الفصل المتعلق بإدارة الأزمة في الفصل الخامس في هذا الكتاب).

لا شك أن هذه وسائل مهمة لتحقيق المصالح الإستراتيجية الحيوبولتيكية الأمريكية في المنطقة، ولا ننسى أن الإدارة الأمريكية، ولتحقيق أهدافها، واتباع مثل هذه الوسائل، فهي توظف كل ما يمكن من الإمكانات النظرية والعملية واستخدام نتائج الدراسات والبحوث العلمية، وتقنياتها الخاصة، والدراسات الأكاديمية، وأعمال المستشرقين كبار الموظفين، والخبراء والمستشارين، وبكلمة مختصرة استخدام الأساليب العلمية في إدارة الأزمات والصراعات.

لقد استحوذت الولايات المتحدة الوسيط منفردة بإدارة الصراع العربي الإسرائيلي ونقلته إلى مسارات تفاوضية، وخلقت توجهاً عاماً وعالمياً، للعملية السلمية وتمت لقاءات مهمة، وعلى مستويات عليا، وجادة لتنشيط علمية السلام في مدريد، 30 أكتوبر 1991، وفي: أوسلو 20 أغسطس 1993، ونقول تنشيط وليس الحل.

العرب، أمريكا، وإسرائيل المواجهة السياسية والدبلوماسية:

اتسمت العلاقات الأمريكية العربية، (عموماً) منذ الخامس من يونيو 1967، بالتعقيد وسوء الفهم لمصالح العرب وحقوقهم، وانقسم الباحثون السياسيون، منهم من وقف إلى جانب الحقوق العربية، ومصالحهم، ومنهم من وقف ضدهم، وبدأ التناقض واضحاً، ولقد أرجع صاحب كتاب (الأمريكان، والعرب – المواجهة) الصادر بالفرنسية هذا التناقض بين المصالح العربية والأمريكية إلى:

1- مفهوم الهوية العربية الإسلامية الذي تتجاهله كاملاً الإدارة السياسية الأمريكية.

2- الاختلاف في القيم الأساسية بين الطرفين.

3- سوء فهم الخلفية الثقافية والدينية للمجتمعات العربية من قبل الإدارة الأمريكية.

ولقد أصبحت هذه التناقضات في النقاط المذكورة معقدة، تعود أساساً إلى طريقة فهم كل طرف للآخر لهذه الجوانب، والواقع أن الخلافات حول القضايا التي ذكرنا ليست فقط بين أمريكا، والعرب بل هي قائمة بين العرب والمسلمين والغرب إضافة لفقدان (الثقة) بين هذه الأطراف.

تقول المؤلفة المشاركة في الكتاب المذكور، لا شك أن أمريكا متأثرة بأصولها البروتستانتية الأنجلوساكسونية، وباعتبار أن أمريكا تجمع عدداً كبيراً من الجنسيات (القومية) والأصول، فهذه التأثيرات الدينية القديمة، هي الآن في صدد التغير، وكون أمريكا أيضاً متعددة الأعراق والأصول والأديان، فالهوية الأمريكية ليست قائمة على (الجنس) ولا على (الدين)، إن المشروع الحضاري الأمريكي، والدستور الأمريكي الموضوع قبل مائتي عام في أمريكا يفصل فصلاً واضحاً بين السياسة والدين[(929)].

يسجل الكاتب الثاني المشارك في تأليف الكتاب المذكور وعلى الطرف النقيض قائلاً بدأت أمريكا علاقاتها المعقدة مع العرب برفضها التعامل مع الرئيس الراحل (عبد الناصر) في ستينات القرن الماضي ورفضت التعامل مع كافة الدول الثورية (التقدمية) حينذاك، وتحالفت مع القوى المحافظة، أي بتعبير آخر، لقد اتخذت موقفاً منذ البداية غير متسم بالحياد، إزاء الأنظمة العربية السياسة، حيث أبدت انحيازاً لطرف في مواجهة الطرف الآخر، وقد ظل هذا الموقف حتى الحادي عشر من سبتمبر 2001.

ومن ناحية ثانية لم يغفر العرب ولا يغفرون لأمريكا موقفها المنحاز إلى جانب إسرائيل عدوهم الأكبر في المنطقة[(928)].

والواقع إن كراهية الشعوب العربية للسياسة الأمريكية جذوراً أعمق، ترجع إلى وقوع كارثة اغتصاب فلسطين، وتأسيس الكيان الإسرائيلي، والغرب عموماً والإدارة السياسية الأمريكية خصوصاً لا تفهم الموقف العربي الشعبي، ولا العقلية العربية – الإسلامية.

لقد حلت أمريكا محل (فرنسا) 1967 في الانحياز إلى إسرائيلي، هذا بالإضافة إلى عدم تأييدها لأي من قرارات الأمم المتحدة الصادرة، والداعمة للحقوق العربية وباستخدامها حق الفيتو.

والخلاصة: إن العداء مستحكم بين الشارع العربي، والإدارة السياسية الأمريكية، وقد صدرت مجموعة لا بأس بها من الكتب في أمريكا ترجم بعض منها إلى العربية تحت عنوان (لماذا يكرهوننا) وتشمل هذه الكراهية ليس فقد الشعوب العربية بل شوارع كثيرة من دول العالم.

لقد أدركت الشعوب العربية، وخاصة منذ الخامس من حزيران 1967 أن إسرائيل تحارب العرب بالأسلحة الأمريكية وتصارعهم بالمدفع والبندقية، والدبابة الأمريكية، وبالطائرة الأمريكية هذا فضلاً عن تخزينها ترسانة عسكرية من أسلحة الدمار الشامل منذ خمسينات القرن الماضي والتي تشكل تهديداً للعرب.

الآثار الجانبية(التداعيات) لإدارة الإدارة الأمريكية للصراع العربي الإسرائيلي:

إن الإدارة الأمريكية، كما قلنا سابقاً وتحت تأثير فكري لفلسفتها القائمة على تحقيق النجاح في العمل، عموماً وفي العمل السياسي ومعالجة الأزمات السياسية والصراعات ضمناً وفعل كل ما يساعد على تحقيق الأهداف، وباستخدام كافة الوسائل بما يحقق الأهداف فالمرسوم، واعتباره مشروعاً كل ذلك لتحقيق الهدف من الصراع وإدارته أي الإنجاز أي (النصر) و(النجاح).

ولكن كل ما يتطلب النجاح من إدراك، ووعي، وتحليل وتعمق، ونظرة، وتأمل في الرؤى، والفهم لعقلية الطرف الآخر من الصراع المقابل و(هنا الأطراف العربية)، وما يتطلب عن فهم التاريخ، والواقع، ومشكلات، وجذور المشكلات القائمة فيه، والطبيعة السيكولوجية والسلوكية للطرف الآخر، وكيفية تفكيره، وغير ذلك من صغائر الأمور والتفاصيل الكائنة في تضاعيف حياة الطرف لمواجهة، كل ذلك لا يعني كثيراً إدارة الصراع الأمريكية.

إن هذه الإدارة تتبع الأساليب العلمية والتكنولوجية المباشرة التي تساعدها كوسائل لتحقيق الأهداف المباشرة وبالتالي تحقيق النجاح.

لقد تحقق النجاح كما قلنا في حرب 1967 للإدارتين الأمريكية والإسرائيلية في الصراع، وتكبد العرب خسائر فادحة، وتلقوا هزيمتهم بجدارة، ولا تزال آثار هذه الهزيمة النكراء وحتى يومنا هذا في ذاكرة وفكر وضمائر العرب، ولكن رغم هذا النجاح المباشر، ورغم تحقيق النصر وتحقيق الأهداف الموضوعة فقد تركت هذه الحرب آثارها الجانبية (تداعياتها)أي أن إدارة هذا الصراع لم تنقصها المعلومات ولا الوثائق، ولا الدراسات والبحوث التي تطرقت إلى فهم سلوك وعقلية الطرف الآخر في الصراع، أي الطرف العربي، وقد اتبع الأسلوب العلمي في إدارة هذا الصراع، ولكن في قرار الصراع وتحصيل النجاح يتم توظيف كل هذه الأساليب المساعدة باللجوء إلى المغامرة وعدم التريث.

ولم يتم عوضاً عن ذلك البحث عن التفاهم مع الطرف الآخر بحكم أن ظروف هذا الطرف بالغة التعقيد ولا تحسمها الحروب وهذا ما حصل، ذلك أن الحرب لم تحسم الصراع، ولم تحل المشكلة ولكن في المقابل إن جني أرباح الحرب والتوقف للشروع في التفاوض وعملية السلام من خلال رؤية أمريكية إسرائيلي أيضاً بدوره لا يحسم الأمور فقد سأل العرب عند البدء بعمليات التفاوض والسلام، بعد حرب 1973 كيف لأمريكا أن تصبح وسيطاً وهي: خصم،وحكم؟

البراغماتية، والمعرفة الناقصة في إدارة الصراع:

في نطاق المشروع الأمريكي الذي أذيع أمره في تسعينات القرن الماضي وبالعمل سوية مع إسرائيل حول ما دعي بمشروع (الشرق الأوسط الكبير) تم المشروع التالي (الشرق الأوسط الجديد 2002).

فقد صدر حول هذا الموضوع تقرير من مركز (كارينغي) لأبحاث السلام الدولي في (واشنطن) حيث خرج هذا التقرير بمزايا هادفة تتمتع بموضوعية معقولة.

يقدم التقرير تلخيصاً متميزاً، على حد تعبير المعلق على سياسة الإدارة الأمريكية (الجمهورية) تجاه الشرق الأوسط، ويتعرض التخليص لواقع المنطقة، وينتهي إلى بعض التوصيات.

يرى التقرير أن إستراتيجية الإدارة الأمريكية الحالية (وقت صدور القرار 2008) تتميز بأنها إستراتيجية: صدامية، تراوحت بين الفشل والنجاح، وتفصيل ذلك أن نبوءة الرئيس الأمريكي (جورج دبليو بوش) صدقت، وفشلت في آن واحد.

فالشرق الأوسط الحالي مختلف عن الشرق الأوسط لمرحلة ما قبل عهد الرئيس المذكور، مما يعني أنه في هذه النقطة، فقد نجحت الإدارة الأمريكية في خلق شرق أوسط مختلف، وتحقق الهدف من (إدارة الصراع، ومحاولات الإصلاح في الشرق الأوسط).

ولكن الشرق الأوسط المختلف هذا، أسوأ بكثير في وضعه الحالي بفعل الإدارة السيئة لمشكلاته، وصراعاته.

ولا يخلو التقرير من الجرأة في التصريح بهذه المقولة، وهو يذهب إلى أبعد من ذلك، فيقول لقد قادت إدارة الصراع للإدارة الأمريكية الشرق الأوسط إلى كثير من الأخطاء الملفتة للنظر، وقد بدا واضحاً أن هذه الإدارة في أكثر الأحيان لم يكن لديها معرفة كافية بما يدور في واقع الشرق الأوسط، أو البلدان التي تسعى هذه الإدارة للتعامل معها[929].

وبتعبير آخر، لم تول الإدارة الأمريكية (التي تهتم بتحقيق الأهداف المباشرة بالوسائل العلمية والتكنولوجية) أي اهتمام بدراسة الظواهر الاجتماعية والسيكولوجية، وجذورها، والصراعات المليئة الكامنة وتاريخ المنطقة (الوطن العربي) الشديد التعقيد، والذي لا تستطيع أن تحاصره البحوث والدراسات العلمية (من بعيد) ولا البحوث والدراسات الإستراتيجية، والتقنيات الحديثة، لا تلتقطه صور الأقمار الصناعية، فهنالك صراعات غير الصراعات المكشوفة لا تدركها الإدارة الأمريكية من قبيل: صراع الهويات، وهو أقوى من تقاطعات المصالح، ذلك أن الشرق الأوسط، من حيث هو ترتيب اقتصادي تصنعه هذه الإدارة أو تلك يجعل التوترات في المنطقة ذات طبيعة: دينية وإثنية، وقومية وقبلية، وقد لا تحتوي جزئياتها وتفاصيلها التقارير الرسمية ولا يستوعبها نظام تحقيق المصالح المباشرة، إذ كيف لها أن تتجاوز هذه الحقائق الاجتماعية – التاريخية – الثقافية؟

إن صراع هذه الحقائق، أقوى من تقاطع المصالح الاقتصادية المادية والأوهام المالية في تحديد طبيعة العلاقات بين الشعوب والهويات من حيث الطباع،

والثقافات[930]، وقد تأتي في كثير من الأحيان تعامل حاسم في مثل هذه العلاقات وقد تعيق أي حل للمشكلة القائمة إذا لم تتم رؤيتها بوضوح، وتفهم، وتعيق أي نجاح لأي تخطيط ورقي.

هذا فضلاً عن حيثيات سياسية أخرى في المنطقة قد لا تحيط بها أي إدارة للصراع سواء في الولايات المتحدة أو غيرها من الدول العظمى الأجنبية من قبيل طبيعة السياسات العلمانية، والإسلامية في المنطقة، والتأثيرات الفنونية والحزبية والطائفية، والصراعات القبلية على الزعامة والسلطة، والروابط العائلية، والعلاقات الإقليمية، حيث لا تفيدها في كثير من الأحيان إلا بشكل مؤقت، وآني التسويات في البراغماتية لأنه سرعان ما تعود من جديد بشكل يجعل كبار المتخصصين في قضايا وثقافات المنطقة في حيرة من أمرهم.

إن البراغماتية الأمريكية، وهي تمثل الأصول الفكرية للفلسفة والسياسة الأمريكية وإدارتها للأزمات والصراعات لا تتطلب البحث في هذه التفاصيل، والجزئيات ولا تبحث في الأسباب البعيدة، والعلل الغير مباشرة، ولا الجذور التاريخية وأنها تهتم ب-(الظاهرة) السياسية أو الصراعية الآن، وكما هي أو أنها، بأسبابها القريبة المباشرة وتضع لها الأهداف وتتحرك لتحقيق الأهداف.

إن الأداء المريكي للصراع في الشرق الأوسط يغلب المصالح على الإيديولوجيا، وإن من الأهمية بمكان بالنسبة لها وهي تدير هذا الصراع هي:

– أمن إسرائيل وجعلها دوماً الحليف المتعاون مع الولايات المتحدة لتحقيق أهدافها المشتركة.

– تأمين تدفق النفط، بلا مشكلات وعوائق.

– محاولة أمركة الدول الصديقة، ولم لا والدول التي تصمم لها المشاريع لإعادة تركيبها.

ويبدو أن كل هذه الأهداف تقابلها الشعوب العربية بالرفض، وهذا الرفض له مبرراته لدى الشعوب لأنه قائم على تجاهل شبه كامل، ومطلق للحقوق العربية ومشروعيتها

الدولية ويقول التقرير الذي تحدثنا عنه منذ قليل في نهاية إن تعامل الإدارة الأمريكية مع المنطقة لا يخلو من براغماتية[931].

البدائل، والحلول المطروحة:

إن مشكلة الصراع العربي – الإسرائيلي ما تزال قائمة ومستمرة، وإن الجري وراء المفاوضات لأجل المفاوضات وليس الوصول إلى التسوية، والحل، هو بحيث لا طائل منه، وينطوي على مخاطر صراعات أخرى في المنطقة.

إن الشعوب العربية، وأولها الشعب الفلسطيني يرغب بالتسوية العادلة، بناء على أسس الشرعية الدولية وقد وضعت حتى الآن جملة تصورات للتسوية والحل أهمها:

الحل السياسي القائم على الشرعية الدولية، وقرارات الأمم المتحدة، وحسبما تراه الأنظمة السياسية العربية بناء على هذه الشرعية.

المقاومة، وانتقال إدارة الصراع انتقالاً كاملاً من الأنظمة السياسية، والمنظمات الرسمية المحلية والدولية إلى الحركات الشعبية وهو جار في جزء منه حالياً في الأراضي الفلسطينية المحتلة.

رغبة الشعوب العربية في الإطاحة بالكيان الإسرائيلي في شكله الحالي، وجعل اليهود يعيشون في المنطقة العربية أسوة بغيرهم من الأقليات لهم ما للشعوب وعليهم ما على الشعوب.

ذلك أن إسرائيل في شكلها القائم، وكونها الحليف المقدس لتأمين المصالح الأمريكية وكونها الشريك الأكبر لها، يجعل منها دوماً موجودة في بيئة معادية.

وقد لا تكون الفرصة مواتية حالياً للشعوب تحقيق أهدافها نظراً لحجم الأطراف المقابلة، وقوتها ولكن ذلك لا يعني تحقيق المصالح الأمريكية الإسرائيلية دون أن تتكبد هاتان القوتان خسائر وتتعرضا لمخاطر وربما إلى تآكل مصالحهما.

القرآن الكريم، وهو مرجعية للإسلاميين الذين قاوموا الغزو النابليوني والقائلة، فمن اعتدى عليكم، فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم، وأخيراً دعوة القرآن الكريم المسلمين إلى الجهاد في سبيل الله هذه العوامل لا تدع السلم أن يقبل بأي حال من

الأحوال أن يغزوه أجنبياً وخاصة إذا كان من بلد (كافر) إذ أن الغرب يجسد الكفر، والشرك بالله الواحد في نظر المسلمين الذين وقفوا ضد الغزو الفرنسي.

إذن هذه هي الخليفة المرجعية، لدى الجماعات الإسلامية الأولى التي قاومت، التغلغل الخارجي وعلى أساسها تشكلت إدارة الصراع.

وإذا انتقلنا إلى الحديث عن حركات المقاومة الإسلامية كمنظمات وأحزاب لها قواعدها وأشكالها الحزبية، وزعاماتها، وأعضاؤها، وهيئاتها، وفروعها وانشقاقاتها، واختلاف توجهاتها، وتصوراتها وإدارة الصراع ضد: المستعمر الأجنبي، فلقد تكونت أولى المنظمات أو الأحزاب ذات التوجه الإسلامي فإننا نجد أنفسنا أمام حزب مهم جداً في العالم العربي والإسلامي نشأ على أرضية إسلامية، أعني الإخوان المسلمين، وقبل الحديث عن قصور هذا الحزب في إدارة الصراع ضد الغزو الخارجي، سواء تجسد في الاستعمار، أو في الظاهرة الصهيونية فإن لهذا الحزب تصوره الإسلامي الخاص.

وقبل الدخول في التفاصيل إننا نميل إلى الاعتقاد بأن الخليفية الفكرة، بالإضافة إلى المرجعية الإسلامية (القرآن الكريم والسنة) نجدها في أعمال أقطاب النهضة العربية التي ظهرت في منتصف القرن التاسع عشر، ودعوة أقطاب الإصلاح الديني إلى مواجهة الغرب، لقد واجه هؤلاء الأقطاب نظرياً وعملياً.

فمن الناحية النظرية، عمل الشيخ (محمد عبده) على عقد حوارات عديدة مع الذين أساؤوا فهم الإسلام، وفكره وشريعته، وحضارته، وقاوم الأفكار الضارة، والأحكام المسبقة والآراء المنحازة ضد الإسلام ومن الناحية التطبيقية لقد قاوم (جمال الدين الأفغاني) بأسلوب ثوري الاستعمار البريطاني وأيضاً كتب يقاوم هؤلاء بالفكر.

وهؤلاء وغيرهم شكلوا خلفية فكرية لمواجهة الفكرة الاستعمارية.

الفصل الخامس والعشرون
مناقشة نقدية وخاتمة (1)
العوامل الخاصة،والمؤثرات ، والآثار الجانبية
رجحانها، تغلبها، وتداخلها مع العوامل الموضوعية

أولاً: عودة إلى فرضيات فصلنا الرابع

يذكر القارئ أننا وضعنا في فصلنا الرابع مجموعة من الفرضيات، لم نعمد إلى إثباتها ولا إلى نفيها، وانتظرنا سير البحث إلى نهايته، من الوجهة التاريخية السياسية (ماضياً) لنصل إلى يومنا هذا، وخلصنا إلى ما يلي:

1– تسيطر على القيادة السياسية العربية، قديماً، وحديثاً مجموعة من العناصر السيكولوجية تقود عملها السياسي في إدارة الشؤون العامة وتحرك سلوكها السياسي في إدارة الأزمات والصراعات الداخلية الحاصلة في المجتمع (الرعية) وكذلك إدارة الصراعات الخارجية.

هذه العناصر، وقد ذكرنا عدداً مهماً منها، ما تزال مستمرة في تحريك المسالك السياسية في القيادات السياسية العربية الحديثة، والمعاصرة، وقد قدمنا عرضاً وافياً بعد أن اكتشفنا في تراثنا العربي الإسلامي وجود هذه العناصر وقمنا بعملية >استنباط< هذه العناصر من جملة الأفكار والمذاهب والفلسفات، والكتابات السياسية وأدبياتها.

2– إن منشأ هذه العوامل هو: إنساني سيكولوجي – اجتماعي ثقافي، وعنينا بالإنساني إنها ظواهر إنسانية، والسيكولوجي إنها عقلية جزء لا يتجزأ من حياتنا النفسية.

هذه العوامل تجسدت في النزوع الإنساني إلى إرادة العيش، وحب الحياة الدنيا، وتغليبها لدى القيادات السياسية، على قوى الإنسان الأخرى (العقل والروح) قد سرى تأثير هذا النزوع لدى القيادات إلى شرائح عريضة في المجتمعات العربية الإسلامية قديماً، وسيطاً، وحديثاً.

كذلك ذكرنا من هذه العناصر: الذاتية والفردية، واللاشعور الفردي والجمعي، وكلتها ترتد في النهاية إلى حياتنا النفسية.

ولقد تفرعت فرضياتنا إلى فرضيات فرعية هي:

أ- تتصف القيادة السياسية العربية في تعاملها، مع الأزمات والصراعات بالميل إلى الغلو أو التطرف، وهاتان أيضاً مكتسبتان من البيئة (الأسرة - المحيط المباشر، والمحيط الاجتماعي الأوسع).

ب- يتصف العمل السياسي في التعامل مع الأزمة والصراع يتغلب تأثير العامل النفسية على الجوانب العقلية والحكمة، والحلم، والتأمل، والتفكير الهادي الرصين.

ج- يتصف العمل السياسي العربي في التعامل مع الأزمة، والصراع بسيطرة اللامؤسسية.

د- لم يتم نوع من المصالحة بين العناصر المتصارعة في الحياة السياسية العربية، وخاصة بين السلطة والمعارضة طوال فترة التاريخ العربي السياسي.

وحول هذه النقطة نتيح لأنفسنا أن نطرح سؤالاً يستنفر مخيالنا التاريخي وهي أنه لو حصل نوع من المصالحة بين العناصر المتصارعة في الحياة السياسية وتم نوع من الاستقرار الفكري فهل كان الإشعاع الحضاري أن يستمر إلى يومنا هذا، وإنه لو استمر هذا الإشعاع، فماذا كنا نتصور صورة عالم اليوم؟

3- دور العقل، والشرع وتأثيرها في العمل السياسي لدى القيادات السياسية في معالجة الأزمة والصراع كان ضعيفاً، لحساب العوامل الإنسانية الدنيوية السيكولوجية التي ذكرنا سابقاً.

4- تشكل العوامل السيكولوجية في مجموعها حركية المخيال السياسي القيادي، وهو صادر بدوره عن المجتمع، أي أنه خاصية للمجتمع العربي - الإسلامي.

5- كان من النتائج السلبية لاستمرارية تأثير هذه العناصر ضعف التعويل على الشرع والمقصود هنا الشرعية الدينية - الإسلامية، وضعف تأثير النموذج النبوي والراشدي في العمل القيادي، وخاصة في التعامل مع الأزمات والصراعات مثال (التعامل بين السلطة والمعارضة، لقد غلبت الرؤية المتطرفة في التعامل حياتنا السياسية).

6- كذلك من النتائج السلبية ضعف التعويل على العقل، وقدراته، والمقصود بالعقل المقابل للنقل/الوحي الإسلامي، من ناحية والمقصود به التوازن بين المتناقضات سواء في سلوك السلطة، أو سلوك المعارضة، أو بين أطراف النزاعات.

وإذا ذكرنا هذه العوامل، والعناصر الواحد مستقلاً عن الآخر وقمنا بعملية فرز بينها، فهذا عمل مصطنع ولا يعني أنها مستقلة من حيث التكون والتأثير بل إنها تشكل (وحدة) عضوية فيما بينها، وهي وحدة لأنها تنتمي في مجموعها إلى حياتنا النفسية، وهي كلها ظواهر سيكولوجية في الأصل وإن اتخذت لدى الكثيرين مظاهر وتبريرات عقلية، ومنطقية. إنها سلوك أكثر من كونها منظومة فكرية:

لإثبات فرضية العوامل السيكولوجية، والآثار الجانبية عملنا على عرض الدلائل المستلة من أحداث التاريخ السياسي العربي الإسلامي، وبعض الكتابات السياسية المتأخرة والأحكام والأدبيات السلطانية، التي تكرس فصولاً كاملة في أعمالها حول الصفات الإيجابية أو كمال الأوصاف الواجب توفرها في (القائد)، (الحاكم)، و(السلطان) أو (الرئيس)، وهي تركز كما رأينا على: فردية القيادة أو فردية الحاكم، وهذه الفردية في القيادة لها تاريخها الغارق في القدم في تراثات الشرق والغرب على السواء، ولكننا اختصرنا على بسط دلائل الإثبات فرضيات على عدد من مراحل التاريخ العربي الإسلامي، ملتزمين التصنيف التاريخي المعمول به لدى كافة المؤرخين في التصنيف التاريخي، كان التصنيف على النحو التالي:

- العهد النبوي - والراشدي (الفترة المحمدية - الخلافة الراشدة، وخاصة عهد الشيخين).

- العصر الأموي - تجليات سلبية، واستثناء (الخطة) الفتوحات الإسلامية، أي إدارة الصراع الخارجي.

- العصر العباسي الأول - واستمرار الفتوح.

- العصر العباسي الثاني - بداية النهاية لعمل القيادة السياسية العربية.

- العصور الحديثة، وإدارة الأزمة، والصراع ضد الظاهر الاستعمارية.

وكنا طوال عملنا، نذكر القارئ يتأثر هذا العامل السيكولوجي (الخاص) أو ذاك كلما سنحت الفرصة، وأحلنا القارئ إلى فرضيات البحث المذكورة في الفصل الرابع.

لقد شكلت هذه العوامل في مجملها الوجه المقابل للعوامل الموضوعية التي يركز عليها الباحثون في كتبهم، ودراساتهم وأبحاثهم.

إن تأثير العوامل الخاصة على عمل القيادة السياسية تجلت في وجهها السلبي في ممارسة القيادة، بينما جميع الآثار السياسية في كتابات أهل النصائح، والحكام، والآداب السلطانية، والفلاسفة المسلمين، وكتاب المذاهب.

ثانياً: إن ظاهرة استبداد أهواء النفس على المكونات الأخرى للكائن البشري ظاهرة إنسانية عامة، وقد تحدث عنها علماء النفس الأوروبيون، وتأثيرها في قيادات النظم السياسية المدنية في العصر الحديث.

1- فظاهرة: التعامل أو السلوك المتطرف، أو المتشدد، أو المغالاة أو الغلو، وما ينتج عنها من استبعاد للعقل، وملكاته أو استبعاد المرجعية الدينية، مقابل استبداد الغريزة كلها مسالك ظهرت في التاريخ، وقد اكتسبت بعض الخصوصية والتفرد في التاريخ السياسي العربي. ولهذه الظاهرة كما أوردنا سابقاً جذورها التاريخية، ولها استمراريتها، علماً بأن هذه المسالك (الوعرة) إن صح التعبير ليست حتمية، ولا قدراً من الله، أو تأثير قاهر من المجتمع لا يمكن تعديلها أو تجاوزها، أو تحييدها، ولكن استمراريتها جعل البعض يظن أنها وراثية، أبدية وفي التركيب الجيني للفرد العربي وقياداته السياسية.

ومن ناحية أخرى، إن القيادات السياسية عموماً، والعربية خصوصاً عانت وتعاني رغم قوة البصيرة، والحدس والذكاء، والمهارة لديها تعاني من مستوى فكري متدني، ولا تخلو من ضعف في الجانب المعرفي، ظهر ذلك في قياداتنا، وبشكل واضح منذ بداية العصر الأموي، ومروراً بالعباسيين (الأول والثاني)، إلى يومنا هذا فهذه القيادات في اختبار النشاط العقلي الحر، والغنى الثقافي، والمستوى الفكري، تجد لجان التقييم صعوبة منحها التقييم الممتاز.

لقد تم استبعاد العنصر العربي في العمل القيادي بموجب حسابات خاصة لدى الحاكم الفرد، ومزاجه الشخصي، ولا يدري الباحث كيف لأمة تصون كرامتها، وحريتها، وتاريخها، وثقافتها، وأمنها، تسوسها قيادات ليس لها من العروبة، ولا من الهوية العربية في شيء هذا ما حصل منذ توليه الخليفة (المعتصم) في العصر العباسي، الثاني ثم تدحرجت أو كرت حبات (المسبحة) كما يقال على القيادات السياسية في الوطن العربي.

إن المعارضات السياسية (داخل الرعية) نهضت منذ الفتنة الكبرى، وتعاملت مع السلطة بالأسلوب نفسه، أي العنف، والعنف المضاد، وهو أمر مفهوم، ولكن لم تدر المعارضة أن هذا الأسلوب يدخل الجميع في حلقة مفرغة، وتبقى الرعية هي الضحية.

لقد أفلتت الرقابة على اللاشعور الجمعي لدى السلطة والمعارضة، والجماهير، وقد ظهر ذلك لدى الجماهير عندما اندمجت في الصراعات الداخلية داخل المجتمعات العربية وتورطت وانتبشت من بواطنها، كافة المشاعر العصبية القبلية، والمذهبية، والعرفية... الخ.

2- وقفنا عند تجليات هذه العوامل اللاموضوعية في مرحلة النشوء التاريخي (منذ بدايات العصر الأموي)، وتبين لنا أن تأثير هذه العوامل التي تعود إلى مرحلة ما قبل الإسلام، ومجيء الإسلام، وحيث ظهر النبي محمد ؐ كبح هذه الصراعات والنزاعات الداخلية، والخارجية قدر المستطاع، وعلى الرغم من أن الإسلام جاء عقيدة جديدة، وقيماً ومعايير جديدة لخلق نوع من التوازن، والعدل بين مطالب الحياة الدنيا، والحياة الآخرة وحيث جاء (بعقلانية إسلامية) بنمط خاص قام على الوسطية، والعدل، والتوازن، وأحدث انقلاباً شاملاً، إلا أن الانتكاسة قد وقعت بعد وفاته بأقل من عقدين من الزمن، وظهرت مختلف أنماط التفكير القديمة في التعامل مع الأزمات، والصراعات، إضافة إلى ظهور نمط مخالف تماماً من السلطة، والحكم أي: (جاذبية الملك) والرياسة وشرف الزعامة حسب المفاهيم القبلية لمرحلة ما قبل الإسلام.

3- حددت الممارسات القيادة السياسية لمرحلة ما قبل الإسلام طرقاً معينة للتعامل (إدارة) الأزمات والصراعات (المحن، والنوازل، والنكبات، والمصائب) فكان مجلس القبيلة يدير هذه الأزمات، وكان لشيخها الكلمة الفصل في حسمها، وقد ألفت القبائل العربية في حال الصراعات وجود (الطرف الثالث)، وكان من تقاليدها الراسخة.

وعندما جاء الإسلام لم يلغ دور الطرف الثالث (الوسيط) عندما تقتتل طائفتان من المؤمنين، فأمر بالصلح والتسوية، وحدد قواعد خاصة خاصة لمواجهة الصراعات، والتسوية، وقد ذكر القرآن الكريم أن الصراع بين البشر لا أحد ينكره، وهذه قوانينه، خالياً منه، لأن الإسلام من حيث المبدأ لا يقر وجود الصراع بين المؤمنين فهؤلاء أخوة في الإيمان.

ولكن ما حصل في التاريخ السياسي العربي الإسلامي، أن توارث هذه القواعد في تسوية الصراعات، وإدارتها، وجرى تغليب المسالك غير الشرعية، واللاعقلانية في التعامل مع الصراعات، توارى الأسلوب القبلي التقليدي والأسلوب الإسلامي لتبرز العوامل الخاصة، والاحتكام إلى القوة، والعنف، وسل السيوف.

4- لا شك أن حادثة (السقيفة) أظهرت الدور الشخصي لكل من الشيخين في معالجة الصراع، وإدارته، وحسمه، بشكل ناجح، وقضى على بوادر الفتنة، وقلب صفحة الردة بالحسم الذي كان لابد منه شرعاً، وعقلاً إذ أنه لو افترضنا أنه تطور، واستفحل أمره ومالت الموازين لصالح المرتدين لتغير وجه التاريخ العربي الإسلامي تغيراً لا تستطيع مخيلتنا التاريخية تصور عواقبه.

5- وبمجيء الخليفتين، (عثمان) و(علي) تعقدت الأمور وبرزت عوامل جديدة للصراع، أهمها الصراع على السلطة، وتعقدت أيضاً إدارة الصراع، وتوارى دور العقيدة في معالجة الأمور.

6- أعطتنا حادثة مقتل الخليفة (عثمان) بداية لظهور الصراعات (الحروب الأهلية)، وبروز أحزاب التشيع، وبالتالي بدأت تظهر صعوبة تعامل أطراف الصراع فيما بينها، وتداول السلطة سلمياً وقد تم الابتعاد عن (الحاكمية الإلهية)، وسارت الأمور في تداول السلطة بشكلها اللاعقلاني.

أولاً لاستبعاد المرجعية الإلهية، والعقلية، وثانياً لسيطرة العوامل الخاصة التي ذكرنا سابقاً على نفوس أطراف الصراع.

7- إن أهم ما استخلصنا من تجربة إدارة الصراع على السلطة في (الأزمة الكبرى) هو ظهور: النمط السلطوي، والتفرد، والوحدانية في الحكم، وبالتالي تحكم هذه القيادات المتفردة، وافنرادية بمعالجة الأمور وإدارتها.

بدأ الاقتتال على السلطة منذ ذلك التاريخ سواء على صعيد العنصر العربي في القيادة أو بين العناصر غير العربية فيها، وحيث لم تمنع العقيدة كما قلنا من الاقتتال حبا واستئثاراً بالسلطة، أو بتعبير آخر تغليباً لأحد العوامل الخاصة أعني مثلاً:

تغليب مطالب الحياة الدنيا وليس منه أجل إعلاء كلمة الله، أو الإسلام، رغم أن أكثرية الخلفاء كان يزعم ذلك أي أنها كانت تظهر سيوفها من أجل الإسلام في الوقت الذي كانت الرعية تدرك بطلان هذا الزعم وفضلت البقاء متفرجة، تعاني من الفاقة، والحرمان.

8- البشر مستعدون دوماً وكأنهم في حال استنفار شامل، للصراع، والصراع يتمتع بشعبية عجيبة بالرغم من مخاطره، والحياة السياسية هي النموذج الكامل، والساحة المثلى للصراع، والعرب، والمسلمون لم يذوا من هذه القاعدة، فالقيادات السياسية، واللاعبون السياسيون يتصارعون، وهم كما قلنا ليسوا ملائكة، فعندما تغلب عليهم، أحياناً، العوامل الخاصة، يصبحون في أسوأ موضع لإدارة الصراع، وأنهم عندما يغضبون فهم يغضبون فهم يغضبون كالصبيان كما قلنا، وليس لهم من ضابط، أو ضوابط شرعية أو عقلية اللهم إلا في تلقيهم شخصياً نتائج سوء إدارتهم للأزمات والصراعات.

فالقيادات السياسية العربية وصراعاتها منذ الفتنة الكبرى، وحتى يومنا هذا لم تتصف بالروح الملائكة، ولا هي بأوراق من المصحف الشريف.

يمكن، بل يجب على الدارسين والباحثين إخضاع مسالك القيادات السياسية سواء في وطننا العربي أو غيره للدراسة، والكشف عن الاضطرابات السلوكية، التي يعانون منها، وتبيان آثار، ومضاعفات هذه الاضطرابات على حياة الأمم والشعوب، والأفراد وعلى مصائرهم، وعلى أمنهم، وسلامتهم.

رابعاً: إن نظرية الخلافة السنية، والإمامة الشيعية تعكس توجهاً فردياً في القيادة:

السياسية، وهي تطابق مع الممارسات القيادية التي سادت الحياة السياسية طوال فترات التاريخ السياسي، إذ أن الخليفة كان دوماً هو الحاكم بأمره، وهو (مدير) إدارة الأزمات، والصراعات في الداخل، مع المعارضة وفي الخارج يوجه الجيوش للحروب

وهو الذي يتخذ قرار الحرب، والسلم بمفرده، وهذه هي الفردية واللامؤسسية في إدارة الأمور، وقد جاءت النظريات والكتابات، والسياسية من آداب، وأحكام سلطانية لتكريس الفردية، أي شخصية القائد، ولكن إيجابياتها كانت في مطلبها الدائم وجوب توفر كمال الخصال، والصفات في الحاكم نظراً لفقدانها أيام كتابة هذه الأدبيات في الحاكم، ونقصانها فيه، فالحاكم في نظر حسب هذه النظريات، يجب أن تتوفر فيه قائمة طويلة من الخصال، في الأخلاق، والعقيدة، ويجب بكلمة مختصرة أن يكون (كامل الأوصاف) لقد أخفت هذه الكتابات دور أهل الحكمة، والرأي، والحل والعقد، ودورها الذي كان من المفترض أن يكون حاسماً في اختيار، وتنصيب الخليفة، وتركت الأمر بشأن هذه الفئات إلى مزاج الخليفة، فهو يختار من يراه مناسباً لاستشارته، وهو يعين أهل الحل والعقد والشورى ويأتي بالفقهاء للإفتاء بأن الخلفاء لا يحاسبون يوم القيامة[932] ثم أن كتاب الآداب، والأحكام، السلطانية التي عالجت أساليب الحكم، وتعامل الحاكم مع المقربين والرعية، مع العصيان والتمرد، وتناول كيفية إرضاء الحاكم.

كانت مرجعيتها ممارسات الأمم غير الإسلامية، تختار ما يناسب أفكارها تأييداً، ودعماً فنقلت عن تراث الفرس عهد اليونان والرومان والهند، وكذلك أخذت من النصوص الإسلامية والشرعية ما يناسب أفكارها لدعم سلطة الحاكم المطلق، وتأييده بالمطلق للتعامل مع الأمور وترسم هالة حول (الحاكمية الفردية) وتبرر سلطته في القرار ومعالجة الأمور.

أما النظرية الشيعية الإمامية، فالقرار هو قرار الإمام، وهو ما يعبر أيضاً عن فقد المؤسسة واللجوء إلى الفردية، فالبيعة عند الشيعة تعني الطاعة، وتقديم الولاء، والتعهد بالثبات على نصره، ونصر ولايته، وبالتالي فالإمام هو مالك الحق الإلهي في النظر إلى الواقع، ومعالجة أموره وينتج عن هذا مسؤولية الإمام عن إدارة الأزمات والصراعات فهو (المرشد الأعلى)، وآية الله.

يتحدث الفلاسفة المسلمون عن المدن الفاضلة، فما هي بنية هذه المدن، ولماذا دعا الفلاسفة إلى بنائها؟

الفلاسفة عندما يضعون معالم مدنهم الفاضلة، ويصنعون لنا هياكلها، ومضامينها، فهم يجردونها من الصراعات، والمشكلات والأزمات، لنهم يتخيلون مدناً بلا نزاعات بين أبنائها، وبلا صراعات، وبلا فسوق، وبلا عصيان وتمرد، ويعيشون في أحضانها وهم ينعمون بالعيش الهانئ، والسعادة الغامرة الأبدية، إنهم وسط نعيم، وجنات تجري من تحتها الأنهار، يخلدون إلى الدعة إنها مدن لا تعيش سوى السلم، والحوار، والتفاهم، والتعايش المشترك.

يتولى الحاكم في المدن الفاضلة الإشراف على أنماط العيش، وهذا الحاكم، مع كونه حاكماً فرداً كما كان الحال في كتابات وأدبيات الأحكام السلطانية إلا أنه حاكم فرد – عالم، فيلسوف يتمتع كمال العقل، والحكمة – إنه السياسي العاقل، صاحب التنظيم السياسي الفاضل والتنظيم السياسي بالمدن الفاضلة هو هرمي الشكل يربض على قمته الفيلسوف الحاكم، إنه العقل – سيد المدينة يجمع الصفات المثلى وهو متحكم، مسيطر على قواه: الغضبية والشهوائية – يقودهما بعقله، إنه (الجوذي) القائد لحرية الغرائز والأهواء، وليس العكس.

إن مشكلة فلاسفة المدن الفاضلة، منذ بناء الحلم الأكبر (الأفلاطون) في كتابه (الجمهورية) وصولاً إلى المدينة الفاضلة (لأبي النصر الفارابي)، و(ابن سينا)، أن هذه المدن لم تحقق يوماً في الواقع العملي في أية فترة من فترات التاريخ، لقد ظلت أحلاماً تداعب خيال البشر، وأصبحت دائماً مضرب المثل عن مجتمع متصور، لا وجود له إلا في الخيال.

ولكن هو إيجابي في دعوة الفلاسفة اليوتوبيين هو تركيزهم على دور العقل في السلطة والحكم، وبالتالي استنباط هذا الدور وعظمته، وحثه رجالات الحكم في جميع مراحل التاريخ السياسي العالمي الاقتداء ما أمكن وقدر المستطاع بهذا الحكم – الحاكم، والذي يملك قدرات سحرية في إدارة الأزمات والصراعات البشرية، وبالتالي تحييد الأهواء، والغرائز البشرية، وكبح جماحها، أي بتعبير آخر تحييد ما دعوناه بالعوامل الخاصة كافة في إدارة الأمور البشرية.

إن إقامة صرح المدن الفاضلة في خيال، وذهن الفلاسفة هو استفزاز للعقل السياسي – الاجتماعي في جميع الأنظمة السياسية في العالم، وهو تحد لا يقبل التراجع.

لقد برهن فلاسفة اليوتوبيات على العجز الإنساني في تحقيق المثل العليا في قضية السياسة والاجتماع، وبرهنوا على الضعف الأنتولوجي أمام هذا الجزء الذي لا يتجزأ من الوجود الإنساني أعني: إغواء الغرائز، والأهواء ومطالب الإنسان الخاصة أو جاذبية الحياة الدنيا، هذا الجزء الطاغي أيها القوة الباطنة، والداخلية التي يلقى الإنسان أمامها سلاحه في معظم أوقات حياته.

ولكن غاب عن فلاسفتها اليوتوبيا القوة الإيجابية للعاطفة والانفعال، وحتى أهواء النفس في الحياة الإنسانية، لقد انحازوا انحيازاً كاملاً إلى المخيلة لبناء المدن، وإلى العقل في قضية الإنسان وسياسته.

خامساً: رأينا الواقع الفعلي والتطبيقي لنظام الخلافة في التاريخ السياسي العربي الإسلامي في عنصرها القيادي العربي، وغير العربي ورأينا أن أسلوب التعامل مع الأزمات والصراعات إضافة لكونه غير مؤسسي، وبلا مرجعية دينية شرعية، أو عقلية، فقد تعامل مع معارضاته بأسلوب العنف، والقوة مستخدماً السيف.

بدلاً من الكلمة الطيبة، رافضاً لداء الاستعباد، والإهمال، والتجاهل، وأخيراً إلى الاستئصال وإلغاء الوجود لأية معارضة ترفع عقيرتها ضد السلطان، وبالمقابل لم تقل المعارضة في تعاملها مع السلطة شأنها في استخدام الأساليب المومأ إليها في صراعات السلطة وقد بينا ذلك في الأوراق السابقة.

1– لم يتم اللجوء من كلا الطرفين إلحل الخلافات إلى استفتاء رأي الرعية ولا إلى اختيارها، ولا إلى أهل الحل، والعقد، ولا إلى أهل الشورى، أو أهل الرأي.

لقد كان تبديل الحكم وراثياً، كلما جاء حاكم جديد طالب الرعية بالبيعة، والطاعة، طوعاً أو كراهية، وكانت الخلافات، والصراعات وحتى الحروب الكلامية تحل فردياً من قبل الحاكم، وأحياناً عندما تصل الأمور إلى حد معين يتم إشهار السيف، وكانت الصراعات كما رأينا، من أجل مطالب الحياة الدنيا، وتتخذ ذريعة دينية ذرأ للرماد في عيون من يهمه الأمر من أفراد الرعية.

2- إن تاريخ الخلافة، وإدارة الصراع حولها، وكذلك آداء الصراعات الأخرى، تشير إلى:

أ- استمرارية الحكم الفردي.

ب- سيطرة النزعة الذاتية (التوريث في الحكم).

ج- اللامؤسسية (إلغاء دور مؤسسات: أهل الحل، والعقد، الفقهاء، وأهل الرأي وأصحابه، وأهل الشورى).

3- لقد لاحظنا أن القيم الإسلامية، منذ الفتنة الكبرى، ورفع المصاحف في معركة صفين أن اللاعبين السياسيين عزفوا عن التعويل على الحاكمية ولم يعودوا يجدون فيها الملاذ، خاصة وأن الثقة بين أطراف الصراع قد فقدت، وقد رفض التحكيم رغم رفع المصاحف على أسنة الرماح، لأن الشكوك غزت الأذهان، والنفوس إزاء رافعي المصاحف، والحق يقال إن المشكلة ليس في الحاكمية ولا في المصاحف التي رفعت، وهي تحتوي على القواعد الشرعية لحل الصراع، بل إن المشكلة في نفوس اللاعبين أنفسهم.

ومع ذلك، فإن الناس العاديين الذين صاحوا، ورفعوا المصاحف كانوا يأملون وقف الصراع بين أصحاب النبي، المبشرين بالجنة، ونادوا بتحريم الاقتتال، وفي لحظات ما كانت نداءات (الجماهير)، تعطي ثمارها بالاحتماء بالوحي المحمدي، والالتزام بقيمه، وعلى أقل تقدير كان المجال مفتوحاً لتخفيف الصراع لو أن اللاعبين اتخذوا قرار وقف الحرب الأهلية الدائرة، لكن ذلك لم يحدث.

دخل العصر الحديث ترافقه في الوطن العربي ظاهرة الاستعمار، والتغلغل الأوروبي مع بروز هذه الظاهرة تجلت إرادة المقاومة والغضب في أجلى صورهما، وتولت الشعوب إدارة الأزمة والصراع، ومواجهة المحتل، إنها الإدارة بأسلوب المقاومة، حيث تجسدت شعبياً بمجموعات، وحركات شعبية في كل مكان في أقطار الوطن العربي المحتلة التي دخلها الاستعمار، بدءاً من (الجزائر)، ودول (المغرب العربي)، ومروراً (بمصر)، و(الشام)، و(السودان)، وانتهاء بمنطقة (الخليج العربي).

لقد انقادت هذه المقاومات الشعبية بالفطرة، وقلنا إن هذه الفطرة هي قوة كامنة في الطبيعة البشرية، تستنهض عند أي اعتداء على كيانها، أو مس بكرامة صاحبها أو ينتهك حقوقها، أو يعتدي على مسقط رأسها.

لقد أدت المقاومة الفطرية، وبزعامة قيادات وطنية سجلها لنا التاريخ السياسي العربي الحديث والمعاصر، وهي حالات درسنا بعضاً منها، طرق إداراتها للصراع، هذا فضلاً عن من لم نذكره وهو في بطون كتب التاريخ، ولقد تكلمنا عن هذه الفطرة بتوسع في الأوراق السابقة.

لقد شكلت الفطرة قوة مقاومة للغريب المحتل، والمستوطن في أرض ليست له، جاء يغتصب حقوقاً لا تعود له، وقد عرضنا الحالات قمنا برصدها في إدارة الصراع من قبيل مقاومة، رفض المعاهدات التآمرية كمعاهدة (سايكس بيكو)، ومقاومة الحركات الصهيونية، منذ بدايتها أصداؤها في الوطن العربي.

لقد مثلت حالات إدارة الأزمة، والصراع: لوعد (بلفور) والدعوات الصهيونية، نماذج من الرفض الشعبي، بالكلمة، وبالغضب، وبالمظاهرة، ثم انتقل إلى الفعل والمواجهة المباشرة الصراعية بالصدور العارية والأيدي، والأسلحة المتواضعة.

لقد قامت الشعوب العربية بدورها في إدارة الأزمة والصراع، ولا ننسى في الوقت نفسه ما قامت به النخب، والجماعات الدينية، والوطنية، والقومية، وما قامت به القبائل، وكذلك النخب المثقفة.

سادساً: الآثار السلبية للعوامل الخاصة والآثار الجانبية:

استعرضنا عقب طرحنا لنظرية العوامل الخاصة في الفصل الرابع، فصولاً من التاريخ السياسي العربي – الإسلامي، ووقفنا عند أنماط من إدارة الصراع، والأزمات التي تجلت في العهدين (النبوي والراشدي)، واعتبرنا أن هذين العهدين يمثلان حالة استثنائية في التاريخ السياسي، حيث كانت إدارتهما تعتمد المرجعية الشرعية، وعلى قوة البصيرة، والفطرة، والحدس الباطن، والإدراك المباشر، وقلنا أنه كان من المفترض أن تستأنس القيادات السياسية اللاحقة بهذه التجربة، دون أن تنسخها، بل تستر شدتها، وبتوجهاتها العامة في إدارة الأمور، ولكن ما حصل، هو: ظهور حالة استبدادية في الحكم تم

استنساخها طوال التاريخ العربي الإسلامي السياسي، وبعبارة أخرى، استولت على القيادات السياسية اللاحقة للعهدين، العوامل الخاصة والمرتبطة ب-: حب الدنيا، والفردية، واللامؤسسية والعنف، والاقتتال الأهلي ثم عرجنا نحو القيادات السياسية غير العربية، وهذه بدورها فضلاً عن أنها لم تعن بالحفاظ على الأوطان الإسلامية، فقد حافظت بالمقابل على أسلوب الصراع على السلطة، وقد مرت هذه القيادات بأنماط: من الترك والبويهيين والسلاجقة والمغول، والتتار، والمماليك، والعثمانيين، وأخيراً وصول الصليبيين، واختتم هذا الفصل بالظاهرة الاستعمارية.

نستشف بجلاء، ووضح تاريخ وواقع القيادات السياسية العربية، وما اكتنفه من سيطرة ظاهرة: الاستفراد، والتفرد، والاستحواذ، والاستبداد، للسلطة من ناحية، ومن ناحية أخرى، وقفنا عند مدى استعداد الشعوب العربية، وتقبلها للرجل العظيم.

لقد عملت القيادات الاستفرادية على إدارة الأزمات والصراعات فكان أداؤها ضعيفاً، وخاصة في إدارة الصراعات الداخلية.

لقد قال أحد الباحثين أن استعراضاً لمخيالنا السياسي، وواقع القيادة في الماضي، والحاضر، ندرك إلى أي مدى تمت سيطرة نمط خاص من السلطة، وهو النمط: الزعامي السلطوي، الفردي ويستطرد كاتبنا ليقول إن هذا الجانب ليس قصراً على سيكولوجيا القيادة السياسية العليا بل هو من سلبيات مخيالنا السياسي، لا بل هو من سلبيات مخيالنا الشعبي السياسي. وإذا لمسنا عذراً لتجاهل دور الشعب في القرار السياسي، وجعله بيد حاكم فرد واحد في معظم الأحيان، فما هو عذرنا في هذا العصر، وقد دخلنا القرن الحادي والعشرين[933] حيث ما زلنا نرى معضلة في التعددية والشراكة واختيارات الشعب في السلطة.

لا شك أن روح الشعب ونقاءها في مقاومة الاستعمار، ورفض الشعب المطلق للتعامل مع العدو في شكله الأوروبي، والصهيوني هو أمر نسجله، ونتشرف به، ثم إن جانباً له مبرره في مسألة انتظار الشعب للقائد الملهم، والرجل العظيم، والمرشد والمهدي، وتفسير ذلك أن هذا المخيال تكونت لديه صورة متألقة عن أمثال هؤلاء القادة الذين مروا عبر التاريخ العربي، ولا تزال الذاكرة العربية تحفظ أسماءهم وصورهم

من أمثال: (خالد بن الوليد) و(أبو عبيدة الجراح) و(صلاح الدين الأيوبي) و(عبد الكريم الخطابي) و(عمر المختار) وغير هؤلاء، واستمر في تخيله متصوراً أن العصر الحديث يمكن أن ينجب مثل هؤلاء فظل المخيال الشعبي ينتظر أمثال هؤلاء الأبطال، وبذلك يكون المخيال قد وقع في فخ، استنساخ الأبطال، وتكرار نفس الظروف، والأحداث التاريخية الماضية في عصرنا الحديث، وهو أمر مستحيل إذا تعلمنا مناهج العلوم الإنسانية، أن الحدث التاريخي بما فيه أبطال لا يتكرر، هو فريد كبطله الذي صنع منه أو صنعه.

لقد تعلق مخيالنا الشعبي بما فيه الكفاية بصورة الرجال العظام، وانصرف هذا الميخال من تصور أنظمة سياسية تقول بالتعددية والمشاركة السياسيتين، فظل مخيالنا يستعد صوراً كاريزمية من قبيل:

- الرئيس جمال عبد الناصر.
- الحبيب بورقيبة.
- حسن البنا (الإخوان المسلمون).
- ياسر عرفات (منظمة التحرير الفلسطينية).
- حافظ الأسد (حزب البعث).
- صدام حسين (في العراق)...الخ

لقد عاشت شعوبنا سلبيات القيادة الفردية بشكل خاص في أحدث صورها، في الحالة العراقية.

فعلى الرغم من إلقاء القبض على الرئيس العراقي صدام حسين، والحكم عليه بالإعدام وبعد مقتل ولديه، وانتهاء سلالة الصداميين، مما أفقد الحملة الأمريكية الاحتلالية مبررها المعلن، وعلى الرغم من بطلان الإدعاء بوجود أسلحة دمار شامل، فالاحتلال مستمر، وحتى إن رحل الاحتلال فسيربط الاحتلال العراق بمعاهدات، واتفاقيات مشينة، وظالمة بحق الشعب العراقي والشعوب العربية، وما ذلك إلا بسبب استثمار القوة العظمى لتخبط حكم الفرد العظيم(934).

وهنالك حالات أخرى جديرة بالوقوف عندها، لا تقل خطورة في وطننا العربي، في تلك الحالة وغيرها نعاصرها تعود في أهم أسبابها إلى بنية مخيالنا الشعبي الذي ما تزال تعشعش فيها فكرة وصورة (القائد)، (الإمام)، و(المهدي المنتظر)، وكل ذلك يلغي دور العقل، ويدمر آليات ما يسمى بالتفكير الناقد **Critical thinking** لدى الناس، ويقمع كل شكل من أشكال المعارضة، وقد انعكس هذا في تعامل السلطة والمعارضة في تاريخنا السياسي أي: السلطة، الفرد، والمعارضة.

لقد عشنا جميع الكوارث التي قادتنا إليها القيادات السياسية الفردية، ومع ذلك يمكننا طرح السؤال التالي: لماذا ما تزال شعوبنا تقبل فكرة الرجل العظيم؟

ولماذا نكتفي بدور المنتظر والمتفرج؟

سنسجل بعض السلبيات التي نتجت من تأثير العوامل الخاصة في القيادات السياسية والشعوب معاً:

1- إن عيوباً كثيرة تصدر عن تأثير العوامل الخاصة، والآثار الجانبية في إدارة الشؤون العامة وتدبير السياسة، والأزمات والصراعات التي تعترض الأفراد والجماعات، وكذلك أثرها السلبي في إدارة الصراع، فبالنسبة للتهالك على الدنيا، (الثروة، والسلطة والجاه...الخ). قلنا إن حب الحياة والعيش والدنيا أمور يقرها الشرع الديني، والعقل الإنساني، ولكن التمرغ الكامل الانهماك الشديد، وفقدان روح التضحية من أجل قضية، أو مبدأ أو عقيدة والانغلاق الكامل إزاء عوالم الروح، والقيم الروحية، والعيش لمجرد العيش فإن مثالب الحياة، وخاصة عندما تسيطر على سلوك القيادات السياسية والذين توكل إليها مصائر الأفراد، والمجتمعات، والأمم، ففي ذلك خسران بين قيم الحياة ذاتها.

2- إن العامل المتطرف مع الأمور يبعدنا عن التوازن في النفس، وعن العقلانية في التفكير، وعن العدالة في الحياة: إذ أننا نظلم الآخرين بسلوكنا المتطرف، وهذا السلوك في أهم تعاريفه هو التأكيد المطلق على حق (الأنا) على حساب حقوق الآخرين، فالقائد الفرد، والمستبد، وحتى الرئيس في العمل، والمنظمة، والإدارة، والمدرسة، إذا كان متطرفاً فهو يلغي دور الآخرين، في المشاركة، وفي حال القائد الفرد يتم إلغاء الشعب في المشاركة، وكذلك جميع هؤلاء المسؤولين المتطرفين يلغون دور الآخرين في إدارة الأزمات والصراعات.

3- اللاشعور، آلية عمياء وتخلو من الرقابة، وممن يتحكم في حركتها، تصدر عنها أفعال وأقوال كثيراً ما نعض بنان الندم عن صدورها، ونأسف، فالقيادة السياسية يجب أن تتمتع بالحكمة، ومراقبة زلات اللسان، وكذلك الأمر بالنسبة للمخيال الشعبي لشعوبنا العربية حيث يلعب اللاشعور الجمعي دوراً خطيراً في الحكم على الأمور وفي التعامل مع الأشياء، والآخرين، والشعوب الأخرى نظرة أو موقفاً منها.

4- الفردية، مرض مزمن في حياة قياداتنا السياسية تناقلته هذه القيادات جيلاً عن جيل، مع اكتسابها لهذا العامل من المجتمع، وباستثناء العهدين النبوي والراشدي كما قلنا، عادت الفردية في الحكم إلى بنية القيادات السياسية.

واستمر هذا التأثير في الفردية في السلطة حتى يومنا هذا، فالقائد في حياتنا السياسية يجب أن يكون واحداً بمفرده، يمارس سلطته، كما كان والده يمارس سلطته في البيت وفي الأسرة، فهو صانع القرار ومعالج شؤون المجتمع وأزماته، وقلما يعود إلى أهل الرأي، والخبرة، والشورى أو أهل الحل والعقد، أو المرجعية الدينية الشرعية أو الدستورية.

وتتصل بظاهرة الفردية هذه، مصالح السلطة، وما يرتبط بها من أنانية، وانقسامية يتحكم الحاكمون بفضل سيطرتهم على الموارد المالية، والأمنية، والعسكرية، وكافة أدوات الإغراء، والقهر وتقسيم المجتمع إلى فئتين هما:

فئة تدور في فلك القيادة، تمالئهم، وتحصل على المنافع، والمغانم، تدافع عنهم، وتمدح بسلطانهم، ترسم عنهم صور الأبطال.

فئة مقهورة، وهي في الغالب تمثل الغالبية الصامتة، تفقد وسائل المعارضة المشروعة ومع مرور الزمن تستسلم هذه الفئة إلى الواقع، لأنها ترى في هذا الاستسلام وسيلتها الوحيدة للبقاء على قيد الحياة والاستمرار فيها.

ولابد أن نستثني من ذلك نفراً قليلاً ممن ظلوا رغم القهر مخلصين لمبادئهم، وقيمهم وهذا ما يفسر لنا قول أحدهم: إن العربي مستعد للموت في سبيل الدفاع عن أرضه ووطنه وكرامته، وخاصة عندما يكون الوطن محتلاً، يواجه غزواً أجنبياً، ولكنه أقل استعداداً بدرجة كبيرة للتضحية في سبيل الحركات العامّة، والديمقراطية أمام حكمه،

وحتى أنه أقل استعداداً للاحتجاج ضد اضطهاد، وقهر واستعمار، وغزو الشعب الأخرى، أي أنه يفتقر في هذه المرحلة إلى المستوى الإنساني العام، فلماذا؟

على أي حال هذه الحال لا تتم بمعزل عن أساليب الحكام، وكل منهما تكمل الأخرى، فمسؤولية الشعوب في قبولها الواقع، وفي عدم التضحية في سبيل تغييره، وعدم أخذ دورها الطبيعي وربما ذلك، طمعاً في تحصيل المغانم العائلية، أو القبلية، أو الطائفية، عوضاً عن رفضها بحثاً تحقيق المصلحة العامة[935]، والمساهمة في تحقيق المصلحة العليا للأمة ولا يقل هذا الدور عن دور السلطة ذاتها.

هنالك جانب آخر في مخيالنا السياسي هو شخصية السلطة، وهو الميل العام لدى الناس النظر إلى السلطة السياسية ممثلة دوماً في شخص الرئيس، أو المسؤول العام أو القائد، وتمثل دور الإدارة التي هو رئيس لها يمثلها، إذ أن الفعل السياسي، خاصة في الأنظمة الديمقراطية ليس مرتبطاً بشخص الرئيس بل باستراتيجية الحزب الحاكم، وهو مجرد ممثل، وناطق، وله هامش في صناعة القرار ولكننا عادة ما نميل، وتسهيلاً في الإدراك إلى شخصنة السلطة، وهذه العادة الفكرية متمثلة أكثر في الأنظمة السياسية الفردية.

إن ترك أمورنا استسلاماً للواقع، أو استسلاماً للأقدار يعطي الفرص للمغامرين وهذا ماحصل في تاريخنا السياسي حيث صعدكثير من المغامرين، وورثتهم إلى سدة الزعامة، والسلطة وقد وصل هؤلاء، أحياناً بمجرد إشاعة، أو إذاعة بعض الشعارات الجذابة التي تداعب مخيالنا وتعدنا بالتنمية، والتطور، والتقدم، والازدهار. وتدعي الحرص على تحقيق أماني الأمة في العدل، والمساواة والحرية. وكل ذلك يتكشف مع الزمن أنه وسيلة للمغامرة الفاشلة، وتاريخنا السياسي ملئ بأمثلة من هذا القبيل. لأننا نرى الأمور بالعين لا بالعقل، وبالعاطفة والوجدان والمصالح الفردية لا بعين حقوق مصلحة المجتمع والأمة.

الخلاصة إن سيطرة هذه العوامل، أو بعضها وترك الآثار الجانبية ترمي بتأثيرها في حياتنا وسيرتنا السياسية، تعرقل عملية التنمية السياسية والاقتصادية والاجتماعية، ذلك إن التنمية تحتاج إلى تعاون الجماهير واللاعبين السيايين في تسيير أمور المة، وبالتالي إدارة أزمات وصراعات المجتمع، وأن الأولوية هي للتنمية السياسية ولا شك، وهي تقوم بالدرجة الأولى على نشر الوعي. وثقافة الحوار، والمشاركة في صناعة القرار ليس القرار

السياسي، بل إن الأمر أعم من ذلك إنه يعني الوعي بأهمية العنصرين المذكورين أي الحوار والمشاركة في حياتنا الخاصة، وحياتنا العامة باختصار.

5- إن رفضنا لمبدأ الذاتية في الحكم، نابع أصلاً من رفضنا لفكرة توريث السلطة، وهو ما عاشه تاريخنا السياسي، وما تعيشه حتى يومنا هذا، إنه مبدأ يأباه العقل والفطرة، ويتعارض تعارضاً تاماً مع حرية اختيار الشعب لقادته.

فالذاتية والفردية والشخصية والتطرف، إذا وضعنا جميع هذه المصطلحات في سلة واحدة لا نكون مجحفين في حق القارئ، ولا نتعدى على مطلبه في التمييز بين المصطلحات علمياً إذ أن هذه الظاهرة تجتمع كلها وذات تجاه واحد، ويعني افيمان بوجه واحد للحقيقة، ذلك الوجه الذي يراه الفرد منا وحده، ويتمسك به بعنف وبقوة، بحيث لا يتسامح مع آراء الآخرين المغايرة، إنه وحداني النزعة والتفكير، ولا يرى إمكانية تعدد احتمالات النظر إلى الحقيقة من عدة وجوه، أي أن الصفات التي يكتسبها القادة وهم صغار قبل الوصول إلى السلطة، من بيئاتهم الأسرية، والمدرسية، والاجتماعية، يعززونها بسلوكهم عندما يصل أحدهم إلى القيادة.

والواقع لقد حصل خلط عظيم في مخيالنا في الساسة والاجتماع، والثقافة بين:

- المطلق.

- النسبي.

وتفسير ذلك أن مفهوم المطلق يرتبط بالوحدانية الإلهية المطلقة التي أوصى بها الله تعالى له نبيه، الذي أرسله إلى الناس مبشراً بها نافياً للتعدد، والإشراك، فالله واحد، بالمطلق، ولا شريك له، هو واحد، إنه الحقيقة الإلهية بكل وجوهها، وهذا على صعيد الإيمان.

أما النسبي، فالقول فيه إن حياة البشر، فكراً، ووجوداً لا تقوم على الإيمان بوجه واحد للحقيقة، وليس لرأي أي منا صفة المطلق، إنه رأي بين آراء لا حصر لها، ولا يعني ذلك الصواب المطلق، وأمور الحياة تخضع لمبدأ النسبية، فما أقوله واعتبره صواباً، قد لا يكون بالنسبة لغيري صوابا، وما يراه شعب ما من المسلمات قد لا تكون كذلك بالنسبة لشعب آخر، وهكذا.

ولكن حذار من الإيمان بالنسبية المطلقة، إن هنالك مبادئ إنسانية وأخلاقية حقوقية مشروعة وعامة لا تخضع للنسبية، فجريمة القتل، جريمة والسرقة والاعتداء على أموال الغير، وعلى حياة الآخرين، أمور ليست نسبية إنها أمور مرفوضة لدى الأفراد والجماعات والشعوب، وكذلك حقوق الإنسان التي أقرتها الشرائع السماوية، والوضعية، كحق الحياة، وكحق الحرية، وحق المشاركة للأفراد ومع من يحكمهم، هذه ليست أموراً نسبية، ولكن الذي حصل، هو أننا خلطنا بين: القائد الفرد الواحد، وبين إيماننا بالواحد الأحد أي الله ووحدانيته المطلقة، فالقائد الإنسان إذا رأى نفسه منفرداً أو يراه أتباعه كذلك متفرداً فليس معنى ذلك أنه الإله، ولكن مخيالنا تورط منذ أقدم العصور، ولدى كافة الشعوب وفي تاريخنا في عقد مماثلة بين: الحاكم – الإله[936].

فالله هو الكائن المطلق بالنسبة لكافة أبناء البشر، بينما الحاكم الفرد، والواحد والقائد الأوحد ليس هو المطلق، وقد يكون كذلك بالنسبة لاتباعه، ولكن ليس بالضرورة أن يكون كذلك بالنسبة على آخرين غير الاتباع[937].

ستتبع من الآثار الجانبية لهذا الخلط في مخيالنا بين: النسبي، والمطلق، أننا ننظر إلى (المدير العام) و(رئيس الشركة) و(رئيس المنظمة) و(رئيس القطاع) أو (المؤسسة) هؤلاء هم: مدراء، وقادة، ورؤساء مطلقو القيادة، والقرار، يقبضون على أسباب الرزق، ولقم العيش لمرؤوسيهم، وهو سلوك انعكاسي لسلوك القيادة الفردية المطلقة في مجتمعاتنا السياسية.

نحن على مشارف نهاية العقد الأول من القرن الحادي والعشرين، ونتساءل ماذا جرى وماذا يجري على الساحة العالمية من حيث تراجع أو تراكم أو تصاعد، أو اشتداد الأزمات والصراعات، وكيف نفهم الخطوط الكبرى لإدارتها، وبالتالي هل هذه الأزمات والصراعات هي من طبيعة ما رأينا سابقاً على صفحات عملنا هذا أم أن خريطتها أي الأزمات والصراعات قد تغيرت.

لا شك أن خريطة العالم لم تتغير جوهرياً، فمواقع هذه القارات والدول، والبلدان هي ذاتها وقد تتغير تغيرات طفيفة نتيجة صراعات وحروب، ولكن بشكل عام نتكلم عن خريطة الأزمات والصراعات التي نعتقد متفقين مع فيلسوف عربي معاصر، إن هذه

الخريطة تغيرت في وقتنا الراهن، بمعنى أننا لم نعد نشهد صراعات إيديولوجية، بين (الاشتراكية) و(الرأسمالية)، ولا بين (القومي والإسلامي) ولا بين (الأصولي والليبرالي). ولم نعد نرى صراعاً بين الطبقات، لم نر صراعات بين البدو، والحضر، ولابين الفلاحين، والعمال، ولا بين الأنظمة الديمقراطية والدكتاتورية، ولا بين المفكرين معارك فكرية بين الوجودية، البراغماتية، أو بين النظرية الماركسية، والنظريات الدينية... نعم، لقد تغيرت خريطة الصراعات، وتغير اللاعبون، وتغيرت أساليب مواجهة إدارة الأزمات والصراعات.

إننا وعالمنا الراهن، وضمنا لعالمنا العربي بدأنا نشهد صراعات من نمط آخر إنها صراعات بين أصوليات مهيمنة على الساحة العالمية، منها: الأصولية الجهاوية، والأصولية الإنجيلية، الأصولية اليهودية، بين الإسلاميين الجدد والمحافظين الإسلاميين الجدد، بين مجانين الله، ومجانين المسيح لقد انقلبت الصراعات العالمية من الصراع بين النظريات الإيديولوجيات السياسية إلى حرب الإلهه والنصوص المقدسة، فضلاً عن حرب الجوامع، والمراقد وجدران المبكى، هذا دون أن ننسى الصراعات القديمة المتجددة بين العرب أنفسهم دولاً وأنظمة، ومحاور إستراتيجية، ولكل حرب معداتها، ودعامتها، وأبناؤها وآلهتها وجزاروها، ومن هنا برزت مصطلحات جديدة من قبيل: الدول المارقة والدول الفاشلة، ومحور الشر، وثنائية الفسطاطين، والشيطان الأكبر، والحملة الصليبية والفاشية الإسلامية، والبعبع الإسلامي، فضلاً عن الثنائيات الذائعة خاصة في بلداننا مثل: الوطني وغير الوطني الأدوات والأسياد.

إنها صراعات ما بعد الحداثة، والفائقة الحداثة على حد تعبير الفرنسي جاك أتالي[938].

صحيح أن خريطة الصراعات قد تغيرت، وأساليب، وخطط وطرائق اللاعبين الجدد على هذه الخريطة أيضاً قد تغيرت وتطورت مواكبة التقدم العلمي والتكنولوجي، ولكن عقلية اللاعبين الجدد، ومديري الصراعات المعاصرين ترتد عقليتهم إلى أنماط فكر قديم وآليات عقلية متراجعة، وتسيطر عليهم مجموعة كبيرة من العوامل الخاصة التي ذكرنا في فصلنا الرابع تعد أهم هذه العوامل: استبداد الغرائز، والأهواء، والتطرف الوجداني والفكري والسلوكي، إنها السيكولوجيا البشرية، في جوانبها السلبية المستحكم في السلوك الإنساني.

لعل القاسم المشترك الأعظم، والعمود الفقري المفقودين بين هؤلاء اللاعبين في رأينا هو في الأصوليين جميعاً (في السياسة، والدين والثقافة) عجزهم عن فهم أنفسهم، وعن فهم غيرهم (الآخرين)... ولكن أولئك وهؤلاء في النهاية هم بشر، هم: الإنسان، فالنتيجة هي في الإنسان نفسه، وعجزه عن إدارة التحولات، ورغبته في قلبها أو تحويلها إلى صراعات قاتلة.

وزبدة القول الأمر يتعلق بسوء إدارة الشأن البشري[939].

الخاتمة(2)

التعارض بين نظرية العوامل الخاصة وبين العقل

هنا وفي هذه الكلمات نصل إلى أحد أهداف الكتاب الرئيسة، وهو إظهار التعارض بين العوامل الخاصة، وبين مصلحة الشعب، والأمة العليا، والتي يقتضيها العقل، وأقصد هنا التعارض بين ما بنيناه في مخيالنا السياسي عن دور العوامل الخاصة، وقبلنا طوعاً أو كراهية، وخاصة على مستوى القيادة، وبالتالي قبلنا دور القيادة التي تقود الشعوب، وهي أسيرة بمعنى أو بآخر لهذه العوامل كلها أو بعضها وانعكاسها في سلوك القيادة في تعاملها، ومعالجتها، وصناعتها للقرار، بخصوص الأزمة والصراع أو الحرب، والسلم أو العلاقة الصراعية بين القيادة والمعارضة.

وبتعبير آخر، إن القيادة السياسية التي نشهد سلوكها الفرداني في الحكم، والقرار تتصرف شعورياً أو لا شعورياً بتأثير، وضغط العوامل الخاصة (العناصر السيكولوجية)، ومن ناحية ثانية ترفض مشاركة الشعب – تنظيماته، أحزابه، وهيئاته، في الحياة السياسية، تتعامل مع الشعب المعتقد او المذهب أو التوجه الفكري، فهي لا تدرك أن مصلحة الوطن/ تعلو على المذهب (والقبيلة والتوجهات الفكرية المذهبية الشخصية.

فالقانون، أو الدستور، أو شريعة الله، يجب أن يكون للأول، أو الثانية الأولوية فوق المصالح الخاصة سواء على صعيد القيادة أو المصالح الفئوية، أو حتى من مستوى الأفراد ككل.

إن أزمات المجتمع الكبرى وصراعات في الداخل أو في الخارج يمكن أن تداو بحكم الشرع، أنو القانون والدستور الوضعي الذي ترتضيه الأغلبية المطلقة وعندما نتحدث عن الدستور والقانون، فنحن ندخل في مجال: العقل، وما يقتضيه من خلق نظام ديمقراطي، لأن الديمقراطية في جوهرها مشروع عقلاني، فمشروعنا هنا، لا يلغي فيه العقل، العقل الآخر، ولا ينفيه، أو يستبعده، بل يلتقي معه، ويتلاقح، ويدعوه للمشاركة احتراماً لقدسية حق الجميع في صناعة حياتهم المشتركة السياسية والاجتماعية.

هل يشكل استخدام العقل في العمل السياسي أحد البدائل الممكنة للحل؟

هل استخدام العقل في العمل السياسي، وخاصة في حل المشكلات، وإدارة الأزمات والصراعات مجد لنا؟ وما مدى لجوء اللاعبين السياسيين في مجتمعاتنا العربية إلى التعويل على الفاعلية العقلية، وبالتالي تعويل شعوبنا ذاتها، بمنظماتها وهيئاتها وحركاتها، وأحزابها السياسية التقيد بمعايير العقل في العمل السياسي، وفي صراعاتها مع السلطة؟ ولكن ماذا نعني بالعقل؟

ليس هو التأمل البارد، أو النظر العقلي المحض، والساكن الذي عمل به الفلاسفة العقلانية في تاريخ الفكر الفلسفي، وليس العقل كنقيض للتفكير الانفعالي أو الوجداني وليس كما عناه الفلاسفة في الإسلام، بل إننا نعني منهجاً في التفكير يقوم على القبول في الحياة السياسية أن تعمل الدولة أولاً على بناء العقول على تعددية الرؤى، والأفكار، والآراء، وجدلها الثري، والمفيد لصالح نظام ديمقراطي أمثل يحتفظ، ويرجع إلى مرجعية دستورية وقانونية، والاحتكام إلى الدستور، والبحث الدائم عن أفضل الطرق للعيش المشترك لتجنب الصراع، والمواجهات العقيمة القائمة على التطرف، والتطرف المضاد.

عندما نتكلم عن الدور الفاعل للعقل في العمل السياسي، وإدارة شؤون الدولة والمجتمع وبما ينطوي عليه هذا المجتمع من مشكلات وأزمات وصراعات، والتزامنا المنهج العقلي، فنحن في هذا النمط من العقلانية السياسية لسنا مضطرين للتعويل، أو للعودة على المرجعيات العقلانية في تاريخ الفكر العالمي، أو تاريخ الفلسفة الأوروبية، ولا العودة إلى عصر التنوير، والحداثة بل يمكننا العودة أولاً إلى خصوصية عقلانية، ونشاط عقلي أسبق تاريخياً وزمنياً، ومنطقياً من تواريخ العقلانيات ومنظوماتها في الفكر الغربي، ولا نكون قد خرجنا من جلدنا، أو تراثنا، ذلك أن طريقة التفكير العقلية أو النظر العقلي، والمنهج نجد كل ذلك في أعمال:

- تحفيز القرآن الكريم على إعمال العقل.

- المعتزلة.

- الفلاسفة في الإسلام.

- أنماط السياسات عند العلامة (ابن خلدون).

فالمعتزلة في أواخر القرن الأول للهجرة، وما يليه من تطور هذا الفكر، قد فتحت الباب أمام النقاشات والجدل حول المشكلات الدينية – السياسية، واللاهوتية، بطريقة وأقول بطريقة لأن المسألة مسألة (منهج) عقلية، وكانوا حريصين على إيجاد توازن بين: العقل والشرع، بل وأحياناً غلبوا العقل بمسائل لم يأتي عليها الشرع، ولكن شريطة أن يكون تفكيرهم العقلي فيما لا يناقض الشرع.

أما بالنسبة للفلاسفة في الإسلام (كالكندي، والفارابي، وابن سينا، وابن رشد) فقد عول هؤلاء بدورهم على النشاط العقلي، واتبعوا، منهجه في الرؤية إلى الفكر والوجود (فالفارابي) يطالب في (آراء أهل المدينة الفاضلة) بأن تتحلى القيادة السياسية بالعقلانية والحكمة والرشاد، و(ابن سينا)، يرى أن السياسة هي: سياسة الرجل لنفسه، ولأهله، ودينه ولرعيته على هدى من العقل.

وابن رشد رأى في الحكمة (الفلسفة) والشريعة، وتوازنهما، فالحكمة هي الأخت الرضيعة للشريعة، والنبي، والفيلسوف هما صنوان، والنموذجان في القيادة السياسية الأول يسير على خطى الوحي والثاني على هدى العقل.

إن ما يهمنا هنا، إذن: أسلوب التفكير لدى هؤلاء Way of thinking:

فالمعقولية التي ساروا عليها، أو العقلانية هي الإطار العام لتفكيرهم وسلوكهم.

اهتم عمالقة الفكر السياسي في الإسلام بالقيادة السياسية، ومرجعيتها ومصادرها، أسلوباً، وطريقتها في العمل السياسي، ومعالجة الواقع.

لقد بين لنا العلامة (ابن خلدون) بصيرته الثافية، وعلمه الواسع، وتجربته المميزة، كرجل عرف شرقاً وغرباً في العالم الإسلامي، مصادر السلطة، وبنيتها فقد ذكر في الفصل الخامس والعشرين من (مقدمته) الشهيرة في معنى الخلافة، والإمامة أن هنالك ثلاثة أنواع من الملك (السلطة) أو الدولة وبتعبير أوسع ثلاثة أساليب في العمل السياسي.

الملك الطبيعي، وهو حمل الكافة على مقتضى الفرض والشهوة، مقتضاه التغلب والقهر اللذان هما من آثار الغضب والحيوانية، كما أن أحكام صاحب الملك الطبيعي جائرة عن الحق مجحفة، بحيث تمت يده من الخلق في أحوال دنياهم، لحمله إياهم في

الغاب على ما ليس في طوقهم من أغراضه وشهواته، ويشبه هذا النوع من السلطة ما أطلق عليه (ماكس خيبر Max Weber) اسم السلطة التقليدية التي تنتقل إلى أسرة القائد العظيم بشكل وراثي، اعتماداً على الاعتقاد بأن صفات القائد العظيم يمكن أن تورث إلى أحفاده من بعده،

والخلاصة أن الملك الطبيعي لا يؤدي إلى سلطة عقلانية[940].

إن الملك المذكور وعدم اعتماده العقل قد مارسه كثير من الخلفاء والسلاطين والملوك وهو ما سيندد به (الكواكبي) لأنه أدى إلى الاستبداد في السلطة، وهو ما دعاه (الماوردي) بإمارة الاستيلاء (استخدام القوة في الوصول إلى الحكم).

الملك السياسي، هو حمل الكافة على مقتضى النظر العقلي في جلب المصالح، ودفع المضار فيها يرجع صاحب هذا الملك إلى قوانين سياسية مفروضة (بلغت المؤامرة مرجعية الدستور الوضعي)، ويتعاون إلى أحكامها، وإذا خلت الدولة، من مثل هذه السياسة لم يستتب أمرها، وتكون هذه القوانين مرفوضة من العقلاء، وأكابر الدولة، وبصرائها، ولذلك تسمى بالسياسة العقلية[941].

الملك الخلافي، هو حمل الكافة، على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأحروية والدنيوية الراجعة إليها، إذا أن أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها لمصالح الآخرة، فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين والدنيا[942].

ويميل (ابن خلدون) نظر لمناخ العصر الذي عاش فيه إلى تفضيل (الملك الخلافي) على النوعين السابقين[943].

هذه أنماط ثلاثة من السياسات، وأنماط من الحكم ومن الدول، وبالتالي أنماط ثلاثة في المعالجة والتعامل مع الأزمات، والصراعات الحاصلة.

فالأولى: المرجعية فيها: القائد – الفرد – وورثته، هو، وهم القائمون على الأمور، وهم صانعوا القرار ومديرو الصراعات.

والثانيــة: المرجعيــة هــي الشــريعة التــي ســنها الله لعبــاده، أي الشــريعة الإســلامية، والأنموذج هو العهد النبوي في السياسة، والحكم والقيادة بالإضافة لعهد الشيخين.

الثالثة: المرجعية هي العقد المدني – الدستور الوضعي والقوانين، وما يسمى في عصرنا مرجعية النظام السياسي الديمقراطي، أو الملكي الدستوري، حيث يحق المشاركة للشعب ولذوي العقول، والبصائر (دور المستشارين والخبراء).

نميل مع روح عصرنا الراهن إلى السياسة العقلية، وما تقتضيه من مطالب علمية وعصرية في معالجة إدارة الأزمات والصراعات، مع تأكيدنا على: المعالجة لهذه الأزمات والصراعات من خلال الانفتاح على عالم الروح والقيم الروحية والإنسانية، والأخلاقية، وقد وقفنا على نماذج قادتها هذه القيم في عملها السياسي، وإدارتها للشؤون السياسية.

الهوامش

1- ظهر مقال في الصفحة الأولى من صحيفة اللوموند الدبلوماسية

Le Monde Diplomatque 9.10.06

النشرة العربية بعنوان: سعياً للتخلص من العالم العربي 2000/10/9.

2- د. محمد جابر الأنصاري، تكوين العرب السياسي، ومغزى الدولة القطرية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ط1، 2000 ص7.

3- تناول الباحث في بحث له نشر عام 1991 حول: التناقض الوجداني في الشخصية العربية، نشر دار الحوار (اللاذقية) سورية ط1، 1991.

4- د. علي زيعور، قطاع البطولة والنرجسية في الذات العربية - دار الطليعة - بيروت 1982، ص19.

5- المقصود بالإستراتيجية المباشرة التي تقوم على ضرورة التوصل إلى النتيجة المحددة وباستخدام الوسائل العسكرية كوسيلة رئيسة، أما الإستراتيجية غير المباشرة فهي التي تستند إلى عقيدة عسكرية تقوم على الإستراتيجية، وفتح جبهات فرعية متعددة. (عثمان العثماني، الإستراتيجية العليا والتكتيك ودورهما في إدارة الصراع) الدولي مؤسسة سندباد - دمشق 2001 ص71-72.

6- المصدر السابق ص95-97-127-128.

7- أ.د. مهدي التميمي، الفرق بين الإدارة والتدبير ط1 الأخطار الدولية - عمان الأردن - 2005 ص5-46.

8- د. حسن البزاز، إدارة الأزمة، ط المؤسة العربية الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع - بريوت ط1، 2001، ص11.

9- المعجم العربي الوسيط.

10- Le petit Robert.

11- The oxford study dictionary 1945 – Active study D. 1991.

12- د. صباح نوري، أوراق في التدريب على إدارة الأزمات (المركز العربي الأوروبي - دبي) غير منشورة (2000 - 2001م).

13- د. ماجد محمد شدود، إدارة الأزمات والإدارة بالأزمة، ط دار الأوائل للنشر والتوزيع، 2002م ص18-19.

14- م.س. ص19.

15- م.س. ص19.

16- يعرف معجم أكسفورد الأزمة: بأنهانقطة تحول في تطور المرضى. أو في تطور الحياة، أو التاريخ ويفسر التحول بأنه فترة تتسم بالصعوبة، وأحياناً بالقلق بالخطورة، ط1995م لندن وكذلك م.س، ص20.

17- م.س. ص20 تميل المدارس الفكرية الأمريكية السياسية في التعامل مع الأزمات من خلال تأكيدها على النتائج، وسنفصل هذه النقطة في الكتاب الثاني من هذا العمل عند دراسة الإدارة الأمريكية للصراع العربي الإسرائيلي وتعاملها مع القضايا العالمية عموماً، م.س. ص19.

18- د. حسن البزاز، إدارة الأزمة م.س. ص31.

19- م.س. ص31.

20- م.س. ص25.

21- م.س. ص25-27.

22- سنفصل هذه النقطة فيما بعد.

23- د. صباح نوري م.س. ص11.

Herbert Simon the new science of management division ford distinguishecl. V.3. NewYork harber. 1960 Kutz and (social Psychology of organization) p. 334.

24- د. ماجد شدود م.س ص34.

25- د. إسماعيل عبد الرحيم الحوسني نظم إدارة الأزمات.

26- د. حسن البزاز م.س. ص110.

27- د. ماجد شدود م.س.ص.

28- د. الحوسني م.س. ص18.

29- م.س. ص18-19.

30- م.س. ص16.

31- م.س. ص16.

32- ظهر مصطلح: منهج Method على يد كل من (إيمس) و(اذرابيلا) في القرن السادس عشر، ثم شاع استخدامه في كتابات (فرانسيس بيكون)، و(رونيه ديكارت)، ثم تطور على يد كل من (جوز ستيوارت) و(كلود بيرنارد) و(براتاندارسل) و(ماكس فيبر) و(بارنز) وهو سيستمر في تطوره د. ماجد شدود. م.م.س. ص65.

33- م.س. ص66.

34- م.س. ص66.

35- م.س. ص66-76.

36- م.س. ص68.

37- م.س. ص68-69.

38- م.س. ص70.

39- م.س. ص71.

40- م.س. ص73.

41- م.س. ص74.

42- م.س. ص74.

43- م.س. ص77.

44- م.س. ص77.

45- م.س. ص77.

46- م.س. ص77.

47- م.س. ص77.

48- د. محمد جابر الأنصاري، تكوين العرب السياسي، ص42-43.

49- م.س. ص80.

50- م.س. ص80.

51- م.س. ص81.

52- م.س. ص82.

53- م.س. ص83.

54- م.س. ص84.

55- م.س. ص85.

56- د. ماجد شدود م.س. ص35.

57- م.س. ص36.

58- حققت الحروب الصليبية بعض النجاحات في إدارة الصراع ضد الإمبراطورية الإسلامية التي كانت في طور السقوط.

59- م.س. ص36.

60- م.س. ص45-46.

61- بدأ التفكير في إدارة الأزمات على مستوى البحث والدراسات الإستراتيجية بعد الحرب العالمية الثانية، ثم تطور البحث فيها بعد الستينات والسبعينات.

62- م.س. ص46.

63- يرى القائمون على صناعة التأهيل والتدريب، ومراكزهما في مختلف مجالات العمل أنه من الصعوبة بما كان، تدريس علم الأزمات نظرياً أو أكاديمياً، والأفضل هو التدريب في مواقع الأزمات أو تكوين خلايا أزمة ميدانياً. وهذا القول يعكس مزاجاً عاماً لكثير من الناس الذين يغلب على سلوكهم أو تفكيرهم الجانب العملي، وهو أمر محمود ولكن هذا لا يمنع من التزود بالجانب النظري لعلم إدارة الأزمات لأن دور العلم يهدف في البداية إلى التعرف عليه كعلم له قواعده النظرية وإطاره النظري... هذا بالإضافة إلى اكتساب مهارات إدارة الأزمات عملياً... زد على ذلك أن إدارة الأزمة، كما لاحظنا في الصفحات السابقة لابد لها من معرفة العوامل التي أدت إليها، ومعرفة طبيعتها ومنهج معالجتها، وبكلمة مختصرة: دراستها، ودراسة أسسها والإنطلاق عملياً لتنفيذ الخطة لمواجهتها وإدارتها.

64- International Entyclopeida

65- م.س. ص92.

66- د. حسن البزاز، م.س. ص31.

67- م.س. ص31.

68- م.س. ص31.

69- م.س. ص31.

70- Randalld collins A comparative approach to political sociology in rein hard may weber an international portrait NewYork Anchor Book doubleday 1968. P.43.

71- I.E.

72- Randalld Collins, P43.

73- Herbert Simon the New Science of management, Division Ford distingwished lce turs. V.3. NewYork Harber 1960.

74- Kutz and Kabn the Social psychology of Organization, P.334.

75- تامر كامل الخزرجي، العلاقات السياسية الدولية، وإستراتيجيات إدارة الأزمات ط1 دار مجدلاوي – عمان الأردن، 2005م ص19-22.

76- م.س. ص26-27.

77-م.س. ص48-49.

78- م.س. ص51.

79- م.س. ص59.

80- م.س. ص357.

81- م.س. ص358.

82- م.س. ص358.

83- د. إسماعيل الحوسني م.س. ص19.

84- م.س. ص19-20.

85- م.س. ص20.

86- م.س. ص21. من المفيد لمن أراد التوسع في موضوع التخطيط العلمي لإدارة الأزمات، الاستئناس بمحاور كتاب الدكتور الحوسني العربية حول: نظم إدارة الأزمات: 1- نظم إدارة الأزمات ص50. 2- م.س. قطاع القيادة ص50. 3- م.س. قطاع العمليات ص51. 4- م.س. قطاع التخطيط ص52. 5- م.س. قطاع الإمداد والتموين 53. 6- فريق إدارة الأزمات ص56. من المصدر المذكور.

87- م.س. ص21.

88- م.س. ص27-28.

89- م.س. ص28.

90- م.س. ص28.

91- سنرى بعد قليل أن إدارة أزمة تأميم قناة السويس 1956 من قبل القيادة المصرية قد اقتربت في إدارتها للأزمة من الإدارة العلمية للأزمة، ورغم أن هذا العلم لم يكن تبلور واتخذ أبعاده العلمية التي نعرفها الآن.

92- د. إسماعيل الحوسني م.س. ص32.

93- م.س. ص37-38.

94- تركز الكتب التعليمية والتدريبية في تعليم مهارات التفكير علمهارة: المرونة Flexible التي توصف عادة بأنها من مهارات التفكير الإبداعي، وهي على الطرف النقيض من التفكير المتطرف الجامد والمتصلب.

95- م.س. ص40.

96- توم بيرز أوستن في كتاب: فيونا السادنت للقيادة - سلسلة (كتب الجيب) ترجمة عربية - مكتبة جرير - الرياض السعودية ط2، 2007 ص6.

97- جوناثان جوزلينج، مدير مركز اكستد للقيادة م.س. ص6.

98- إربستويل م.س. ص6.

99- بيتد راكر، م.س. ص6.

100- م.س. ص6.

101- د. عبد المعطي سويد، مهارات التفكير ومواجهة الحياة، ط. دار الكتاب الجامعي، العين، دولة الإمارات العربية ط2، 2007م ص88.

102- د. ماهر محمد صالح حسن، دار الكندي ط1، 2004م ص29 وما بعدها، كذلك الدكتور بشير محمد الخضرا، النمط النبوي الخليفي في القيادة السياسية العربية، والديمقراطية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ط1، 2005م ص88.

103- م.س. ص29، ود. الخضرا، م.س. ص80.

104- Roy R. Anderson, Robert F. Sabert, Jon G. Wagner in, Politics and change in the Middle-east, printice-hall Do Brach, Rio-de. Janero. 1998, fifth edition p.207.

105- د. الخضرا، م.س. ص89.

106- د. الخضرا، م.س. ص89.
107- م.س. ص89.
108- م.س. ص89، ماهر - المصدر السابق ص40.
109- م.س. ص90.
110- م.س. ص90.
111- م.س. ص90.
112- م.س. ص90، د. ماهر، م.س. ص92.
113- م.س. ص91.
114- م.س. ص91.
115- م.س. ص91.
116- م.س. ص92.
117- م.س. ص92.
118- م.س. ص93.
119- م.س. ص95.
120- رجاء النقاش، مقال: لماذا غضب عبد الناصر من توفيق الحكيم في (من التاريخ السياسي للأدب والأدباء) نشر في مجلة دبي الثقافية (دبي) العدد6 2005م، وأعيد نشره في كتاب مقالات رجاء النقاش الرقم16، 2007م، ص25 وما بعده.
121- فيوا السادنت، القيادة اليوم، م.م.س. ص10.
122- د. أحمد إدارة الأزمات التعليمية، من منظور عالمي ط1، الكتاب العلمي للكمبيوتر والنشر والتوزيع، الإسكندرية (2000 - 2001) ص39-40.
123- مادلين أولبرايت، في كتابها: مذكرة إلى الرئيس المنتخب، حوار تليفزيوني معها حول مقتل نصف مليون طفل عراقي عام 1996م والحصار، ترجمة عربية، الدار العربية للعلوم - بيروت 2008م، ص المقدمة.
124- د. محسن الخضيري، إدارة الأزمات، لقد أجرى كاتب السطور بعض التعديلات على النقاط المذكورة، مجموعة النيل العربية القاهرة ط1، 2001م ص17-19.
125-م.س. مع إضافة، وتعديل ص45.

126- Mariam Charies in Encyclo Peaclia Britannia Vol. 27 iqqq. Edition. P.354.

127- من أمثلة ذلك، د. محمد عابد الجابري في كتابه (العقل السياسي العربي)، ود. محمد جابر الأنصاري في كتابه (تكوين العرب السياسي)، د. هاشم شرابي في أعماله السوسيولوجية، د. بشير محمد الخضرا في كتابه (النمط النبوي الخليفي)، وآخرون كانوا قد سلطوا الأضواء في تحليلاتهم العلمية على العناصر والعوامل الموضوعية، ودورها في الحياة السياسية العربية.

128- انظر: صناعة القرار والرغبات الإنسانية البدائية Gardiner Morse: Decision and desire in Harvard Business review January 2006 p.42 Ibid p.45-46.

129- L.bid 4-46

130- د. بشير الخضير، م.م.س. ص18.

131- يروى أن الملك لويس السادس عشر في فرنسا كان يقول: الدولة أنا والحقيقة ما أقوله: "L'etat C'estmoi, et Ia Verit'e C'est que de dis"

132- صدقي إسماعيل، العرب وتجربة المأساة طبيعة حديثة، وزارة الثقافة السورية – دمشق 2004 ص153.

133- The Oxford Study Dictionry O.V.P 1991.

134- د. الخضرا م.م.س ص18-19 يقول الفرنسيون عن مثل هذه الحالة عن الحاكم المستأثر بالسلطة أنه يتمسك بالسلطة: Ils accroche au Pouvoir.

135- صديقي إسماعيل، م.م.س. ص150 – 151.

136- د. الخضرا م.م.س ص19.

137- هي بمعنى ما، تضاهي حب، إيثار الإنسان المعاصر العيش في المجتمع الاستهلاكي، ومجتمع الوفرة، والعيش الرغيد.

138- العنكبوت، 26.

139- الأعلى، 16.

140- القيامة، 21.

141- الدهر، 27.

142– يعبر عنها بالفرنسية: La Vie Imm'ecliate.

143– واجهت نظرية هرم الدوافع عند (ماسلو) انتقادات أهمها الافتقار إلى بحوث عملية كافية تدعم هذه النظرية انظر: Robert A. Baron, Essential of psychology, Allenand Bacon Second F-Ediate. 1996. P346.

143– سيخاطب الشاعر (أبو العلاء المعري) بعد قرون، قومه قائلاً: تقطعون البلاد طولاً لعرض – إنما سعيكم لفرج وبطن.

144– الجوزي، (ذم الهوى).

145– عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد، مصارع الاستعباد، ط حديثة منشورات الجمل – (ألمانيا 2006، ص18، الكواكبي يدين استبداد العناصر النفسية في العقل: Dictionary of Psychology, J.P. Chaplin. Second eclitiona,

146– Laurel, Book. 1985 NewYork

147– نذكر القارئ بما كان الشاعر المعري بهذا الصدد.

148– Encyclo Paedlia Britannica V01.27. Fd. 1999 p.354

149– Robert A.Baron Ibid. P.250.

150– قال طه حسين في مقدمته لكتاب فجر الإسلام للدكتور أحمد أمين "ما رأيك في عقلية العرب، إننا نجد فيها أثر الحياة الجاهلية، وهو كثير، وبعيد، ونجد فيها أثر الإسلام، وهو مركب وغير بسيط، ونجد فيها أثر المسيحية، والسامية، وفيها أثر اليونانية الفارسية والمجوسية كما نجد فيها أثر الهندية بالإضافة أثر الحضارات التي اتصلت بها حديثا الأوروبية والأمريكية، د. فجر الإسلام، أحمد أمين ط8 المقدمة.

151– د. أحمد أمين م.س. ص المقدمة، الطبعة الثالثة عشرة، والطبعة الثانية ص37 إننا نتحفظ على نقطة الابتكارية أو الإبداعية المشار إليها في الكلمات أعلاه وذلك أن العربي المسلم يستطيع أن يبدع عندما يتوفر له المناخ الملائم، والمشجع، والإمكانات المطلوبة، مثال ذلك أن الإشعاع الحضاري منذ أكثر من سبعة آلاف سنة في الوطن العربي خير شاهد.

152– د. إحسان النص، الخطابة العربية في عصرها الذهبي، ط دار المعارض بمصر القاهرة 1963، ص394.

153– المائدة 77.

154- معجم: Le petit Robert.

155- Political Extremism and Rationality. Combridge University Press.

بقلم مجموعة كبيرة من الباحثين في كبريات الجامعات في العالم.

156- المصور بالعنصر غير العربي هو الذي عبر عن نفسه بنزعة قومية شديدة التطرف كالنزعة الفارسية التي بدأت تظهر في ذلك الوقت، والنزعة العنصرية وهي ميل سيكولوجي أكثر منها عقلياً.

157-د. عبد العزيز الدوري، مقدمة في تاريخ صدور الإسلام، مركز دراسات الوحدة العربية بيروت ط1، 2002.

158- بدأ تغلغل العنصر غير العربي في الحياة السياسية منذ بدايةالعصر العباسي بدخول هذه العناصر على التوالي الأتراك، البويهيون، السلاجقة، المغول، المماليك، العثمانيون، الصليبيون - وأخيراً التغلغل الأوروبي مع الظاهرة الاستعمارية، وسنرى ذلك تفصيلاً فيما بعد.

159- د. الدوري م.س.س ص70.

160- م.س. ص20.

161- هو الشاعر بشار بن برد.

162- الدوري م.س. ص30.

163- م.س. ص76.

164- م.س. ص83.

165- م.س. ص83.

166- م.س. ص د. محمد جابر النصاري، تكوين العرب السياسي - مصدر م.س. ص39 - 40.

167- م.س. ص54.

168- محمد عابد الجابري، العقل السياسي العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، (سلسلة نقد العقل العربي) بيروت - ط1، 1990، ص70.

169- الجابري م.س. ص7.

170- انظر بحث الكاتب حول: التناقض الوجداني في الشخصية العربية المعاصرة، دار

حوار – اللاذقية (سورية) ص1، 1991، ص48 – 49.

171– تناول الدكتور محمد عابد الجابري هذا النمط من السلوك المزدوج حيث دعاه ب–(مفارقات المشهد الثقافي الحديث المعاصر) ويعبر هذا السلوك المفارق عن العلاقة المهشمة بين الفكر، والواقع في المجتمعات العربية: مقال الفكر العربي من خلال المرأة المهشمة، جريدة الاتحاد (أبو ظبي 2008/4/15).

172– مقدمة ابن خلدون طبعة – دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت 2007.

173– الشهرستاني عبد الكريم، الملل والنحل 3/1 عن د. الخضرا م.س. ص92.

174– د. محمد جابر الأنصاري م.م.س ص28.

175– د. محمد جابر النصاري م.م.س. ص28.

176– م.س. ص30.

177– الحضرا م.م.س ص122 وعن: الطبقات الكبرى لابن سعد ج9، دار بيروت 1967 – 1968.

* لقد رأي السيد محمود القمنى أن عبارة: مجمع الملأ كانت مجلساً سلطوياً صنع من أجل إحكام سيطرة الأرستقراطية المكية التجارية القرشية، وسيطرتها على: القرار انظر كتابه: حروب دولة الرسول، ط مدبولي – القاهرة 1996 ص9.

178– د. زكي نجيب محمود، المعقول، واللا معقول في تراثنا ط دار الشروق – القاهرة ط4، 1987 ص20 – 40 وكذلك د. عبد الإله بلقيريز، دور السليقة في إدارة المور في تكوين المجال السياسي الإسلامي – النبوة والسياسية ط مركز دراسات الوحدة العربية بيروت ط1، 2005 ص44.

179– آل عمران 26.

180– د. محمد عابد الجابري م.م.س ص59 – 60 – 61.

181– القرآن الكريم، سورة النساء 135.

182– سورة سبأ 28.

183– المائدة 48.

184– طه 15.

185– الأنعام 153.

186– الإسراء 71.

187- آل عمران 104.

188- النساء 59.

189- د. فهمي الفهيدي، نظام الحكم العربي الإسلامي في موسوعة الإدارة العربية الإسلامية، المنظمة العربية للتنمية الإدارية - جامعة الدول العربية - المجلد الول 2004 ص53 - 55.

190- سيتحدث الفلاسفة المسلمون بعد أكثر من قرنين من عهد النبوة عن مخيال النبوة، وكونه الوسيلة المثلى، بينما يتمتع الفلاسفة بقوة العقل لإدراك الحقيقة.

191- سيرة ابن هشام، (النبوية) طبعة حديثة، دار الكتاب العربي - بيروت ط1، 2006 ص133 - 134.

192- القلم، آية 1 - 7 د. محمد عابد الجابري م.م.س. ص61 - 62.

193- انظر الآيات القرآنية للتذكير في: العنكبوت 26، الأعلى 16، القيامة 21، الدهر 27.

194- كتابنا: الوحدانية والإشراك في التفكير العربي الإسلامي، مركز الكتاب العربي - بيروت 1993 ص20، وهو ترجمة لأطروحة الدكتوراة في جامعة السوربون 1979.

195- الكافرون 1 - 6.

196- كتابنا، المصدر السابق، ص19.

197- م.س. ص2.

من هذه المواد: الإيمان بالله عدم الشرك وعدم الاعتداء، عدم السرقة، وعدم القتل، وعدم الإتيان بالبهتان والابتعاد عن العصيان.

وقد أرسل النبي ؐ مصعب بن عُمير يعلم هؤلاء الإيمان، وكانت هذه الخطوة الأولى لتجاوز الأزمة والنجاح في إدارتها لصالح النبي، وكان الاحتكام إلى الدعوى بالحسنى، وجذب من حوله من الناس للدعوة، وتعليمهم الصبر، في انتظار الإعداد اللازم، والتعويض الدعم المفقود. إثر وفاة زوجته، وعمه.

198- د. فهمي الفهيداوي م.م.س ص119.

199- د. محمد بد الجابري م.م.س. ص85.

كانت قريش تعتقد أنه بالمال، وهو عصب الحياة الاقتصادية ومحركها، يمكن أن يجعل محمداً يفكر ويتراجع عن دعوته، وينسحب، وقد عرض عليه إغواء المال ليهجر الدعوة،

وردت آيات قرآنية حول حب المال {تحبون المال حباً جما} مخاطباً قريش >وغيرها ممن يقدس المال< وكذلك قوله تعالى {المال، والبنون} زينة الحياة الدنيا، وحب المال والبنون، وغيرهما من زينة الحياة الدنيا، هي من المبادئ الإيديولوجية لقريش – سورية الفجر 9.

200– د. محمد عابد الجابري م.م.س. ص89.

201– كانت القبائل التي سكنت مكة زمن الدعوة المحمدية عددها يزيد على الاثنتي عشرة قبيلة، ولكنها كانت تعيش بلا سلطة مركزية (وبلا دولة)، د. محمد عابد الجابري م.م.س. ص80.

202– د. مخلص الصيادي، تطور مفهوم الدولة في المجتمع الإسلامي الأول (أطروحة دكتوراه)، دائرة الثقافة والإعلام، الشارقة (الإمارات العربية المتحدة)، 2002، ص67.

203– د. محمد عابد الجابري م.م.س. ص91.

204– لقد اعتبرت الصحيفة أول عرض، وتحليل لدستور ينظم العلاقات بين الجماعات المختلفة في المجتمع الواحد تجنباً لوقوع الاختلاف والأزمات والأشتجار. د. مخلص الصيادي م.م.س. ص68 – 69 – 70.

205– د. فهمي الفهيداوي م.م.س. ص122 – 125.

206– وردت هذه الخطبة في: د. محمد عابد الجابري م.م.س. ص92، ونقلاً عن سيرة ابن هشام.

207– سنرى في الفصول القادمة أن التعايش السياسي بين السلطة والمعارضة كان، وظل مستحيلاً طوال فترات التاريخ السياسي الإسلامي، وكانت الأزمات والصراعات الطاحنة بينهما: الفتنة الكبرى (الأزمة) بين بني هاشم وبني أمية، ثم بين الحلفاء والمعارضين الذين جاؤوا طوال فترات – التاريخ السياسي حيث لم يؤخذ بالنموذج النبوي – الراشدي في: العيش والتعايش المشترك.

208– م.س. ص95.

209– م.س. ص95.

210– بناء على القرآنية: {أذن للذين يقاتلونكم بأنهم ظلموا إن الله على نصرهم لقدير الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله، ولو لا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع، وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً، ولينصرن الله

من ينصره، إن الله لقوي عزيز}[الحج: 39 – 40].

211– د. فهمي الفهيداوي م.م.س. ص129.

212– د. الخضرا م.م.س. ص121 – 124.

213– يرى الدكتور محمد عابد الجابري أن النبي ترك الأمر دون وصيفة من بعده عمداً، لأنه كان يضع نفسه دوماً فوق الجميع بوصفه نبياً، ولم يكن شيخ قبيلة، ولا ملكاً، وهو القائل: لا نورث ما تركنا، ومن ناحية أخرى أن التقاليد القبلية العربية تأب توريث الرئاسة م.م.س. ص143.

214– Abert Hourani, History of the Arab Peoples, the Belknap press of Harvard University, 1991, P60–63.

215– د. فهمي الفهيداوي م.م.س. ص145.

216– انظر بيان الإجماع في: د. حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي، والديني والاجتماعي ط الجزء الأول ص264 – 265.

217– التوبة 40.

218– د. عبد العزيز الدوري م.م.س. ص56.

219– صلى أبو بكر الصديق بالمسلمين بتفويض من الرسول في مرضه الأخير، فعدت أمامه الصلاة ترسيخاً لقيادة الأمة، إذ أن الصلاة أفضل دين المسلمين، وهناك صلة أبي بكر الصديق القوية بالرسول، وصحبته للأئمة وتميل ذلك أثناء هجرته إلى المدينة، كما أن انتخابه لرئاسة المسلمين الذي ينتمون إلى قبائل مختلف إنما هو فكرة إسلامية، تنافي الفكرة القبلية التي تقوم على اختيار رئيس من ذات القبيلة م.م. ص56.

220– د. عبد العزيز الدوري، م.م.س ص21.

221– د. محمد عابد الجابري م.م.س. ص140.

222– م.س. ص141.

223– ظهر فريق ثالث في المداولات في السقيفة، وكان دوره أو ظله خافتاً، وهو فريق التشيع (ولم تكن هذه العبارة قد تبلورت في الشكل والمضمون على النحو الذي نعرفه في تاريخ الإسلام المراحل اللاحقة)، وهو يرجع إلى ما قيل من تحفظ الإمام علي على خلافة أبي بكر)، ويظهر هذا الاجتماع بعض الأمور أهمها: ظهور بعض المطامع الفردية الراغبة في السلطة مثل مطالبة سعد بن عبادة، ولم يكن قد دفن النبي بعد ؛:

*** أن مركز القيادة (الخلافة السياسية) من أهم الأمور.**

*** قتل الخليفة عثمان والصراع على الحكم.**

*** الولاء القبلي كان حياً إلى حينه.**

د. بشير الخضرا، م.م.ص. ص137 – 140.

224– د. محمد عابد الجابري م.م.س. ص131.

225– د. عبد العزيز الدوري م.م.س ص50.

226– م.س. ص51.

227– م.س. ص51.

228– م.س. ص51.

229– د. الصيادي م.م.س ص169 – 270.

230– م.س. ص273.

231– الطبري، تاريخ الطبري ج3، ص207 دار المعارف بمصر، تحقيق أبو الفضل إبراهيم وعن د. عماد الدين خليل، في التاريخ الإسلامي، دار بن كثير – دمشق بيروت ط1، 2005، ص9 – 10.

232– د. فهمي الفهيداوي م.م.س ص149.

233– م.س. ص140، ود. عبد العزيز الدوري م.م.س. ص57.

234– د. الجابري م.م.س. ص142، د. الجابري م.س. ص143 – 144.

235– م.س. ص142.

236– م.س. ص169.

237– د. عبد العزيز الدوري م.م. ص55، وكذلك د. فهمي الفهيدي م.م.س. ص150، د. عبد العزيز الدوري م.م.س. ص50.

238– د. الجابري م.م.س. ص181.

239– م.م.س. ص181.

240– د. فهمي الفهيداوي، الموسوعة، م.م.س ص152.

241– د. الدوري م.م.س. ص21.

242– د. الجابري م.م.س. ص182.

243– عباس محمود والعقاد، عبقرية عثمان (مجموعة العبقريات9 طبعة حديثة/المكتب العصرية – بيروت 2007، عبقرية عثمان، ص13.

244– العقاد م.م.س. ص15 – 18.

245– الإشارة إلى: أحد العناصر التي أشرنا في الفصل الرابع أي (العوامل الخاصة).

246– د. علي محمد الصلابي، سيرة أمير المؤمنين، عثمان – دار المعرفة – بيروت، ط1، 2005، ص81.

247– تتفق جميع الروايات عن عثمان بأن الثوار عندما داهموا منزله، وقاموا بقتله وجدوه يقرأ القرآن الكيم.

248– م.م.س. ص81 وكذلك: شوقي ضعيف – العصر الإسلامي – دار المعارف بمصر – ط رابعة 2000 ص126.

249– العقاد م.م.س. ص134.

العقاد م.م. ويمكن العودة إلى كتابي الدكتور طه حسين حول: الفتنة الكبرى (عثمان) ثم كتاب (علي وبنوه) نشرا في ستينات القرن الماضي.

250– د. الصلابي م.م.س. ص371.

251– د. الصيادي م.م.س. ص247.

252– وعباس محمود العقاد م.م.س. ص147.

253– م.م.س. (د. صيداوي) ص274 – 275.

254– د. الجباري م.م.س. ص162، كان علي معارضاً لعثمان باسم العقيدة – وعندما بويع في هذه الظروف الحرجة أراد أن يبطل مفعول القبيلة في إدارة الأمور، وإبعاد الأطماع الغنائم ويجعل الأمر كله حسب المرجعية الدينية الشرعية م.م.س. ص195.

255– عباس محمود العقاد عبقرية الإمام مكتبة صيدا – بيروت 2006، ص114.

256– العقادن م.م.س. ص114.

257– د. الخضرا م.م.س. ص26.

258– LA Raison – D'Etat.

259– د. فهيداوي م.م.س. ص155.

260– سنرى فيما بعد إدارة النبي (ص) والراشدين للصراع الخارجي (الفتوحات) وذلك في الكتاب الثاني من الكتاب الذي سيتحدث عن إدارة الصراع.

261– القصص 80.

262– د. إحسان النص، الخطابة في العصر الذهبي، م.م.س. حيث يقول المذكور: أن النزاع بين بني هاشم وبني أمية، بالإضافة إلى الصراعات القبلية التي تمتد بجذورها إلى العصر الجاهلي، كان الدافع القوي إلى تلك الخصومة السياسية الضيقة التي نشبت بين الأسرتين بسب النزاع على الحكم ص175.

263– د. الدوري م.م.س. ص68.

264– د. إحسان النص م.م.س. ص70 – 71.

265– د. أحمد أمين، فجر الإسلام م.م.س. ص81.

266– جلال الدين السيوطي، تاريخ الخلفاء، تحقيق أحمد إبراهيم، وسعيد أحمد العيدوس ط. دار الكتاب العربي – بيروت – 2000 ص96.

267– الإمام علي بين أبي طالب نهج البلاغة شرح الإمام الشيخ محمد عبده ط حديثة – دار الكتاب العربي – بيروت 2005، انظر صفحات: 73–50– 57– 59– 85– 100– 119– 142– 148– 163– 165– 185– 195– 290– 299– 313.

268– اندريه ميكيل الإسلام وحضارته ترجمة د. زينب عبد العزيز دار المكتبة العصرية – بيروت 1981 ص127.

269– د. إحسان النص/ م.م.س. ص121 أتهم الأمويون بأنهم اغتصبوا الخلافة بالقوة م.م.س. ص71.

270– د. الفهيدي م.م.س. ص159.

271– د. الفهيدي الموسوعة م.م.س. ص156.

272– لا يزال هذا المبدأ في تولي السلطة سائداً في بعض أنظمة الحكم العربية حتى اليوم.

273– أي أنها مبتعدة عن المرجعية الشرعية الإسلامية.

274– د. فهمي الفهيداوي الموسوعة م.م.س. ص155.

275– م.م.س. ص156.

276– م.م.س. ص160.

277– د. عبد العزيز الدوري م.م.س. ص22.

278– م.م.س. ص22 – وانظر كـذلك اندرية ميكيـل، م.م.س. ص97 حيـث يقـول المستشـرق المـذكور أصـبحت الإمبراطوريـة الأمويـة تشـبه الإمبراطوريـات القديمـة فـي التاريخ.

279– جلال الدين السيوطي، تاريخ الخلفاء م.م.س. ص150.

280– م.م.س. ص155 – 156.

281– شـفيق جبـري العناصـر النفسـية فـي سياسـة العـرب، سلسـلة اقـرأ، دار المعـارف القاهرة 1945 ط1 ص49.

282– د. حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام م.م.س. ج(1) ص289 – 290.

283– اندريه ميكيل، ص116.

284– د. إحسان النص، م.م.س. ص56.

285– د. شوقي ضعيف، العصر الإسلامي م.م.س. ص208.

286– د. محمد عابد الجابري م.م.س. ص68.

287– د. أحمد أمين، فجر الإسلام م.م.س. ص79.

288– د. عبد الإله بلقزيز، م.م.س. ص83 أن من طبيعة الأمور أن الحاكم سواء كان في الماضي في الحاضر أن يحقق الإنجازات والقيام بأدائه كحاكم، وعندما يحقق الإنجازات فما منه فضل له، ولا امتياز، لأن الشعب، أو الرعية كلفة القيام بذلك وليس علينا تغطية سلبياته بإنجازاته، وإنما علينا نوازن بين الإيجابيات (الإنجازات)، والسلبيات ثم نحكم في الأمر.

يميز بعض الباحثين بين ظاهرة أو مصطلح الاستبداد، وبين ظاهرة الطغيان فقد نقل د. كمال عبد اللطيف عن د. ناصيف نصار ما يلي: يحدد (ناصيف نصار) مفهوم الاستبداد ويقارن، بمفهوم الطغيان، فيقول، في التراث العربي الإسلامي يبرز معنيان للاستبداد السياسي: الأول يجعله مقابلاً للشورى وهي استطلاع رأي ذوي التجربة، والبصيرة في شؤون الحكم، والثاني يجعله مقابلاً للمشاركة في الحكم من جهة ذوي العصبية الواحدة الغالبة.

ثم يضيف قائلاً: ويختلط مفهوم الاستبداد مع مفهوم الطغيان في كثير من الأذهان والنصوص، بينما في الحقيقة يشتمل مفهوماً الطغيان بمعناه العام على عنصرين لا تجدهما بالضرورة في الاستبداد وهما القهر، والجبر، فالاستبداد من حيث هو تصرف

غير مقيد، وتحكم في شؤون الجماعة بالسياسة، يبرز إرادة الحاكم وهواه، ولا يعني بالضرورة أن تصرف الحاكم ضاغط بعنف على المحكومين غير مبال بقواعد العدل، والإنصاف، هذا مع العلم أن الطاغية يعني في بعض النظريات الذي يستولي على الحكم بصورة غير شرعية، ولكنه يحكم بموجب القوانين.
الموسوعة الفلسفية العربية – بيروت، معهد الإنماء العربي ص54.
وعن د. كمال عبد اللطيف، في تشريح أصول الاستبداد، دار الطليعة – بيروت – ط1، 1999، ص174.
* يستعمل الباحث أحياناً المصطلحين كمترادفين لأن في مضمونهما المشترك ما يوحي بممارسة القيادات السياسية العربية في التاريخ السياسي ت إذ أن الحكام كانوا مستبدين ومارسوا في الوقت نفسه الطغيان/ بالقهر والجبر واستولوا على السلطة بالقوة.
289– د. إحسان النصر ص146 – 147.
290– م.س. ص147.
291– في هذا العصر أزداد إقبال الناس (عدا شرائح الفقراء) على الاستمتاع بطيبات الحياة والتهالك على نعيمها وكانت الرعية تقتدي بملوكها، فغلبت عليها شهواتها، واندفعت تفرط في الاستمتاع بلذات الحياة ومباهجها حتى ملك العجب بعض ذوي الزهد فقال: في ذكر الدنيا >كأنه زاد في حرصهم عليها ذم الله لها< طبقات ابن سعد عن م.م.س. ص88.
292– د. محمد عابد الجابري م.م.س. ص232.
293– تمثل في القضاء، أو محاربة المعارضين، فقد ندب معاوية للخوارج الذين ثاروا عليه، ولم تكن شوكتهم قد قويت بعد من أمعن فيهم قتلاً وبطشاً، وكان لزياد، وابنه عبيد الله اليد الطولى، كما سنرى فيما بعد، في القضاء على ثورات الشراة في عهده، وإخماد ثورة زيد بن أبي طالب، د. إحسان النص م.م.س. ص54 – 55.
294– اندريه ميكيل، م.م.س. ص97.
295– د. محمد جابر النصاري، تكوين العرب السياسي م.م.س. ص39 – 40.
296– د. إحسان النص م.م.س. ص295.
297– م.س. ص297.
298– د. النص م.م.س. ص301.

299– م.م.س. ص307.

300– م.م.س. ص314.

301– اندريه ميكيل، م.م.س. ص107.

302– د. النص م.م.س. ص393 – 340.

303– م.م.س. ص341.

304– م.م.س. ص341.

305– م.م.س. ص66.

306– م.م.س. ص69.

* إن قياداتنا السياسية العربية المعاصرة لا تزال تعيش في حياتها وممارساتها السياسية ضمن فضاء نفسي – أي أن العوامل السيكولوجية تحرك سلوكها السياسي العام، وليست العوامل العلمية والعقلانية لذلك فالثقة كعامل نفسي لا تزال لها الأولوية في صدق الموالاة والانتماء والولاء في تعامل قيادتنا السياسية مع بعضها ومع الأطراف المختلفة الأخرى.

307– جلال الدين السيوطي م.م. س. ص158.

308– م.م.س. ص161.

309– م.م.س. ص168.

310– م.م.س. ص169.

311– م.م.س. ص172 – 174.

312– م.م.س. ص174.

313– م.م.س. ص185.

314– م.م.س. ص188 – 189.

315– م.م.س. ص189.

316– م.م.س. ص189 – 190.

317– م.م.س. ص192.

318– م.م.س. ص195.

318– د. إحسان النص م.م.س. ص53.

319– م.م.س. ص61.

320- م.م.س. ص97 - 98.

321- م.م.س. ص100 - 104.

322- د. شوقي ضيف - العصر الإسلامي، الطبعة التاسعة عشرة - دار المعارف بمصر، ط231 - 233.

323- د. إحسان النص، م.م.س. ص133.

324- م.س. ص158.

325- م.س. ص157.

326- نقلاً عن ابن عبد ربه في العقد الفريد، وعن م.س. ص149.

327- د. عبد الإله بلقزيز م.س. ص214.

328- د. أحمد أمين، فجر الإسلام م.م.س. ص164.

329- اندريه ميكيل، م.م.س. ص113.

330- م.س. ص115.

331- د. شوقي ضيف، العصر الإسلامي (الأموي) طبعة خامسة، دار المعارف بمصر، ص23 - 31.

332- د. إحسان النص م.س. ص333.

333- م.س. ص334.

334- عن الطبري وعن المصور السابق ص339.

335- م.س. ص353.

336- د. النص، م.م.س. ص355.

337- م.س. ص356.

338- م.س. ص356.

339- د. الفهيدي، الموسوعة م.س. ص161، ج1.

340- د. عبد العزيز الدوري م.م.س ص75.

341-م.م.س. ص77.

342- د. شوقي ضيف في موسوعته الأدبية: العصر العباسي الأول، والعصر العباسي الثاني، د. الفهيدي في الموسوعة ص162.

343- د. الدوري م.س. ص83.

344- (ك. سيديو) تاريخ العرب العام ترجمة عادل زعيتر الحلبي - القاهرة ط2، 1969، ص183.
345- أهمها: الابتعاد عن العقل والشرع، والتفرد والفردية، والاستبداد في الحكم.
346- جلال الدين السيوطي، تاريخ الخلفاء م.م.س. ص405 - 408، الموسوعة م.م.س. ص162.
347- م.س. ص14، وضع أبو الفرج الأصفهاني ص(284 - 356) كتاباً بعنوان لافت (مقاتل الطالبين) وهو كتاب ضخم من القطع الكبير، يحصي فيه المؤلف أسماء وأمداد من قتل على يد العباسيين من آل البيت منذ مجيء العباسيين إلى الفترة التي عاش فيها المؤلف.
348- (مكرر 2) م.س. ص20.
349-م.م.س. ص21
350- مما يؤكد فرضية استبعاد العنصر العربي من الحياة السياسية منذ بداية العصر العباسي، وصية إبراهيم بن محمد بن علي 125هـ- قبل وصول أبي مسلم الخراساني، حيث أوصى إبراهيم (أبو مسلم الخرساني) قائلاً: إن استطعت، أن لا تدع في خراسان لساناً عربياً فافعل، د. إحسان النص، م.م.س. ص74.
351- م.س. ص20.
352- م.س. ص45 - 46.
353- م.س. ص51 - 52.
354- م.س. ص70 - 72.
355- م.س. ص26.
356- للإطلاع على تفاصيل الرسالتين، يرجى قراءتها في المصدر السابق د. ضيف ص28.
356- م.س. ص28.
357- استهل السفاح ولايته بالإيعاز إلى قتل الوزراء الذين كانوا يعارضونه، انظر، نبيل هلال، هلال في كتابه: الاستبداد - دار الكتاب العربي - القاهرة - دمشق - ط2، 2005، ص43.
358- الأحزاب 33 - 34.

359– الشورى 230.

360– الشعراء 214.

361– الحشر 7.

362– الأنفال 41.

363– ذكر ذلك الجابري في كتابه، العقل السياسي م.م.س. ص336.

364– السيوطي م.س. ص198 – 199.

365– م.س. ص199.

366– م.س. ص199.

367– م.س. ص200.

368– السيوطي، تاريخ الخلفاء، م.م.س. ص201.

369– م.م.س. ص200.

370– د. الجابري م.س. ص338.

371–

372– نبيل هلال، هلال م.س. ص46.

373– السيوطي تاريخ الخلفاء، م.س. ص202.

374– م.س. ص203.

375– م.س. ص207.

376– م.س. ص208 – 209.

377– م.س. ص209.

378–السيوطي م.س. ص210، ود. شوقي ضيف، العصر العباسي الأول.

379– م.س. ص35.

380– السيوطي م.م.س. ص217.

381– د. شوقي ضيف م.م.س. ص36 – 37، والسيوطي، تاريخ الخلفاء م.م.س. ص220.

مسألة القول بخلق القرآن كانت تدور حول السؤال التالي: هل القرآن، حادث أم قديم؟ أو، قالت المعتزلة إنه كتاب مكتوب بكلمات وحروف، وهو مصحف بأوراقه وغلافه، فلابد أن يكون حادثاً، ومخلوقاً، لأنه إذا كان قديماً قدم الذات الإلهية فهذا لكفر.

وقال أهل السنة لا نقول إنه قديم، ولا مخلوق، إنه كلام الله وكانت المسألة مثار جدل واسع في العصر العباسي.

382- انظر صفحات 224 - 225 - 227 - 228.

383- نبيل هلال، هلال م.م.س. ص43.

384- فصل الإمام محمد أبو زهرة في كتابه (أحمد بن حنبل) هذه المسائل وكذلك انظر كتاب د. أحمد أمين في ضحى الإسلام - الجزء الثالث: المعتزلة.

385- السيوطي م.م.س. ص230.

386- م.س. ص230.

387- م.س. ص233.

388- م.س. ص235.

389- المقصود بعلوم الأوائل تلك التي بدئ بترجمتها من الفلسفة والعلوم (اليونانية)، خاصة ومن الكتب التراثية القديمة الأخرى من الهند وفارس.

390- السيوطي م.م.س. ص237.

391- م.س. ص239.

392- م.س. ص239.

393- م.س. ص240.

394- م.س. ص241.

395- السيوطي م.س. ص258.

396- السيوطي م.م.س. ص258.

397- د. شوقي ضيف، العصر العباسي الثاني م.م.س. ص10.

398- د. شوقي ضيف، العصر العباسي الثاني م.م.س. ص10.

399- د. محمد جابر الأنصاري، تكوين العرب السياسي م.م.س. ص93.

400- د. شوقي ضيف م.م.س. ص10 - 11.

401- يقول ضيف، تم حملوا (القواد الأتراك) رجال الدولة على بيعة المتوكل، وكان ذلك نذير شؤم حيث أصبحت توليه الخلفاء فيما بعد بيد الترك وفيما بعد سيكون عزلهم بأيديهم م.م.س. ص13.

402- د. شوقي ضيف، م.م.س ص13.

402- م.س. ص13.

403- م.س. ص18 - 19.

404- م.س. ص69 - 74.

405- د. شوقي ضيف م.م.س. ص34.

406- أندريه ميكيل م.م.س. ص139.

407- ابن سينا، كتاب السياسة م.م.س. ص .

408- طرح الباحث في كتابه (مهارات التفكير ومواجهة الحياة) هذا السؤال على نحو آخر إذ يتساءل في هذا المجال ماذا يحصل عندما يكون القائم (القائمون) على حل المشكلة هو (هم المشكلة)- وبمقارنة لموضوعنا يمكن للسؤال وبعبارة كيف يمكن للقائمين على إدارة الأزمات وهم طرف فيها أو هم الأزمة أو هم المأزومون.

409- الواقع تقتصر أجهزة الإعلام المعاصر على التركيز أحياناً على الوجه السلبي للقادة، ورغم أن بعض التوجهات تحاول الفصل بين السلوكيات الشخصية للرئيس، وسلوكه السياسي، وتعتبر أن لا علاقة بين الجانبين (الاتجاه الفرنسي) بينما نرى التوجهات الإنجلو كسونية صلة بين الجانبين وعندما تذكر سلبيات سلوكية لرئيس ما، فذلك: لفضح سلوكه أمام الناس، وبعبارة أخرى تريد أن تقول أن هذا الرئيس المفترض أن يكون قدوة شاهدوا ماذا فعل، أو ماذا يفعل أما النسبة لأجهزة الإعلام العربية المعاصرة وهي أجهزة الدول فهي لا تركز إلا على الإيجابيات في سلوك القائد والرئيس.
لقد كان قدماء مؤلفينا أكثر التزاماً بالموضوعية من المعاصرين.

409- السيوطي م.م.س. ص271.

410- م.س. ص277.

411- م.س. ص282.

412- م.س. ص287 - 289.

413- م.س. ص292.

414- آدم ميتز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة، مكتبة النهضة 1940 ص15، وفي الكتاب أخبار كثيرة من هذا القبيل.

415- السيوطي م.س. ص18.

416- آدم متيز م.س. ص21.

417- السيوطي م.م.س. ص334.

418- (مكرر) آدم متيز، م.م.س. ص22.

418- السيوطي، تاريخ الخلفاء.

419- أندريه ميكيل م.م.س. ص244 - 246.

420- د. بشير الخضرا، م.م.س. ص196.

421- م.س. ص197.

422- د. محمد جابر الانصاري م.م.س. ص106.

423- د. كمال عبد اللطيف، في تشريح أصول الاستبداد، دار الطليعة - بيروت، 1999، ط1، ص264.

424- الحجرات 90.

425- انظر بخصوص المعتزلة كتاب الدكتور أحمد أمين ضحى الإسلام، (الفصل المتعلق بالمعتزلة) مكتبة النهضة - القاهرة الطبعة الرابعة.

وكذلك:

The Concise Encyclo Paeclia of Islam Mutazilites

Islam, Stacey International. London Second Edition 1991.

J. Burlot, la Civilisation Islamique Hachett-Paris.

426- د. زكي نجيب محمود، المعقول، واللامعقول في تراثنا الفكري م.م.س. ص288 - 289.

427- م.س. ص291.

428- م.س. ص291.

429- رسائل إخوان الصفا ج2 ص206، وما بعدها، وعن د. زكي نجيب محمود المعقول واللامعقول، م.م.س. ص197 - 198.

430- قارن هذا، مع رسالة (بن سينا) حول السياسة والتي بدأها بسياسة الإنسان وإدارته لنفسه أولاً وقد ذكرنا ذلك سابقاً.

431- حنا فاخوري، خليل الجر، تاريخ الفلسفة العربية وعن د. نزار عيون السود نشوء تطور الفكر النفسي الاجتماعي عند العرب، منشورات اتحاد الكتاب العرب - دمشق، ط1، 1997، ص59.

432- الرسائل ج4، د. زكي نجيب محمود م.م.س. ص206.

433- م.م.س. ص206.

434- م.م.س. ص207.

435- د. الخضرا م.م.س. ص206.

436- م.س. ص206.

437- م.س. ص208.

438- د. عبد الرحمن بدوي الإنسان الكامل في الإسلام، وكالة المطبوعات – الكويت، ط 1976.

439- د. الخضرا، م.م.س. ص207 – 208.

440- أي الحركات الإسلامية م.م.س. ص112.

441- شرح منهج البلاغة لابن أبي الحديد وعن د. إحسان النص م.م.س. ص167.

442-

443-

444-

445- د. الخضرا م.م.س. ص207.

446- نبيل هلال، هلال الاستبداد م.م.س. ص86 يتضمن ديوان الشعر العربي مجموعة من القصائد، الأدبية والشعرية في تمجيد الملوك، وقد سجل بعضاً منها دكتور كمال عبد اللطيف في كتابه (تشريح أصول الاستبداد) على سبيل الاستئناس من قول جرير لعبد الملك:

الله طوقك الخلافة والهدى   والله ليس لما قضى تبديل

كما قال:

إن الأمين أمين الله لا شرف   فيما وليت ولها هيابة ورع

وقال في الوليد بن عبد الملك:

يكفي الخليفة أن الله سربله   سربال ملك به تزجى الخواتيم

يا آل مروان الله فضلكم   فضلاً قيدماً وفي المسعاة تقسيم

وذكر الدكتور (عبد اللطيف) ما ذكرناه سابقاً شعر بن هاني.

انظر ص179 – 118.

ذكر لك كل من: د. كمال عبد اللطيف في (تشريح أصولا الاستبداد) ونقلاً من د. إمام عبد الفتاح إمام الطاغية، سلسلة عالم المعرفة، رقم 183، 1994، ص201 – 202.

447– د. الخضرا م.م.س. ص208 – 209، 212.

448– تعددت وجهات نظر الباحثين حول عبارة الفلسفة الإسلامية منهم من ينكر وجود >فلسفة< إسلامية كبعض المستشرقين، ومنهم من يفضل عبارة فلاسفة الإسلام، ومنهم يفضل عبارة الفلسفة في الإسلام انظر:

G. Anawati

Etudes de philosopkie musulmane Ed.J. Vrin 1974, Henri carillon, Histoire de la philosophie Islamiqne. Coll. Idies. Gallimard 1964.

Abdul Rahman Badawi, Histoire de lo philosophie en Islam, Ed, Vrin, Paris 1970, 2.Tomes.

Lslamic State and Comparative Politics in Islamic Sciences by S.qqr Ahmad Husaini, ed. Good. Books. U.K. 2002, P.92, 119/

449– د. نزار عيون السود م.م.س. ص62.

450– د. عيون السود م.م.س. ص70.

451– ماريا لويزا برتيري، المدينة الفاضلة عبر التاريخ، ترجمة د. عطيات أبو السعود، مراجعة د. عبد الغفار مكاوي، سلسلة عالم المعرفة رقم 225، 1997، الكويت.

452– م.س. ص30.

452– م.س. ص31.

453– م.س. ص32.

454– د. عيون السود م.م.س. ص70.

455– م.س. ص70.

456– كان الفلاسفة اليونان (سقراط) مثالاً يرون، أن الفضيلة علم.

457– كتاب تحصيل السعادة أحد عناوين كتب الفارابي.

458– م.س. ص84.

459– د. عيون السود م. م.س. ص92.

460– م.س. ص84.

461- د. الخضرا م. م.س. ص96.

462- م.س. ص225.

463-د. زكي نجيب محمود م. م.س. ص313.

464- الشيخ الرئيس أبو علي ابن سيف كتاب السياسة، تقديم، وضبط وتعليق على محمد أسير، دار بدايات للطباعة والنشر - جبلة (سورية) 2007 ص55.

465- م.س. ص65.

466- د. عيون السود م. م.س. ص149.

467- د. الجابري مثالاً وكثير من الباحثين الأوروبيين والمستشرقين المحدثين.

468- د. عيون السود م.م.س. ص164.

469- م.م.س. ص167.

470- السنة لا تعني هنا السنة النبوية، بل القانون المنبع.

471- م.م.س. ص168.

472- م.م.س. ص170.

473- م.م.س. ص169.

474- د. الخضرا م.م.س. ص226.

475- د. محمد عابد الجابري: مقال: ابن رشد والتأسيس العلمي العربي للسياسة جريدة الاتحاد (أبو ظبي) 2008/4/29.

476- د. الجابري مقال: ابن رشد، التطرق يميناً ويساراً مشكلة جريدة الاتحاد، أبو ظبي 2008/5/6.

477- محمد خالد، ابن ظفر الصقلي جريدة الخليج (الشارقة) 2008/4/20.

478- م.س.

479- م.س.

480- د. عيون السود م.م.س. ص182.

481- م.س. ص188 - 189 - 190.

482- نخص بالذكر العمل الذي وضعه الدكتور محمد عابد الجابري في موضوع العصبية.

484- م.م.

Lslamic State and Comparative.

Politics in Islamic Sciences by. S.qar Ahmad Husaini. Ed. Good. Books. U.K. 2002. P.92. 119/

س. ص195 – 197 وانظر في هذا المجال.

كذلك مقال طيب: بوعزة الأنماط السياسية عند أبي خلدون جريدة الخليج 2007/6/30 ما بين أقواس وضعنا.

485– انظر ندوة الكتاب: من ظلام الأهواء إلى وضوح المنطق: الأسس العقلية للسياسية للدكتور عبد الرحمن بوقاف جامعة الجزائر، تغطية في جريدة الاتحاد (أبو ظبي) 2008/36/18م.

486– د. فهي جدعان أسس التقدم عند مفكري الإسلام، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان (الأردن) ط. 1988 ص15.

487–د. الخضرا. م.م.س. ص27 و173.

488– د. كمال عبد اللطيف، م.م.س. ص8.

489– م.م.س. ص8 و111.

490– د. الخضرا م.م.س. ص193.

491–د. الخضرا م.م.س. ص191 – 192.

492– د. كمال عبد اللطيف م.م.س. ص27.

493–انظر: أدب الدنيا والدين، طبعة حديثة. دار الفكر للطباعة النشر – بيروت 2005.

494– د. الخضرا م.م.س. ص192، يشيد الماوردي في الصفحات الأولى من أدب الدنيا والدين بالعقل أو سلوك الدهماء.

495– د. رضوان السيد عن (د. كمال عبد اللطيف م.م.س. ص35، د. محمد عابد الجبري م.م.س.

496– د. كمال عبد اللطيف م.م.س. ص35.

Histoire des idees Politiques

497– د. كمال عبد اللطيف م.م.س. ص264.

498– لم يقصر المفكرون، وعلماء النفس الغرب عقد دراسات وبحوث ووضع كثير من الكتب لتحليل ظاهرة ومسلك: الشخصية المتسلطة، وظاهرة الدكتاتورية والطاغية،

وأغلبها مستوحاة دراسات حول دراسة شخصيات مثل: (هتلر) في ألمانيا (موسلوليني) في إيطاليا، و(فرانكو في إسبانيا) (ستالين) في روسيا و(بينوشيا) في شيلي و(شياوسيسكو) في رومانيا... الخ.

انظر تفاصيل: Dictator Ship in Wikipedia (Free Ecyclopedia internet Network 24.2.2008.

وكذلك العمل الرائد للفيلسوف الألماني أدورنو .Adorno. T.W من مدرسة فرانكفورت الفلسفية، حول تحليل فكري، واجتماعي وسيكولوجي للشخصية المتسلطة:

The Authoritarian Personality 1950 Le Robert: les Norms Propres

499–د. عيون السود، م.م.س. ص104.

500– م.س. ص105.

501– أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي المتوفي (450هـ–)، الأحكام السلطانية، نشر دار الفكر – دمشق 1997، ص6.

502– م.س. ص107 – 108.

503– عبارة ابن طاطبا، في كتابه (الفخري في الآداب السلطانية)، انظر د. كمال عبد اللطيف.

504– كمال عبد اللطيف م.م.س. ص61.

505– الفخري في الآداب السلطانية ص6 نقلاً عن م.م.س. ص141.

506– د. عبد اللطيف م.م.س. ص199.

507– م.س. صص193 – 196.

508– د. عبد المعطي سويد في (الوحدانية والإشراك)، م.م.س. ص113.

509– د. عيون السود، م.م.س. ص123.

510– م.س. ص122.

511– د. الخضرا م.م.س. ص178.

512– نشرة الدكتور عبد الرحمن بدوي في ستينات القرن الماضي.

513– د. الخضرا م.م.س. ص183.

514– د. الخضرا م.م.س. ص183 – 184.

515- ابن تيمية السياسية الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، تحقيق الدكتور على سامي انشار، وأحمد زكي عطية، مكتبة الرياض، بلا تاريخ ص4 - 5 وكذلك، د. الخضرا م.م.س. ص188.

516- ابن تيمية م.م.س. ص5 - 6، وكذلك د. الخضرا، م.م.س. ص188.

517- م.م.س. ص4 - 5 - 6.

518- م.م.س. ص76.

519- م.س. ص9.

520- م.س. ص171 - 173.

521- للشيخ كتاب ضخم تحت عنوان: موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول، درد تعارض العقل والنقل.

522- د. عيون السود م.م.س. ص132.

523- م.م.س. ص130 - 131.

524- م.م.س. ص122.

525- م.م.س. ص132.

526-

Roy R.Anderson Robert F. Seiloert, Jon G.Wagne: Politics and Change in the Middle East. Prentice Hall. New Jersy Fi Fth Edition P. 38.

527- أندريه ميكيل م.س. ص284 - 289.

528- د. محمد جابر الانصاري، م.م.س. ص54، يقول الانصاري، لقد فقدت السلطة العربية، دورها السياسي منذ أيام المعتصم م.م. هـ-68.

529- م.س. ص289.

530- م.س. ص300

530- (مكرر) م.س. ص344.

531- (مكرر) م.س. ص345.

532- انظر كتابينا: العقل العربي - معالم في طريقة التحرير، نشر مؤسسة الانتشار العالمي - القاهرة، الطبعة الثانية 2006، ص56 وما بعد.

وأيضاً: هياكل التنوير، مؤسسة الانتشار العالمي القاهرة ط1، 2006، ص64 وما بعد.
533-
Albert Hourani A History of the Arab Peoples the Belknap Press of Harvard University Press, Combridge, Mass ashusetts 1991, P.52.
534- أندريه ميكيل م.م.س. ص453.
535- Roy R. Auderson and others, Ibid, P52.
536- Oxford Dictionary of current English O.U.P. 1992 Rody R Anderson Ibid. P.66.
537- نذكر أن العرب كانوا قد تلقوا الصدمة الداخلية الكبرى في (الفتنة الكبرى)، والثانية الاجتياح (المغولي التتري) والثالثة (الاستعمار الغربي).
538- د. الانصاري م.م.س. ص7.
539- م.س. ص7.
540- تتعدد أساليب المقاومة لدى الشعوب ضد التغلغل والتدخل الأجنبي، فهنالك المقاومة بالسلاح أولاً وهنالك المقاومة بالكلمة والقصيدة، والموسيقى ومختلف الأنشطة الفكرية والأدبية، وبالكتابة، والندوة، والمؤتمر، ومختلف الأدوات الاتصالية، بالإضافة إلى المقاومة باللغة والجسد.
541- أندريه ميكيل م.م.س. ص255.
542- طارق البشري، العرب في مواجهة العدوان، دار الشروق - القاهرة 2002، ص82 - 83.
543- أندريه ميكيل م.م.س. ص501.
544- على حد تعبير أدوار سعيد في كتابيه: الاستشراق، والإمبريالية الثقافية.
545- أندريه ميكيل م.م.س. ص492.
546-أندريه ميكيل م.م.س. ص492.
547- م.س. ص514 - 515.
548- د. الطيب بوعزة، مقال: في تجديد معنى سؤال النهضة عن زاوية (المعرفة) لقناة الجزيرة الأخبارية التلفزيونية.

549- م.س.

550- م.س. الجزيرة الأخبارية 2007/3/30.

551- م.س. ص4 - 5.

552- Roy R. Anderson.

553- Ibid. P.223.

554- كان الروس قد كشفوا تفاصيل هذه المعاهدة أبان الحرب العالمية الأولى Roy R.Anderson Ibid. P.69.

555- وثائق ال-BBC البريطانية مسحوبة عن طريق الشبكة العالمية الإنترنيت 2006/7/17.

556- أندريه ميكيل م.م.س. ص491.

557- أحزاب وحركات الإخوان المسلمين، الحركات والأحزاب اليسارية الاشتراكية والتقدمية، والليبرالية وهذه الأخيرة لم تشكل حزباً بل هي دعوة فكرية لمواجهة القيادات السياسية القائمة.

558- د. برهان غليون، المعارضة السياسية، الدور، ومصدر الشريعة جريدة الاتحاد، أبو ظبي 2008/5/11.

559- د. الخضرا القسم الثالث في كتاب النمط النبوي - الخليفي في القلادة السياسية من صفحة 251 إلى 401.

560- Roy R. Anderson Ibid. P.76.

561- Roy R. Anderson Ibid. P.76.

562- Ibid. P80.

563- من وثائق ال-BBC البريطانية مسحوبة عن الإنترنت م.م. ص2006/17/7.

564- لقد ذكرت الوثائق المذكورة وقائع الهجرة اليهودية ودعم الحكومة البرتغالية لها منذ (1881)، وبين هذا العام و(1914) قدرت بريطانيا عدد المهاجرين ليصل إلى مليونين وسبعمئة ألف يهودي يهاجرون من روسيا وبعض بلدان شرق أوروبا، أما نسبة هجرتهم من إسبانيا بعد طردهم منها 1492 فلم يتعدى 3%.

565- م.س. ص9.

566- Roy R. Anderson Ibid. P.80.

567- كيف يصنع القرار في الوطن العربي (ندوة) مجموعة من الباحثين، مركز دراسات الوحدة العربية - بيروت وسلسلة، مكتبة المستقبلات العربية البديلة 1985.

568- Roy R. Anderson Ibid. P.88.

569- م.س. ص19، لقد عقد أحد الباحثين في الندوة مقارنة سريعة بين شخصية الرئيس (عبد الناصر)، وشخصية (السادات) في صناعة القرار، فخلص إلى أن الأخير كان أكثر ميلاً إلى الفردية والتفرد في اتخاذ القرار م.س. ص20.

570- د. الخضرا م.س. ص251 - 252.

571- الدكتور السيد سليم م.س. ص20.

572- د. السيد سليم، قرار تأمين قناة السويس 1956، دراسة في اتخاذ القرار الفطري في المصدر السابق ص51.

572- م.س. ص19.

573- م.س. ص19.

574- م.س. ص20.

575- م.س. ص20.

576- انظر تفصيلات هذه النظرية في د. الخضرا م.س. ص251 - 252.

577- د. أحمد سيد أحمد، مقال ألغام على طريق القمة العربية، جريدة الخليج (الشارقة) 2008/2/16.

578- L.C.G المجموعة الدولية لإدارة الأزمات، لجنة تابعة للاتحاد الأوروبي.

579- عن L.C.G مجموعة (إدارة) الأزمات الدولية أوراق مسحوبة عن طريق الإنترنيت 2007/11/18.

580- حال الأمة العربية (2006 - 2008)، ط مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2008، ص11.

581- م.س. ص11.

582- م.س. ص12.

583- لقد عادت القوى اليسارية أثناء الحرب الأهلية اللبنانية إلى انتماءاتها وولاءاتها القديمة، الطائفية والعائلية، وانضم كل فريق من هذه القوى للقتال إلى جانب طائفته، وهو ما يجعلنا نميل إلى الاعتقاد بأن الانتماءات، والولاءات المذهبية، والعائلية كانت

كامنة في اللاشعور، وكانت الميول اليسارية تطفو السطح، مما دفع قوى اللاشعور تعود عندما احتدم الصراع.

584– استأنسنا بما جاء حول (الملف اللبناني) لشبكة B.B.C البريطانية، والمنشر على شبكة الإنترنيت الدولية 2008/7/7.

585– م.س. ص21 – 22.

586– إدوار دي يونو (صراعات) ترجمة فاطمة السنوسي، منشورات المجتمع الثقافي (أبو ظبي) ط1، 1997، ص177، وما بعد.

587– قامت الجامعة العربية بخطوات تمهيدية، وصنعت بعض الخطوات في طريق إدارة الأزمة.

588– م.س. ص7، 2008/7.

589– نعتمد في سرد هذه الأقوال والوقائع على وثائقية ال–B.B.C م.س. ص7، 2008/7.

590– تسوية الصراعات، ماكس إيه، إبحرت ووندي فالزون وترجمة عربية، مكتبة جرير الرياض (السعودية) ط1، 2006، ص10.

591– كان لقطر تجارب سابقة في التوسط لإدارة أزمات في السودان، واليمن وبين فتح وحماس بين عامي 2006 – 2008، وثائق ال–B.B.C م.س.

592– م.س في 2008/7/9 نقول >لحظة< توافقية، فقد تدوم فترة قصيرة وتعود الأزمة ويشتد الصراع لأن اللاعبين هم أنفسهم، ووجود نفس اللاعبين يعني وجود نفس المشكلات.

593– م.س. ص2008/7/9، وقد تستمر هذه اللحظة التوافقية، وتنقلب إلى اتفاق طويل الأمد.

594– حال المة العربية م.م.س. ص155.

595– م.س. ص155.

596– م.س. ص156.

597– م.س. ص157.

598– م.س. ص165.

599– م.س. ص166.

600- م.س. ص169.

601- عن أوراق المجموعة الدولية لإدارة الأزمات L.C.G. في 2007/11/18. م.س. ص2007/11/18.

602- L.C.G. 2007/11/18.

603- لم تأت التقارير المجموعة في كتاب حال الأمة العربية على ذكر أزمة الصحراء الغربية بين الجزائر والمغرب والجبهة، فاضطررنا اللجوء إلى مصادر المجموعة.

604-

A.G Gayling, the Reason of things (living with philosophy) A phoenix paper pack U.K. 2007 p.121. See also: wikpedia, the Free Encyclopedia on Internat network.

لقد كان الباحث قد أشار سابقاً إلى كون (الغضب) أرضية للصراع في كتابه (إدارة الأزمات والصراعات) كتاب أكاديمي، وتطبيقات عملية لطلبة الجامعة 2007، قيد الطبع.

605- دي بونو، م.م.س. ص89.

606- م.س. ص91.

607- م.س. ص99.

608- م.س. ص99.

609- م.س. ص111.

610- م.س. ص111.

611- م.س. ص113؟

612- م.س. ص115 - 116.

613- م.س. ص122.

614- م.س. ص125.

615- م.س. ص141.

616- م.س. ص143.

617-

Ethics and Foreign Policy by Karen E. smith and Margot light combridgeuivevsity Press 2001 (Introclvction).

وانظر كذلك الترجمة العربية لهذا الكتاب تعريب فاضل جنكر، مكتبة العبيكان – الرياض (السعودية) ط1، 2005، ص106 – 107.

618– انظر مادة هـ– قليطس في معجم الفلاسفة، إعداد جورج الطرابيشي – دار الطليعة – بيروت، ط1، 1987.

619– م.س. الواقع لقد ظلت هذه النظرة الفلسفية إلى الوجود، والحياة سائدة في تاريخ الفكر الإنساني وقد تجلت في الثقافة العربية الإسلامية في العصور الوسطى، أدباً، وفكراً، ففي الأدب (الشعر) خاصة عبر عنها (شعراء كثيرون في تراثنا الشعري منذ العصر الجاهلي): في ظاهرة: البقاء، والفناء، وحركة الإثبات والنفي في أشعار الجاهلية (المعلقات) في حوار الآثار الباقية والطلول والرسوم رمز البقاء، والفناء مصير كل كائن في الوجود، وكذلك شعر الفخر، والهجاء، باعتبار أن الفخر هو إثبات الذات، والهجاء، نفي الآخر، وكذلك في أشعار العصر الأموي المعارضات الشعرية، جرير والفرزدق، وفي العصر العباسي: قصيدة فتح عمودية للشاعر ابي تمام ففقيهها تعبير عن ثنائيات متضادة، وكذلك ظاهرة الانتقال من النقيض إلى النقيض، وهو ما يسمى بعلم النفس بالتناقض الوجداني وليس الفكري كما ظهر في الفلسفة، مثال الانتقال من الحب المتأجج إلى الكراهية الشديدة، ويعبر عنه كذلك الإزدواجية، انظر كتابينا:

* التناقض الوجداني في الشخصية العربية المعاصرة، دار الحوار (اللاذقية) 1992.

* دراسات في التفكير العربي (الفاع الشعري) مركز الكتاب العربي – بيروت ط1، 1994.

أما الثقافة الفلسفية الأوروبية، فقد طور الفيلسوف الألماني (فريدريش فلهلسم هيجل (1770 – 1832).

فكرة الصراع، وطور كذلك منهجه الديالتيكي (الجدلي) القائم على التناقض والتضاد بين الأطروحة، وطباقها، فالفكرة تبدأ بالأطروحة ومن ثم في الوقت نفسه تظهر طباقها أو نقيضها، ولا يقف عند الأطروحة وطباقها، لابد من التأليف بينهما عبر الصيرورة.

وأخيراً رأي المفكر اللبناني (علي حرب) في كتابه (تواطؤ الأضداد، وخراب العالم) أن الفكر الذي ينطلق من: النقائض المتطرفة، وهي أسس التفكير المتطرف سواء كان دينياً أو إيديولوجياً غير دينياً هو علة الخراب في العالم، اعتقد أن (علي حرب) يريد أن يقول أن سوء فهم التفكير الديالتيكي وما يظن الناس أنه يقبل الانتقال من الضد إلى الضد

يقود في هذه الحالة من تطرف إلى تطرف، وهو ما يدينه المفكر العربي، علي حرب، في تواطؤ الأضداد، ط الدار العربية للعلوم، الناشرون بيروت ط1، 2008، (المقدمة).

620- محمد أبو الفضل إبراهيم، وعلي محمد البجاوي، أيام العرفي الجاهلية، مكتبة صيدا – بيروت ط، 2005، المقدمة.

621- م.س. المقدمة.

622- انظر تعريف مصطلح التدافع، واشتماله على ثلاثة مستويات: الصراع، والتنافس، والصراع العدمي.

وكذلك اجتهادات شخصية حول هذا المفهوم، وقوانين الصراع في: د. جاسم محمد سلطان، التفكير الإستراتيجي، والخروج من المأزق ط أم القرى – المنصورة (مصر) 2006، ص75، وما بعد.

623- د. محمد جابر الانصاري م.م.س. ص20 – 22.

James A. Schellenberg -624

Ibid, P.150. -625

نقول في لغتنا السياسية المألوفة لقد استولى على السلطة، والاستيلاء يتم عبر عملية صراعية، ولدى بعض الفلاسفة السياسيين تقوم السلطة على التراضي وعلى عقد اجتماعي، يتم تداولها سلمياً ص355.

-626

Machiavelli advised first step in developing strategy for action in situation of conflict P.153.

Ibid P.153.-627

لابد أن نفهم نظرية مكيا فيللي ضمن سياقها التاريخي، وسط صراعات الإمارات الإيطالية آنذاك ودعوته لأمير فلورنسا الحفاظ على قوة سلطته وإمارته حينذاك.

Blackwell Dictionary of Sociology Allan 6. Johnson rlackweil Publishing, Second, FUSA2003.

لقد قال توماس هوبز (1589 – 1679) أحد الفلاسفة البريطانيين أن الإنسان، ذئب على أخيه الإنسان، وإن الحياة البشرية الكل يحارب الكل.

Ibid. P.2 -628

629– يوحي كارل ماركس إلى ما يسميه بالطبقات المحرومة – اعتبارها تشكل الأرضية التي تجرى فيها الصراعات (أي طبقة العمال والفلاحين) فئة الذين يقودون الصراع، لأنهم يمثلون قوى الإنتاج.

630– ترجم هذا الكتاب إلى العربية أوائل الستينات من القرن الماضي في مصر ولقد أحدثت النظرية عند ظهورها ضجة في العالم العربي حينذاك (مقدمة كتاب داروين: أحد الأنواع).

Ibid. P.21–631

632– بعد سنوات عدة من كتابة داروين ل->أصل الأنواع< كتب كتابه >أصل الإنسان< أو بعبارة أوضح حاول أن يجيب على سؤال من أين ينحدر الإنسان The Descent of Man?. بالفرنسية.

–633

Konrad loren. Z L'Agression Flamarion – Paris 1963 Ibid, Preface

634– انظر كتاب المترجم إلى الفرنسية:

Konrad Lorenz. Evolution et Modification du (L'inn'e comportemenr linne et L'aqui).

635– مزس. Ibid. P.2.

636– للتوسع في هذه النظرية حتى لا ينظر في كتاب (جيمس) المذكور الفقرات المتعلقة، الاقتصاد الكلاسيكي ونظرية الصراع، انظر:

Classical Economy and Conflict Theory. Ibid. P.51.

637– يرى علماء النفس عموماً أن الصراع ظاهرة سيكولوجية، وأن إدارته تتطلب دراية ومعرفة بعلم النفس، ولاسيما أن هذا العلم تعريفاً هو الدراسة العلمية للسلوك الإنساني، ولكن ظاهرة الصراع في الفكر والسلوك، لذلك لابد من الإلمام بمجموعة كبيرة من المعلومات في العلوم الإنسانية (علم النفس، وعلم الاجتماع) لفهم هذه الظاهرة الصراعية.

638– هرمن كاترينا فون ز اليفيلد. اطلس DTV علم النفس ترجمة انطوان الهاشم المكتبة الشرقية – بيروت، ط1، 2003، ص460.

639- م.س. ص547، 549، وانظر كذلك: د. فاخر عاقل: علم النفس، دار العلم للملايين - بيروت ص225 (منابع الصراع النفسي).

640- م.س. دكتور راجح ص547 - 549.

641- فاخر عاقل، المصدر السابق ص226.

642-

Joycel. Hocker; William.w. Wilmot; interpersonal conflict. WC.B Browrand Benchmark. Fourth Edition U.S.A. 1995. P.2

643- Ibid. P.2

644- Ibid. P.3

645- Ibid. P.20

646- Ibid. P21.

647- Ibid. P.10

648- د. انمار لطيف نصيف جاسم، القائد وإدارة الصراع - المكتبة الثقافية بيروت ط1، 2000، ص103 - 108.

649- يميز عادة بين الصراع، والحرب، إذ أن الأول يتخذ أشكالاً عدة تبدأ من الصراع حول العقيدة السياسية مروراً بالصراع الدبلوماسي والمفاوضات، والتهدئة بينما الحرب تتفجر وتذهب إلى الاحتكام إلى السلاح، والباحث لا يفرق جوهرياً بين المصلحين لأن الصراع يحمل في باطنه اللجوء إلى استخدام القوة والحرب.

650-

James A. Schellenberg, The Science of Cou Flit Oxford University Press 1982. P.3.

اسم الشخص الذي يتحدث عنه: Lewis Richandson

651- Ibid. P.3-47

652- Ibid. P4.

653-

Walter is ard, Understanding Con Flict and the Science of Peace. Biack Well Combridge M A. OX Ford U.K. 1992. P2. 8.

يورده بالإنكليزية كالتالي:

My Brather and I, againsr Our Cousin.

We and our cousin against the World P.19.

654- إدوارد دي بونو صراعات، ترجمة فاطمة السنوسي م.م.س. ص221 وانظر كذلك فصل دور الطرف الثالث في تفكير الصراع ص221.

Joycel. Hocker, William, L, bid. P22.30.

655- إدوارد دي بونو Edward De Bono الصراعات Con Flicts ترجمة فاطمة السنوسي - منشورات المجمع الثقافي - أبو ظبي ص108.

656- م.س. ص9.

652- د. أنمار لطيف نصيف جاسم، القائد، إدارة الصراع - المكتبة الثقافية بيروت ط1، 2002، ص103.

653- د. مجدي حماد، إسرائيل وإفريقيا، دراسة في إدارة الصراع الدولي ط دار المستقبل، بيروت، مصر الجديدة 1986، ص13 - 14.

654- يعرف صاحب كتاب (إسرائيل إفريقيا) مبدأ توزيع الأدوار، بأنه الالتجاء إلى جميع القوى والأدوات كل في نطاق خصائصه ووظائفه من أجل تحقيق أهداف عملية التحرك الخارجي، انظر التفاصيل المصدر المذكور ص17 وما بعد.

655- مجدي حماد م.س. ص14.

656- د. أنماد لطيف نصيف جاسم، المصدر السابق ص105.

657- ذلك، يختلف عن دول العالم النامي، والدكتور، ربيع يعيش في سياقها حيث تعطى للفائدة كافة صلاحيات الإمساك بالموقف وإدارته.

658- العبارتان من إضافتنا.

659- د. أنمار لطيف م.س. ص105.

660- انظر فيما بعد دور التفكير الإستراتيجي.

661- م.س. ص159.

662- يفصل الدكتور إسماعيل صبري مقلد بين الحرب والصراع فهو يرى أن الصراع هو تنازع الإرادات الوطنية، أو تنازع ناتج عن الاختلاف في دور وواقع الدول وفي تصوراتها وتطلعاتها وفي مواردها وإمكاناتها مما يؤدي إلى اتخاذ قرارات أو انتهاج سياسات

خارجية تختلف أكثر مما تتفقد فينشأ الصراع، ولكن ليس بالحرب الذي يعني توتوراً م.س. ص104 ونحن لا نميل إلى التمييز بين الحرب والصراع.

663- د. مجدي حماد، م.س. ص15.

664- م.س. ص15.

665- د. أنمار لطيف م.س. ص107.

666- د. مجدي حماد ص15.

667- فقرة مضافة من عندنا: يقول المؤلف الملاءمة مع الموقف، ونفضل، التكيف، لأن الكلمة المذكورة لديه غير واضحة المعنى في السياق.

668- م.س. ص15.

669-يرجى من القارئ أن لا يفهم من هذه العبارات كون إدارة الصراع هي اتخاذ القرارات وإنما هي عملية تتحرك نحو >حسم الصراع< وإيجاد الحل وليست مجموعة من القرارات.

670- د. مجدي حماد م.س. ص15.

671- م.س. ص15.

672- د. مجدي حماد ص16.

673- د. جاسم محمد سلطان، التفكير الإستراتيجي ط. أم القرى للترجمة والنشر والتوزيع المنصورة (مصر) 2006، ص13 – 14، وص109.

674-

Strategic Thinking, Andy Bruce Kenlangclon, Essential Managers. DK. Collection. Darling Kinclersley Book London-New York 2000. P.6.

675- **Ibid.p.6.**

676- عن أوراق حول (التخطيط الإستراتيجي) حاوره عن معهد التنمية الإدارية (إدارة التدريب) – دبي (الإمارات العربية المتحدة) 2001، ص2.

677- م.س. ص2.

678- م.س. ص3.

679- م.س. ص4.

680- د. المهدي المنجرة، الحرب الحضارية الأولى، عرض الكتاب في جريدة الخليج الثقافي 2002/7/15، يقول الدكتور المنجرة إن أزمة العالم العربي المعاصر تتجلى في عدم وجود رؤية مستقبلية وعدم وجود رؤية إستراتيجية.

681- Ibid.P.6، وانظر الترجمة العربية لهذا الكتاب.

682- توضع الأهداف عادة لتحقيق رسالة، حيث تعرف الأهداف الإستراتيجية بأنها النتائج النهائية لعمل الإستراتيجي، والتي توضع بطريقة عالية التنظيم، وتعبر عن نية المخطط للانتقال من الموقف الحالي إلى الموقف المستهدف الذي يزيد نوعياً من حيث القدرة على الإنجاز عن الموقف الحالي، وتحدد الأهداف عادة بما يجب أن نفعله.
أوراق م.م.س. ص18.

683- Ibid.P.6

684- Ibid.P.9

685- م.س. ص19

686- د. جاسم محمد سلطان م.م.س. ص114 – 115.

687- البقرة 153.

688- القصص 5.

689- د. فهمي الفهيداوي م.م.س. ص114 – 115.

690- م.س. ص116.

691- م.س. ص117.

692- سميت بالبيعة الأولى، بيعة العقبة التي مثلت أول عقد دستوري للدولة الإسلامية، والتي تمت بين النبي واثنى عشر رجلاً من أهل يثرب، وأما البيعة الثانية فقد تمت في موسم الحج في السنة الثانية بينه وبين ثلاثة وسبعين رجلاً من أهل يثرب، حيث تم العمل على إقامة الشريعة م.س. ص118 – 119.

693- النساء 21 – 65.

694- د. بلقزيز م.م.س. ص108.

695-عثمان العثمان، الإستراتيجية العليا والتكتيك م.م.س. ص45، 74، 75.

696- م.س. ص128 و131.

697- م.س. ص143 – 144.

698- انظر مجموعة الرسائل وأسماء الملوك والأباطرة والزعماء الذين أرسلت إليهم الرسائل... في المصدر المذكور ص148 - 158.

699- م.س. ص177.

700- د. مخلص الصيادي م.م.س. ص263.

701- م.س. ص264.

702- م.س. ص267.

703- م.س. ص267.

704- عيينة بن حصن الفزاري أبو مالك، أسلم بعد الفتح، وقد شهد الفتح، وهو مسلم شهد حنيناً والطائف وهو من المؤلف قلوبهم، ومن الأعراب الجفاة، وكل ممن ارتد، وتبع طليحة الأسدي، وأخذ أسيراً ثم أطلقه أبو بكر بعدما عاد إلى الإسلام، وتزوج (عثمان) ابنته، م.س. ص288.

705- م.س. ص265.

706- التوبة 103.

707- م.س. ص265.

كان هؤلاء يتشكلون في الواقع من فئتين: فئة ما نعي الزكاة، وفئة المتبنئين أو المطالبين بالنبوة.

708- م.س. ص266.

709- م.س. ص269 - 270.

710- بسام العسلي، الصديق القائد، دار النفائس - بيروت 1986، ص83 - 84.

711- م.س. ص87.

712- م.س. ص89.

713- بسام العسلي، الفاروق عمر بن الخطاب، م.س. ص49.

لم تكن صراعات الفتوح من أجل الغنائم وحدها وهو تفسير الأمور بسبب واحد مما يجافي التفكير العلمي، والواقع نحن لا نعلم ما كان يجيش في صدور المسلمين عند ذهابهم إلى القتال، ولكن بالمقابل لم تنسى القيادة السياسية تذكير المحاربين بأن الله بعث رسوله هادياً لا جابياً وليست الفتوحات ابتغاء الحياة الدنيا وخرفها، وإن دخلت جزئياً في الحسبان، إلا أنها ليست الهدف من الصراع وإدارته، ولو كان الأمر كذلك لما

دعى المجاهدون عند دخولهم بلاد الفتح إلى اعتناق الدين الجديد، واكتفوا بتحصيل الغنائم، والعودة إلى ديارهم.
714– م.س. ص6.
715– د. الخضرا م.م.س. ص26.
716– د. الصيداوي م. م.س. ص274.
717– م.س. ص274.
718– م.س. ص275.
719– م.س. ص275.
720– بسام العلسي، ذو النورين، القائد، دار النفائس 1985 ص52 – 53 لم نقف عند تفاصيل الفتوحات الأفريقية، لأننا أردنا فقط الإشارة إلى أعمال عثمان من جانب إدارته للصراع الخارجي، أي الفتوح.
721– م.س. ص56 – 57 و61 – 62.
722– ظهرا في النصف الأول من القرن الماضي.
723– د. صيداوي م.س. ص277.
724– م.س. ص277.
725– م.س. ص278.
726– د. محمد جابر الأنصاري م. م.س. ص21.
727– د. الخضرا، م. م.س. ص26.
728– العبارة مستعارة من عنوان الفيلسوف فرنسي اسمه: بول ريكور كتاب له بعنوان: le conflit clesinterpretations.
729– د. الصيداوي م. م.س. ص280 – 281.
730– م.س. ص281.
731– م.س. ص282.
732– م.س. ص283.
733– د. النص م. م.س. ص53.
734– د. شوقي حنيف م. م.س. ص103.
735– جلال الدين السيوطي تاريخ الخلفاء م.س. ص40، ولكن يروى عن

(عبد الملك بن مروان) توصية أخيه على (مصر) أن يلجأ دوماً عند استغلاق الأمور إلى الشورى، وقوله لن يهلك امرؤ عن مشورة، انظر د. علي محمد الصلابي، الدولة الأموية، مكتبة الصحابة – الشارقة – الإمارات 2006، ص852.

736– د. النص م. م.س. ص154.

737– م. م.س. ص229. أندريه ميكيل م. م.س. ص166.

738– د. النص م.س. ص38.

739– د. شوقي ضعيف العصر الإسلامي م. م.س. ص208.

740– د. النص م. م.س. ص62.

741– د. النص م. م.س. ص153.

742– م. م.س. ص169.

743– م. م.س. ص168.

744– م. م.س. ص164.

745– أندريه ميكيل م. م.س. ص116.

746– د. النص م.س. ص54.

747– د. النص م.س. ص54.

748– د. النص م.س. ص103.

749– د. السيوطي م.س. ص40.

750– د. النص م.س. ص54.

751– د. إحسان النص م. م.س. ص20.

752– د. النص م.س. ص76.

753– د. النص م.س. ص76 – 77.

754– م.س. ص81 – 82.

755– م.س. ص83 – 85.

756– د. شوقي ضيف، العصر العباسي الأول م. م.س. ص20.

757– جلال الدين السيوطي تاريخ الخلفاء (أبو جعفر المنصور)، وكذلك نبيل هلال نبيل م.س. ص74 هذا التفويض الإلهي المزعوم، هونغمة معروفة في التاريخ السياسي العالمي خاصة في العصور الوسطى، وبداية عصر النهضة في أوروبا، إذ كان (البابا) يقلد

التاج على رؤوس الأباطرة والملوك ويبارك سلطتهم، كنائب عن الله، يفوض لهم السلطة، وكان الأمبراطوريان الصيني والياباني إلاهيين.

758- د. الدوري م. م.س. ص46.

759- د. الدوري م. م.س. ص46.

760- م.س. ص47.

761- كان الاعتقاد الشعبي الذائع في الإمبراطور الرومانية >أن الشعب خلق ليجر عربة الإمبراطور.

762- د. شوقي حنيف م. م.س. ص202.

763- نبيل هلال نبيل م. م.س. ص46.

764- م.س. ص41.

765- م.س. ص87.

766- السيوطي، تاريخ الخلفاء م. م.س. ص41.

767- الشورى 23 الطريف في الأمر أن هذه السورة تنص على مبدأ الشورى، ولكن الخليفة العباسي استشهد منها بما يناسب إرادته في الحكم فالعباس لم يلتفت مبدأ الشورى في السلطة، والتي يأمر بها للنص.

768- الدوري م. م.س. ص45.

769- د. شوقي ضيف م. م.س. ص26 ط2.

770- م.س. ص28.

771- م.س. ص29.

772- د. شوقي ضيف - العصر العباسي الثاني م. م.س. ص36 - 37.

773- م.س. ص45.

774- د. عبد الجبار الجومرد. هارون الرشيد، حقائق عن عهده، وعن خلافته، شركة المطبوعات للنشر والتوزيع بيروت ط3 ص275 - 397.

775- د. شوقي حنيف م. م.س. ص231.

776- هارون الرشيد م.س. ص483.

777- السيوطي م. م.س. ص254.

778- د. ضيف العصر العباسي الثاني م.س. ص9.

779- السيوطي م.س. ص254.

780- م.س. ص12.

781- م.س. ص13.

782- د. عبد العزيز الدوري، النظم الإسلامية م. م.س. ص49.

783- م.س. ص50.

784- م.س. ص50.

785- د. شوقي حنيف م. م.س. ص22.

786- م.س. ص21.

787- م.س. ص24 - 25.

788- م.س. ص22.

789- م.س. ص24 - 25 - 27.

790- السيوطي م. م.س. ص282.

791- م.س. ص285.

792- J.Bur Lot Ibid. P.53.

793- أندريه ميكيل م. م.س. ص139 - 140.

794- د. الدوري م. م.س. ص49.

795- د. الدوري م. م.س. ص49.

796- م.س. ص57.

797- م.س. ص57.

798- م.س. ص57.

799- م.س. ص58.

799- م.س. ص260 وعن تاريخ الخلفاء ص307.

800- م.س. ص62 - 63.

801- د. شوقي حنيف، م.س. ص19.

802- م.س. ص356.

803- J.Bur lot, la civilization silamique Ibid. P.26 Spread of Islam, In WikipPedia Enl clop edlia.

أمثلة من أسماء المستشرقين الزاعمين بانتشار الإسلام بالسيف:
* (برنارد لويس) يهودي أمريكي.
* (غولد تسيهير) يهودي بحري.
* (أير الابيوس) أمريك.
انظر: برنارد لويس (تاريخ الشرق الأوسط) بالإنكليزية: History of the Middle East.
غولد ستير (كتابه الذي ظهر في النصف الأول من القرن العشرين بعنوان العقيدة والشريعة في الإسلام، مترجم إلى العربية – في ستينات القرن الماضي).
804- Ibid. P.31.
805- في كتاب جديد للباحثة (ثريا الفاروقي) الدولة العثمانية، والعلم المحيط، سلطت الباحثة الضوء على مختلف المصادر الثانوية في دراستها لكتب الرحلات والمذكرات والتقارير، والمراسلات وكذلك المصادر الأخرى لتخلص إلى نتائج جديدة ونحن التزامنا بالنظرة الكلاسيكية للدولة العثمانية، الكتاب دار المدار الإسلامي – بيروت – 2008.
806- روح الشعب كتابة عن المقاومة الدينية، وفكرة – الفكر الشعبي الجديد، الوطني، والقومي.
807- د. عبد العزيز رمضان، الظاهرة الاستعمارية، وواجهتها في العالم العربي في دراسات في التاريخ الحديث والمعاصر، مهداة إلى بونان ليبيب رزق تحرير د. لطيفة محمد سالم ط المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة – 2003 ص467 – 469.
808- م.س. ص 470.
809- م.س. ص474 – 475.
810- م.س. ص476 – 477.
811- م.س. ص451 – 480.
812- د. عدنان السيد حسين، البيئة الإقليمية والدولية الضاغطة في النزاعات العربية والداخلية – في كتاب: النزاعات الأهلية العربية – مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ط1، 2001 ص85.
813- تاريخياً ارتبطت التدخلات الأجنبية في المنطقة العربية بالصراع العثماني البيزنطي في القرن الخامس عشر وما تركه فتح القسطنطينية 1453 من آثار أوجدت ما أصطلح

عليه المسألة الشرقية.

814- م.س. ص93 – 94 و97.

815- م.س. ص98 –99.

816- د. أحمد يوسف أحمد، الصراعات العربية – العربية 1945 – 1981، مركز دراسات الوحدة العربية.

817- انظر بالتفصيل هذه المصادر في م.س. ص162 – 164.

818- د. جابر الأنصاري م.س. ص31 – 32.

819- د. محمد جابر الأنصاري م.س. ص31 – 32.

820- د. أحمد يوسف أحمد م.س. ص117.

821- د. أحمد يوسف أحمد م.س. ص100.

822- م.س. ص145.

823- هذه الخصوصية الصراعية بين الأنظمة والتي لم تفصلها الدراسة تميل إلى القول أنها توحي إلى جذور الصراعات العربية القديمة والتي صعدت إلى السطح لتنعكس في صراعات هذه الأنظمة – والتي اتخذت طابع المحافظة والحداثة والتقدم والرجعية واتخذت أيضاً طابعاً أيديولوجياً، بينما كانت تحركها عوامل أخرى (العوامل الخاصة) التي أشرنا في فصلنا الرابع والتي يصعب رصدها علمياً.

824- م.س. ص146 – 147.

825- م.س. ص148 – 149 صنف صاحب الدراسة النظم السياسية العربية إلى محافظة ومعتدلة (أو وسط) وتقدمية ص146.

826- وعلى الأمن القومي العربي.

827- م.س. ص152 – 153.

أن العامل الاقتصادي كعامل موضوعي يذكره الباحثون كمصدر صراع سواء كان داخلياً أم خارجياً كان من الممكن فهمه لو كان مصدر صراع بين الأنظمة العربية ولكنه لم يحتل سوى أدنى الدرجات كماجاء في الدراسة، وهو ما يظهر أن عوامل أخرى تدخل في عين الاعتبار عملت على حدوث التناقضات والصراعات بين الأنظمة السياسية موضع الدراسة.

Critical Thinking and Scienti Ficthinking –828

829- م.س. ص194.

830- م.س. ص194.

831- م.س. ص197.

832- م.س. ص201 - 202.

833- م.س. ص211.

834- م.س. ص216- 218.

835- يقول طارق البشري أن أثر فلسطين على دولنا المتاخمة لها يكاد يكون أثراً حاكماً لمصادر هذه الدول وذلك على مدى الستين سنة الماضية، لقد تفوض نظام اجتماعي وسياسي كامل في (مصر) 1948، وانتهى حكم أسرة حاكمة بقيت في الحكم مئة وخمسين سنة، كذلك تفوض النظام السياسي سورية من شأن إلى شأن من أربعينات القرن الماضي، وانتقلت سورية أيضاً من شأن إلى آخر بعد هزيمة 1967 ونحن نعرف أن فلسطين ليست شأناً داخلياً فقط، إن قوى العدوان لا تهتم بها لذاتها بل لموقعها، ولا مكان السيطرة بها على الآخرين، لقد ضربت إسرائيل في مصر 1956 - 1967 وضربت لبنان 1982 وضربت دولاً عربية مجاورة عام 1973.

طارق البشري، العرب في مواجهة العدوان - دار الشروق - القاهرة - 2002 ص80 - 83.

836- عن صحيفة التلغراف البريطانية 2007/7/17.

وانظر كذلك أندريه ميكيل، م.س. ص491.

837- د. قسطنطين زريق، معنى النكبة - بيروت 1948 وانظر كذلك الأعمال الفكرية العام لزريق، نشر مركز دراسات الوحدة العربية - بيروت - وموسوعة عبد الحميد شومان 1994 المجلة ط1.

838- واصطلح عن تسمية هذه الهزيمة بالنكبة م.س. ص11.

839- محمد حسين هيكل، ملفات السويس دار الشروق - القاهرة 2004، ص222.

840- السيد سليم: كيف يصنع القرار في الوطن العربي م.س. ص16.

841- م.س. ص19.

842- محمد حسنين هيكل، ملفات السويس م.س. ص529.

843- م.س. ص34.

844- م.س. ص51.

845- هيكل م.س. ص536.

846- د. ممدوح أنيس فتحي، مصر من الثورة إلى النكسة مقومات حرب يونيو 1967 في عرض للكتاب مجلة شؤون اجتماعية – الشارقة – الإمارات العربية المتحدة العدد 92 شتاء 2006 ص203.

847-محمد حسين هيكل (ملف السويس) م.م.س. ص115، وكتاب (الانفجار) دار الشروق – القاهرة، ط1 2004 ص786.

848- هيكل الانفجار ص786.

849- أبو العلا ماضي، مقال الحالة الشعبية العربية بين النكسة واليوم – زاوية (المعرفة قناة الجزيرة الاختبارية 2007/5/24).

850- م. م.س. ص6.

851- فاطر السموات والأرض أي خالق السموات والأرض، من هنا فكلمة الفطرة، هذه كلمة القرآنية المقدسة، والمنزلة من لدن حكيم عليم، ولقد ساعدت النبي محمد ؑ في إدارة دقة المور كقائد سياسي، وحيث لم يقصد بعد الحاجة موجودة لاكتساب الأسلوب العلمي، ولا الالتزام بالخطوات العليمية لمواجهة الأزمة، وإدارتها، ولا المواجهة، أو الصراع إدارتها.

إنها تشبه القوة الباطنة، والتي ستأخذ معنى خاصاً لدى الصوفية، وتحل محلها (الذوق) لإدراك الحقيقة.

فكانت الفطرة الوسيلة السهلة الممتعة التي وهبها الله لفئة الأنبياء وبعض القادة المسلمين السياسين طوال فترات التاريخ السياسي، ونقصد بهذه الفئة، خلفاء النبي الراشدين الذين أرسلتهم هذه القوة الداخلية،والخفية لحل المشكلات، وإدارة دفة الأمور ومعالجة المشكلات.

فالفطرة في معناها قريبة في نظرنا من >الحدث< أي الإدراك المباشر للأشياء، وتقترب من معناها من البصيرة، وربما الاستبصار (بالمعنى السيكولوجي والفعلي) إنها المظلة السحرية التي يجب أن توضع في أيامنا هذه لدى أصحاب التفكير والأساليب العلمية، وتكتسب المهارات لإدارة الأزمات والصراعات لتشكل بقوتها الداخلية، وتخلق اللحظة الحاسمة التي تدفع بصاحب القرار في أي محول إلى الانطلاق، وقدمتهم هذه القوة

صاحب القرار، بعد ان يستكمل عدته العلمية، في تحركة الأخيرة، محو اتخاذ أو عدم اتخاذ القرار نحو التباطؤ والإسراع نحو المضي والتحرك أو للتوقف نحو التريث أو الإهمال، أو الأرجاء إنها >قوة روحية إبداعية< وتأخذ خصوصيتها لدى كل شخص يشكل مختلف من الآخر تميزه عن غيره فالفطرة تسري في كيان بعض الأفراد وربما لدى جميعهم تدفعهم إلى لحظة إبداع في الإدارة.

الخلاصة أن الفطرة بمصدرها القرآني، وهي بعد روحي، ومن طبيعة خاصة، وتأتي الخبرة والمهارة لأثراء: الفعل الإداري، أي إدارة العمل الإبداعي في إدارة الأزمات ومعالجة المشكلات، والصراعات.

فالفطرة هنا تدفع الفرد والجماعة للدفاع عن كينونتها ضد أي اعتداء خارجي، كذلك يدعو القرآن الكريم وهو مرجعية للإسلاميين الذين قاوموا الغزو النابليوني والقائلة، فمن اعتدى عليكم، فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم، وأخيراً دعوة القرآن المسلمين إلى الجهاد في سبيل الله، هذه العوامل لا تدع المسلم أن يقبل بأي حال من الأحوال أن يغزوه أجنبياً وخاصة إذا كان من بلاد كافرة وإذ أن الغرب يجسد الكفر، والشرك بالله الواحد في نظر المسلمين الذي وقفوا ضد الغزو الفرنسي.

إذن هذه هي الخلفية المرجعية لدى الجماعات الإسلامية الأولى التي قاومت التغلغل الخارجي وعلى ضوئها تشكلت إدارة الصراع.

وإذا انتقلنا إلى الحديث عن حركات المقاومة الإسلامية كمنظمات وأحزاب لها قواعدها وأشكالها الحزبية، وزعاماتها، وأعضاؤها، وهيئاتها وطروحاتها وانشقاقاتها واختلاف توجهاتها، وتصوراتها لطبيعة إدارة الصراع ضد: المستعمر والأجنبي، فلقد تكونت أولى المنظمات أو بمعنى الأحزاب ذات التوجه الإسلامي المحض فأننا نجد أنفسنا أمام حزب مهتم جداً في العالم العربي الإسلامس نشأ على أرضية إسلامية أعني الإخوان المسلمين.

وخص الحديث عن تصور هذا الحزب لإدارة الصراع ضد الغزو الخارجي سواء تسجد في الاستعمار أو الظاهرة الصهيونية فهذا الحزب تصوره الإسلامي الخاص.

ويمكن قبل الدخول في التفاصيل الاعتقاد بأن الخلفية الفكرية بالإضافة إلى المرجعية الأساسية (القرآن الكريم والسنة) نجدها في أعمال أقطاب النهضة العربية التي ظهرت في منتصف القرن التاسع عشر، ودعوة أقطاب الإصلاح الديني إلى مواجهة الغرب، لقد واجه هؤلاء الأقطاب نظرياً وعلمياً.

فمن حيث النظرية عمل الشيخ عبده على عقد حوارات عديدة مع الذين أساؤوا فهم الإسلام، وفكره وشريعته وحضارته، وقاوم الأفكار المضادة، والأحكام المسبقة والآراء المنحازة ضد الإسلام من الناحية التطبقية لقد قاوم (جمال الدين الأفغاني) بأسلوب ثوري الاستعمار البريطاني وأيضاً كتب يقاوم هؤلاء بالفكر.

فهؤلاء وغيرهم شكلوا خلفية فكرية لمواجهة الفكرة الاستعمارية.

852- النساء 74.

853- د. أحمد الموصلي موسوعة الحركات الإسلامية في الوطن العربي وإيران وتركيا – مركز دراسات الوحدة العربية – بيروت ط1، 2004، ص75.

854- م.س. ص175 – 176.

855- م.س. ص367.

856- د. حسين سعد الأصولية الإسلامية العربية المعاصرة بين الماضي والواقع المتغير، مركز دراسات الوحدة العربية – بيروت ط1، 2005 ص390 – 391.

857- م.س. ص392.

858- الموسوعة، م.س. ص330، مادة (محمد باقر الصور).

859- د. حسن سعد م. م.س. ص276.

860- م.س. ص323 أو 327.

861- م.س. ص329.

862- م.س. ص348.

863- م.س. ص352.

864- نص بيان أمير الجماعة الإسلامية بباكستان (أبو الأعلى المودودي) في كتاب: حول النكبة الحاضرة، نشر الدار السعودية للنشر – آذار/مارس 1968 ص115.

865- م.س. ص120.

866- م.س. ص122.

867- م.س. ص233.

868- م.س. ص129 – 227.

869- م.س. ص234.

870- م.س. ص233 – 246.

871- م.س. ص245 - 247.

872- م.س. ص245 - 247.

873- تضمنت هذه الدراسات نقداً ذاتياً لفكر وأسلوب الحركات الإسلامية بالإشارة إلى العديد من مواطن الخلل وقد ذكر كثير من الباحثين الإسلاميين هذه المواجهة ونجدها لدى كل من: محمد ع مارة، وراشد الغنوش وعبد الله النفيس، وحسان ضحوت، وصلاح الدين الحورش، وفتحي عثمان، وفريد عبد الخالق، وعدنان سعد الدين، انظر بهذا الصدد د. حسين توفيق إبراهيم - النظم السياسية العربية - الاتجاهات الحديثة في دراستها - مركز دراسات الوحدة العربية - بيروت ط1، 2005، ص269 وما بعد.

874- م.س. ص270.

875- انظر شرحاً لهذه النظريات الحديثة في العلاقات الدولية، ودورها في إدارة الأزمات والصراعات في كتابي: ماجد شودد (إدارة الأزمة) م.م.س وكتاب العلاقات الدولية م.م.س.

876- الموسوعة م.م.س. ص83.

877- إن شعار الإسلام هو الحل لا ترفعه الأصوليات الإسلامية لحل الصراعات بل تعني به هو الحل لكافة مشكلات العالم العربي والإسلامي، وغيرهما، فهو شعارات إستراتيجي شامل.

878- حسب مصطلحات الفصل الرابع من هذا الكتاب والمتعلق: أحد العوامل المذكورة وهو: حب الدنيا أي أن الصالح المتصارع عليها ليست من أجل العقائد والإيديولوجيات وإن كانت هذه تلعب دوراً ولكنه محدود، أما الأهداف الأساسية فهي: الدنيا - المصالح المادية.

وانظر: د. حسين توفيق إبراهيم النظم السياسية م.م.س. ص86.

879- قسطنطين زريق، الأعمال الفكرية الكاملة، مركز دراسات الوحدة العربية، ومؤسسة عبد الحميد شومان م.م.س. ص11.

880- م.س. ص11.

881- م.س. ص12.

882- م.س. ص12.

883–لسنا بصدد رصد تاريخ الانتصارات، ونجاحات هذه المرحلة، نكتفي ببعض العبارات الإنشائية من الموضوع.

884– لقد خلق هذا الشعور الجديد لدى القوميين، وإظهاره بلغة الخطاب القومي، انطباعاً سلبياً لدى الأقليات في الوطن العربي، وعمل على خلق شعور مضاد لدى أنصار الأقليات لنبش أصولها القومية وبمظهره على الساحة، كالكروية والبربرية والتركمانية والفروعونية...الخ.

885– الدكتور صادق جلال العظم، النقد الذاتي بعد الهزيمة، دار الطليعة – بيروت – ط4، 1970.

886– م.س. ص المقدمة صدرت الطبعة الأولى في سبتمر 1969.

887– م.س. ص14 – 15.

888– م.س. ص14 – 15.

889– م.س. ص20.

890– م.س. ص24.

891– م.س. ص31.

892–في مظاهر للفلسطينيين في القاهرة أمام قصر القبة خرج الرئيس الراحل (عبد الناصر) وقال للمحتشدين: ليس عندي أي خطة لتحرير فلسطين ومن يزعم ذلك غيري فهو يضحك (عليكم) سمع الباحث شخصياً هذه الكلمات قبل حرب حزيران 1967 بفترة طويلة.

893– م.س. ص34.

894– م.س. ص53.

895– م.س. ص125.

896– م.س. ص مقال فيصل جلول: أربعون عاماً بعد النقد الذاتي بعد الهزيمة، جريد الخليج 2007/8/29.

897– د. محمد جابر الأنصاري م.م.س. ص51.

898– قلنا سابقاً أن القيادات الإسلامية بحكم معرفتها للكتاب والسنة فإنها وقفت على قوانين الصراع، وعرفت أبعاده ولكنها لم تكن في حرب حزيران في موقع القيادة وصناعة القرار.

899- محمد حسين هيكل م.م.س. ص803 - 806.
900- جاءت هذه الكلمات بصدد تقرير عام حول، محنة للنظام العربي، مقارنة بين القمم العربية بين 1967 - 2006 في كتاب حال الأمة العربية 2006 - 2008 م. م.س. ص54 - 55.
901- م.س. ص55.
902- م.س. ص55.
903- م.س. ص54 - 55 - 56.
904- م.س. ص56.
905- م.س. ص63 - 65.
906- م.س. ص65.
907- رتراند راسل، حكمة الغرب، ترجمة د. فؤاد زكريا سلسلة عالم المعرفة، الكويت رقم 71، 1983، الجزء الثاني ص242 - 243.
908-

I. Oriol, Histoire de la Philosophie (Willian James) ed. 908 Fernand – Nothan 1979. P.112.

909- د. طيب تيزيني، مقال، الأصولية الدينية في تركيا - جريدة الاتحاد (أبو ظبي) 2008/5/6 سجلت موسوعة - الأديان المنشورة حديثاً وجود ما يقرب من 2150 منظمة دينية في أمريكا، وقد تطور عمل هذه المنظمة الدينية في ظل تحولات اقتصادية واجتماعية وثقافية حديثة ومعاصرة في الولايات المتحدة.
910- م.س. ص أن (وليم جيمس) كان بروتستانتياً متمسكاً بعقيدته وقد انعكست هذه الخلفية الدينية في فلسفته رغم كونه مفكراً حراً برتراند راسل م. م.س. ص245.
911- وليم لويس وخيبر مار في كتاب (اقتطاء النمر) تحدي الشرق الأوسط بعد الحرب الباردة - مجموعة دراسات وبحوث لنخبة من خبراء الأمن القومي العاملين في معهد الدراسات الإستراتيجية القومية ومسؤولين حكوميين مكلفين بدراسة قضايا السياسة الدفاعية.
ترجمة عبد الله جمعة الحاج نشر مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية (أبو ظبي) 1997، المقدمة ص11.

911- م.س. ص11.

912- م.س. ص11.

913- سعد محيو، زاوية اليوم وغداً، مقال فلسطين، خدعة أمريكية عمرها 65 عاماً صحيفة الخليج الشارقة - الإمارات العربية المتحدة 2008/5/6.

914- المصدر السابق.

915-المصدر السابق، الواقع هذه ليست خدعة كبرى يقول صاحب المقال بل هي بداية ممارسة الأسلوب الأمريكي في إدارة الأزمة، والصراع إذ أن التشاور بين الأطراف جعل أمريكا (الوسيط) أو الطرف الثالث لإدارة الصراع على طريق وصنع أسلوب التشاور والمفاوضات فيما بعد.

916- وليم لويس وفبير مار م. م.س. ص12.

917- م.س. ص12.

918- م.س. ص12.

919- م.س. ص12.

920- م.س. ص13.

921- م.س. ص13

922- م.س. ص14.

923- وليم كوانت - الصراع العربي الإسرائيلي في التسعينيات واحتمالات التسوية في كتاب اقتطاء النمر م.م.س. ص121.

924- م. ريتشارد هرمان Richard Herman م.س. ص291.

925- وليم كوانت م.س. ص16.

926- د. طيب تيزيني... أمريكا، واصطناع الحروب، جريدة الخليج (الشارقة 2002/4/15) قال لي أمريكي في جلسة نقاش أثناء زحف القوات الأمريكية لاحتلال العراق (إبريل 2003) عندما سأله لماذا أنتم قادمون إلى العراق، وماذا أنت فاعلون؟ فأجابني باقتضاب: بأن الحرب بالنسبة على أمريكا تكسب المال War is Money.

927- علق كارل روجرز (وزير الخارجية الأمريكي السابق) هو لأسلوب وزير الخارجية هنري كيسنجر بقوله: كيسنجر يلعب بالأزمات، ولا يحلها عن أمين هويدي، كيسنجر وإدارة الصراع الدولي، دار الموقف العربي - القاهرة، 1986 ص175.

927-

Nicole Rochoran, Antoine Sfeir, Amercan-Arabes, Seuil-Paris 2006 Affrontement

انطر عرضاً لهذا الكتاب في جريدة البيان (دبي) 2007/4/2.

928- م.س.

929- انظر عرضاً لهذا التقرير في زاوية (المعرفة) لقناة الجزيرة التلفزيونية الأخبارية، المنشور في 2008/4/29.

930- ساسين - أف، الصهيونية في النزاعات الأهلية العربية، العوامل الداخلية، والخارجية مركز دراسات الوحدة العربية - بيروت ط2، ص1035 - 201.

لقد عدد الكاتبة المذكورة جميلة - المخاطر الصهيونية على الوطن العربي ص135 - 189.

931- م.س.

932- نبيل هلال نبيل، الاستبداد، م.م.س. ص87.

933- د. الخضرا م.م.س. ص561.

934- م.س. ص561.

935- د. الخضرا م.س. ص564.

936- لقد أثار عدد من الباحثين العرب موضوع المماثلة بين الحاكم - الإله Theocracy واعتبره هؤلاء موضوعاً خطيراً، نظراً لاستمراريته في حاضر السياسة العربية، من هؤلاء الباحثين على سبيل المثال: د. كمال عبد اللطيف في كتابه (في تشريع أصول الاستبداد) حيث يقول: المماثلة بين الحاكم والإله هذا المبدأ يستحق الوقوف عنده نظراً لخطورته، فكما كان الشأن في الإمبراطوريات البابلية ولآشورية والمصرية والفارسية، فقد دأبت الكتابات السلطانية على تشبيه الملك والسلطان بالإله أي تسييس المتعالي (الآلهة - الله) ليصبح ضامناً للنظام الاجتماعي، ورفع المعطى السياسي - الملك - السلطان ليصبح امتداداً للمقدس في المجتمع. د. كمال عبد اللطيف م. م.س. ص119.

وكان القرآن الكريم قد أدان تشبيه ا لناس الإنسان - بالإله في الآية {ملك الناس، إله الناس}.

* لقد ذكر (الماوردي) حديثاً نسبه إلى الرسول ﷺ قوله: >السلطان ظل الله في الأرض، ونقول أن الحديث منسوب لأننا نستبعد تماماً أن يقول النبي مثل هذا القول حتى على سبيل الاستعارة.

د. الخضرا م. م.س. ص194.

أو كذلك قوله: من سعى إلى سلطان ليزله، فقد أذله الله.

م.س. ص194.

* ذكر الدكتور إمام عبد الفتاح إمام: تصور القدماء الحاكم من طبيعة إلهية، أو هو ابن الله عن /الطاغية، إمام عبد الفتاح – سلسلة عالم المعرفة رقم 183 مارس ص9 – ويقول الدكتور إمام أيضاً: لم يخل التاريخ اليوناني، والروماني، من هذا التصور والمماثلة، فلقد كان الإسكندر الأكبر المقدوني ينظر إليه على أنه إله، وخاصة في الشرق، م.س. ص28.

كذلك ذكر الدكتور إمام قول (جيمس الأول) ملك إنكلترا أننا نحن الملوك نجلس على عرش الله على الأرض، ومن هنا جاءت نظرية التفويض الإلهي للحاكم، م.س. ص157.

* ذكر الدكتور عبد الغفار مكاوي في كتابه (جزء والاستبداد).

أن الحاكم في العالم العربي، قديماً وحديثاً عاشوا دوماً كالآلهة، سلسلة عالم المعرفة ص156.

* الأستاذ نبيل هلال يقول: الحاكم الرب، والحاكم الأب، والراعي للرعية، م.م.س. ص71 – 81.

937– د. الخضرا م.س. ص566.

938– على حرب، تواطؤ الأضداد – الدار العربية للعلوم – بيروت، ط1، 2008 ص114 – 115.

939– م.س. ص118 – 119.

940– د. نعيم عقلة نصير، القيادة في الإدارة العربية الإسلامية، موسوعة الإدارة العربية الإسلامية المجلد الثاني م. م.س. ص152.

وانظر كذلك مقدمة ابن خلدون (طبعة حديثة) دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع – بيروت 2007، الباب الثالث – الفصل الخامس الفردية ص200 – 202.

941– م.س. ص152.

942– م.س. ص153.

943– م.س. ص153 وانظر تعليقات على هذه الأنماط في:

S.Wogar Hussein, Islamic Sciences Ibid, P.92-93 and 94

وكذلك د. الطيب بوعزة تعليق على هذه الأنماط في مقال ابن خلدون والأنماط السياسية جريدة الخليج – الملحق الثقافي 2007/6/30.

مراجع البحث

- القرآن الكريم.
- النشرة العربية لـ–Le Monde Diplomotique.
- د. محمد جابر الأنصاري: تكوين العرب السياسي، ومغزى الدولة القطرية ط مركز دراسات الوحدة العربية – بيروت ص2000.

د. عبد المعطي سويد: بحث التناقض الوجداني في الشخصية العربية المعاصرة ط دار الحوار اللاذقية (سورية) 1991.

مهارات التفكير، ومواجهة الحياة ط دار الكتاب الجامعي – العين (الإمارات) 2007.

العقل العربي: معالم في الطريق، ط مؤسسة الانتشار العالمي القاهرة 2006.

الوحدانية والإشراك في الفكر العربي – الإسلام ترجمة عربية، مركز الكتاب العربي – بيروت 1993.

- د. علي زيعور: قطاع البطولة، النرجسية في الذات العربية، ط دار الطليعة – بيروت (لبنان) 1982.
- عثمان العثمان: الإستراتيجية العليا، والتكتيك، ودورهما في الصراع الدولي، ط مؤسسة سندباد – دمشق (سورية) 2001.
- د. مهدي التميمي: الفرق بين الإدارة والتدبير، ط الأقطار الدولية – عمان (الأردن) ط1، 2005.
- د. حسن البزاز: إدارة الأزمة ط المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع – بيروت (لبنان) ط1، 2001.
- المعجم العربي الوسيط.
- معجم بالفرنسية: Le Petit Robert.
- معجم بالإنكليزية: The Oxford Study Dictionary 1995.
- معجم بالإنكليزية: Active Study Dictionary.

د. صباح نوري: أوراق في التدريب على إدارة الأزمات، المركز العربي الأوروبي – دبي (الإمارات العربية المتحدة) 2001 – 2002.

- د. ماجد محمد شودو: إدارة الأزمات، والإدارة بالزمة، ط دار الأوائل للنشر والتوزيع ط د. 2002.

- Herbert Simon, The New Science of Management.
- Division Ford Disting Wished. V.3 NewYork.
- Harbor 1960 Viutz and solial Psychology of Orguni zution.
– د. إسماعيل عبد الرحيم الحوسني: تنظيم إدارة الأزمات Crisis Management System ط يراعة للنشر والتوزيع – أبي ظبي – الإمارات ط1، 2008
- International EnlycoPedia. London 1990.
- Ronald Collins: A Com Partative A P P roach to political Sociology, Hard May Weber an International Portrait. NewYork Anchor – Book Daub leday 1968.
– تامر كامل الخزرجي: العلاقات السياسية الدولية إستراتيجيات إدارة الزمات، ط دار مجدلاوي – عمان (الأردن) 2005.
– توم أوستن – فيونا السادنت: القيادة سلسلة كتب الجيب – ترجمة عربية – مكتبة جرير، الرياض (السعودية) ط2، 2007.
– رجاء النقاش: كتاب مقالات رجاء النقاش سلسلة كتب مجلة، دبي الثقافية/دبي (رقم 2007/16).
Roy R. Anderson, Robert F. Sabert, Job G.Wagner:
Politics and Change in the Middle East.
Printice Hall – Do Brach Rio – de – Janero.
Fifth ed. 1998.
– د. أحمد إبراهيم أحمد: إدارة الأزمة التعليمية الكتاب العلمي للكمبيوتر، للنشر والتوزيع – الإسكندرية (مصر) (2000 – 2001).
– مادلين أولبرايت: مذكرة إلى الرئيس المنتخب (حوار تلفزيوني)، ترجمة عربية – الدار العربية للعلوم – بيروت، ط1، 2008.
– محسن الخضيري: إدارة الأزمات ط مجموعة النيل العربية، القاهرة، ط1، 2001.
- Gardiner Morse: Delision and Desire in Harvard Business Review. Janwary-2006.
- Mariam Charles: Encyclopedia Britannica vol. 27- 1999 edition.

- د. بشير محمد الخضرا: النمط النبوي - الخليفي في القيادة السياسية العربية، الديمقراطية ط مركز دراسات الوحدة العربية - بيروت، ط1، 2005.
- صدقي إسماعيل: العرب وتجربة المأساة (طبعة حديثة) ط/وزارة الثقافة السورية - دمشق 2003.
- Robert A. Baron: Essential of Psychology. Allen and Bacon. Second edition 1996.
- عبد الرحمن الكوكبي: طبائع الاستبداد، ومصارع الاستعباد ط/ حديثة، منشورات الجمل (ألمانيا) 2006.
- Dictionary of Psychology J.P. Chaplin Secord edition Laurel-Book- NewYork 1985.
- د. إحسان النص: الخطابة العربية في عصرها الذهبي ط دار المعارف بمصر، القاهرة، 1963.
- Political Extremism and Rationality. Cambridge University Notes. Internet Net Work 2007-2008.
د. عبد العزيز الدوري: مقدمة في تاريخ صدر الإسلام ط1 مركز دراسات الوحدة العربية - بيروت ط1/ 2003.
- د. محمد عابد الجابري: العقل السياسي العربي ط/ مركز دراسات الوحدة العربية - بيروت.
ابي رشد التأسيس العلمي العربي للسياسة، جريدة الاتحاد (أبو ظبي 2008/4/29) ط1/ 1990.
- ابن رشد يميناً ويسار - جريدة الاتحاد (أبو ظبي) 2008/5/6.
- ابن خلدون المقدمة: طبعة حديثة - دار الفكر العربي - بيروت/ 2007.
- عبد الكريم الشهرستاني: طبعة حديثة - دار الفكر العربي - بيروت/ 2006.
- السيد محمود القمني: حروب دولة الرسول ط مكتبة مدبولي - القاهرة، 1996.
د. زكي نجيب محمود: المعقول واللامعقول في تراثنا الفكري ط/ دار الشروق - القاهرة، ط4، 1987.

– د. عبد الله بلقزيز: تكوين المجال السياسي الإسلامي – النبوة والسياسة، ط مركز دراسات الوحدة العربية – بيروت ط/ 2005.
– د. فهمي الفهيدي: في موسوعة الإدارة العربية – الإسلامية ط/ المنظمة العربية للتنمية الإدارية – جامعة الدول العربية المجلد الأول/ 2004.
– ابن هشام: السيرة النبوية، طبعة حديثة – دار الكتاب العربي بيروت 2006.
– د. مخلص الصيادي: تطور مفهوم الدولة في المجتمع الإسلامي الأول (أطروحة دكتوراه) ط. دائرة الثقافة والإعلام – الشارقة – الإمارات/ 2002.
- Albert Hourani, History of the Arab Peoples.
- The Belknap. Press of Harvard University 1991.
– د. حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسين والديني والاجتماعي الجزء الأول الدول العربية ط 7 مكتبة النهضة المصرية 1964.
– د. عماد الدين خليل: في التاريخ الإسلامي ط دار ابن كثير – دمشق – بيروت، ط1/ 2005.
– عباس محمود العقادك عبقرية عثمان (مجموعة العبقريات) ط المكتبة العصرية – بيروت 2007.
– عباس محمود العقادك مجموعة العبقريات عبقرية الإمام – مكتبة صيدا – بيروت 2006.
– د. علي محمد الصلابي: سيرة أمير المؤمنين – عثمان ط دار المعرفة – بيروت 2005.
– د. احمد أمين: فجر الإسلام ط1 مكتبة النهضة 1986.
ضحى الإسلام (ثلاثة أجزاء) مكتبة النهضة 1966.
– جلال الدين السيوطي: تاريخ الخلفاء – تحقيق أحمد إبراهيم وسعيد أحمد العيدوسي ط/دار الكتاب العربي – بيروت 2000.
– الإمام علي ابن أبي طالب: نهج البلاغة – شرح الإمام محمد عبده طبعة حديثة – دار الكتاب العربي – بيروت/ 2005.
– أندريه ميكيل: الإسلام، وحضارته – ترجمة د. زينب عبد العزيز – دار المكتبة العصرية – بيروت، 1981.

– شفيق جبري: العناصر النفسية في سياسة العرب – سلسلة اقرأ دار المعارف بمصر 1945.
– الموسوعة الفلسفية العربية: بيروت، معهد الإنماء العربي.
– د. كمال عبد اللطيف: في تشريح أصول الاستبداد ط دار الطليعة بيروت 1999.
– د. شوقي ضيف: العصر الإسلامي الطبعة التاسعة عشر ط/ دار المعارف بمصر.
العصر العباسي الأول ط دار المعارف بمصر.
العصر العباسي الثاني ط دار المعارف بمصر.
– سيديو: تاريخ العرب العام – تردمة عادل زعيتر ط البابي الحلبي – القاهرة 1969.
– أبو الفرج الأصفهاني: مقاتل الطالبيين.
– آدم ميتز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة عبد الهادي أبو ريدة ط/ مكتبة النهضة المصرية 1940.
- The Consise Encyclopedia of Islam, Stavey International London Second Edition, J. Burlot: la Girilisation islamique Hachette Paris 1982/
– د. نزار عيون السود: نشوء تطور الفكر النفسي الاجتماعي عند العرب، اتحاد الكتاب العرب – دمشق ط1/ 1997.
– د. عبد الرحمن بدوي: الإنسان الكامل في الإسلام دار القلم – القاهرة– 1980.
– نبيل هلال نبيل: الاستبداد.
– د. إمام عبد الفتاح إمام: الطاغية – سلسلة عالم المعرفة رقم 183، الكويت 1994.
- G. Anawati: Etudes de Philosophie Musnlmane Ed. J. vrin 1974 Paris.
- H. Corbin: Histoire dl Philosophie islumiyne.
- Coll I dees Galliard 1964.
Ahmad Husain Islamic silences E. Good Book V.K.2002.
– ماريا لويزا برتيري: المدينة الفاضلة عبر التاريخ، ترجمة د. عطيات أبو السعود، مراجعة د. عبد الغفار مكاوي سلسلة عالم المعرفة – الكويت رقم 222، 1997.
– ابن سينا: كتاب السياسية، تقديم مضبط وتعليق على محمد أسير، ط/ دار بدايات

للطباعة والنشر جبلة (سورية)، 2007.
– د. طيب التيزييني، د. عبد الرحمن بوقاف: الأسس العقلية للسياسة، تغطية ندوة حول الكتاب، جريدة الاتحاد (الثقافي) 2008/9/18.
– د. فهيمي جدعان: أسس التقدم عند مفكري الإسلام ط. دار الشروق للنشر، والتوزيع – عمان (الأردن)، 1981.
– ابو الحسن الماوردي: أدب الدنيا والدين ط حديثة، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت 2005.
– الأحكام السلطانية: دار الفكر دمشق 1997، د. رضوان السيد.
– أدورنو – ت.و.: الشخصية المتسلطة.
– ابن تيمية: السياسة الشرعية (في صلاح الراعي والرعية تحقيق على سامي النشار – وأحمد زكي عطية، مكتبة الرياض (السعودية) بلا تاريخ.
موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول، الفكر، دمشق 1985 (جزآن).
– أحمد أبو زهرة: الإمام أحمد بن حنبل دار الفكر – القاهرة 1966.
– حنا الفاخوري خليل الحر: تاريخ الفلسفة العربية ط دار الفكر – لبنان 1963.
– د. عادل العوا: المذاهب الخلاقية (اليونان) مطبعة جامعة دمشق 1961 – 1962.
– محمد خالد: جريدة الخليج – صفحة رأي ودراسات 2008/2/20.
– الطيب بو عزة: جريدة الخليج 2007/6/30.
في تجديد سؤال النهضة قناة الجزيرة 2007/3/30.
– طارق البشري: العرب في مواجهة العدوان ط دار الشروق – القاهرة، 2003.
– إدوارد سعيد: الاستشراق.
الإمبريالية الثقافية.
– B.B.C: وثائق هيئة الإذاعة البريطانية/ عن شبكة الإنترنيت 2006/7/17، عن الملف اللبناني 2008/7/7.
– د. برهان غليون: المعارضة السياسية – جريدة الاتحاد (أبو ظبي) 2008/5/11.
– مجموعة من الباحثين العرب في: كيف يصنع القرار في الوطن العربي – ط مركز دراسات الوحدة العربية، (الدكتور السيد سليم)، بيروت 1985.
– د. أحمد سيد أحمد: الغام على طريق الوحدة – جريدة الخليج 2008/2/16.

– الصراعات العربية العربية (1945 – 1981) مركز دراسات الوحدة العربية – بيروت، 1996.
– مجموعة من الباحثين: حال المة العربية (2006 – 2008) مركز دراسات الوحدة العربية بيروت 2008.
– مجموعة إدارة الأزمات الدولية – (بروكسيل) L.C.G 2007/11/19.
– أدوار دي بونو: صراعات ترجمة فاطمة السنوسي – منشورات المجمع الثقافي – أبو ظبي – ط1، 1997.
– ماكس إيه، ايجري ووندي فالون: تسوية الصراعات – ترجمة عربية – مكتبة جرير – الرياض – السعودية 2006.
- A. G. Grayling. The reason of Thinge Living with philosophy, ed. A phoenix Parper Pack. V.k. 2002.
- Wiki pedia. The Free Engclopedia on: Internat Network Ethics and Foreign policy. University press Margot light Cambridge 2001.
– الترجمة العربية لهذا الكتاب: الأخلاق في السياسة الأمريكية الخارجية، ط1، مكتبة العبيكان – الرياض – السعودية – 2005.
– جورج الطرابيشي: حجم الفلاسفة – دار الطليعة – بيروت – ط1/ 1987.
– علي حرب: تؤاطؤ الأضداد – الدار العربية للعوم – بيروت – ط2008/1.
محمد أبو الفضل إبراهيم: أيام العرب في الجاهلية – مكتبة صيدا – بيروت – 2005، علي محمد البيجاوي.
– د. جاسم محمد سلطان: التفكير الاستراتيجي والخروج من المأزق، ط أم القرى – المنصورة (مصر) 2005.
- James A. Schulenburg: The Science of Con Filet Oxford University Press 1982.
- Black Well Dictionary of So Biology Allan G. Johnson Blackwell Publishing, Second Ed, 2003.

- شارلس دارون: أصول الأنواع - ترجمة إسماعيل مظهر - القاهرة - ستينات القرن الماضي (جزآن):

Konrad Lorenz: L'Ayression Flamanarion Paris 1962.

Evolution et modification du. Comportment.

Coll Point 1962.

- د. فاخر عاقل: علم النفس ط. دار العلم للملايين - بيروت 1965.
- د. عزت راجح: أصول علم النفس - دار النهضة - مصر 1963.

Joyce L. Hocker, William W.Wilmot inter personal, Con flict w.c. BB. Werd Benth mark, Fourth Ed. V.S.A. 1995.

- د. أنمار لطيف نصيف جاسم: القائد وإدارة الصراع، المكتبة الثقافية - بيروت ط1/ 2000.

Walter Isard: Under standing con flict and the Slience of Peace Blockwell Cambridge M.A. Oxford U.K. 1992.

- د. مجدي حماد: إسرائيل وإفريقيا - دراسة في إدارة الصراع الدولي، ط دار المستقبل العربي - بيروت - مصر الجديدة 1986.
- د. المهدي المنجرة: الحرب الحضارية الأولى محاضرة (جريدة الخليج) 2002/7/15.
- بسام العسلي: الصديق القائد - دار النفائس - بيروت - 1986.

الفاروق عمر بن الخطاب بيروت 1986.

ذو النورين - بيروت 1985.

- د. عبد الجبار الجومرد: هارون الرشيد، حقائق عن عهده شراكة المطبوعات للنشر والتوزيع، بيروت، ط3.
- د. ثريا الفاروقي: الدولة العثمانية والعالم المحيط - دار المدار الإسلامي - بيروت 2008.
- د. عبد العزيز رمضان: الظاهرة الاستعمارية - ومواجهته في العالم العربي في (دراسات في التاريخ الحديث المعاصر) تحرير د. لطيفة محمد سالم - المجلس الأعلى للثقالة - القاهرة 2003.
- د. عدنان السيد حسين: في النزاعات الأهلية العربية - مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ط1، 2001.

فهرس المحتويات

